

للدكتور جميل عبد الله المصري
الاستاذ المشارك بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

(هذا الكتاب فى الأصل رسالة دكتوراه تقدم بها الباحث إلى قسم التاريخ بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ونال بها درجة الدكتوراه (العالمية) بمرتبة الشرف الأولى عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) .

مكتبة الدار بالمدينة المنورة


أثر أهل الكتاب
في الفتن والحروب الأهلية
في القرن الأول الهجري

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ = ١٩٨٩ م

مكتبة الدار بالمدينة المنورة
شارع الستين . أمام مسجد الإجابة
ص . ب (٢٥٠٦٩) هاتف (٨٣٨٣٠٩٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

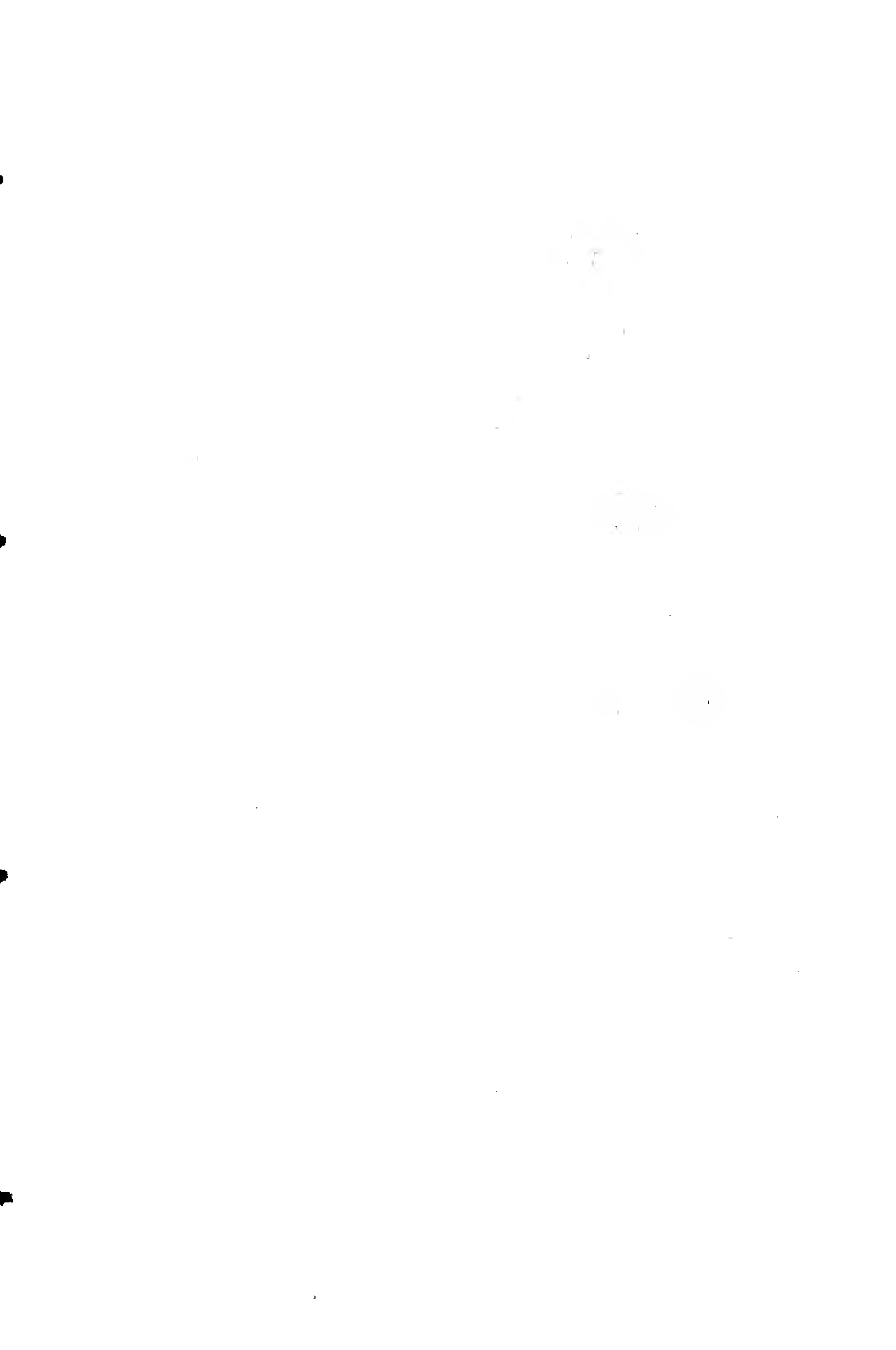
والصراط : الطريق الواضح المستقيم الذي لا عوج فيه . والمراد به : الدين الذي أنزله الله على رسوله ﷺ – الإسلام – .

والمغضوب عليهم : هم اليهود . ومن هم على طريقتهم حيث فقدوا العمل بعلمهم .

والضالون : هم النصارى . ومن هم على طريقتهم حيث فقدوا العلم . فعملوا دون علم .

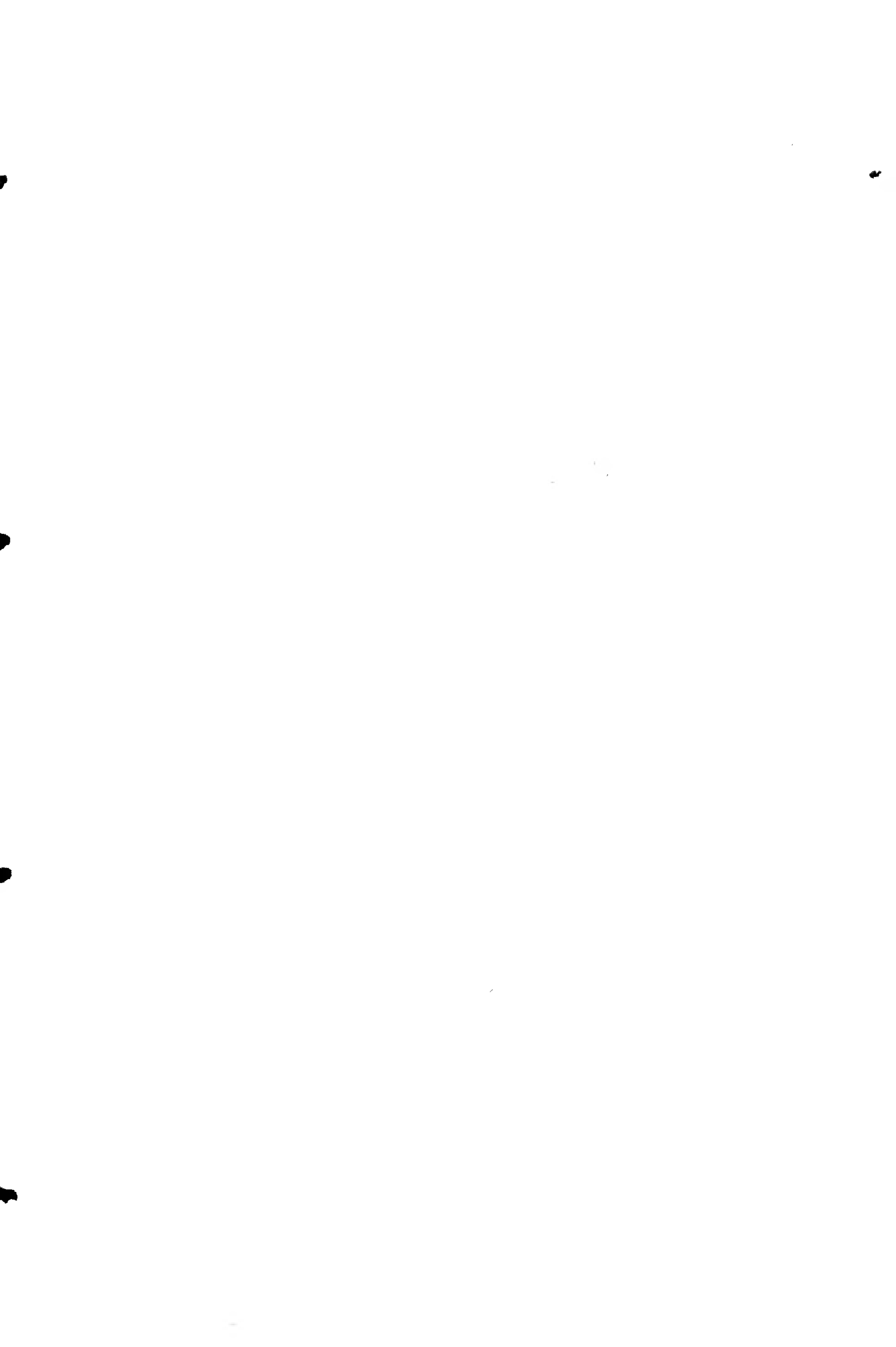
وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه فسر : المغضوب عليهم هم اليهود . وأن الضالين هم النصارى . وقال ابن أبي حاتم « لا أعلم في ذلك اختلافا بين المفسرين » .

[الاتقان في علوم القرآن للسيوطى ج ٢ ص ١٩٠]



الإهـــــداء

إلى من أمدتنى بفيض من حنانها وعطائها
ودعائها فى أثناء مسيرتى الطويلة
إلى والدتى :
أهدى هذا البحث وفاء لها
واعترافا بما قدمته لى ولا تزال .
وإلى والدي اعترافًا
بدوره ، وتقديرًا لفضله .



شكر وتقدير

لا يفوتنى أن أذكر فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد الطيب النجار فى معرض كتابى هذا : فقد تواردت علىّ إرشادات فضيلته فى أثناء مسيرتى الطويلة التى استغرقت أربعة أعوام . وتوالت علىّ كلماته المشجعة التى منحتنى دفعات نحو الأمام . وقد احتمل العبء الكبير واطلع على كل صغيرة وكبيرة كتبتها ، وكانت تعليقات فضيلته موضع اهتمامى ، وكم فتحت أمامى من مجال كان مغلقا ، وكم ردت إلىّ نشاطى بعد كد عظيم . كل ذلك مكننى من تجشم الصعاب فعملت جهدى ، وإرشادات فضيلته رفيقة دربى ، وتشجيعه يستحثّنى للعمل حتى وصلت إلى نهاية البحث الذى أرجو أن يكون بداية للتوسع فى بعض نقاطه الغامضة لاستجلائها وكشف غموضها بما يتيسر من مراجع ومصادر وكشوف فى المستقبل إن شاء الله .

ولا أملك أمام فضائل أستاذى الدكتور / محمد الطيب النجار إلا أن أسدى إليه الشكر الجزيل . حفظ الله فضيلته والداً عطوفا وأستاذاً قديراً ، وجزاه الله عنى خير الجزاء .

ولا يفوتنى أيضا أن أوجه الشكر لأصحاب الفضيلة الذين شاركوا فى مناقشة البحث وزودونى بآرائهم القيمة التى راعيتها عندما أعدت كتابة البحث تمهيدا لطباعته ونشره وهم السادة :

١ - فضيلة الأستاذ الدكتور / عبد المقصود نصار .

٢ - فضيلة الأستاذ الدكتور / يوسف على يوسف .

٣ - فضيلة الأستاذ الدكتور / على حسنى الخربوطلى .

المقدمـــة

الأفكار الناتجة عن العقيدة هى أساس الحقائق التاريخية ، القائمة على الحركة المستمرة التى لا تتوقف ، ومهما قيل فى أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية فى تسيير حركة التاريخ فإن الواقع يثبت أن هذه العوامل تبقى مشلولة أمام إثارة تفكير الناس حول دوافع هذه الحركات وعوامل سيرها والجهة التى سارتها . وقد اهتم القرآن الكريم بفكر الإنسان وأوضح أن هذا الفكر لابد له من وقائع ومن معلومات سابقة ووقائع يبنى عليها وينتج منها ، فمن ناحية العقل دلل القرآن كثيرا على أهميته وذكره فى كثير من آياته البينات : كقوله تعالى :﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [(١)] .

وعن المعلومات السابقة بيّن القرآن أثرها فى فكر الإنسان منذ خلق الله آدم أبا البشر : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [(٢)] وعن الوقائع قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ، [(٣)] ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ [(٤)] .

وكان تخرج العلماء المسلمين فى أسلوبهم قرآنيا فى مختلف المجالات ، خذ القصة فى أسلوب القرآن الكريم ، إنه يعرضها من جوانب مختلفة تتراءى لغير المتثبت أنها متناقضة أحيانا ، وهى فى واقعها تعطي الصورة الواضحة المتكاملة إذا دقق فيها من جميع وجوهها .

وتاريخنا دراية أولا ثم رواية ثانيا ، تماما كالحديث الشريف ، وبعض القواعد التى أقرها علماء التاريخ الحديث وضعها الأئمة منذ قرون عديدة للتوصل إلى الحقيقة فى الحديث . فانتهج معظم مؤرخينا أسلوب المحدثين ورواياتهم التاريخية فى معظمها إن لم تكن كلها روايات صحيحة ، تعطى كل رواية وجهة نظر معينة لزاوية معينة من الحقيقة التاريخية (أو من الصورة

---

(١) الرعد : الآية ٤ .
(٢) البقرة : الآية ٣١ .
(٣) الذاريات : الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
(٤) يوسف : الآية ١٠٩ .

التاريخية الكاملة) ، فإذا وجدت هذه الروايات الباحث الناقد استخلص من بين ثناياها الصورة المتكاملة الجيدة الحقيقية .

ومن هنا فالمتصدى لدراسة التاريخ الإسلامى لابد له من التزود بالقرآن الكريم وبثقافته الواسعة ونظرته الشاملة للإنسان والكون والحياة ، وما قبل الحياة وما بعدها ، وأى باحث ابتعد عن هذه الثقافة لا يتمكن من إعطاء الصورة الحقيقية للتاريخ الإسلامى وخاصة صورة القرن الأول الهجرى قرن الجيل القرآنى الصحيح .

فالحوادث التى ظهرت عنيفة مضطربة خلال هذا القرن لا تعطى الباحث الصورة الحقيقية للمجتمع الإسلامى إذا تناول أيا منها على انفراد ذلك المجتمع الذى كان يسير بخطى حثيثة متقدمة نحو الاستقرار الفكرى والسياسى والاجتماعى بعد ثورة الإسلام الفكرية التى قلبت أوضاع العالم آنذاك . وقام كل ذلك على أكتاف جماعة أدركوا القرآن الكريم وتحملوا العبء الكبير فى الدعوة ، ذكر المؤرخون كثيرا من أسمائهم وأعمالهم وبطولاتهم بحيث لم تمر فترة من فترات التاريخ الإنسانى زخرت بأسماء وبطولات وأعمال كتلك الفترة ، الأمر الذى أدخل الروع والاضطراب والحسد فى قلوب القوى المناهضة للإسلام فاندفعت تحاول جاهدة فى صراعها للبقاء ، مستغلة العقل والمنطق فى تبرير انحرافها ، واستعانت بالثقافات المختلفة والفلسفات الكثيرة للتسلل إلى المسلمين وتسريب أفكارهم المسمومة وعقائدهم المحرفة عن طريق الإسلام نفسه .

ومن هنا كان القرن الأول الهجرى مسرحا عظيما لفتن وحروب أهلية خطيرة لا يدرك محركها إلا من تمعّن وتمحّص وحقّق .

فكانت خطوتى الأولى الشاقة نحو هذا البحث هى أننى أخذت بدراسة ذلك القرن من مختلف وجوهه وبدون تحديد ، حتى تكونت لدى صورة تكاد تكون واضحة عن التيارات الفكرية لأهل ذلك القرن على مختلف أفكارهم ونحلهم .

ومن الحق أن أذكر أن صلتى الشخصية بهذا الموضوع ترجع إلى الفترات الأولى من عمرى عندما بدأت أتساءل عن سبب نكبة العرب فى فلسطين التى حدثت ولما أتجاوز الخامسة من عمرى حيث الألم والحزن والغربة قد سرت فى جسمى منذ الصغر ، وعندما بدأت دراستى الابتدائية فى المدارس التبشيرية النصرانية – فالنكبة والغربة والتعلم الابتدائى فى أوساط النصارى – وأنظمتهم كل ذلك ولد فى نفسى الرغبة لأن أتتبع أثر هؤلاء فى الإسلام ، وخاصة عندما تعمقت فى دراسة القضية الفلسطينية وأدركت كيف استطاعت القوى الاستعمارية والصهيونية إخراجها من إطارها الصحيح الإسلامى إلى الإطار القومى العربى ، ثم الخروج بها إلى الإطار الإقليمى الضيق الواهن .

ومهمة البحث فى أثر أهل الكتاب ليست بالسهلة ولا باليسيرة بالنظر لطول الفترة فهو ينتظم قرنا من الزمان وتمتد جذوره إلى ما قبل الإسلام بقرون ثم إلى ما بعد القرن الأول بثلث قرن تقريبا ، هذا أولا .

وثانيا : بالنظر لقلة ما وصلنا من كتب ومعلومات عن هذا الموضوع باستثناء عصر النبوة . وبالإضافة لذلك فإن هذا الموضوع شائق وشائك ، شائق من حيث أنه يحوى كثيرا من العناصر المثيرة لاهتمام الباحثين ، وشائك من حيث أنه يمس أموراً فائقة الحساسية ويفرض على الباحث نوعا من الصراحة الموضوعية الخالصة وهذه وإن كانت مطلوبة فى كل الأحوال ، إلا أنها فى بحث موضوعه « اليهود والنصارى » تعتبر ضربا من الفروض القاسية والقيود الشديدة التى يفرضها الباحث على نفسه ، فضلا عن التنبه واليقظة لكل كلمة حتى لا يقع الباحث فى منزلق الانسياق وراء هوى الذات .

فتطلب منى هذا البحث مشقة عنيفة وحملنى أعباء مضنية ومتاعب مرهقة ، واقتضانى سياحة طويلة فى كتب التاريخ والأدب والفقه والتفسير والحديث وتراجم الرجال لتلقط المعلومات المبعثرة فى ثناياها وتتبّعها والذى زاد الأمر صعوبة أن هذه الكتب فى معظمها غير مفهرسة ولم تكتمل فيها الدراسة فاحتاج الأمر إلى كثير من الصبر والأناة فكان يتحتم علىّ أن أقرأ

الكتاب من أوله إلى آخره لكى أظفر بسطر أو سطرين وقد أقرأ كتاباً بأجمعه فلا أخرج منه بشيء يتعلق بالموضوع الذى أعالجه – ككتاب أخبار الزمان للمسعودى – وفى معظم الأحيان أجده يكرر المعلومات التى اطلعت عليها نفسها ، كما حدث فى مخطوطة المقفى للمقريزى ، ومخطوطة عقد الجمان ، وكتب الذهبى والأنساب الكثيرة وتراجم الرجال المختلفة .

ولا يعنى هذا الاستهانة بمصادرنا فهى فى غاية الأهمية إن أحسنا استثمارها واستقطارها لأنها لا تفصل بين فروع الثقافة فى زمن لم يعرف التخصص ، فهى قابلة لأن تزودنا بالمعلومات الأولية لكل ما نريد بحثه . ومن هنا أيضا جاءت قائمة المراجع والمصادر كثيرة ومتنوعة ، كنت أتجول خلالها علّي أجد جديدا بعد أن كان جل اعتمادى أولا على القرآن الكريم وكتب السيرة والطبقات ثم على الطبرى والبلاذرى وابن حزم . وبعد أن استوعبت هذه المصادر جيدا بدأت فى السياحة بين الكتب الأخرى التى شملت كتب التاريخ والأدب والفرق والتفسير والحديث والعهد القديم والجديد . ثم اطلعت على ما استطعت الحصول عليه مما يختص بموضوعى من كتب حديثة ومترجمة إلى العربية والإنجليزية ، فلم يفتنى بذلك الاطلاع على ما كتبه المستشرقون حول هذا الموضوع .

كل ذلك أخذ منى جهدا كبيرا زاده شدة وجودى فى بلدة بعيدة عن المكتبات العامة مما اضطرنى للسفر مرارا عديدة وحملنى الكثير الكثير مما لا يخفى على الباحثين فى أى مجال من مجالات العلم . ولما رأيت قائمة المراجع والمصادر كثيرة أسقطت منها كثيرا ، دون أن أغفل ذكرها فى حواشى الصفحات .

وقد قسمت كتابى إلى أربعة أبواب ، مهدت لها بفكرة عن مفهوم أهل الكتاب كمصطلح إسلامى وعن وجودهم فى جزيرة العرب قبل الإسلام .

وتحدثت فى الباب الأول عن « أهل الكتاب وحكومة الرسول فى المدينة المنورة » تتبعت فيه أثرهم منذ ظهور الدعوة الإسلامية فى مكة إلى وفاته عليه الصلاة والسلام .

وفى الباب الثانى : تحدثت عن : « أهل الكتاب وعهد الخلفاء الراشدين » - وقسمته إلى فصلين - أبرزت فيها أثر أهل الكتاب فى تعاونهم مع أعداء الدولة الإسلامية فى الخارج وفى إثارة الفتن فى الداخل .

وفى الباب الثالث تناولت : « أثر أهل الكتاب فى نشوء الفرق الإسلامية وقسمته إلى ثلاثة فصول بيّنت فى الفصل الأول التيارات والمدارس الفكرية لأهل الكتاب التى سبقت الإسلام وواجهت المد الإسلامى . وتناولت فى الفصلين الثانى والثالث أثرهم فى نشوء فرقتى الشيعة والخوارج وتطورهما ، وقد احتاج هذا الباب إلى جهد أكبر من غيره لتغلغل جذوره فى الماضى وتوزعه بين مختلف أنواع المعرفة بما فيها الفلسفة والتصوف والطب والفقه والعلوم الأخرى .

وأما الباب الرابع : فقد قسمته إلى فصلين :

بينت فى الفصل الأول : أثر أهل الكتاب فى البناء الاجتماعى للدولة الأموية ، وأبرزت أثرهم فى إذكاء العصبية القبلية واستثارتها من مكامنها عند العرب ، كما بينت إسهامهم فى إرهاصات الشعوبية مستغلين حداثة إسلام الموالى ، وتراثهم الفكرى القديم ، وقلة معرفة الكثير منهم بالعربية وأساليبها فتوصلوا إلى أهدافهم مستخدمين أسلحة العلم - وبخاصة الطب - والغناء والشعر الذى كان ذا مكانة خاصة فى نفس العربى وفى إثارته وهو وسيلة الإعلام القوية آنذاك .

وتحدثت فى الفصل الثانى عن :

دور أهل الكتاب فى الفتن التى قوضت الدولة الأموية وتوصلت إلى ثلاثة أمور اعتبرتها حقائق :

أولها : أن أثر أهل الكتاب لا يمكن نكرانه فى هذه الفتن .

وثانيها : أن أثرهم فى تقويض الدولة الإسلامية الأموية لا شك فيه .

وثالثها : أن الأحداث التى وقعت بساحة الدولة الإسلامية لعب فيها

أهل الكتاب مع غيرهم من العناصر الثنويّة – المانوية والزردشتية – دورا كبيرا بالتسلل إلى مختلف الأحزاب السياسية العربية مستغلين التناقضات بينها ليزيدوها حدة وخطورة على كيان المجتمع الإسلامى .

وبعد ، فإننى أرجو أن أكون قد صورت أهل الكتاب تصويرا يطابق الواقع فى القرن الأول الهجرى ، والكمال لله وحده ، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يلهمنا به العبرة والموعظة الحسنة فندرك أخطاء الماضين ونتجنبها ونتمسك بحسناتهم معتصمين بحبل الإسلام المتين مستظلين بلوائه .

عمان فى ٨ / ٧ / ١٩٧٨ م

٤ شعبان سنة ١٣٩٨ هـ

تمهيـــــد

أولا : مفهوم أهل الكتاب :

للإسلام مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة التى لا يشاركه فيها غيره فى مختلف المجالات الدينية والإدارية والاقتصادية والسياسية والحربية . الأمر الذى أفاد اللغة العربية وأغناها . وأهل الكتاب أحد هذه المفاهيم التى اختص بها الإسلام وردت فى مواضع عدة من القرآن الكريم قصد بها اليهود والنصارى [١] .

وعندما يتحدث الإسلام عن الكتاب لليهود فإنه يقصد التوراة وهى الأسفار الخمسة (التكوين ، الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية) ، وعندما يتحدث عن الكتاب للنصارى فإنه يشمل التوراة والإنجيل ، والإنجيل لفظة يونانية Euongelfom بمعنى البشارة عربت على صيغة عربية فصحى قبل نزول القرآن [٢] الكريم .

وقد وردت كلمة الكتاب فى السور المكية والمدنية بمعنى التوراة والإنجيل والقرآن الكريم والآية الكريمة :

﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ [٣] تشمل هذه المعانى . ويريد بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى [٤] .

وفى قوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ [٥] الأحزاب هم اليهود ، والنصارى الذين آتيناهم

---

(١) Ency p / 1021

(٢) دروزة / عصر النبى وبيئته ص ٧٨٤ .

(٣) الأنعام الآية ١١٤ .

(٤) القرطبى ج ٧ ص ٧٠ .

(٥) الرعد الآية ٣٦ .

الكتاب [١] وفى قوله سبحانه : ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ الكتاب التوراة [٢] .

وكذلك فى قوله سبحانه : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ﴾ [٣] أعلن أنه كان فيهم التوراة .

وعندما تحدث سبحانه عن اليهود والنصارى أنهم تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم لاختلاف من سبقهم ، عبر عنهم بالذين أورثوا الكتاب فى قوله جل وعلا : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ﴾ [٤] .

وأعلن الإسلام تسمية اليهود والنصارى « أهل الكتاب » صراحة فى عهده بمكة . فقال سبحانه :

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون * وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ [٥] .

وفى الآية إشارة إلى أن أهل الكتاب اصطدموا بالإسلام من أول ظهوره وإن منهم من كان متميزاً فى ثقافته ومعارفه الدينية بحيث كان أهلا للرجوع إليه واستشهاده فى أمر رسالة النبى ﷺ وصحة وحى الله وإن هذا الفريق لم يكن

---

(١) ابن كثير / التفسير ج ٢ ص ٥١٨ .

(٢) الرعد الآية ٤٣ يقال أنها نزلت فى عبد الله بن سلام الذى أسلم فى مكة قبل الهجرة وكتم إيمانه . (ابن كثير ج ٢ ص ٥٢٢) .

(٣) الجاثية الآية ١٦ .

(٤) الشورى الآية ١٤ / فى ظلال القرآن ج ٢٥ ص ٢٤ .

(٥) العنكبوت الآيتان ٤٦ ، ٤٧ .

نكرة بل كان موضع اعتماد وثقة أهل مكة والعرب ومرجع استفتاءاتهم فى الأمور والمعارف الدينية والدنيوية (١) .

وفى المدينة عبر الإسلام عن أهل الكتاب بأنهم اليهود والنّصارى ، كما وضح أن الكتاب السابق للقرآن هو التوراة والإنجيل .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ (٢) فعنى بالكتاب التوراة وإن كل رسول جاء بعد موسى عليه السلام فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها إلى عيسى عليه السلام (٣) .

كما عنى بالكتاب – التوراة والإنجيل والقرآن فى الآية الكريمة –:

﴿ وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ (٤) .

والمعنى أنهم يحرفون الكلم ويعدلون به عن القصد (٥) ضمانا لمصالحهم ، وخاطب سبحانه وتعالى اليهود منفردين بقوله :

﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل ﴾ (٦) وفى قوله أيضا :

﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم ﴾ (٧) .

---

(١) دروزة – عصر النبى وبيئته ص ١٦٥ .
(٢) البقرة الآية ٨٧ .
(٣) القرطبى – الجامع ج ٢ ص ٢٣ .
(٤) آل عمران الآية ٧٨ .
(٥) القرطبى – الجامع ج ٤ ص ١٢١ .
(٦) النساء الآية ١٥٣ .
(٧) الحشر الآية ٢ .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ (١) .

وجاء قوله سبحانه :

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ (٢) .

وقال سبحانه أيضا :

﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (٣) .

وقال تعالى :

﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم ﴾ (٤) .

وقال أيضاً :

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (٥) .

وقد فسر ابن كثير قوله تعالى : ﴿ الذين ظلموا ﴾ بأنهم أهل الحرب ، ومن امتنع عن أداء الجزية (٦) .

---

(١) البقرة الآية ٢٥٦ .
(٢) الشورى الآية ١٥ .
(٣) آل عمران الآية ٢٠ .
(٤) البقرة الآية ١٣٧ .
(٥) العنكبوت الآية ٤٦ .
(٦) تفسير القرآن ج ٣ ص ٤١٥ .

يتبين من نصوص القرآن الكريم المصدر الأول للتشريع فى الإسلام ، موقف الإسلام الصريح المحدد بشكل قاطع فيما يتعلق بالدعوة إلى الإسلام سواء كانت هذه الدعوة موجهة إلى الناس كافة أو إلى أهل الكتاب بشكل خاص ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ والمؤمنين أن تكون الدعوة طيبة تخاطب الناس فى رفق لمحاولة إقناعهم لا إكراه فيها ولا تهديد وأن يكون حوارهم مع أهل الكتاب هادئاً ولا يجادلونهم إلا بالتى هى أحسن فإن آمنوا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فالأمر لله سبحانه وتعالى وهو بصير بالعباد . فقال تعالى مخاطبا إياهم :

﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [(١)] .

وخاطب سبحانه اليهود والنصارى برفق مذكراً وداعياً لاتباع الرسول والسير على النهج القويم فقال جل وعلا :

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ﴾ [(٢)] .

وعاتبهم برقة محذرا وواعظاً :

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ [(٣)] .

ذلك لأنهم أظهروا الغيظ والحنق من نبوة محمد ﷺ وسعوا السعى المتواصل للفساد فنبه المسلمين إلى صفاتهم فى نقض العهود والغدر وما يضمرونه لهم من بغضاء وسوء نية [(٤)] فقال سبحانه :

---

(١) آل عمران الآية ٦٤ .
(٢) النساء الآية ١٧١ .
(٣) آل عمران الآيتان ٧٠ ، ٧١ .
(٤) القرطبى – تفسير – ج ٢ ص ٧٣ .

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾ [١] .

ولمّا كانوا يحاولون صدّ من آمن برسول الله ﷺ أنزل سبحانه :

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ﴾[٢] .

كما بين سبحانه لجاج اليهود وحجاجهم ومكابرتهم فقال جل وعلا : ﴿ ولئن أُتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ [٣] .

ودعاهم للإيمان بالإسلام مجتمعين فى قوله سبحانه :

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ [٤] .

أى يبين لهم كثيرا ممّا بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروه على الله ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة فى بيانه [٥] .

وأشار سبحانه إلى تحالف من كفر منهم بالإسلام مع المنافقين فقرر القرابة بينهم إلى درجة الأخوة بقوله :

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم ﴾ [٦] .

كما وضح سبحانه أن الكفار منهم والمشركين سواء بسواء فى الوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية بقوله :

---

(١) البقرة الآية ١٠٩ .
(٢) آل عمران الآية ٩٩ – القرطبى – تفسير – ج ٢ ص ١٥٥ .
(٣) البقرة الآية ١٤٥ .
(٤) المائدة الآية ١٥ .
(٥) ابن كثير – تفسير – ج ٢ ص ٣٤ .
(٦) دروزة – عصر النبى وبيئته ص ١٨٥ والآية ١١ من سورة الحشر .

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [١] ومن هنا جاءت دعوة الإسلام لمقاومتهم وقتالهم كالمشركين – فقال سبحانه مخاطبا المسلمين –:

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[٢] .

ولكنه خصهم بالذكر وميزهم عن المشركين فى بعض المعاملة فأباح طعامهم وشرابهم للمسلمين كما أباح المحصنات من أهل الكتاب فقال سبحانه :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [٣] .

وأما المجوس [٤] وهم الذين تأثروا بأهل الكتاب واحتوت عقائدهم على كثير من أفكارهم كمذهب مانى المتنصّر والمتأثر باليهودية [٥] .

فقد ألحقهم الإسلام بأهل الكتاب من ناحية الجزية لقوله عليه الصلاة والسلام :

« سنوا بهم سنة أهل الكتاب » [٦] ، كما كتب لملك البحرين لما استجاب

---

(١) البقرة الآية ١٠٥ .
(٢) التوبة الآية ٢٩ .
(٣) المائدة الآية ٥ .
(٤) انظر البيرونى – تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ص ٢٢ .
(٥) انظر ص ٣٠٨ من هذا البحث .
(٦) القرطبى ج ٨ ص ١١١ .

للدعوة الإسلامية : « ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » ، وكتب إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام فإن أبوا أخذت منهم الجزية وبأن لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم [١] فاتفق الفقهاء تبعا لذلك على أن المجوس ليسوا أهل كتاب [٢] كذلك ألحق السامرة والصابئة بأهل الكتاب فى المعاملة كأهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى فى أصل عقيدتهم .

ثانيا : أهل الكتاب عند ظهور الإسلام :

اليهود :

أطلق الإسلام هذا الاسم على اليهود واسما آخر هو بنى إسرائيل [٣] فى حين أطلقوا على أنفسهم اسما آخر هو اسم : (العبرانيين) الذى كان يطلق على طائفة كبيرة من القبائل فى شمال شبه الجزيرة العربية وفى بادية الشام فى نحو الألف الثانية ق . م وفيما قبل ذلك . وكانت العبرية آنذاك لغة أهل فلسطين الكنعانيين وغيرهم من الأقوام العربية فى المنطقة ، ولما حاول اليهود ربط أنفسهم بالعبرية كانوا يقولون عنها : إنها لغة كنعان [٤] ثم انطوت العبرية الكنعانية فى الآرامية التى غلبت على القبائل جميعا بين فلسطين وسوريا والعراق فأصبحت كلمة عبرى تشمل جميع الآراميين وكلهم عرب نزحوا من موطنهم الأصلى فى جزيرة العرب قبل أن يكون لليهود وجود [٥] .

وقد أطلقت توراة اليهود المحرفة كلمة عبرى على إبراهيم أبى الأنبياء [٦]

---

(١) ابن سعد – الطبقات – ج ١ ق ٢ ص ١٩ .
(٢) القرطبى – تفسير – ج ٨ ص ١١١ .
(٣) انظر ENCY 1020 - 1022 .
(٤) سفر أشعياء ١٤ : ١٨ .
(٥) أحمد سوسة – العرب واليهود فى التاريخ ص ٢٤٣ .
(٦) سفر التكوين ١٤ ص ٢١ .

الذى ليس بينه وبين اليهودية أى ارتباط بنص القرآن القاطع : ﴿ ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ [١] ، ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ [٢] .

وأما (بنو اسرائيل) فأطلقت على أبناء يعقوب بن إسحق - أبو الأسباط - التى تألف منها ذلك الشعب فكون أبناء يعقوب الاثنا عشر جميعا بنى اسرائيل .

وأما مصطلح يهود : فقد اعتقد البعض أنهم سموا بذلك نسبة إلى يهوذا [٣] رابع أولاد يعقوب ، وكان يعقوب على زعمهم قد قدم يهوذا على سائر إخوته فأصبح سيدهم وتولى أمرهم فلم يذعنوا له جميعهم فأطلقت لفظة يهوذا على أولئك الذين رضوا بأن يكونوا تحت لوائه من أبناء أبيهم يعقوب [٤] ، وهذا لا يتفق مع الحقائق التاريخية فإن تسمية يهود ظهرت بعد وجود مملكة يهوذا التى اشتق منها اسم يهود ، فتسمية يهود نسبت إلى مملكة ومنطقة يهوذا (٩٣١ - ٥٨٦ ق . م) فهى تسمية متأخرة لا صلة لها بيهوذا ويعقوب اللذين عاشا فى القرن السابع عشر ق . م .

فهى فى حقيقتها تدل على اسم رعايا دولة يهوذا فى عهد الاحتلال الفارسى . ثم أطلقت بعد ذلك بقرون على كل من يعتنق اليهودية . ويذكر ليلنتال الكاتب اليهودى الأمريكى فى كتابه What Price Israel أن كلمة اليهودية لم تستعمل قبل ظهور المسيحية وكانت تحل محلها كلمة العبريين أو الإسرائيليين ، وأن الناس الذين اعتنقوا الديانة اليهودية كانوا مختلطين بغيرهم من الأجناس الأخرى [٥] .

فلفظة يهود أعم من بنى إسرائيل لأن كثيرا من أجناس العرب والروم

---

(١) آل عمران الآية ٦٥ .
(٢) آل عمران الآية ٦٧ .
(٣) المعارف ص ٦١٩ .
(٤) سفر التكوين ٤٩ ص ٨٤ / صابر طعمة ج ١ ص ٣٤ .
(٥) السعدنى ص ٦٨ .

وغيرهم دخلوا اليهودية وليسوا من بنى إسرائيل [١] .

فأطلق الإسرائيليون وأهل يهوذا هذه اللفظة على أنفسهم وعلى كل من دخل فى ديانتهم تمييزا لهم عن غيرهم ممن ليس على هذا الدين وهم الغرباء أو الجويم جمع جوى [٢] .

وقد برع الأحبار فى تحريف هذا الدين فألبسوه لباسا عنصريا متعصبا أرجعوه إلى إبراهيم عليه السلام وهو برىء ثم حرفوا العقائد الموسوية ووجهوها الوجهة التى أرادوها لها ، فاستطاعوا إقناع عامة اليهود بأن ما ورد فى التوراة مثلا من وصايا تأمر بحب الغريب واحترام حقوقه لا تعنى الغريب عن اليهود ، وإن يوحوا لهم بعاطفة بغض فطرى لكل ما هو غير يهودى ، ولما جاءهم المسيح عليه السلام وحاول كشف خداعهم ودعاهم للهداية عمل هؤلاء على تشويه سمعته وسمعة اتباعه برميهم بأفظع التهم وتأليب الحكومات والهيئات ضدهم[٣] كما برعوا فى الدس والتحريف ومن أمثلة ذلك ما ألصقوه بأبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فقد صوروه جبانا (تنزه نبي الله عن ذلك) فهو يقول لزوجه سارة على زعمهم : « يقتلوننى ويستبقونك » بل إن فى النص بعد ذلك ما يجرد إبراهيم من رجولته فضلا عن إبائه وعظمته كنبى ورسول فجعلوه ديوثا على أهله يعيش من ريعهم وينعم بثمن امرأته فزعموا عن فرعون :

(فصنع لأبرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال) [٤] .

وتكرر التوراة المحرفة القصة فى أرض بئر السبع (ملك جرار) : (فقضت معه ليلة) وأيضا مثلما قدم الفرعون المصرى لإبراهيم الخير بسبب امرأته أخذ

---

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥٣ / عن أبى الفدا – المختصرة فى أخبار البشر ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) عبد الفتاح شحاته – تاريخ الأمة العربية ص ٤٧ .

(٣) القصاص – الإسرائيليون وروح العدوان ص ٨٩ .

(٤) تكوين ١٢ ص ١٩ .

أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته [١] .

وفى التوراة هذه استرسال فى قصص طويل يبرز من خلاله مختلف جوانب الالتواء والأنانية كنماذج للدس والخديعة والتسلق والتصيد ليبرروا تصرفاتهم . يظهر ذلك فى قصة عيسو ويعقوب [٢] .

اليهود فى شبه جزيرة العرب :

كان اليهود كلما أمعنوا فى الفساد اشتدت عليهم المحن وتتابعت فمن غزو الأشوريين بقيادة سرجون الثانى وقضائه على دولة إسرائيل (السامرة) فى شمال فلسطين سنة ٧٢٢ ق . م . والسبى البابلى الصغير إلى غزو الكلدانيين بقيادة نبوخذ نصر وقضائه على دولة يهوذا فى الجنوب عام ٥٨٦ ق . م والسبى البابلى الكبير إلى المحن التى عانوها فى ظل الحكم السلوقى وتأرجحهم بين الحكم السلوقى فى الشام والبطليموسى فى مصر إلى مجىء الرومان سنة ٦٤ ق . م واحتلال بومبى لسوريا والقدس . وقد تأرجح حالهم أيام الرومان ففى عهد قيصر ٤٩ - ٤٣ ق . م كان اليهود يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وبحكم كهنى ذاتى . وفى زمن أنطونيوس وأوكتافيوس عينا هيرودوس ملكا على يهوذا والجليل سنة ٣٩ ق . م حتى وفاته سنة ٤ ق . م . فأعيد بناء الهيكل . ولكن اضطرب حالهم بعد وفاته لتدخلهم فى الفتن وإثارتهم لها ، فقد فجروا ثورة تمكن تيطس ابن الامبراطور واسبازيان من القضاء عليها سنة ٧٠ م . ودخل بيت المقدس وأوقع مذبحة باليهود وخرب هيكلها وأزاله من الوجود تماما بحيث لم يعد يهتدى الناس إلى موضعه وقد سيق الأحياء الباقون عبيدا [٣] ولكنهم عادوا إلى جمع شملهم ونصبوا لهم حاخاما غاما جديدا ، وأعادوا تكوين مجلس حكمهم (السنهدرين)[٤]

---

(١) تكوين ٢٦ ص ٤٠ وتكوين ٢٠ ص ٢٩ .

(٢) انظر الكتاب المقدس ٢٥ ص ٣٨ - ٤٠ و ٢٧ ص ٤٢ - ٤٤ .

(٣) التنبيه والإشراف ص ١١٠ / ابن العبرى ج ١ ص ٦٩ .

(٤) السنهدرين : مجمع اليهود العلمى / هيئة رسمية تتكون من واحد وسبعين عضوا يرأسها رئيس الكهنة وتمثل السلطة الشرعية العليا لليهود .

ووثقوا الروابط بينهم وبين جالياتهم المنبثّة فى أنحاء الأرض فقاموا بمحاولة أخرى سنة ١١٥ م فى عهد الحاخام أكيبا ويسمونه أبا السنة التلمودية فذبحوا مائتى ألف من المسيحيين فى ليبيا وحدها ومائة وأربعين ألفا فى قبرص بين مسيحيين ووثنيين [١] حقدا وانتقاما .

وفى عهد هادريان (١١٧ – ١٣٨ م) أشعلوا ثورة جديدة بقيادة باركوبا ومعناه (ابن الكوكب) الذى ضلل اليهود مدعيا أنه من السماء كالكواكب ليخلصهم من عبودية الروم [٢] فاعتبروه المسيح المنتظر وقاتلوا قائد الرومان روفوس حرب عصابات (١٣٢ – ١٣٥ م) حتى جرد عليهم الرومان حملة اجتاحت مواقعهم وأحرقت قراهم وحول هادريان مدينة بيت المقدس إلى مستعمرة رومانية وحرم على اليهود سكناها وبدل اسمها إلى (إيليا كابتولينا) وأسكنها جالية رومانية ويونانية وأقيم فى مكان الهيكل معبد للإله الوثني اليوناني جوبيتر .

وقد قتل الرومان عددا كبيرا منهم وسبوا النساء والأطفال وبيعوا بأبخس الأثمان وبعث إلى روما بكثير من الأسرى وغذوا بلحومهم أسود الملاعب [٣] .

فاتجه اليهود لأسلوب آخر لتجميع أنفسهم فأعيد تشكيل – السنهدرين – فى طبرية وافتتحت المعابد والمدارس [٤] وانتقل مركز الثقل اليهودى من فلسطين إلى غيرها . كما شردهم قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧ م) بعد أن اعتنق النصرانية فنفى أحبارهم سنة ٣٢٧ م وجعل زواج اليهودى من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام [٥] وأخذت الكنيسة المسيحية تضطهدهم اضطهادا شديدا لما لقيته المسيحية على أيديهم من قسوة وما وجهوه إليها من تحقير واختلاق . وألغى

---

(١) الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ٩ .
(٢) ابن العبرى ج ١ ص ٧١ .
(٣) المسعودى – التنبيه والإشراف ص ١١١ .
(٤) ديورانت ج ١٣ من المجلد ١٤ ص ٥ .
(٥) نفسه ج ١٣ من مجلد ١٤ ص ٦ .

ثيودوسيوس الثانى الحاخامية الفلسطينية ، وفى سنة ٤٢٥ م حلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية [١] .

وفى أثناء ذلك تمكن اليهود من التسلل فى جسم الدولة الفارسية وفى نواحيها الفكرية / ففى زمن كورش تزوج امرأة منهم وارتفعت عنده فطلبت منه عودة بنى إسرائيل إلى فلسطين فأذن لمن رغب بالعودة [٢] وإن كان ذلك منه تدبيرا سياسيا قصد منه أن يكون له عملاء فى بلاد الشام – واعتبره اليهود – مسيحهم وعظم عنده شأن دانيال ففوض إليه سياسة ملكه [٣] . وأصبح اليهود أعوانا للفرس فساعدوا قمبيز فى فتح مصر ولعبت نساؤهم دورا كبيرا فى سياسة المملكة الفارسية فكان دور يهوديت [٤] ثم دور استير التى حكمت صديقها اليهودى مردخاى فى الملك زمن زوجها كسراكسيس – (ارطخشنت الثانى) [٥]

وتغلغل اليهود هذا فى الدوائر العليا جعلهم يظهرون وكأنهم أعوان الفرس وعملاؤهم وهم فى الواقع كانوا يستخدمون السياسة الفارسية لتحقيق أغراضهم – فازداد ثراؤهم فى الاسكندرية على سبيل المثال . الأمر الذى زاد من حدة العداء فى المستقبل بين المسيحية واليهودية . واعترف الفرس بالأجزيلارك زعيم الطائفة اليهودية وأجلّوه[٦] وأنشئت مدارس للتعليم العالى وأضحى علماؤها وقرارات كواهنها الدينية موضع الإجلال [٧] فى جميع أنحاء فارس – فتمكن اليهود بدورهم أن يشيعوا أن الفرس من ولد إبراهيم عليه السلام [٨] وتمكنوا فى ظلهم فى بابل أن يجمعوا تعاليم ومبادىء الفرّيسيين فى كتاب سماه الحاخام يهوذا هاناسي (الذى أطلقوا عليه الحاخام المقدس) المشنا .

---

(١) ابن العبرى ج ١ ص ٧ .
(٢) نفسه ج ١ ص ٤٨ .
(٣) ابن العبرى ج ١ ص ٤٩ .
(٤) نفسه ج ١ ص ٤٩ / سفريهوديت في العهد القديم .
(٥) نفسه ج ١ ص ٥٢ / سفر استير في العهد القديم .
(٦) ديوانت ج ١٣ مجلد ١٤ ص ٩ .
(٧) نفسه ج ١٣ مجلد ١٤ ص ٤٨ .
(٨) التنبيه والإشراف ص ٩٤ – ٩٦ .

والمشنا : كلمة عبرية تنطق (مشنة أو مشناة) ومعناها (المعرفة) . ولكن للربانيين اعتقاد خاص فيه وهو أنه سنة عن موسى عليه السلام أوحى بها الله إليه أثناء الأيام الأربعين التى قضاها فى طور سيناء وأمره ألا يكتبها وأن يبلغها شفويا . ولذا فهى تعرف (بالتوراة الشفوية) وقد سميت المشنا بمعنى المثنى والثانى بالنسبة إلى التوراة المكتوبة . وقد ظل المشنا يتناقل شفهيا حتى عهد يهوذا هيناسى الذى جمع المشنا وكتبه ، فى ستة أسفار تسمى سيداريم (أى أحكام) ، والغرض منها إيضاح وتفسير ما التبس فى شريعة موسى وتكملتها على حسب ما يدعون .

والأسفار الستة هى :

(١) الزراعـــة (زراعيم) (٤) ضمان الضرر (نزيقين)
(٢) الأعيـاد (الموعـد) (٥) الوقـف (قداشيم)
(٣) الـــنساء (ناشيم) (٦) الطهارة (طهارات) .

وجاء بعد يهوذا هاناسى العديد من الحاخامات قاموا بتهذيب المشنة والإضافة إليها أو التحسين فيها والشرح ، وعرفت هذه الشروح والإضافات باسم جمارا بابل وجمارا أورشليم . ويعود تاريخ جمع جمارا أورشليم إلى عام ٤٠٠ م فى حين يعود جمع جمارا بابل إلى عام ٥٠٠ م .

والمشنة مع شرح جمارا بابل يسميان تلمود بابل ، فى حين أن المشنة مع شرح جمارا أورشليم يسميان بتلمود أورشليم ، والتلمود مصدرها العبرى (لمد) ومنها « تلميد » ، بمعنى تلميذ فى العربية لأنه يعلم الفقه والدين وتفسير التوراة ، وهو عبارة عن جزئين : المشنا والجمارا ، ويحوى عدة أبحاث فى شئون العقيدة والشريعة والتاريخ وما إلى ذلك فى ثلاثة وستين سفرا [١] .

وقد أصبحت اليهودية التلمودية لاتمت بصلة إلى شريعة موسى عليه السلام تفيض نصوصها وحشية وعنصرية وحقدا على العالم كله . ثم ابتعدت أكثر بعد

---

(١) مراد فرج – القراءون والربانيون ص ٣٦ / حسن ظاظا – الفكر الدينى الإسرائيلى ص ٩٥ ، ١٠٨ .

أن أعاد عزرا كتابة التوراة الثانية وهى تختلف كل الاختلاف عن الكتاب السماوى الذى أنزله الله سبحانه على موسى عليه السلام .

قال تعالى :

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ﴾ [١] .

واستمرت فتن اليهود فاستمر قياصرة الروم فى اضطهادهم . ففى عهد فوكاس (٦٠٢ – ٦١٠ م) ثاروا فى أنطاكية ، فأمر القيصر بتنصيرهم ولو بالإكراه ، وقتل بعضهم وشرد آخرين .

ولما هاجم الفرس بلاد الشام واحتلوها ساعدهم اليهود وانتقموا من النصارى شر انتقام ، فقد ابتاعوا من الفرس السبى النصارى الذى تراوح عدده بين ٨٠ و ٩٠ ألفا وذبحوهم . وأشعلوا النار فى جميع كنائس النصارى ومن بينها كنيسة القيامة . الأمر الذى جعل هرقل ينتقم منهم انتقاما ذريعا بعد انتصاره على الفرس عام ٦٢٨ م فطرد من كان بالقدس من اليهود وحرم عليهم سكناها وشرد بقيتهم من فلسطين .

وأثناء هذه الأحداث كانت شبه جزيرة العرب مقصد عدد كبير منهم [٢] بما عرف من سكانها من طيبة واحترام للأجنبى وحماية للضعيف رغم حياتها القبلية ، فسارع اليهود بالهجرة إليها كلما شعروا بخطر يهددهم ، فكانوا ينزلون فى رحاب إخوانهم الذين سبقوهم آمنين شر أعدائهم ، وقد فصلت بينهم مفاوز الصحراء . وليس من المستبعد أن تكون شريعة موسى عليه السلام قد وصلت ودخلت الجزيرة زمن موسى عليه السلام نفسه [٣] .

---

(١) الفكر الصهيونى للسعدنى ص ٦٤ / البقرة الآية ٧٩ .

(٢) لوبون – اليهود والحضارات الأول ص ٤٢ .

(٣) خلاصة الوفا ص ١٠٩ / صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩٤ / فتوح البلدان ص ٢٩ .

فدخل اليهود أرض الحجاز وسكنوا يثرب وتيماء وخيبر وفدك ووادى القرى وتبوك ومقنا وأيلة وبنى كندة [١] حيث أصبحوا هناك من ذوى الثراء [٢] كما تهود عدد من عرب هذه الأماكن [٣] الأمر الذى جعل بعض المؤرخين يذكرون أن أصل يهود بلاد العرب (عرب تهودوا) [٤] .

واستبعد ولفنستون أن يكون بمكة والطائف غير الوثنية لبعدها عن موطن اليهود [٥] والواقع أنه كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا بها للتجارة وبقى هؤلاء على يهوديتهم ولما دخلت الطائف الإسلام وضعت عليهم الجزية ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف [٦] .

وقد أقام اليهود الآطام فى الجزيرة وخاصة فى يثرب ومن أشهرها : حصن الأبلق للسموئل وحصن القموص لبنى أبى الحقيق وحصون السلالم والوطيح وناعم وسعد بن معاذ – وذكر السمهودى أن قبائل اليهود تنيف على العشرين وعدة آطامهم وأطم من نزل معهم من العرب تزيد على السبعين [٧] .

ولما نزلت الأوس والخزرج يثرب وجدوا بها قبائل اليهود فابتنوا بها المساكن والحصون إلا أن الغلبة والحكم لليهود إلى أن تعاون الأوس والخزرج مع غسّان فاحتال ملكهم أبو جبلة عبيد بن سالم من الخزرج على اليهود فقضى عليهم فصارت الأوس والخزرج أعز أهل المدينة وشاركوا اليهود فى النخل والدور [٨] .

---

(١) المعارف ص ٦٢١ .
(٢) حتى ج ١ ص ٢٩ .
(٣) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥٣ / اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٩ .
(٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٧ .
(٦) البلاذرى – فتوح البلدان ص ٦٣ .
(٧) خلاصة الوفا بأخبار المصطفى ص ٨٠ .
(٨) ابن الأثير – الكامل ج ١ ص ٤٠٢ .

وقد أجاد اليهود فنون الاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة إلى جوارهم لتأمين أنفسهم فكانوا يدفعون لهم إتاوات ويقدمون لهم الهدايا ليسترضونهم بها ، كما برعوا فى أساليب التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل حتى لا تصفو فيما بينها الأحوال وتلتئم فيكون اتفاقها والتئامها خطرا يتهددهم [١] .

واشتغلوا فى التجارة وتعاطوا الربا وأجادوا بعض الصناعات كالنسيج وكان من اختصاص نسائهم على الأكثر والصياغة وقد اختص بها بنو قينقاع . والحدادة وهى صناعة كان العرب يزدرونها ويرونها من المهن الممقوتة الحقيرة [٢] .

ومن المحالفات التى أجادوا حبكها محالفاتهم مع غطفان التى وقفت إلى جانبهم فى وجه الدعوة الإسلامية ، ومع بلى فدخل فرع منهم اليهودية وسكن معهم على مقربة من تيماء إلى أن أمر بإجلائهم عنها فى الإسلام [٣] .

وفى اليمن :

انتشرت شريعة موسى عليه السلام بعد اللقاء الذى تم بين سليمان عليه السلام وبلقيس حتى أصبحت مركزا من مراكز انتشارها وأشار القرآن الكريم إلى هذا فى سورة النمل وفى الآيات الكريمة التى تروى قصة سبأ وقد جاء فى ختامها على لسان ملكتهم :

﴿ قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [٤] . ولما تشتت اليهود فى أقطار الأرض وحرفت شريعة موسى على أيدى الأحبار وجدوا ملاذا لهم فى اليمن فانتشرت بشكلها الأخير على يد تبان أسعد أبو كرب فى القرن الخامس الميلادى — إذ تروى الروايات العربية أنه فى غزو هذا الملك ليثرب جاءه حبران من أحبار يهود بنى قريظة فأعجب بما وصفاه له

---

(١) جواد على ج ٦ ص ٩ (القسم الدينى) .
(٢) جواد على ج ٦ ص ٢٢ .
(٣) نفسه ج ٦ ص ١٧٥ .
(٤) النمل الآية ٤٤ .

من دينهما فاتبعهما وأخذهما معه إلى اليمن [١] ودعا قومه إلى دينه فأجابوه . وهذه الرواية تبين أن اليهودية تسربت لليمن من الحجاز وانتشرت بين السبئيين والحميريين وبقية القبائل – فلم يكن يهود اليمن على ذلك من أصل إسرائيلى خالص بل كانوا خليطا من متهوّدة ويهود [٢] وعند مستهل القرن السادس للميلاد صارت لليهود صولة فى اليمن فأصبح ذو نواس يهوديا واضطهد نصارى نجران ونشر اليهودية بين كثير من قبائل عرب اليمن وحضرموت من حمير وبنى الحارث بن كعب وكندة [٣] وامتد ذلك إلى قبائل العرب فى البحرين .

ولم تنقطع الصلة بين يهود اليمن ويهود الشام والحجاز فكانوا على اتصال وعمالتهم للفرس ظاهرة بينة فكان أحبار طبريا يرسلون رجالا منهم إلى اليمن ومعهم الأموال والهدايا إلى ملكهم ويهودها وكبارها للتأثير فيهم ولتوثيق الصلات بهم .

فدخلت اليمن ميدان التنافس على النفوذ بين الفرس والروم .

ذكر ولفنستون : « أن المؤرخ اليونانى يوحنا قص خبرا وهو : أن رومينوس الحميرى قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم ، واستمر يعامل تجار الروم بالقسوة حتى انقطع جميع التجار المسيحيين من دخول بلاد اليمن . ولما شكت قبائل اليمن ضعف التجارة لذى نواس قال لهم : إن إخوانى اليهود فى بلاد الروم يذوقون الأهوال والتعذيب فأنا أريد أن أكف أيدى الروم بمعاملتى لتجارهم هذه المعاملة السيئة » [٤] كما نسب شمعون حادث تعذيب نصارى نجران إلى أحبار

---

(١) انظر تفصيل القصة / ابن هشام – السيرة ج ١ ص ١٥ / الطبرى – تاريخ – ج ٢ ص ٩٤ والرواية تعود إلى محمد بن إسحق وقد أخذ روايته هذه من رجال عرفوا برواية هذا النوع من القصص وهم فى الأصل من أهل الكتاب خاصة من اليهود وعلى رأسهم أبو مالك بن ثعلبة بن أبى مالك القرظى ووهب بن منبه ومن جماعة من الأنصار كان لهم اتصال باليهود .

(٢) جواد على / العرب قبل الإسلام ج ٣ ص ١٧١ .

(٣) المعارف ص ٦٢١ .

(٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١١٨ .

طبرية فطالب الأساقفة أن يحرضوا الحكومة والنصارى على الضغط على يهود الشام وعلى طبرية خاصة ليكتبوا إلى يهود حمير بالكف عن التحرش بنصارى اليمن [١] كما تحرك ملوك أكسيو م [٢] حلفاء بيزنطة لاحتلال اليمن . ثم وجد سيف ابن ذى يزن أذنًا صاغية لدى الفرس عندما استنجد بالنعمان بن المنذر فأنجده كسرى وأخرج الأحباش ليحل النفوذ الفارسى محل النفوذ الرومانى [٣] .

النصرانية :

ارتبط اسم النصرانية فى الإسلام باليهودية ، فورد جنبا إلى جنب مع اليهودية فى القرآن الكريم :

﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ [٤]
﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [٥] ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ [٦] .

وقد أطلق الإسلام لفظة النصرانية ونصارى على الذين ضلوا عن تعاليم المسيح ، وادعوا المسيحية ، وقد اتخذت النصرانية من الكنيسة (Eclisia) وتعنى المجمع فى الأغريقية مجمعا لها [٧] . فعند مجىء الإسلام كانت المسيحية قد اندثرت وحلت محلها المسيحية المهودة ، وهى ما أطلق عليها القرآن الكريم اسم

---

(١) جواد على ج ٦ ص ٣٣ .
(٢) لقد اعتنق ملوك أكسيوم النصرانية عام ٣٥ م بواسطة الشقيقين فرومنتيوس ، وأيديسيوس اللذين أوفدتهما كنسية صور إلى بلاط ملك أكسيوم .
(٣) انظر – ابن هشام – السيرة ج ١ ص ٦٥ .
(٤) التوبة الآية ٣٠ .
(٥) البقرة الآية ١١١ .
(٦) المائدة الآية ٥١ .
(٧) مختصر علم اللاهوت ج ٣ ص ٨١ .

النصرانية . والمسيحية سميت بهذا نسبة إلى المسيح أى المخلص [١] وكانت المسيحية فى الأصل تختص باليهود الذين غضب الله عليهم ولعنهم ، ولقد حدد المسيح عليه السلام لنفسه ولتلاميذه مجال التبشير باليهود فقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » [٢] فطورد أصحاب المسيح واستخفوا [٣] طاردهم الروم واليهود وأمعنوا فى اضطهادهم ، ولكن المسيحية انتشرت فتظاهر بعض الحاقدين من اليهود باعتناقها ليدخل فيها ما ليس فيها ، وكان بطرس هو رئيس التلاميذ ومفوض المسيح فى قيادتهم [٤] فكان هو الرئيس والمعلم والخطيب ، ولكن تغير هذا الحال تماما حين ظهر بولس فجأة فى مجمع التلاميذ فكان ظهوره بمثابة انقلاب على تلاميذ المسيح وتغير تبعا لذلك مفهوم الدعوة .

وقد اشتهر بولس هذا (شاول) بتعصبه لليهودية ، وشارك فى اضطهاد المسيحيين [٥] وقتلهم والسطو على الكنيسة ، وفجأة أعلن أنه أصبح رسولا للمسيح وقرر أن مفهومه للمسيحية إنما هو شىء يختص به ، تلقاه من المسيح مباشرة ، أثر حادثة قال أنها وقعت له فى طريق ذهابه إلى دمشق . وهذه الحادثة هى الأساس الوحيد الذى بنى عليه بولس إعلانه قبول المسيحية ثم اختياره رسولا من المسيح ، وهى تروى بروايات متناقضة [٦] . مع العلم أن بولس لم يكن أصلا من التلاميذ ولم يحظ برؤية المسيح أو الحديث إليه ولو مرة واحدة فى حياته . وتبعا لهذه الرؤية المتناقضة أعلن أنه لا حاجة به إلى استشارة تلاميذ المسيح وحوارييه [٧]

---

(١) أعمال الرسل الإصحاح ٥ : ٤٢ ص ١٩٨ / والثامن ص ٢٠٣ ، والإصحاح ٢٦ ص ٢٤١ .

(٢) إنجيل متى ١٥ : ٢٤ .

(٣) ابن حزم – الفصل – ج ٢ ص ٦٢ .

(٤) إنجيل متى ١٦ : ١٧ – ١٩ .

(٥) انظر أعمال الرسل ٨ : ١ – ٣ ، ٩ : ١ – ٩ .

(٦) انظر الإصحاح ٩ من إنجيل لوقا ، والإصحاح ٢٢ والإصحاح ٢٦ .

(٧) انظر قول بولس فى ذلك غلاطية الإصحاح ١ : ١١ – ٢٢ .

فوضع تعاليمه على هواه وجعلها أساسا للتعاليم النصرانية ، وقام بعبء التبشير بها فى بلاد الشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان .

نادى المسيح عليه السلام بأن الله واحد وأنه رسول من الله إلى خراف بنى إسرائيل الضالة ، فاندفع اليهود على طريقهم فى التزوير وفى التحريف فكتبوا عشرات الأناجيل المحرفة .

وازداد تأثر النصرانية باليهودية بسبب اقتصارها على الدعوة الخلقية وتهذيب النفس دون أن يكون فيها من التشريع ما يستطاع تطبيقه ، فأصبحت عالة على اليهودية فى هذه الناحية ، كما أن استخفاء أصحابها مكن اليهود من التأثير فيها فما أن ظهرت زمن قسطنطين إلا وكانت قد ابتعدت عن أصلها الصحيح وظهرت تناقضاتها وبلغت عدد الأناجيل العشرات . وعندما اعترف قسطنطين بالنصرانية لم يكن يهمه أمرها كثيرا ولم ينبذ الوثنية بل تمسك بها ، فعندما ضرب عملة رومانية جديدة كان حريصا حين سكها على أن يجمع فيها بين شعار الوثنية وهو قرص الشمس إلى شعار النصرانية البولسية ممثلا فى الصليب ... فكانت العملة الجديدة دليلا ماديا ملموسا على أن قسطنطين أو رجاله الوثنيين حاولوا إدماج الوثنية فى النصرانية وضم طقوس المعبد الوثنى إلى شعار الكنيسة الجديدة وكأنهم يضعون ديانة جديدة .

ودعا قسطنطين إلى مؤتمر نيقية عام ٣٢٥م وفرض فيه مع ٣١٨ أسقفا حكومة وجماعة كهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين ، وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين ، وأعلن أن تعاليم الدين لابد أن يتلقاها الناس من أفواه الكهنوت ، فحذوا بذلك حذوا اليهود ، فوصفهم الله سبحانه فى القرآن الكريم :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ (١)

واستبعدت فى هذا المؤتمر الأناجيل بعد أن اختاروا أربعة أناجيل وصادروا البقية باعتبارها مزورة (٢) ثم تقرر عزل أغلبية الأساقفة الذين كانوا

---

(١) التوبة الآية ٣١ / ابن خلدون – العبر – ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) الفكر الصهيونى والسياسة اليهودية – السعدنى ص ١٢٧ .

ينادون بأن المسيح نبى ورسول فيما بعد . وكان عددهم ١٧٣٠ أسقفا ، فطورد أصحاب التوحيد وتعقبتهم قوى اليهود والرومان والوثنية حتى اختفت هذه القوى تماما . وتبنت النصرانية تعاليم بولس .

وقررت البابوية فيما بعد اعتبار الامبراطور قسطنطين قديسا ، وأصبح ترتيبه القديس الثالث عشر بعد تلاميذ المسيح الاثنى عشر .

فبولس هو صاحب المسيحية التقليدية التى شاعت وذاعت بعد مؤتمر نيقية وقامت على أساس الصلب وسفك الدم والتثليث والخطيئة ، فأدخلت على مسيحية المسيح الحقة ما ليس فيها ، فسادت الأفكار المتضاربة والفلسفات مضاهية أقوال الذين اصطنعوا آلهة ثم عبدوها مثل قدماء المصريين والهنود والإغريق .

والتحق كثير من اليهود بالسلك الكنسي حيث حصلوا على أعلى المناصب الكهنوتية ، فقد انتهت الدراسات فى هذا المجال إلى أن البابا (بورجيس) كان يهوديا . كما يوجد فى متحف نابلى تمثال لأسقف مختتن (والختان يدل على أنه كان يهوديا) . وكان قد تمكن يهودى آخر هو مرقص الرسول من سكان المدن الخمس الغربية ولم يكن الآخر من الاثنى عشر تلميذا أن يقوم بعبء التبشير بنصرانية بولس فى شمال أفريقيا وفى مصر [١] مبتعدا عن مسيحية المسيح الحقة .

لقد كان قبل مؤتمر نيقية مدرستان : **الأولى** : هى المدرسة الفلسطينية التى قامت على التلاميذ الأول للمسيح فى القدس . وكانت صارمة فى عقيدة التوحيد ، وعدم الخلط بين الله والمسيح .

أما **الثانية** : فكانت المدرسة الهيللينية التى ازدهرت فى أنطاكية وطرسوس – موطن بولس – والتى تمثل فكر الإغريق وأساطيرهم التى تتحدث عن تجسد الآلهة ونزولها من السماء واختلاطها بالبشر . لقد أدخل بولس الأفكار الفلسفية الوثنية فى النصرانية ، واعتبر الناس كلهم متورطين فى خطيئة آدم ، التى اعتبرها

---

(١) أحمد عبد الوهاب – المسيح ص ٣٤ .

سببا للموت الطبيعى ، فهو يقول : لقد دخل الموت إلى العالم بسبب خطيئة آدم : إذ أن الموت عقوبة الخطيئة [١] وجعل التكفير عنها لا يتم إلا بقتل المسيح إرضاء الله تعالى – وثمنا لعقد صلح بين البشر وخالقهم ، فيقول : (ونحن أعداء الله قد صولحنا مع الله بموت ابنه) [٢] فبدأت نصرانية بولس وانتهت بقتل المسيح على الصليب ولا شىء فى رأيه غير هذا . يقول : (إنى لم أعزم أن أعرف شيئا بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبا) [٣] بمعنى آخر حول بولس المسيحية إلى صليبية تشارك الديانات التى سادت فى الامبراطورية الرومانية أصولها المشتركة ، وفى مقدمتها الإيمان بالإله المخلص الذى عاش إنسانا بين البشر ثم قتل شابا ، لكنه قام ثانية بعد الموت وانتصر ، كذلك شارك هذه الديانات الوثنية بالتثليث الذى كان شائعا فى الديانات الوثنية القديمة ، فقد كان السمة البارزة فى ديانة إيزيس التى اكتسحت الامبراطورية الرومانية إلى أن احتلت النصرانية مكانها .

وقد تلى مؤتمر نيقية عدة مؤتمرات أبعدت المسيحية عن جوهرها وأقرت عقيدة التثليث هذه وألوهية المسيح [٤] ففى مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م وقفوا ضد مقدونيوس الذى جاهر بأن الروح القدس ليس بإله ولكنه مخلوق مصنوع [٥] وفى مجمع أفسوس الأول سنة ٤٣١ م تبرأوا من نسطور الذى أعلن أن المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة أو هو ملهم من الله فلم يرتكب خطيئة [٦] فنفى من مصر فوجد فيه الفرس ضالتهم فتبنوه ونهضت النسطورية فى المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة [٧] نكاية بالبيزنطيين . ولكن ولما كان اليهود متنفذين فى الدولة الفارسية تأرجحت علاقة

---

(١) انظر رومية الإصحاح ٥ : ١٤ .
(٢) نفسه ٥ : ١٠ .
(٣) رسالة بولس إلى أهل كورنثوس ٢ : ٢ .
(٤) مختصر علم اللاهوت ج ١ ص ٧٤ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) أبو زهرة – محاضرات فى النصرانية ص ١٤٤ .
(٧) ابن البطريق ج ١ ص ٨١ .

الدولة الفارسية بالنصرانية بين المد والجزر فقد حاول سابور (٣١٠ - ٣٧٩ م) مثلا أن يمجس النصارى فى فارس [١] فى حين لما مات سابور وولى ابنه مكانه ووالدته شيرين اعتنت بالنصارى وبنيت البيع [٢] واعتبر النصارى ابنه شهريار من القديسين [٣] .

وقد أثرت النصرانية على الفكر الفارسى فامتزجت مع الثنوية فأنتج ماني [٤] فكرا جديدا هو مزيج من الديانة النصرانية والزرادشتية . وقد حذر بعض ملوك الفرس من النصارى فتغير عليهم كسرى ولذلك أخذوا يتقربون إليهم فعمل بعض جثاليقهم عيونا للفرس على الروم فقام إيشوعيب الأرزنى الجاثليق من أهل باعربايا بهذا الدور لصالح هرمزاد بن كسرى الذى أكرمه [٥] .

فانتشرت النصرانية على مذهبها النسطورى فى الحيرة بعد أن تنصر النعمان ابن المنذر وقد بالغ شيخو فى استنتاجه عن النصرانية فى الحيرة فقال :

(إن النصرانية عمّت ملوك الحيرة وأهلها العرب حتى أن المسلمين لما فتحوا مملكة المناذرة وجدوها نصرانية فى دينها وآدابها وعاداتها) [٦] . والمهم أن الحيرة أصبح فيها كرسى أسقفية العرب وتحرك منها النساطرة يبشرون بالنصرانية فانتشرت على أثر ذلك بين قبائل تغلب التى أقام بينهم رهبان وكهان وبنى لهم أديرة كدير عين قنا أى عين الوكر ودير ملتانى بتكريت [٧] .

كما انتشرت بين القبائل المتصلة بالفرس والروم وهى قبائل لخم وإياد وتنوخ وبكر وطيىء وبعض قبائل تميم [٨] وأكثر هؤلاء ممن كانوا يتصلون بالنصارى

---

(١) الفطاركة ص ١٩ / ابن العبري ج ١ ص ٨١ .
(٢) الفطاركة ص ٦١ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٠٠ .
(٤) ساويرس ص ٤٩ .
(٥) فطاركة ص ٥٧ .
(٦) النصرانية وآدابها ج ١ ص ٩٠ .
(٧) جواد على ج ٦ ص ٨٢ .
(٨) المعارف ص ٦٢١ .

بالتجارة أو بعوامل سياسية أو بزواجهم زوجات نصرانيات [١] .

وكما وجد الفرس المتأثرين باليهود فى النسطورية وسيلة لبسط سيطرتهم على العرب المتاخمين لهم ، وجد البيزنطيون أن مصلحتهم تقتضى إرضاء جماعة الغساسنة فى الشام بعد أن تمكنت فيهم النصرانية على المذهب اليعقوبى – المونوفوفيزتي – والذى اعتنقته سائر قبائل الشام العربية [٢] .

والغساسنة بطن من بطون الأزد ويقال : إنهم سموا بذلك نسبة إلى ماء نزلوا عليه [٣] وكانوا قد استقروا فى الجنوب الشرق من دمشق فى طريق النقل الذى يربط مأرب بدمشق ، وقد تمسكوا بمذهبهم المونوفيزتي وحاربوا عن عقيدتهم فى البلاط الامبراطورى ، وتمكن ملكهم الحارث بن جبلة من تعيين يعقوب البرادعى (مطران الرها وأحد أنصار الفكرة المونوفيزية) [٤] أسقفا على الكنيسة السورية العربية ، ولحماسه فى نشر فكرته دعيت الكنيسة بكنيسة اليعاقبة نسبة إليه .

ولم تجد بيزنطية حرجا فى أن تتعامل مع هذا المذهب المخالف لها ما دام يركز نفوذها فأيدته فى الحبشة واليمن أيضا .

وبانتشار النصرانية بين القبائل العربية على أطراف الجزيرة تسللت إلى الجزيرة التى لم تكن بمعزل عن التيارات الفكرية الخارجية عن طريق التبشير بدخول بعض النساك والرهبان (الذين انتشرت صوامعهم فى فلسطين وسيناء) إلى قلب الصحراء . بالإضافة إلى أن الصحراء كانت ملجأ لمن فر من اضطهاد القياصرة الوثنيين أو المخالفين للكنيسة الرسمية فيما بعد حيث كان يصعب على متعقبيهم أن يدركوهم وقد دخلت المسيحية بصورتها الأصلية إلى الجزيرة منذ أول ظهورها فيقال إن المسيح عندما وزع الحواريين على العالم بعث إلى أرض الحجاز

---

(١) جواد على ج ٦ ص ٢١٩ .
(٢) أحمد أمين – فجر الإسلام ص ٢٦ .
(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٩ .
(٤) حتى ج ١ ص ١٠٤ .

تلوفاوس [١] ليبشر بالمسيحية . وقد استغل المبشرون أسواق العرب فبشروا فيها ووعظوا .

وعن طريق التجارة بين عرب اليمن وعرب الشام والحيرة دخلت النصرانية أيضا الجزيرة [٢] فدخلت اليعقوبية اليمن عن طريق الحيرة . فيذكر أن جماعة من اليعاقبة كانت قد التجأت إلى الحيرة فرارا من الاضطهاد الذى أصابها فى ديار الشام أيام البطريق سيلامس (٥٠٥ - ٥٢٣ م) غير أن نساطرتها لم يسمحوا لهم بالبقاء فيها فاضطرت للهجرة إلى نجران . وكذلك دخلت النصرانية بواسطة السفن اليونانية والرومانية ومع الحبشة الذين تنصروا فى القرن الرابع للميلاد [٣] بجهود فروفتيوس الإغريقي وأصبح ملوكها الأكسويين الحلفاء الطبيعيين لبيزنطة بعد أن تغلبت النصرانية على اليهودية التى كانت قد دخلتها فى عهد حكم البطالسة بمصر [٤] .

وأصبحت نجران فى اليمن من أهم مواطن النصرانية فى الجزيرة وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان على الطريق التجارى الذى يمتد إلى الحيرة [٥] فكانت مطمع أنظار الروم قبل أن يتبنوا النصرانية وبعدها لاتخاذها طريقا للتجارة مع الشرق للقضاء على منافسة الفرس ، وبعد أن تبنوا النصرانية نشطوا فى ذلك باسم النصرانية فكان الاتصال قويا بين نصارى نجران وآل جفنة من نصارى عرب الشام [٦] وأثار هذا الاتصال غيظ الفرس واليهود فتحرك ذو نواس للقضاء عليهم واضطهادهم ، وتحركت الحبشة بتحريض من بيزنطية لضرب اليهودية والفرس

---

(١) ابن خلدون العبر ج ٢ ص ١٤٧ .
(٢) انظر قصة زيد الملك بن حرب بن معديكرب / الهمذانى - الإكليل ورقة ٢٣ ص ٣٩٢ .
(٣) جواد على ج ٣ ص ١٨٠ .
(٤) ولفنستون - تاريخ اللغات السامية ص ٤٦٠ .
(٥) فجر الإسلام ص ٢٦ .
(٦) المعارف ص ٦٣٧ / انظر فيميون وصالح وانتشار النصرانية فى نجران / ابن هشام - السيرة ج ١ ص ٣١ - ٣٤ / الطبرى ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٢ .

وترسيخ النفوذ الرومانى فى جنوب بلاد العرب وتمكنت من الدخول وتركز النفوذ البيزنطى ، وأخذت بيزنطة تمد البيع والأديرة التى بناها النصارى بالمال والفعلة رغم اختلاف المذهب . فقد انشأ الأحباش فى نجران بيعة كبيرة عرفت بكعبة نجران عند الأخباريين ، كما بنوا كنيسة القليس « من أصل أكلسيا اليونانى بمعنى الكنيسة » فى صنعاء لخلق منافس لمكة [١] كذلك شيدوا كنيسة ظفار وكنيسة أخرى فى مأرب .

وأدرك عرب اليمن أن بناء الكنائس هو وسيلة لتركيز وترسيخ النفوذ البيزنطى وخاصة بعد واقعة الفيل ومحاولة القضاء على نقطة تجمع العرب ، فكان ذلك سببا من أسباب نجاح الفرس وحلفائهم من اليهود من حكم اليمن فقامت فى اليمن حكومة مشتركة تقلد سيف بن ذى يزن فيها ولاية اسمية وانتحل هرمز الفارسى وظيفة نائب ملك فى تلك البلاد . وبقى الأمر كذلك حتى اعتقد باذان الإسلام فأسدل الستار على صراع اليهود والنصارى فى اليمن وبعبارة أخرى صراع الفرس والروم [٢] .

وأما الحجاز فلم تستطع النصرانية التسلل إليه بشكل واسع فبقيت فى مكة كوافدة – فعندما افتتحها الرسول ﷺ لم يجد إلا نصرانيا واحدا ضرب عليه دينارا واحدا جزية [٣] وكان قد تنصر بعض الأفراد من بنى أسد بن عبد العزى من قريش [٤] وفى الطائف اعتنق نفر من الموالى النصرانية ولم يتعرض لهم سادتهم منهم عداس وكان من أهل نينوى أوقعه حظه فى الأسر فبيع وجىء به إلى الطائف مملوكا لعتبة وشيبة ابنى ربيعة [٥] ومنهم الأزرق وذكر أنه كان عبدا روميا حدادا [٦] .

---

(١) جواد على ج ٦ ص ٦٦ .
(٢) الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ١٩ .
(٣) يحيى بن آدم – الخراج ص ٦٩ .
(٤) اليعقوبى – تاريخ ج ١ ص ٢٥٧ / ابن حزم – الجمهرة ص ٤٩١ .
(٥) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣٦ .
(٦) ابن حجر – الإصابة ج ١ ص ٢٧ .

وفى يثرب استقرت طائفة من النصارى منهم عرب تنصروا من أهل المدينة أو من غير أهلها أقاموا فيها ومنهم روم وسريان وأقباط وعجم بسبب قربها إلى الشام ومناخها الأكثر احتمالا على النازحين من الشام من إقليم مكة [١] .

ثالثا : تأثر العرب بأهل الكتاب :

كانت الجزيرة على صلات وثيقة مع جيرانها ، وقد تمثل هذا الاتصال فى العلاقات التجارية والثقافية وكانت منذ القدم طريقا للتبادل التجارى وكانت مكة بحكم موقعها على طريق البر الغربى القادم من اليمن إلى الشام وبالعكس أهم المراكز التجارية – فاشتغلت قريش بالتجارة وتسلمت زعامة القبائل – وساعدها على ذلك وجود الكعبة – البيت الحرام – فسلمت العرب لها بالزعامة الدينية . وقد أحسنت صلاتها التجارية فجعلوها على موسمين أحدهما فى الشتاء وفيه تتجه قوافلهم إلى اليمن حيث أن أمطار اليمن موسمية صيفية ، والآخر فى الصيف وفيه يتجهون إلى الشام حيث أمطار الشام شتوية [٢] فأدى ذلك لاختلاط قريش بأمم مختلفة وعرفوا كثيرا من أحوال أهل الكتاب فقد كان أبو أحيحة يقول عما جاء به محمد ﷺ : (ما سمعنا بمثل ما جاء به لا فى يهودية ولا نصرانية) [٣] .

ومن هنا كانت جهود اليهودية والنصرانية فى مكة قليلة الأثر بسبب تمسكها بدينها وزعامتها وكانت مستعدة لأن تخوض فى ذلك نقاشا عقليا وجدلًا تدافع فيه عن دينها وعن عقيدتها ، كما استفادت قريش من الوضع السيئ الذى طرأ على اليمن بدخول الحبش إليها فاستغلت مواهبها فى التجارة وحصلت على أرباح طائلة جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الإسلام وأصبحت مكة مركزا خطيرا من مراكز المال والثروة فى جزيرة العرب [٤] .

---

(١) دروزة – عصر النبى وبيئته ص ٢١٦ .

(٢) سورة الفيل : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم * رحلة الشتاء والصيف ﴾ .

(٣) الأنساب ج ١ ص ١٤١ .

(٤) جواد على ج ٨ ص ١٤٦ .

وبدأت علاقة قريش بأهل الكتاب منذ أن بدأت بالتجارة فيذكر أن هاشم ابن عبد مناف كان أول من سن رحلة الشتاء والصيف فكان يفد فى رحلته إلى اليمن وإلى النجاشى فيكرمه ويحيوه وفى رحلته إلى الشام كان يفد إلى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويحيوه (١) .

كما أنه حصل على كتاب من قيصر بأن تختلف قريش إلى أرضه آمنة ، وكتابا إلى النجاشى بأن تدخل قريش أرضه (٢) وأما عبد شمس فأخذ حبلا من النجاشى الأكبر كما أخذ المطلب لقريش حبلا آخر من ملوك حمير فسمى الثلاثة المجبرين (٣) . كما امتدت علاقات قريش إلى مصر فكان من روادها قبل الإسلام عمرو بن العاص (٤) والمغيرة بن شعبة من ثقيف الطائف (٥) ، ولم يقتصر أمر العلاقات على التجارة بل تعداها إلى أكبر من ذلك إلى فض الخصومات بين زعماء قريش فيروى الرواة أن أمية حسد هاشما بعد أن أشبع أهل مكة فدعاه إلى المنافرة فجعلا بينهما الكاهن الخزاعى فنفر هاشما عليه فأخذ هاشم الإبل الخمسين ونحرها وأطعمها من حضره ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين (٦) فمن هنا كانت علاقة بنى أمية بأهل الكتاب فى الشام . كما أن عبد المطلب حاكم قريشا بشأن زمزم عند كاهنة بنى سعد هذيم بمعان من أشراف الشام (٧) .

---

(١) نهاية الأرب ج ١٦ ص ٣٣ .

(٢) نفسه ج ١٦ ص ٣٦ .

(٣) الطبقات ج ١ ق ١ ص ٤٥ / الطبرى ج ٢ ص ٢٥٢ / صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٣ .

(٤) انظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٤ / ابن هشام – السيرة – ج ١ ص ١٤٧ .

(٥) انظر ابن سعد – الطبقات ج ٤ ق ٢ ص ٢٥ / النزاع والتخاصم ص ٩٠ .

(٦) ابن سعد – الطبقات ج ١ ق ١ ص ٤٩ / ابن هشام – السيرة ج ١ ص ١٥٥ .

(٧) ابن هشام – السيرة ج ١ ص ١٤٤ – ١٤٥ (تحقيق السقا وزملاؤه) .

ووفاة هاشم فى غزة والمطلب بن عبد مناف فى اليمن [١] دليل على العلاقة القوية بين قريش وهذه الأقطار فى عهد مبكر . وفى طلب عبد المطلب وحرب ابن أمية من النجاشى لينفر بينهما فأبى [٢] دليل آخر على العلاقة التى كانت تربط قريشا بالحبشة النصرانية .

وتأثرت قريش بأهل الكتاب فيذكر مثلا أن حرب بن أمية تعلم الهجاء من طارئ طرأ على مكة من اليمن ، وقيل دخلت الكتابة مكة من قبل أبى سفيان بن أمية عم أبى سفيان بن حرب من قبل أهل الحيرة [٣] .

وقد اعتقد جورجى زيدان خطأ بأنه كان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينية وطقوسها كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالأعياد ونحوها [٤] وقد نسى أو تناسى كالمستشرقين أن ماذكره من طقوس دينية تسلسلت من ديانة إبراهيم عليه السلام إلى العرب ولا علاقة لأهل الكتاب فى ذلك إلا فى إفساد بعضها بإدخال ما هو بعيد عنها فيها .

كما تأثرت قريش بالنظام الربوى الذى مارسه اليهود واستغلوا به الأعراب ورؤساءهم فتعاملوا به فى مكة والطائف . وتأثرت أيضا بالنظم الانفصالية الانعزالية التى سيطرت على اليهود فى مختلف أدوار – تاريخهم بعد أن أهملوا تعاليم التوراة وحرفوها فابتعدوا عن الاختلاط بالشعوب واعتادوا على ألا يعيشوا فى ظل حكم سياسى إلا وأستغلوه لتحقيق مطامعهم الاقتصادية – فنافست قريش اليهود – فى النظام الربوى وقاد ذلك إلى نتيجة هامة وهى المشاعر العدائية بين اليهود وقريش الذى لم تخف حدته إلا بظهور الإسلام كقوة هددت مصالح الطرفين فاتفقا ضده وهنا يكمن سبب عدم ترحيب قريش باليهود فى مكة دون مدن الحجاز وواحاتها .

---

(١) ابن هشام – السيرة ج ١ ص ١٤٦ .
(٢) النزاع والتخاصم ص ٩ – ١١ / الطبرى ج ٢ ص ٢٥٣ .
(٣) المعارف ص ٥٥٢ / صبح الأعشى ج ٣ ص ١٠ .
(٤) التمدن الإسلامى ج ١ ص ٣٣ .

فبينما نجد فى المراجع بعض الشخصيات النصرانية فى مكة [١] لا نجد يهوديا عبدا أو غلاما أو صاحب ضيعة باستثناء ما ذكره ابن سعد عن اليهودى الذى كان بمكة عندما ولد الرسول ﷺ [٢] ونؤكد هنا أن النصارى فى مكة كانوا من الفئة المستضعفة التى لم يكن لها وزن فى المجتمع القرشى . وقد امتلأت الكعبة قبل البعثة بالأصنام والصور ويرى الدكتور جواد على [٣] أن هذه الصور من عمل نصارى من الممكن أن يكونوا من الروم الذين جلبهم أهل مكة مع باقوم بعد تحطم سفينتهم عند الساحل للاتجار معهم ولبناء الكعبة . وكان قد أشرف باقوم على إقامة البناء وهندسته – فرسم أولئك النصارى على جدران البيت صور قصص نصرانى ومنه صور للأنبياء للزينة والزخرفة . ولم يجد أهل مكة فيها ما يناقض عقيدتهم فى الأصنام فتركوها .

الحنيفية : وهى محاولة العودة إلى دين إبراهيم عليه السلام .

ولعل أوضح ما تأثرت به قريش بأهل الكتاب ما تأثر به بعض حنفائها ، وقد حاول البعض [٤] أن يظهر الحنيفية وكأنها صورة للمسيحية وهى في الواقع محاولة العودة إلى دين إبراهيم الصحيح ، فتأثر بعض أفرادهم بالنصرانية أو باليهودية لأنهم لم يكونوا على رأى واحد ، فهم من قبائل متفرقة لم تجمع بينهم رابطة إنما التقت فكرتهم فى رفض عبادة الأصنام وفى الدعوة إلى الإصلاح . فقرأوا النصرانية واليهودية وتفهموهما ولكنهم اتجهوا إلى دين إبراهيم الذى علقت به شوائب كثيرة . فمنهم مثلا ورقة بن نوفل الذى قرأ التوراة والإنجيل وكتب العبرانية وأصبح أعلم

---

(١) كعداس ونسطاس ونسطور الرومى ويوحنا مولى صهيب وصهيب الرومى نفسه وبلعام وجبر / انظر الطبرى ج ٢ ص ٣٤٦ / السيرة لابن هشام ج ١ ص ٢٧٤ و ٤٢٠ / الإصابة ج ١ ص ٢٧٤ وص ٢٣١ .

(٢) ابن سعد الطبقات – ج ١ ق ١ ص ١٠٧ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٥ ص ١٧٣ .

(٤) د . ريان – ج ١ ص ٣٢ .

رجال مكة ، وشاركته فى ذلك قتيلة بنت نوفل [١] ، وتنبأ بقرب ظهور نبى جديد يعيد إلى الحنيفية أصالتها ، فهو لم يكن نصرانيا وإنما كان عالما بالنصرانية وباليهودية ، وسار على منواله عثمان بن الحويرث [٢] ولكن غلبت عليه النصرانية بسفره إلى الشام واتصاله بالقيصر الذى استخدمه لمآربه فى السيطرة على مكة ولكن المكيين طردوه فهرب إلى الشام ومات مسموما .

وأخبار زيد بن عمرو بن نفيل تشهد دليلا على أن الحنيفية غير النصرانية وغير اليهودية ، فقد بحث فيهما وعاد إلى قومه رافعا يده إلى السماء قائلا : اللهم إنى على دين إبراهيم . وأعلن لقريش :

« والذى نفسى بيده ما أصبح على دين إبراهيم غيرى » ، فأغضبت تعاليمه قريش وتصدى له الخطاب وأغرى به الشباب وحبس فى مكة ، ولكنه فر إلى الشام فقتله النصارى [٣] .

وامتدت الحنيفية إلى الطائف فكان منهم : أمية بن أبى الصلت الثقفى الذى نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح وحرم الخمر وتجنب الأوثان وطمع فى النبوة فلما ظهر محمد ﷺ حسده فلم يسلم [٤].

أما الأوس والخزرج فى يثرب فكان تأثرهم أبين لوجود اليهود بين ظهرانيهم فتهود عدد منهم ، ولكونهم أقرب إلى الشام النصرانية وللقرابة التى تربطهم بغسان النصرانية فتنصر عدد منهم أيضا . وقد تأثر بعضهم سلبيا فوقف فى وجه اليهودية

---

(١) ابن بكار – جمهرة نسب قريش وأخبارها ج ١ ص ٤٠٨ / المعارف ص ٥٩ الأنساب ج ٩ ورقة ٤٤٥ – ٤٤٨ / ابن هشام – السيرة ج ١ ص ٢٠٦ و ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن حزم – جمهرة أنساب العرب ص ١١٨ / الأنساب ج ٩ ورقة ٤٤٨ و ج ٥ ورقة ١٦١ ، ١٦٢ ابن بكار الجمهرة ج ١ ص ٤٢٦ / ابن هشام السيرة ج ١ ص ٢٤٣ / الطبقات ج ١ ق ٢ ص ١٦ .

(٣) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٧٦ / الإصابة ج ٣ ص ٣١ / المعارف ص ٥٩ ، ص ١٤٥ / الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٤٧ ، ٤٨ / ابن هشام – السيرة ج ١ ص ٢٢٢ .

(٤) الإصابة ج ١ ص ١٣٣ .

والنصرانية متمسكا بعقيدته الوثنية أو باحثاً في مخلفات ماضى الجزيرة من الحنيفية بقايا دين إبراهيم عليه السلام :

كأبى قيس بن الأسلت الأوسى الذى كان يقال له بيثرب الحنيف وكان قد سأل من بيثرب من اليهود عن الدين فدعوه إلى اليهودية فكاد يقاربهم ثم أبى ذلك وخرج إلى الشام إلى آل جفنة فسأل الأحبار والرهبان فدعوه إلى دينهم فلم يرده وقال : لا أدخل فى هذا أبدا – وتوصل إلى فكرة التوحيد وقال : أنا على دين إبراهيم وأنا أدين به حتى أموت عليه (١) وقد صرفه عن الإسلام عبد الله بن أُبى بعد هجرة الرسول ﷺ . وكذلك أبو الهيثم مالك بن التيهان وأسعد بن زرارة كانا يقولان بالتوحيد ، فكانا من أول من أسلم من الأنصار بمكة (٢) .

وأما أبو قيس صرمة بن أبى أنس – فقد كان من بنى النجار فارق الأوثان وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ودخل بيتا له فاتخذه مسجدا لا يدخل عليه طامث ولا جنب . وقال : « أعبد رب إبراهيم » . ولما قدم الرسول ﷺ المدينة أسلم (٣) .

ومن الذين تنصروا أبو عامر الراهب الذى وقف مع القوى المضادة للإسلام فسماه الرسول ﷺ الفاسق (٤) .

وإذا تجاوزنا اليمن والحجاز من أجزاء الجزيرة نجد قبائل عبد القيس فى البحرين جلهم نصارى وكثير من طيء وتنوخ وكلب (٥) كما كانت اليهودية فى كندة (٦) .

---

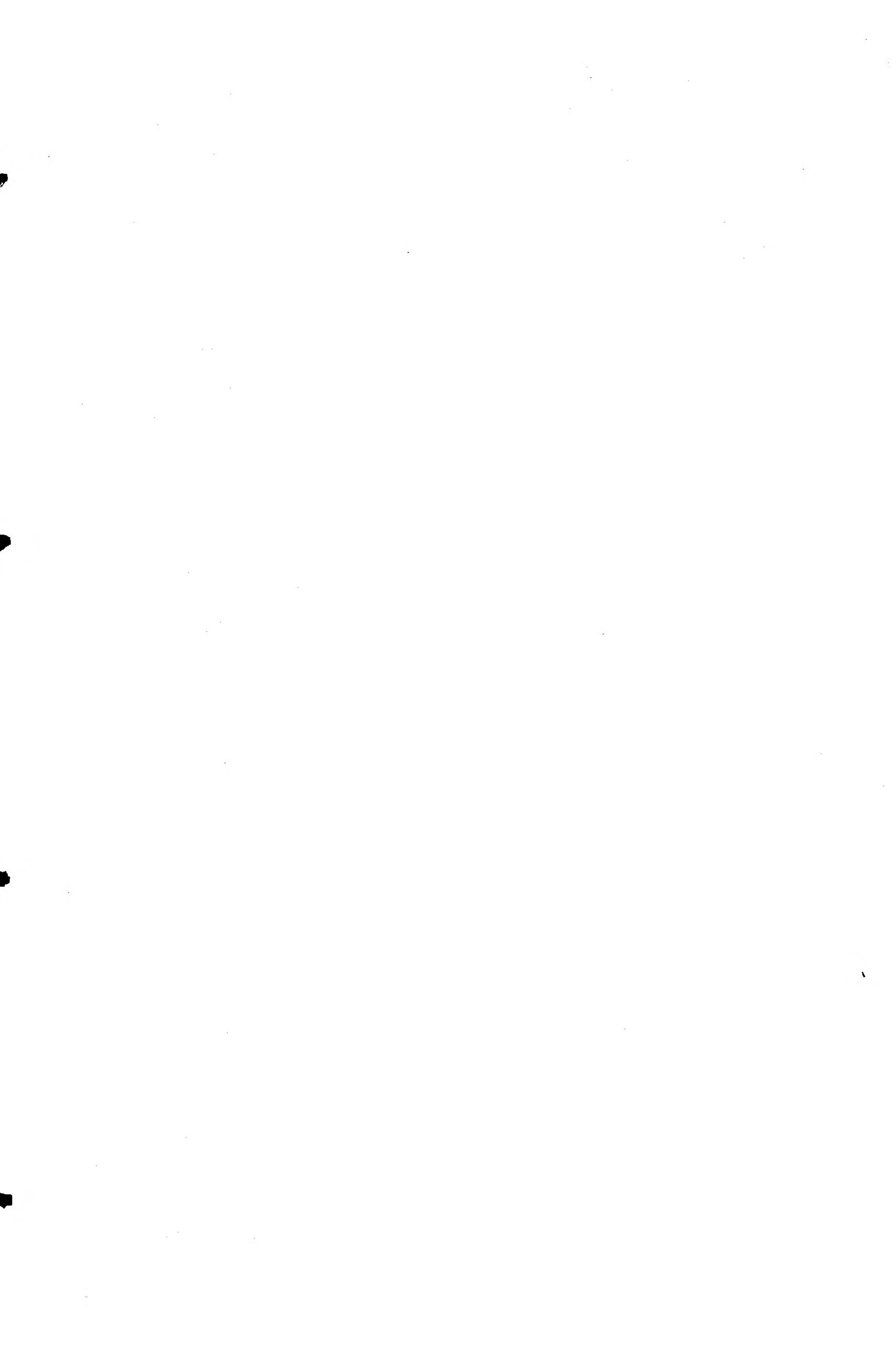
(١) ابن سعد – الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٩٥ .
(٢) الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ٢١ – ٢٣ / المعارف ص ٢٧٠ / أسد الغابة ج ٥ ص ١٤ – الإصابة ج ٩ ص ٤٠ .
(٣) المعارف ص ٦١ الاستيعاب ص ١٧٣٥ .
(٤) ابن سعد – الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ٩٠ / الاستيعاب ق ١ ص ٣٨٠ .
(٥) المعارف ص ٦١ .
(٦) الأزمنة والأمكنة ج ٢ ص ١٦٢ .

وساعدت الأسواق على التفاعلات الفكرية المختلفة يُثار فيها النقاش والجدل وكانت كثيرة كل سوق لطائفة من القبائل ذكر اليعقوبى عشرا منها [١] موزعة على أجزاء الجزيرة وأضاف لها ابن حبيب سوقين آخرين [٢] . فدومة الجندل كان سوقاً لقبيلة كلب والمشقر بهجر لتميم وعبد القيس ، وعكاظ لقريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل وطوائف من أبناء العرب فهى أعظم الأسواق على الإطلاق وموضعها بين نخلة والطائف [٣] .

* * *

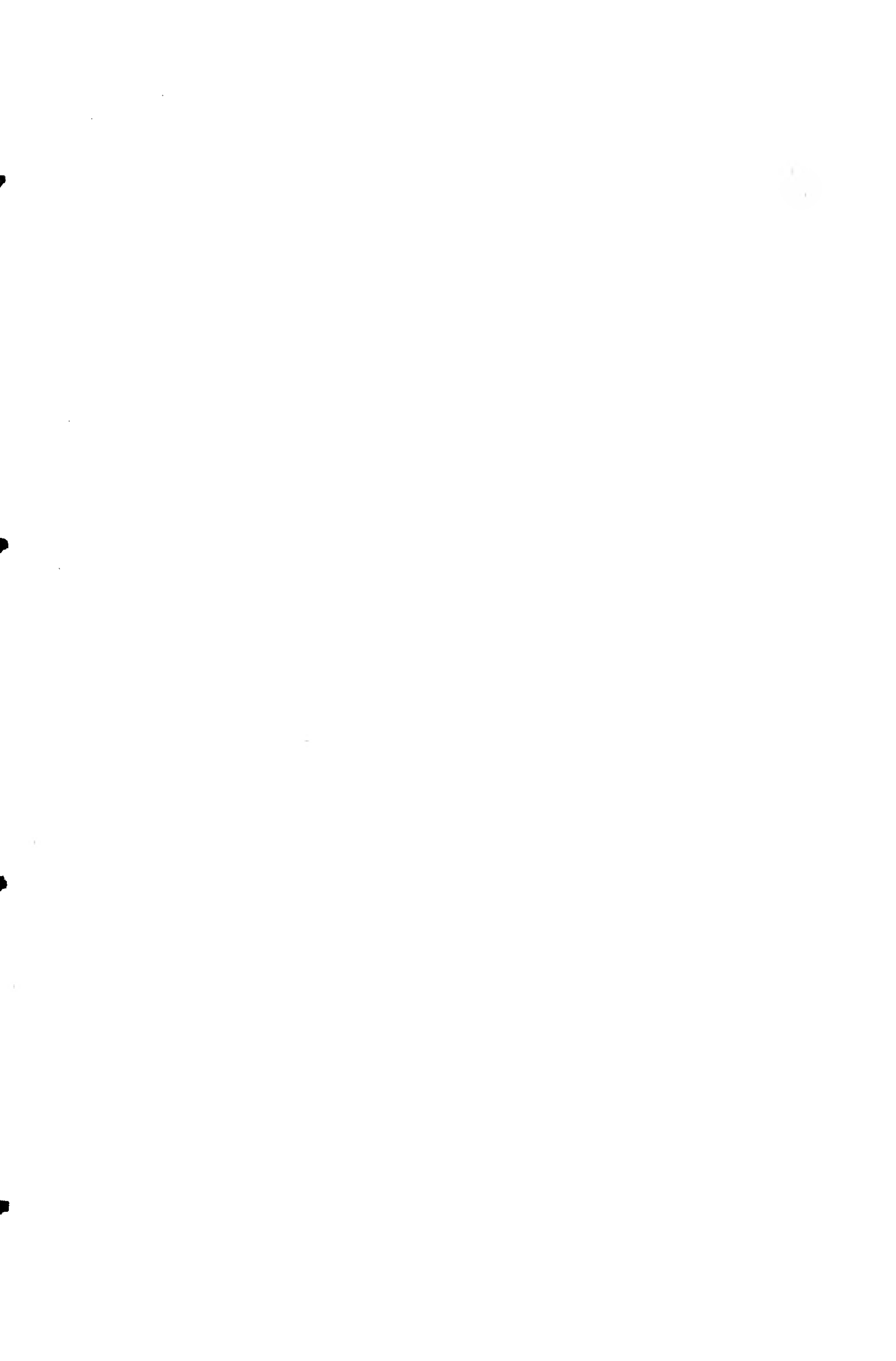
---

(١) اليعقوبى - تاريخ - ج ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .
(٢) المحبر ص ٢٦٣ - ٢٦٧ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٨٤ ، ٨٥ / الأزمنة والأمكنة ج ٢ ص ١٦٢ - اليعقوبى ج ١ ص ٣١٤ ، المحبر ص ٢٦٥ .



الباب الأوّل

أهل الكتاب وحكومة الرسول ﷺ
فى المدينة المنــورة



الفصل الأول

موقف أهل الكتاب من حكومة الرسول ﷺ في المدينة المنورة

عقيدة العرب عند ظهور الإسلام :

يذهب كثير من الكتاب والمؤرخين إلى أن العرب فى جاهليتهم كانوا خلوا من العقيدة والأخلاقيات والحياة العاطفية الدينية . فضلا عن النظر فى الإلهيات أو الفلسفة [1] . وواقع الأمر يجده المؤرخ المدقق فى ثنايا السيرة وأخبار التراجم

---

(١) بل تمادى المستشرقون كثيرا فأثاروا الشبهات حول الإسلام فى هذا المجال . تأمل قول لوبون :

(ولم تشهد الجزيرة العربية قط قدرا كبيرا من الحياة العاطفية الدينية القومية الخالصة فضلا عن النظر فى الإلهيات أو الفلسفة وحتى هبل نفسه لم يثر يوما أية ناحية إبداعية من العقول المتدينة .. وكان مصدر الجاذبية الحقة فى الكعبة للمتعبد التقى حجرا أسود ، وقد شعر النبى أنه مكره (هكذا) أن يدخل شعيرة ذلك الحجر مناسك الإسلام حيث لا يزال متلبثا كأنما هو شاهد عجيب على عجز الإسلام من التخلص عما يحيط بأصله من أمور قديمة .. (لوبون ج ٢ ص ٩٤) الفصل الثالث .

ويقول جولد تسيهر : ومن الحق أن نلاحظ أن الجماعة التى تقوم على حياة القبائل العربية وأعرافها وتقاليدها فحسب لا يمكن أن يكون لها أخلاق عالية بسبب وثنيتها الجوفاء الغليظة (العقيدة والشريعة ص ١٣) .

وانطلق من هذا ليقول : « إن الرسول تأثر باليهودية والنصرانية الأرقّ » (على زعمه) . وفى معرض حديثه عن رد القرآن على النصارى واليهود يقول : « كما صار رهبان المسيحية وأحبار اليهود موضع مهاجمة منه وقد كانوا فى الواقع أساتذة له » . (العقيدة والشريعة ص ٢٠) .

وكيف يأخذ النبى ﷺ أفكاره عن اليهود والنصارى وهو قد جاء مهاجما للديانتين متهما إياهما أنهما قد دخلهما كثير من التحريف والتبديل فالرسول ﷺ لم يتفق مع كثير مما كان موجودا فى الديانتين مما يشهد بأنه كان يتلقى وحيا من الله وأنه لم يكن بذلك متأثرا بشىء قد سبقه .

أنه كانت للعرب عقيدة قوية هاجمها الإسلام ، كما هاجم اليهودية والنصرانية المحرفتين فوقفت العقائد الثلاث فى وجه الدعوة الإسلامية يظهر ذلك فى قصة ابن الزبعرى كما ترويها كتب السيرة :

(قال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى : والله ما قام النضربن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد وقد زعم أنا وما نعبد من آلهة حطب جهنم . فقال عبد الله بن الزبعرى : أما والله لو وجدته لخصمته فسلوا محمدا : أكل ما يعبدون من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد عيسى ابن مريم) [١] .

ويظهر هذا النص نوعا من الجدل العقلى ، وذا دلالة على أن لقريش عقيدة قوية وإن ابتعد عنها بعض أو سخر منها آخر أو تهاون .

وكان الدين فى واقع أمره بقايا أثرية من دين إبراهيم فيه البساطة والتقشف اختلطت بعبادة الأصنام وتعظيم الأوثان ووضعها فى الكعبة تقربا إلى الله بزعمهم ، فلم يكن للعرب ما كان للإغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد ، ولكن كانت لهم عقيدة قوية ، فإذا أردنا تتبع الحوادث والمواقف التى تظهر قريشا زعيمة العرب قوية العقيدة فسنجد الكثير :

موقف عبد المطلب عام الفيل وقوله : « للبيت رب يحميه » .

أسند الحماية لله عز وجل ، فدل على قوة العقيدة بأن قريش لم تبن البيت وإنما بناه الله فهو كفيل بالدفاع عنه ، وكانت حادثة الفيل وسيلة لتركيز العقيدة فى نفوس القرشيين وزيادة ثقتهم بآلهتهم .

وقصة إجماع قريش على إعادة بناء الكعبة – نلمس فيها تمسكهم بعقيدتهم

---

(١) ابن هشام – السيرة ج ١ ص ٢٨٣ .

وحرصهم عليها حرصا جعلهم يضحون بالغالى والنفيس فى سبيلها . يروى أنهم لما اجتمعوا على هدمها قال الوليد بن المغيرة أو أبو وهب بن عمرو بن مخزوم : لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس [١] ، ما لم تقطعوا فيه رحما ولم تظلموا فيه أحدا [٢] . ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاربوا وتحالفوا وأعدوا للقتال [٣] فما تفسير ذلك إن لم تكن قريش متمسكة بعقيدة ؟ ثم كيف نفسر تعذيب قريش لفلذات أكبادها إن استطعنا تفسير تعذيب مواليها وضعفائها فإننا لن نستطيع إيجاد مبرر لتعذيب أبنائها بل مقاطعتهم ، غير التمسك بعقيدة يهون من أجلها المال والولد . فهذا الخطاب يؤذى زيد بن عمرو بن نفيل عندما خرج على دين قريش ومبادئهم — أخرجه إلى أعلى مكة ووكل به شبانا من شباب قريش وسفهاء من سفائهم ليمنعوه من دخولها ، فكان لا يدخل مكة إلا سرا فإذا علموا آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراقه [٤] وبقى على ذلك حتى قتله النصارى بالشام [٥] .

وهذا خالد بن سعيد بن العاص يعذبه والده أبو أحيحة فيضربه بقراعة فى يده حتى يكسرها على رأسه ثم يأمر بحبسه ويضيق عليه ويجيعه ويعطشه حتى لقد مكث فى حر مكة ثلاثا ما ذاق ماءا [٦] .

---

(١) ابن هشام — السيرة ج ١ ص ٢١٠ .
(٢) ابن سعد — الطبقات ج ١ ق ١ ص ٩٣ .
(٣) ابن هشام — السيرة ج ١ ص ٢١٣ .
(٤) ابن هشام — السيرة ج ١ ص ٢٤٩ / الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٧٦ الإصابة ج ٣ ص ٣١ .
(٥) ابن قتيبة — المعارف ص ٥٩ و ص ٢٤٥ / أسد الغابة ج ٢ ص ٩٧ .
(٦) انظر صورا من تعذيب الصحابة — الطبرى ج ٢ ص ٣٢٣ — ٣٤٦ . صحيح البخاري — مالقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة .

وفى تعذيب قريش لأتباع رسول الله الدليل على تمسك قريش بدينها وعقيدتها [(١)] . ثم هذه العروض التى توالت على أبى طالب عم الرسول ﷺ - أولا ثم على الرسول ثانيا - العروض المغرية ليترك محمد دعوته ويدع شتم آلهتهم أو الحط منها حتى بلغ الأمر أن عرضوا خيرة شبابهم عمارة بن الوليد لأبى طالب ليسلمهم محمدا ﷺ [(٢)] وقد قالوا لرسول الله ﷺ :

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا - فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر منك [(٣)] .

كما نجد التيار الروحى القوى لدى قريش فى فكرة **الحمس** التيار الذى انبثق من أعماق الوثنية الجاهلية محاولا تعميق هذا الدين وإحاطته بالقداسة وبالعاطفة المتأججة [(٤)] والحمس هم قريش ومن دان بدينهم من كنانة [(٥)] فذهبوا مذهب التأله والتزهد كما يقول السهيلى وإن مثلهم فى ذلك مثل من قال الله فيهم : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ [(٦)] .

فقالوا : نحن (أى قريش) بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها وليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس [(٧)] . وأهل الأخبار وإن جعلوا ما ذكروه عنهم من التشدد فى الدين خاصا بأيام الحج غير أن هذا التقشف على ما يظهر كان سمة من سمات تلك

---

(١) ابن سعد - الطبقات ج ٤ ق ١ ص ٦٨ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٣٢٧ / ابن هشام - السيرة - ج ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٣٣٧ / ابن هشام / السيرة ج ١ ص ٣١٥ .
(٤) ريان ج ١ ص ٣٦ .
(٥) المعارف ص ٦١٦ وص ١٢٠ / القرطبى - تفسير ج ٢ ص ٤٢٨ .
(٦) د . عبد الحليم محمود - التفكير الفلسفى ج ١ ص ٣٦ .
(٧) انظر المعارف ص ٦١٦ وص ١٢٠ / اليعقوبى - تاريخ ج ١ ص ٢٥٦ .

الجماعة لا يقتصر على تلك الأيام وحدها بل كانت تمتد طوال أيام السنة .

وأما قضية الغرانيق فكما كانت دليلا على قوة تمسك قريش بعقيدتها الوثنية كانت عاملا من عوامل الهجوم الصاعق صبه أهل الكتاب من مستشرقين وغيرهم فى العصور الحديثة كيهود ذلك الزمن (١) على الإسلام . وقصتها من ابتداع ماكر وقد يكون يهوديا . فالروايتان اللتان وردتا فى الطبرى (٢) ترجع الأولى إلى محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس من أهل المدينة و لم يرجع عمدة المؤرخين إلى غيرهما .

وقد أفاض القاضى عياض فى كتابه المترجم (بالشفا بتعريف حقوق المصطفى) بتفنيد هذه القصة ، وهناك عبارة له تدلّ على إدراك المسلمين إن هذه القضية لفقها بعض شياطين الإنس للنيل من المسلمين ومن الإسلام قال :

« ولا شك فى إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلى المحدثين ليلبس به على ضعفاء المسلمين » (٣) .

وفى ختام قضية عقيدة قريش أذكر حادثة تظهر قوة تمسكهم بدينهم فى غزوة الحديبية :

فقد أرسلت قريش الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ليرى أمر رسول الله فلما رآه الرسول ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا بالهدى فى وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائد وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل رسول الله إعظاما لما رأى . وقال لهم : يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيصد

---

(١) يقول لوبون / ظن محمد فى وقت من الأوقات أنه يستطيع إن اعترف بمنزلتهن (الغرانيق الثلاثة) وقوتهن القدسية أن يحمل أبناء قومه على الكف عن إيذاء أتباعه الذين ليس لهم من مجير قوى يحميهم ... ومع ذلك فسرعان ما ندم محمد ...
لوبون ج ٢ ص ٩٥ الفصل الثالث / نيكلسون P . 155 .

(٢) الطبرى – تاريخ – ج ٢ ص ٣٣٨ – ٣٤١ / الكامل ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) النويرى – نهاية الأرب ج ١٦ ص ٢٣٥ – ٢٤١ .

عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذى نفس الحليس بيده لتخلينّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد [(١)] .

وأشير فى النهاية أن أهل مكة والعرب عامة لم يكونوا قوما وثنيين على النحو المفهوم من الوثنية وجماعة جاهلة مشركة لا تفهم شيئا عن وجود خلق وخالق اعتقدت بآلهة عديدة وبأن الأصنام هى أرباب حقا تنفع وتضر ، بل كانوا يعتقدون بوجود إله واحد خلق السموات والأرض ولكنهم أضافوا أمورا فجعلوا مع الله شركاء وتقربوا إلى الأصنام وذبحوا على الأوثان وجعلوا له بنين وبنات وآمنوا بالجن إيمانا عطل كل سلطان وأمر لله واعتقدوا بالقربان وبالشفاعات لتقربهم إلى الله زلفى – وهذا ما حاربه الإسلام وخاصمهم من أجله فوقف فى وجهه صناديد قريش لأنه كان فى عرفهم هدما وتقويضا لعقيدة راسخة ونظام اجتماعى وسياسى يجب أن يدوم . وعلى هذا نستطيع القول بأن قريش انحرفت بدين إبراهيم عليه السلام كما انحرف أهل الكتاب من اليهود والنصارى فاتفق الجميع على عداوة محمد ﷺ والوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية .

أهل الكتاب وقريش فى وجه الدعوة الإسلامية :

رأى أهل الكتاب الإسلام ومحمدا منافسا جديدا يوشك أن يقضى على نفوذهم فعارضوه منذ اللحظة الأولى فقد كان محمد ﷺ من صميم العرب ومن أكرم بيوتات قريش فهو لذلك أقرب إلى نفوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعا بافتخارهم عليهم بالعلم وبالتوراة وكتب بنى إسرائيل [(٢)] كما كانوا أهل ربا فاحش يعتقدون أن الله يمنحهم الخير والبركة لأنهم أبناء الله وأحباؤه على زعمهم ، فكانت بأيديهم تجارة يثرب وصناعاتها ووصل بهم الخبث وسوء الطوية إلى حد أنهم كانوا يأكلون أموال العرب بالباطل ذاهبين إلى أنه ليس عليهم فى الأميين سبيل [(٣)] . وكرهوا المساواة المطلقة التى نادى بها الإسلام كما كرهها زعماء

---

(١) ابن هشام – السيرة ج ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) الخربوطلى – الدولة العربية الإسلامية ص ٢٣ .

(٣) كما أشار تعالى بقوله : ﴿ قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ والأميين هم غير اليهود . سورة آل عمران – الآية ٧٥ .

قريش . فأين عظمة قريش وتبجحها بالآباء وأين صلف أهل الكتاب وعبادتهم المال من المساواة التى أعلنها الإسلام وطبقها فسالم مولى أبي حذيفة المجهول النسب يؤم المسلمين فى الصلاة وفيهم عمر بن الخطاب لأنه كان أقرأهم [١] شيء لم تألفه قريش ولم يألفه أهل الكتاب فأين هذا من النفوذ الطبقى الذى مارسه الأحبار والرهبان من أهل الكتاب الذين كانوا يحلّون ويحرمون ، فقال تعالى ذاما لهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ [٢] كما كانت قريش قد تأثرت بطبيعة الأحبار والرهبان فكانت منزلتهم من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بنى إسرائيل ولهم مثل امتيازات الكهنة فى النصرانية [٣] فكانوا لا يؤدون إتاوة ولا يتكلفون دفاعا يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد ، يتزوجون من أية قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم فى ذلك ، ولا يزوجون أحدا إلا إذا اشترطوا عليه أن يكون متحمسا لدينهم وفرضوا فروضا ألزموا الناس باتباعها .

وهذا يفسر لنا لماذا توحدت جهود القوى المضادة للدعوة الإسلامية لأن الإسلام مس مصالح هذه والقوى ثم هدّدها . ومن هنا أيضا جاءت الروايات زاخرة تحكى عداوة أهل الكتاب بالتعاون مع قريش تارة وبدونها تارة أخرى .

تحكى الروايات أنه عندما ولد محمد ﷺ كان فى مكة يهودى يدعى يوسف ، توجه مع بعض وجوه قريش إلى آمنة وقالوا لها :

أخرجى لنا ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره ، فرأى الشامة (علامة النبوة) فخر مغشيا عليه ، فلما أفاق قالوا : ويلك مالك . قال ذهبت النبوة من بنى إسرائيل [٤] .

---

(١) ابن سعد / الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٦١ .
(٢) التوبة الآية ٣١ .
(٣) جورجى زيدان – التمدن الإسلامى ج ١ ص ٣٤ .
(٤) ابن سعد – الطبقات ج ١ ق ١ ص ١٠٧ / المقريزى – إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٤ / ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٤٢٦ .

وينمو محمد فتنمو معه عداوة اليهود فيتآمرون على قتله طفلا رضيعا فى حضن حليمة السعدية .. إذ أنها لما تحدثت عنه أمامهم قالوا : لو عرفنا أنه يتيم لقتلناه [١] .

وتظهر بعض الروايات أن النصارى كانوا أقل فى حملتهم العدائية من اليهود ففى إحداها : أن أحد الرهبان قال لعبد المطلب أو – لأبى طالب : احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام – إن اليهود حسد وإنى أخشاهم عليه [٢] وفى أخرى أن بحيرى الراهب [٣] نصح أبا طالب أن يبعده عن اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبلغنه شرا [٤] .

ورواية ثالثة : أن مما هاج أمه السعدية على رده إلى أمه مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه – أن نفراً من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه فنظروا إليه وسألوها عنه وقلبوه ثم قالوا : لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فإن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره (ويضيف راوى الخبر) فزعم الذى حدثنى إنها لم تكد تتفلت به منهم [٥] .

هذه الروايات توهم أن النصرانية كانت أكثر لينا فى عداوة محمد ﷺ وبالتالى فى مواجهة الدعوة الإسلامية والحقيقة أنها ذات دلالة على أن النصرانية

---

(١) ابن سعد – الطبقات ج ١ ق ١ ص ٧١ .
(٢) نفسه ج ١ ق ١ ص ٧٦ .
(٣) واختلف المؤرخون فى الراهب بحيرى فوقع فى بعض السنن عن الزهرى أنه كان من يهود تيماء ، وفى مروج الذهب للمسعودى أنه كان نصرانيا من عبد القيس يقال له جرجيس / ابن حجر / الإصابة ج ١ ص ١٨٣ .
(٤) القصة كاملة – الطبقات ج ١ ق ١ ص ٧٦ و ص ٩٩ ، ١٠٠ / ابن هشام – السيرة ج ١ ص ١٩٦ / إمتاع الأسماع ج ١ ص ٨ ، النويرى ج ١٦ ص ٩١ .
(٥) ابن هشام – السيرة ج ١ ص ١٧٩ / وهناك رواية عن بحيرى تظهر عداء النصارى ففى رحلة الشام ناشد بحيرى أبا طالب ألا يذهب بمحمد إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة قتلوه / فإذا بسبعة نفر من الروم فأرادوا محمدا فردهم عنه بحيرى .
ابن هشام – السيرة ج ١ ص ١٩٧ / الطبرى ج ٢ ص ٢٧٨ – ٢٧٩ .

كانت أقل تحكما فى العرب من اليهودية بالنظر لقلة عددهم فى الحجاز بالمقارنة لعدد اليهود . ولأن مواقف اليهود العدائية للدعوة الإسلامية فى المرحلة الأولى طغت على مواقف النصرانية العدائية فظهرت مواقف النصارى لينة بسيطة الأمر الذى ينخدع به المؤرخ للوهلة الأولى فنظن أن النصارى لم يقفوا فى وجه الدعوة الإسلامية وفى وجه الرسول بالذات فى أول دعوته إلى الإسلام ، وكثيراً ما يعود هذا الوهم إلى أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة بإذن من محمد ﷺ فى السنة الخامسة من بعثته حينما اشتد الأذى بالمسلمين . والواقع أن اختيار المسلمين الهجرة إلى الحبشة يعود إلى شخصية النجاشى - أصحمة - بالذات لعدله . خلافا لما يراه المستشرقون بأنه كان لكونها على صلة ببيزنطة بانين ذلك على ما ورد فى سورة الروم من تنبؤ بنصر الروم على الفرس وخلافا لما ذهب إليه الأستاذ الكبير الصعيدى من أن الإسلام كان ناشئا ولم تفسد السياسة بعد بينه وبين النصرانية فآثر المسلمون مصافاتها على مصافاة أعدائهم من مشركى قريش [١] . والأمر واضح فى قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه عندما أذن لهم بالهجرة :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه » [٢] .

ولربما استنتج بعض من قوله عليه الصلاة والسلام : « وهى أرض صدق » أن المسيحية كانت لا تقف فى وجه الدعوة الإسلامية إن لم تكن ترحب بها . ولكن هذا استنتاج بعيد عن واقع الأمر فالأرض فى مفهوم ذلك الزمن تبع لحاكمها - فأرض صدق أى يحكمها رجل عادل صادق . وكما وقف بعض الأحباش بجانب النجاشى وقف كثير منهم ضده ولم يرض عن حمايته للمسلمين واستنكر ذلك وحاولوا خلعه فخاف عليه المسلمون [٣] .

---

(١) السياسة الإسلامية فى عهد النبوة ص ٥١ .

(٢) ابن هشام - السيرة ج ١ ص ٣٤٣ / الكامل ج ٢ ص ٧٦ .
وفى اليعقوبى أن الرسول ﷺ قال « ارحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة إلى النجاشى فإنه يحسن الجوار » ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) انظر التفاصيل - السيرة ج ١ ص ٣١٤ / أسد الغابة ج ١ ص ٨١٩ - =

ونازعه رجل على الملك ، فكانت هناك ثورة على حكم النجاشي استنكاراً لحمايته المسلمين وهذا ما يفسر لنا سرور المسلمين بانتصاره [١] .

كما حاول أهل الحبشة فتنة المسلمين عن دينهم وقصة تنصر عبيد الله بن جحش زوج رملة أم حبيبة بنت أبى سفيان تنهض دليلا على ذلك . فقد قدم الحبشة وتنصر بها وفارق الإسلام ومات هناك نصرانياً [٢] .

كذلك ليس هناك دليل على أن الهجرة كانت موضوعا لمصافاة النصرانية للإسلام على حساب قريش أو العكس ، وقصة عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة فى محاولتهما استمالة النجاشي معروفة وتدل على أن الصفاء والود بين الحبشة وقريش لم ينقطع بل كان على عهده السابق .

يظهر أن القوى جميعها فى جزيرة العرب اتفقت على محاربة الإسلام لأنه هدد مصالحهم تهديدا مباشرا : اليهودية والنصرانية والوثنية – فالوثنية كانت تنكر الوحى والرسالة إلا إذا استثنينا أفرادا من بقايا الحنفاء فى الحجاز – وكانت شبهة مشركى قريش وغيرهم على الوحى استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر لهذا التفضيل على سائرهم وهم متساوون فى الصفات البشرية . فالتقوا بذلك مع اليهود الذين أنكروا أن يختص الله بهذه الرحمة والمنّة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة فى شعب إسرائيل وحده كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون رحمته وفضله ولا يستحقون – كذلك – ما أعطاه الله لليهود من هداية ونبوة . ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم فأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح عليه السلام وغيرهم [٣] فاستطاع أهل الكتاب بما أوتوا من قوة

= الإصابة ج ١ ص ١١٧ . هذا وقد أسلم النجاشي ولما توفى صلى عليه الرسول ﷺ سنة ٩ هجرية صلاة الغائب لأنه لم يكن عنده من يصلى عليه . البخارى ١٣٣٤ فى الجنائز و ٣٨٧٧ – ٣٨٧٩ فى المناقب ومسلم رقم ٩٥١ وأحمد ج ٤ ص ٢٦٠ – ٢٦٣ .

(١) السيرة – ج ١ ص ٣٦١ .

(٢) السيرة ج ٣ ص ٣١٤ / ابن خلدون ج ٢ ص ٧٠٧ .

(٣) محمد خلف الله – محمد والقوى المضادة ص ٥٧ .

فى الجدل والحجة أن يغرسوا فى نفوس كثير من العرب هذه الميزة لليهود . ولم يكتفوا بذلك بل استطاعوا أن يغرسوا فى أفكار الناس آنذاك أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا رغم البعد الزمنى الشاسع بين إبراهيم عليه السلام واليهودية بله النصرانية .

أثر اليهود فى استجابة يثرب لدعوة الإسلام :

لما اتسع نشاط الأوس والخزرج الاقتصادى والسياسى لجأ اليهود إلى الدس والوقيعة بين القبيلتين وأخذوا يحالفون القبيلة المهزومة على المنتصرة حتى تضعف شوكتها وتمنع تسلطها فيحتفظون دون القبيلتين بالسيادة واحتكار الموارد الاقتصادية (١) . فقد حالف بنو قريظة الأوس بعد أن نشدت الأوس حلف قريش ضد الخزرج فرفضت لتحافظ على مصالحها – ودارت حرب عنيفة سميت يوم بعاث (أو فجار يثرب) انتهت بانتصار الأوس وضعف الفريقين المختصمين الأوس والخزرج – وهنا شعر الفريقان بالخطر فاتفقا على أن يضعا حدا لهذه المآسى . وشعر اليهود بالتالى مقدار الخطر الذى يهدد مصالحهم من جراء هذا التقارب ولم يستطيعوا الوقوف فى وجه تفاهمهم فاتبعوا أسلوبهم الذى برعوا فيه (الدس) ورشحوا عميلهم عبد الله بن أُبى ليكون ملكا عليهم جميعا .

ولا ريب أن بعض المستنيرين من الأوس والخزرج أدركوا ما ينطوى عليه تتويج عبد الله من محافظة على مصالح اليهود حلفائه فأسرعوا لتصديق الرسول ﷺ لإنقاذهم فبايعوه ...

وكان اليهود يعدون عبد الله للملك يثرب قبل يوم بعاث – فقد أطلق رهائن اليهود من قريظة والنضير ورفض الاشتراك فى مهاجمتهم مع قومه الخزرج مما جعلهم يتلقون الضربة الأولى وتسبب فى هزيمة شنيعة لقومه أمام الأوس وقريظة والنضير (٢) فرشحه اليهود من بين أضعف الفئتين ليكون ملكا . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فقد كان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح (٣) الذى

---

(١) الخربوطلى – العلاقات ص ٥٧ نيكلسون P : 155 .
(٢) الأصفهانى – الأغانى ج ١٥ ص ١٥٤ – ١٥٩ .
(٣) أرنولد – الدعوة إلى الإسلام ص ٤٢ .

ينتظر اليهود عودته ، وكان اليهود يستفتحون به على الأوس ، والخزرج بقولهم : (إن نبيا الآن مبعوث قد أطل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم) (١) فكان اليهود يتوقعون ظهور نبى وكانوا يتوعدون به الوثنيين ولكن أحبارهم جعلوهم يظنون أن النبى يظهر من بنى إسرائيل فسارع الأوس والخزرج للتصديق بدعوة محمد ﷺ فقد قال النفر الذين بايعوه بعضهم لبعض : (تعلمن والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه) (٢) .

وأرجع جورجى زيدان أسباب انتشار الإسلام فى يثرب إلى كثرة من فى المدينة من اليهود وهم أهل كتاب يعتقدون الوحى ويدركون معنى النبوة وليس فيهم من يخاف على تجارته إذا بطلت عبادة الأصنام بل هم يفضلون إبطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم وخصوصا إذا هاجر إليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزا للدين الجديد تحج إليها الناس حجهم إلى مكة ، واليهود كما لا يخفى أهل نظر فى التجارة وأصحاب فراسة فى أبواب الكسب (٣) . وكأنه أى (جورجى) يريد أن يصور الذين استجابوا لدعوة الإسلام أنهم من اليهود – وواضح أن ذلك بعيد عن الصواب فاليهود هم أول من وقف فى وجه الدعوة الإسلامية كما أن عبارة الطبرى السابقة واضحة الدليل على أن – الاستجابة كانت نكاية باليهود .

ثم يحاول جورجى أن يرجع الاستجابة إلى أثر العصبية الجاهلية فيقول : (ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما فى الأنساب لأن أهل مكة من العدنانيين وأهل المدينة من القحطانيين عرب اليمن فنشط أهل يثرب ودعوه إليهم على أن ينصروه (٤) .

ولسنا نريد تفنيد هذه المزاعم فهى واهية ويكفى أن نذكر من مظاهر العلاقة بين المدينتين المصاهرات الكثيرة التى تمت بين قريش وأهل المدينة ، ثم

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٣٥٤ / إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣١ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٣) التمدن الإسلامى ج ١ ص ٤٨ .
(٤) التمدن الإسلامى ج ١ ص ٤٨ .

محاولة الأوس يوم بعاث أن تستنجد بقريش ضد الخزرج ورفضت قريش ذلك حتى لا ترضى فريقا دون فريق .

والخلاصة أن استجابة الأوس والخزرج للإسلام كانت نكاية باليهود ومحاولة للتخلص من استغلالهم الاقتصادى ومن فتنهم وحليفهم الذى رشحوه لحكم المدينة . وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

وقد سكتت المصادر سكوتا تاما عن مواقف أهل الكتاب من أحداث – العقبة الأولى والثانية – ويعود ذلك إلى حذر الرسول ﷺ وحذر المسلمين فقد قال أبو الهيثم بن التيهان فى بيعة العقبة الثانية :

(إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها) – يعني اليهود – [(١)] كما أننا لا نلمس لهم ذكرا بعد بيعة العقبة الثانية وهجرته ﷺ إلى المدينة إلا عندما وصلها حيث كان أول من رآه يهودى [(٢)] ويفسر هذا الأمر بأن أهل الكتاب استسلموا للأمر الواقع وهو إسلام الأوس والخزرج فأخذوا يرقبون ويتربصون ما تسفر عنه الأحداث بعد أن أخذ المسلمون فى الهجرة إلى يثرب كما أنهم أخذوا يتشاورون ويخططون فى المنهج الذى سينهجونه حيال تعاظم الإسلام ، ولم تكن مواقفهم قد اتضحت بعد ، ولكن الخط العام الذى لا شبهة فيه هو العداء المتأصل فى قلوب اليهود تجاه الإسلام ونبيه – يظهر ذلك واضحا دون لبس فى محادثة جرت بين ياسر بن أخطب وحيى بن أخطب عندما وصل الرسول ﷺ قباء فى بنى عمرو بن عوف . قال ياسر لحيى : فما نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت [(٣)] .

---

(١) الطبرى – تاريخ – ج ٢ ص ٣٦٣ / ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) الطبرى – تاريخ – ج ٢ ص ٣٦٧ / البلاذرى – الأنساب ج ١ ص ٤٠٣ / إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٥ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٣٨١ / ابن هشام – السيرة – ج ٢ ص ١٠٩ / إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٥ ، وروت ذلك الخبر صفية بنت حى بن أخطب بعد إسلامها وزواجها من رسول الله ﷺ .

موقف الرسول ﷺ من أهل الكتاب بعد وصوله يثرب :

لما وصل الرسول ﷺ المدينة وجد الأنصار والمهاجرين واليهود وبعض النصارى الذين سكنوا يثرب .

فالأنصار والمهاجرون كانت قد وحدتهم العقيدة الإسلامية وربطت فيما بينهم برباط متين آخى بينهم الرسول أخوة قامت على دعائم قوية من الخير والإيمان فأقام بهم دولة إسلامية أرقى فى مفهومها من مفهوم الدولة المعاصرة [١] لأنها تتخطى الحدود الأرضية والحواجز العرقية والجنسية : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [٢] دولة قامت على أساس العقيدة متخطية كافة الحواجز .

وأما اليهود والنصارى ومن لف لفهم من الذين لم يسلموا من الأوس والخزرج فقد وادعهم الرسول ﷺ واعتبرهم رعايا فى هذه الدولة الجديدة وكتب بينه وبينهم كتابا واشترط عليهم ألا يمالئوا عدوه ، وأن ينصروه على من دهمه [٣] فكان الكتاب عبارة عن وثيقة « دستور » تحددت فيه العلاقات بين رعايا الدولة الإسلامية من أهل يثرب من مسلمين ويهود ونصارى ذكر ابن إسحق صورة عن هذا الكتاب [٤] ومن البنود التى خصت أهل الكتاب فى هذه الوثيقة :

فرض التضامن التام إبان نشوب الحرب مع الأعداء على جميع رعايا الدولة الإسلامية مهما اختلفت الديانات والآراء واعتبر الذين يتصلون بأعداء الدولة من

---

(١) فالدولة فى المفهوم المعاصر : هى الشخص المعنوى الذى يمثل أمة تقطن أرضا معينة والذى بيده السلطة العامة أو السيادة .

وأما الحكومة : فهى هيئة تقوم بوظيفة الدفاع عن المجتمع ومبادئه داخليا وخارجيا وتسند لرئيس النظام سلطة عامة معينة للإشراف والسيطرة – جب ص ٤٩ (الدولة هى مجتمع ثابت يملك بقعة معينة من الأرض وتعيش فى ظل سلطة منظمة مستقلة ذات سيادة) أو هى شعب منظم خاضع للقانون . عفيفى ص ١١١ .

(٢) الحجرات الآية ١٣ .

(٣) البلاذرى – الأنساب ج ١ ص ٤٤١ .

(٤) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١١٩ – ١٢٣ / وابن إسحق هو الوحيد الذى ذكر الكتاب بتمامه .

الخونة وأعداء الأمة يستحقون أقسى العقوبات (فلليهود التابعين للمؤمنين النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ومواليهم وبطانتهم كأنفسهم فى ذلك لهم دينهم وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم وفتك فبغيه ذلك عليه وعلى أهل بيته ، وعليهم النصر مع المؤمنين على من حاربهم ويتفقون مع المؤمنين فى الحرب وعليهم النصح والنصيحة والبر دون إثم ، ولا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد) (١) فألغيت الزعامة القبلية وجميع عاداتها وتقاليدها التى كانت تمارسها القبائل وكهنتها وعرافوها ، فحلت الأمة (٢) محل القبيلة والمبادئ الجديدة محل العادات والأوضاع الجاهلية .

ولكن هل قبل اليهود هذا الوضع وارتضوه ؟. هنا انقسم اليهود قسمين فجماعة ارتضت ذلك وهدأت إليه وأقبل بعضهم على اعتناق الإسلام إيمانا ويقينا كعبد الله بن سلام رضى الله عنه — والقسم الآخر وهم الأكثرية كان يتحين الفرص للانقضاض على الإسلام ودولته . فكان لابد من الصدام . ومن أسباب وقوفهم ضد الإسلام ودولته :

(١) السبب الأول ينبع من عقيدة اليهود نفسها فقد جاء فى سفر التثنية : « إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها ، فلا تسمع كلام ذلك النبى أو الحالم .. وذلك النبى أو الحالم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب » (٣).

---

(١) السيرة ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) نعت الرسول ﷺ المسلمين عند قيام الدولة الإسلامية بالمدينة بكلمة الأمة فقال : « إن المسلمين أمة واحدة من دون الناس » . وقد دخل تحت مدلول هذا اللفظ اليهود .

والجديد فى هذا المبدأ أنه الجذر الأساسى للاعتراف بتكوين الأمة للمرة الأولى فى تاريخ جزيرة العرب . يقول المستشرق مونتجمرى واط : إن فكرة الأمة كما جاء بها الإسلام هى الفكرة البديعة التى لم يسبق إليها . ولم تزل إلى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض يفيض بالإيمان ويدفع المسلمين إلى الوحدة فى أمة واحدة تختفى فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة .. عفيفى ص ١١٠ .

(٣) سفر التثنية الإصحاح ١٣ ص ٣٠٠ .

(٢) السبب الثانى : إن الإسلام هدد مصالح اليهود الاقتصادية وزعامتهم فى الجزيرة بنهيه عن الاحتكار والاستغلال والربا ، وإنهائه للانقسامات والاضطرابات القبلية بين الأوس والخزرج .

(٣) وأما السبب الثالث فيكمن فى أن اليهود كانوا يطمعون أن يضموا الرسول ﷺ إلى صفوفهم وأن يزدادوا به على النصارى قوة ومنعة فوافقوا على العهد ولما ازداد المسلمون شوكة وقوة وأخذ اليهود المستنيرون من أمثال عبد الله بن سلام يعتنقون الإسلام عن إيمان ، خشى اليهود أن يتسع انتشاره بين قبائلهم اليهودية فبدأوا بشن العداء ضد الإسلام ورسول الإسلام والمسلمين . ليحولوا دون إسلام بقية اليهود وليعضدوا المنافقين .

واعتبر بعض المؤرخين والمستشرقون هذه الوثيقة معاهدة مع بعدها عن مصطلح المعاهدات . فيقول ولفنستون وهو يعكس أصحاب هذا الرأى :

« وعلى كل حال فليس من شك أن النبى قد عقد العقود والعهود مع العرب واليهود بعد حضوره إلى يثرب ، فعلى ذلك أميل إلى الاعتقاد بأنها كانت أكثر من معاهدة واحدة لأننا نجد الرسول يغضب من بنى النضير لأنهم لم يشتركوا فى يوم أحد فى حين أنه لم يطلب من بنى قريظة أن يشتركوا معه فى حرب المشركين » [(١)] .

والدليل الذى اعتمد عليه ولفنستون غير صحيح فقد كان الرسول ﷺ يقول :

« لا نستعين بمشرك على مشرك » فهو لم يغضب من بنى النضير ولم يطلب من بنى قريظة الاشتراك فى الحرب . فالوثيقة كما ذكرنا هى دستور ينظم العلاقات بين رعايا الدولة الإسلامية ، لا معاهدة من المعاهدات بالمفهوم المعاصر . وكان التشريع الإسلامى لما يكتمل بعد . فالوثيقة مرحلة من مراحل التشريع الذى تم قبل وفاة الرسول ﷺ .

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٢١ .

وقف اليهود فى بادئ الأمر موقفا سلبيا من الدولة الإسلامية اقتصر على المجادلة والتشكيك فى الدين وساعدهم على ذلك معرفتهم وبراعتهم فى الحجاج العقلى والفكرى حيث تمكنوا من أن يغرسوا فى أذهان العرب بأنهم أهل الكتاب وذوو العلم والفضل من بين الأمم .

ولما مات فى الأشهر الأولى من هجرته عليه الصلاة والسلام أبو أمامة أسعد بن زرارة من بنى النجار بالذبحة والمسجد يبنى فتحدث اليهود فى ذلك قال ﷺ :

« بئس الميت أبو أمامة ليهود ومنافقى العرب ، يقولون : لو كان نبيا لم يمت صاحبه ، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئا » [١] .

ولما ولد عبد الله بن الزبير كان أول مولود من المهاجرين فى دار الهجرة فكبر أصحاب رسول الله وذلك أن المسلمين كانوا قد تحدثوا أن اليهود يذكرون أنهم قد سحروهم فلا يولد لهم ، فكان تكبيرهم ذلك سرورا منهم بتكذيب الله اليهود فيما قالوا من ذلك [٢] .

وبذلك قابل اليهود الرسول بالجحود والغدر فلم يفوا بوعودهم التى ما وافقوا عليها إلا ليخدعوا المسلمين ويدبروا فى السر ما يفسدون به أمرهم وقد أعمى الهوى بعض المستشرقين عن حقائق الواقع والآيات فزعموا أن النبى ﷺ قد بيت نية التنكيل باليهود منذ البدء وأنه إذ لم ينفذ فيهم مرة واحدة فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعا ثم غمزوه – بالنكث والميل إلى سفك الدم والطمع فى أموال اليهود [٣] . وهذا يخالف الروايات المتواترة عن نكث اليهود للمواثيق منذ اللحظات

---

(١) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٢٧ / وقيل : قال ﷺ : « ميتة سوء لليهود . يقولون أهلا دفع عن صاحبه ولا أملك له ولا لنفسى من الله شيئا » . وإسناده صحيح . مسند أحمد ٤ / ٦٥ ، ٥ / ٣١ / البداية ج ٣ ص ٢٣٠ – الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ١٤٠ .

(٢) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٣٤ . الطبرى – تاريخ ج ٢ ص ٤٠١ .

(٣) دروزة ج ٦ ص ٢٥٠ تاريخ الجنس العربى .

الأولى . فقد كان أهل الكتاب يكيدون الدعوة الإسلامية من الداخل بإعلان الدخول فى الإسلام ثم إعلان الخروج منه بعد فترة زمنية لإيهام العرب عامة والمسلمين خاصة بأن هذا الدين الذى يدينون ليس بشىء .

(قال عبد الله بن ضيف وعدى بن زيد والحرث بن عوف بعضهم لبعض : نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكذبه عشية حتى نلبس عليهم لعلهم يصنعون كما نصنع ويرجعون عن دينه) (١) فأنزل فيهم سبحانه وتعالى :

﴿ ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون * وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ (٢) .

كما حاولوا أن يثبطوا همم المسلمين عن دينهم فكانوا يشيعون بينهم عند قدوم الرسول إلى المدينة : (إن الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما يعذب الناس بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا فى النار من أيام الآخرة فإنما هى سبعة أيام ثم ينقطع العذاب) (٣) فأنزل فيهم تعالى قوله :

﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٤) .

وقد ذهب كثير من المستشرقين والمؤرخين إلى أن اتجاهات النبى فى الأيام الأولى من مقامه فى المدينة تأثرت بالصلة التى كانت بينه وبين اليهود وأنه كان يرجو أن يدخل اليهود فى دينه (٥) ولكن الواقع التاريخى يثبت أن الصلة كانت

---

(١) الأنساب ج ١ ص ٤١٧ . ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٨٠ . وفي بعض النسخ عبد الله بن صيف .

(٢) آل عمران الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

(٣) السيوطى – أسباب النزول حاشية تفسير الجلالين ص ٢٠ .

(٤) البقرة الآيتان ٨٠ ، ٨١ .

(٥) بروكلمان – تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٥٣ .

مشوبة بالعداء للإسلام من أول ظهوره فقد رأينا مؤامرات اليهود ودسائسهم وتعاونهم مع قريش والدعوة الإسلامية فى مهدها لم تصل بعد إلى يثرب ، وأما أن يطمع الرسول فى إسلامهم فليس ذلك بمستبعد فالرسول ﷺ أرسل لدعوة الناس كافة فله أن يطمع بإسلام اليهود وغير اليهود .

ومن اللجاج العقلى الذى اتبعه اليهود والنصارى أن بدأوا بأسئلة وجهوها للرسول ﷺ لإحراجه ، ومن أمثله ذلك :

(قالت اليهود للمسلمين لو أن ميكائيل كان هو الذى ينزل عليكم اتبعناكم فإنه ينزل بالرحمة والغيث وإن جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة فإنه عدو لنا) (١) فأنزل تعالى قوله :

﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (٢) .

وعندما قال بعض المسلمين لليهود مذكرين :

(اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته) (٣) كان اليهود ينكرون ذلك ، وقد تمثل جوابهم فى قول سلام بن مشكم أحد بنى النضير للمسلمين : (ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم) فأنزل سبحانه وتعالى :

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ (٤) .

---

(١) ابن كثير – التفسير – ج ١ ص ١٣٢ .
(٢) البقرة – الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .
(٣) السيوطى – أسباب النزول ص ٢٣ .
(٤) البقرة الآية ٨٩ .

كما حاول اليهود والنصارى استمالة الرسول ﷺ لدينهم بقولهم :

(ما الهدى إلا مانحن فيه فاتبعنا يامحمد تهتد) [١] فأنزل الله تعالى فيهم :

﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ [٢] .

وأشاع رؤساء اليهود وعلماؤهم الذين كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضل نعوتا مخالفة لنعت النبى ﷺ قائلين : (هذا نعت النبى الذى يخرج فى آخر الزمان لا يشبه نعت هذا النبى) [٣] .

كما اتبعوا أسلوب التورية لما يقصدون من التنقيص والسخرية بالإسلام ونبيّه ودعوته وتأويل القول بحمله على غير معناه الذى وضع له وهذا هو تحريف الكلم عن مواضعه كما عملوا فى كتبهم من قبل ، فكانوا إذا أرادوا أن يقولوا إسمع لنا يقولوا : راعنا ويورون بالرعونة [٤] فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾ [٥] .

وحاول بعضهم أن يقنع الرسول ﷺ بالسبت وبالتوراة فقد جاء إليه عبد الله ابن سلام وثعلبة بن يامين وأسد وأسيد أبناء كعب وسعيد بن عمرو بن زيد وكلهم من اليهود وقالوا : (يارسول الله يوم السبت يوم نعظمه فدعنا فلنسبت فيه وإن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها الليل) [٦] فنزل قوله سبحانه :

﴿ ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه

---

(١) ابن كثير – تفسير – ج ١ ص ١٨٦ .
(٢) البقرة الآية ١٣٥ .
(٣) السيوطى – أسباب النزول ص ٦٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٤٨ .
(٥) البقرة الآية ١٠٤ .
(٦) السيوطى – أسباب النزول ص ٩٧ .

لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

ولما عجزوا عن استمالته ﷺ وهدأت حججهم عادوا إلى أسلوب العرب الجاهليين الوثنيين استكبارا وابتعادا عن الحق ، فلما دعاهم الرسول إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته قال له رافع بن حريملة ومالك بن عوف : بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيرا منا (٢) فأنزل سبحانه :

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ (٣) .

وحاول بعضهم إحراج الرسول ﷺ بأسئلتهم فقد جاءه نفر فقالوا :

« يامحمد أخبرنا عن أربع نسألك عنهن فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك » (٤) . وبعد أن أخذ عليهم المواثيق والعهود أن يصدقوه القول أجابهم فنكثوا .

المنافقون (٥) مع أهل الكتاب فى المدينة :

قصة اليهود فى النفاق قصة ملازمة لهم فى كل أدوار تاريخهم الطويل وتأتيهم به الأوامر اليهودية من قادتهم وأمرائهم وأحبارهم ولا يرون فيه بأسا مادام اليهودى محافظا على يهوديته سرا ، وقد استطاع اليهود أن يمكروا هذا المكر بكل الأديان ليصلوا عن طريقه إلى ما يبتغون ، فاستغلوا خبرتهم الطويلة فى النفاق فكوّنوا حزباً

---

(١) البقرة الآيتان ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) ابن كثير – تفسير – ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) البقرة الآية ١٧٠ .

(٤) انظر تفاصيل هذه الأسئلة – المسعودى – أخبار الزمان ٤ – ٥ ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٦٧ .

(٥) إنما سمى المنافق منافقا لإظهاره غير ما يضمر تشبيها باليربوع له جحر يقال له النافقاء وآخر يقال له القاصعاء فظاهر جحره تراب وباطنه حفر ، وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر – القرطبى تفسير ج ١ ص ١٩٥ .

مستورا من المنافقين من عرب يثرب مع بعض أفراد منهم أسلموا نفاقا . وغرضهم أن يجعلوا من المنافقين جيشا داخليا معادياً للإسلام والمسلمين ينخذل عن الرسول ﷺ عند الأزمات والمواقف الحاسمة ويكون سند اليهود عند تعرضهم لنقمة المسلمين فكان التلاحم العضوى بين اليهود والمنافقين على طول خط السير الذى سلكوه فى معاداة الإسلام والمسلمين الصادقين .

فقد أظهر بعض أهل المدينة من الأوس والخزرج واليهود الإسلام وأبطن الكفر فقبل النبى ﷺ ظاهرهم ووكل باطنهم إلى الله تعالى واكتفى بذم نفاقهم على العموم وبعدم الاعتماد عليهم فى أمور الدولة ، وأما علة ظهور هؤلاء المنافقين فى المدينة دون مكة فهى أن النبى عليه الصلاة والسلام والمسلمين الأولين فى مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ فى حالة تستدعى وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم فتتملقهم وتتزلف إليهم وتتظاهر أنها منهم وعلى دينهم وتكون فى الوقت نفسه غير مؤمنة ولا مخلصة وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم فى الخفاء كما كان شأن المنافقين فى المدينة . أما فى المدينة فقد اختلف الأمر وأصبح للإسلام دولة وأصبح له نفوذ وقوة هدد مصالح الكثير من عرب الأوس والخزرج وأصبح قوة يخشاها العرب ، فوجد أهل الكتاب فيمن هدد الإسلام مصالحهم ضالتهم المنشودة فاستمالوا بعضهم فانعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعى على توحيد المسعى وعلى التضامن فى موقف المعارضة وعلى الكيد لتقويض الإسلام من الداخل ، واتفق هؤلاء مع يهود المدينة على أن يبقوا فى السر على ما كان بينهم من حلف قبل الإسلام وعلى ألا يخلصوا لذلك الحلف الجديد الذى عقدوه مع المسلمين [١] ولذا فيمكن القول أن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ولم يكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار فى الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود والنصارى من تعضيد وما انعقد بينهم من تضامن وتوافق . فبدأ عملهم مع أهل الكتاب فى مرحلة متقدمة من الصراع السلبى واستمر إلى ما بعد ذلك من مراحل ، فكانت سخريتهم من الإسلام والمسلمين يقلدون محمدا ﷺ فى الصلاة يفعلون مثله

---

(١) الصعيدى – السياسة الإسلامية فى عهد النبوة ص ٦٨ .

ولكن فى سخرية واستهزاء وعلى رأسهم حليف اليهود المشهور عبد الله ابن أبىّ [١] .

فقد ورد بإسناد واه – ولكنه يحمل دلالة على مقدار ما تعلم هؤلاء المنافقون من كيد برع فيه أهل الكتاب – فى تفسير الآية :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ [٢] .

(يقال : إنها نزلت فى عبد الله بن أبى وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن أبى : انظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فذهب فأخذ بيد أبى بكر فقال : مرحبا بالصديق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثانى رسول الله فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر فقال : مرحبا بسيد بنى عدى بن كعب الفاروق القوى فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد على وقال : مرحبا بابن عم رسول الله وختنه سيد بنى هاشم ماخلا رسول الله ، ثم افترقوا فقال عبد الله لأصحابه : (كيف رأيتمونى فعلت) ؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت ، فأثنوا عليه) [٣] .

وقيل : إن شياطينهم الذين يخلون إليهم هم اليهود كما ذكر معظم أهل التفسير وسماهم الله تعالى شياطين إشارة إلى تسويلاتهم ووساوسهم التى كانوا يوسوسون بها إلى المنافقين ويوصونهم بما يقلق راحة الرسول ﷺ والمؤمنين معه وبما يصدع الصف الداخلى ويوهن قوى المسلمين .

وقد تمكن عبد الله هذا من أن يرد قيس بن الأسلت عن الإسلام

---

(١) الاستيعاب ق ٣ ص ٩٤١ .
(٢) البقرة الآية ١٤ .
(٣) السيوطى – أسباب النزول ص ٥ – ٧ . فى صحيح مسلم حكاية مشابهة تدل على موقف عبد الله بن أبى تجاه المسلمين ج ٥ ص ١٨٣ .

فى السنة الأولى من الهجرة – فقد جاء قيس إلى رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فقال : ما أحسن ما تدعو إليه ، أنظرنى أمرى ثم أعود إليك فلقيه عبد الله بن أبى فقال له : كرهت والله حرب الخزرج . فقال قيس لا أسلم سنة فمات فى ذى القعدة (١) .

ومن المنافقين رافع بن زيد وقعنب وفيهما وفى نفر من أصحابهما نزل قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ (٢) .

وكان خصماؤهم دعوهم فى خصومتهم إلى النبى ﷺ فأبوا ذلك وقالوا : نتحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى أو إلى الكاهن (٣) .

ومنهم بشير بن الحارث الظفرى وكان منافقاً يهجو الصحابة (٤) ، وقد استطاع اليهود أن يدسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه (٥) ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقوى ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب ويلقى على محمد ﷺ الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى أنفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التى يدعو إليها .

ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض الأحبار أسلموا إسلاما حقيقيا خاليا من النفاق فكانت ضربة قوية تلقاها اليهود ولكنها سهلت مهمتهم إلى النفاق والكيد لتقويض الإسلام من داخله .

وفى قصة إسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه ما يظهر طبيعة اليهود على حقيقتها وإنهم كما ذكر عنهم قوم بهت (٦) .

---

(١) الطبرى – تاريخ – ج ٢ ص ٤٠٦ .
(٢) النساء الآية ٦٠ .
(٣) البلاذرى – الأنساب ج ١ ص ٤٢٤ .
(٤) الإصابة ج ١ ص ١٥٦ .
(٥) انظر ابن خلدون – العبر – ج ٢ ص ٧٤٣ .
(٦) انظر قصة إسلامه كاملة – ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٣٩ .

ومن الذين أخلصوا منهم لعهد المسلمين مخيريق وهو من أحبار اليهود من بنى ثعلبة بن الفطيون [١] وقد قال فيه الرسول ﷺ : مخيريق خير يهود [٢] .

وأما الذين تظاهروا بالإسلام منهم فكثير ومنهم : جبل الذى كان من يهود بنى قريظة فتظاهر بالإسلام وقد رثى حيى بن أخطب بأبيات منها [٣] :

لعمرى مالام ابن أخطب نفسه ولكن من يَخذل الله يُخذل

وزيد بن اللصيت القرظي الذى قاتل عمر بن الخطاب بسوق بنى قينقاع وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته [٤] .

ورافع بن حريملة : من أحبار بنى قينقاع وقد قال عنه ﷺ يوم مات : « قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » [٥] .

ورفاعة بن زيد بن التابوت : من بنى قينقاع . وسلسلة بن برهام . وكنانة ابن صوريا [٦] .

وبدخول أهل الكتاب حلبة النفاق اشتد أذى المنافقين فكانوا يجتمعون فى المسجد ويسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم حتى اضطر الرسول ﷺ أن يأمر بإخراجهم من المسجد (فأخرجوا إخراجا عنيفا) [٧] .

واستمرت مؤامراتهم حتى اضطر أبو بكر رضي الله عنه أن يقف لها يوما

---

(١) نفسه ج ٢ ص ١٣٦ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ١٤٠ .
(٣) ابن حجر – الإصابة ج ١ ص ٢٣٢ .
(٤) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٤٩ .
(٥) نفسه ج ٢ ص ١٥٠ .
(٦) نفسه ج ٢ ص ١٥٠ .
(٧) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٥٠ .

موقفا إيجابيا فقد دخل على اليهود بيت المدراس (وهو البيت الذى كان اليهود يتدارسون فيه كتابهم) فوجد جماعة قد التفت حول أحد أحبارهم وهو فنحاص فاشتد الجدل بين فنحاص وأبى بكر فقال فنحاص : (والله يا أبا بكر مابنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء وما هو بغنىّ ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان غنيا ما أعطانا الربا) . فاشتد غضب أبى بكر فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا [١] ونزل قوله تعالى :

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول : ذوقوا عذاب الحريق ﴾ [٢] .

وحاول أهل الكتاب أن يثبطوا همم المسلمين عن النفقة فى سبيل الله فكأنهم يأمرونهم بالبخل ولكن بأسلوب جدلى ذكى : (كيف تطعمون من لو يشاء الله أطعمه) ؟ فكان كردم بن قيس وأسامة بن حبيب ونافع بن أبى نافع وغيرهم يأتون رجالا من الأنصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون لهم : « لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون علام يكون » [٣] . فنزل قوله تعالى :

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ [٤] .

اكتفى الرسول ﷺ فى هذه المرحلة برد كيد أهل الكتاب وإفساد محاولاتهم للتفريق بين المسلمين وتشكيكهم فى دين الإسلام . ولكن أهل الكتاب وسعوا دائرة عدائهم بأن تراسلوا مع أعداء الدولة الإسلامية خارج يثرب

---

(١) نفسه ج ٢ ص ١٨٧ .
(٢) آل عمران الآية ١٨١ .
(٣) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٨٨ .
(٤) النساء الآية ٣٧ .

من قريش وغيرها لتوحيد خططهم معهم ولحملهم على مهاجمة المسلمين فى المدينة معقل الإسلام قبل أن يستفحل أمرهم ويقوى مركزهم فيعجزون جميعا هم وأهل مكة عن التغلب عليهم والقضاء على الرسول ﷺ . وذكر ابن إسحق عددا من مشاهير اليهود الذين تولوا كبر مقارعة الدعوة والرسول بغيا وحسدا وضغنا فذكر من يهود بنى النضير أحد عشر حبرا ، ومن أحبار يهود ثعلبة حبرين ، ومن أحبار بنى قينقاع أكثر من ثلاثين حبرا ، ومن أحبار قريظة سبعة عشر حبرا ، ومن أحبار يهود زريق حبرا ، ومن أحبار بنى حارثة حبرا ، ومن أحبار بنى عمرو ابن عوف حبرا ، ومن أحبار يهود بنى النجار حبرا [١] .

موقف أهل الكتاب من تحويل القبلة :

عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة استقبل بيت المقدس فى صلاته . واختلف العلماء فى كيفية استقباله بيت المقدس على ثلاثة أقوال : فقال الحسن : كان ذلك منه عن رأى واجتهاد وقاله عكرمة وأبو العالية . الثانى : أنه كان مخيرا بينه وبين الكعبة فاختار القدس طمعا فى إيمان اليهود .

الثالث : وهو الذى عليه الجمهور ابن عباس وغيره : وجب عليه استقباله بأمر الله تعالى ووحيه لا محالة [٢] استدلالا بقوله تعالى :

﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ [٣] .

كما اختلف العلماء فى وجهة الصلاة فى مكة قبل الهجرة ، فهناك رأى عن ابن عباس يقول : كانت الصلاة إلى بيت المقدس . وقال آخرون : أول ما افترضت الصلاة إلى الكعبة ولم يزل يصلى إليها طوال مقامه بمكة على ما كانت عليه صلاة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . فلما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ليستألف اليهود ، فلما تبين عنادهم وأيس منهم أحب أن يحول إلى الكعبة

---

(١) انظر : ابن هشام – السيرة – المجلد الأول ص ٥١٣ – ٥١٦ / تحقيق السقا ورفاقه .
(٢) القرطبى – تفسير – ج ٢ ص ١٥٠ .
(٣) البقرة الآية ١٤٣ .

فكان ينظر إلى السماء وكانت محبته إلى الكعبة لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام [١] .
وأما ابن كثير فقال [٢] :

(وحاصل الأمر أن الرسول ﷺ كان أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس) .

ورأى الكثير من المؤرخين المحُدَثين أن الرسول ﷺ كان يستقبل الكعبة فى صلاته حينما كان فى مكة [٣] بينما رأى أرنولد وغيره أن المصلين قد تعودوا فى مكة أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس [٤] .

والواقع أن سبب الاختلاف أن الذين رووا تحويل القبلة لم يصرحوا بأكثر من أمر التحويل ولم يتحدثوا عن القبلة فى المرحلة المكية فمثلا يروى ابن سعد [٥] :

لما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة - فقال يا جبريل وددت أن الله صرف وجهى عن قبلة يهود . فنزلت :

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ [٦] .

كما يذكر البلاذرى [٧] : وصرفت القبلة إلى الكعبة من جهة بيت المقدس فى الظهر يوم الثلاثاء للنصف من شعبان سنة ٢ هـ ويقال على رأس ستة عشر شهرا فى منزل البراء بن معرور) .

---

(١) القرطبى - تفسير - ج ٢ ص ١٥٠ .
(٢) ابن كثير - تفسير - ج ١ ص ١٨٩ .
(٣) دروزة - تاريخ ج ٦ ص ٢٥٢ .
(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٧ .
(٥) الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٤ .
(٦) البقرة : الآية ١٤٤ .
(٧) الأنساب ج ١ ص ٤١٧ .

ويقول الطبرى [١] :

واستقبل النبى ﷺ بيت المقدس ستة عشر شهرا ، فبلغه أن اليهود تقول : والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم . فكره ذلك النبى ﷺ ورفع وجهه إلى السماء فقال عز وجل :

﴿ قد نرى تقلب .... الآية ﴾ .

وذكر ابن إسحق [٢] ولما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة .

وأرجح أن المسلمين كانوا يتوجهون إلى بيت المقدس وهم فى مكة بدليل أن البراء بن معرور كان فيمن توجه من أهل المدينة إلى مكة لبيعة العقبة الثانية وكان يصلى إلى الكعبة وحده قائلا لجماعته : ياهؤلاء إنى قد رأيت رأيا ووالله ما أدرى أتوافقوننى عليه أم لا ؟ قال قلنا : وما ذلك ؟ قال : قد رأيت ألا أدع هذه البنية منى بظهر (يعنى الكعبة) وأن أصلى إليها . قال فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلى إلا إلى الشام وما نريد أن نخالفه . قال فقال : إنى لمصل إليها . فقلنا له : لكنا لا نفعل . قال فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا إلى مكة ... ولما بلغ الرسول ﷺ ذلك قال :

« قد كنت على قبلة لو صبرت عليها » . فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى معنا إلى الشام [٣] .

وهذه الرواية ترجع إلى كعب بن مالك الذى شهد العقبة وبايع الرسول ﷺ وهو رفيق البراء بن معرور إلى الرسول ﷺ ، وسلسلة الرواة معبد بن

---

(١) الطبرى – تاريخ – ج ٢ ص ٤١٧ .
(٢) السيرة ج ٢ ص ١٧٦ .
(٣) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٤٨ – الاستيعاب ج ١ ص ١٥٢ – الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ١٤٦ – أسد الغابة ج ١ ص ٢٠٧ – الإصابة ج ١ ص ٢٣٨ . والبراء ابن معرور الأنصارى الخزرجى أحد النقباء ليلة العقبة وكان نقيب قومه بنى سلمة .

كعب بن مالك عن أبى بن كعب بن القين أخو بنى سلمة عن أخيه عبد الله بن كعب وكان من أعلم الأنصار عن كعب بن مالك – سلسلة الرواة هذه تجعل الرواية تحوز الثقة رغم النقد الذى يمكن أن يوجه إلى متن الرواية وهو أن البراء صلى منفردا عن الجماعة أى خرج عن الجماعة . ولكن هذا الأمر يمكن تبريره بأن الأمر كان فى بدايته ولم تظهر صلاة الجماعة بالشكل المعروف ولم يكن الحض عليها بشكل مشدد إلا بعد الهجرة .

وكان اليهود قد أعجبهم أن يتوجه الرسول ﷺ إلى بيت المقدس (١) وأخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى وبأن النبى والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم وبأنهم أولى من أن يتبعوهم ويندمجوا فيهم لا العكس . فكان هذا يحز فى نفس النبى ﷺ وانبثقت فيها أمنية التحول من سمت بيت المقدس . فكان يسمعهم يقولون :

والله ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم (٢) فكان الحسم فى نزول الوحى عليه عليه الصلاة والسلام : ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ والقبلة التى كان الرسول ﷺ يرضاها هى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

نزل قرار التحويل نزول الصاعقة على أهل الكتاب فنشطوا للطعن فى الإسلام ولتشكيك المسلمين فى دينهم بأن أنكروا عليهم إذ ولوا وجوههم شطر البيت الحرام (٣) وأخذوا يجادلون الرسول ﷺ بما يعلمون ومالا يعلمون فأتاه رفاعة وكردم بن الأشرف والربيع بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع فقالوا :

(يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه .. ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك) (٤) يريدون

---

(١) ابن سعد – الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٥ – مجير الدين الحنبلى – الأنس الجليل ص ١٩٣ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٤١٧ .

(٣) ابن سعد – الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٥ .

(٤) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ١٧٦ .

بذلك فتنة الرسول ﷺ عن دينه . وشايعهم فى ذلك النصارى إذ شقَّ عليهم [١] تحويل القبلة إلى الكعبة فأنزل تعالى :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملّتهم ﴾ [٢]

وأما كفار مكة فقد انكروا تحويل القبلة وقالوا :

(قد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم) [٣] .

وحاولت هذه القوى مجتمعة أن تثبط المسلمين وتفتنهم وبالغ اليهود فقالوا للمسلمين : قد التبس أمره وتحير . وسخر المنافقون [٤] فأنزل تعالى :

﴿ سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [٥] .

وقد جاء فى تفسير السفهاء أنهم أهل الكتاب [٦] والمنافقون وكفار قريش [٧] .

وحاول المستشرقون إثارة الشبهات حول حادثة تحويل القبلة فذكر أرنولد ونيكلسون أن حادث التحويل كان نكاية فى اليهود والنصارى لأن الرسول عجز عن استمالتهم ، وهذا مجافٍ لحقيقة الأمر فإن القبلة إلى بيت المقدس كانت أمرا من الله ووحيا منه وكان صرف القبلة إلى الكعبة كذلك أمرا من الله بالوحى والقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فالدليل هنا قطعى الدلالة قطعى الثبوت . وما كانت إلافرصة استغلها أهل الكتاب لإثارة الجدل والسفسطة

---

(١) السيوطى – أسباب النزول ص ٥١ .
(٢) البقرة الآية ١٢٠ .
(٣) القرطبى – تفسير – ج ٢ ص ١٤٨ .
(٤) القرطبى – تفسير – ج ٢ ص ١٤٨ .
(٥) البقرة الآية ١٤٢ .
(٦) ابن كثير – تفسير ج ١ ص ٤٧ .
(٧) القرطبى – تفسير – ج ٢ ص ٢٣٨ .

التى برعوا فيها فتسببّوا فى ارتداد بعض ضعاف الإيمان من المسلمين ونفاق القليل (١) .

ومما لا شك فيه أن حادث تحويل القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة فى العهد المدنى قد خلد قدسية الكعبة – ومركزيتها فى الإسلام .

نصارى نجران يفدون إلى المدينة المنورة :

عرف نصارى نجران بتبعيتهم السياسية للحبشة وللروم البيزنطيين ، فسارعوا إلى يثرب بأمر من البيزنطيين فقدموا بستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذين لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم (٢) وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم . وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم وهو أحد بنى بكر بن وائل كان قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرّفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا له الكرامات لما كان يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم (٣) .

فاستقبلهم الرسول ﷺ فى مسجده وعليهم قباب الحبرات فيقول من رآهم من أصحاب رسول الله يومئذ : ما رأينا وفدا مثلهم . ولما حانت صلاتهم قاموا فى مسجد الرسول ﷺ يصلون إلى المشرق دون أن يمنعهم ﷺ بل قال للمسلمين : « دعوهم » (٤) .

وسارع اليهود خائفين أن يتفق الرسول والنصارى فاجتمعوا بوفد نجران بحضرته ﷺ وبدأوا بالهجوم على وفد نجران بمهاجمة النصرانية فقال رافع

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٥٧ .
(٢) ثمالهم : أصلهم الذى يرجعون إليه بأمورهم وشئونهم .
(٣) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢٠٤ .
(٤) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢٠٦ .

ابن حريملة : (ما أنتم على شيء) وكفر بعيسى وبالإنجيل . فرد رجل من النصارى فقال لليهود : (ما أنتم على شيء) وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة [١] فبين الرسول ﷺ رأى الإسلام بوحى من الله سبحانه : أنه يعترف بنبوة عيسى وموسى وبجميع الأنبياء والمرسلين ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [٢] .

وكان موقف نصارى نجران ضعيفا فى نقاشهم وجدلهم وذلك لاختلاف أمرهم فكان منهم من يقول فى عيسى هو الله ، ومنهم من يقول هو ولد الله وآخرون يقولون هو ثالث ثلاثة ولكل حجته فى ذلك [٣] .

ولما كلم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح الرسول ﷺ قال لهما : (أسلما) قالا : (قد أسلمنا) . قال : إنكما لم تسلما . قالا : (بلى قد أسلمنا قبلك) . قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير . (وأنزل تعالى فى قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها) [٤] .

وعرض الرسول عليه الصلاة والسلام على أهل الكتاب ما طلبه منهم الله سبحانه برفق ولين : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [٥] .

ويبدو أن هدف وفد نجران كان سياسيا بالدرجة الأولى من المحادثة التى جرت بين أبى حارثة وأخيه كور أو كوز .

---

(١) نفسه ج ٢ ص ١٧٥ – أسباب النزول ص ٤٣ .
(٢) البقرة الآية ٢٨٥ .
﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ .
(٣) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٤) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢٠٧ .
(٥) آل عمران الآية ٦٤ .

فقد صرح أبو حارثة لأخيه بأن الرسول ﷺ هو النبى المنتظر ، ولما سأله أخوه : وما يمنعك عنه وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه فلو فعلت نزعوا مناكل ما ترى (١) ولما دعاهم الرسول ﷺ إلى الملاعنة أشار عبد المسيح ألا يلاعنوه قائلا : (والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم ما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم وأنه للاستئصال منكم ان فعلتم) (٢) .

كما دعاهم إلى موادعة الرجل والانصراف إلى بلادهم . ولكنهم رأوا حرص محمد ﷺ على العدل فطلبوا إليه أن يبعث معهم رجلا يحكم بينهم فى أشياء اختلفوا عليها من أقوالهم فقال : أبعث معكم القوى الأمين . فدعا أبا عبيدة عامر بن الجراح وقال له : اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه . فذهب معهم (٣) .

وأما اليهود فساءتهم النتيجة فقد كانوا معزولين فعادوا إلى أسلوبهم فى الكيد بالخفاء مستغلين عهد الموادعة .

* * *

---

(١) السيرة ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) السيرة ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢١٦ – الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ / ابن حجر الإصابة ج ١ ص ١٢٤ – ابن خلدون – العبر ج ٢ ص ٨٣٦ / مسند أحمد ج ٥ / ٤٠١ – البخارى ج ٨ : ٩٣ ، ٩٤ – والترمذى ج ٥ : ٦٦٧ . وصحيح مسلم ج ٤ : ١٨٨١ .

الفصل الثانى

الفتن التى أثارها اليهود والنصارى
داخل دولة الرسول ﷺ فى المدينة المنورة

كان الصراع بين الإسلام وأهل الكتاب فى الفترة المكية وعند تكوين الحكومة الإسلامية فى المدينة صراعا فكريا منظما تحول إلى معارك وحروب بعد أن وجد أهل الكتاب فى الرسول ﷺ الشخصية المختلفة عن رجال قريش وغيرهم من العرب ، ورأوا أن انتشار الإسلام سيفسد العرب عليهم فبدأوا مرحلة جديدة إيجابية فى معارضته ومقاومته بالاتفاق مع المشركين وبإثارة الفتن داخل المدينة . وسنجد خلال هذا الفصل صورا من هذه الفتن .

محاولة الإيقاع بين الأوس والخزرج

وكان من أولها محاولة الإيقاع بين الأوس والخزرج بإثارة النعرات – الجاهلية – فقد كان شاس بن قيس يهوديا عظيم الكفر بالإسلام شديد الضغن على المسلمين مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية [1] فأمر شابا يهوديا ذكيا فطنا أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه من أشعار ، فاستطاع بالتعاون مع بعض المنافقين أن يحول مجال الحديث إلى الشعر والتفاخر بما كان فى أيام الجاهلية وخاصة بما كان بين الحيين يوم بعاث فتحركت روح الجاهلية فتكلم القوم وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين أوس بن قيظى من الأوس وكان منافقا [2]

---

(١) السيرة ج ٢ ص ١٨٣ .

(٢) ابن حجر – الإصابة ج ١ ص ٨٨ .

وجبار بن صخر من الخزرج فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة وتنادوا السلاح ، السلاح ، فبلغ ذلك مسامع رسول الله ﷺ فخرج فيمن معه من أصحابه من المهاجرين حتى جاءهم فقال :

« يا معشر المسلمين ، الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم » (١) .

فأفاق القوم من غفلتهم فبكوا وتعانقوا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ونزل قوله سبحانه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

أهل الكتاب وغزوات الرسول ﷺ وسراياه

وبتكوين دولة الإسلام أخذ الإسلام يعالج شئون الحياة لمجتمع إسلامى يضم عناصر مختلفة وأديان متعددة ، وتحقيقا لعالمية الدين الإسلامى وعدم اعترافه بحدود أو جنس من الأجناس بدأ محمد ﷺ بإرسال السرايا والبعوث منفذاً لأمر الله بالجهاد لتحطيم الحواجز المادية التى تعترض سبيل الدعوة إلى الإسلام .

---

(١) ابن هشام – السيرة – ج ٢ ص ١٨٤ .

(٢) آل عمران الآية ١٠٠ ، ١٠١ وهذا الموقف يشبه إلى حد بعيد ما عمله النصارى فى ظل الخلافة العثمانية من جمعيات ومدارس وكليات فى الشام توجه الناس إلى اللغة العربية ليوجهوهم عن طريقها إلى ما يسمونه العروبة بدل الإسلام . فعمل الموارنة ومعظمهم من العاملين فى خدمة البعثات التبشيرية على إحياء الأدب القديم فتصدر النصارى لحمل القومية العربية واكتسحت البلاد موجة نحو العرب والعروبة وإعراض متزايد عن الإسلام وعن أفكاره وذلك لهدم الخلافة الإسلامية وإيجاد النزاع بين عنصريها العرب والأتراك . وقد نجحوا بالفعل فى ذلك .

وكانت قريش ويهود المدينة من أشد هذه الحواجز فى تلك المرحلة ، فكان غرض السرايا (والسرية هى ما لم يخرج فيها الرسول بنفسه أو خرج ولم يحارب) :

(١) اعتراض قوافل قريش لضربها فى أهم مواردها الاقتصادية فتضعف فيسهل عليه بعد ذلك ضربها عسكريا . ويؤيد ذلك ما عقده الرسول عليه الصلاة والسلام من موادعات وأحلاف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطئ البحر الأحمر بما يسهل على المهاجرين مهاجمة القوافل دون أن تلقى فى جوار هذه القبائل ما يحميها . كالمحالفة التى عقدها الرسول ﷺ مع بنى ضمرة وبنى مدلج التى تظهر بأن أخذ طريق الشام على أهل مكة كان بعض ما قصد إليه المسلمون [١] .

(٢) إرهاب أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن لف لفهم المقيمين فى المدينة أو على مقربة منها .

ورغم قلة النصارى فى يثرب فإن زعيمهم أبا عامر الراهب الذى جادل الرسول ﷺ عند وصوله المدينة وأكثر من جداله فقال له : (ما هذا الدين الذى جئت به فقال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال : فأنا عليها . فقال له الرسول : إنك لست عليها . قال . بلى إنك أدخلت يامحمد فى الحنيفية ما ليس منها . قال : ما فعلت ولكنى جئت بها بيضاء نقية فقال يعرض برسول الله : جئت بها كذلك [٢]) . أقول : إن زعيمهم هذا خرج مغاضبا إلى مكة يحرض قريشا على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين [٣] وفى ذلك رد واضح على الذين ذكروا أن معارك بدر وأحد كانت للخصومة بين قريش والأنصار [٤] .

أجل حاول أهل الكتاب جهدهم لإشعال نار الحرب بين المسلمين

---

(١) هيكل – حياة محمد ص ٢٤٤ .
(٢) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢١٧ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٥١٢ – السيرة ج ٣ ص ١٠ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ١١٥ .
(٤) طه حسين – الأدب الجاهلى ج ١ ص ٦٢٠ .

فى المدينة وقريش فى مكة ظنا منهم أن الإسلام فى دوره الأول كان ضعيفا وأن باستطاعة قريش القضاء عليه وهو فى مهده . فقد تفاءل اليهود فى المدينة بالحرب فى غزوة سفوان (بدر الأولى) وفى سرية عبد الله بن جحش إذ قالوا : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله ، عمرو عمرت الحرب ، والحضرمى : حضرت الحرب ، وواقد : وقدت الحرب [١] فكان ذلك نكال على اليهود [٢] .

وتطورت الأحداث بسرعة بين قريش والمسلمين وانتعشت نفوس أهل الكتاب بآمال عريضة بالإطاحة بحكومة الرسول ﷺ متظاهرين باحترام المواثيق فكانت غزوة بدر الكبرى وهى أول صدام كبير بين الإسلام وكفار قريش . وكانت امتحانا أثبت أن العقيدة فى نفوس المسلمين أقوى من العصبية كما أثبتت انصهار المسلمين من أنصار ومهاجرين فى بوتقة الإسلام وعقيدته فنجد المسلم يقاتل أباه أو أخاه أو ابنه وهذا أعلى درجات التمسك بالعقيدة وصل إلى حد الفناء فيها . وما أعظم موقف الأنصار عندما كان جوابهم لرسول الله ﷺ على لسان سعد بن معاذ رضى الله عنه الذى قال : (قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامضِ يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله) . فكانت بيعة أنصارية جديدة أثبتت أن العقيدة أصبحت راسخة وأن ذلك الجيل القرآنى آثر العقيدة على كل شيء فكان سرور الرسول ﷺ عظيما جعله يقول :

« سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » [٣] .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤١١ ، السيرة ج ٢ ص ٢٤١ – الكامل ج ٢ ص ١١٤ – الأنساب ج ١ ص ٢٦٠ .
(٢) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٨٤ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٤٣٥ ، السيرة ج ٢ ص ٢٥٤ .

ولم يشترك أحد من اليهود فى محاربة قريش فزعم ولفنستون [١] أن سبب ذلك يعود إلى أن الرسول لم يكن مشترطا عليهم أن يشتركوا فى الغزوات الخارجة عن دائرة المنطقة اليثربية . والواقع أن الرسول ﷺ لم يكن يستعين بمشرك على مشرك .

وتخلف بعض خيار المسلمين وخاصة من الأنصار لأن الرسول ﷺ لم يخرج لحرب بل خرج لاعتراض القافلة التى كانت بقيادة أبى سفيان فقد قال سعد بن معاذ عندما نزل المسلمون ماء بدر :

(يا رسول الله نبنى لك عريشا من جريد فتكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك مما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد حبا لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك . يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك) [٢] .

فتحقق النصر للمؤمنين وأرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة يبشران بالنصر [٣] فقدم زيد وقد سوى التراب على رقية ابنة رسول الله ﷺ وزوج عثمان بالبقيع ، واليهود والمنافقون يشيعون الأرجاف بين أصحاب الرسول فى المدينة . فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد : قتل صاحبكم ومن معه . وقال آخر لأبى لبابة : قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون بعده وقتل محمد وهذه ناقته نفر منها وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب [٤] وما جاء إلا فلا [٥] فكان المسلمون فى حيرة وحزن إلى أن سمعوا قول زيد :

(قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وزمعة بن الأسود

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٢١ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٤٤٠ ، السيرة ج ٢ ص ٢٦٠ .
(٣) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢٨٥ .
(٤) الأنساب ج ١ ص ٤٥٥ .
(٥) الواقدى – المغازى ج ١ ص ١١٥ – أي هرباً .

وأبو البخترى العاص بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج) [(١)] ، فحل السرور محل الحزن وخاصة عندما دخل الرسول ﷺ المدينة قبل الأسارى بيوم [(٢)] واعتزّ المسلمون بهذه المعركة وأسموها غزوة الفرقان لأن الله سبحانه فرق بها بين الحق والباطل فأعز الإسلام وأذل الكفر ، وأصبحوا ينظرون دائما إلى الذين اشتركوا فيها نظرة إجلال وإكبار بحيث نعرف أسماءهم فرداً فرداً وأسماء من استشهد منهم .

وأما قريش فذهلت ولكنها كظمت حزنها على قتلاها لئلا يبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بهم ورصدت جميع أموال تلك القافلة لحرب المسلمين [(٣)] فى جولة أخرى .

وفى المدينة شعر المنافقون واليهود بقوة المسلمين ورأوا سلطانهم يزداد فأذل الله بها المشركين والمنافقين واليهود فلم يبق بالمدينة يهودى ولا منافق إلا خضد عنقه [(٤)] وأسلم بشر كثير من مشركى أهل المدينة فدخل عبد الله بن أبى وجماعته من المنافقين الإسلام تقية [(٥)] .

ويزعم فلهوزن أن محمدا ﷺ حاول بعد بدر أن يظهر اليهود بمظهر المعتدين الناكثين للعهد بالتماس أسباب واهية [(٦)] .

وهذه الافتراءات عادة جرى عليها المستشرقون والمؤرخون من أهل الكتاب بسبب تعصبهم وعدائهم للإسلام ولنبى الإسلام ولا أدل على افتراءات ومزاعم فلهوزن من أن ننظر فى الأسباب التى دعت إلى حرب اليهود وإقصائهم .

فقد أهاج انتصار المسلمين فى بدر اليهود فأظهر بعضهم عداءه بالشعر

---

(١) الطبرى – تاريخ ج ٢ ص ٤٥٨ .
(٢) الأنساب ج ١ ص ٤٥٥ .
(٣) الأنساب ج ١ ص ١٢١ .
(٤) الواقدى – المغازى ج ١ ص ١٢١ .
(٥) المقريزى – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٩٩ .
(٦) تاريخ الدولة العربية ص ١٦ .

الذى كان فى ذلك الزمن أعظم وسيلة للإعلام وإثارة المشاعر ونشر الأفكار أو مجابهتها – ومنهم عصماء بنت مروان وهى زوج أحد بنى خطمة يزيد بن زيد ، كانت تؤذى رسول الله ﷺ وكان هجاؤها مقذعا وتحرض بشعرها على النبى حتى قال ﷺ : « ألا آخذ لى من ابنة مروان » ؟! وكانت فى عز من بنيها وقومها بنى خطمة ولا يجرؤ ضعفاؤهم على الجهر بإسلامهم لسلاطة لسانها فتمكن عمير ابن عدى الخطمى من قتلها فى بيتها وبين أبنائها . فكان جزاء عادلا وعزاً للإسلام فى بنى خطمة فظهر فيهم وظهر من كان يستخفى بإسلامه [١] .

كما استطاع سالم بن عمير الأنصارى وهو أحد البكائين من بنى النجار أن يقتل أبا عفك : وهو يهودى من بنى عمرو بن عوف ، حرض على الرسول ﷺ بالشعر بعد بدر حتى قال ﷺ : « من لى بهذا الخبيث » وكان قتله على رأس عشرين شهرا من مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة [٢] .

إجلاء يهود بنى قينقاع :

وكان أول من نقض العهد من اليهود بشكل جماعى : يهود بنى قينقاع [٣] وهم أحد طوائف اليهود بالمدينة كانت صلة عبد الله ابن أبى بهم قوية – فكانوا يحضونه على النفاق – ويساعدون المنافقين بأموالهم ويحرضونهم على المسلمين [٤] وأظهروا البغى والحسد للمسلمين بعد بدر وقالوا : (لم يلق محمد من يحسن القتال ولو لقينا لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال أحد) كما أظهروا نقض العهد [٥]

---

(١) الواقدى – المغازى ج ١ ص ١٨٤ ، التنبيه والإشراف ص ٢٠٦ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٢ ، السيرة ج ٤ ص ٢٤٦ .

(٢) الواقدى ج ١ ص ١٧٤ ، التنبيه والإشراف ص ٢٠٦ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٣ ، السيرة ج ٤ ص ٢٤٤ ، ابن سعد – الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١٩ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٤٧٩ ، البلاذرى – فتوح البلدان ص ٣٠ .

(٤) الصعيدى – تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ص ١٣٣ .

(٥) الطبرى ج ٢ ص ٤٧٩ .

فجمعهم الرسول ﷺ فى سوق الصياغة ، وكان لهم ، وخاطبهم قائلا : « يا معشر يهود احذروا من الله ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » .

فقالوا : (يامحمد إياك ترى أنا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) [1] .

ويظهر حديثهم أنهم كانوا مستعدين لحرب الرسول ﷺ والمسلمين لا اعتمادا على أنفسهم إذ لم يكن لهم حصون ولا معاقل وإنما كانوا تجارا وصاغة [2] وكانوا يسكنون داخل المدينة فى حى واحد بين أحياء الأقوام العربية .

وهذا يظهر أنهم كانوا يعتمدون على قوى أخرى هى قوة حلفائهم من الخزرج وخاصة حليفهم عبد الله بن أبى .

وتمادوا فى هزئهم وسخريتهم وتحرشهم بالمسلمين واستخفافهم فقد جاءت امرأة أنصارية لسوقهم فجلست عند صائغ فى حلى لها فجاء أحد بنى قينقاع فشك درعها من ورائها بشوكة وما تشعر فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها فاتبعه رجل من المسلمين فقتله ، فقتله بنو قينقاع [3] فكان ذلك الشرارة التى أشعلت النار بين المسلمين وبنى قينقاع ولم يبق أمام المسلمين إلا مقاتلة بنى قينقاع أو يتعرضون ويتعرض سلطانهم بالمدينة للتداعى فنفذ المسلمون قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ [4] .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٧٩ ، السيرة ج ٢ ص ٤٢٦ ، الأنساب ج ١ ص ٤٧٧ .
(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٥ .
(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٤ ، السيرة ج ٢ ص ٤٢٧ .
(٤) الأنفال الآية ٥٨ .

خرج الرسول ﷺ بالمسلمين فى شوال من السنة الثانية من الهجرة [١]، وحاصر بنى قينقاع فى دورهم وكانوا سبعمائة مقاتل منهم ثلاثمائة يتدرعون بدروع الحديد [٢] وأدرك الرسول ﷺ أنهم يعتمدون على حليفهم عبد الله بن أبى فأشركه فى حصارهم ليكون تحت سمعه وبصره فحال بينه وبين نصرهم . ولم يستطع القيام بما من شأنه أن يكدر على المسلمين . كما أن يهود قريظة والنضير لم ينصروا بنى قينقاع ولعلهم كانوا على ثقة بأن فتنة ما ستقع بين المسلمين وخاصة بين الأوس والخزرج ليكون بنى قينقاع حلفاء الخزرج ولم يتأكدوا بعد أن الإسلام جب ما قبله وأن الأنصار قطعوا الحبال التى بينهم وبين اليهود منذ أن وضعوا أيديهم فى يد الرسول ﷺ فى بيعة العقبة الثانية ، فترقبوا وانتظروا لفتنة تقع بين المسلمين يتزعمها عبد الله بن أبى . واستمر أمر الحصار والتريث والانتظار من اليهود خمس عشرة ليلة [٣] ، لا يطلع من قينقاع أحد حتى داخلهم اليأس فنزلوا على حكم الرسول ﷺ فكتّفوا وهو يريد قتلهم كما زعم الواقدى [٤] ونية قتلهم مستبعدة جدا بدليل رواية ابن إسحق [٥] .

(فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبى بن سلول حين أمكنه منهم فقال : يا محمد : أحسن فى موالى – وكانوا حلفاء الخزرج – فأبطأ عليه النبى فقال : يا محمد أحسن فى موالى ، فأعرض عنه النبى ﷺ ، قال : فأدخل يده فى جيب رسول الله فقال له رسول الله أرسلنى وغضب حتى رأوا فى وجهه ظلالا – يعنى تلونا – ثم قال : ويحك أرسلنى .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٨٠ وهى رواية الزهرى التى يعول عليها أكثر المؤرخين – التنبيه والإشراف ص ٣٠٦ .

(٢) المقريزى – إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٥ ، البلاذرى – الأنساب ج ١ ص ٤٧٨ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٤) المغازى ج ١ ص ١٧٧ ، الطبرى ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٥) السيرة ج ٢ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، الطبرى ج ٢ ص ٤٨٠ الأنساب ج ١ ص ٤٧٨ .

قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى . أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأسود والأحمر تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله لا آمن وأخشى الدوائر . فقال ﷺ : هم لك) .

هذه الرواية تؤكد أن ابن أبى بقى مواليا لليهود على عهده السابق دون أن يؤثر فيه العهد الجديد ويعلنها بجرأة : (إنى والله امرؤ أخشى الدوائر) . وقد ترك له الرسول ﷺ الحبل على الغارب فتركه يلح فى طلبه ليظهر للمسلمين تعلقه باليهود ثم ليعرف مدى تجاوب الخزرج معه ، ولعله لحظ بعض التجاوب على الأقل من بعضهم فكان قوله : هم لك ، منّة وضعها فى أعناقهم وطوقهم بها ، فلم يدع مجالا للنقد أو لبذر الفتنة وخاصة أن ابن أبى والذى كان يعرف الرسول نفاقه كان يتمتع بمركز ممتاز بين الخزرج وعلى أثر ذلك نزل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[1] .

ومَن مِن المسلمين يقبل أن يكون منهم إلا تسترا ومن يقبل اللعنة ؟ فقد قال عليه الصلاة والسلام عندما تركهم لابن أبى :

« خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم »[2] . وهذا ما جعل الكثير ممّن بقى على ولاء اليهود من الخزرج يتخلون عن هذا الولاء فمشى عبادة بن الصامت أحد بنى عوف إلى الرسول ﷺ وكان لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى فخلعهم إلى الرسول ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وقال : (يارسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم)[3] .

ولما أمر الرسول ﷺ بإجلاء بنى قينقاع عن المدينة حاول ابن أبى أن يحول دون ذلك ، فشجه أحد المسلمين ، فقالت بنو قينقاع : والله لا نقيم ببلد تشج فيه

---

(١) المائدة الآية ٥١ .
(٢) الأنساب ج ١ ص ٤٧٨ ، الكامل ج ٢ ص ١٣٨ .
(٣) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٤٢٩ .

يا ابن أبى ولا نستطيع عنك دفاعا [١] فأجلاهم محمد بن مسلمة الأنصارى وقيل بل عبادة بن الصامت [٢] ولحقوا بأذرعات من أرض الشام [٣] .

وكانت نتيجة ذلك أن ازدادت هيبة المسلمين ووحدة أحيائهم وضعفت شوكة اليهود فى المدينة .

ولم يجل بنو قينقاع جميعا بل بقى الكثير ممن أسلم فعلا أو تظاهر بالإسلام نفاقا ، وعند استعراض أسماء المنافقين فى المدينة نجد كثيرا من بنى قينقاع ، ولعل بعضهم سكن فى أحياء قريظة والنضير أو عاد من أذرعات إلى خيبر ووادى القرى بين طوائف اليهود بدليل أننا لا نسمع عنهم كقبيلة قائمة بذاتها بعد جلائهم عن المدينة .

وهذا فيما أرى السبب الذى جعل المؤرخين المسلمين يذكرون عنهم (فلم يلبثوا إلا قليلا حتى هلكوا) [٤] .

أما موقف النصارى فقد رحبوا بجلاء بنى قينقاع لأنهم وزعيمهم أبو عامر كانوا يكرهون اليهود بالمقدار الذى يكرهون به محمدا ﷺ والإسلام .

اليهود يسهلون مهمة أبى سفيان فى غزوة السويق :

لما اهتزت هيبة قريش أمام العرب نذر أبو سفيان ألا يغتسل من جنابة وألا يدهن بطيب حتى يثأر من محمد وصحبه بمن أصيب من قومه [٥] ويظهر أن مراسلات واتفاقات ولقاءات كانت قد تمت بين قريش ويهود المدينة سرًّا فخرج أبو سفيان فى مائتى راكب وقيل فى أربعين [٦] سلك بهم طريق النجدية ،

---

(١) هيكل – حياة محمد ص ٢٨٠ .
(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٥ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٧٥٩ .
(٣) التنبيه والإشراف ص ٢٠٧ / الأنساب ج ١ ص ٤٧٨ .
(٤) الأنساب ج ١ ص ٤٧٨ ، الكامل ج ٢ ص ١٣٨ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٥ .
(٥) التنبيه والإشراف ص ٢٠٦ .
(٦) المغازى ج ١ ص ١٨١ .

وجاء بنى النضير ليلا فاستضافه سلام بن مشكم سيدهم فى أيامه وصاحب كنزهم ، وأكرم أبا سفيان وسقاه خمرا وبطن له خبر الناس [١] وخبر النبى ﷺ ، فخرج أبو سفيان سحرا حتى أتى أصحابه فبعث منهم رجالا إلى المدينة فأتوا ناحية العريض فحرقوا فى أصوار من نخل لها ، ووجدوا معبد بن عمرو من الأنصار وأجيره فقتلوهما وانصرفوا راجعين .

وهذه الغزوة (السويق) تظهر بجلاء تعاون أهل الكتاب مع المشركين من قريش حيث امتدح أبو سفيان صنيع سلام بن مشكم فى أبيات له : [٢] .

وإنى تخيرت المدينة واحدا لحلف فلم أندم ولم أتلوم

سقانى فروانى كميتا مدامة على عجل منى سلام بن مشكم

وصنيع سلام واليهود هذا كان نكثا لعهود المسلمين بأن لا يؤوى اليهود أحدا من المشركين وبأن لا تعان قريش على المسلمين .

وكان لتفرق بنى قينقاع فى القبائل أثر فى ضم القبائل المشركة إلى القوى المضادة للإسلام وفى أن يجعل هذه القبائل على تماس شديد بالدعوة الإسلامية فأسلم عدد كبير من أفرادها ، وهذا ما يجعلنا نقول باطمئنان إن تفرق بنى قينقاع بين القبائل واستنفار اليهود للقبائل العربية من سليم وغطفان أفاد فى الواقع الدعوة الإسلامية فالتماس مع الدعوة أو الاصطدام بها كان مما يوسع دائرة انتشارها ويزيد عدد المسلمين .

ولما تجمعت سليم وغطفان بقرارة الكدر [٣] للاعتداء على المسلمين عاجلهم الرسول ﷺ وفرقهم [٤] وتتابعت غزواته ليحول بين تحالف هذه القبائل مع قريش فكانت هذه الغزوات تثير الرعب فى قلوب المشركين وبمثابة

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٤٤ .
(٢) السيرة ج ٢ ص ٤٢٤ ، الكامل ج ٢ ص ٤٠ .
(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٧ .
(٤) الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣ .

إعلان للقبائل العربية بالدعوة الإسلامية فتشجع المتخوفون والمترددون على اعتناق الإسلام .

وقد أدرك الرسول ﷺ أن هناك رءوساً للأفعى تحرك القبائل وتشجعها على غزو المدينة مسلحة بالشعر الذى كان يهتاج به العربى ويحرك مشاعره ويكون رأيا عاما بين القبائل ويوجهها لمناهضة المسلمين . فكان الرسول ﷺ يرسل إليهم من يخلص الإسلام منهم . وكان أعظم هذه الرؤوس وأكثرها أثرا :

كعب بن الأشرف : أحد بنى نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيئ [١] أحد بنى النضير [٢] ، كان شاعرا فاجرا ، لما جاءته أخبار هزيمة قريش فى بدر ومقتل أشرافهم قال :

والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

وخرج إلى مكة ليؤكد الحلف الذى يربط اليهود بمشركى قريش للوقوف ضد المسلمين ، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ بالشعر ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر [٣] . ولم يغب أمر رجوعه إلى المدينة عن بال الرسول ﷺ وخاصة بعد أن جاهر ابن الأشرف بعدائه وشبب بنساء المسلمين فى المدينة كأم الفضل بنت الحارث وغيرها فآذى المسلمين وجعل الرسول ﷺ . يقول : « من لى بابن الأشرف » [٤] فقام بقتله محمد بن مسلمة رضي الله عنه مع أربعة من الأنصار على رأس خمس وعشرين شهرا من الهجرة [٥] .

وقد ناقش الأستاذ الدكتور مصطفى كمال وصفى مقتل كعب بن الأشرف

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٢٠٩ ، الأنساب ج ١ ص ٥٩٠ .

(٢) ابن سعد – الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٢١ ، الكامل ج ٢ ص ١٤٣ وكانت أمه من بنى النضير .

(٣) انظر بعض أبياته ، السيرة ج ٢ ص ٤٣٢ .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٤٨٨ ، السيرة ج ٢ ص ٤٣٦ ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٢١ – ٢٣ ، الكامل ج ٢ ص ٩٩ .

(٥) الواقدى – المغازى – ج ١ ص ١٨٤ .

فقال [١] : « أكثر المؤرخون الغربيون من نقد هذا التصرف ووصفوه بأوصاف مختلفة . وإذا طبقنا عليه مقاييس الشريعة الإسلامية لوجدنا أن كعب قد تكون له صفة الموادع إذا اعتبرناه من مطلق أهل المدينة من اليهود الذين شملهم عهده ﷺ لليهود حين دخلها ، قلنا : إن ذلك العهد تضمن لهم الأمان فى دار الإسلام وهو قد ترك دار الإسلام ولحق بدار الحرب وحرض أهلها على المسلمين يعتبر بذلك ناقضا لعهده فتطبق عليه أحكام الحربى وتزول عصمة نفسه وماله فى دار الإسلام فيحل قتله » .

والواقع أن ابن الأشرف وإن كان ممن انطبق عليهم العهد حل قتله بخروجه عن بنوده فيعتبر خارجا على قوانين الحكومة التى أظلته .

وكان لمقتله أبلغ الأثر فقد خاف اليهود [٢] وفزع سفهاؤهم كما أوجد فى نفوس المسلمين القدرة على مواجهة السفهاء وتأديبهم بعد أن صرح لهم الرسول ﷺ بقوله :

« من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » [٣] وكتب على أثر ذلك كتابا ليهود بنى حارثة أمّنهم فيه [٤] .

أهل الكتاب فى غزوة أحد :

لم يكن النصارى من أهل الكتاب أقل عداوة للدعوة الإسلامية من اليهود . إلا أن قلة عددهم فى المدينة بالقياس إلى اليهود جعل أثرهم قليلا ، ولكن فى السنة الثالثة للهجرة نجد أبا عامر ينهج نهج بن الأشرف فذهب إلى مكة وحرض قريشا وشجعها على غزو المدينة .

وأبو عامر هو عبد عمرو بن صيفى بن مالك بن النعمان بن أمة أحد

---

(١) محمد وبنو إسرائيل ص ٧٤ – ٧٥ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٤٩١ ، السيرة ج ٢ ص ٤٣٩ ، الكامل ج ٢ ص ١٤٤ .
(٣) السيرة ج ٢ ص ٤٤١ ، الكامل ج ٢ ص ١٤٤ .
(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١١٠ .

بنى ضبيعة خرج إلى مكة مباعدا لرسول الله ﷺ معه خمسون غلاما من الأوس . والبعض يقول كانوا خمسة عشر . وكان يعد قريشا أن لو لقى محمدا لم يختلف عليه منهم رجلان [١] . وهذا يؤكد أن القوى المضادة ائتلفت وتعاضدت الخارجية والداخلية فلا يمكن أن يعد أبو عامر قريشا هذا الوعد دون أن تكون له قوة تناصره داخل المدينة . وهذا يفسر إرجاف المنافقين واليهود بالمدينة [٢] عندما تناهت أخبار تجمع قريش لحرب المسلمين .

عندما شاور الرسول ﷺ أصحابه كان التيار العام للمسلمين وخاصة الشباب هو الخروج من المدينة ومناهضة قريش خارجها ، فلما رأى عبد الله بن أبى ذلك تقدم إلى الرسول ﷺ يقترح عليه البقاء فى المدينة ويحاول أن يدعم رأيه بالحجج فقال : (يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا) [٣] .

وهذا يظهر أنه كان على اتفاق مع قريش ومع أبى عامر واليهود لوضع المسلمين بين نارين : اليهود والمنافقون من الداخل والمشركون من الخارج .

فأدرك الرسول ﷺ الخطر المحدق بالمدينة فلبس لأمته واستعد للخروج بعد أن كان رأيه ورأى أكابر الصحابة البقاء ولم يصرح للمسلمين بالرأى خوفا أن تنجح خطة القوى المضادة ويحدث الصدع بين المسلمين الذين ندموا وقالوا : بئس ما صنعناه ؟ نشير على رسول الله والوحى يأتيه . فقاموا واعتذروا إليه وقالوا :

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥١٢ ، السيرة ج ٣ ص ١٠ ، إمتاع الأسماء ج ١ ص ١١٥ المغازى ج ١ ص ٢٥٦ ، الكامل ج ٢ ص ١٤٩ ، الاستيعاب ق ١ ص ٣٨٠ .

(٢) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٢٥ ، الكامل ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) الطبرى ج ٢ ق ٥٠٢ ، السيرة ج ٣ ص ٦ .

اصنع ما رأيت . فقال ﷺ : لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل (١) ، ولا عبرة فى قولهم : استكرهنا رسول الله فرسول الله لم يكن ليستكره ولا كان للمؤمنين أن يكرهوه ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ (٢) ثم إنه كان لرسول الله ﷺ فى مختلف الغزوات والسرايا الرأى الحاسم ولم تكن مشاورته للمسلمين إلا للتعرف على وجهات النظر المختلفة لاختيار ماهو خير للمسلمين وللدعوة . فخروج الرسول ﷺ فى أُحد كان صفعة لخطة القوى المضادة إذ قلبتها رأسا على عقب وأوقعها فى الارتباك يؤيد هذا الرأى رواية الطبرى عن السدى (٣) : « إن رسول الله لما سمع بنزول المشركين من قريش واتباعها أُحدا قال لأصحابه : أشيروا علىّ ما أصنع . فقالوا : يارسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار : يا رسول الله ما غلبنا عدو لنا قط أتانا فى ديارنا فكيف وأنت فينا . **فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبى ولم يدعه قط قبلها فاستشاره** » ، وهنا وقفة ذات مغزى كبير ففى عمله ذاك إرضاء للخزرج الذى كان عبد الله زعيمهم ، والأهم من ذلك أنه كان يقصد التعرف على نيات القوى المضادة الذى كان يسندها عبد الله بصفته زعيم المنافقين ، فلابد أن تكون خطة هذه القوى موضوعة تبعا للرأى الذى سيصر عليه عبد الله . فكان خروج الرسول ﷺ رغم كراهيته الخروج .

وهذا الرأى يفسره انخزال المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى وهو يقول : عصانى وأطاع الولدان ومن لا رأى له (٤) .

فانطلقت خطة الرسول ﷺ من إدراكه لمدى خطورة الموقف فقد رفض الاستعانة باليهود عندما أشار عليه الأنصار بذلك (٥) وكان اليهود قد تجمعوا

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥٠٣ ، السيرة ج ٣ ص ٧ ، الواقدى ج ١ ص ٢١٤ . الكامل ج ٢ ص ١٥٠ قال ذلك أسيد بن حُضير وسعد بن معاذ رضى الله عنهما .

(٢) الأحزاب الاية ٣٦ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٤) السيرة ج ٣ ص ٧ / إمتاع الأسماع ج ١ ص ١١٨ .

(٥) المرجع السابق .

فى كتيبة نحو ستمائة مقاتل ولما سأل عنهم الرسول ﷺ وعلم أنهم من اليهود حلفاء عبد الله بن أبى رفضهم قائلا :

« لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك مالم يسلموا » (١) فعادوا إلى المدينة قبل عودة عبد الله بن أبى مما يؤكد تواطؤ هذه القوى وأنها كانت تبيت مخططا رهيبا اضطرب هذا المخطط وتعثر بخروج الرسول ﷺ فاستعاضوا عنه بافتعال الانقسام الذى كان له أثر كبير فى صفوف المسلمين فكادت كلمتهم أن تتفرق ووحدتهم أن تتمزق ، على أن نتائجه على القوى المضادة كانت أبين وأوضح فتخبطوا فى مخططات جديدة لم يقدر لها أن تبرز إلى الوجود وهذا يفسر لنا عدم استفادتهم من نتيجة أحد ومن مصاب المسلمين فيها .

وإذ كان الرسول ﷺ يأبى مشاركة اليهود فى المعركة بشكل جماعى فإنه كان يأذن للمخلصين منهم بالاشتراك كأفراد بحيث لا يكونون خطرا على المسلمين . فقد سمح لمخيريق الذى دعا اليهود إلى مشاركة الرسول فى القتال فقالوا : اليوم يوم سبت . فقال لا سبت وأخذ سلاحه وقاتل مع رسول الله ﷺ فقتل وكان قد تبرع بماله كله لرسول الله يضعه حيث شاء فقال فيه ﷺ :

« مخيريق خير يهود » (٢) .

وكانت طليعة قريش لحرب الرسول ﷺ فى أُحد تتكون من أبى عامر الراهب فى نفر من الأوس وبعض عبيد مكة . فتقدم يحرض الأوس المسلمين على التخلى عن رسول الله والانضمام إلى المشركين فنادى :

يا معشر الأوس . أنا أبو عامر . فأجابوه : فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق (٣) . فجعل يقول : لقد أصاب قومى بعدى شر ، فأشعل نار الحرب

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٢٧ .
(٢) الأنساب ج ١ ص ٥٠٦ ، الطبقات ج ١ ق ٢ ص ١٨٣ ، الكامل ج ٢ ص ١٤٩ – السيرة ج ٢ ص ١٤ وج ٣ ص ٣٢ .
(٣) السيرة ج ٣ ص ١٠ ، الاستيعاب ق ١ ص ٣٨٠ .

بأن قاتل قومهُ قتالا شديدا ثم راضخهم بالحجارة (١) .

وفى داخل المدينة لم يقم اليهود والمنافقون بشىء من الأمور العسكرية ولكن اليهود قاموا بمقاطعة المسلمين اقتصادياً فامتنعوا عن دفع ما يجب عليهم دفعه من دين وبيوع وأمانات إلى من أسلم من المشركين أو من يهود بحجة أن دخولهم فى الإسلام قد أبطل حقهم فى ذلك وأنهم لذلك فى حل من دفعه فقال تعالى موضحا هذا الموقف :

﴿ ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ (٢) .

وبعد أن علموا مصاب أحد أظهروا الشماتة (٣) وخوفا من أن يقوموا بعمل ما فى المدينة مع المنافقين أبدى الرسول ﷺ ومن معه رباطة جأش وحكمة عظيمة ، فأمر فى صباح اليوم التالى بلالا أن ينادى : إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس ولم يأذن لأحد ممن لم يحضر أُحد بالمسير معه سوى جابر بن عبد الله . ولحق بالقوم حتى انتهى إلى حمراء الأسد على عشرة أميال من المدينة ففاتته قريش . فأقام ثلاثا ثم عاد (٤) وفى إصرار الرسول ﷺ على عدم خروج أحد غير من حضر أُحد دليل على خوفه من يهود المدينة ومنافقيها من أن يقوموا بعمل ما أثناء غيابه كما أن فى خروجه إرهاب لهؤلاء ولقريش من أن تعود لاحتلال المدينة . فكان عمله ضربة جريئة خفّفت من نتائج أُحد وردت إلى المسلمين قوتهم المعنوية وأعادت هيبتهم بالمدينة .

---

(١) الواقدى ج ١ ص ٢٢٣ ، السيرة ج ٣ ص ١٠ ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٢٨ .
(٢) آل عمران – الآية ٧٥ .
(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٦٥ .
(٤) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٣٤ ، الكامل ج ٢ ص ١٦٤ ، السيرة ج ٣ ص ٤٤ ، الطبرى ج ٢ ص ٥٣٤ – التنبيه والإشراف ص ٢١١ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٧٦٨ .

وقد لخص ابن إسحق نتائج أُحد فى كلمات ذات معان وفيها بعد نظر قال : (وكان يوم أُحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين ممن كان يظهر الإيمان بلسانه وهو مستخف بالكفر فى قلبه ، ويوما أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته) [١] فكشفت نوايا اليهود وحلفاءهم بزعامة عبد الله بن أبى فحذرهم المسلمون . إذ لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قام عبد الله بن أبى (كعادته كل جمعة) ليقول : أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا . فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا إن قمت أشدد أمره ، ولما قال له رجل : إرجع يستغفر لك رسول الله . قال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى [٢] .

إجلاء يهود بنى النضير :

وحاول أفراد اليهود تشجيع القبائل العربية الوثنية على مهاجمة المدينة فقام طليحة وسلمة ابنا خويلد يحرضان قومهما بنى أسد فوجه لهم الرسول ﷺ أبا سلمة المخزومى فنال منهم [٣] . ثم تجمعت قبائل لحيان وهذيل وغيرهم بزعامة سفيان بن خالد الهذلى ثم اللحيانى فأرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن أنيس الجهنى فقتله بحيلة وتفرق ما جمعه من قبائل . فهدأت لحيان زمنا ثم فكرت أن تحتال لتثأر لزعيمها بالاتفاق مع يهود المدينة . وعضل والقارة من بنى الهون بن خزيمة [٤]

---

(١) السيرة ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) الواقدى – المغازى ج ١ ص ٣١٨ ، السيرة ج ٣ ص ٤٧ . [وبجرأ أمراً عظيماً] .

ولم يفت أصحاب الأهواء التعليق على موقفه فاعتبروا عبد الله رجلا من الصحابة نسب الرسول والمسلمون فشلهم فى أحد إلى خيانته كما زعم جورجى زيدان . انظر التمدن ج ١ ص ٥٩ .

(٣) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٣٥ ، المغازى ج ١ ص ٣٤٢ .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٥٤٢ ، التنبيه والإشراف ص ٢١٢ ، السيرة ج ٣ ص ١٢٠ .

من بنى أسد . فوفد نفر من عضل والقارة وذكروا أن فيهم إسلاما ورغبوا أن يبعث فيهم من يفقههم فى الدين ، فبعث معهم عليه الصلاة والسلام ستة من كبار أصحابه عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنمى ، حتى إذا كانوا بالرجيع وهو ماء لهذيل غدروا بهم واستصرخوا هذيلا ، فغشوهم فى رحالهم وعليهم سفيان بن نبيح الهذلى (١) ففزعوا إلى القتال فأمنوهم وقالوا : إنا نريد أن نصيب بكم فداء من أهل مكة . فامتنع مرثد وخالد وعاصم وقاتلوا حتى استشهدوا وأسروا خبيبا وزيدا وجاءوا بهما مكة فباعوهما إلى قريش فقتلوهما صبرا (٢) .

وكانت قبائل سليم وعامر من القبائل الحليفة والموالية لليهود واعتنق اليهودية عدد كبير من أفرادها ، فوجد بعض أفراد قينقاع ملجأ وملاذا بينها فأثاروهم وحركوهم . فقدم أبو براء عامر بن جعفر – ملاعب الأسنة – على رسول الله ﷺ قبل إسلامه فقال : لو بعثت إلى أهل نجد لاستجابوا لك .

فبعث الرسول ﷺ المنذر بن عمرو الأنصارى فى سبعين رجلا من خيار الأنصار بعد أن قال أبو براء : (أنا لهم جار أن يعرض لهم أحد) (٣) فساروا مطمئنين حتى نزلوا بئر معونة بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فأرسلوا حرام ابن ملحان إلى عامر بن الطفيل بكتاب رسول الله فقتله عامر واستصرخ بنى عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبى براء فاستصرخ عليهم قبائل بنى سليم – عصية ورعلا وذكوان والقارة فأجابوه (٤) وأحاطوا بالمسلمين فى رحالهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق ليموت يوم الخندق شهيدا ، ونجا عمرو بن أمية الضمرى الذى أخذ أسيرا فلما عرفوا أنه من مضر أطلقه عامر

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٧٤ .
(٢) ابن خلدون – العبر – ج ٢ ص ٧٦٩ .
(٣) السيرة ج ٣ ص ١٣٧ ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٣٦ ، الطبرى ج ٢ ص ٥٥٠ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٠٥ .
(٤) الاستيعاب ق ٤ ص ١٤٥٠ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٧٢ .

وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه [١] وفى الطبرى رواية عن عكرمة فى هذه الحادثة وملخصها [٢] :

(أن الرسول ﷺ أرسل أربعين أو سبعين إلى أهل بئر معونة وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى . فاختفى أصحاب الرسول فى غار وأرسلوا ملحان الأنصارى إلى عامر ليبلغه الرسالة فأتى إليه فقتله ، ثم تتبعوا أثره حتى آتوا أصحابه فى الغار فقتلهم عامر أجمعين إلا رجلا واحدا) .

وبالجمع بين الروايتين وأغلب الظن صحتهما – يظهر تواطؤ بنى عامر على الغدر بأصحاب الرسول ﷺ وإسلامهم إلى حتفهم – وهم أعوان اليهود فقد كان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف [٣] وأما عدم استجابتهم لعامر بن الطفيل فيعود إلى علمهم بأن سليم عصية ورعلا وذكوان والقارة سيستجيبون لعامر فلا لزوم لتدخلهم ما دام فى هؤلاء الكفاية وما داموا يستطيعون الادعاء بأنهم لم يخفروا جوار أبى براء .

ولو كان الأمر على غير ذلك لتدخلوا إلى جانب المسلمين لحماية جوار أبى براء ولما كانت هذه المأساة – فهى خطة مدروسة يهودية تمت بالاتفاق مع بنى عامر وسليم .

والتقى عمرو بن أمية الذى نجا برجلين يهوديين من بنى عامر فى طريقه إلى المدينة فظن أنهما ينتميان إلى أعدائه فقتلهما ، دون علم بأمان الرسول ﷺ لهما . ولما أخبر الرسول ﷺ الخبر قال :

« لقد قتلت قتيلين لأدينهما » [٤] .

فكان أبرز ما تمخضت عنه هذه المأساة :

---

(١) ابن خلدون – العبر ج ٢ ص ٧٧٠ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٤٩ .
(٣) ابن هشام – السيرة ج ٣ ص ١٤٢ .
(٤) الطبرى ج ٢ ص ٥٤١ .

إجلاء بنى النضير عن المدينة :

الذين أظهروا نكثهم للعهود أكثر من مرة ، فكعب بن الأشرف ثم سلام ابن مشكم زعيمهم الذى كان عينا لقريش على المسلمين [١] وكانوا ملاذا للخارجين على حكومة الإسلام من بقايا بنى قينقاع ، ولهم علاقات مع يهود القبائل الأخرى وخاصة مع بنى سليم وعامر الذين غدروا بالمسلمين فى بئر معونة ، ولابد أن الرسول ﷺ علم بخطة يدبرها اليهود مع عامر وسليم تستهدف استئصال المسلمين بالتدريج بتدبير المؤامرات ، فذهب إليهم بعد حادث بئر معونة ليختبر مقدار تمسكهم بالعهد بأن طالبهم بالاشتراك فى دفع دية القتيلين ، فكانت محاولتهم للتخلص منه نهائيا سنة ٤ هـ . إذ هموا بإلقاء رحاً عليه من فوق البيت الذى جلس الرسول ﷺ وصحبه جنب جداره [٢] فقد جمعهم حييّ بن أخطب وقال :

« يا معشر يهود قد جاءكم محمد فى نفر من أصحابه لا يبلغون عشرة فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذى هو تحته فاقتلوه ، فلن تجدوه أخلى منه الساعة فإنه إن قتل تفرق أصحابه فلحق من كان معه من قريش بحرمهم . وبقى من هنا من الأوس والخزرج حلفاءكم فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوما من الدهر فمن الآن [٣] » .

فاستعد عمرو بن جحاش منهم لتنفيذ المؤامرة فأحس الرسول ﷺ بما دبره اليهود فانسحب دون جماعته مصمما على التخلص منهم ومن أذاهم .

وهذه وقفة مع آراء بعض المؤرخين الذين خالفوا إجماع المؤرخين المسلمين على حادث محاولة اغتيال الرسول ﷺ :

فبروكلمان [٤] يزعم : (أن محمدا حاول أن يعوض الخسارة التى أصابت

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٨٤ - الأنساب ج ١ ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .
(٢) فتوح البلدان ص ٣١ ، الطبرى ج ٢ ص ٥٥١ ، السيرة ج ٣ ص ١٤٣ الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤١ ، الأنساب ج ١ ص ٥٣٠ .
(٣) الواقدى - المغازى ج ١ ص ٣٦٤ .
(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٦٠ .

مجده العسكرى بعد أحد والرجيع عن طريق آخر ففكر فى القضاء على اليهود فهاجم بنى النضير بسبب واه) . أما ما هو السبب الواهي فلا يعلمنا عنه شيئا بل يكتفى بهذا الغموض . ولا ندرى إن كان هذا السبب الواهى عنده اغتيال الرسول أم لا ؟

وصاحب التمدن الإسلامى [١] يقول : (وحدث حادث فدعا إلى مطالبتهم بالجلاء عن بلادهم) . ويمر مرور الكرام دون أن يبين ماهو هذا الحادث بل يكتفى بهذا الغموض . بل إنه لا يذكر دورهم فى غزوة الأحزاب فيما بعد .

أما المؤرخ اليهودى ولفنستون فلا يكتفى بالغموض ولكنه ينفى عن بنى النضير محاولتهم إلقاء الحجر على الرسول واستشهد على ذلك أن هذه القصة لم ترد فى سورة الحشر . ثم ناقش القصة بمنطقه الخاص فقال[٢] :

(إن اليهود كانوا يدركون عاقبة اغتيال الرسول ولذا لا يمكن أن يقدموا على ذلك ، كما أنهم لو كانوا ينوون حقيقة اغتيال الرسول لكان من الممكن أن يفاجئوه وخاصة أنه كان فى نفر قليل من صحابته فهم لم يكونوا إذن فى حاجة إلى إلقاء الصخرة عليه من فوق الجدار) .

وناقش الأستاذ الدكتور مصطفى كمال ونفى مزاعم ولفنستون فقال : [٣]

(يلاحظ ما فى قوله من تناقض فبسبب أنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصاره لم يكن فى استطاعتهم أن يفاجئوه بالقتل العمد الظاهر بل كان لابد أن يفتعلوا الإصابة قضاء وقدرا مخافة غضب أنصاره) .

وأضيف إلى ذلك أن طبيعة اليهود وما جبلوا عليه من مكر وجبن تدفعهم لمحاولة الاغتيال بحيث تظهر قضاء وقدرا دون أن يتحملوا مسئولية ذلك

---

(١) جورجى زيدان ج ١ ص ٦٠ .

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٣٥ .

(٣) محمد وبنو إسرائيل ص ٨٤ ، الخربوطلى – الرسول فى المدينة ص ١٩٧ .

وتاريخهم معروف مشهور بمثل هذه الحوادث حتى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وعندما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة وقد ازداد اقتناعا بتواطؤ اليهود مع القبائل العربية الأخرى واليهود خارج المدينة أرسل إليهم محمد بن مسلمة الأنصارى من الأوس فقال لهم :

(إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى فقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، أجلتكم عشرا فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه) [١] .

لم يتوقع بنو النضير ذلك فاحتاروا فى أمرهم ولم يجدوا ما يجيبون به إلا محاولة استمالة الأوس فقالوا لمحمد بن مسلمة : (ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس) . ولكن محمدا أجابهم بحسم : (تغيرت القلوب ومحا الإسلام العهود) [٢] ولعلهم كانوا يأملون بأعوان أبى عامر أن يقفوا إلى جانبهم . وبعبد الله بن أبى الذى أرسل إليهم يقول :

(لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصنكم فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم وتمدّكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان) [٣] ، ولعل ابن أبى لم يشعر بعد بتضعضع مركزه بين قومه وانكشافه للمسلمين ، فقد كان يظن مركزه لا يزال كما كان ، فاشتد أزر حيىّ زعيم اليهود وأرسل إلى الرسول ﷺ : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدالك [٤] .

فاتخذ ﷺ الاحتياطات ليحول بين المنافقين والقرظيين وقبائل العرب

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤١ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٥٢ .

(٣) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤١ . الطبرى ج ٢ ص ٥٥٣ ، الواقدى ج ١ ص ٣٦٩ الكامل ج ٢ ص ١٧٣ ، اليعقوبى ج ٢ ص ٤٩ .

(٤) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤١ .

الأخرى وخاصة سليم وغطفان ونجدة بنى النضير فحاصروهم [١] إلى أن وقع اليأس فى قلوبهم وطالبوا بالصلح ، فصالحهم على أن يحقن دماءهم ويخرجهم من المدينة ، فخرج بعضهم إلى الشام ونزلوا بأذرعات [٢] لاحقين من سبقهم من بنى قينقاع وأما أكثريتهم فتوجهوا إلى خيبر وعلى رأسهم حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق فدانت لهم [٣] وقد ضربوا المثل فى التعصب فلم يسلم منهم سوى رجلين : يامين بن عمير بن كعب وأبو سعد بن وهب فأحرزا أموالهما .

ومن نتائج جلاء بنى النضير أن قلت عوامل إثارة الفتن داخل المدينة التى كان يثيرها المنافقون بتشجيع من اليهود فأمنت المدينة من التهديد بالحرب الأهلية إذا غزاها غاز ولذلك كان الجلاء يوم حزن شديد للمنافقين [٤] .

كما أصبح المسلمون المهاجرون فى غنى عن معونة الأنصار بما أصابوا من أرض اليهود وبما وزع عليهم الرسول ﷺ من غنائم التى اعتبرت خالصة لرسول الله دون الناس فقسمها بين المهاجرين دون الأنصار إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة وهما من الأنصار ذكرا فقرا فأعطاهما [٥] ونزلت سورة الحشر .

كما تمكن الرسول ﷺ من إقامة الحدود على يهود المدينة كدليل على خضوعهم لأحكام الإسلام وحكومته فقد رجم يهوديا ويهودية زنيا فى نفس الشهر [٦] فأصبح مجتمع المدينة أكثر انسجاما وأقل تناقضاً رغم وجود الكثير

---

(١) ست ليال على قول ابن إسحق (السيرة ج ٣ ص ١٤٤) وخمسة عشر يوما على قول ابن سعد والواقدى . (الطبقات – ج ٢ ق ١ ص ٤١ الطبرى ج ٢ ص ٥٥٣ . المغازى ج ١ ص ٣٧٤) .

(٢) نفسها .

(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٨١ .

(٤) نفسه .

(٥) فتوح البلدان ص ٣٢ .

(٦) المسعودى – التنبيه والإشراف ص ١١٢ .

من المنافقين واليهود . وحتى لا يستعين الرسول ﷺ بأحد من اليهود أمر زيد بن ثابت الأنصارى بتعلم السريانية والعبرية قائلا : « إنى لا آمن أن يبدلوا كتابى » [١] .

أما القوى المضادة خارج المدينة كقريش والقبائل العربية الأخرى التى كان بضمنها عدد من اليهود والنصارى فقد حرمت سندا رئيسيا كان يثير القلاقل فى وجه حكومة الرسول ﷺ ولم يبق لهم غير بنى قريظة التى لم تكن بمستوى بنى النضير ومكرهم وقوتهم .

وقد ظهر ألم القوى المضادة فى الشعر ففى قصيدة لابن لقيم العبسى أو قيس بن بحر بن طريف نتبين علاقة اليهود بغطفان وأن الرسول سيتابع بنى النضير إلى تلك القبيلة :

فإن يك ظنى صادقا بمحمد ... تروا خيله بين الصلا ويرمرم

يؤم بها عمرو بن بهثة أنهم ... عدو وما حىّ صديق كمجرم

وعمرو بن بهثة من غطفان [٢] .

وفى قصيدة للعباس بن مرداس السلمى يمتدح فيها بنى النضير ونحس ألمه ، رغم أنه أنهى القصيدة بقوله :

فلا تحسبنى كنت مولى ابن مشكم ... سلام ولا مولى حُيىّ بن أخطب [٣]

أى أنه ليس لسلام بن مشكم ولحيى بن أخطب زعيما بنى النضير حليفا وصاحبا ، ولولا الخروج عن مجال البحث والخوض فى مجال الشعر لقلت إن هذا البيت الأخير زيد على قصيدته بعد إسلامه ليبرىء نفسه من حلف اليهود .

وفت جلاء بنى النضير فى عضد قريش ولعل ذلك كان سبب عدم خروج

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥٦١ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٨٥ ، الكامل ج ٢ ص ١٢٠ صبح الأعشى ج ١ ص ١٦٥ .

(٢) انظر القصيدة كاملة – السيرة ج ٣ ص ١٤٩ .

(٣) انظر القصيدة كاملة – السيرة ج ٣ ص ١٥٥ .

قريش للقاء الرسول ﷺ فى غزوة بدر الآخرة [١] رغم التحدى والزهو الذى أظهره أبو سفيان بعد أحد .

النفاق مع أهل الكتاب فى قصة زواج الرسول ﷺ من زينب رضي الله عنها :

واتبعت بقية اليهود داخل المدينة مع المنافقين أسلوبا جديدا فى إثارة الشبهات حول حياة الرسول ﷺ الخاصة فلفقوا قصة عن زواج الرسول بزينب بنت جحش وكدليل على استمرار عداء أهل الكتاب تلقفها المبشرون والمستشرقون الذين كتبوا فى حياة محمد ﷺ . وقد تلقى القصة بعض أعلام المسلمين وشيوخهم فذكرها الطبرى [٢] ونقلها ابن الأثير مع جلالة قدره [٣] دون عرضها على كتاب الله ، حتى أن مصدر الرواية مع السند لا وضوح له . فالرسول ﷺ هو الذى زوج زينب ابنة عمته لزيد ليهدم حاجز الطبقات كدليل على المساواة المطلقة بين المسلمين ، وقد رفضت زينب وأخوها عبد الله حتى نزل قوله سبحانه :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [٤] فأذعنا وقالا : سمعنا وأطعنا [٥] وكان طلاقها أمرا من الله سبحانه : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ﴾ [٦] .

---

(١) انظر التفاصيل ، السيرة ج ٣ ص ١٦٣ ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٢ الطبرى ج ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) تاريخ ج ٢ ص ٥٦٢ – ٥٦٤ ، تفسير ج ٢ ص ١٠ .

(٣) الكامل ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) الأحزاب الآية ٣٦ .

(٥) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ١٨٦ .

(٦) الأحزاب الآية ٣٧ وقد ذكر العينى أن الله كان قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه فهو الذى كان فى نفسه عليه الصلاة والسلام – العينى ج ٤ ق ١ ص ٢١ .

مبديه من أمر تطليقها ، وأمر الرسول بزواجها بدافع تحقيق حكم شرعى :

﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ [١] .

فالزواج كان من أجل التشريع وكان عمله لشدة نفرة أهل الجاهلية من هذا الزواج لأنهم كانوا يعدون الابن المتبنى ولدا صريحا أو فى رتبته .

فتمكن المنافقون وأهل الكتاب من إثارة هذه الشبهة ولا تزال حتى الآن مثار جدل ينفذون بها إلى نفوس ضعفاء الإيمان ومن لا يدركون طبيعة دينهم وأحكامه .

دومة الجندل والعرب المتنصرة فى شمال الحجاز :

أما القبائل النصرانية الضاربة فى أنحاء دومة الجندل مثل كلب وجذام وقضاعة وغيرها الموالية للروم فقد كان ملكها آنذاك أكيدر بن عبد الملك الكندى [٢] وجمع جمعا كبيرا منها وأخذ يظلم من يمُرّ من الضافطة أى يعترض سفر المدينة وتجارهم . ومن غير المستبعد أن هذا التجمع كان على علاقة بنصارى المدينة القلائل وخاصة بأبى عامر الراهب الذى كان دائم التجوال فى شبه الجزيرة وببعض المنافقين واليهود ، فوصل الخبر إلى مسامع الرسول ﷺ بأن هذا الجمع يريد غزو الحجاز [٣] فتوجه إليهم بألف من المسلمين انتخبهم انتخابا . وكان هدف الرسول أبعد من مجرد تأديب هذه القبائل فقد كان يريد أن يدنو إلى أدنى

---

(١) الأحزاب الآية ٣٧ .

(٢) المسعودى – التنبيه والإشراف ص ٢١٥ ، ودومة كانت من أسواق العرب فى الجاهلية فكانوا ينزلون بها أول يوم من ربيع الأول يفتحون أسواقها بالبيع والشراء والأخذ والعطاء إلى آخر الشهر . (صبح الأعشى ج ١ ص ٤١١ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢) .

(٣) الأنساب ج ١ ص ٥٣٣ ، العينى ج ٤ ق ١ ص ٣ .

الشام [١] لأن دومة تعتبر طرف من أفواه الشام لإفزاع الروم حتى لا تسول لهم أنفسهم مساعدة أبى عامر الراهب أو غيره ممن كان يستعين بهم أو ممن كان عميلا لهم . فقد كانت تبعد عن دمشق خمس ليال وعن المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة [٢] فى منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج العرب . وفى هذا دليل على مبلغ ما اتسع إليه نفوذ الإسلام فى شبه الجزيرة .

وما أن سمعت القبائل بتوجه المسلمين إليها حتى أخذها الفزع وتفرقت فلم يلق المسلمون كيدا [٣] .

فكانت هذه الحملة استطلاعية جست نبض الروم وأرهبت القبائل النصرانية فى شمال شبه الجزيرة بدليل أنها لم تترك أثرا كبيرا من معاهدات أو وفود قبائل .

اليهود يحزبون الأحزاب للقضاء على دولة الإسلام :

اعتاد اليهود منذ وصول الرسول ﷺ إلى المدينة تحريض أهلها والقبائل العربية فى خارجها على الإسلام والمسلمين قبل أن تشتد دولة الإسلام . ولكن هذه التجمعات كانت بسيطة تتناسب وقوة دولة الإسلام آنذاك ، أما بعد رحيل بنى النضير إلى خيبر وسيطرة زعمائهم عليها عزموا على الانتقام فذهبوا يؤلبون سائر العرب الوثنيين واليهود والنصارى ويحزبون الأحزاب بشكل عام فى شبه الجزيرة ، فالتقت المتناقضات فى جبهة واحدة لعرقلة المد الإسلامى ومناهضة انسيابه فى الأرض .

فرأى اليهود أن يتحركوا بوجه السرعة لتوجيه ضربة قاصمة للدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها ويحدّ من خطر الوجود اليهودى فى جزيرة العرب . وأدركوا

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٩٤ .
(٢) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٤ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٥٦٤ ، السيرة ج ٣ ص ١٦٨ ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٤ ، الأنساب ج ١ ص ٥٣٣ ، المغازى ج ١ ص ٤٠٣ ، الكامل ج ٢ ص ١٧٧ .

أن استثارة قريش وحدها ضد المسلمين أمر غير مضمون العواقب وأن انفراد كل قوة وثنية فى مهاجمة مواقع الدين الجديد سوف يمكن الإسلام من تصفيتها واحدة بعد الأخرى ، فلابد إذن من أن تتجمع القوى الوثنية كلها بزعامة قريش وتتحرك لاستئصال شأفة الإسلام ومن ورائها مكر اليهود وأموالهم (١) .

فاختمرت فكرة تأليب القبائل العربية فى نفوس أكابر بنى النضير فى خيبر (٢) فخرج سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل إلى قريش يحرضونهم فقالوا لهم :

إنا سنكون معكم حتى نستأصله (٣) ، وهنا سألتهم قريش باعتبارهم أهل العلم الأول : (يا معشر يهود إنكم أهل الكتابّ الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير من دينه ؟ فقالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه) .

فهم الذين أشار إليهم تعالى بقوله :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ (٤) .

ويعلق ولفنستون على موقفهم هذا بقوله (٥) :

---

(١) عماد الدين خليل – دراسة في السيرة ص ٩ .

(٢) الأنساب ج ٢ ص ٥٢٧ ، العينى ج ٤ ق ١ ص ٤ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٥٦٥ ، السيرة ج ٣ ص ١٦٩ ، الكامل ج ٢ ص ١٧٨ – الطبقات ج ٢ ق ٢ ص ٥١ .

(٤) النساء الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

(٥) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٦٠ .

(كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من عبادة التوحيد الإسلامى ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم) .

هكذا قال أحبار اليهود وأهل العلم بالكتاب الأول لقريش :

(دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه) [١] فنشطت قريش لحرب الرسول ﷺ فأجمعوا لذلك واتعدوا له [٢] .

وخرج اليهود فأتوا غطفان وسليما حلفاءهم ودعوهم لحرب الرسول ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وإن قريشا قد تابعوهم على ذلك كما وعدوهم ثمار خيبر سنة كاملة [٣] فوافقوا . فتجمعت الأحزاب من قريش وغطفان وسليم وأسد وأشجع والنضير وغيرهم من اليهود . وبلغ عددهم أربعة وعشرين ألفا على قول المسعودى [٤] وعشرة آلاف على قول ابن إسحق وابن سعد [٥] وكان ذلك فى السنة الخامسة للهجرة على أرجح الآراء [٦] .

وجاءت للرسول ﷺ عيونه بالخبر فأسرع وجمع أصحابه واستشارهم ، وأخذ برأى سلمان الفارسى الذى كان فى أول مشهد له وهو حر مع الرسول ﷺ [٧]

---

(١) السيرة ج ٢ ص ١٩٠ ، ج ٣ ص ١٦٩ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٦٥ .
(٣) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٧ ، السيرة ج ٣ ص ١٢٩ ، الأنساب ج ١ ص ٥٣٧ .
(٤) التنبيه والإشراف ص ٢١٦ .
(٥) الطبرى ج ٢ ص ٥٧٠ ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٧ ، السيرة ج ٣ ص ١١٤ .
(٦) يذكر ابن خلدون ذلك ويقول : والصحيح أنها فى الرابعة بدليل : كان ابن عمر يقول : ردنى رسول الله عليه السلام يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح . ويعتبرها قبل دومة الجندل . (العبر ج ٢ ص ٣٧٣) .
(٧) الطبرى ج ٢ ص ٥٦٦ .

بحفر خندق حول المدينة من جهة الشمال لأن الجهات الأخرى محصنة بالجبال والنخيل والبيوت والحرار .

وأخليت المدينة من النساء والأطفال فرفعوا إلى الآطام [١] وعسكر النبى ﷺ بجيشه البالغ ثلاثة آلاف مقاتل وظهره إلى جبل سلع مما يلى المدينة والخندق مما يلى العدو وكان فراغ الخندق فى ستة أيام .

وأقبلت الأحزاب وهى ترجو أن تلقى محمدا بأُحد فلم تجد عنده أحدا فجاوزته إلى المدينة حتى فاجأها الخندق فعجبت لأنها لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول لها . وبلغ منها الغيظ حتى زعمت أن الاحتماء وراءه جبن لا عهد للعرب به . وأدركت قريش أن لابقاء لها أمام خندق يثرب طويلا وخاصة أن الوقت كان شتاء قارس البرد وغطفان أصبحت تتململ فأدرك ذلك حيى بن أخطب فخشى أن تتفرق الأحزاب بعد أن بذل اليهود جهودهم فى تجميعها فتسلل حيى إلى منازل قريظة وإلى كعب بن أسد القرظى زعيمهم يسألهم نقض العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ ويكونوا معهم عليه فامتنع من ذلك [٢] أوّلا ولكنه اقتنع عندما بين له حيى قوة الأحزاب بقوله :

(جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جانب أحد قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه) [٣] ودعا كعب بالكتاب الذى كتب رسول الله بينهم فشقه وخرج على بنى قريظة فخبرهم الخبر . وأرسل إلى نفر من رؤساء اليهود خمسة : الزبير بن باطا وقباقش وغزّال بن سموأل وعقبة بن زيد وكعب بن زيد فأخبرهم خبر حيىّ وأنه أعطاه أن يرجع إليه فيدخل معه فيصيبه ما أصابه . فقال له الزبير بن باطا : وما حاجتك إلى أن تقتل وتقتل معك حيىّ . فسكت كعب وندم فقالوا له :

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٨ ، الطبرى ج ٢ ص ٥٦٦ .
(٢) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٨ .
(٣) السيرة ج ٣ ص ١٧٥ .

نحن نكره نزرى برأيك ونخالفك وحيى من قد عرفت شؤمه [١] . هذا التردد الذى أظهرته قريظة والاختلاف فى الرأى هون على المسلمين بعض الأمر وأكسبهم بعض الوقت . ولما تسرّب الخبر إلى أصحاب الرسول ﷺ نجم النفاق وفشل الناس وعظم البلاء ، واشتد الخوف وخيف على الذرارى والنساء من بنى قريظة فأرسل عليه الصلاة والسلام مسلمة بن أسلم فى مائتى رجل وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير [٢] إرهابا لبنى قريظة الذين همه أمرهم أكثر مما همه أمر قريش وغطفان ، وخير ما يمثل حال المسلمين آنذاك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ [٣] . ولأجل أن يُعذر الرسول ﷺ أرسل السعدين : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ليستطلعا الخبر فوجداهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلا فيه حدة فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم فإن ما بيننا أربى من المشاتمة [٤] . ومن العجيب بعد هذا أن يصف بعض المؤرخين موقف بنى قريظة فى الأحزاب بالغموض [٥] .

وحاول المنافقون القيام بدورهم فأخذوا يثبطون المسلمين ويستأذنون الرسول ﷺ بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة وهم يريدون الفرار ليدخلوا الرعب فى قلوب المؤمنين .

أما الرسول ﷺ فحاول أن يوقع الخلاف فى صفوف الأحزاب بمحاولة

---

(١) الواقدى ج ٢ ص ٤٥٧ .
(٢) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٤٨ .
(٣) الأحزاب الآيتان ١٠ ، ١١ .
(٤) السيرة ج ٣ ص ١٧٦ – العينى ج ٤ ق ١ ص ٧ .
(٥) منهم بروكلمان – تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٦٢ .

استرضاء غطفان فطلب من عيينة بن حصن الفزارى والحارث بن عوف المرّى بأن ينصرفا بجيوشهما ويعطيهما ثلث ثمار المدينة فوافقا وجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك [١] وأرسل إلى السعدين يستشيرهما فقالا : يارسول الله أمر تحبه فتصنعه ؟ أم شيء أمرك الله عز وجل به لابد لنا من عمل به ؟ أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : لا بل لكم والله ما أصنع إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم من قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر شوكتهم لأمر ما ساعة . فقال سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله عز وجل وعبادة الأوثان ولا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعا أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال ﷺ فأنت وذاك . فتناول سعد الصحيفة فمحا مافيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا [٢] .

وهكذا جدد الرسول ﷺ فى نفوس أصحابه العزم واستثارهم للكفاح والنضال والقائد العسكرى البارع هو من يستطيع تجديد الهمة فى نفوس صحبه ويثير فيهم الأمل بعد اليأس .

وقد حاولت قريظة القيام بعمل ما قبل أن تقوم مع الأحزاب بعمل حاسم فكانت ترسل من يتجسس لاختبار قوة دفاع المسلمين وقصة اليهودى الذى قتلته صفية بنت عبد المطلب وهو يطوف بالحصن دليل على ذلك [٣] .

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥٧٣ – السيرة ج ٣ ص ١٧٧ – الواقدى ج ٢ ص ٤٧٧ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٧٣ – السيرة ج ٣ ص ١٧٧ .
(٣) الأنساب ج ١ ص ٥٤٣ – الكامل ج ٢ ص ١٨٢ – وفى القصة يظهر حسان بن ثابت جبانا شديد الجبن . وهذا بعيد فإنه كان يهاجى الشعراء كضرار وابن الزبعرى وغيرهما وكانوا يناقضونه ويردون عليه فما عيره أحد منهم بجبن ولا وسمه به . ولو صح أيضا لهجى بذلك ابنه عبد الرحمن الذى كان يهاجى الناس وشعراء العرب فدل على ضعف حديث ابن إسحق ولو صح فلعلّه كان معتلا فى ذلك اليوم بعلّة منعته من شهود القتال . – انظر القرطبى ج ٤ ص ١٣٥ – حاشية الطبرى ج ٢ ص ٥٧٧ وانظر الروض الأنف للسهيلي .

وقد ساهم نعيم بن مسعود الأشجعى فى نجاة المسلمين فكان نعيم قد أسلم دون أن يعرف أحد من قومه وجاء للرسول ﷺ عارضا خدماته فقال له عليه الصلاة والسلام : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة (١) .

فذهب إلى قريظة يقنعها بطلب رهائن من قريش وغطفان وجعل يسعى بين المشركين بما يفرق كلمتهم وألفتهم وصدع شعبهم وخوفهم بأن يهود قريظة سيطلبون رهنا لتقديمهم إلى محمد ، حتى قالت غطفان وسليم : والله لمحمد أحب إلينا وأولى بنا من يهود فما بالنا نؤذيه وأنفسنا ؟ (٢) .

ولما طلبت قريظة الرهن من قريش حتى يخرجوا فيقاتلوا معهم أبت قريش واتهموهم واستوحش كل حزب من صاحبه ، فدب إلى قلوب الأحزاب الفشل والرعب وجاءتهم ريح فى ليلة شاتية باردة فكفأت قدورهم وطرحت آنيتهم فقال أبو سفيان :

(يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل) (٣) .

فارتحل الجميع ونجا المسلمون وزالت الغمة .

القضاء على بنى قريظة :

فأمر الرسول ﷺ المسلمين بالتوجه حالا إلى بنى قريظة لمعاقبتهم على خيانتهم وغدرهم فأمر مؤذنا يؤذن فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »(٤) . وقدّم

---

(١) السيرة ج ٣ ص ١٨٣ – الكامل ج ٢ ص ١٨٢ .
(٢) الأنساب ج ١ ص ٥٤٠ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٥٨٠ – الكامل ج ٢ ص ١٨٤ – السيرة ج ٣ ص ١٨٦ .
(٤) الطبرى ج ٢ ص ٥٨١ – السيرة ج ٣ ص ١٨٨ .

عليا برايته إليها فحصرهم وعرض عليهم زعيمهم كعب بن أسد أن يختاروا أحد ثلاثة : إما متابعة محمد على دينه فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم فرفضوا قائلين لا نفارق حكم التوراة ولا نستبدل به غيره ، وإما أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم وأن يخرجوا إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيف غير تاركين وراءهم ثقلا فإن هلكوا لم يتركوا وراءهم نسلا يخشون عليه وإن ظهروا اتخذوا النساء والأبناء ، فرفضوا . وإما تبييت المسلمين ليلة السبت عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فرفضوا أيضا . فكان جواب كعب : (مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما) [١] .

وهذا يبيّن لنا جبن اليهود وأنهم لا يقاتلون إلا من وراء جدر أو بواسطة آخرين كالقبائل العربية التى كانوا يستثيرونها ..

ولما عضهم الحصار عرضوا على الرسول ﷺ الخروج إلى أذرعات تاركين وراءهم ما يملكون فأبى إلا أن تنزل قريظة على الحكم فأرسلت إلى الأوس تقول لهم : ألا تأخذون لإخوانكم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم فتواثبت الأوس فقالوا : يارسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت . فقال ﷺ : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ فقالوا : بلى . قال : فذاك إلى سعد بن معاذ [٢] فأحاط الأوس بسعد يقولون : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم [٣] فكان حكمه أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى ذراريهم وإن تقسم أموالهم فكان ذلك الحكم يتناسب وجرمهم الذى اقترفوه بدليل قوله عليه الصلاة والسلام :

« لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » [٤] وقد اتبع سعد فى قراره

---

(١) السيرة – ج ٣ ص ١٩٠ .
(٢) السيرة ج ٣ ص ١٩٢ – الأنساب ج ٣ ص ٥٤٥ – العينى ج ٤ ق ١ ، ورقه ١٤ .
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٥٨٧ – السيرة ج ٣ ص ١٩٢ – الكامل ج ٢ ص ١٨٦ .
(٤) الطبرى ج ٢ ص ٥٨٧ .

شريعة توراتهم . فقد جاء فيها : (حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بالسيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك) [١] .

ويرى ولفنستون : (أن الحكم الذى حكم به سعد بن معاذ هو فى الحقيقة تعبير عن كراهية الأوس والخزرج القديمة ليهود المدينة فقد كان هدف القبيلتين القضاء على بطون اليهود فى يثرب ولم تنجح القبيلتان فى تحقيق هذا الهدف فى الجاهلية وتوصلتا إلى تحقيقه بعد الهجرة) [٢] .

ومن اليسير تفنيد هذا الرأى فيكفى أن نشير إلى ما ذكرناه من موقف الأوس وإختيار سعد للحكم ، والخزرج لم تشترك فى الحكم عليهم . واستقل سعد برأيه حتى اشترط على الرسول ﷺ والمسلمين أن ينفذ حكمه قبل أن ينطق به .

ويكاد يجمع كتاب التاريخ والسير على أن الرسول ﷺ قتل جميع مقاتلتهم ولكن الآية التى وردت فى شأنهم ذات دلالة على أن القتل لم يعمهم قال تعالى :

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ [٣] .

فبقى من قريظة عدد ممن أسلم عن إيمان وتقوى ، ففى ليلة نزول قريظة على الحكم أسلم بعضهم ذكر ابن إسحق أنهم أربعة نفر من هدل ، كما فر عمرو

---

(١) التثنية - الإصحاح ٢٠ ص ٣٧ .
(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٦٠ .
(٣) الأحزاب الآية ٢٦ .

ابن سعيد القرظى ولم يكن داخل معهم فى نقض العهد [١] كما أن بعضهم تظاهر بالإسلام ليكيد أهله .

وكان عدة من قتل سبعمائة وخمسين رجلا [٢] وأما السبى فقد ابتاع منهم طائفة عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف [٣] وبعث الرسول ﷺ سعد بن زيد الأنصارى فى بعضهم إلى نجد فابتاع له بهم خيلا وسلاحا [٤] وبطائفة أخرى إلى الشام مع سعد بن عبادة [٥] وكانت الأم تباع وولدها الصغار من المشركين العرب ومن يهود المدينة وتيماء وخيبر فإذا كان الوليد صغيرا ليس معه أم لم يبع من المشركين ولا من اليهود إلا من المسلمين [٦] وقد اشترى أبو الشحم اليهودى عددا بقوا فى المدينة .

وبهلاك بنى قريظة لم يبق لليهود فى المدينة نفوذ ولا فى أطرافها ، ولم يبق لهم فى الحجاز قوة سوى الجماعات التى كانت تسكن خيبر وما وقع إلى شمال هذا المكان ، حيث أصبحت ملجأ للكثير من الحانقين على الإسلام الراغبين فى الاتصال بأعدائه لحملهم على مهاجمة يثرب ، والقضاء على دولة الإسلام . الأمر الذى جعل الرسول ﷺ يوالى ضرباته فأجلى من بقى من تجمعاتهم داخل المدينة كيهود بنى حارثة [٧] بعد أن سمع بتأهب بنى النضير ويهود خيبر لحملة يهودية خالصة اقترحها سلام بن مشكم لغزو محمد فى عقر داره [٨] .

---

(١) السيرة ج ٣ ص ١٩١ – الطبرى ج ٢ ص ٥٨٥ – وجاء فى صحيح مسلم « إلا أن بعضهم لحقوا برسول الله ﷺ فآمنهم وأسلموا » (ج ٥ ص ١٥٩) .

(٢) التنبيه والإشراف ص ٢١٧ .

(٣) الواقدى ج ٢ ص ٥٢٣ .

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٥٩٢ .

(٥) الواقدى ج ٢ ص ٥٢٣ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٥١ .

(٦) الواقدى ج ٢ ص ٥٢٤ .

(٧) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٥٩ .

(٨) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٥٣ .

وأراد عليه الصلاة والسلام بخطة عسكرية أن يعزل حلفاء اليهود من القبائل عن اليهود وعن قريش ليحول دون تجمعهم ثانية ، فوجه الضربات للقبائل وأخذ يشغل اليهود بأنفسهم عن محاولة غزو المدينة . فكانت أولى ضرباته للقبائل العربية غزوة بنى لحيان من هذيل بعد ستة شهور من قريظة [١] وهذيل كانت كثيرة اليهود ولينتقم لخبيب وأصحابه ، وحاولت غطفان حليفة اليهود الكبرى أن تقوم بغارات على المدينة فأغار عيينة بن حصن على لقاح رسول الله ﷺ فاستنقذها المسلمون فى ما يسمى بغزوة ذى قرد أو غزوة الغابة [٢] .

كما أنه وجه الفدائيين لاغتيال زعماء اليهود فى خيبر ليشغلهم بأنفسهم عن التفكير والتخطيط لغزو المدينة . فكان الضحية الأولى : **سلام بن أبى الحقيق النضرى وهو أبو رافع اليهودى** من زعماء خيبر : كان ممن حزب الأحزاب على المسلمين [٣] وظاهر كعب بن الأشرف من قبل . وكان على علاقة طيبة بغطفان فتوجه إليهم قبل الأحزاب وإلى من حوله من مشركى العرب وجعل لهم الجعل العظيم لحرب رسول الله [٤] . واستمر فى تحريض المشركين واليهود فعرضت الخزرج على الرسول ﷺ الخلاص منه فندب إليه : عبد الله بن عتيك وعبد الله ابن أنيس ومسعود بن سنان وأبا قتادة الحرث بن ربعى وخزاعى بن أسود من الخزرج وتمكنوا من اغتياله [٥] .

ولما تولى زعامة خيبر **اليسير بن رازم** استمر يحرض القبائل العربية فكانت غارة عيينة فوجه إليه الرسول ﷺ وسلم عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر فى شهر

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٢١٨ .
(٢) انظر الطبرى ج ٢ ص ٥٩٦ - ٦٠٤ - الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٥٨ - ٦١ .
(٣) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٦ - السيرة ج ٣ ص ٢٣١ .
(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٨٦ .
(٥) ذكر الطبرى مقتله فى حوادث السنة الثالثة للهجرة (ج ٢ ص ٤٩٣ - ص ٤٩٩) والبلاذرى سنه ٤ هـ فى ذى الحجة (الأنساب ج ١ ص ٥٩٤ - الكامل ج ٢ ص ١٤٦) - والأرجح أن مقتله جاء بعد وقعة قريظة .
(الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٦ - السيرة ج ٣ ص ٢٣١) .

رمضان سنة ٦ هـ بينهم عبد الله بن أنيس ، الذى قام بقتله بعد أن استدرجه الثلاثة وبعد أن حاول الفتك بابن رواحة (١) .

واتجه الرسول ﷺ بعد ذلك إلى تأمين الدولة الإسلامية بتطهيرها ممن حولها من البدو الذين مردوا على السلب والنهب وشن الغارات على الرعاة والتجار فكانت غزوة بنى المصطلق فى شعبان سنة ٦ هـ الذى ظهر فيها دور المنافقين بزعامة عبد الله بن أبى الذى قال فى محاولة لاستثارة الأنصار ضد المهاجرين :

(قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما عدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأُول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) (٢) .

ثم كانت حادثة الإفك التى أكثر فيها المتقولون من المنافقين وبقايا أهل الكتاب ممن بقى بين المسلمين أو أسلم نفاقا – فجاءت الآيات المحكمة لتحفظ كيان الجماعة الإسلامية من نفوذ الشرور إليها أو تطرق الخلل إليها – تأمر بإحسان الظن بالمؤمنين فقال تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾ (٣) .

التماسّ مع قوى النصارى :

وتزدحم الأحداث فى السنة السادسة للهجرة وأصبحت المدينة مركز حكومة الإسلام أكثر حركة وعلى تماسّ أكثر مع النصارى الذين أخذ دورهم يظهر أكثر وضوحا فى الصدام لكونهم على طريق تجارة المسلمين . فكانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل التى وصلها الرسول ﷺ فى سنه ٥ هـ .

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٧ – السيرة ج ٤ ص ٢٢٧ – الأنساب ج ١ ص ٥٩٨ .

(٢) انظر الطبقات ج ٢ ص ٤٦ – ابن هشام ج ٣ ص ٢٤٨ – الكامل ج ٢ ص ١٩٣ – المغازى ج ٢ ص ٥٦٥ – العينى ج ٤ ق ١ ص ٣٨ .

(٣) النور الآية ١٢ .

ويمكن الجمع بين الأخبار الواردة بشأنها وتكوين رأى قد يكون صحيحا . فقد رُوى : (أنه كان يسكن دومة قبيلة كلب النصرانية وعلى رأسها الأصبغ بن عمرو الكلبى النصرانى – وقد أمر الرسول ﷺ عبد الرحمن بن عوف أن يتزوج ابنة الأصبغ كما يذكر أن الأصبغ أسلم وأسلم معه ناس كثير من قومه وأقام على إعطاء الجزية . وتزوج عبد الرحمن تماضر ابنة الأصبغ وقدم بها المدينة وهى أم سلمة بن عبد الرحمن) [١] .

وأما ابن هشام فيعفى نفسه من التفاصيل ولا يذكر إلا أن عبد الرحمن خرج إلى دومة الجندل بعد أن يروى حديث العمامة [٢] .

وفى صبح الأعشى : دومة من أسواق العرب – وكان يغشوهم فيها أكيدر – دومة وهو ملكها وربما غلب على السوق كلب فيغشوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر) [٣] كما ورد اسم أكيدر فى سرية الرسول ﷺ إلى دومة فى سنة ٥ هـ . ويرد اسمه فى حوادث الردة مع خالد بن الوليد . فوجه الجمع بين هذه الروايات أن قبيلة كلب النصرانية المنتشرة حول دومة برئاسة الأصبغ استولت على دومة قبل سرية عبد الرحمن بن عوف ثم عاد أكيدر واستعادها من الأصبغ قبل غزوة خالد .

وسرية عبد الرحمن تدل على أن حوادث الصدام مع النصارى أخذت تشتد وتتخذ طابعا جديدا قبل مؤتة ، كما تدل على أن الرسول ﷺ كان يبعث برسله إلى الأمراء والحكام ورؤساء القبائل تحقيقا لعالمية الدين الإسلامى والدعوة الإسلامية وأنه لم يبعث هؤلاء الرسل فى فترة واحدة بل كان يرسلهم كلما سنحت الفرصة بذلك من الأقرب إلى الأبعد . (فقد سار عبد الرحمن فمكث فى دومة ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام فأسلم الأصبغ وأسلم معه ناس كثير

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٤ – الإصابة ج ١ ص ١١١ – الإمتاع ج ١ ص ٢٦٨ – العينى ج ٤ ق ١ ص ٢٤١ .

(٢) السيرة ج ٤ ص ٢٤١ .

(٣) القلقشندى ج ١ ص ٤١١ .

من قومه وأقام من أقام على إعطاء الجزية) [١] وفى زواجه من ابنة الأصبغ بأمر الرسول ﷺ وسيلة من وسائل إزالة العصبية أو على الأقل تخفيفها وهى تذكرنى بسياسة الاسكندر الكبير الذى حاول مزج الشرق بالغرب بعد أن احتل فارس فاتبع أسلوب الزواج ، ولم يقدر لسياسة الاسكندر النجاح لأنه لم يحمل إلى الشرق فكرا وعقيدة سامية ، ولكن سياسة الرسول ﷺ نجحت . فما مضى عليها قرن من الزمان إلا وانتشر الإسلام فى أقصى بقاع العالم المتمدن آنذاك وتغلب على كل الأفكار والعقائد التى واجهته وصبغها بصبغة عربية إسلامية .

واستمر الرسول ﷺ فى توجيه السرايا إلى أهل الكتاب والمشركين فى شمال الحجاز يقصد تأمين تجارة المدينة وإرهابا لخيبر والروم فوجه زيد بن حارثة إلى **حسمى** :

فقد كانت جذام تسكن شمال الحجاز من أيلة إلى الينبع من أطراف يثرب ولهم رياسة معان وما حولها من أرض الشام [٢] ، وانتشرت النصرانية بينها . ولما قدم رفاعة بن زيد الجذامى إلى الرسول ﷺ أسلم وأسلم معه قومه من بنى الضبيب من جذام [٣] .

وفى طريق عودة دحية بن خليفة الكلبى رسول الرسول ﷺ إلى قيصر اعترضه الهنيد بن عوص وابنه عوص بن الهنيد الضلعيان — والضليع بطن من جذام فنفر بنو الضبيب واستنقذوه — فكانت سرية زيد إلى الهنيد وابنه فقتلهما فى شهر ربيع الأول سنة ٦ هـ [٤] .

وقد اعترض **أهل وادى القرى** بتحريض من يهودها زيد بن حارثة وهو

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٤ — الواقدى ج ٢ ص ٥٦١ .

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ٥٣٥ .

(٣) السيرة ج ٤ ص ٢٠٦ و ج ٤ ص ٢٢٢ — يذكر أن ذلك كان فى هدنة الحديبية قبل خيبر وأنه أهدى لرسول الله وأسلم فحسن إسلامه وكتب له كتابا .

(٤) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٤ — إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٦٦ — الواقدى ج ٢ ص ٥٥٥ الكامل ج ٢ ص ٢٠٧ .

فى تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبى ﷺ فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم . ولما استبل زيد أرسله الرسول ﷺ إليهم فصبحهم وقتل أم قرفة وأخذ ابنتها وكانت جارية وقدم بها إلى المدينة [١] .

كما وجه الرسول ﷺ عليا إلى بنى سعد بن بكر **بفدك** ليفوت [٢] على خيبر خطتها الرامية إلى تجميع فدك ووادى القرى وتيماء وغيرها من تجمعات اليهود لغزو المسلمين .

فكانت هذه المحاولات من محمد ﷺ وسيلة لإخراج القبائل البدوية من أحلاف أهل الكتاب وإرهابا لأهل الكتاب فى شمال الحجاز فأمن الجبهة الشمالية فحق للمسعودى أن يسمى عام ٦ هـ سنة الاستئناس [٣] .

إفراد الرسول ﷺ أهل الكتاب عن القبائل المشركة :

وأما المحاولة الجيدة التى تمكن بها أن يفرد أهل الكتاب عن معظم القبائل المشركة وقريش فتمثلت فى حادثة العمرة التى أسفرت عن **صلح الحديبية** وكتب بينه وبين قريش كتابا تهادنا عشر سنين فى رأى أكثر كتاب السيرة [٤] وسنتين فى قول الواقدى [٥] وثلاثة سنين فى قول اليعقوبى [٦] فأصبح المسلمون قوة سياسية وعسكرية كبيرة يطرقون أبواب مكة بعد أن كانت قريش وحلفاؤها يطرقون المدينة غازين فاعتبرت هذه الحادثة فتحا مبينا بنص القرآن الكريم [٧] تمكن المسلمون أن ينشروا الإسلام بين العرب الوثنيين وبين أهل الكتاب فيقول الزهرى [٨] :

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٣ .
(٢) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٦٥ – الواقدى ج ٢ ص ٥٦٢ .
(٣) التنبيه والإشراف ص ٢١٨ .
(٤) الطبرى ج ٢ ص ٦٣٤ – التنبيه والإشراف ص ٢٢١ / الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٢٠٠ – السيرة ج ٣ ص ٢٧٤ – الكامل ج ٢ ص ٢٠٤ .
(٥) المغازى ج ٢ ص ٥٩٦ .
(٦) اليعقوبى ج ٢ ص ٥٤ .
(٧) سورة الفتح ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ .
(٨) الطبرى ج ٢ ص ٦٣٨ / الكامل ج ٢ ص ٢٠٥ .

(فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا فالتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكن أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه . فقد دخل فى تينك السنتين فى الإسلام مثل ما كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر) . كما تفرغ عليه الصلاة والسلام إلى مكاتبة الرؤساء والملوك لإبلاغ رسالة الإسلام إلى الناس كافة ووجه نظره إلى تمهيد أسباب طمأنينة المسلمين فى شبه الجزيرة بتأديب أهل الكتاب فى شمال الحجاز فى خيبر وغيرها ، فبعد الضربات التى تلقتها قريش فى الخندق والحديبية أخذت تزول شيئا فشيئا من بين القوى المضادة لدولة الإسلام ، وبانعزالها لحقت بها أكثر القبائل العربية المشركة بحكم زعامتها وتأثيرها ، وبقى أهل الكتاب والمنافقون الذين أخذوا بدورهم يفقدون أهميتهم شيئا فشيئا أمام المد الإسلامى السريع .

مراسلة أهل الكتاب وغيرهم :

اغتنم الرسول ﷺ سنوات الهدنة مع قريش لنشر الإسلام داخل الجزيرة وخارجها فأرسل الرسل إلى الملوك (١) والأمراء ورؤساء القبائل المعاصرين له . وقد حاول المستشرقون أن ينكروا كتب النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء لخارج الجزيرة بحجة عدم عثورهم على ما يدل على شىء من ذلك فى الوثائق التى خلفها هؤلاء ، ولكن إجماع المؤرخين المسلمين وأصحاب السّير فيه الدليل على صحتها كما أن طبيعة الدعوة الإسلامية العالمية دليل أعظم على صحة هذه الكتب . ورواة الأخبار المسلمين من الثقة بحيث لا يفوتهم مثل هذا الأمر الخطير ويبعد عنه شبهة الوضع أو التزييف .

ويبدو أن إرسال الكتب والرسل قد بدأت مع بداية ظهور حكومة الإسلام فى المدينة وسرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة وبعثة الرجيع وبئر معونة أدلة على ذلك .

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٠٧ - العينى ج ٤ ق ١ ص ٦٦ .

وعلى كل فقد بلغ عليه السلام إلى أكثر ملوك الأرض المعروفة آنذاك ، وطلب منهم اتباعه ، فأجابه البعض وشغل فكر الآخرين فلم يلحق بالرفيق الأعلى إلّا ومعظم الجزيرة قد اتبعته وانقادت لدينه وفى غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات (١) .

كانت الدولتان الفارسية والرومانية أعظم دولتين فى العالم القديم آنذاك وتتقاسمانه ، تتنافسان على نشر نفوذهما فى الجزيرة ، فوجد الروم عملاء لهم : النصارى . كما وجد الفرس فى اليهود عملاء لهم (٢) .

فبعث عليه الصلاة والسلام عبد الله بن حذافة السهمى (٣) رسولا إلى كسرى الذى مزق كتابه وكتب إلى عامله باذان فى اليمن أن يرسل برجلين جلدين ويأتيا بمحمد إليه ، فبعث باذان بدوره قهرمانه بابويه وخسرو بكتاب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى (٤) ويعلق الدكتور الخربوطلى على ذلك فيعتبر كسرى أنه كان ضيق الأفق جاهلا بحقيقة الموقف (٥) وقد تكون الحقيقة غير ذلك إذ لا يعقل أن يكون سيد نصف أرض العالم القديم آنذاك بهذا الأفق الضيق وإنما الأقرب للحقيقة والواقع أن يأمر كسرى بإرسال اثنين يستطلعان الأمر ويأتياه بآخر التطورات التى وصلتها حكومة الإسلام ، أو برجلين يغتالان الرسول ﷺ أو للاتصال بمن بقى من قبائل اليهود واستطلاع قوتهم لتأليف حملة ضد الإسلام يمكن لفارس واليمن أن يتحملا عبئها ، ولماذا لا يكون اليهود هم الذين دبروا الأمر وزينوا لكسرى ذلك ؟ إذ أنه لم يكن غائبا عن حقيقة الموقف ولم يكن مثله بالذى يغيب عنه : إن وحدة سياسية واجتماعية قوية قامت فى المدينة ونجحت فى تحقيق انتصارات كثيرة على قريش وعلى حلفائها من القبائل

---

(١) الخضرى بك - تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٤٧ .
(٢) انظر ص ٣٣ من هذا البحث .
(٣) السيرة ج ١ ص ٦٥ - الطبرى ج ٢ ص ٦٤٤ .
(٤) الطبرى ج ٢ ص ٦٥٥ - الكامل ج ٢ ص ٢١٣ .
(٥) الرسول فى المدينة ص ٢٤١ .

العربية – وكيف يغيب عنه وعلاقته باليهود الذين وقفوا فى وجه الدعوة الإسلامية من أول ظهورها وطيدة عتيدة ؟!

وأرسل عليه الصلاة والسلام دحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل عظيم الروم فكان رده دبلوماسيا لا يعبر عن رأيه الحقيقى تاركا الأمر ليتروى فيه موعزا إلى عملائه من أهل الكتاب على تخوم الجزيرة وداخلها جس النّبض (١) .

وأرسل سليط بن عمرو بن عبد شمس إلى هوذة بن على صاحب اليمامة . كما أرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى من عبد القيس وهم نصارى البحرين وأسلم .

وأما عمرو بن العاص فقد أرسله ﷺ إلى جيفر وعباد الأزديين صاحبى عمان وأسلما .

وأرسل حاطب بن بلتعة إلى المقوقس صاحب الاسكندرية وعظيم القبط فى مصر فكان رده جيدا وإن لم يسلم وأرسل للرسول ﷺ هدية (٢) .

وأرسل عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى وأجاب بأنه أسلم على يدى جعفر بن أبى طالب . وقد استجاب باذان وإلى اليمن من قبل الفرس للإسلام . أما والي مؤتة الغسانى شرحبيل بن عمرو فقد قتل الحارث بن عمر الأزدى من بني أسد بن خزيمة رسول الرسول ﷺ إليه ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره (٣) .

انهيار آخر قوة يهودية فى الجزيرة :–

وعمل كسرى ملك الفرس من العوامل التى عجلت بالخلاص من آخر قوة عسكرية لليهود فى الحجاز فى **خيبر** ...

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٤٦ .
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٤٥ .
(٣) الكامل ج ٣ ص ٢٢١ – الطبقات ج ٤ ق ٢ ص ٦٥ ، ج ٢ ق ١ ص ٩٢ – المغازى ج ٢ ص ٧٥٧ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٤٥ .

فقد أصبحت خيبر ملجأ لليهود بعد إجلائهم عن المدينة فأقاموا هناك يتطلعون إلى الانتقام [١] بمساعدة كسرى أو نصارى الروم بعد أن أفردهم الرسول ﷺ عن قريش وكثير من قبائل العرب ولم تغب عن رسولْ الله أهدافهم . فقام بمقدمات سنة ٦ هـ ، لمهاجمة خيبر بأن أرسل عليا إلى فدك الذى أصاب عينا من بنى سعد بن بكر فأقر للمسلمين أنه بعث إلى خيبر يعرض عليهم نصرهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر سنة[٢] .

ولما شعر الرسول ﷺ أن الوقت حان كى يحطم هذا الحاجز الذى يعترض طريق الدعوة الإسلامية فى امتدادها – لم يفوت الفرصة فاستعد لذلك : وكان يهود خيبر لا يتوقعون أن يغزوهم الرسول لمنعتهم وحصونهم وعددهم فكانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل وقوفا ثم يقولون محمد يغزونا – هيهات هيهات – [٣] وكانوا يحاولون غزو المدينة فقد رأينا سلام بن مشكم يقترح أن يبادر اليهود إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء تغزو المدينة دون الاعتماد على البطون العربية ، وخرج كنانة بن أبى الحقيق فى أربعة عشر رجلا إلى غطفان يدعوهم إلى نصرهم ولهم نصف تمر خيبر سنة [٤] . ثم محاولات الاتصال بالفرس والروم .

كان ﷺ يدرك كل حركة تقوم بها خيبر فقد أرسل فى السنة السادسة عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر ينظر إلى خيبر فجعل يدخل الحوائط وفرق أصحابه فى حصونهم النطاة والشق والكتيبة ووعوا ما سمعوا من اليسير بن رازم وغيره ثم خرجوا بعد إقامة ثلاثة أيام وأخبروا النبى ﷺ بما رأوه وسمعوه [٥] وبعد ذلك أرسله ﷺ لاغتيال اليسير فاغتاله[٦] .

---

(١) الخربوطلى – العلاقات ص ٨٣ .
(٢) الأنساب ج ١ ص ٥٩٧ – الطبرى ج ٢ ص ٦٤٢ .
(٣) الواقدى ج ٢ ص ٦٣٧ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣١٠ .
(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣١٠ .
(٥) الواقدى ج ٢ ص ٥٦٦ .
(٦) الواقدى ج ٢ ص ٥٦٦ .

ولما تجهز ﷺ لغزو خيبر خرج فى صفر سنة ٧ هـ أو فى هلال ربيع أول فشق ذلك على يهود المدينة فحاولوا أن يخذلوا المسلمين فلم يبق أحد منهم له حق على أحد من المسلمين إلا لزمه ، وقال أبو الشحم مخذلا : أتحسب قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب فيها والتوراة عشر آلاف مقاتل [١] . وقال غيره : ما أمنع والله خيبر منكم – لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم ، حصون شامخات فى ذرى الجبال والماء فيها واتن (دائم) إن بخيبر لألف دارع ما كانت أسد وغطفان يمتنعون عن العرب قاطبة إلا بهم ، فأنتم تطيقون خيبر [٢] .

وحاول ﷺ أن يحول بين غطفان ونصرها اليهود فعرض على عيينة زعيمها ما عرضه أهل خيبر نصف تمر خيبر لهذه السنة . ولكن عيينة رفض وقال : لست بمسلم حلفائى وجيرانى [٣] ، ولا عبرة فى ما ذكره بروكلمان : « أن النبى حاول أن يعوض فشله الظاهرى فى الحديبية فقاد المسلمين فى حملة على المستعمرة اليهودية الغنية فى خيبر ، فاستعان اليهود بأربعة آلاف بدوى من غطفان لحمايتهم حتى إذ جبن أهل خيبر عن مواجهة النبى فى ميدان المعركة وآثروا أن يعتصموا فى حصونهم لم يكن من الغطفانيين إلا أن انسحبوا بدورهم » [٤] . فاستعانة اليهود بأربعة آلاف غطفانى بعيد ، لأن الرسول ﷺ باغت خيبر مباغتة ، فعرب الجزيرة وأهل كتابها كانوا يعلمون أن الرسول يواجه قريشا فى الحديبية ولم يتوقعوا أن الرسول ﷺ سيغزو خيبر بهذه السرعة ..

ثم أن الرسول ﷺ أوهم غطفان بأنه سيهاجمها فنزل الرجيع فى المحرم سنة ٧ هـ فتراجع عيينة بمن معه خوفا على أهليهم وأموالهم من المسلمين [٥] .

---

(١) نفسه ج ٢ ص ٦٣٤ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ٦٢٧ .
(٣) نفسه ج ٢ ص ٦٥٠ .
(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٦٥ .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ٩ – الكامل ج ٢ ص ٢٤٦ – الأنساب ج ١ ص ٥٥١ السيرة ج ٣ ص ٢٨٥ ، الواقدى ج ٢ ص ٦٥٢ .

فحركة الرسول ﷺ كانت سريعة فقد أمر أصحابه بالتهيؤ بعد خمس عشرة ليلة على قول أو شهر على قول آخر من رجوعه من الحديبية على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية إلا أن يكون غازيا متطوعا ليس له من الغنيمة شيء فقال : « لا يخرجن معنا إلا راغب فى الجهاد » [١] . فخرج معه ألف وستمائة مقاتل ومعهم مائة فارس وصل بهم خيبر ليلا وباتوا أمام حصونها . حتى إذا كان الصباح فوجىء أهل خيبر فقالوا : محمد والخميس معه – فاستبشر المسلمون خيرا – وقال ﷺ : « الله أكبر – خربت خيبر – إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » [٢] .

كانت وقعة خيبر من أكبر المواقع فى عهد النبوة فقد كانت جموع يهودها من أقوى الطوائف اليهودية بأسا وأوفرها مالا وأكثرها سلاحا ولها آطام حصينة منها : الصعب وناعم وقلعة الزبير ، والشق وبه حصون منها : حصن أُبي وحصن النزار ، وحصون الكتيبة ومنها : القموص والوطيح والسلالم وهو حصن بنى أبى الحقيق [٣] واتباعا لرأى زعيمهم سلام بن مشكم أدخلوا أموالهم وعيالهم حصنى الوطيح والسلالم وأدخلوا ذخائرهم حصن ناعم . ودخلت المقاتلة حصن نطاة وحرضهم سلام على الحرب رغم مرضه . واستماتوا فى الدفاع إيمانا منهم بأن هزيمتهم أمام المسلمين هى القضاء الأخير على اليهود فى بلاد العرب ، وسقطت الحصون حصنا بعد حصن ومات سلام أثناء القتال حول حصن نطاة فتولى الحارث بن أبى زينب قيادة اليهود وقتل أثناء سقوط حصن ناعم . وقد ذكرت لنا كتب التاريخ والسير أمثلة من بطولة اليهود والمسلمين فقتل من زعماء اليهود ثلاثة وتسعون رجلا منهم : الحارث أبو زينب ومرحب وأسير وياسر وعامر وكنانة بن أبى الحقيق وأخوه وإنما ذكرهم بن سعد على رأيه لشرفهم [٤] وكل هؤلاء كانوا فى حصن ناعم [٥] .

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٧٨ .
(٢) السيرة ج ٣ ص ٢٨٥ .
(٣) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٧٧ – العينى ج ٤ ق ١ ص ٤٥ .
(٤) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٧٧ .
(٥) الواقدى ج ٢ ص ٦٥٨ .

ولم يتطرق اليأس إلى نفوس اليهود إلا بعد سقوط حصن الوطيح والسلالم بمنطقة الكتيبة فطلبوا الصلح بعد حصار دام بضع عشرة ليلة [(١)] فدفع لهم الرسول ﷺ نخل خيبر وأرضها على أن يعتملوها من أموالهم ولرسول الله عليه السلام شطر ثمرها [(٢)] .

وبذلك أصبح لدولة الإسلام أراضى مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج وأصبح ضمن سلطان الدولة السياسى جماعات يهودية اعتبروا أهل ذمة ، بقوا على دينهم . يشتغلون أراضيهم وفق الشروط التى تؤخذ عليهم [(٣)] .

وقد حاول عيينة بعد أن اطمأن على قومه من غزو المسلمين نصر حلفائه من اليهود بغطفان [(٤)] ولكن الوقت كان قد فات . وتهاوت بقية التجمعات اليهودية فقد أرسل الرسول ﷺ محيصة إلى أهل **فدك** يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية وكان رئيسهم يوشع بن نون اليهودى [(٥)] فقدم فى نفر وصالحوا رسول الله ﷺ على أن يحقن دماءهم ولهم نصف الأرض بتربتها ولرسول الله نصفها خالصة له لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب [(٦)] .

ولما تجمع يهود **وادى القرى** ممن ضوى إليهم من العرب لقتال المسلمين سار الرسول ﷺ إليهم بعد خيبر [(٧)] فحصرهم أياما ثم افتتحها عنوة [(٨)] فأصاب

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠ .
(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٧ – السيرة ج ٣ ص ٢٩٢ – العينى ج ٤ ق ١ ص ٤٥ – الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٨٠ .
(٣) الخربوطلى – أهل الذمة ص ٥٧ – جمال سرور – قيام الدولة العربية ص ١٢٠ .
(٤) الواقدى ج ٢ ص ٦٥٢ .
(٥) البلاذرى – فتوح البلدان ص ٤٢ – المغازى ج ٢ ص ٧٠٧ .
(٦) السيرة ج ٣ ص ٣٠٧ – التنبيه والإشراف ص ٢١٤ – الكامل ج ٢ ص ٢٢١ – العينى ج ٤ ق ١ ص ٤٤ .
(٧) المغازى ج ٢ ص ٧١١ .
(٨) الأنساب ج ١ ص ٥٥٢ – التنبيه والإشراف ص ٢٢٤ – المغازى ج ٢ ص ٧١١ .

المسلمون أثاثا ومتاعا فخمس الرسول ﷺ ذلك وترك النخل والأرض فى أيدى اليهود وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر ، وقسم الرسول ما أصاب على أصحابه وقد قتل فيها مدعم غلام رسول الله وهو يحط رحل النبى بسهم[١] .

وأما يهود **تيماء** فقد دفعوا الجزية من غير حرب ولا قتال وأقاموا على أموالهم[٢] .

بذلك دانت اليهود كلها فى الحجاز لسلطان الإسلام ، وأصبحت المدينة بمأمن من ناحية الشمال ، فقد أرسل عليه الصلاة والسلام **بشير بن سعد** لتفتيت جمع عيينة من غطفان فانهزم عيينة فلقيه الحارث بن عوف فقال : قد آن لك ياعيينة أن تقعد عما ترى[٣] .

كما أرسل سرية إلى **بنى سليم** بإمرة أبى العوجاء السّلمى ولكن العيون اليهودية أنذرت حلفاءها بنى سليم (فقد كان فيمن معه عين لبنى سليم فتقدم أهل السرية وأسرع إلى بنى سليم فأنذرهم بغارته وحذرهم)[٤] فجمعت سليم الجموع وقاتلوا المسلمين حتى قتل عامة أصحاب أبى العوجاء ، وأثخن بالجراح فتحامل إلى المدينة فقدمها .

وقد أظهر عليه الصلاة والسلام من التسامح مع اليهود ما كان مضرب المثل فمن بين الغنائم التى غنمها المسلمون فى موقعة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها أمر الرسول ﷺ بتسليمها لهم[٥] . فاستوقف هذا الأمر ولفنستون فعلق عليه قائلا :

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٣٢ .
(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٢٥ - المغازى ج ٢ ص ٧١١ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٣٢ .
(٣) المغازى ج ٢ ص ٧٢٩ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٣٥ - الطبرى ج ٣ ص ٢٢ .
(٤) الواقدى ج ٢ ص ٧٤٦ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٤١ .
(٥) الواقدى ج ٢ ص ٦٨١ - تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٠ .

(ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس اليهود من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبى بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ م إذ حرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم . وما فعله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حيث أحرقوا صحف التوراة . هذا هو الفرق الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام) [١] .

ومن دلائل إحسانه ﷺ ليهود خيبر . زواجه بصفية بنت حيى بن أخطب ، وكان بلال قد مر بها على مصارع قومها وبأخرى معها .

فقال عليه الصلاة والسلام : « أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما » [٢] .

وسر المعاملة الحسنة هذه مبادىء الإسلام وقد درج خلفاء المسلمين على سياسة الرسول ﷺ هذه مع اليهود ومع غيرهم .

ويزعم ولفنستون والمستشرقون [٣] على لسان الواقدى :

(أن المسلمين لم يتركوا لليهود فى خيبر سوى ثوب واحد لكل منهم وسوى نسائهم وذراريهم) . وقد ارتاب بعض المستشرقين بهذا الخبر . وعندما رجعت إلى النص وجدت أنهم حملوا نص الواقدى أكثر مما يحتمل بل كذبوا عليه . وهذا هو النص :

(لم يترك – أى الرسول ﷺ – على أحد من أهل الكتيبة إلا ثوبا واحدا على ظهر كل من الرجال والنساء والصبيان) [٤] فالنص لا يعمم على أهل خيبر جميعا

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٧٠ – الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ٢١٢ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤ – الكامل ج ٢ ص ٢٢١ .

(٣) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٦٩ .

(٤) المغازى ج ٢ ص ٦٨٠ .

بل على أهل الكتيبة فقط ، حتى هذا غير صحيح ، بدليل أن الواقدى نفسه يذكر فى نفس الصحيفة التى ذكر فيها ذلك (أن اليهود قد جاءوا من منطقة الكتيبة لشراء غنيمة القموص وفداء النساء والذّراري) .

فمن أين جاءوا بما يشترون به الغنائم ويفتدون به النساء والذرارى إذا لم يكن المسلمون تركوا لهم إلاثوبا واحدا لكل واحد منهم ؟

وقد زعم مؤرخو اليهود أن سبب سياسة التسامح التى اتبعها الرسول ﷺ مع اليهود : زواجه صفية . والواقع أن زواجه منها كان جزءا من إحسانه إلى بنى دينها القديم لا سببا فى إحسانه . فإن صفية لم تكن الأثيرة الأولى عنده ﷺ ولم يكن لها عليه تأثير واضح لتعدل سياسته بسببها ، وحتى عائشة التى ظلت أحب نسائه إليه[١] لم يكن لها أى أثر فى سياسته فكيف بصفية ؟ وكما كانت صفية كانت جويرية ابنة زعيم بنى المصطلق التى كانت عائشة تقول فيها : « ما رأيت أعظم بركة على قومها منها » [٢] .

وتغاضى الرسول ﷺ والمسلمون عن رجوع بعض اليهود إلى المدينة وصالح بنى غازية وبنى عريض ويهود البحرين ويهود اليمن وبقية الجزيرة على أن لهم الذمة وعليهم الجزية [٣] . وقد علق ولفنستون على ذلك بقوله :

« قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود السياسى فى البلاد الحجازية قضاء نهائيا بعد أن قضوا عصورا طويلة وهم يتمتعون به ويتفيأون ظلاله فأخذت حالتهم الاقتصادية تتدهور شيئا فشيئا حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفقر والفاقة وقد فقدوا ما كان لهم من تأثير ونفوذ عند العرب فى الجزيرة ، فانقطعت الخصومة بين المسلمين واليهود ووقف تيار المطاعن والمثالب التى كانت متبادلة بين الطرفين » [٤] .

---

(١) انظر الخربوطلى – الرسول فى المدينة ص ٢١١ .
(٢) ابن هشام – السيرة – ج ٣ ص ٢٩٥ تحقيق السقا ورفاقه .
(٣) جواد على ج ٦ ص ١٦١ – هيكل – حياة محمد ص ٣٩١ .
(٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٧٣ .

والواقع أن هذه الخصومة ستستمر ولكنها ستأخذ اتجاها جديدا عن طريق التسلل الفكرى بين المسلمين وتكوين الفرق وإثارة الفتن فى داخل الدولة .

وأما قريش فقد كانت مشاعرها مع خيبر ولا تستطيع أن تغامر بنقض الصلح مع المسلمين . وكانت ترى أن خيبر لها من القوة ومنعة الحصون ما تستطيع به أن تصد المسلمين بل وأن تهزمهم . وقد تبايعوا بينهم (١) . وفرحت عندما خدعهم الحجاج بن علاط السلمى فأخبرهم أن محمدا والمسلمين هزموا ثم ساءهم الأمر جدا عندما تبينوا عكس ذلك (٢) .

وأما النصارى فى الشمال فأغلب الظن أن موقفهم كان يتسم بالتريث والانتظار والترقب نظرا للخصومة التقليدية بينهم وبين اليهود ولربما رحبوا بالقضاء على نفوذهم وظنوا أن نفوذهم بمساعدة الدولة البيزنطية سيمتد إلى تلك المناطق إن لم يكن عاجلا فآجلا .

وهل سكت اليهود بعد معاملة الرسول الحسنة ؟ لقد استمروا فى مؤامراتهم وحاولوا أن يدسوا للرسول السم فى الطعام . فقد شاورت زينب بنت الحارث وزوجة سلام بن مشكم اليهود فى وضع السم فوافقوها على ذلك (٣) ثم جعلت تسأل أى الشاة أحب إلى محمد فقالوا : الذراع ، فعمدت إلى غنمة فذبحتها وسمتها وأكثرت السم فى الذراعين والكتف وأهدتها لرسول الله . فأكل منها وناس من أصحابه فيهم بشر بن البراء بن معرور فمات بشر من أكلته تلك (٤) فجمع الرسول ﷺ اليهود وعاتبهم بعد أن حاججهم (٥) وسأل زينب عن ذلك وسببه

---

(١) الواقدى ج ٢ ص ٧٠٢ .

(٢) انظر القصة بتفاصيلها – السيرة ج ٣ ص ٣٠٠ – الكامل ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٣) الطبقات ج ٢ ق ٢ ص ٦ – الأنساب ج ١ ص ٤٣٧ – المغازى ج ٢ ص ٦٧٧ .

(٤) السيرة ج ٣ ص ٢٩٣ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٢١ – اليعقوبى ج ٢ ص ٥٦ – التنبيه والإشراف ص ٢٢٣ .

(٥) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٨٤ .

فاعترفت وقالت : بلغت من قومى مالم يخف عليك فقلت : إن كان نبيا فسيخبر وإن كان ملكا استرحت منه وقومى [١] . فتجاوز عنها الرسول ﷺ [٢] ، ثم قتلها ببشر بعد ذلك [٣] .

ثم حاول اليهود الإيقاع بين الرسول وأصحابه فكان الرسول ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة خارصا بين المسلمين واليهود فيخرص عليهم فحاولوا رشوته فى الخرص ففشلوا [٤] وكان يساعدهم فى ذلك بعض حلفائهم من العرب كعيينة بن حصن الذى جعل يتدسس إلى اليهود بعد قدومه إلى النبى ﷺ . وطلبه ذا الرقبة فكان يقول لهم :

(ما رأيت كاليوم أمرا والله ما كنت أرى أحدا يصيب محمدا غيركم ، قلت أهل الحصون والعدة والثروة ، أعطيتم بأيديكم وأنتم فى هذه الحصون المنيعة وهذا الطعام الكثير ما يوجد له آكل والماء الواتن) [٥] .

وقد عدوا على عبد الله بن سهل أخى بنى حارثة فقتلوه وألقوه فى نهر وكان قد خرج إلى خيبر فى أصحاب له يمتار منها تمرا فوجد فى عين قد كسرت عنقه ثم طرح فيها فاتهمهم به الرسول ﷺ وطلب أن يقسموا خمسين يمينا على قتل عبد الله فرفض أخوه وابنا عمه وقالوا : يارسول الله لا تقبل أيمان اليهود ، ما فيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا على إثم . [٦] فوداه الرسول من عنده مائة ناقة وهذا دليل آخر على سماحته معهم ﷺ .

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٢٢٣ - الكامل ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٢) الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ١١١ - الإصابة ج ١ ص ٢٤٧ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٢٢ - أسد الغابة ج ١ ص ٢٠٧ .
(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٢٢ .
(٤) فتوح البلدان ص ٣٧ - المغازى ج ١ ص ٦٩ - الإصابة ج ٦ ص ٧٧ .
(٥) المغازى ج ٢ ص ٦٧٦ .
(٦) السيرة ج ٣ ص ٣٠٨ - المغازى ج ٢ ص ٧١٣ - ٧١٥ .

النصارى وحكومة الرسول ﷺ بعد خيبر :

اعتقد المرحوم هيكل [١] أن صلة الإخاء بين المسلمين والنصارى عظيمة طوال حياة النبى وإن تكرر بين الفريقين ما كان من مجادلة ، بعكس اليهود ، ومصداق ذلك على حد قوله :

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ [٢] ، والإستدلال بالآية فى هذا المجال خطأ فقد نزلت فى وفد نجران أو وفد النجاشى الذين أسلموا فلا تصح دليلا على ما استنتجه المرحوم . ويكفى للرد عليه قوله وهو يناقض نفسه فى وحدة موقف الإسلام وموقف محمد ﷺ من الأديان الكتابية منذ بدء رسالته إلى ختامها ، وهو يرد على المؤرخين النصارى فى رأيهم فى تطور موقف محمد من اليهود والنصارى [٣] .

والواقع أن موقف الإسلام من النصارى والنصرانية كان ثابتا منذ البداية - فالمسيح عليه السلام فى نظر الإسلام هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم والمسيح عبد الله أتاه الكتاب وجعله نبيا - ذلك ما نزل به القرآن منذ بدء الرسالة إلى ختامها [٤] والله فى الإسلام واحد أحد فرد صمد هو روح الإسلام وأساسه منذ اللحظة الأولى وذلك روح الإسلام ما دام العالم ، وهذه الأسس مخالفة تماما للنصرانية بعد تحريفها فعيسى عندهم ابن الله بل يرقى إلى الإله نفسه فى رأى بعض طوائفهم وإيمانهم بالثالوث يبعدهم عن الوحدانية ، وقصة مناقشة جعفر للنجاشى فى الحبشة تظهر هذه الحقائق [٥] . وكذلك مناقشة رسول الله ﷺ لوفدنجران [٦] .

---

(١) حياة محمد ص ٤ .
(٢) المائدة الآية ٨٢ .
(٣) حياة محمد ص ٤٨١ - ٤٨٤ .
(٤) انظر سورة مريم - وهى مكية .
(٥) راجع السيرة ج ١ ص ٣٥٩ .
(٦) انظر ص ٨٤ من هذا البحث .

وأما الذى أجل الصدام عدم وجود تجمعات نصرانية فى مكة أو فى المدينة . وبعد خيبر أصبح الإسلام أمام النصرانية وجها لوجه ، وكان أبو عامر الراهب منهم قد اشترك فى أُحد وفى غزوة الأحزاب ثم اتصل بالطائف ولحق بعد ذلك بالشام وحاول إثارة الفتن فى داخل المدينة باستمالة المنافقين وأعوانه من الأوس واليهود فبنوا له مسجد الضرار (١) الذى سيرد ذكره فيما بعد ، وقد بقى فى الشام إلى أن مات بها طريدا غريبا وحيدا (٢) .

كانت قوة أهل الكتاب من النصارى تتمثل فى دولة الروم البيزنطيين التى كانت تواجه مشاكل كثيرة جعلتها تتريث فى مهاجمة المسلمين لا استهانة بأمرهم ولكن لعدم قدرتها على توجيه حملة إلى الحجاز فى ذلك الوقت ، فبعد أن استطاع هرقل التغلب على الفرس واستعاد الصليب الأعظم واجه حدة الخلاف الدينى داخل الامبراطورية بين الأرثوذكسية والكاثوليكية من جهة والخلاف حول طبيعة المسيح وصفته من جهة أخرى . فحاول أن يعيد الوحدة فأصدر قراراً بمنع الناس من الحديث فى طبيعة المسيح ورأى أن يعترف الجميع بأن للمسيح مشيئة واحدة ، وحاول أن ينشر هذا المذهب الجديد فى مصر ملجأ المذهب الأرثوذكسى اليعقوبى (أو المونوفيزيت) أى أصحاب الطبيعة الواحدة ، فخلق بذلك مذهبا ثالثا زاد من حدة الخلاف والشقاق والاضطهاد .

وبرز الإسلام فهدد مصالح بيزنطية فى الجزيرة وأطرافها فعزمت على وقف زحفه داخل الجزيرة وخارجها والقضاء على الدولة الإسلامية فأصبح الصدام العسكرى بين الدولة الرومانية والإسلامية أمرا محتوما واتخذ من مؤتة وتبوك مسرحا له .

مـــؤتة :

لما بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدى إلى ملك بصرى

---

(١) السيرة ج ٤ ص ١٤٣ .
(٢) السيرة ج ٢ ص ٢١٧ – الاستيعاب ق ١ ص ٣٨٠ – الأنساب ج ١ ص ٢٨١ .

بكتابه عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى بمؤتة فأمر بالحارث فأوثق رباطا ثم قدمه فضرب عنقه صبرا ، ولم يقتل لرسول ﷺ رسول غيره [١] ويظهر أن عداء النصارى هؤلاء للإسلام كان بوحى من هرقل والروم لإيقاع العداوة والبغضاء بين صفوف العرب خوفا من أن تجرف العصبية العربية هذه القبائل فيكونوا عونا للمسلمين على الروم . بينما كانت نية هرقل التريّث والتثبت . ثم أرسل محمد ﷺ كعب بن عمير فى خمسة عشر رجلا إلى ذات أطلاح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام فكان جزاؤهم القتل ولم ينج إلا رئيسهم كعب [٢] .

فاشتد على الرسول ﷺ الأمر وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث بن عمير فأسرعوا فكان ذلك من أسباب غزوة مؤتة على قول ابن سعد [٣] .

والواقع أن الشام أصبحت متجه أنظار الرسول ﷺ بعد أن أمن الجنوب لعهده مع قريش وإذعان باذان عامل اليمن لدعوته فكانت غزوة مؤتة لتأديب القبائل الغادرة العميلة للروم ، ولتكون فى الوقت نفسه طليعة لحملة أكبر للفتح . فهى مقدمة لغزوة تبوك التى كانت بدورها مقدمة لما كان بعد وفاته ﷺ من فتح الشام تحقيقا لطبيعة المد الإسلامى النابع من طبيعة الدعوة الإسلامية العالمية التى لا تعترف بوطن أو حدود .

وقد شجع اليهود الغزوة لإدراكهم مدى قدرة الروم والعرب المتنصرة على صد هجمات المسلمين ولأنهم أحبوا أن يضرب عدو بعدو [٤] .

---

(١) ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٦٥ ، ج ٢ ق ١ ص ٩٢ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٤٥ – ابن عساكر ج ٧ ص ٣٨٩ – المغازى ج ٢ ص ٧٥٧ .

(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٤٤ – بينما يذكر الواقدى أن غزوة ذات إطلاح كانت فى شهر ربيع الأول سنة ٨ هـ (المغازى ج ٢ ص ٧٥٣) وعلى هذا تكون بعد سرية مؤتة لا سببا لها .

(٣) الطبقات ج ٤ ق ٢ ص ٦٥ .

(٤) انظر ابن عساكر – تاريخ دمشق ج ٧ ص ٣٩٠ – وإن كان ذلك من الإسرائيليات التى زخرت بها الكتب الإسلامية إلا أنها تبين وجهة نظر اليهود .

أما العرب المتنصرة فقد شعرت بخطر الإسلام على كيانها فتجمعت جميعها بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام [١] وبلى [٢] بزعامة رجل من بلى هو مالك بن رافلة [٣] . وبالغ المؤرخون وأصحاب السير فى عددهم فذكروا أن هرقل كان فى مائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب المتنصرة [٤] وشجعها هرقل بالذات بقصد خبيث ليضرب العرب بعضها ببعض بينما يبقى بعيدا يتدبر أمره ويرى رأيه فى المناورة مع معرفته بأهمية الثأر الذى يلهب نفوس العرب ويثير بين أبنائها وقبائلها العداوة والبغضاء . ولذلك يغلب على ظنى عدم اشتراك الروم فى المعركة وإنما جموع العرب المتنصرة الكثيرة العدد هى التى قابلت جموع الإسلام فى صدامه الأول مع الروم .

اجتمع من المسلمين ثلاثة آلاف أميرهم زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر ابن أبى طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة وأخذ الرسول ﷺ يوصيهم بوصية دعيت وصية الأمراء نسج على منوالها الخلفاء فيما بعد . ومنها [٥] : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ....

وستجدون رجالا فى الصوامع منعزلين للناس فلا تتعرضوا لهم ، وستجدون آخرين فى رءوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيف . لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ولا كبيرا فانيا ولا تؤفنّ نخلا ولا تقلعن شجرا ولا تهدموا بيتا » .

سارت جموع المسلمين حتى نزلت معان من أرض الشام [٦] أو مشارف [٧] وهناك وصلتهم الأنباء بكثرة الروم والعرب المتنصرة فانحازوا جنوبا

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٩٣ .
(٢) عقد الجمان ج ٤ ق ١ ص ٦٠ – الطبرى ج ٣ ص ٣٧ .
(٣) عقد الجمان ج ٤ ق ١ ص ٦٠ – السيرة ج ٣ ص ٣٢٤ .
(٤) الكامل ج ٢ ص ١٥٩ – السيرة ج ٣ ص ٣٢٤ ، الطبرى ج ٣ ص ٣٧ .
(٥) الواقدى – المغازى ج ٢ ص ٧٥٧ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .
(٦) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٩٣ .
(٧) السيرة ج ٣ ص ٣٢٦ – الطبرى ج ٣ ص ٣٩ – الكامل ج ٢ ص ٢٣٥ .

إلى قرية مؤتة ودارت رحى معركة غير متكافئة أبدى فيها المسلمون من ضروب الشجاعة البالغة فقتل قطبة بن قتادة العذرى – وكان على ميمنة المسلمين – مالك بن رافلة زعيم العرب المتنصرة [١] كما استشهد فيها قادة المسلمين الثلاثة زيد ابن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة [٢] وتمكن خالد بن الوليد من تدبير خطة انسحاب محكمة نجا بها المسلمون من هزيمة ساحقة محققة . ولم يستشهد منهم أكثر من سبعة شهداء .

وبالرغم من فشل جيش المسلمين إلا أنه كان **لمؤتة نتائج** باهرة تمثلت فى إعجاب القبائل العربية بالإسلام والمسلمين فأسلم بعضهم وبعض زعمائهم كفروة ابن عمرو الجذامى ، وأدت إلى دخول ألوف من سليم فى الإسلام وعلى رأسهم العباس بن مرداس ، ومن أشجع وغطفان الذين كانوا حلفاء اليهود فازداد الإسلام عزة ورفعة وقوة .

وازداد من ناحية أخرى طمع بعض القبائل المتنصرة فى المسلمين فحاولت بلى وقضاعة التجمع للدنو من أطراف رسول الله ﷺ فوجه **غزوة ذات السلاسل** بقيادة عمرو بن العاص إلى أرض بلى وعذرة مستنفرا الناس إلى الشام . واختار عمروا لأن أم العاص بن وائل كانت من بلى فبعثه الرسول ﷺ إليهم ليستألفهم بذلك .

ولما وصل عمرو أرض جذام فى مكان يقال له السلاسل ، خاف عمرو من تجمع القبائل المتنصرة وأن يكون مصيره مصير مؤتة فبعث إلى الرسول ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين ومنهم أبو بكر وعمر وصلى بهم عمرو .

فوطىء عمرو طيىء وبلى ودوخها حتى انتهى إلى أقصى بلى وعذرة وبلقين [٣]

---

(١) السيرة ج ٣ ص ٣٢٩ – الطبرى ج ٣ ص ٤١ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٣٩ – ٤١ .
(٣) المغازى ج ٢ ص ٧٧١ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٥٣ .

فاستعاد هيبة المسلمين – وكانت هذه السرية أساس ذيوع اسم عمرو فيما بعد فى ربوع الشام .

واتسع نطاق العلاقة بين الدولة الإسلامية وأهل الكتاب من النصارى حتى وصل **البحرين** . فأرسل عليه الصلاة والسلام العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة مع الجارود (الذى كان نصرانيا فوفد ببنى عبد القيس إلى الرسول فأسلم ومن كان معه) [١] إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين فأسلم المنذر وأسلم معه سيبخت مرزبان هجر وجميع العرب هناك وبعض العجم . وأما المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء وكتب بينه وبينهم كتابا :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمى أهل البحرين صالحهم على أن يكفونا الفىء ويقاسموا التمر فمن لم يفى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) . وأخذ جزية الرءوس من كل حالم دينارا [٢] .

وتعلل سرعة استجابة البحرين وهجر للإسلام بسبب بعدها عن التأثيرات الرومانية المباشرة وظروف الدولة الفارسية الصعبة آنذاك . فقبلوا العلاء أميرا حتى زمن الردة [٣] .

وكان من **نتائج مؤتة** أن طمعت قريش فى المسلمين باعتبارهم إياها هزيمة للمسلمين ، فساعدت بكرا على خزاعة التى استنجدت برسول الله ﷺ . فأرسل عليه الصلاة والسلام بدوره إلى قريش يخيرهم بين ثلاث [٤] :

(أ) أن يدوا قتلى خزاعة .

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥٠٦ .

(٢) فتوح البلدان ص ٨٩ .

(٣) الإصابة ج ٥ ص ٤٠٦ – ٤٠٩ – الطبقات ج ٧ ق ١ ص ٦١ – السيرة ج ٤ ص ١٨٦ .

(٤) الواقدى – المغازى ج ٢ ص ٧٨٦ – والحديث عن ثقة كما يقول الواقدى وهو الأقرب إلى الصواب والذى يتمشى وروح الإسلام ، ووفاء الرسول ﷺ من مختلف الروايات الأخرى .

(ب) أن يبرأوا من حلف نفاثة .

(ج) أن ينبذوا إليهم على سواء .

وطمعا بالمسلمين واستهانة بأمرهم اختارت قريش أن ينبذوا إليهم على سواء ، ولكن عندما تواردت أنباء قوة المسلمين ووقعة ذات السلاسل ندموا فبعثوا أبا سفيان ليجدد العهد ولكنه فشل [١] فكان فتح مكة سنة ٨ هـ فزالت قريش ومعها معظم القبائل العربية من القوى المناهضة لدولة الإسلام . والتجأ كثير من المناهضين للدولة منهم إلى أهل الكتاب فى اليمن والشام . فهرب هبيرة بن أبى وهب زوج أم هانىء بنت أبى طالب ومعه عبد الله بن الزبعرى القرشى السهمى إلى نجران[٢] وقد عاد ابن الزبعرى وأسلم ولكن هبيرة مات هناك مشركا . كما فر عكرمة بن أبى جهل إلى اليمن وبقى إلى أن جاءته زوجه أم حكيم فأعلمته بعفو الرسول [٣] ﷺ ومن غير القرشيين فر عدى بن حاتم إلى الشام عندما حذره عين له بالمدينة من مسير على بن أبى طالب ليهدم الفلس صنم طيىء [٤] وكان نصرانيا شريفا فى قومه يسير بالمرباع [٥] وبقى فى الشام إلى أن قدمت إليه أخته سفانة بعد أن عفا عنها الرسول ﷺ . فوفد إلى النبى ﷺ وأسلم [٦] .

انهيار الأحـــلاف الوثنية :

حنين والطائف :

بعد فتح مكة أدركت هوازن عجزها عن مواجهة القوى الإسلامية وحدها

---

(١) المغازى ج ٢ ص ٧٨٦ - السيرة ج ٤ ص ١٠ - الكامل ج ٢ ص ٢٤١ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٩١ .

(٢) السيرة ج ٤ ص ٣٢ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) المغازى ج ٢ ص ٨٥١ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٣٩١ - السيرة ج ٤ ص ٣٢ - المعارف ص ٣٣٤ - أسد الغابة ج ٤ ص ٧٠ .

(٤) الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٦٠ .

(٥) السيرة ج ٤ ص ١٨٩ .

(٦) الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٦٠ الطبرى ج ٣ ص ١١٢ - ١١٥ .

فرأت أن تعقد حلفا يضم بعض القبائل الوثنية للوقوف فى وجه المسلمين ولم يكن أهل الكتاب بمعزل عن هذا الحلف بالرغم من عدم وضوح دورهم فيه ، فقد كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود قدموا من اليمن ويثرب [١] فأقاموا بها للتجارة ، وكان بها نفر من النصارى ، كما كانت على علاقة جيدة بأهل الكتاب خارج الجزيرة وخاصة بالحيرة . فكان منها الحرث بن كلدة الثقفى الذى سافر فى البلاد وتعلم الطب بناحية فارس وتمرن هناك وغنى بالعود [٢] ، وابنه النّضر بن الحرث بن كلدة الثقفى ابن خالة الرسول وكان قد سافر فى البلاد كأبيه وعاشر الأحبار والكهنة ، وكان يؤاتى أبا سفيان فى عداوة النبى ﷺ [٣] .

كما كان لهم علاقة بمصر وقصة المغيرة ووفوده مع وفد بنى مالك إلى المقوقس مشهورة [٤] . كما لجأ إليهم أبو عامر الراهب أثناء تجواله بين الشام والجزيرة للتأليب على حكومة الإسلام . فلم تكن الطائف بمعزل عن أهل الكتاب بل كانوا على صلة بهم ولجأ إليها الكثير منهم بعد السرايا والغزوات التى أنهت أمرهم بالحجاز كتجمعات ذات قوة . فلابد أنهم أسهموا فى تكوين الحلف الوثنى الذى ضم هوازن وثقيف ونصر وجشم بقيادة مالك بن عوف النصرى [٥] .

ولما سمع الرسول ﷺ بجمعهم خرج إليهم وبصحبته رجال من مكة لم يغادر منهم أحدا – على غير دين – ركبانا ومشاة ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم ولا يكرهون أن تكون الصدمة لمحمد وأصحابه . وقد زعم الواقدى وغيره

---

(١) فتوح البلدان ص ٦٨ .
(٢) ابن أبى أصيبعة – عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ١٦٧ – ابن العبرى ج ١ ص ٩٢ .
(٣) عيون الأنباء ص ١٦٧ .
(٤) وفد المغيرة بصحبة ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك – إلى المقوقس – فحيا المقوقس بنى مالك وجفاه . فغدر بهم المغيرة فى الطريق وقتلهم بعد أن أسكرهم وذهب إلى الرسول ﷺ مسلما . وعرض عليه الأموال فقال : لسنا نغدر ولا ينبغى لنا الغدر وأبى أن يخمس أموالهم – المغازى ج ٣ ص ٩٦٥ – الطبقات ج ٤ ص ٢٥ ق ٢ .
(٥) الطبرى ج ٢ ص ٧١ – الكامل ج ٢ ص ٢٦١ .

أن أبا سفيان بن حرب خرج فى أثر العسكر فكلما مر بترس ساقط أو رمح أو متاع للنبي ﷺ حمله ، والأزلام فى كنانته حتى أوقر حمله[١] .

وتميزت غزوة حنين بظهور أثر المنافقين بدون تنظيم جماعي أو اتصالات خارجية على ما يبدو ، إلا ما كان فى نفوسهم من بقايا ولاء لأهل الكتاب .

فأبو سفيان يقول : (لا تنتهى هزيمتهم دون البحر) [٢] .

وكلدة بن الحنبل يقول : (ألا بطل السحر اليوم) ولكن العصبية القبلية جعلت صفوان بن أمية يرد على ابن الحنبل بقوله : (إن ربا من قريش أحب إلىّ من رب من هوازن إن كنت مربوبا) [٣] وأما شيبة بن عثمان بن أبى طلحة فقد حاول قتل النبى فمنع منه [٤] .

وأما سليم فكانت فى مقدمة الرسول ﷺ وعليهم خالد بن الوليد فظهرت بمظهر يدل على تمسكها بعهودهم السابقة التى تذكرنا بها السيرة مع اليهود ، فقد تنادوا بينهم عندما اتبع المسلمون هوازن : ارفعوا عن بنى أمكم القتل فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم عليك ببنى بكمة . أما فى قومى فوضعوا السلاح وضعا ، وأما فى قومهم فرفعوا رفعا [٥] .

وفى حصار الطائف وعد رسول الله ﷺ من أسلم من الرقيق أن ترد إليه حريته فنزل إليه رقيق الطائف ومعظمهم نصارى منهم : أبو بكر مسروح واسمه نفيع مولى رسول الله ومنهم الأزرق الذى كان حدادا روميا سلمه الرسول بعد أن أعتقه لخالد بن سعيد بن العاص يمونه ويعلمه فصار حليفا فى بنى أمية فأنكحوه ونكحوا إليه [٦] ، وقد تزوج سمية والدة عمار ثم ادعى ولد عمر وعقبة وهم

---

(١) المغازى ج ٣ ص ٨٩٥ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٧٤ – الكامل ج ٢ ص ٢٦٣ . ابن هشام – السّيرَة ج ٣ ص ٤٤٣ .
(٣) المغازى ج ٣ ص ٨٩٥ – الطبرى بنفس المعنى ج ٣ ص ٧٤ ، السيرة ج ٣ ص ٤٤٤ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٧٥ ، ابن هشام – السيرة ج ٣ ص ٤٤٤ .
(٥) المغازى ج ٣ ص ٩١٣ .
(٦) الإصابة ج ١ ص ٢٧ وقيل : إنه كان أبو نافع بن الأزرق الخارجى وقيل بل غيره (فتوح البلدان) ص ٦٧ . الطبقات ج ٣ ص ٢١١ .

من غير سمية أنهم من ولد الحارث بن شمر الغسانى وشرفوا بمكة [١] .

كما تعاونت العصبية القبلية وحركة النفاق والوثنية ، فقد تحركت عصبية المغيرة لما سمع رجلا من مزينة يقول لصاحبه : (إن افتتحنا الطائف فعليك بنساء بنى قارب ...) فقال له المغيرة : ارم ذلك الرجل (يعنى أبا محجن) مع معرفته أن أبا محجن رجل رام لا يسقط له سهم . فرماه المزنى فلم يصنع سهمه شيئا . وفوّق له أبو محجن بمعبلته فوقعت فى نحره وقتلته . فقال المغيرة : منِى الرجال بنساء بنى قارب . فقال له عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى : قاتلك الله يا مغيرة . أنت والله عرضته لهذا وإن كان الله تبارك وتعالى قد ساق له الشهادة . أنت والله منافق والله لولا الإسلام ما تركتك حتى أغتالك . وجعل المزنى يقول : (إن معنا لداهية وما نشعر والله لا أكلمك أبدا) . ولما بلغت الأخبار عمر رضى الله عنه والمغيرة وال بالكوفة قال : (والله ما كان المغيرة بأهل أن يولى وهذا فعله) [٢] .

وأما عيينة بن حصن فقد استأذن الرسول ﷺ أن يأتى حصن الطائف ليكلمهم فأذن له . كما أذن له أبو محجن ودخل الحصن فقال :

فداءكم أبى وأمى والله لقد سرنى ما رأيت منكم والله لو أن فى العرب أحدا غيركم والله ما لاقى محمد مثلكم قط . ولقد حل المقام فاثبتوا فى حصنكم فإن حصنكم حصين وسلاحكم كثير وماءكم واتن لا تخافون قطعه) . ويبدو أنه كان على اتفاق مسبق بزعماء ثقيف ، فقد قالت ثقيف بعد خروجه لأبى محجن : فإنا كرهنا دخوله وخشينا أن يخبر محمدا بخلل أن رآه فينا أو فى حصننا . فقال أبو محجن أنا كنت أعرف له . ليس منا أحد أشد على محمد منه وإن كان معه .

ولما جاء الرسول ﷺ قال له : (قلت ادخلوا فى الإسلام ... وخذلتهم ما استطعت .. فواجهه الرسول بالذى قاله لثقيف فأسقط فى يده فقال :

---

(١) الواقدى – المغازى ج ٣ ص ٩٣٠ .
(٢) نفسه .

أستغفر الله . ولما طلب عمر أن يضرب عنقه قال عليه الصلاة والسلام : « لا يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » . وأغلظ له أبو بكر وقال :

ويحك يا عيينة إنما أنت أبدا توضع فى الباطل كم لنا منك من يوم بنى النضير وقريظة وخيبر تجلب علينا وتقاتلنا بسيفك ثم أسلمت كما زعمت فتحرض علينا عدونا ؟ [(١)] ولم يتخلّ عيينة عن مواقفه المشبوهة – فلما رفع الحصار عن الطائف ونادى سعد بن عبيد الثقفى فقال : ألا إن الحى مقيم ، قال عيينة : أجل والله مجدة كرام . فقال عمرو بن العاص : قاتلك الله تمدح قوما مشركين بالامتناع عن رسول الله وقد جئت تنصره ؟ فقال :

إنى والله ما جئت معكم لأقاتل ثقيفاً ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب جارية من ثقيف فأطأها لعلها تلد لى رجلا فإن ثقيفا قوم مباركون . ولما أخبر الرسول ﷺ بمقالته تبسم وهو يقول : « هذا الحمق المطاع » [(٢)] .

وحاول المنافقون إثارة الشقاق بين صفوف المسلمين وإثارة الفتنة فى حادث توزيع الغنائم فى **الجعرانة** بعد حصار الطائف . فقد أتت وفود هوازن الرسول ﷺ بالجعرانة وناشدوه الرحم فقال له رجل من بنى سعد بن بكر ممن أرضعوا رسول الله ﷺ يقال له زهير بن صرد : يارسول الله إنما فى الحظائر عماتك ، وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك وقال [(٣)] :

امنن علينا رسول الله فى كرم   فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر   فمزق شملها فى دهرها غير

فخيرهم الرسول ﷺ بين الأموال أو الأبناء والنساء فاختاروا أبناءهم ونساءهم .

---

(١) المغازى ج ٣ ص ٩٣٢ – ٩٣٣ .
(٢) المغازى ج ٣ ص ٩٣٧ – الكامل ج ٢ ص ٢٦٧ – (فإن ثقيفا قوم مناكير) ، ابن هشام – السيرة – مجلد ٢ ص ٤٨٥ ومناكير (أي ذوي دهاء وفطنة) .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٨٦ – الكامل ج ٣ ص ٢٦٨ .

فقال عليه الصلاة والسلام : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون . فما كان لنا فهو لرسول الله .

وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله – وأما تميم التى كان لا يزال بينها من كان على يهوديته أو يبطن يهوديته أو نصرانيته فقال زعيمها الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وعيينة الذى أصبح مكشوفا لقومه بعد مواقفه المشبوهة فقال : أما أنا وفزارة فلا ، وعباس بن مرداس الذى لم يكن قد تخلص بعد من أثر اليهود قال : أما أنا وبنو سليم فلا . ولكن سليما كانت قد تأثرت بقيادة خالد بن الوليد لها فى فتح مكة وحصار الطائف فخذلوا ابن مرداس وقالوا : ما كان لنا فهو لرسول الله (١) .

ولما أصرت تميم مع الأقرع جعل الرسول ﷺ الفداء ست حقائق وثلاث جذاع فكان معاذ بن جبل يقول :

قال رسول الله ﷺ يومئذ : « لو كان ثابتا على أحد من العرب ولاء أو رق لثبت اليوم ولكن إنما هو إسار وفدية » (٢) .

ولما فرغ الرسول ﷺ من رد سبايا هوازن إلى أهلها ركب واتبعه دعاة الفتنة يقولون : يارسول الله ، أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم حتى ألجأوه إلى شجرة فاختطفت الشجرة عنه رداءه .

فقال : ردوا علىّ ردائى أيها الناس فوالله لو كان لى عدد شجر تهامة نعما لقسمتها عليكم ثم مالقيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا (٣) .

وهنا يبرز دور الرسول القائد فيجذب النفوس ويستثير الطاقات الكامنة

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٨٧ – الواقدى ج ٣ ص ٩٥١ ، ٩٥٢ – الكامل ج ٢ ص ٢٦٩ . ابن هشام – السيرة مجلد ٢ ص ٤٨٨ – ٤٩٠ .

(٢) المغازى ج ٣ ص ٩٥٤ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٨٩ .

ثم ينظمها ويوجهها فيتغلب على دعاة الفتنة . فأعطى أشراف الناس يتألف به قلوبهم [١] لحاجة الإسلام إليهم فى تلك الفترة لامتصاص ما سرى فى دمائهم من بغض للإسلام والمسلمين وما تشربت به دماؤهم بتأثير أهل الكتاب .

الحبشة النصرانية وحكومة الرسول ﷺ :

كانت الصلات بين عرب الحجاز واليمن وبين الحبشة قديمة وثيقة نتيجة التبادل التجارى ، ولما غزت الحبشة اليمن بتحريض من الروم حاولت غزو مكة فى حادثة الفيل التى خلفت فلولا هاربة مما لحق بجيش أبرهة ، لم تر بدًّا من الحياة فى مكة يعتملون ويرعون . وقد أسرع بعضهم لاعتناق الإسلام من أول ظهوره بمكة فجر عليهم اضطهاد أوليائهم وقبائلهم فكان منهم : أبو رافع وبلال وعامر بن فهيرة ووحشى قاتل حمزة يوم أحد وصؤاب حامل لواء قريش فى ذلك اليوم .

وقد ذكرنا كيف اختار المسلمون الحبشة لتكون متجه هجرتهم الأولى . فتميزت العلاقة بين المسلمين والحبشة بالتصافي طوال حياة النجاشى أصحمة الذى استجاب للإسلام واعتنقه وقام بحماية المسلمين فى أرضه . ولكن المسيحية واليهودية كانت قوية فى الحبشة وجذورها متينة فما أن توفى أصحمة حتى أظهرت الحبشة عداءها للإسلام ولحكومة الرسول ﷺ متأثرة بالحرب التى قامت بين المسلمين ونصارى الشام فتحركت لمناوشة المسلمين . ولعل هذا تفسير ما قام به جماعة من الحبشة من محاولة الإغارة بسفنهم على جدة . يذكر الواقدى أنه : فى ربيع الآخر سنة ٩ هـ بلغ الرسول ﷺ أن ناسا من الحبشة تراياهم أهل الشعيبية – ساحل بناحية مكة – فى مراكب . فبعث علقمة بن مجزز المدلجى فى ثلاثمائة رجل حتى انتهى إلى جزيرة فى البحر فخاض إليهم فهربوا منه ثم انصرف [٢] .

والمؤكد أن غزوة الأحباش هذه كانت بعد التاريخ الذى ذكره الواقدى

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٩٠ – الكامل ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) المغازى ج ٣ ص ٩٨٣ .

لأن الطبرى يذكر : أن رسول الله ﷺ نعى للمسلمين النجاشى المسلم فى رجب سنة تسع [١] ومن المستبعد جدا أن يكون هذا الغزو حدث فى عهد أصحمة بل حدث بعد موته أى بعد رجب سنة ٩ هـ .

تبــوك :

ناور هرقل امبراطور بيزنطة الإسلام ليكسب الوقت فلما كتب الرسول ﷺ سنة ٦ هـ إلى الحرث بن أبى شمر ملك غسان بالبلقاء من أرض الشام وعامل قيصر على العرب يدعوه إلى الإسلام ، استأذن الحرث هرقل لحرب الرسول فنهاه هرقل [٢] . كما أرسل رجلا من غسان ينظر إلى الرسول ﷺ ويستطلع أمره ليتأكد من موقفه ومقدار مركزه بين قومه وقوته لا كما توهمه المؤرخون المسلمون أنه كان ينوى الإسلام ويخاف قومه .

وكانت الساقطة [٣] أو الضافطة [٤] وهم الأنباط يقدمون المدينة بالدرمك والزيت فى الجاهلية وبعد أن دخل الإسلام ، فكانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم ، وليس بالمستبعد أن يكون للرسول ﷺ بينهم عيون يصلونه بأخبار الروم أولا بأول ولعل الروم سللوا إليهم خبرا مفاده أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن هرقل رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وغسان وعاملة [٥] وإن هذه الجموع زحفت وقدمت مقدماتها إلى البلقاء وعسكروا بها وتخلف هرقل بحمص ، وقد اعتقد المؤرخون المسلمون أن ذلك لم يكن إنما كان شيئا قيل لهم فقالوه [٦] .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٢٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ٤٦٢ .

(٣) الواقدى ج ٣ ص ٩٩٠ .

(٤) ابن عساكر ج ٢ ص ٤١٣ .

(٥) فتوح البلدان ص ٧١ – الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١١٩ – الكامل ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٦) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦ – المغازى ج ٣ ص ١٠١٨ .

والأرجح أن الخبر كان صحيحا ، وأن الروم سلّلوه ليبلغ المسلمين إرجافا لهم وتهيئة الفرصة للمنافقين ولبقايا أهل الكتاب فى الحجاز ليقوموا بعمليات تخريبية داخل الحكومة الإسلامية تمهيدا لغزوة يقوم بها الروم والعرب المتنصرة بصحبة أبى عامر الراهب .

وكان بقايا اليهود يخذلون مسيرة الرسول ﷺ إلى حرب الروم كما حبذوا من قبل غزوة مؤتة فى الوقت الذى كانوا يثبطون فيه المسلمين عن المسير (١) .

وجدّ الرسول ﷺ فى مواجهة ذلك ولم يحتمل صبرا ولم يطق انتظارا فأمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طابت الثمار وأحبت الظلال ، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذى هم عليه . وكان عليه الصلاة والسلام قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وأخبر أنه يريد غير الذى يصمد له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له (٢) فتجهز الناس على ما فى أنفسهم من استثقال ذلك إذ لم يكن عدو أخوف عند المسلمين من الروم لما عاينوا منهم من العدد والعدة والكراع (٣) .

وتحرك المنافقون يثبطون الهمم فبلغ الرسول ﷺ أنهم يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى ويثبطون عن رسول الله فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة وأفلت الضحاك بن خليفة وانكسرت رجله فقال فى ذلك شعرا (٤) .

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله فى التخلف من غير علة فأذن لهم (٥) والجد بن قيس مثال من التخاذل والتخذيل فقد جاء إلى الرسول قائلا :

---

(١) ابن عساكر – تاريخ دمشق – ج ١ ص ١٦٧ – ١٦٨ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٠١ – الكامل ج ٢ ص ٢٧٧ – يصمد : يتوجه .
(٣) المغازى ج ٣ ص ٩٩٠ – ابن خلدون ج ٢ ص ٨١٩ .
(٤) السيرة ج ٤ ص ١٣٠ .
(٥) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١١٩ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٩ .

(ائذن لى ولا تفتنى فوالله لقد عرف قومى ما أحد أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى لأخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر لا أصبر عنهن) [(١)] بينما قال لعبد الله بن الجد وهو أخو معاذ لأمه عندما لامه لعدم خروجه : (يا بنى مالى وللخروج فى الريح والحر والعسرة إلى بنى الأصفر ؟ والله ما آمن خوفا من بنى الأصفر وإنى فى منزلى بخربى فاذهب إليهم فاغزوهم وإنى والله يابنى عالم بالدوائر . فأغلظ له ابنه فقال : لا والله ولكنه النفاق) .

وذهب إلى قومه يثبطهم قائلا : لا تنفروا فى الحر ، زهادة فى الجهاد وشطا فى الحق وإرجافا برسول الله ﷺ [(٢)] .

وتخلف عبد الله بن أبى فيمن تبعه من اليهود والمنافقين وقد علل تخلفه بقوله :

يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد المال والحر والبلد البعيد إلى ما لا قبل له به ، أفحسب محمد أن قتال بنى الأصفر اللعب ؟ وقال لأصحابه من المنافقين :

والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدا مقرّنين فى الحبال .

ووجد المنافقون فرصة فى تخلف على بأمر رسول الله فى أهله فقالوا : ما منعه أن يخرج إلا أنه كره صحبته . فبلغ عليا ذلك فلحق بالنبى وذكره له فقال عليه الصلاة والسلام :

« أيا ابن أبى طالب : أما ترضى أن تنزل منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبى بعدى » [(٣)] .

---

(١) السيرة ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) المغازى ج ٣ ص ٩٩٣ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٨ .

(٣) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ١٥ - السيرة ج ٤ ص ١٣٢ - ١٣٣ - الكامل ج ٢ ص ٢٧٨ - الطبرى ج ٣ ص ٨٠٤ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٤٥ (فى أن يخلفه فى أهله) .

كما أنهم بنوا مسجد الضرار أملا بوصول أبى عامر الراهب وكان عند هرقل قد لحق به وأرجفوا بكل خبر سوء فى المدينة فلم يبق أحد من المنافقين أعرابى ولا غيره إلا استخفى بعمل خبيث ومنزلة خبيثة واستعلن ولم يبق ذو علة إلا وهو ينتظر الفرج فيما ينزل الله فى كتابه (١) .

فعادت القوى المضادة فى تبوك لتظهر مجتمعة متواطئة مع الروم ، ولم يتخلف جميع المنافقين فقد سار مع الجيش رهط يثبطون عزائم الجيش ويثيرون الشغب . يقولون لبعضهم : يحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم . وقال وديعة بن ثابت يعرض بالصحابة : مالى أرى قرّاءنا هؤلاء أوعبنا بطونا وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء (٢) .

وبرغم الصعاب انطلق جيش الإسلام بقيادة الرسول ﷺ قاصدا تبوك ، فبلغ الروم أمر هذا الجيش وكثرته وقوته فآثروا الانسحاب إلى داخل بلاد الشام ولم ير الرسول محلا لتتبعهم قبل أن يؤمن مشارف الشام فصالح أهل تبوك على الجزية (٣) .

وأقام الرسول بتبوك بضع عشرة ليلة (٤) .

واستمر هرقل فى مناوراته ولعله هو الذى سمح لأسقف غزة الذى جاء للرسول ﷺ بتبوك وسلمه أموال هاشم وعبد شمس (٥) .

وأعجب عدد كبير من نصارى الشام بدعوة الإسلام فتقربوا إليها وآمن بعضهم ومن هؤلاء مالك بن أحمر – من نصارى الشام – وفد على الرسول ﷺ بتبوك فأسلم وسأله أن يكتب له كتابا يدعوه إلى الإسلام فكتب له فى رقعة (٦) .

---

(١) ابن عساكر ج ٧ ص ٤٠٩ .
(٢) المغازى ج ٣ ص ١٠٠٣ – الطبرى ج ٣ ص ١٠٨ – إمتاع الأسماع ج ٣ ص ٤٥٣ .
(٣) فتوح البلدان ص ٧١ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ .
(٥) الطبقات ج ٤ ق ١ ص ١٢ .
(٦) الإصابة ج ٦ ص ٢٠ .

وعامل ﷺ النصارى معاملة طيبة وخير ما يوضح هذه المعاملة عهده لأمير أيلة النصرانى ، يوحنة بن رؤبة الذى أتاه وهو بتبوك فصالحه على الجزية وكتب لهم كتابا بأن يحفظوا ويمنعوا [١] ذكر ابن إسحق نصه [٢] :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنة ابن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر) .

وكان رؤبة عند مقدمه لرسول الله عليه صليب من ذهب وقد عقد ناصيته [٣] .

وكانت رسالته عليه الصلاة والسلام إلى رهبان دير سانت كاترين فى جبل سيناء دليلا قاطعا على تسامح الحكومة الإسلامية الوليدة فى معاملة رعاياها من غير المسلمين مهما كان دينهم . وقد حرص الرسول ﷺ على أن يملى رسالته على سمع من صحابته ليتعلم الجميع ما يحض عليه الإسلام من تسامح [٤] فأقدمت بقايا التجمعات اليهودية على حدود الشام على مصالحة الرسول ﷺ وهم أهل أذرح وجربا ومقنا على غرار صلح أهل أيلة [٥] وذكر البلاذرى أن بعض أهل مصر أخبره أنه رأى كتابهم بعينه فى جلد أحمر دارس الخط وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى بنى حبيبة وأهل مقنا سلم أنتم ، فإذا جاءكم كتابى هذا فإنكم آمنون ولكم ذمة الله ورسوله . وإنه لا ظلم ولا عدوان . وإن رسول الله يجيركم مما يجير منه نفسه ... فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن

---

(١) فتوح البلدان ص ٧١ – الكامل ج ٢ ص ٢٨٠ .
(٢) السيرة ج ٤ ص ١٣٨ – ابن عساكر ج ٧ ص ٤٢١ .
(٣) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٦٧ .
(٤) الخربوطلى – أهل الذمة ص ٣٨ .
(٥) فتوح البلدان ص ٧١ – الكامل ج ٢ ص ٢٩١ .

يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ومن ائتمر فى بنى حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له . ومن أطلعهم فهو شر له وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله . وكتب على بن أبو طالب فى سنة تسع [١] .

ورأى البعض أن الكتاب من افتعال اليهود واستندوا فى تبرير ذلك إلى :

(١) الخطأ اللغوى الذى ورد فيه / (وكتب على بن أبو طالب) .

(٢) أن عليا لم يكن مع الرسول ﷺ فى غزوة تبوك بل خلفه فى أهله فى المدينة فكيف ينسب الكتاب إليه .

ولكنى أرجح صحة الكتاب ولكنه أضيف الله من قبل اليهود : وكتب على ابن أبى طالب فى سنة تسع ، والإضافة كانت بعد زمن عمر بن الخطاب لأن التاريخ بالهجرة لم يكن إلا فى زمنه . وقد درج اليهود على أن يظهروا كتبا منسوبة إلى خط على فأضافوا لهذا الكتاب ما يجعله منه .

ومن القوى النصرانية التى أتم الرسول ﷺ إخضاعها أثناء غزوة تبوك دومة الجندل ، فقد أرسل إليها خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارسا فى رجب سنة ٩ هـ . وكان ملكها آنذاك أكيدر بن عبد الملك النصرانى من كندة ويقال إنه من ذرية الملوك الذين ولاهم التبابعة فى اليمن على كلب [٢] .

وتمكن خالد من أسره وقتل أخاه حسان . وقدم به على النبى ﷺ فصالحه على الجزية وخلى سبيله وسبيل من معه وكتب لهم أماناً [٣] .

يقول صاحب الإصابة : [٤] فالذى يظهر أن أكيدر صالح على الجزية

---

(١) البلاذرى - فتوح البلدان ص ٧٢ .

(٢) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١٢٠ - التنبيه والإشراف ص ٢٣٦ ، المغازى ج ٣ ص ١٠٢٥ إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٦٣ - السيرة ج ٤ ص ١٣٩ .

(٣) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١٢٠ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٦٦ - الكامل ج ٢ ص ٢٨١ - الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ - فتوح البلدان ص ٧٣ .

(٤) الإصابة ج ١ ص ١٢٩ و ص ١٣١ .

كما قال ابن إسحق ويحتمل أن يكون أسلم بعد ذلك كما قال الواقدى ثم ارتد بعد النبى ﷺ مع من ارتد كما قال البلاذرى ومات على ذلك والله أعلم اهـ .

فتم للدعوة الإسلامية الإحاطة بجميع جزيرة العرب ، فكان ذلك تمهيدا للخطوات التاريخية الخالدة التى خطاها خلفاء النبى ﷺ وتم فيها ماتم من فتح باهر وسلطان عزيز فى ربوع الأرض المختلفة ، وفى الوقت الذى بدأ فيه الإصطدام بالنصارى من أهل الكتاب خارج الجزيرة بدأت بذور حركة الردة بتأثير عناصر يهودية أسلمت نفاقا فهذا زيد بن اللصيت [١] القينقاعى يقول عندما فقد الرسول ﷺ ناقته فى غزوة تبوك : أليس يزعم محمد أنه نبى يخبركم من خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ [٢] وقد قال فيه الواقدى : إن فيه خبث اليهود وغشهم وكان مظاهرا لأهل النفاق [٣] .

وعندما شكا المسلمون العطش فى الحجر دعا رسول الله ﷺ فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء فقال أبو سعيد الخدرى لأوس بن قيظى وهو من المنافقين : ويحك أبعد هذا شيء ؟ فقال أوس : سحابة مارة [٤] . وكأن هذا بداية للجدل العقلى والفكرى بين الإسلام وبين القوى المناهضة له .

ومن الخطط الخبيثة التى دبرها المنافقون محاولة اغتياله عليه الصلاة والسلام أثناء رجوعه من تبوك ، ولما أحس الرسول بذلك أمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها وأمر حذيفة بن اليمان يسوق خلفه ، ولما سمع حسّ القوم أمر حذيفة أن يردهم فرجع إليهم فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن فى يده فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس وأتى حذيفة فساق به فسأله

---

(١) فى الطبري : زيد بن لصيب ج ٣ ص ١٠٦ .
(٢) السيرة ج ٤ ص ١٣٦ .
(٣) المغازى ج ٣ ص ١٠١٠ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٥٦ .
(٤) المغازى ج ٣ ص ١٠٠٩ - السيرة ج ٤ ص ١٣٥ - إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٥٦ .

الرسول ﷺ : هل عرفت أحدا من الركب (الذين رددتهم ؟) قال : يارسول الله . ما عرفت إلا راحلة فلان وفلان وكان القوم متلثمين فلم أعرفهم من أجل ظلمة الليل [١] .

وأخذ النصارى من أهل الكتاب يبذلون جهودهم للحيلولة دون اشتداد ساعد الدولة الإسلامية فأصبحوا يكيدونها من الداخل فحاولوا الإيقاع بين الرسول ﷺ وصحبه المخلصين كما يظهر فى قصة كعب بن مالك أحد أصحاب النبى ﷺ الذين تخلّفوا عن تبوك . فقد أرسل إليه بأمر من الروم الحارث ابن أبى شمر [٢] أو جبلة ابن الأيهم [٣] بكتاب يقول فيه :

(فقد بلغنى أن صاحبك جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك) .

ولكن كعبا حين قرأ الكتاب قال : وهذا من البلاء أيضا قد بلغ منى ما وقعت فيه أن طمع فىّ رجال من أهل الشرك ، فذهبت إلى تنور فسجرته بها .

وقد كان كعب من قوة الإيمان بحيث تمكن أن يصد الإغراء ولكن النصارى وجدوا غيره من ضعاف النفوس ومن الطامعين ممن استجاب لهم وسار ضمن خططهم الرامية إلى القضاء على الإسلام وقصة مسجد الضرار دليل على ذلك ، حيث كان أبو عامر على اتصال مستمر بهم وتفتق ذهنهم عن استغلال المسجد الذى كان المنتدى السياسى ، ولما طلبوا منه أن يمر عليهم بمسجد بنى عمرو بن عوف قال :

إنما أصحاب محمد يلحظوننا بأبصارهم [٤] فبنوا له مسجدا فى بنى غنم ابن عوف [٥] وقد عدد ابن هشام أسماء اثنى عشر رجلا ممّن بنوا مسجد

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٧٨ – المغازى ج ٣ ص ١٠٤٣ .
(٢) السيرة ج ٤ ص ١٤٧ .
(٣) المغازى ج ٣ ص ١٠٥١ .
(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٨١ .
(٥) الأنساب ج ١ ص ٤٣٥ .

الضرار (١) واحتجوا على ذلك بأن قالوا عن مسجد عمرو بن عوف : أفنحن نسجد فى موضع كان يربط فيه حمار لبة ؟ لا ولكننا نتخذ مسجدا نصلى فيه حتى يجيئنا أبو عامر فيصلى لنا فيه (٢) .

وأدرك عليه الصلاة والسلام أثر هذا المسجد فى تجمع أعداء الإسلام للكيد للمسلمين . ونزل عليه قوله تعالى :

﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ (٣) فأرسل إليه مالك بن الدخشم من بنى سليم ومعن بن عدى من بنى العجلان فأحرقاه وهدماه قبل وصوله إلى المدينة . وبلغ نشاط المنافقين فى هذه الآونة حدا جعل أسيد بن حضير رضى الله عنه يشير على الرسول ﷺ بقتل المنافقين فقال له عليه الصلاة والسلام وكان يدرك أن هذا النشاط هو صحوة الموت :

« يا أسيد إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده فى قتل أصحابه » .

فقال أسيد : يا رسول الله : هؤلاء ليسوا بأصحاب .

قال : أو ليس يظهرون شهادة ألا إله إلا الله . قال : بلى ولا شهادة لهم . قال : أو ليس يظهرون أننى رسول الله . قال : بلى ولا شهادة لهم . قال : فقد نهيت عن قتل أولئك (٤) .

وهذه حنكة من رسول الله وقد أدرك خطر المنافقين وخاصة إن أمكنتهم الفرصة أن يقفزوا إلى مركز السلطة يوما لكثرتهم ومقدرتهم على الاستعانة بأعداء الأمة ، فكان نهيه عن قتلهم وقاية للمسلمين من خطرهم فيما إذا استطاعوا القفز

---

(١) السيرة ج ٤ ص ١٤٣ .
(٢) الأنساب ج ١ ص ٤٣٦ .
(٣) التوبة الآية ١٠٧ .
(٤) المغازى ج ٣ ص ١٠٤٤ – إمتاع الأسماع ج ٣ ص ٤٧٥ .

إلى مركز المسئولية يوما ما فيضعون سيفهم فى رقاب المسلمين باسم النفاق ، كما تقرب إليهم ليخفف أثرهم وليكشفهم لأصحابه ويظهرهم لعامة المسلمين . فكان بعضهم يرتكب بعض ما يدل على نفاق فينكره بعض أصحاب النبى ﷺ ويهم بقتله فينهاه الرسول ﷺ ويقول له : فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ مع معرفته بنفاقه ولكنه لا يرضى بقتله ما دام ينكر هذا النفاق ولا يصل به الأمر إلى قتال المسلمين (١) .

وقد ظهرت حكمة الرسول ﷺ هذه فى محاولته القضاء على كل أثر سياسى للمنافقين فى حادثة مرض عبد الله بن أبى ووفاته ، فقد مرض واستمر مرضه عشرين يوما كان الرسول يعوده فيها (٢) وطلب عبد الله بن أبى فى مرضه ذاك قميص الرسول ﷺ ليكفن فأعطاه إياه (٣) وكان المنافقون – لا يفارقونه فى مرضه فلما رأوه يطلب القميص أسلم خلق كثير منهم ولم يبق على النفاق إلا عدد ممن تشرب قلبه بنصرانية أو يهودية فلم يظهر له أثر بيّن بين المسلمين ولم يعدله ذكر فى السياسة الإسلامية – وكان المنافقون يمرّضونه ومنهم سعد بن حنيف وزيد بن اللصيت وسلامة بن الحمام ونعمان بن أوفى بن عمرو ورافع بن حشيلة ومالك بن أبى نوفل وداهش (اليهودى) وسويد (اليهودى) وهؤلاء أخابث المنافقين وكان يقول : لا يلينى غيرهم . ويقول لهم : أنتم والله أحب إلىّ من الماء على الظمأ . ويقولون : ليتنا نفديك بالأنفس والأموال والأولاد . وهم الذين تولوا دفنه .

ولم تتخلف امرأة من الأوس والخزرج حتى أتت ابنته جميلة وهى تقول : واجبلاه – واركناه – وأبتاه وما ينهاها أحد ولا يعيب عليها (٤) .

---

(١) الصعيدى – السياسة الإسلامية فى عهد النبوة ص ٢٠٤ .
(٢) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٩٦ .
(٣) المغازى ج ٣ ص ١٠٥٧ .
(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٩٨ – الواقدى – المغازى ج ٣ ص ١٠٥٩ .

وبمؤتة وتبوك توطد نفوذ الإسلام فى شمال الحجاز فى المناطق التى سكنتها أغلبية نصرانية فأسلم بعضهم وصدق إسلامه كما امتد الإسلام إلى داخل بلاد الشام فوفد تميم الدارى وأخوه نعيم إلى الرسول ﷺ وغزا معه وكان راهب أهل زمانه وعابد أهل فلسطين[١] .

وأعجب فروة بن عمرو الجذامى أحد زعماء العرب المتنصرة بشجاعة المسلمين فكتب إلى الرسول ﷺ بإسلامه وأهداه فقبل الرسول هديته[٢] ولما بلغ قيصر إسلامه اتّهمه بالخيانة فسجنه ثم قتل أو صلب[٣] .

وامتد أثر مؤتة وتبوك إلى أهل الكتاب فى نجران واليمن أى جنوب الجزيرة الذى كان مقسما آنذاك بين الشرك والنصرانية واليهودية فى حمير خاصة ، فقدمت كتب ملوك حمير إلى الرسول ﷺ بعد مقدمه من تبوك مقرين بالإسلام فكتب إليهم محمد ﷺ كتابا بين فيه شرائع الإسلام وموقفه من أهل الكتاب ومنه :

« من أسلم من يهودى أو نصرانى فإن له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها وعليه الجزية ... »[٤] .

وتتابعت الوفود معلنة الإسلام فى السنة العاشرة للهجرة وتداعت أحلام أهل الكتاب فى القضاء على دولة الإسلام ، فعادوا إلى أسلوب الدس والوقيعة بعد أن انهارت الأحلاف فجاءت سورة التوبة بالقرار الحاسم :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[٥] .

---

(١) الإصابة ج ١ ص ١٩١ .

(٢) الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ١٤٨ – الكامل ج ٢ ص ٢٠٣ – إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥٠٦ .

(٣) الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ١٤٨ – الكامل ج ٢ ص ٢٠٣ – السيرة ج ٤ ص ٢٠١ – ابن خلدون ج ٢ ص ٥٣٥ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٢١ – فتوح البلدان ص ٨٢ – الكامل ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٥) التوبة الآية ٢٩ .

وأرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام وإن أبوا قاتلهم . ولما دعاهم أسلموا فى ربيع الأول سنة ١٠ هـ . وخرج إليهم عمرو بن حزم يعلمهم شرائع الإسلام حتى وفاة الرسول ﷺ [١] وفى كتاب الرسول لابن حزم : « وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين ، وله مثل ما لهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها » [٢] .

وحاول خالد أن يمد نفوذ الإسلام إلى ما بعد نجران فى اليمن فلم يستطع فأرسل ﷺ عليا فأسلمت قبائل كثيرة ، فقد أسلمت همدان كلها فى يوم واحد [٣] وأرسلت وفودها إلى المدينة وكتب لهم الرسول ﷺ كتابا [٤] .

واستقدم خالدا إلى المدينة فجاء بوفد من بنى الحارث فيهم :

قيس بن الحصين ويزيد بن عبد المدان فى آخرين [٥] .

ووجه ﷺ رسله وعماله إلى مخاليف اليمن التى تتابعت على الإسلام فأرسل المهاجر بن أمية بن المغيرة إلى صنعاء وزياد بن لبيد البياضى الأنصارى إلى حضرموت [٦] . فكانوا يعرفون بشرائع الإسلام ويقبضون الصدقات ويجزون رؤوس من أقام على النصرانية واليهودية والمجوسية منهم [٧] .

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥٠١ ، السيرة ج ٤ ص ٢٠٢ - ٢٠٥ - الكامل ج ٢ ص ٢٩٣ - الطبرى ج ٣ ص ١٢٦ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٢٩ - السيرة ج ٤ ص ٢٠٦ - اليعقوبى ج ٢ ص ٨٠ - ٨٣ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٣٢ ، الكامل ج ٢ ص ٣٠٠ .
(٤) السيرة ج ٣ ص ١٣٢ .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ١٣٢ .
(٦) السيرة ج ٤ ص ٢١٠ .
(٧) فتوح البلدان ص ٨٠ - (بمعنى يأخذون منهم الجزية) .

وكان وهب بن منبه ممن أسلم من أهل الكتاب سنة ١٠ هـ [١] ، وأصبح له أثر كبير فى الأخبار التى دخلت التاريخ الإسلامى والتفاسير من الإسرائيليات . كما أسلم معه فيروز وباذان من مجوس اليمن .

وكانت النخع آخر من انضوى تحت لواء الإسلام من اليمن وقدم وفدهم إلى رسول الله سنة ١١ هـ وفيهم زرارة بن عمرو بن الحارث بن عداء وكان نصرانيا [٢] بعد أن بايعوا معاذ بن جبل [٣] .

هذا وقد ضعف تأثير أهل الكتاب فى الحجاز من الناحية السياسية فى أواخر حياة الرسول ﷺ ، نتيجة للضربات التى وجهها إليهم ثم لوفاة أبى عامر الراهب الذى برع فى أعمال الدس والمكائد للدولة الإسلامية بالاشتراك مع الروم ، وكان معه جماعة لم يكونوا بحنكته منهم كنانة بن عبد ياليل الثقفى وعلقمة ابن علاثة ، وكان كنانة ممن حسد رسول الله فشخص إلى الشام كأبى عامر . أما علقمة فقد أتى الرسول ﷺ وبايعه بعد أن اختلف مع كنانة فى ميراث أبى عامر فحكم صاحب الروم بدمشق لكنانة لأنه من أهل المدن وحرمه علقمة لأنه بدوى [٤] .

ولما تهاوت الأحلاف فى داخل الجزيرة بزوال الزعماء انتشر الإسلام بسرعة . وقد وفد عامر بن الطفيل وأخوه أربد إلى رسول الله ﷺ ينويان به الغدر ليقتلاه مع وفد من بنى عامر فحال الله بينهما وبينه [٥] . وأخذ الإسلام يعم بنى عامر حلفاء اليهود فى السابق .

---

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥٣٥ .
(٢) نفسه ج ١ ص ٥٣٥ .
(٣) الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٧٧ .
(٤) الأنساب ج ١ ص ٤٣٣ (وقد وردت : لأنه بدرى) .
(٥) السيرة ج ٤ ص ١٧٩ ، الطبرى ج ٣ ص ١٤٤ ، إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥٨ – الأنساب ج ١ ص ٤٣٤ ، ويعتبر ذلك فى سنة ٥ هـ وهذا بعيد – فالحادث كان فى سنة ١٠ هـ .

بعث أسامة :

كان الرسول ﷺ إلى آخر مرحلة من حياته يذكر شهداء مؤتة زيد وجعفر وعبد الله وأصحابهم [١] فلما كان يوم الاثنين لأربع ليال من صفر سنة ١١ هـ أمر الرسول الناس بالتهيؤ لغزو الروم وأمرهم بالانكماش [٢] فى غزوهم بقيادة أسامة وقال له : « يا أسامة سر على اسم الله وبركته حتى تنتهى إلى مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك على هذا الجيش فاغز صباحا على أهل ابنى وحرق عليهم وأسرع السير تسبق الخير فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم البعوث أمامك والطلائع » [٣] .

وواضح من الوصية أن غاية بعث أسامة كان شن الغارة ، والغارة طليعة لفتح الشام لأنه أمره أن يقلل اللبث فيهم وودعه ﷺ بما يشبه وصية الأمراء (فى مؤتة) وكان فى جيشه جلة المهاجرين الأولين ، ولما تقول المنافقون رغم قلتهم على حداثة سن أسامة نقل عمر بن الخطاب ذلك إلى الرسول ﷺ فغضب رسول الله غضبا شديدا وخرج وقد عصب رأسه من الصداع ومما قاله :

« والله لئن طعنتم فى إمارتى أسامة لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله وإن كان أبوه لخليقا للإمارة وأنه لخليق لها فأنفذوا بعث أسامة [٤] » .

بهذا الحزم أمر الرسول ﷺ بإنفاذ البعث ، ولكن الوجع اشتد برسول الله فأقام عسكره بالجرف على بعد فرسخ من المدينة [٥] ينظرون ما الله قاض برسول الله .

وشاء الله أن يلتحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وأسامة لا يزال معسكرا بالجرف ، فأنفذه أبو بكر بعد بيعته [٦] .

* * *

---

(١) المغازى ج ٣ ص ١١١٨ .

(٢) الانكماش : الإسراع .

(٣) الواقدى ج ٣ ص ١١١٨ .

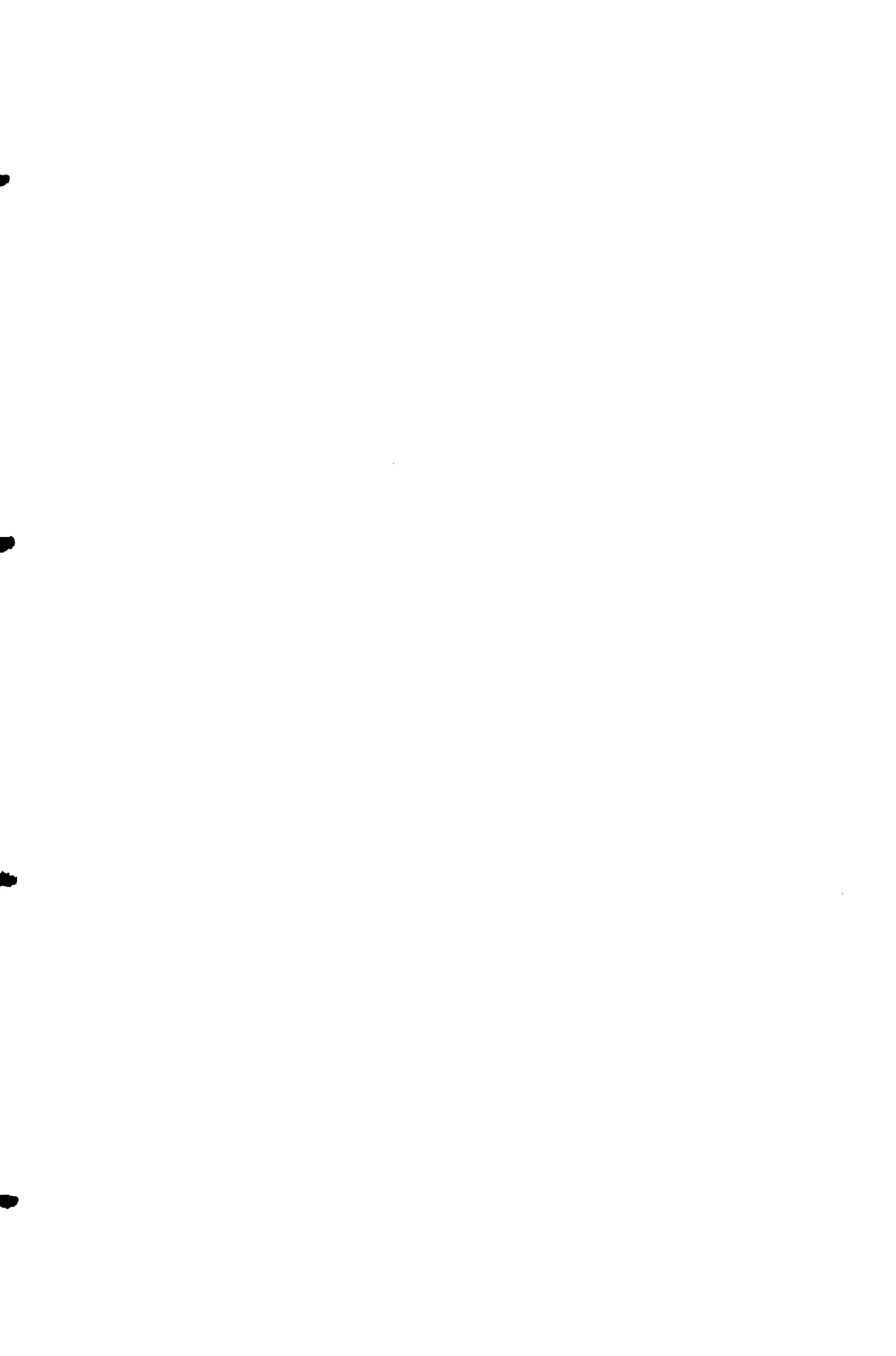
(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٨٦ ، الواقدى ج ٣ ص ١١١٩ – السيرة ج ٤ ص ٢٥٧ – الطبقات ج ٤ ق ١ ص ٤٥ – انظر البخارى ج ٧ ص ٦٩ و ٣٨٢ – و ج ٨ ص ١١٥ و ج ١١ ص ٤٥٥ ومسلم رقم ٦٣ و ٦٤ و ٢٤٢٦ .

(٥) السيرة ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٦) الإصابة ج ١ ص ٢٩ – الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ .

الباب الثّانى

أهل الكتاب ودولة الإسلام
فى عهد الخلفاء الراشدين



الفصل الأول

ضلوع أهل الكتاب مع القوى
المضادة للدولة الإسلامية
المرتدين – الفرس – الـــروم

شبهات وردود حول مؤتمر السقيفة وبيعة أبى بكر رضي الله عنه :

هز نبأ وفاة الرسول ﷺ أصحابه حتى الأعماق [1] ولكنها كانت هزة موقوتة ما لبثت أن عادت بالرجال إلى وعيهم الكامل على صوت أبى بكر الذى ما أن وصله الخبر حتى قدم من بيته بالسنح ودخل بيت عائشة ابنته ورسول الله مسجى فكشف عن وجهه فقبله ثم قال :

« بأبى أنت وأمى يارسول الله – أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا » [2] .

---

(١) يقال أن عمر بن الخطاب قال : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد مات وأن رسول الله ﷺ ما مات ولكنه ذهب كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى وليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات – السيرة ج ٤ ص ٢٦٣ / الطبرى ج ٣ ص ٢٠٠ . العينى ج ٤ ق ٢ ص ١٥٧ . والرواية فيها عناصر يهودية من أفكار أهل الكتاب مما يجعلنا نشك فى صحتها وخاصة صدورها من عمر . إذا علمنا أن وفاة الرسول ﷺ لم تكن مفاجئة بل جاءت بعد مرض خطير توقع فيها المسلمون وفاته . حتى أن جيش أسامة بقى فى الجرف . قال ابن مسعود : نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر .... (الكامل ج ٢ ص ٣٢٠) .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٠١ ، الأنساب ج ٢ ص ١٧٥ ، السيرة ج ٤ ص ٢٦٤ .

وخرج على الناس فأفاقوا على صوته :

« أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت [١] . وتلا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل آنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ [٢] .

ولأول مرة وجدت الطليعة التى نظمها الرسول ﷺ وكونها طيلة عهد الرسالة مهاجرين وأنصارا – وجدت نفسها أمام مسئولياتها القيادية الكاملة فسارع الأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة ظنا منهم أنهم أحق من غيرهم فى تحمل هذا العبء ، واتفقوا على سعد بن عبادة الذى بين أحقية الأنصار فى خلافة الرسول ﷺ [٣] .

فسارع معن بن عدى وعويم بن ساعدة إلى أبى بكر والمهاجرين وأعلماهم فانطلقوا إلى الأنصار لتفويت الفرصة على دعاة الفتنة وليكون لَمّ الشمل أبلغ وأكمل .

واتخذ المستشرقون من حادث السقيفة مجالا رحبا للاستنتاجات فرأى مكدونالد : أن فى اجتماع السقفية كانت توجد أربعة أحزاب وأنه وجدت كل الاضطرابات ، والمنافسات والمنازعات التى قدر لها أن تستمر فى التاريخ الإسلامى – وهذه الأحزاب على زعمه : المهاجرون والأنصار والشيعة وأخيرا حزب رابع يدعوه حزب الارستقراطية المكية [٤] .

وهذه الدعاوى فى الحقيقة خلط وتشويش وقلب لترتيب الحوادث متعمد ،

---

(١) عقد الجمان ج ٤ ق ٢ ص ١٥٨ . الكامل ج ٢ ص ٣٢٤ .
(٢) آل عمران الآية ١٤٤ .
(٣) انظر الطبرى ج ٣ ص ٢١٨ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٥ .
(٤) انظر : الريس – النظريات السياسية الإسلامية ص ٢٨ انظر دونلدسن – عقيدة الشيعة ص ٢٣ . بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ٩٨ .

فلم يكن نقاش السقيفة إلا حرصا على دولة الإسلام وعلى وحدة المسلمين للوقوف فى وجه القوى المناهضة التى كانت تتربص بهم الدوائر وتتمنى أن تعود الحياة فى الحجاز والجزيرة إلى ما كانت عليه من حياة قبلية ، فأسفر الأمر عن مبايعة أبى بكر رضى الله عنه للخلافة ووحدة المسلمين .

ولما لم يحضر علىّ اجتماع السقيفة لاشتغاله وأهل بيته فى جهاز رسول الله ﷺ وأخذ العدة لدفنه – اثار دعاة الفتن الشبهات حول موقفه [١] مستغلين بقايا العصبية الجاهلية فى قريش – وكان موقف علىّ الحقيقى الذى ساير الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى وعاين أساليب القوى المضادة أن نهى عتبة بن أبى لهب بشدة حين قال [٢] :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن

وخرج عندما جاءه أن أبا بكر جلس للبيعة فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه ، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فتجلله ولزم مجلسه [٣] . وهذا هو الأقرب لخلق علىّ وجلالة قدره مما رواه الكثيرون من روايات بعيدة عن جلال الصحابة وحرصهم على الإسلام وهم يعلمون أن القوى المضادة تريد ثغرة بينهم لتنفذ منها . يظهر هذا فى قوله لأبى سفيان عندما حاول الأخير استثارته :

« ويحك أبا سفيان أن المسلمين نصحة بعضهم لبعض وإن نأت دارهم وأرحامهم وإن المنافقين غششة بعضهم لبعض وإن قربت ديارهم وأرحامهم ولولا أنا رأينا أبا بكر لها أهلا ما خليناه وإياها » [٤] وخرج الأنصار والمهاجرون ككتلة واحدة متراصة يواجهون تحديات القوى المضادة للإسلام الذين تجمعوا فى حركة أسماها المؤرخون حركة الردة .

---

(١) انظر : العقد الفريد ج ٤ ص ٢٦٠ .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٧ . الكامل ج ٢ ص ٣٢٥ . ولكنه يعقب والصحيح أن أمير المؤمنين ما بايع إلا بعد ستة أشهر والله أعلم .

(٤) الأنساب ج ٢ ص ١٨٩ .

أهل الكتاب وردة العرب :

ارتد عرب الجزيرة بعد وفاة الرسول ﷺ إما ردة عامة أو خاصة من كل فرقة وظهر النفاق واشرأبت اليهود والنصارى [١] وكان من أسبابها :

العصبية القبلية التى اعتادها العرب حيث الاندماج النهائى فى الوحدة القبلية ورفض تجاوزها إلى ما هو أبعد والتفلّت من أى التزام خلقى ثم الطموح الشخصى لزعماء القبائل . واستغل ذلك القوى المهزومة من اليهودية والنصرانية والمعسكرات المعادية وخاصة البيزنطيين والفرس فشجعت هذه الطموحات .

فكان من المرتدين من منع الزكاة واحتجوا بالآية الكريمة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ [٢] فقالوا : فلسنا ندفع زكاتنا إلا من صلاته سكن لنا [٣] . فكان هذا الجدال العقلى بتأثير اليهود والنصارى الذين كانوا يقولون :

« أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » ..

ثم إن الزكاة والصدقات مست سدنة الأصنام والأوثان والعرافين والكهنة [٤] وكانوا فى أكثرهم إما يهودا أو نصارى . ثم إن الإسلام وتر اليهود بإلغائه النظام

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٣٣٤ . الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣١١ . مسند أحمد ج ١ رقم ٦٧ الطبعة الثانية . القرطبى ج ٨ ص ٢٤٤ وتفسير الآية : الصدقة هنا مخصوص بمن نزلت فيه وليس هذا من الزكاة المفروضة فى شىء .

(٤) الكهانة : استعداد فى أشخاص مخصوصين لاستخراج المغيبات من الأمور الظاهرة . واكتسب الكاهن فى الجاهلية (رجلا أو امرأة) وجاهة فى قومه وأصبح موضع ثقتهم يستشيرونه فى أمورهم ويسألونه أن يخبرهم بالمستقبل وأن يحكم بينهم فى ما يختلفون فيه ..... والعرافة مثل الكهانة ولكنه يسأل عن الماضى – ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٢ .

الربوى الذى كان من وضعهم واستهدفوا من التعامل على أساسه الإثراء الفاحش فشجع اليهود حركة الردة . كما شجع النصارى المتنبئين .

أبو بكر يواجه المرتدين بحزم :

لم يكد يفرغ المسلمون من جهاز رسول الله ﷺ ودفنه حتى أمر أبو بكر بإنفاذ جيش أسامة (١) فأبدى بعض المسلمين ما كانوا أبدوه أيام مرض النبى ﷺ . وتسللت آراء المنافقين إلى الأنصار فقالوا لعمر بن الخطاب : فإن أبى إلا أن يمضى فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة . فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره الخبر (٢) فوثب أبو بكر وكان جالسا فأخذ بلحية عمر وقال له : ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه ؟ وخرج أسامة بجيشه وشيعه أبو بكر وهو يمشى وأسامة راكب ، فشن الغارة على ابنى فقتل من أشرف له وسبى من قدر عليه وحرق منازلهم (٣) فألقى الرعب فى قلوب أهل الكتاب فى مشارف الشام ورجع إلى المدينة ولم يفقد أحدا من المسلمين بعد أن حقق ما طلبه رسول الله منه من بث الخيول فى قبائل قضاعة والغارة على آبل واستغرق ذلك أربعين يوما (٤) وكان تسيير هذا البعث سياسة حكيمة وطدت أمر الإسلام وأرهبت أهل الردة والمشركين الذين قالوا لو لم يكن أبو بكر على بصيرة من أمره وقوة من جيشه وكثرة من جنده لما بعث هذا البعث فى مثل هذا الظرف فصرف الله بسبب هذا البعث عن المسلمين كثيرا من الفتن التى كان أهل الردة والمشركون وأهل الكتاب يعدونها للفتك بالإسلام وأهله .

---

(١) الإصابة ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ . الإصابة ج ١ ص ٢٩ .
محمد فخر الدين .. تاريخ الفتح الإسلامى ص ١٩٤ .

(٣) الواقدى ج ٣ ص ١١٢٢ . إمتاع الأسماع ج ١ ص ٥٤٠ . الكامل ج ٢ ص ٣٣٥ . الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١٣٧ . وابنى موضع بالشام من جهة البلقاء ، (ياقوت – معجم البلدان ج ١ ص ٧٩) .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٧ . وآبل قرية من أعمال دمشق [ياقوت ج ١ ص ٥٠] ويقصد بها هنا ابنى .

كما كانت الغارة ذات أثر كبير على هرقل ومتنصرة العرب فقد بلغ هرقل الخبر وهو بحمص فاستشار بطارقته فأشار عليه أخوه أن يبعث رابطة تكون بالبلقاء ، ولم تزل هذه الرابطة مقيمة فى البلقاء حتى قدمت البعوث إلى الشام (١) . وقدمت وفود القبائل الشمالية تؤكد إسلامها أو مقرّة بالصلاة ممتنعة عن الزكاة ، ولعل هدف بعضها كان اختبار مدى قدرة المسلمين ومدى التفافهم حول أبى بكر ... وكان رأى كبار الصحابة ومنهم عمر ألا يقاتلهم ما داموا يقرون بالصلاة ويشهدون شهادة الحق (٢) فكان جواب أبى بكر الحازم الممثل للنظام المتكامل الذى لا يعترف بالتجزئة ولا يقبلها :

والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدّونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه . إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة (٣) . فأدرك أبو بكر خطة القوى المناهضة للإسلام بمحاولتهم هدم الإسلام ركنا ركنا . وكان من بين القبائل التى فرقت بين الصلاة والزكاة : أسد وغطفان وطىء التى اجتمعت على طليحة الأسدى (٤) وهذه القبائل معروفة بكثرة النصارى واليهود بين أفرادها ، فأصبحت حربا على من بقى على إسلامه (٥) ، وبخطة خبيثة ماكرة أشاعوا أن قريشا تريد أن تستعبد الناس وأنها تجعل النبوة ملكا لها تتوارثه بين أبنائها (٦) مستثيرة بذلك روح العصبية عند العرب ضد قريش .

ردة اليمن الأولـى :

وقد بدأت ردة اليمن فى حياة الرسول ﷺ بدسائس أهل كتابها بعد عودته

---

(١) المغازى ج ٣ ص ١٢٤ . الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١٣٧ . البداية والنهاية ج ٦ ص ٣١١ .

(٢) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٥٣ . الذهبى ج ١ ص ٣٤٩ .

(٣) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣١١ .

(٤) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣١٢ .

(٥) الكامل ج ٢ ص ٢٣١ .

(٦) أحمد شلبى . التاريخ الإسلامى والحضارة ج ١ ص ٢٣٦ .

ﷺ من حجة التمام (١) فقد كره زعماؤها المساواة التى نادى بها الإسلام فحرضهم يهودها ، إذ كان الرسول قد أخر الإفاضة فى حجة الوداع من أجل أسامة بن زيد الغلام الأفطس الأسود (٢) حب رسول الله ﷺ ومولاه وابن مولاه ، كما أن النصارى شجعوا على الفتنة ولعلهم أرادوا أن يقوموا فى الجنوب بثورة تساعد نصارى الشام والروم فى حربهم مع المسلمين (٣) .

فوثب الأسود فى اليمن وهو عبهلة بن كعب بن عوف العنسى المذحجى (٤) إحدى قبائل قحطان وسمى الأسود للونه (٥) وكان جبارا عاتيا وكاهنا يقيم بجنوب اليمن يصطنع الحيل ما يستهوى به العامة ، فكان أول المرتدين بأن استغل مخاريقه وأعاجيبه ولقب نفسه « رحمان اليمن » زاعما أنه يعلم الغيب ، واستعان فى ذلك بحمار معلم فسمى « ذو الحمار » (٦) كان يقول له : اسجد فيسجد ويقول له : اجث فيجثو (٧) والحمار على رأى بروكلمان (٨) يعتبر فى القدم : الدابة التى يمتطيها المخلص المنتظر ، وهذا هو السبب الذى من أجله دخل يسوع القدس وهو راكب على أتان . وهذا دليل واضح على تأثر الأسود بالنصرانية بالإضافة إلى تأثره باليهودية ووقف معه الفرس وأعوانهم من اليهود الذين كان يهمهم التخلص من المسلمين بعد أن أسلم باذان وانتشر الإسلام فى اليمن ، فاستغوى قبيلته مذحج وخلقا كثيرا أخرج بهم عامل نجران ، ثم سار إلى صنعاء

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٤٧ .
(٢) الطبقات ج ٤ ق ١ ص ٤٤ . الاستيعاب ق ١ ص ٧٦ .
انظر مسند أحمد ج ٥ ص ١٩٩ . معجم الطبرانى ج ١ ص ١٢٠ – ١٤٤ .
أسد الغابة ج ١ ص ٧٩ . الإصابة ج ١ ص ٥٤ . ابن عساكر ج ٢ ص ٣٤١ .
(٣) الصعيدى – السياسة الإسلامية زمن النبوة ص ١٨٤ .
(٤) الكامل ج ٢ ص ٣٣٦ .
(٥) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٠٧ .
(٦) فتوح البلدان ص ١٢٥ .
(٧) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٥٤ .
(٨) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ١٠٥ .

فقتل شهر بن باذان وأكره زوجته آزاد على الزواج منه ، وفر المسلمون وعمالهم وعلى رأسهم معاذ بن جبل وأبو موسى إلى حضرموت عند السكاسك والسكون من كندة (١) ، وامتد نفوذ الأسود فدانت له البوادى والحواضر بين مفازة حضرموت إلى البحرين ، والإحساء إلى عدن .

فحاربه الرسول ﷺ وحث المسلمين على التخلص منه ، إلى أن تمكن فيروز وداذويه وآزاد (٢) من اغتياله والتخلص منه واصطلح العمال على معاذ بن جبل ، وكتبوا إلى الرسول بالخبر فوصل ليلة وفاته (٣) فكان خبر اطمأنت به نفوس المسلمين وأزاح عنهم بعض الغمة ، وخفف من وطأة الأخبار المتواردة عن نكوص العرب عن الإسلام .

أهل الكتاب والتحالفات القبلية البدوية فى حرب الردة :

من الملاحظ أن حركة الردة اشتدت حيث تكثر العناصر اليهودية والنصرانية فتكونت أحلاف بدوية من عبس وغطفان وذبيان وأمدهم طليحة بأخيه حبال فى جماعة من بنى أسد (٤) وقد أرسلوا إلى أبى بكر وفودا لاختبار مدى قوة المسلمين بعد تسيير جيش أسامة متظاهرين أنهم على استعداد لإقامة الصلاة دون الزكاة ، فلما أنسوا فى المسلمين ضعفا هاجموا المسلمين من ذى القصة تاركين قسما بذى حسى ردءًا لهم ، وكان أبو بكر بعد ذهاب وفودهم قد أخذ للأمر عدته بأن جمع المسلمين فى المسجد ثم وزعهم على أنقابها فأفشل الهجوم وتابع المرتدين إلى ذى حسى ، حيث أفزعت الكمائن إبل المسلمين ، فهاجت وعادت إلى المدينة فطمع المرتدون وعاودوا هجومهم ، ولكن المسلمين فأجأوهم وقتلوا منهم أعدادا كثيرة منهم حبال واتبعوهم حتى نزل المسلمون ذا القصة فأبقى أبو بكر النعمان بن مقرن فى عدد ورجع هو إلى المدينة (٥) .

---

(١) الهمذانى - الإكليل ورقة ٣٩١ .
(٢) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٥٥ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٦ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٤ ، فتوح البلدان ص ١٠٦ .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ٥٤٦ .

وأما القبائل فقد قامت عبس وذبيان بالهجوم على المسلمين فى قبائلهم وقتلوهم بدون شفقة أو رحمة وفعل من وراءهم فعلهم ، فخرج إليهم أبو بكر وقاتل جمعا لعبس وذبيان وعبد مناة بالأبرق فهزمهم فتوجهت غطفان وخواص من بنى سليم إلى طليحة فى أسد .

فكانت هذه الأحلاف فى حقيقتها انتفاضة يهودية تقنعت بحركة الردة من قبل الأعراب ، وأصبحت لطليحة قوات هائلة عسكر بها فى بزاخة [١] .

فوجه أبو بكر أحد عشر قائدا لحرب المرتدين جميعا وكان أشدهم خالد بن الوليد ، وأمرهم أن يقاتلوا الناس على خمس : « من ترك واحدة منهن قاتله كما تقاتل من ترك الخمس جميعا » [٢] فاتبع خالد خطة تفتيت الأحلاف فأرسل عدى بن حاتم الطائى إلى قومه فاستمال أحد جناحى طيىء (جديلة) وتباطأت عن طليحة فاعتبره قومه فيما بعد : « خير مولود فى أرض طيىء وأعظمه بركة عليهم » [٣] .

وقد أرجع الطبرى أحلاف قبائل غطفان وطيىء وأسد إلى الأحلاف الجاهلية . فقد قال عيينة بن حصن لقومه : والله لئن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد وبقى طليحة [٤] .

وأرسلت الروم علقمة بن علاثة الذى كان قد خرج للشام بعد فتح الطائف لتجميع الجموع ضد حكومة الإسلام فأقبل مسرعا وقاد جماعته من بنى عامر - كلاب ومن لافّها - كما كانت كعب من بنى عامر أيضا بقيادة قرة بن هبيرة [٥] ولكن خالدا تمكن من بنى عامر فبايعوه على الإسلام وأوثق عيينة بن

---

(١) نفسه ج ٣ ص ٢٤٨ .
(٢) الذهبى - تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣٥٠ . وهذه الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، إقام الصلاة ، إيتاء الزكاة ، حج البيت ، وصوم رمضان .
(٣) انظر الطبرى ج ٣ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٦٢ . الكامل ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٥) المصدر السابق .

حصن وقرة بن هبيرة وبعث بهما إلى أبى بكر . فزعم قرة أنه كان مسلما فتجاوز عنه أبو بكر . وأما عيينة فقد دخل المدينة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريد يقولون : – « أى عدو الله ، أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول لهم : –

والله ما كنت آمنت بالله قط . وقد تجاوز عنه أبو بكر وحقن دمه [١] .

طليحة بن خويلد الأسدى :

كان ذكيا طموحا يضرب بشجاعته المثل استجاب إلى نداء اليهود لحمل السلاح ضد المسلمين مع قومه بنى أسد يوم الأحزاب . كما حاول الدفاع عن خيبر عام ٧ هـ / أسلم عام ٩ هـ ثم ادعى النبوة فى حياة الرسول ﷺ فتبعه اليهود وبعض العرب واتخذ من سميراء فى بلاد أسد شرق نجد مقرا لحركته وانضمت إليه بعد وفاة النبى معظم القبائل التى تأثرت بأهل الكتاب ، وقد تأثر بالنصرانية فى أسجاعه وفى العبادات . فقد أنكر الركوع والسجود فى الصلاة وقال : إن الله لم يأمر أن تمرغوا وجوهكم فى التراب أو تقوسوا ظهوركم فى الصلاة [٢] وزعم أن الوحى يأتيه من عند الله ، ومما يدل على علاقته القوية بالنصارى لجوؤه إلى بنى كلب النصرانية فى الشام بعد فراره [٣] فاجتمعت فى حركته المؤثرات اليهودية والنصرانية والوثنية .

ولما بلغ الرسول ﷺ ردة طليحة أرسل إليه ضرار بن الأزور للقضاء على حركته ولكنه لم يكد يصل سميراء حتى بلغت مسامعه وفاة الرسول ﷺ فقويت شوكة طليحة واشتد أمره بمن اجتمع له من قبائل غطفان وهوازن وطيىء ، فاضطر ضرار للعودة إلى المدينة . واستغلظ أمره بعد أن ضربه أحد المسلمين بالسلاح فنبا عنه ولم يصبه

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٦٠ .
(٢) فتوح البلدان ص ٩٩ . الكامل ج ٢ ص ٢٣٥ .
الطبرى ج ٣ ص ٢٦١ .
(٣) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٥٨ . الإصابة ج ٥ ص ٢٤٣ – ابن عساكر ج ١١ ص ٣٧٥ . ٢ . أسد الغابة ج ٣ ص ٩٥ .

فأسرع أصحابه فأذاعوا هذا الأمر فى الناس وجعلوا يقولون إن السلاح لا يعمل فى طليحة [١] ولبراعة أهل الكتاب فى الدعاية أشاعوه بين القبائل فتداعت للانضمام إليه ، فأصبح زعيما لحركة مضادة لحكومة الإسلام جمعت قبيلته وعددا من غطفان وعبس وذبيان وفزارة بزعامة عيينة بن حصن [٢] .

فتوجه خالد إليه وقاتله يوم بزاخة وهزمه فأردف زوجته النوار على فرسه وهرب حتى لحق بقبيلة كلب النصرانية ولم يزل مقيماً هناك حتى مات أبو بكر وأسلم حين بلغه إسلام أسد وعامر وغطفان [٣] وعفا عنه عمر .

تميم والردة :

تميم قبائل كثيرة تقع منازلها على مقربة من بنى عامر إلى الجنوب محاذية المدينة المنورة من الشرق ممتدة نحو الخليج العربى ومتصلة بمصب الفرات من ناحية الشمال الشرقى [٤] وموقعهم هذا جعلهم على اتصال بفارس والحيرة فانتشرت بينهم النصرانية واليهودية والمجوسية وإن بقى أكثرهم يعبدون الأصنام [٥] .

وكانت قد وفدت وفودهم إلى الرسول ﷺ فى سنة ٩ هـ وأسلموا وأحسن الرسول جوائز وفدهم وكان من زعمائهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسمرة بن عمر ووكيع بن مالك ، ومالك بن نويرة على رأس بنى يربوع .

واستثار اليهود والنصارى الروح البدوية الخشنة ضد الإسلام وحكومته فحاول بنو جهم وبنو عمرو بن تميم أن يمنعوا الصدقة إذ لما رآهم جامع الصدقة هرب وانطلق موليا فنجا . فأرسل إليهم ﷺ عيينة بن حصن فى خمسين فارسا

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٣٤٤ . الطبرى ج ٣ ص ٢٥٧ .
(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٤٧ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٥٧ . الكامل ج ٢ ص ٣٤٤ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٥٩ .
(٤) هيكل – الصديق ص ١٣٦ .
(٥) السيرة ج ٢ ص ١٧١ .

من العرب ليس فيهم مهاجر واحد ولا أنصارى فأدركهم فى بنى سليم فأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا فحملهم إلى المدينة وعلى أثرها جاء وفد تميم إلى النبى ﷺ (١) .

وإرسال الرسول لعيينة كان اختبارا له ولإسلامه ، ولم يرسل معه أحداً من المهاجرين والأنصار خوفاً أن يغدر بالمسلمين بل أرجح أن قتالا لم يحصل وإنما حصل اتفاق بين عيينة وزعماء تميم .

وبعد وفاة الرسول ﷺ أثار أهل الكتاب بين تميم تحاسد زعمائهم وتنافسهم فعادت أيام العرب فى الجاهلية وحارب بعضهم بعضا ، إلى أن أقبلت سجاح بنت الحارث بن عقفان بن سويد التميمية اليربوعية (٢) وقد كانت تقيم مع قومها فى الجزيرة الفراتية بين أخوالها من بنى تغلب النصارى فكانت نصرانية داهية وشاعرة ملهمة . تقول كلّ شيء بالشعر ، وعندما كان يخاطبها أحد الناس نثرا تجيبه شعرا . قادت قومها وبنى تغلب وعليهم الهذيل بن عمران والنمر وعليهم عقة ابن هلال وإياد وعليهم زياد بن فلان وشيبان وعليهم السليل بن قيس (٣) فكانت قواتها من العرب المتنصرة فهو تجمع نصرانى استطاع بواسطتها النصارى تسلم زمام المبادرة . فقدمت إلى تميم وقادتها بعد أن استجاب لها مالك بن نويرة فى بنى يربوع ووكيع بن مالك فى بنى مالك فتكون حلف نصرانى وثنى من وكيع ومالك وسجاح (٤) وحاولت غزو المدينة ولكن المسلمين استطاعوا أن يفتتوا الحلف بينها وبين مالك ووكيع فتوجهت بجنود الجزيرة إلى اليمامة لا لغزوها بل لتكوين حلف قوى يستطيع الوقوف فى وجه دولة الإسلام . وقد تمثل هذا الحلف فى زواجها من

---

(١) المغازى ج ٣ ص ٩٧٦ .
(٢) التنبيه والاشراف ص ٢٤٨ . الأنس الجليل ج ١ ص ٢٢٢ . الكامل ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٦٩ . الكامل ج ٢ ص ٣٩٤ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٧٣ .

مسيلمة [١] لتوحيد صفوفهما ، وليس بصحيح أن مسيلمة أمهرها وضع صلاة العصر عن بنى تميم [٢] بدليل الاختلاف فى ذلك فبعضهم يذكر أنها صلاة العصر والبعض يذكر أنها صلاة الفجر والبعض يذكر أنها صلاة العشاء .

والواقع أن ذلك من قبيل سخرية أهل الكتاب بالإسلام وهى نفس الخطة التى سلكوها مع الرسول ﷺ عندما كانوا يصلون معه ويقلدون حركاته استهزاء . والقصة تلفيق من أهل الكتاب فى بنى تميم أو من نصارى تغلب ، وهناك عبارة فى الطبرى عن سيف تؤيد ما ذهبنا إليه : « وكانت (أى سجاح) راسخة فى النصرانية وقد علمت من علم نصارى تغلب » ، وفى مفاوضاتها مع مسيلمة قال لها : لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش فحباك به ، وكان لها لو قبلت [٣] وأما القصة البذيئة فى زواجها من مسيلمة فقد رويت عن غير سيف ولم يذكر الطبرى سندها .

وحينما رجعت سجاح إلى الجزيرة تركت قواتها مع مسيلمة بدليل أنها خلفت الهذيل وعقة وزياداً بحجة جمع النصف الباقى من غلات اليمامة [٤] .

وقد حاربت هذه القوات إلى جانب مسيلمة فى اليمامة .

واستطاع خالد بن الوليد أن يقضى على بقية مقاومة تميم بعد أن تفرق بنو يربوع بأمر مالك بن نويرة . فلما وصل البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من يجب وإن امتنع أن يقتلوه [٥] فجاءته سراياه بمالك ونفر

---

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ . الكامل ج ٢ ص ٣٥٦ . الطبرى ج ٣ ص ٢٧٥ – مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٦ . وقصة زواجها على ما فيها من البذاءة مذكورة فى جميع هذه المراجع وفى غيرها وابتعد بها الإخباريون عن حقيقة الاجتماع وأهدافه وأبعاده .

(٢) الفخرى ص ٧٤ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٦٥ . أصدقها صلاتى الفجر ، والعشاء الآخرة .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٧٢ . الكامل ج ٢ ص ٣٥٥ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٧٥ . الكامل ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٥) الطبرى ج ٣ ص ٢٧٨ .

من بنى يربوع فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك ومن معه . وتزوج زوجته فكان ذلك مدعاة لتقول الناس خاصة وأن البعض شهد بإسلام مالك [١] .

وأما اليمامة :

وهى بلاد واسعة تمتد على الخليج العربى [٢] قريبة من البحرين من الإحساء حتى عمان ، فكانت تسكنها قبائل عديدة من ربيعة أقواها بنو حنيفة المعروفة بكثرة عددها وشدة بأسها وكثرة وقائعها .

وقد اشتهرت هذه القبائل بصلتها بالنصرانية على المذهب النسطورى وبالمجوسية الفارسية . فكان هوذة بن على الحنفى والدمسيلمة نصرانيا على مذهب النساطرة ، فدعاه كسرى إلى فارس فأكرمه ، وسأله عن أنجع الطرق التى يستطيع أن يتغلب بها على بنى تميم فقال له هوذة :

« إن أساورتك (فرسانك) لا يطيقون بادية بنى تميم فاحبس الميرة عنهم عاما ثم ادعهم إلى سوق تباع فيها الميرة ، فإذا جاءوا فليهاجمهم الجيش الفارسي » .

فأرسل كسرى مع هوذة جيشا بقيادة المكعبر ، ونزل حصن المشقر فى هجر (البحرين) ثم بعث من نادى فى القبائل أن كسرى قد أرسل ميرة كثيرة فمن أراد أن يمتار فليأت إلى حصن المشقر ، فجاءت جموع كثيرة من العرب ومن بنى سعد بن تميم خاصة ، فلما اجتمع الناس جعل أعوان المكعبر وأعوان هوذة يدخلونهم واحدا واحدا أو خمسة أو عشرة عشرة فإذا وصلوا إلى المكعبر وهوذة ضربت أعناقهم . وكان هوذة يشير إلى الرجل بعد الرجل فيقول : هذا من أصحابى ، فيعفو المكعبر عنه . ثم فطن العرب لما يجرى داخل الحصن فثاروا واقتحموه [٣] .

وعندما راسل رسول الله ﷺ الملوك والأمراء المعاصرين له أرسل سليط

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٨٠ . الخضرى ج ١ ص ١٧٥ .
(٢) انظر معجم البلدان ج ٨ ص ٥١٥ .
(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٦٠ .

ابن عمر بن عبد شمس إلى هوذة بن على صاحب اليمامة . ولما توافدت العرب تعلن إسلامها وتستمع رسول الله ﷺ بعد أن استفحل الإسلام وانتشر وهابته القبائل وفدت حنيفة إلى رسول الله ﷺ وكان مسيلمة بن هوذة الحنفى ضمن هذا الوفد الذى قابله النبى ﷺ وقد أجاز الرسول الوفد ولما أراد الرجوع قال : هل بقى منكم أحد ؟ قالوا : رجل تنصر وخالفنا قال : ليس ذاك بشركم مكانا وأمر له بمثل ما أمر لهم [١] . ولما شاع مرض النبى ﷺ ادعى مسيلمة الشركة فى النبوة واحتج بقوله ﷺ : « ليس بشركم مكانا » ودعا الناس إلى اتباعه [٢] ووجد من أيده فى ادعائه وشجعه على ذلك من أهل الكتاب ومن الفرس نكاية فى الإسلام وحكومته ، وشهد له جماعة بأنه رسول الله وأنه يناجى ربه ويسجع سجعات مضاهاة للقرآن [٣] وكان لمسيلمة معرفة بالسحر فأدهش الناس بحيله العجيبة فقد كان يستطيع إدخال البيضة فى زجاجة ، ويستطيع نزع ريش الطائر ثم يعيده فيحلق الطير مرة ثانية ، وله معرفة بالنجوم والكهانة ، ونفخ فيه أعداء الإسلام حتى ظن أنه نبيا بالفعل فاستمر فى عناده [٤] وأيده قومه عصبية وأهل الكتاب لنصرانيته ، والمجوس لعمالته للفرس .

ولا تحمل الروايات غير نتف صغيرة من تفكيره الدينى المتأثر بالنصرانية والمانوية ، فقد كانت نصرانيته ممزوجة بالثنوية [٥] فقد طاف الأسواق التى تضم العرب والعجم كسوق الأداة وسوق الأنبار وسوق الحيرة [٦] ، قبل تنبوه ، وشدد على ناحية الزهد والتقشف تشديدا خاصا فأوصى بالصيام وحرم الخمرة

---

(١) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٦١ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤٧ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٣٨ . تاريخ الخميس ج ١ ص ١٤٥ .
(٤) ابن خلدون – المقدمة ص ٨١ .
(٥) اليعقوبى ج ١ ص ٢١٤ . نيكلسون ص ١٨٣ – بروكلمان – تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ١٠٠ .
(٦) فتوح البلدان ص ٨٧ .

وحضّ أتباعه على الطهارة والوضوء سامحا لكل منهم بالاتصال الجنسى إلى أن يرزق ابنا ذكرا فحسب .

وذكر فى معظم أساجيعه تفوق قبيلته حنيفة على قريش وأرسل الرسول ﷺ الرّجال بن عنفوة إلى مسيلمة وهو من بنى حنيفة كان ممن أسلم وتفقه وقرأ سورة البقرة وسورا أخرى من القرآن الكريم (١) أرسله الرسول ليشغب على مسيلمة ويقرئ بنى حنيفة القرآن ، ويعلمهم أحكام الإسلام ، ولكنه تابع مسيلمة وشهد له بالاشتراك فى الرسالة مع النبى ﷺ ، فأصبح ساعده الأيمن لا يتخذ رأيا دون استشارته . فقوى مركز مسيلمة بين قومه والوثنيين فكان الرجال أعظم فتنة على الإسلام من مسيلمة (٢) إذ كان يعلن بين قومه ويشهد أن محمدا يقول : إن مسيلمة قد اشترك معه . فصدقوه واستجابوا له (٣) .

وزاد من قوته زواجه من سجاح النصرانية فالتف حوله أهل الكتاب من النصارى فى شمال الجزيرة وشرقها فازداد أهل الكتاب أملا بتحقيق نصر على الإسلام وحكومته بتعاونهم مع الشرك والعصبية القبلية – فكان مسيلمة يقرأ على بنى تميم تحالفه معهم : « أن بنى تميم قوم طهر لقاح لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، – نجاورهم ما بقينا بإحسان نمنعهم من كل إنسان ، فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمٰن » (٤) .

فتمكن أهل الكتاب بذلك من إعادة تجميع الأحزاب ثانية بصورة أكثر عنفا وأكثر عددا واتساعا بقيادة مسيلمة ، فقد وصلت قواته بعد هزيمة عكرمة أربعين أو ستين ألفا وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها فى الجيوش من قبل . وتقدم مسيلمة إلى منتهى ريف اليمامة وعسكر فى عقرباء والأموال وراء ظهورهم .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٨٧ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٨٢ و ص ٢٨٧ وقيل واسمه نهار بن عنفوة أو رحال بن عنفوة . البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٦٥ ، الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٣٦١ .
(٣) الكامل ج ٢ ص ٣٦١ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٩٠ وج ٢ ص ٣٧٦ .

وكان أبو بكر قد أمر عكرمة بتثبيت مسيلمة فى اليمامة ولم يأمره بقتاله ولكنه تعجل الأمر ، وكان أبو بكر يهدف إلى تجميد مسيلمة فى مكانه لكى يعطى الفرصة لخالد لكى يقاتل القبائل المرتدة فى أواسط الجزيرة وشمالها دون تدخل من اليمامة ما دام مسيلمة يتوقع هجوم المسلمين .

أرسل أبو بكر خالد بن الوليد إلى مسيلمة بعد أن أمدّه بجيش قوى من المهاجرين والأنصار بينهم عدد كبير من حفاظ القرآن ومن شهد بدرا إدراكا من المسلمين بعظم الأخطار التى ترتبت على حركته .

واشتبك المسلمون بتجمعات مسيلمة فى معركة فاصلة لم تشهد لها الجزيرة مثيلا فى تاريخها ، وقد اضطر المسلمون فى أول الأمر إلى التقهقر حتى تمكنت جحافل مسيلمة من اقتحام فسطاط خالد . ولكن بفضل قيادة خالد وإيمان ثابت بن قيس وزيد بن الخطاب وشجاعة البراء بن مالك [١] تمكن المسلمون من إعادة الكرة فهزموا مسيلمة فتقهقر بفلوله إلى حديقة الموت حيث لاقى مصرعه بعد مجزرة إذ يروى أنه قتل سبعة آلاف من جيش مسيلمة بعقرباء وبالحديقة مثلها وفى الطلب نحوا منها [٢] ومنى المسلمون بخسائر فادحة فقتل ثلاثمائة وستون من المهاجرين وثلاثمائة من الأنصار [٣] وبلغ مجموع من استشهد ألف ومائتا رجل [٤] وهذا دليل على عنف المعركة وشراستها .

وكان من نتائجها القضاء على أكبر خطر هدد الإسلام فى حرب الردة

---

(١) عن ثابت بن قيس الخزرجى انظر ابن سعد ج ٥ ص ٢٠٦ . أسد الغابة ج ١ ص ٢٧٥ . الإصابة ج ٢ ص ١٤ وعن زيد بن الخطاب رضى الله عنه انظر ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٧٤ . حلية الأولياء ص ٣٦٧ . أسد الغابة ج ٢ . ص ٢٨٥ – ٢٨٦ . الإصابة ج ٤ ص ٥٢ وعن البراء بن مالك النجارى انظر ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٩ . حلية الأولياء ج ١ ص ٣٥٠ . أسد الغابة ج ١ ص ٢٠٦ . الإصابة ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٣٠٠ . الكامل ج ٢ ص ٣٦٥ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٠٠ . التنبيه والإشراف ص ٢٤٨ .

(٤) فتوح البلدان ص ١١١ .

والقضاء على آخر أمل لأهل الكتاب فى قيادة الجزيرة ، فآن لها أن تطمئن وتدين بدين الله . ولم يكن باقى المرتدين بمثل قوة مسيلمة (١) فسكنت نفوس المسلمين .

البحرين والردة :

سكنت البحرين قبائل عبد القيس وبكر بن وائل من ربيعه وكانوا فى معظمهم نصارى على مذهب أهل الحيرة وفيهم يهود ومجوس . وأسلم ملكهم المنذر بن ساوى العبدى النصرانى على يد العلاء بن الحضرمى (٢) ولم تستطع فارس عمل شىء آنذاك لأنها كانت تجتاز مرحلة صعبة فى تاريخها . وعمل الجارود على دعوة قومه إلى الإسلام فانتشر سريعا .

وبعد وفاة الرسول ﷺ والمنذر ارتدت عبد القيس وبكر بن وائل أهل البحرين بتأثير المؤثرات الفارسية النصرانية واليهودية . ولكن الجارود استطاع التغلب على تيار الردة بحكمة فأبقى معظم قومه على الإسلام (٣) وتزعم المرتدين الحطم بن ضبيعة أخو بنى قيس بن ثعلبة وانضم إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافرا أو نصرانيا أو يهوديا وضم إليه الزط والسيابجة . وأرسل إلى الغرور بن سويد أخى النعمان بن المنذر ووعده أن يملكه البحرين وكان من سلالة ملوك الحيرة (٤) فأصبحت له جموع كثيرة تمكن بها من محاصرة المسلمين فى جؤاثا تؤيده فارس وبلاطها ، وضيق عليهم الخِناق حتى منعت عنهم الأقوات وخير ما يمثل حالهم قول عبد الله بن حذافة السهمى :

ألا أبلغ أبا بكر رسولا ... وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام ... قعود فى جؤاثا محاصرينا
كأن دماءهم فى كل فج ... شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن إنا ... وجدنا الصبر للمتوكلينا (٥)

---

(١) فتوح البلدان ص ١١١ .
(٢) السيرة ج ٣ ص ١٨٦ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٠٢ . الكامل ج ٢ ص ٣٦٨ .
(٤) الكامل ج ٢ ص ٣٦٨ . الطبرى ج ٣ ص ٣٥٥ .
(٥) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٢٧ . الطبرى ج ٣ ص ٣٠٤ . ياقوت – معجم البلدان ج ٢ ص ١٧٤ .

فتحرك العلاء بن الحضرمى ومعه مسلمة حنيفة وقوم قيس بن عاصم المنقرى فهزم أهل البحرين واستخلص المحاصرين فى جوأثا وقتل الحطم ، وتابع من نجا منهم إلى دارين [١] – وهى جزيرة من جزر الخليج – سباحة وظفر بهم . فانتهت ردة البحرين ورجع كيد أهل الكتاب وفارس إلى نحورهم .

ردة اليمن الثانية :

وفى ردة اليمن الثانية بزعامة قيس بن عبد يغوث المكشوح المرادى [٢] كان أثر أهل الكتاب باهتا ضعيفا رغم اشتراكهم فيها وتحريضهم عليها بزعامة عمرو ابن معديكرب [٣] وأثناء تتبع الحوادث يظهر يأسهم من النتيجة فكأن حركة الأسود علمتهم أن لا سبيل إلى الوقوف فى وجه المد الإسلامى فى اليمن عسكريا وكان موقف نصارى نجران سلميا على الأغلب فقد بعث بنو الحارث وفدا لأبى بكر جدد العهد وكتب لهم كتابا وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ لأهل نجران أجارهم من جنده ونفسه وأجاز لهم ذمة محمد ﷺ إلا مارجع عنه محمد بأمر الله عز وجل فى أرضهم وأرض العرب ألا يسكن بها دينان أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وماشيتهم وعاديتهم وغائبهم وشاهدهم وأسقفهم ورهبانهم وبيعهم حيثما وقعت وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير عليهم ما عليهم فإذا أدوه فلا يحشرون ولا يعشرون ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ووفى لهم بكل ما كتب لهم رسول الله ﷺ وعلى ما فى هذا الكتاب من ذمة محمد رسول الله ﷺ وجوار المسلمين وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق . شهد المسور بن عمرو وعمرو مولى أبى بكر [٤] .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣١١ . الكامل ج ٢ ص ٣٧١ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٣٢٣ . الكامل ج ٢ ص ٣٧٥ .
(٣) الكامل ج ٢ ص ٣٧٧ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٣٢٢ . ذكر نص الكتاب دون ذكر السند . ولم يرد نص الكتاب فى الكامل (ج ٢ ص ٣٧٥) .

أما نصارى مشارف الشام ، فقد كانوا من أتباع الروم البيزنطيين وكانت وفودهم إلى المدينة على الأغلب للتجسس واختبار مدى قوة المسلمين أو خوفاً من القوى الإسلامية بعد أن عجز الروم عن حمايتهم .

فسير الخليفة أبو بكر عمرا وسعيدا من قبيل الاحتياط أو من قبيل دوريات الأمن والنظام .

نتائج حركة الردة :

وقد تمخضت حرب الردة عن نتائج كثيرة يهمنا منها فى هذا المجال .

أولا : وحدة شبه الجزيرة العربية تحت راية الإسلام لأول مرة بزوال الرؤوس أو انتظامها فى المد الإسلامى .

ثانيا : القضاء على النفوذ السياسى لأهل الكتاب فى الجزيرة وهى نتيجة لانتظام الجزيرة فى وحدة تامة ، فقضى على كل نفوذ سياسى لليهود والنصارى فى اليمن وحضرموت وعمان واليمامة وشمال الحجاز فتواروا فى الظلام ورجعوا إلى أساليب الكيد والدس عن طريق النواحى الفكرية . فانتظم الكثير منهم فى الإسلام إيمانا ويقينا وبعضهم انتظم فى صفوفه يكيدون له مستغلين فترة اشتغال المسلمين فى حركة الجهاد ، فتصدوا لدراسة الإسلام وفهمه ومزجه بأفكارهم لتحويره عن طريق التأويل ، فاستطاعوا تقسيم المسلمين إلى أحزاب وشيع فقامت الفتنة الداخلية فى الدولة الإسلامية ، فحققوا بهذه الوسيلة ما أخفقوا فى تحقيقه عن طريق الثورات أو التعاون مع العصبية القبلية أو الضلوع مع القوى الخارجية كالفرس والروم ، ولا يزال الإسلام والمسلمون يعانيان من هذا الأثر حتى اليوم تحقيقا لقول رسول الله ﷺ :

« سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة بعامة وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربى قال يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم » [١] .

---

(١) صحيح مسلم ج ٨ ص ١٧١ .

واستغلوا المد الإسلامى وإسلامهم فتنقلوا فى الأمصار الإسلامية يسللون أفكارهم باسم الإسلام يستميلون إليهم المسلمين الجدد والمسلمين الأتقياء الذين لم يدركوا الملابسات السياسية وألاعيبها .

ثالثا : جمع القرآن فى مصحف واحد :

فقد خشى المسلمون أن يلبس أهل الكتاب بعد تظاهر بعضهم بالإسلام وقتل عدد كبير من الحفاظ يوم اليمامة فى القرآن ما ليس منه . لأنهم لفراغهم وانشغال المسلمين فى حركة الجهاد يمكنهم من الالتصاق بالعامة من المسلمين فيسربون إليهم ما يريدون على أنه قرآن وهم فى نظر أهل الجزيرة من العرب : أهل العلم الأول . ففكر عمر بعد واقعة عقربا . وأوجس خيفة على القرآن فعرض على أبى بكر جمع القرآن وما زال يراجعه حتى شرح الله صدر أبى بكر فأرسل إلى زيد ابن ثابت كاتب الوحى للرسول ﷺ فتداول معه الأمر ثم كلفه بتتبع القرآن وجمعه . فقام زيد بهذه المهمة خير قيام واعتمد على تحرير نسخة من القرآن مكتوبة فى مجموعة من الصحف على المصدرين اللذين حفظا النص القرآنى حتى الآن وهما الحفظ المشافه من الحفظة الأقوياء فى ذلك والكتابة المدونة فى عهد الرسول ﷺ (١) .

فكتب نسخة كاملة فى صحف وسميت المصحف لتكون أصلا محفوظا يصون الكتاب الذى سمى كتابا قبل أن يتم ظهوره فى صورة كتاب ﴿ تلك آيات

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ص ٥٧ .
يقول زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال . الإتقان ج ١ ص ٥٧ .
وكان زيد لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان فإن أبا بكر قال لعمر ولزيد أقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه . وكان جمعه للقرآن فى سنة واحدة تقريبا . الإتقان ص ٥٨ هذا وكان القرآن كله مكتوبا فى عهد النبى ﷺ لكنه غير مجموع فى موضوع واحد ولا مرتب السور بل كان مفرقا فى العسب واللخاف ، والرقاع والأقتاب ونحوها مع كونه محفوظا فى الصدور . تاريخ القرآن ص ٣٩ .

الكتاب وقرآن مبين ﴾ (١) وهذا الأصل وقى النص القرآنى من الزيادة أو النقصان أو أن يشبه فى بعض لفظه حافظ يقع عادة فى مثل هذه الأشياء على الرغم من قوة حفظه ، فوقاه الله من تحريف وتزوير أهل الكتاب ، الأمر الذى فعلوه فى كتبهم من قبل .

وصدق الله العظيم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٢) .

ضلوع أهل الكتاب مع الفرس والروم أثناء الفتوحات الإسلامية زمن الراشدين

ضلوعهم مع الفرس في العراق وفارس :

إن أول ما يلفت النظر فى هذا الموضوع هو ضلوعهم مع **الفرس** فى العراق :

سكن العراق كثير من القبائل العربية التى انتشرت بينها النصرانية على المذهب النسطورى ومنها : إياد التى سكنت منطقة الحيرة (٣) ، ثم ما بين عين التمر والأنبار والجزيرة الفراتية (٤) وبكر بن وائل التى سكنت بادية الكوفة وكان لها نفوذ وعدد (٥) ، وتميم التى سكنت بادية البصرة (٦) والنمر بن قاسط وتغلب وهما من ربيعة وسكنتا ما بين الأنبار وعين التمر والجزيرة الفراتية حول هيت وتكريت (٧) وكلب وقضاعة وسكنتا فى نواحى هيت وشمال الأنبار (٨) وبنو أسد وسكنوا

---

(١) سورة الحجر الآية ١ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩ .
(٣) اليعقوبى – تاريخ ج ١ ص ٢٥٧ . فتوح البلدان ص ٣٤٧ . التنبيه والإشراف ص ١٧٥ .
(٤) البكرى ج ١ ص ٧٠ .
(٥) البدء والتاريخ ج ٣ ص ٢٠٢ .
(٦) الطبقات ج ٧ ق ١ ص ٢٤ .
(٧) نصر بن مزاحم ص ١٤٦ . فتوح البلدان ص ٣٠٤ .
(٨) فتوح البلدان ص ٣٠٢ . الطبرى ج ٣ ص ٣٨٥ .

فى بادية الكوفة وبادية الشام [١] .

وكانت الحيرة أهم مراكز النصرانية فى العراق وسكنها ناس من جعفى وطيىء وكلب وتميم والأزد ولخم وغسان وكندة ومذحج وحمير وبنى الحارث بن كعب وسليم وتنوخ [٢] وهم فى معظمهم من أصل يمانى عدا تميم . وكانوا على جانب من الرقى لاحتكاكهم المستمر بالفرس ، ولتغلب النصرانية عليهم أطلق عليهم اسم العباد [٣] .

وسكن اليهود الحيرة قبل الإسلام وبقوا فيها حتى الفتح الإسلامى ، وكانت العراق قد ضمت عددا من اليهود من آثار السَّبْيَيْن البابليين ، وقد تعاون هؤلاء مع الفرس فكانوا عونا لكورش الفارسي فى القضاء على الدولة الكلدانية عام ٥٣٩ ق . م وساعدوه فى فتح الشام ، فسمح لمن رغب منهم بالعودة إلى أرض فسلطين كتدبير سياسى ليكونوا عملاءه فى الشام وليقلل من خطرهم فى العراق .

ثم رحل إلى الحيرة عدد من اليهود ممن ناوأ حكومة الإسلام زمن الرسول ﷺ وأثناء حركة الردة .

كون العرب فى العراق إمارة الحيرة وحكمها المناذرة فدعمها الفرس لتمنع غارات البدو من داخل الجزيرة ولكن ما لبث هؤلاء أن خافوهم بعد أن انتشرت النصرانية بين سكان الحيرة ، فعمل الفرس على إخضاع الإمارة لسلطانهم نهائيا ، فأصبح أغنياء الفرس المسمين دهاقين [٤] يملكون معظم الأراضى الخصبة فى السواد ، فأصبح عداء بين الدولة الفارسية وحلفائها من اليهود وبين القوى النصرانية العربية من مناذرة الحيرة والقبائل التى تمتد فى سكناها إلى البحرين

---

(١) صفة جزيرة العرب ص ١٣١ .

(٢) اليعقوبى ج ١ ص ٢٥٧ . البدء والتاريخ ج ٣ ص ١٩٦ . فتوح البلدان ص ١٧ . المعارف ص ٦١٥ . الطبرى ج ٢ ص ١٩٦ – التنبيه والإشراف ص ١٥٨ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٥ .

(٤) فان فلوتن ص ٤٥ .

وعمان من عبد القيس وبكر بن وائل ، كما ان العداء كان مستحكما بين نصارى الشام الخاضعين للنفوذ الرومى من غسان والنمّر وقاسط والضجاعم وبهراء وبين نصارى العراق الخاضعين للفرس ولكن هذا العداء التقليدى تحول إلى صفاء واتفاق ضد الإسلام ودولته ولم ينتهى خالد من حرب المرتدين فى البحرين حتى طلب منه أبو بكر أن يتوجه إلى العراق [١] فكان أن كتب له ولعياض :

« استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ لا يغزون معكم أحد أرتد حتى أرى رأيى » . [٢] وذلك كان حذرا من أن تتأثر القوات الإسلامية بعناصر الردة ومن معهم من أهل الكتاب فلم يشهد الأيام مرتد . ولم يشترك من رجع عن ارتداده إلى الإسلام فى المعارك الإسلامية إلا فى عهد عمر بن الخطاب بعد أن قطعت الفتوحات الإسلامية شوطا وبعد أن قام عمر بعملية الفداء التى اقترحها زمن أبى بكر وأنفذها هو من أجل أن يستثير الطاقات فى الجماعة المسلمة لتثبيت دعائم نظامها (بتوطيد الألفة وتحقيق الوحدة) وعلى هذا فلم تكن هذه سببا فى الفتوحات بل نتيجة لها .

كان الكثير من بكر بن وائل قد هرب والتجأ إلى العرب المتنصرة فى العراق أثناء حرب الردة فاشتركوا مع الفرس ضد المسلمين فى حرب الأيام .

بعد أن قضى المسلمون على حركة الردة سار خالد إلى العراق فاصطدم بقرى النصارى الخاضعة للفرس فى أرض السواد وهى بانِقيا وباروسما وأُلّيس فصالحه ابن صلوبا عن أهلها على الجزية سنة ١٢ هـ وكتب لهم خالد كتابا [٣]

---

(١) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٦٥ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٣٤٧ . الكامل ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٤٣ . الكامل ج ٢ ص ٣٨٤ ، ونص الكتاب كما ذكره الطبرى بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى – ومنزله بشاطئ الفرات – إنك آمن بامان الله – إذ حقن دمه بإعطاء الجزية – وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان فى قريتك بانِقيا وباروسما ألف درهم ، فقبلتها منك ، ورضى من معى من المسلمين بها منك ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ وذمة المسلمين على ذلك وشهد هشام بن الوليد . وانظر الطبرى ج ٣ ص ٣٨٤ .

وخرج نصارى الحيرة – وفيهم أشرافهم مع عبد المسيح بن عمرو بن ثعلبة وهانىء ابن قبيصة بن إياس بن حية الطائى إلى خالد وصالحوه على الجزية [١] واتفق معهم على أن يكونوا عيونا للمسلمين على الفرس وأن لا يهدم لهم بيعة ولا قصرا فقبلوا ذلك [٢] وفى وقعة **ذات السلاسل** فى كاظمة اشترك العرب المتنصرة مع هرمز قائد الفرس ، وقد تعبى هرمز وأصحابه واقترنوا بالسلاسل ، فنصحهم العرب المتنصّرة بألا يفعلوا ذلك فأجابهم الفرس : أما أنتم فحدثونا أنكم تريدون الهرب [٣] .

وكانت نتيجة المعركة أن انهزم الفرس وقتل خالد هرمز مبارزة وأفلت قباذ وأنوشجان من قادة الفرس .

وقد عامل المسلمون الفلاحين فى العراق معاملة حسنة فلم يسبوهم ، يروى الطبرى « ولم يحرك خالد وأمراؤه الفلاحين فى شىء من فتوحهم لتقدم أبى بكر إليه فيهم ، وسبى أولاد المقاتلة الذين كانوا يقومون بأمور الأعاجم ، وأقر من لم ينهض من الفلاحين ، وجعل لهم الذمة » [٤] .

وأما فى وقعة **المذار** المشهورة سنة ١٢ هـ فقد اشترك أهل الكتاب مع الفرس ، فكان هرمز قد أخبر كسرى بكتاب خالد إليه بعد اليمامة يدعوه فيه إلى الإسلام أو الجزية فأمدّه بجند عليهم قارن بن قريانس فلما انتهى إلى المذار بلغته هزيمة هرمز فتوقف بها وانتهت إليه الفلّال وانضم إليهم أكثر السواد والجبل – والسواد كان أكثره نصارى – فهزمهم خالد وقتل قائدهم ، وقُتل من الفرس عددٌ جسيم قدره الطبرى بثلاثين ألفا . ويضيف : ولولا المياه لأتى على آخرهم وسبى منهم الكثير وكان فى السبى : حبيب أبو الحسن البصرى وكان نصرانيا ومافنّة

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣٤٥ . الكامل ج ٢ ص ٣٨٤ .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٤٤ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٣٥٠ .

مولى عثمان وأبو زياد مولى المغيرة بن شعبة [١] .

وظهر فى واقعة **الولجة** تعاون أهل الكتاب من النصارى مع الفرس بصورة أكثر وضوحا ، فقد انضمت عرب الضاحية من النصارى والدهاقين والعرب المتنصّرة من بكر بن وائل ومن بطون بنى عجل وتيم اللات وضبيعة إلى قائد الفرس الأندرزغر [٢] . فهزمهم خالد وسار بسيرته فى الفلاحين فلم يقتلهم وسبى ذرارى المقاتلة ومن أعانهم ودعا أهل الأرض إلى الجزاء والذمة فرجعوا إلى بلادهم . وأصاب فى أناس من بكر بن وائل ابناً لجابر بن بجير النصرانى وابنا لعبد الأسود [٣] وكثيرا من نصارى بكر بن وائل الذين أعانوا أهل فارس فغضب نصارى قومهم فكاتبوا الأعاجم واجتمع هؤلاء النصارى فى **أليس** وعليهم عبد الأسود العجلى [٤] فى بنى عجل وتيم اللات وضبيعة يساندهم جابر بن بجير النصرانى فى عرب الضاحية من أهل الحيرة ونصاراهم وانضم جميعهم إلى بهمن جاذويه قائد الفرس . وقد سارع خالد إلى لقائهم وطلب مبارزة عبد الأسود وابن بجير ومالك بن قيس فقتل مالك وأعجل الأعاجم عن طعامهم [٥] ودارت رحى معركة شديدة دارت فيها الدائرة على الفرس والعرب المتنصرة وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر كثيراً فضرب أعناقهم برًّا بيمين حلفها قبل الوقعة لشدة ما كان من غيظه من نصارى العرب لتحالفهم مع الفرس [٦] .

قال خالد بن الوليد :

« لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع فى يدى تسعة أسياف ومالقيت قوما كقوم لقيتهم من أهل فارس وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس » [٧] .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣٥٢ . البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٢) الكامل ج ٢ ص ٣٨٧ . وكان فارسياً من مولدى السواد أى غربائهم . (الطبرى ج ٣ ص ٣٥٣) .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٥٤ .

(٤) الكامل ج ٢ ص ٣٨٨ .

(٥) نفسه ص ٣٨٩ .

(٦) الطبرى ج ٣ ص ٣٥٦ .

(٧) الطبرى ج ٣ ص ٣٥٧ . الكامل ج ٢ ص ٣٨٨ .

أما **الأنبار** فكانت سوقا تجتمع به كلب وبكر بن وائل وطوائف من قضاعة ، وكانت بحماية النصارى من إياد [١] وسميت كذلك لأن صنائع أمراء العجم كانوا يعطون أرزاقهم منها [٢] فقام خالد والمثنى بالقضاء على المقاومة الفارسية والنصرانية بغارة سريعة واستولى عليها المسلمون ومعظم سكانها من العرب ، وتوجه خالد إلى عين التمر وكانت فيه مسلحة عظيمة للأعاجم بقيادة مهران بن بهرام وجمع عظيم من العرب المتنصرة من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم بقيادة عقة بن أبى عقة [٣] الذين أظهروا شدة العداء للإسلام والمسلمين فطلب عقة من الفرس أن يدعوهم لقتال المسلمين فقال :

« إن العرب أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا فى قتال العجم » فتركهم مهران وقال لجيشه :

« فإن كانت لهم على خالد فهى لكم وإن كانت الأخرى لم تبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون » . فقابل عقة خالداً بنصارى العرب على ميمنته بجير بن فلان وعلى ميسرته الهذيل بن عمران [٤] فحمل خالد بنفسه على عقة فاحتضنه وأخذه أسيراً وهرب بجير وهذيل وأسر الكثير [٥] ولجأ الباقون إلى حصن **عين التمر** حيث حاصرهم خالد ثم استنزلهم بأمان وقتل معظمهم بما فيهم الزعماء عقة وعمرو بن الصعق ، ووجد هناك أربعين غلاماً يتعلّمون الإنجيل فى كنيسة منهم : نصير أبو موسى بن نصير وأبو عمرة جد عبد الله ابن عبد الأعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن سيرين [٦] وإخوته ويسار جد محمد بن إسحق [٧] صاحب السيرة ومرة أبو عبيد جد محمد بن زيد بن عبيد بن

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣٧٤ . الكامل ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٢) فتوح البلدان ص ٢٤٧ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٧٦ . الكامل ج ٢ ص ٣٩٤ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٣٧٦ .
(٥) الكامل ج ٢ ص ٣٩٥ . الطبرى ج ٣ ص ٣٧٦ .
(٦) ابن خلكان ج ٤ ص ١٨٥ .
(٧) نفسه ص ٢٧٦ .

مرة ونفيس بن عبيد [١] بن مرة وأبو فروة عبد الرحمن بن الأسود ، وحمران مولى عثمان ، ويذكر صاحب المعارف أنه كان يهوديا واسمه طويداً [٢] .

وفى أثناء ذلك كانت نصارى العرب من كلب وبهراء والضجاعم وتنوخ تتصدى لعياض بن غنم فأرسل إلى خالد يستمدّه فوصله الكتاب بعد أن فرغ من عين التمر فكتب إليه أخصر كتاب فى التاريخ : « إياك أريد » [٣] وكان أهل دومة وعليهم أكيدر الذى ارتد قد استمدوا العرب المتنصرة ، فوصلهم وديعة فى كلب وبهراء ومساندة رومانوس بن وبرة ، وابن الحدرجان فى الضجاعم وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ ، فأشجوا عياضاً وشجوا به .

ولما سار خالد إلى دومة ، خرج أكيدر منها فأخذه عاصم بن عمرو أسيراً ثم قتله خالد [٤] ، كما قتل أميرها الآخر وهو الجودي .

وجعل خالد دومة بينه وبين عياض وكان النصارى الذين أمدوا دومة من كلب وغسان وتنوخ والضجاعم من الكثرة بحيث لم يحملهم الحصن فبقوا محيطين به فلما هاجمهم خالد واشتد القتال أغلق من فى الحصن الحصن دون أصحابهم فبقوا حوله ، فتحركت فى تميم أحلافها السابقة فتقدم الأقرع وعاصم فآمنوا كلبا فأطلقهم لهم خالد قائلا :

« مالى ولكم أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام » [٥] .

ثم اقتلع خالد باب الحصن واقتحمه المسلمون .

ولما علم العرب بغيبة خالد عن الحيرة إلى دومة كاتبت نصارى الجزيرة الأعاجم والروم غضبا لعقة وعرضوا عليهم التضامن معا فى قتال المسلمين يتزعمهم

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣٧٧ .
(٢) اين قتيبة الدينوري – المعارف ص ٤٣٦ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٧٧ .
(٤) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٦٧ . الكامل ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ٣٧٩ . الكامل ج ٢ ص ٣٩٦ .

الهذيل بن عمران ، كما خرج ربيعة بن بجير التغلبى الذى كان بالثنى والبشر غضبا لعقة [١] واجتمع الفرس بقيادة زرمهر وروزبة واتعد ربيعة والهذيل وزرمهر **حصيدا والخنافس** [٢] فسارع القعقاع بن عمرو التميمى إلى حصيد حيث أوقع بهم الهزيمة ففروا إلى الخنافس التى هرب منها المهبوذان بعد أن تقدم لحربه أبو ليلى وانضم إلى الهذيل بن عمران بالمصيخ [٣] . حيث باغتهم خالد وأفلت الهذيل فى ناس قليل ولحق بعتاب بن فلان بالبشر وهو فى عسكر ضخم ، فبيتهم خالد بمن معه وجرد فيهم السيف فلم يفلت منهم مخبر وغنم وسبى وبعث بالخبر إلى أبى بكر واشترى على بن أبى طالب بنت ربيعة بن بجير ، كما بيت خالد فى **البشر** عتاب والهذيل . وقتل منهم مقتلة ثم سار إلى **الرضاب** وفيها هلال بن عقة فتفرق عنه أصحابه فسار عنها [٤] .

كان للسرعة والمباغتة التى اتبعها خالد فى حربه أكبر الأثر فى عدم تمكن هذه القوى من الاجتماع ففرقها ثم قضى عليها وأقسم ليبغتن تغلب فى عقر دارها لأنها تولت كبر طلب ثأر عقة ، وكانت منازلها **بالفراض** عند تخوم الشام والعراق والجزيرة فتوجه إليها فاعتبر الروم مجىء خالد تحدياً لهم فاغتاظوا وتضامنوا مع تغلب وإياد والنمر واستعانوا بمن يليهم من مسالح فارس فهزمهم خالد وقتل المسلمون على ما ذكر من المبالغة مائة ألف [٥] ورجع خالد بجيشه إلى الكوفة وجعل نفسه فى الساقة وتوجه إلى مكة حاجا شاكرا أنعم الله ووافى جيشه مع صاحب الساقة الذى وضعه فقدما معا ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فعتب عليه . فبعد هذه الأحداث الجسام وافى كتاب أبى بكر خالدا يأمره بالتحرك إلى الشام .

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٣٩٧ .

(٢) الحصيد موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة ، والخنافس قرب الأنبار سوق العرب . الطبرى ج ٣ ص ٣٨٠ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٨١ .

(٤) الكامل ج ٢ ص ٣٩٩ . الطبرى ج ٣ ص ٣٨٢ .

(٥) الطبرى ج ٣ ص ٣٨٤ . الكامل ج ٢ ص ٣٩٩ .

ولا أدل على شدة مقاومة النصارى فى العراق للعرب المسلمين من أن أهل الأيام من أهل الكوفة كانوا يوعدون معاوية قائلين : ما شاء معاوية ، نحن أصحاب ذات السلاسل ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقارا لما كان بعد فيما كان قبل [١] .

واستمر نصارى العراق فى عدائهم للإسلام بعد مسير خالد إلى الشام وتزعم النمر وتغلب فارس العناب التغلبى ، فضربهم المثنى بشدة فى **صفين** ، وكان أخشى ما يخشاه المسلمون أن يتحول الصراع إلى عصبية إذ يروى فى واقعة صفين هذه أن فرات وعتيبة ومن معهما مروا بطائفة من تغلب والنمر فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم فى الماء . فناشدوهم وجعلوا ينادونهم : الغرق الغرق ، وجعل عتيبة وفرات يذمران الناس وينادونهم : تغريق بتحريق ، يذكرونهم يوما من أيامهم فى الجاهلية أحرقوا فيه قوما من بكر بن وائل فى غيضة من الغياض . فعلم عمر ابن الخطاب بذلك من عيونه فبعث إلى عتبة وفرات فحلفا أنّهما ما أرادا بذلك إلا المثل وإعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى [٢] .

وقد هال المسلمين قتال الفرس لوجود العرب المتنصرة معهم حتى أن عمر لما بايعه الناس انتدبهم إلى أهل فارس فلم ينتدب أحد فى ثلاث لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم . فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود وسعد بن عبيد الأنصارى [٣] أو سليط بن قيس .

واستجاب أهل السواد بما فيهم النصارى لنداء رستم عندما كتب إليهم أن يثوروا بالمسلمين ودس إليهم الرؤساء فثاروا بالمسلمين [٤] وتراجع المسلمون إلى الفرات ، ونزل المثنى بذى قار وجاءهم كتاب عمر بن الخطاب :

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣٨٥ . الكامل ج ٢ ص ٤٠٠ .
(٢) نفسه ج ٣ ص ٤٧٦ . الكامل ج ٢ ص ٤٤٧ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٤٤٤ ، الكامل ج ٢ ص ٤٣٢ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٤٤٩ .

« أما بعد فاخرجوا من بين ظهرى الأعاجم وتفرقوا فى المياه التى تلي الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تَدَعوا فى ربيعة أحدًا ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل الفرات ولا فارساً إلا اجتلبتموه ، فإن جاء طائعا وإلا حشرتموه ، احملوا العرب على الجد إذ جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم »[1] .

وكانت شجاعة المسلمين سببا فى جعل نصارى العراق يغيرون من مواقفهم بعض الشيء فتحركت فى نفوس بعضهم العصبية أو المصلحة ضد العجم فأخذ يحارب بجانب المسلمين ، ففى **موقعة الجسر** سنة ١٣ هـ[2] عقد ابن صلوبا الجسر للفريقين المسلمين والفرس وأوشكت الهزيمة أن تحل بالمسلمين بعد أن حصروا بين الفرات والجيش الفارسى فقاتل أبو زبيد الطائى النصرانى إلى جانب المسلمين حمية للعرب وكان سبباً فى إنقاذ من بقى من جيش أبى عبيد[3] ، ولعله كان مع جيش الفرس فى جماعة من قومه فانضم إلى المسلمين عندما رأى الدائرة عليهم .

وتتابع أهل الكتاب من النصارى ينضمون إلى جيوش الإسلام ، ففى **وقعة البويب** سنة ١٣ هـ قدم أنس بن هلال النمرى ممدا للمثنى فى أناس من النمر نصارى ، وابن مردي الفهرى التغلبى فى أناس من بنى تغلب[4] نصارى ولما اشتد القتال قال المثنى : يا أنس إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا فإذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى وقال لابن مردى الفهرى مثل ذلك[5] ولعل المثنى طلب ذلك منهما لمراقبتهما وخوفا من الغدر بالمسلمين فجعلهما تحت عينيه يرقبهم خاصة وأن مساعدة النصارى للمسلمين كانت حديثة العهد بعد سلسلة من العداوة .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٤٧٨ . الكامل ج ٢ ص ٤٤٩ .
(٢) ويقال لها وقعة القرقس أو القس قس الناطف كما يقال لها المروحة – الطبرى ج ٣ ص ٤٥٤ وهى موضع بين البرج والعاقول .
(٣) الكامل ج ٢ ص ٤٤٠ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٤٦٤ .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ٤٦٦ .

كما أصبح أهل **الحيرة** عيونا للمسلمين عندما جاء سعد بن أبى وقاص [(١)] ولا يعنى ذلك أن العداوة فى العراق انتهت بين المسلمين وأهل الكتاب من النصارى فإننا نجد الغارات التى سبقت **القادسية** شملت العرب المتنصرة فعندما توجه سعد إلى القادسية من شراف كان من المقرر أن يقدم عليه المعنّى بن حارثة أخو المثنى وسلمى بنت خفصة التيمية (تيم اللات) بوصية المثنى فشغلهما قابوس بن قابوس بن المنذر وذلك أن الآزاد مرد الفارسى بعثه إلى القادسية وقال له : « ادع العرب فأنت على من أجابك ، وكن كما كان آباؤك » . فنزل القادسية وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم به مقاربة ووعودا ، فلما أنتهى إلى المعنّى خبره بيّته ومن معه فقضى عليهم [(٢)] . وقدموا على سعد وهو بشراف .

وكان كثير من أهل السواد ممن صالح المسلمين قد أصبحوا إلب لأهل فارس وخفوا لهم واستعدوا لقتال المسلمين مع رستم [(٣)] . فبث سعد الغارات على الحيرة [(٤)] وبير كسكر والأنبار [(٥)] كما بعث عيونا إلى أهل الحيرة وإلى صلوبا ليعلموا له خبر فارس [(٦)] . وأرسل سعد مالك بن ربيعة ومعه المساور بن النعمان التيمى فأغارا على الفيوم فأصابا إبلا لبنى تغلب والنّمر [(٧)] .

ولما وصل رستم الحيرة دعا أهلها وقال : يا أعداء الله فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا وكنتم عونا لهم علينا وقويتموهم بالأموال . فقال له ابن بقيلة :

« أما أنت وقولك إنا فرحنا بمجيئهم فماذا فعلوا ؟ بأى ذلك من أمورهم

---

(١) انظر الطبرى ج ٣ ص ٤٧٣ . فقد استعمل المثنى رجلين أحدهما أنبارى والآخر حيري ليدله كل منهما على سوق . فدله الأنبارى على الخنافس ودله الحيرى على بغداد .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٤٩٠ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ٤٩٢ .

(٤) نفسه ج ٣ ص ٤٩٤ .

(٥) نفسه ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٦) نفسه ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٧) نفسه ج ٣ ص ٥٠٢ .

نفرح إنهم يزعمون أنا عبيد لهم وما هم على ديننا وأنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار ، وأما قولك : إنا كنا عيونا لهم فما الذى يحوجهم إلى أن نكون عيونا لهم وقد هرب أصحابكم منهم وخلوا لهم القرى فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه ؟ إن شاءوا أخذوا يمينا أو شمالاً . وأما قولك : إننا قويناهم بالأموال فإننا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا وإذ لم تمنعونا مخافة أن نسبى وأن نحرب وتقتل مقاتلتنا وقد عجز منهم من لقيهم منكم فكنا نحن أعجز ولعمرى لأنتم أحب إلينا منهم وأحسن عندنا بلاء فامنعونا منهم نكن لكم أعوانا فإنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد لمن غلب » . فقال رستم :

« صدقكم الرجل »[(١)] ولعمرى أن الرجل لصادق وما كانت موافقتهم على شروط المسلمين إلا تحينا للفرصة التى تمكنهم من نقضها كما فعل يهود الحجاز مع الرسول ﷺ . وقد كان لكسرى مرابطة فى قصر بنى مقاتل عليها النعمان بن قبيصة الطائى ابن عم قبيصة صاحب الحيرة ، فقال عن سعد بن أبى وقاص :

« وأما إن كان قرشيا فليس بشىء . إنما قريش عبيد لمن غلب ، ولا يمنعون خفيرا ولا يخرجون من بلادهم إلى بخفير »[(٢)] .

ولما نزل سعد القادسية استغاث أهل السواد وخاصة من لهم الضياع بيزدجرد وهيجوه قائلين : وإن أبطأ الغياث أعطيناهم (أى للمسلمين) ما بأيدينا[(٣)] . كما وفد بعد القادسية كثير من النصارى الذين ينتمون إلى العرب المتنصرة المقيمة على ضفاف الفرات وأعلنوا إسلامهم[(٤)] .

وفى فتح **تكريت** سنة ١٦ هـ ، كان قد أرسل سعد عبد الله بن المعتم إلى

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٥٠٨ . انظر الكامل ج ٢ ص ٤٦٠ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٥٧٣ . الكامل ج ٢ ص ٤٥٣ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٥٠٣ . الكامل ج ٢ ص ٤٥٥ .
(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٩٢ .

الأنطاق ومعه الروم وإياد وتغلب والنمر والشهارجة ووكل عبد الله بالعرب ليدعوهم إليه وإلى نصرته على الروم فاستجابت له تغلب وإياد والنمر فأرسل إليهم : « إن كنتم صادقين فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأقروا بما جاء به من عند الله ثم أعلمونا رأيكم » . فأسلموا . فقال لهم : « إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التى تلينا لندخل عليهم منها فخذوا بالأبواب التى تلى دجلة وكبروا » .. فقاموا بذلك وحسب الروم أن المسلمين أتوهم من خلفهم فدخلوا عليهم مما يلى دجلة فبادروا الأبواب التى عليها المسلمون فأخذتهم سيوف المسلمين مستقبلتهم وسيوف الربعيين الذين أسلموا ليلتئذ من خلفهم . فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد والنمر [١] .

ولكن جموع النصارى عادت لتتحالف مع الفرس والروم فقد تحرك أهل الجزيرة فأمدوا هرقل على أهل حمص ، وبعثوا إلى أهل هيت ، فاشترك النصارى والفرس والروم مرة أخرى فى هيت ، حيث تمكن عمر بن مالك بن عتبة من القضاء عليهم بأمر سعد [٢] .

وفى **وقعة السوس** سنة ١٧ هـ اشترك النصارى وفيها القسس والرهبان إلى جانب العجم الذين كانوا بقيادة شهريار أخو الهرمزان وكان الرهبان والقسيسون يقولون : يا معشر العرب لا تعنوا فإنه لا يفتحها إلا الدجال أو قوم معهم الدجال وصاحوا بالمسلمين وغاظوهم [٣] .

وفى **خوزستان** التى سكنها قبل الفتوحات الإسلامية قبائل بنى العم إلى جانب العجم وجه عتبة بن غزوان سلمى بن القين وحرملة بن مريطة من بنى العدوية . فدعا سلمى وحرملة بني العم فاستجاب لهما غالب الوائلى وكليب بن وائل وقومهما بنو العم بن مالك وأمدوا المسلمين أثناء قتال الهرمزان وهاجرت طوائف منهم وسكنوا البصرة [٤] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦ . الكامل ج ٢ ص ٥٢٣ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٨ .
(٣) الكامل ج ٢ ص ٥٥٠ . الطبرى ج ٤ ص ٩٢ .
(٤) الكامل ج ٢ ص ٥٤٣ .

وكان لأهل الكتاب من النصارى مودة وحب **ليزدجرد** ، فتعاونوا معه وعطفوا عليه طيلة حياته ولما بلغت وفاته مسامع ايلياء مطران مرو جمع من كان قبله من النصارى وقال لهم : « إن ملك الفرس قد قتل وهو ابن شهريار بن كسرى وإنما شهريار ولد شيرين المؤمنة التى قد عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل ملتها من غير وجه ولهذا الملك عنصر فى النصرانية مع ما نال النصارى فى ملك جده كسرى من الشرف حتى بنى لهم بعض البيع وسدد لهم بعض ملتهم ، فينبغى لنا أن نحزن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه وجدته شيرين كان إلى النصارى وقد رأيت أن أبنى له ناووسا وأحمل جثته على كرامة حتى أواريها فيه » . فاستجاب له النصارى فى مرو واستخرجوا جثة يزدجرد من النهر وحملوه إلى الناووس الذى أمر ببنائه [١] .

والذى يجدر ملاحظته أن المساعدات التى قدمها نصارى العراق للمسلمين ضد الفرس كانت بدافع العصبية التى بدأ ظهورها قبل الإسلام فى موقعة ذى قار سنة ٦١٠ م ضد الفرس [٢] ولا يجب أن ينظر إليها إلا بهذا المقياس . ولذا فكانوا يأملون بمكافآت غير التى حصلوا عليها ، وكانوا يأملون بعدم الخضوع للسلطة المركزية الإسلامية ، فلما ظهر الإسلام كدولة ونظام أمام أعينهم انقسموا فريقين : فريق وهو الأكثرية ارتضى الإسلام وأحكامه وسعد به وأسعد غيره . وآخر أخذ يكيده ويبذر بذور الفرقة بين المسلمين إما بالاندماج فى الجماعة لتقويضها من داخلها وإما بكيدها من الخارج فكانت الفتن .

ضلوع أهل الكتاب مع الروم فى الشام ومصر :

انتزع المسلمون فى عهد عمر الشام ومصر وبرقة من الروم وكان أهلها من أهل الكتاب وأكثريتهم من النصارى الذين اختلفوا عن الروم فى مذهبهم ، فقدم بعضهم المساعدات للمسلمين أثناء الفتح ، ولكن أكثرهم وقفوا إلى جانب الروم فى وجه الزحف الإسلامى . وليس هنا موضع تتبع الفتوحات وتفصيلها وإنما هدفنا أن نقف وقفات مع هذه المواقف المختلفة من خلال الفتوحات .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٠٠ .
(٢) أرنولد ص ٦٥ .

كان الصدام بين المسلمين وعرب أهل الكتاب على مشارف الشام قد قطع شوطا فى عهد رسول الله ﷺ انطلق منه أبو بكر فأرسل جيش أسامة ، ثم أرسل خالد بن سعيد إلى تيماء بقوة صغيرة وأمره ألّا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه وألا يقبل إلا ممن لم يرتد ولا يقاتل إلا من قاتله حتى يأتيه أمره . فاجتمع لخالد جموع كثيرة بلغت عظمته الروم ، فأمروا العرب المتنصرة (الضاحية) من بهراء وكلب وسليم وتنوخ ولخم وجذام وغسان [1] بحرب المسلمين ، فكتب خالد إلى أبى بكر يعلمه فأمره : « أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله » . فسار إليهم خالد حتى نزل بين آبل وزيزياء والقسطل فتفرقت جموع العرب المتنصرة وانضم كثير منهم للمسلمين . ولكن خالدا خشى أن يكون ذلك فخًّا للقضاء على المسلمين فأرسل إلى أبى بكر يستمده فأمده بذى الكلاع وعكرمة والوليد بن عقبة ، ولكن خالدا اغتر بمن معه وخالف أمر أبى بكر بالاحتياط فهاجم الروم الذين كانوا بقيادة باهان [2] فاستطردوا له حتى أرز باهان إلى دمشق ووصل خالد ومن معه إلى مرج الصفر ، فانطوت مسالح باهان عليه وأخذوا عليه الطرق فهزم . وتمكن عكرمة من رد باهان فعين أبو بكر شرحبيل بن حسنة بدلا من خالد [3] وكانت هذه الهزيمة بسبب التسهيلات التى قدمها نصارى العرب فى البلقاء للروم بعد أن كان المسلمون قد اطمأنوا إليهم .

ولما سار أبو عبيدة على باب من البلقاء قاتله أهله من نصارى العرب ولما فشلوا فى الحصول على مساعدة الروم صالحوه فكان أول صلح بالشام [4] وهذه الغارات والطلائع المتتالية إلى مشارف الشام أضعفت أثر نصارى العرب فخيل للمؤرخين أن القبائل النصرانية واليهودية سهلت مهمة المسلمين وشجعتهم على

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٤٠٢ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٣٨٩ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٩١ و ص ٤٠٨ .
(٤) الكامل ج ٢ ص ٤٠٥ . الطبرى ج ٣ ص ٤٠٦ .

فتوح الشام [١] وهذا لا يعكس الواقع الصحيح . فقد قاوم النصارى حملات الفتح الإسلامى مع الروم البيزنطيين ولا داعى لعرض أسباب الفتوح التى تنبع من طبيعة الدعوة الإسلامية التى لا تعترف بحدود ولا بفواصل بل يجب أن يستمر تبليغ الدعوة حتى تعم الأرض ومن عليها فى حدود الإمكان .

لقد توالى الاصطدام مع أهل الكتاب النصارى ، فاصطدم خالد بن الوليد بعد قدومه من العراق بغسان وعليهم الحارث بن الأيهم . وكانت **بصرى** أول مدينة بالشام افتتحها خالد بجنود العراق [٢] .

كما اشترك العرب المتنصرة وفيهم القسس والرهبان والبطاركة فى معركة **أجنادين** إلى جانب القوات الرومية التى زادت على مائة ألف ، واستغل الروم عروبتهم فاستعملوا بعضهم عيونا على المسلمين ، فقد أرسل القبقلار أثناء معركة أجنادين رجلا عربيا من قضاعة وهو هزارف ليدخل فى المسلمين ، فأقام فيهم يوما وليلة وأتاه بخبرهم [٣] .

ولما حاصر المسلمون **حمص** اتصل أهل الكتاب من عرب الجزيرة بهرقل وحرضوه على استخلاصها وأمدوه [٤] ووعدوه المقاومة عن أنفسهم ، فتشجع الروم على التحرك المضاد ضد القوات الإسلامية الزاحفة . فأمر عمر بن الخطاب المسلمين بالانسياح فى الشام وغزو **الجزيرة** ليقطع الصلة بين أهل الكتاب فى الجزيرة وبين الروم ، فاستنصر أهل الكوفة لغزو الجزيرة الرقة وقرقيسياء ونصيبين ، وحرّان والرها ، كما أمر سعدا أن يسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ .

فلما بلغ أهل الجزيرة أن الجنود قد ضربت من الكوفة تفرقوا إلى بلدانهم

---

(١) انظر – عبد المنعم ماجد – تاريخ الدولة العربية ج ١ ص ١٧٥ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٤١٠ . ج ٣ ص ٤١٧ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٤١٨ . الكامل ج ٢ ص ٤١٧ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٥٠ . الكامل ج ٢ ص ٤٩١ .

وإخوانهم وخلوا الروم [١] ولما اصطدم الوليد بن عقبة بعرب الجزيرة استجابوا له ونهض معه مسلمهم وكافرهم إلّا إياد بن نزار فارتحلوا بقبيلتهم فاقتحموا أرض الروم [٢] فخاف عمر أن يحذو عرب الشام حذوهم فطلب إلى ملك الروم إخراجهم وهدّده بأن يخرج النصارى من بلاد الإسلام إن لم يفعل ، فخرجوا مع أبي عدى بن زياد ، وخنس كثير منهم وتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم [٣] ، وقد انتشر الإسلام فى الجزيرة بين أهل الكتاب بسرعة فسهلوا فتحها ولذلك يقول الطبرى عن سيف :

« فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً ، فكانت تلك السهولة مهجنة عليهم وعلى من أقام فيهم من المسلمين » [٤] .

ويروى ابن إسحق فى حوادث سنة ١٤ هـ :

دخل أبو عبيدة دمشق فشتا بها ، فلما أصافت الروم سار هرقل فى الروم حتى نزل **أنطاكية** ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي ، وعاملة وتلك القبائل من قضاعة وغسان بشر كثير عليهم جبلة بن الأيهم ، كما انضم بعض المستعربة من النصارى من لخم وجذام للمسلمين ولكنهم غدروا بهم لما رأوا جد القتال وفروا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين [٥] ، فقال قائل من المسلمين :

القوم لخم وجذام فى الهرب ... ونحن والروم بمرج نضطرب

فإن يعودوا بعدها لا نصطحب

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥١ . الكامل ج ٢ ص ٥٣١ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٥ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

(٥) الطبرى ج ٣ ص ٥٧١ .

وفى **اليرموك** كان جبلة بن الأيهم بمن معه من مستعربة الشام على مقدمة باهان [١] أو ماهان [٢] الأرمنى قائد الروم . وتمكن المسلمون من استمالة بعضهم فضعف العدو [٣] وانهزم الروم فى اليرموك فسار جبلة إلى موضعه فى جماعة من قومه فأرسل إليه يزيد بن أبى سفيان : « أن اقطع على أرضك الخراج وأداء الجزية » . فقال : إنما يؤدى الجزية العلوج وأنا رجل من العرب [٤] واستمر كعميل للروم فى مناوراته فأتى عمر بن الخطاب عندما جاء وفتح القدس . فتظاهر بالإسلام . ثم تمرد على حكمه فى قضيته مع الأعرابى الفزارى الذى وطىء ثوبه أثناء الطواف حول الكعبة ، وتسلل هو وأصحابه فى جنح الليل ودخل القسطنطينية على هرقل وأقام عنده ، وأعظم قدومه وأقطعه الأموال والأرضين والرباع [٥] وكان معه من قومه ثلاثون ألفا [٦] فكان الروم موئلا وملاذا لمن يعادى الإسلام ودولته فيذكر الواقدى : أن دمشق لما فتحت لحق كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكيا فخلت بذلك كثير من المنازل فنزلها المسلمون .

أما **تغلب** التى سكنت بلاد ما بين النهرين مثل النمر وقضاعة فقد وفدوا إلى الرسول ﷺ سنة ٩ هـ وأسلم بعضهم ، وعين عمر بن الخطاب الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة كما استعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها [٧] ولعل شرط النبى على تغلب بأن لا يعمدوا أولادهم هو الذى دفع الوليد ألّا يقبل منهم إلا الإسلام [٨] ولكن عمر بن الخطاب منع استخدام أية وسيلة من وسائل

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣٩٥ . الأزدى ص ١٣٤ .
(٢) فتوح البلدان ص ١٤٠ .
(٣) الواقدى – فتوح الشام ج ٢ ص ١٢٤ .
(٤) اليعقوبى – تاريخ – ج ٢ ص ١٤٢ .
(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٥٧ .
(٦) اليعقوبى ج ٢ ص ١٤٧ ويروى أن جبلة طلب من عمر أن يأخذ منه الصدقة كما يصنع بالعرب فرفض إلا الجزية ، فلحق بالروم فى ثلاثين ألفا من قومه .
(٧) الطبرى ج ١ ص ٥٥ .
(٨) يحيى بن آدم – الخراج ص ٦٢ – أبو يوسف – الخراج ص ٦٩ .

الضغط عليهم ومنحهم حرية إقامة شعائرهم الدينية على ألا يقفوا فى سبيل أى فرد من أفراد قبيلتهم فى التحول إلى الإسلام أو يعمدوا وليداً ممن أسلم آباؤهم [١] كما فرض عليهم ضعف الصدقة لأنه أراد أخذ الجزية منهم فانطلقوا هاربين إلى أرض الروم [٢] فقال له زرعة بن النعمان أو النعمان بن زرعة التغلبى :

« أنشدك الله فيهم فإنهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تعين عدوك عليك » . ففرض عليهم ضعف الصدقة وقد بقيت فيهم ظاهرة التعصب للنصرانية قوية فكانوا ينازعون الوليد [٣] فهمّ بهم وقال فى ذلك :

إذا ما عصبت الرأس منى بمشوذ فغيك منى تغلب ابنة وائل

ولما بلغ عمر ذلك خاف أن يسطو بهم وفيه اندفاع الشباب وتهوره فعزله وأمّر عليهم فرات بن حيان وخرج الوليد واستودع مائة من الإبل حريث بن النعمان فاختانها [٤] .

ونال نصارى الشام كثيرا من المميزات فى عهد عمر فكان منهم المخلص الشديد فى إخلاصه والعميل الممعن فى عمالته .

فعندما أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين لفتحها نزل بالحاضر فزحف إليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد فهزمهم وقتل ميناس ، أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وإنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم [٥] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٦ .
(٢) المعارف ص ٥٧٤ . خطط المقريزى ج ٢ ص ١٢٢ .
(٣) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ٩١ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٥٦ . والمشوذ العمامة .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ٦٠١ .

ولما سار حبيب بن مسلمة سنة ١٥ هـ إلى **جرجومة** من أنطاكيا افتتحها صلحا على أن يكونوا عونا للمسلمين (١) .

وقد حاول نصارى الشام أن ينضموا للروم فى **مصر** فى صراعهم مع المد الإسلامى .

فقد رحل جماعة من غسان ولخم وجذام وعاملة وضبة من بنى عم جبلة ابن الأيهم وكبار بلاد غسان وما والاها من البلاد وتوجهوا إلى مصر بعد أن كاتبوا المقوقس ليأذن لهم ولم يجبهم إلى طلبهم وأجابهم القائد الرومانى ، وكان نصيبهم إن كبسهم المسلمون وهم فى طريقهم قبل أن يتمكنوا من الإنضمام لجيش الروم (٢) ويذكر المقريزى : (٣)

إنه كان على تنيس رجل يقال له أبو ثور من العرب المتنصرة فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون فبرز إليهم نحو عشرين ألفا من العرب المتنصرة والقبط والروم فكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبى ثور فى أيدى المسلمين وانهزام أصحابه .

ورغم أن سكان مصر من القبط استقبلوا المسلمين بحماسة وكانوا أعوانا لهم فى **الفرما** (٤) إلا أن بعض المتعصبين للنصرانية وقفوا مع الروم ضد المسلمين ومن أبرز من قام بذلك حنا الماروسى وحنا النقيوسي فقد حاولا عرقلة سير المسلمين ، واستطاع عمرو بن العاص أن يقضى على كتيبة حنا النقيوسى الخضراء عند سفح الأهرام وظفر به فى بلدة بويط من أعمال البهنسا (٥) وأما حنا الماروسى

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٤٩٦ .

(٢) عقد الجمان ج ١٠ ق ٢ ص ٣٦٣ .

(٣) الخطط ج ١ ص ١٧٧ .

(٤) ابن عبد الحكم ص ٥٨ . النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧ . العينى ج ٨ ق ٢ ص ٣٠٧ .

(٥) عكوش ص ١٢٠ . بتلر ص ١٩٧ .

فقد قاتل المسلمين بعد فتح البهنسا فقتل هو ومن معه وانتشل أصحابه جثته من النيل .

كما اشترك قبط مصر إلى جانب الروم أثناء تحرك القوات الإسلامية إلى الإسكندرية فلقيهم عمرو بالكريون وهزمهم وكان فيهم أهل سخا وبلهست والخيس وسلطيس وغيرهم وقد رفدوا الروم وأعانوهم (١) .

أما فى الاسكندرية نفسها فقد أحب القبط الموادعة ، وأما الروم فقد أعدوا لقتال المسلمين فافتتحها عمرو (٢) ونزل فيها عبد الله بن حذافة فى رابطة من المسلمين فراسل النصارى قسطنطين بن هرقل وأخبروه بقلة عدد المسلمين فأرسل منويل فى ثلثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة فدخل الاسكندرية وقتل من فيها من روابط المسلمين إلا من هرب سنة ٢٦ هـ(٣) فعاد عمرو وافتتحها وقتل المقاتلة وسبى الذرية ولكن عثمان أمر برد السبى الذين سبوا من القرى إلى مواضعهم للعهد الذى كان لهم ولم يصح عنده نقضهم (٤) ويروى أن المقوقس اعتزل أهل اسكندرية حين نقضوا فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول ، كما يروى أنه مات قبل هذه الغزاة ويعتبر هذا الفتح الآخر إذ أنها انتقضت مرتين (٥) .

وأما اليهود فقد تظاهروا بالترحيب بدخول المسلمين إلى الشام فصالحهم أبو الأعور فى طبرية (٦) وكانت من أكبر تجمعاتهم فى بلاد الشام كما وقفوا على الحياد فى فتح مصر وكان منهم عدد كبير فى الاسكندرية فقد كتب عمرو بن العاص بعد فتح الاسكندرية : أما بعد :

« فإنى قد فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٢٢ .
(٢) نفسه .
(٣) العينى ج ٩ ق ١ ص ٢٧ .
(٤) الاستيعاب ق ٣ ص ٩٩٩ و ص ١١٨٧ .
(٥) فتوح البلدان ص ٢٢٥ .
(٦) الطبرى ج ٣ ص ٤٤٤ .

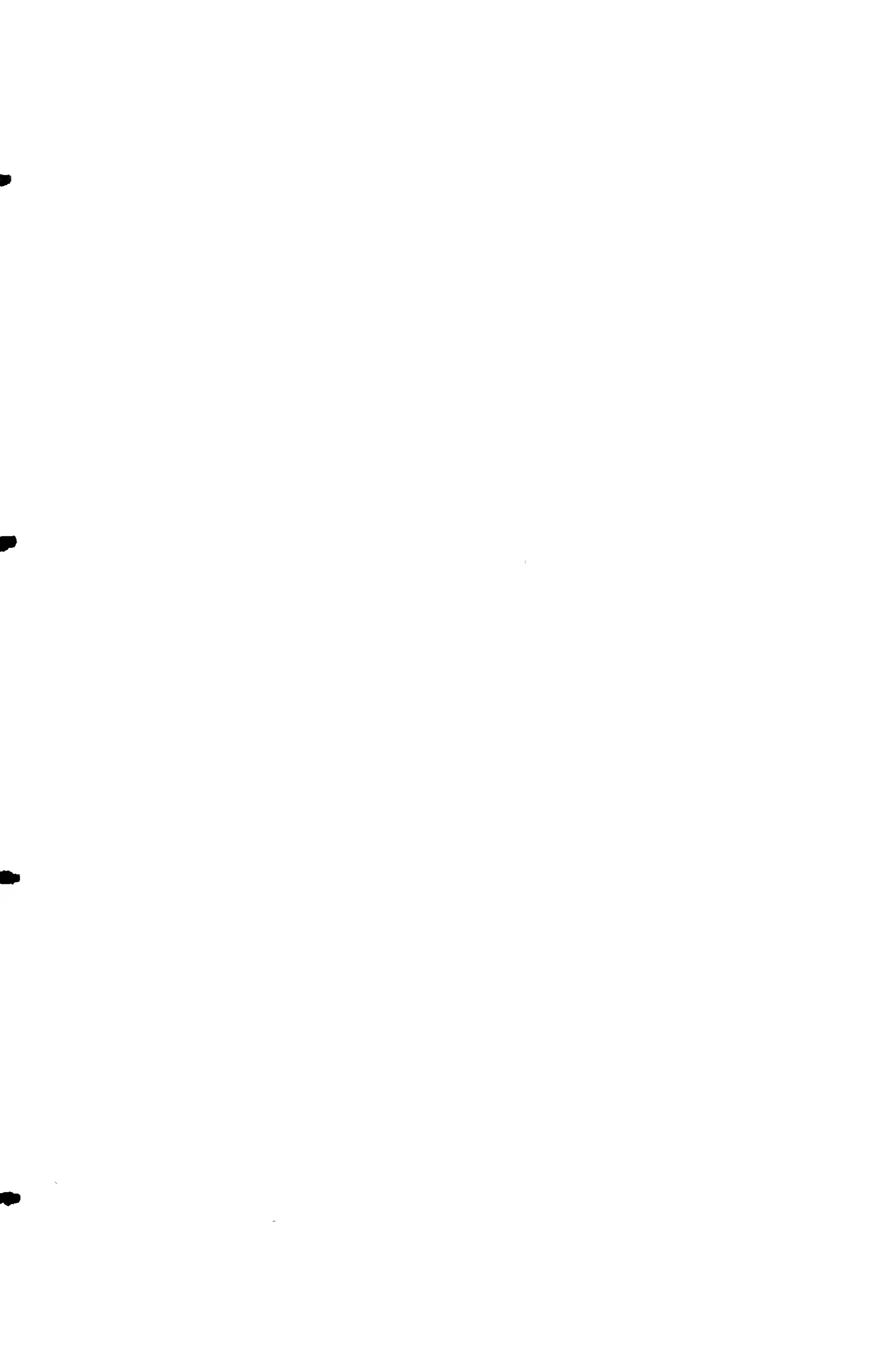
بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية » ، وسمح لهم عمرو بن العاص بالبقاء فى الاسكندرية [١] كما احتفظوا بمواقعهم فى مصر فى أحياء الاسكندرية وعين شمس بجوار منف .

وفى الشام أسكن معاوية جماعة من اليهود فى حصن طرابلس بعد أن افتتحه فى خلافة عثمان [٢] .

* * *

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٦٦ . ابن عبد الحكم ص ٨٢ .
(٢) الكامل ج ٢ ص ٢٣١ .



الفصل الثانى

أثــر أهل الكتاب فى الفــتن فى عهد الخلفاء الراشــدين

أ – مؤامرة اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ب – فتنة الأمصار واستشهاد عثمـــان رضي الله عنه .

ج – النــزاع بــين الصحــابـــة رضي الله عنهم .

* * *

(أ) مؤامرة اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

بدأ المد الإسلامى وتخطى الجزيرة بعد حركة الردة فأسلم عدد كبير من أهل الكتاب واستظلوا بسماحته وازدادوا به شرفاً وعزاً وكان بعضهم غير صادق النية فاستمروا يكيدون الإسلام من خلال تظاهرهم به فبدأوا بالتخطيط لاغتيال الخليفة متعاونين مع المجوس . وكان من الذين اقترن اسمه بحادثة الاغتيال :

كعب الأحبـــار :

وهو ابن مانع من حمير من آل ذى رعين ويكنى أبا إسحق [١] وكان يهوديا [٢] درس التوراة وتعمق فيها وعلى درجة من الذكاء والدهاء . رأى الإسلام يعلو ويفشو أمره لا يقف فى سبيله دين ولا قوة فأسلم وهو على يقين من أن إسلامه سيكسبه عزاً لم يكن له فى قومه وبين اليهودية فى عهده ، وكان يقرأ التوراة بلسان غير لسان العرب وفى أسفارها من المعميات والألغاز ما لا يفقهه العربى ولو تعلم العبرية فهى مجال فسيح للاختلاق أخذ يلقيه على المسلمين يفسد عليهم أمرهم ويبدل نقاوة دينهم وصفاء عقيدتهم كالذى فعله بولس الرسول بالمسيحية الأولى[٣] .

وكان قد تأخر فى إسلامه إلى عهد عمر فأسلم سنة ١٧ هـ[٤] فى اليمن بعد أن تجول فيها وفى نجران وخيبر وجبال اللكام فى الشام ، فاتصل بالأحبار والرهبان فى هذه الأنحاء[٥] ، وكان تأخره فى إسلامه مثار شبهة فطن لها عمر بن الخطاب فأظهر شكه فى مواقفه فى أكثر من مرة ولأكثر من مناسبة ، فروى أنه قال : « ياكعب أدركت النبى ﷺ وقد علمت أن موسى بن عمران تمنى أن يكون فى أيامه فلم تسلم على يده ، ثم أدركت أبا بكر وهو خير منى فلم تسلم على يده ثم أسلمت فى أيامى » . فقال : « يا أمير المؤمنين لا تعجل علىّ فإنى كنت أتثبّت حتى أنظر كيف الأمر فوجدته كالذى فى التوراة » [٦] . وأخذ

---

(١) المعارف ص ٤٣٠ .
(٢) الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦ . العينى ج ٩ ق ١ ص ١٣٨ .
(٣) المعارف ص ٤٣٠ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٥٩ . العينى ج ٩ ق ١ ص ١٣٨ .
(٥) مخطوطة : إسلام كعب الأحبار – ضمن مجموعة ورقة ١٧٥ – ١٧٨ .
(٦) النويرى – نهاية الأرب ج ١٦ ص ١١٨ – ١١٩ .

يتقرب إلى عمر يحاول إيهامه أنه يملك علم الغيب وأنه يستمد هذا العلم من التوراة ودون أن يتجرد من يهوديته فكان يحاول إظهارها فى كل مناسبة يحاول أن يسرب رأياً خطيرا للمسلمين هو : أن التوراة فيها العلم من الأزل ، مستغلا عدم معرفة العرب بالعبرية ومؤوّلا الآية الكريمة : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [(١)] فأخذ بترديد الفكرة أنه هو من أهل العلم المقصود به فى الآية الكريمة واستطاع أن يكوّن فئة تأتمر بأمره وتشيع ترهاته وعلومه ، فهو كيهودى يقول : « نظرت فى التوراة الشريفة فاستخرجت منها اثنتي عشرة كلمة وعلقتها فى عنقى ما من يوم إلا نظرت فيه ثلاث مرات » [(٢)] ويذكر سيد المرسلين فيقول :

« مكتوب فى التوراة محمد رسول الله مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام لافظّ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، أمته الحامدون يكبرون الله على كل نجد ويحمدون فى كل موطن يوضئون أطرافهم ويتزرون على أنصافهم رهبان بالليل ليوث بالنهار وتسمع مؤذنهم فى جو السماء وأصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل فى غاره صفهم فى الصلاة كصفهم فى القتال » [(٣)] .

بدا كعب حركته فى اليمن بين حمير وهمذان ، ولما قدم المدينة اكتسب عطف واحترام كثير من الصحابة بما أظهره من علم نال إعجابهم وفى الشام استطاع أن يكتسب كثيرا من النفوس ، وبعد أن سكنها [(٤)] التف حوله جماعة تعجب به وتدافع عنه من أهل الدين والصلاح وممن يسمون أنفسهم أهل العلم ، فأشاعوا علمه وبالغوا فى نقل صورة تقواه ، فكان معه : نواف البكائى وهو ابن امرأة كعب ، عاش بالشام . وتبيع وهو ابن امرأة كعب أيضا قرأ الكتب وسمع كثيرا من كعب [(٥)] وكان قد أسلم قبله فى زمن أبى بكر [(٦)] . وذو الكلاع وهو ابن عم كعب أسلم على يد جرير بن عبد الله البجلى وقام بأمر معاوية فى حرب

---

(١) الأنبياء الآية ٧ .

(٢) المخطوطة – سبب إسلام كعب ورقة ١٥٨ .

(٣) ابن عساكر مجلدا ج ٣ ص ١٧٧ فهو يمتدح رسول الله ﷺ ليسرب أفكاره بسهولة بين المسلمين .

(٤) المقريزى – الخطط ج ١ ص ٢٠٦ .

(٥) الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ١٦٠ .

(٦) الإصابة ج ١ ص ١٩٥ .

صفين [١] كما أعجب به من الصحابة أبو الدرداء فقد ذكره بقوله : « إن عند ابن الحميرية لعلما كثيراً » [٢] .

وقد أحس عمر منه خطرا وهو فى الشام فسأله : « ألا تتحول إلى المدينة فيها مهاجر لرسول الله ﷺ وقبره » ؟ فقال كعب : « إنى وجدت فى كتاب الله المنزل ياأمير المؤمنين أن الشام كنز الله فى أرضه وبها كنزه من عباده » [٣] .

وكان لا ينى عن ذكر الشام وكأنه يؤسس للحركة الصهيونية فى اتخاذ فلسطين منطلقا لتثبيت فكرتها فى نفوس اليهود فعن أبى عروبة قال : بلغنى عن كعب أنه قال : مكتوب فى التوراة أن الشام كنز الله عز وجل يسكنها كنزه من عباده ، يعنى بها قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إبراهيم وإسحق ويعقوب [٤] .

ولما افتتح عمر بيت المقدس وكشف عن الصخرة قال لكعب : أين ترى نجعل المصلى ؟ قال : إلى الصخرة . فقال : ضاهيت والله يا كعب اليهودية ، بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله ﷺ قبلة مساجدنا صدورها فأنا لم نؤمر بالصخرة ولكن أمرنا بالكعبة [٥] .

وأما فى مصر فقد استقر كعب بين همذان التى استحبت الجيزة فسكنتها [٦] وغير خاف أن همذان كان بينها كثير من أهل الكتاب ، وخاصة من اليهود ولم يمت كعب فى حمص أو الجيزة [٧] إلا وقد وجدت فئة يسيرون على نهجه منهم المسلم الصادق النية الذى صدقه على أنه من أهل العلم ومنهم من عرف قصده فسار على نهجه لتقويض دعائم الإسلام .

إجــلاء عمر لأهل الكتاب عن الجزيرة :

لم يكتف عمر بتقويض ملك فارس والروم بل نفذ ما أمر به الرسول ﷺ

---

(١) انظر ابن أعثم – الفتوح ج ٣ – الاستيعاب ق ٢ ص ٤٧٢ .
(٢) ابن سعد – الطبقات ج ٢ ق ٢ ص ١٥٦ .
(٣) ابن عساكر ج ١ ص ١٠٩ .
(٤) نفسه .
(٥) الأنس الجليل ج ١ ص ٢٢٦ . الطبرى ج ٣ ص ٦١١ .
(٦) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٠٦ .
(٧) ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٥٦ – المقريزى – خطط ج ١ ص ٢٠٦ .

من إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، ولم يمنع الرسول وأبا بكر أن يقوما بمثل هذه الخطوة إلّا كون أهل الكتاب من رعايا الدولة الإسلامية أهل الذمة ومن واجب المسلمين العناية بهم وحمايتهم ، ولم تكن الدولة قد اتسعت بعد لتشمل أجزاء خارج الجزيرة فلما اتسعت سارع عمر بن الخطاب بتنفيذ أمر رسول الله الذى قال فى مرضه :

« قاتل الله اليهود والنصارى ، لا يبقين دينان بأرض العرب » (١) وقال أيضا : « لا يجتمع بجزيرة العرب دينان » (٢) .

ويظهر تصميم الرسول ﷺ على إجلائهم بقوله :

« لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلّا مسلماً » (٣) كذلك أوصى أبو بكر رضى الله عنه فى مرضه بذلك (٤) .

إجلاء يهود خيبر :

أقر الرسول ﷺ يهود خيبر بالرغم من استمرارهم فى المؤامرات التى تعرضنا لها فى الباب الأول باعتبارهم من رعايا الدولة الإسلامية ولكنه لم يقرّهم إقراراً لازماً فقد قال لهم :

« إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم وأقركم ما أقركم الله » (٥) . كما أقرهم أبو بكر بعده وعمر صدراً من إمارته (٦) وكانوا قد استمروا فى تآمرهم فعن الواقدى قال : أقبل مظهر بن رافع الحارثى بأعلاج من الشام ليعملوا له فى أرضه فلما نزل خيبر أقام بها ثلاثا فحرضت

---

(١) الطبقات ج ٢ ق ٣٥ وص ٤٤ .
(٢) الكامل ج ٢ ص ١٥١ . فتوح البلدان ص ٤١ . السيرة ج ٤ ص ٢٧٣ (لا يترك) .
(٣) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٦٠ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٤٤٦ .
(٥) السيرة ج ٣ ص ٣٠٩ . الأحكام لابن الجوزية ص ١٨١ . المغازى ج ٢ ص ٧١٧ الكامل ج ٢ ص ١٥١ .
(٦) المغازى ج ٢ ص ٧١٦ / الاستيعاب ص ١٤٧٧ / السيرة ج ٣ ص ٣١٠ .

اليهود الأعلاج على قتل مظهر ودسوا لهم بسكينين أو ثلاثا فلما خرج من خيبر وثبوا عليه فبعجوا بطنه وقتلوه ثم انصرفوا إلى خيبر فزودتهم يهود وقرتهم حتى لحقوا بالشام [١] كما اعتدى يهود خيبر على عبد الله بن عمر أثناء نومه بخيبر ففدعوا يده [٢] فأصبح المسلمون لا يأمنون البقاء هناك ، فقام عمر خطيباً وقال : إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أموالهم وقال : « نقركم ما أقركم الله تعالى » وأن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدى عليه من الليل ففدعت يداه ورجلاه وليس هناك عدو غيرهم ، هم عدونا وتهمتنا وقد رأيت إجلاءهم . وأخبر المسلمين قائلاً :إنى خارج إلى خيبر وقاسم ما كان لهم من الأموال وحادّ حدودها ومجلى اليهود منها .

فلما أجمع رضى الله عنه على إجلائهم سنة ٢٠ هـ [٣] أو ٢١ [٤] أتاه أحد بنى الحقيق فقال : يا أمير المؤمنين أتخرجنا وقد أقرنا محمد وعاملنا على الأموال وشرط ذلك لنا ؟ فقال عمر : أظننت أنى نسيت رسول الله ﷺ : كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة . فقال :

كانت هذه (هزيلة) من أبى القاسم . فقال : كذبت ياعدو الله [٥] . ثم قال عمر لليهود : « فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من يهود فليأتنى به أنفذه له ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله فليتجهز للجلاء [٦] وذهب وأعطاهم قيمة ما كان لهم من التمر إبلا ومالا وعروضا من أقتاب وحبال وغير ذلك [٧] وأجلاهم إلى الشام وقسم خيبر بين المسلمين [٨] ثم وجه بعد ذلك

---

(١) المغازى ج ٢ ص ٧١٦ . الاستيعاب ص ١٤٧٧ . السيرة ج ٣ ص ٣١٠ .
(٢) السيرة ج ٣ ص ٣١٠ . ابن الجوزية ص ١٨١ .
(٣) الكامل ج ٢ ص ٣٩٨ . الواقدى – المغازى ج ٢ ص ٧١٦ .
(٤) الكامل ج ٢ ص ٣٩٨ .
(٥) ابن الجوزية – الأحكام ص ١٨١ .
(٦) السيرة ج ٣ ص ٣١٠ . المغازى ج ٢ ص ٧١٧ .
(٧) فتوح البلدان ص ٤٢ .
(٨) الأنساب ج ٩ ورقة ٥٩٤ . صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٧ .

أبا الهيثم مالك بن التيهان أو سهل بن أبى حتمة وزيد بن ثابت إلى يهود فدك فقوّموا نصف تربتها بقيمة عدل . فدفعها إلى اليهود وأجلاهم إلى الشام [١] أيضا وفعل بيهود وادى القرى كذلك ، كما أجلى يهود نجران إلى الكوفة [٢] .

وقد اتخذ المستشرقون من إجلاء عمر ليهود الحجاز وسيلة للطعن على الخليفة العادل فذكر حتى : أن عمر أجلى يهود خيبر فيمن أجلاهم بالرغم من عقود الأمان فالتجأوا إلى أريحا وسواها [٣] دون أن يسأل نفسه فى ظل من كانت أريحا وبلاد الشام ؟ ألم تكن فى ظل الخلافة الإسلامية ؟ ألم يعوضهم عما فقدوه من أراضى ، لقد أجلاهم من أرض إسلامية إلى أخرى إسلامية من جزيرة العرب إلى الشام [٤] ولم يكن الجلاء بالذى يضر باليهود والنصارى بل كان أكثر فائدة لهم انطلقوا به إلى مدى أوسع وأرحب وأشمل ، وتمكنوا من الانفتاح الاقتصادى فأظهروا نشاطا ، كما تمكنوا من الانضمام إلى جماعات أخرى منهم فتمكنوا من بث سمومهم وخاصة من تظاهر منهم بالإسلام بين حديثى العهد بالإسلام . ومارس اليهود نشاطهم الاقتصادى فى الشام والعراق ومصر ، كما تمتع أهل الكتاب عموما فى رعاية دولة الإسلام فى عهد عمر بما تفرضه مبادىء الإسلام من عدالة ومساواة فأوصى بحسن معاملتهم .

وكثر اليهود فى الحيرة بمن رحل إليها زمن الرسول ﷺ وأثناء حركة الردة وممن أجلاهم عمر من الحجاز واليمن واشتغلوا بالزراعة وبسائر الحرف وحازوا الثراء وقد أثار المهاجرون سنة ٢٠ هـ نفوس السابقين في هذه الأمصار وامتلأ الجميع حقداً على دولة الإسلام وعلى عمر بالذات بتنقّل أحبارهم ورهبانهم بينهم .

إجلاء النصارى :

كان نصارى نجران من أكبر التكتلات النصرانية فى الجزيرة وقد سارعوا

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٢ . المغازى ج ٢ ص ٧٠٧ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ١١٢ . الكامل ج ٢ ص ٣٩٨ .
(٣) حتى ج ١ ص ٢٢٦ .
(٤) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٢٠٣ .

لتجديد العهد بعد أن علموا بوفاة الرسول ﷺ ، وكانوا يومذاك أربعين ألف مقاتل من بنى الأفعى الأمة ، الذين كانوا بنجران قبل بنى الحارث ، فكتب أبو بكر لهم كتابا (١) .

ولما بدأت موجة الفتوحات الإسلامية طبق عمر مبدأ التحشد تطبيقا (٢) رائعا فاستنفر المسلمين من اليمن فتتابع المجاهدون إلى الأمصار فخشي عمر على مسلمى اليمن من أهل نجران الذين استغلوا ظروف المسلمين بانشغالهم بالجهاد فأصابوا الربا وكان الرسول ﷺ قد صالحهم على تركه فنقضوا بذلك العهد (٣) وكثر عددهم (٤) ، ولما اختطت الكوفة حوالى سنة ١٧ هـ (٥) بعث يعلى بن أمية إلى اليمن وأمر بإجلاء أهل نجران لوصية الرسول ﷺ وقال : ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه ، وأقرر المسلم وامسح أرض كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله ألّا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ثم تعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف (٦) .

وكتب إلى عماله يوصيهم بهم : « من وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض وما اعتملوا من شيء فهو لهم » (٧) .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٣٢١ .
(٢) محمود شيت خطاب – الفاروق القائد ص ٩١ .
(٣) ابن الجوزية ص ١٨٠ .
(٤) فتوح البلدان ص ٧٧ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٤٠ . الكامل ج ٢ ص ٢٠١ .
ويذكر الطبرى عن سيف أن أول بعث بعثه عمر بعث أبى عبيد إلى العراق ثم بعث يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران لوصية الرسول ﷺ فى مرضه بذلك ولوصية أبى بكر رحمه الله بذلك فى مرضه .
(٦) الطبرى ج ٣ ص ٤٤٦ . الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٨٥ .
(٧) فتوح البلدان ص ٧٧ .

فنزل بعض نصارى نجران الشام ونزل بعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت [١] .

ويلاحظ أن عمر رضى الله أجلى التكتلات لا الأفراد ، وقد أوصى بأهل الذمة خيراً وهو على فراش الموت : « أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيرا ، يوفى لعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم » [٢] .

ووجود الأفراد جعل بعض المؤرخين [٣] يظنون أن الجلاء اقتصر على المواقع التى تعرضت فيها جاليات أهل الكتاب للإسلام بسوء ، فنجد فى المدينة أمثال أبى لؤلؤة وجفينة من أهل الكتاب ، ويظهر أن إجراء عمر كان سياسيا عسكريا قصد به التخلص من التكتلات الخطيرة لأهل الكتاب وحرمان الفرس والروم والحركات المناوئة مساعدتهم فى الدس والجاسوسية فى مهد الإسلام . فكأنما نظر الرسول ﷺ فى حجب الغيب ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى ﴾ فأدرك أن العرب المسلمين سيتفرقون فى البلدان فاتحين رافعين لراية الإسلام ويبقى أهل الكتاب فى أرض الجزيرة فتزيد نسبتهم فيصبحون شوكة بين المسلمين فكانت الحكمة الرائعة فى أن لا يبقى دينان بأرض العرب فتكون فتنهم خارج مهد الإسلام وحول مراكز القوى فيسهل على المسلمين التصدى لهم ولمؤامراتهم فتفرقوا فى الشام والعراق ومصر وفى قلوب بعضهم حقد وحسد على الإسلام ودولته ، وتمكنوا لعربيتهم من إثارة بعض أهل الكتاب فى هذه الأمصار ضد الإسلام ودولته ، كما أن لتظاهر بعضهم بالإسلام تمكنوا أن يسللوا الأفكار الهدامة إلى من أسلم حديثاً ممن كان فى أصله من أهل الكتاب ، كما غذوا الحاقدين على العرب أو على قريش خاصة بالأفكار المسمومة ، فوجدت التناقضات طريقها إلى هذه

---

(١) الأنساب ج ٩ ورقة ٥٩٤ . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٠٣ .
(٢) يحيى بن آدم الخراج ص ٧٠ .
(٣) جواد على – العرب قبل الاسلام ج ٦ ص ٨١ وحتى – تاريخ العرب – ج ١ ص ٨٠١ .

الأمصار ، ولكن شخصية عمر القوية كانت تقف حائلا أمام مخططاتهم فكان يرسل المعلمين لمن دخل الإسلام يعلمونهم القرآن ويفقهونهم فى الدين ، كما أمر العمال أن يحرصوا على أن جميع المسلمين يواظبون على حضور صلاة الجماعة لا سيما أيام الجمع وفى شهر رمضان (١) فأخذ الحاقدون يحاولون التخلص من هذه الشخصية القوية التى تحدّ من تسللهم ومن تحقيق أطماعهم .

أهل الكتاب فى الأمصار :

ولما مصرت **الكوفة** (٢) فى العراق اتخذها المسلمون دار هجرة لمن مع سعد ابن أبى وقاص من العرب لا بحر بينها وبين عمر (٣) وكانت تضم ثلاثة أديرة : دير حرقة ودير أمّ عمرو ودير سلسلة (٤) فكانت تضم بعض أهل الكتاب من النصارى ، كما ضم الجيش الإسلامى الذى سكنها عددا منهم أو من أسلم منهم كالتغلبيين ومن أطاعهم من النمريين والأياديين الذين قدموا إلى سعد بالمدائن وخطّوا معه الكوفة (٥) فتفرق أهل كتاب الجزيرة بسهولة بين أسباع الكوفة لأن كل سبع كان يحوى بعضهم أو بعض من تظاهر بالإسلام . وهذه الأسباع (٦) : كنانة وحلفاؤها الأحابيش وغيرهم وجديلة ، وهم بنو عمرو بن قيس عيلان سبعا . وقضاعة ومنهم غسان بن شبام وبجيلة وخثعم وكندة وحضرموت والأزد سبعا . ومذحج وحمير وهمذان سبعا . وتميم والرّباب وهوازن سبعا . وأسد وغطفان ومحارب والنمر وحنيفة وتغلب سبعا . وإياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء

---

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٦ . ابن عساكر ج ٢ ص ٩٤ . ارنولد – الدعوة إلى الإسلام ص ٦٩ .

(٢) سميت الكوفة لأنها من رمل وحصباء ، وكل رمل وحصباء فهو كوفة . الكامل ج ٢ ص ٥٢٨ . الطبرى ج ٤ ص ٤١ .

(٣) الأخبار الطوال ص ١٢٤ . فتوح البلدان ص ٢٧٥ .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٤١ .

(٥) نفسه ص ٤٠ .

(٦) نفسه ص ٤٨ .

سبعا . وقد كثر أهل الكتاب فى السبع الأخير . وقد ضموا الحمراء وكانوا حلفاء زهرة بن حوية ينزلون معه وعدتهم أربعة آلاف جندى فارسي يسمّون جند شاهنشاه فآستأمنوا يوم القادسية على أن ينزلوا حيث أحبوا ويفرض لهم فى العطاء فأعطوا الذى سألوه وكان لهم نقيب يقال له ديلم فقيل لهم : حمراء ديلم [١] كما نزلها كثير من أهل نجران النصارى واليهود الذين أجلاهم عمر فى نجرانية الكوفة .

فتجمعت فى الكوفة كافة التناقضات – أهل الكتاب والفرس والقبائل العربية المعتزة بقبليتها والبدوية الجلفة من أصحاب حركه الردة . ووضع كهذا يجمع الناس على شكل قبائل – يمكن دعاة الفتنة أن يجدوا آذانا صاغية لإثارة التناقضات ، كما يمكن للقائد الواعى كعمر أن يضرب على أيديهم بواسطة زعماء قبائلهم عن طريق مراقبتهم واستمالتهم وإرهابهم لأن القبائل تبع زعمائها : فالأمر فى ظل هذا الوضع يعتمد على يقظة الأمير وعزيمته وقوته ، وكان عمر من الفطنة ما يجعله يحتاط من الفتن ، وما رضاؤه بهذا التقسيم إلا وسيلة لمنع الفتن ومرحلة فى سبيل الاندماج التام .

وفى **البصرة** [٢] عندما اختطها المسلمون سنة ١٤ هـ [٣] سكنها المسلمون وكثر غناؤهم بفتح الأبلة ودست ميسان [٤] فرغبها الناس فأتوها وكان كثير منهم طلاب غنى كما كان الأوائل طلاب جهاد ، فوفدت أخلاط من القبائل وأخلاط من الأفراد الطامعين والتجار فازداد عدد سكانها وتسلل كثير من أهل الكتاب بين أهلها وتظاهر بعضهم بالإسلام فكانت موطن فتنة على الولاة . وفى ولاية أبى موسى الأشعرى سترت امرأة من بنى سليم يقال لها الخضير بيتها كما تستر الكعبة فأمر عمر أبا موسى بنزع ستورها فنزعه [٥] .

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٧٩ .

(٢) أصوب ما قيل فى تسميتها : أن ابن السهل والرمال عندما أطلّ على تلك البقاع قال : إنها أرض ذات بصرة ، أى ذات حجارة رخوة طيبة . فتوح البلدان ص ٣٤١ . على الشرق – العرب والعراق ص ٥٢ .

(٣) المعارف ص ٥١٣ . الطبرى ج ٣ ص ٥٩٠ . الإدريسي ص ٣٨٣ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٥٩٥ .

(٥) الأنساب ج ٩ ورقة ٦٢٤ .

وانتشر أهل الكتاب فى **أجناد الشام** وفى **فسطاط مصر** ، فكانوا يكونون فئات فى كل منها تلتف حولهم ويستمعون منهم ، وكنوع من الاحتياط كتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى والى البصرة يأمره أن يتخذ للجماعة مسجداً ويتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة وشهدوا الجمعة . كما كتب قبل ذلك إلى سعد بن أبى وقاص والى الكوفة وإلى عمرو بن العاص والى مصر ، وأمّا أجناد الشام فأمرهم ألّا يتبدّدوا إلى القرى ويتركوا المدائن وأن يتخذوا فى كل مدينة مسجداً واحداً ولا يتخذوا للقبائل مساجد (١) . وقد علل ابن عساكر هذا الفرق بين أجناد الشام والأمصار الأخرى أنه أراد بالمسجد ، المسجد الأعظم الذى تقام فيه الجمعة ، وإنما فرق بين مدائن الشام وبين الكوفة والبصرة أن كلّ نزْل نزلت قبيلة فاختطته فهو بمنزلة مصر منفرد ، وكذلك مصر فالقبائل فيها تفرقت واختطت خططا نسبت إليها فاشتبه حكمها بحكم البصرة والكوفة (٢) .

عدل عمر فى أهل الكتاب وتسارعهم إلى الإسلام :

ولما جرب أهل الكتاب فى الشام نظام الإسلام وعدله أعجبوا به وأحبوه وارتضاه معظمهم نظاما أو دينا . فقد كتب النصارى إلى أبى عبيدة وهو بفحل يعلنون إعجابهم بعدل المسلمين وإن كان الروم على دينهم (٣) ، وعندما آنسحب المسلمون من حمص فى خطة عسكرية محكمة رد خالد إلى أهل حمص الجزية فأعجب أهل حمص وغلقوا أبوابها دون جيش هرقل (٤) فغلب حب المسلمين على مشاعر أهالى الشام .

ولما سلّم صفرونيوس القدس للخليفة عمر منحهم عمر أماناً (٥) فأبى أحد اليهود إلّا أن يرى فى هذه المناسبة فرصة يظهر فيها علمه وكأنه كان على وعى

---

(١) ابن عساكر ج ٢ ص ٩٤ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ٩٥ .
(٣) الأزدى ص ٩٧ . أرنولد ص ٧٣ .
(٤) فتوح البلدان ص ١٣٧ .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ٦٠٩ .

بالسياسة ومجرياتها فى عصره فيقول فى الجابية : يا أمير المؤمنين : لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيليا . ومثله يذكرنا بحال الصهيونية اليوم التى تمتد أذرع أخطبوطها فى مختلف أجزاء العالم بوعى سياسى .

ويتم كعب الأحبار دور هذا اليهودى فى بيت المقدس نفسها - إذ يكبر فيكبر الناس بتكبيره - وقال لعمر : يا أمير المؤمنين إنه قد تنبّأ على ما صنعت اليوم نبى منذ خمسمائة سنة . فقال : وكيف ؟ (١) فحدثه عن بنى إسرائيل وإدالة دولتهم على يد الروم .

وساعد عرب غزة المتنصرة المسلمين فى فتح غزة وغيرها من المدن كما اشتركوا معهم فى قتال الروم ، ولابد من وجود العملاء بينهم يضطغنون الحقد على الإسلام والمسلمين ، وكان عمر على بينة بأساليب الروم فى بث العملاء وطرق استمالتهم ، فكان حريصا على الفرد المسلم من الغواية والفتنة ، فعندما أسر الروم عبد الله بن حذافة بن قيس فى الاسكندرية أرسل إلى قيصر يتوعّده بأن يغزوه بنفسه إن لم يخل سبيل عبد الله فخلاه (٢) .

وبقيت تغلب شديدة التمسك بالنصرانية فوجد بين أفرادها من يحقد على خليفة المسلمين ومن يخطط أو يشترك فى مؤامرات ضده ، رغم المعاملة الحسنة التى عاملهم بها الخليفة التى تظهر فى قصة العاشر والتغلبى (٣) المشهورة .

واهتم عمر رضى الله عنه بأماكن النصارى المقدسة فى بيت المقدس ، وغيرها حتى أنه امتنع من الصلاة فى كنيسة القيامة عندما حضرته الصلاة وهو بها خوفا أن يتخذ المسلمون صلاته ذريعة وحجة يستولون بها على الكنيسة .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٦١١ - ٦١٢ . [والخبر من الاسرائيليات الواضحة فكعب لم يكن قد أسلم بعد] .

(٢) الأنساب ج ٩ ورقة ٥٧٢ ، الإصابة ج ٢ ص ٢٨٨ . أسد الغابة ج ٣ ص ٢١٣ .

(٣) الأنساب ج ٩ ورقة ٦١٢ . / يحيى بن آدم - الخراج - ص ٦٤ رقم ٢١١ .

وتظهر سياسته تجاه النصارى فى العهدة العمرية [١] وهى شروط اشترطوها فى كتاب كتبوه إليه مع زيادة زادها .

وقد درس العهدة محمد حميد الله [٢] فاستخلص منها : إن العهدة وردت بعدة روايات :

الرواية الأولى : أن أهل الجزيرة هم الذين كتبوا إلى عبد الرحمن بن غنم ثم كتب عبد الرحمن إلى عمر .

الرواية الثانية : أن عبد الرحمن كتب مباشرة لعمر حين صالح نصارى الشام .

الرواية الثالثة : أن عبد الرحمن إنما صالح النصارى على شروط فى كتاب لعمر . ولم يذكر عبد الرحمن اسم المدينة التى جرى فيها هذا العهد بل اكتفى بعبارة غامضة شديدة الإبهام هى قوله : هذا كتاب لعمر من نصارى مدينة كذا وكذا .

كما درسها بالتفصيل تورتون وكانت أساسا لكتابه أهل الذمة فى الإسلام وملخص دراسته [٣] قوله :

أولا : لم تجر العادة أن يشترط المغلوبون الشروط التى يرتضونها ليوادعهم الغالب .

ثانيا : من الغريب أن يحرم المسيحيون على أنفسهم تناول القرآن هم وأولادهم بأية صورة من الصور ومع ذلك يقتبسون منه فى خطابهم للخليفة فى قولهم : « أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

ثالثا : إن العهد ينسب تارة إلى عمر وأخرى إلى قائده ، وقد لا يكون هذا عجيبا فربما أنه صدر من القائد ثم صادق عليه الخليفة .

---

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٥٧ – ٣٦٠ . شرح الشروط العمرية لابن القيم الجوزية .

(٢) مقدمة أحكام أهل الذمة ص ٤٤ .

(٣) تورتون ص ١١ – ١٣ .

رابعا : الأمر المستغرب من الوجهة العامة أنه عهد لم ينص فيه على اسم البلد .

ولذا فيساور الشك تورتون فى نسبة هذا العهد لعمر [١] . ويرجح جورجى زيدان أن عمر كتب عهدا لنصارى الشام أو استكتبهم عهداً إن لم يكن هذا نصه فهو فحواه ولا يستبعد وقوع بعض التغيير فى نصه بعد ذلك [٢] وهذا ما نراه .

وللدعاية المنظمة من أهل الكتاب بين اليمن نزعوا إلى الشام فى الوقت الذى نزعت فيه مضر إلى العراق . فقال عمر لهم : أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام [٣] والواقع أن اليهودية والنصرانية كانت أكثر رسوخا فى الشام من العراق مما جعل مجالا للدعاية ، وهذا يفسر لنا خروج كعب من اليمن ثم ابن سبأ وامتداد أثره إلى كندة والسكون [٤] .

وفى مصر خططت الخطط بأمر من عمر بن الخطاب فاستحبت همدان ومن والاها الجيزة فكتب عمرو بن العاص إليه يعلمه ما صنع الله للمسلمين وما فتح عليهم وما فعلوا فى خططهم وما استحبت همدان من النزول بالجيزة فكتب إليه عمر يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له : « كيف رضيت أن تفرق أصحابك لم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر ، ولا تدرى ما يفجأهم فلعلك لا تقدر غياثهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم إليك فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا » . فعرض عليهم عمرو أن ينضموا إلى

---

(١) تورتون ص ١٠٣ .
(٢) التمدن الإسلامى ص ١١٥ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٤٨٧ .
(٤) انظر حذر عمر بن الخطاب من أثر تسللهم / فى الطبرى ج ٣ ص ٤٨٦ ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٤ .

الفسطاط فقالوا : « مقدم قدمناه فى سبيل الله ما كنا لنرحل إلى غيره » [١]
فأصبحت همدان ملجأ لمؤامرات أهل الكتاب الذين تظاهروا بالإسلام فى الجيزة
وموئلاً لكعب الأحبار وابن سبأ وغيرهما من اليهود .

وقد سار عمرو بن العاص سيرة عمر بن الخطاب فى مصر فشمل النصارى بحمايته فقد كان المصريون الأقباط حين دخل عمرو بن العاص يعانون الكثير من اضطهاد البيزنطين بسبب الخلافات المذهبية ، وقد أدى ذلك إلى هروب بنيامين بطريرك الأقباط واختفائه فى مغاور وكهوف الصحراء ، ولما علم بقدوم المسلمين استبشر بزوال الحكم البيزنطى وطلب من أتباعه مساعدة المسلمين [٢]
وبعد انتصار المسلمين استقدم عمرو بن العاص بنيامين وأمّنه ، فأخذ ذلك البطريرك يعمل بلا كلل لتقوية الكنيسة اليعقوبية ، ويعيد تأسيس الأديرة والكنائس التى هدمت قبل الفتح الإسلامى . كما أرسل مطرانا جديدا إلى الحبشة ، فبدت عمارات وادى هبيب والمنيا وكانت آخر أعماله تأسيس كنيسة جديدة للقديس مكاريوس فى وادى النطرون .

وقد عبر ساويرس تعبيرا صادقا عن فرحة القبط بقوله :

« وكانت أعمال الأرثوذكسية الصالحة تنمو وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلّ رباطهم وأُطلقوا على ألبان أمهاتهم » [٣] .

فكانت تلك المعاملة مدعاة لحقد أحبار أهل الكتاب ورهبانهم من أصحاب المصالح ومن المخالفين لمذهب القبط والموالين للروم . فحاول بعضهم التقرب إلى عمرو بن العاص فأبقاهم على أعمالهم كميناس الذى كان هرقل ولاه على المنطقة الشمالية من البلاد ، فجمع بين الأمّية والفظاظة وشدة البغض

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٠٦ . ابن عبد الحكم ص ١٢٨ .
(٢) انظر ابن عبد الحكم ص ٥٨ ، ٥٩ ، ص ٧٣ ، ٧٤ – تاريخ ابن البطريق ص ٢١ .
(٣) ساويرس – سير البطارقة ص ١١١ .

للمصريين [١] فعزله عمرو وأحلّ مكانه جون الذى عاملهم بالرحمة . وحاول بعضهم افتعال الأزمات فعالجها عمرو بروح طيبة ليزيل الغمة عن العامة . فقد حارب الاحتكار فى مصر ، ومعروف أن الاحتكار من عمل اليهود خاصة وأهل الكتاب عامة . فعرض عمرو على عمر ما يلقاه أهلها من الغلاء عند وقوف النيل فى حدٍ لمقياس لهم فضلاً عن تقاصره ويدعوهم ذلك إلى الاحتكار ، والاحتكار يدعوهم إلى زيادة الأسعار ، فكتب عمر يسأله عن حقيقة ذلك ، فشرح له عمرو الأمر ، فأشار عليه الصحابة ومنهم على بن أبى طالب بمعالجة الأمر بتنظيم الرى [٢] وأشار يهودى من أهل مصر إلى قناة تربط نهر النيل بالبحر الأحمر فسر عمر ووضع عنه الجزية ما دام حيا [٣] .

عمر يحد من الشعر :

هذه الأمور جميعاً جعلت الاتجاه يسير لصالح الإسلام فى الأمصار فلم يحقد على عمر إلّا أصحاب المصالح الدينية والأطماع الشخصية فى مصر والكوفة والبصرة والحيرة والشام واليمن ممن تعارضت مع مصالح الأمة والعامة ، فكانوا كالغرباء فى هذا المحيط ، وعلى عزلة من الجماهير فالعدل كان وارف الظلال وشخصية عمر القوية تضرب على يد كل فتنة فى مهدها . فتوجهت همة أولئك إلى استلام المؤامرة بأنفسهم دون الاعتماد على الجماهير فضمت بعض الفرس والروم وأهل الحيرة ويهود اليمن ، وحاولوا التسلل عن طريق الشعر وهو وسيلة إثارة المشاعر القبلية التى يسهل إثارتها فى نفوس العرب لقرب العهد من الجاهلية وكثرة المنافقين ، ولسرعة تأثيره فى العاطفة ، ولكن الفاروق حد من تأثيره ومن تسلط الشعراء وهجوهم مصمما على بناء مجتمع سليم تسوده عدالة الإسلام وأخوّته وهذه الحادثة تثبت ذلك : كتب عمر إلى عامله بالكوفة سل لبيداً والأغلب العجلى ما أحدثا من الشعر فى الإسلام . فقال لبيد : أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة

---

(١) ترتون ص ٢١ .
(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٩٥ .
(٣) محمد حميد الله – مقدمة أحكام أهل الذمة لابن الجوزية ص ٩٢ .

وآل عمران . فزاد عمر فى عطائه وأنقص من عطاء الأغلب العجلى الذى قال الشعر [١] كما نهى عمر بشدة أن ينشد الناس شيئا من نقائض الأنصار ومشركى قريش وقال : « فى ذلك شتم الحى والميت وتجديد الضغائن وقد هدم الله الجاهلية بما جاء من الإسلام » [٢] وأمر بجلد كل شاعر شبب بامرأة [٣] .

عمر يحد من وظائف أهل الكتاب :

وازداد حقد الأحبار وزعماء أهل الكتاب للسياسة التى سنها عمر بالحد من وظائف أهل الكتاب فى الدولة فقد قيل له : إن ههنا رجلا من الأنبار له بصر بالديوان لو اتخذته كاتبا فقال :

لقد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين [٤] .

ويروى أن أبا موسى الأشعرى قدم على عمر ومعه كاتب نصرانى فأعجب عمر بخطه وحسابه فقال : عمر : أحضر كاتبك ليقرأ . فقال أبو موسى أنه نصرانى لا يدخل المسجد فزجره عمر [٥] وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ [٦] . فقال : يا أمير المؤمنين لى كتابته وله دينه . قال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله [٧] .

وكان يأمر المسلمين أن يتعلموا الكتابة [٨] وطلب من عمرو بن العاص ألا يستعمل فى عمل المسلمين كافرا [٩] .

---

(١) الإصابة ج ٦ ص ٤ وكان يفرض للناس على قرائتهم القرآن ومنازلهم وجهادهم انظر الطبقات ج ٣ ص ٢١٤ .
(٢) الاستيعاب ج ١ ص ٣٤٥ .
(٣) الاستيعاب ق ١ ص ٣٨٧ .
(٤) الكامل ج ٣ ص ٢٦ .
(٥) صبح الأعشى ج ١ ص ٦٢ .
(٦) المائدة الآية ٥١ .
(٧) ابن الجوزية ص ٢١١ .
(٨) نفسه .
(٩) صبح الأعشى ج ١ ص ٦٢ .

وعن أسبق مولى عمر قال : كنت مملوكا لعمر بن الخطاب وأنا نصرانى فكان يعرض علىّ الإسلام ويقول : إنك لو قد أسلمت استعنت بك على أمانتى فإنه لا يحل لى أن أستعين بك على أمانة المسلمين ولست على دينهم . فأبيت عليه فقال : لا إكراه فى الدين . فلما حضرته الوفاة : أعتقنى وأنا نصرانى . وقال : اذهب حيث شئت (١) .

وتشديد عمر هذا كان لتشجيع المسلمين على العلم وتولى الوظائف خوفاً من تأثير أهل الكتاب ، ويظهر أنه كان لا يستعين بأهل الكتاب من العرب بدليل استعمال عمرو بن العاص لميناس وجون لتولى خراج الاسكندرية وحينما استولى المسلمون على قيسارية ووصل سببها إلى عمر جعل بعضهم رقيقاً ليتامى الأنصار واصطنع البعض كتّاباً وأدخلهم فى خدمة الدولة (٢) كما أنه طلب إلى يزيد بن أبى سفيان أو معاوية أن يبعث إليه :

« بروى يقيم لنا حساب فرائضنا » (٣) . فكان والحالة هذه يستعين بأهل الكتاب من غير العرب فى أمور المال فقط لخبرتهم فى ذلك ولمراقبة قادة المسلمين لهم . ولعدم قدرتهم فى التأثير فى الأمور السياسية لعجمتهم . ولم يمنع هذا عمر رضى الله عنه من تولية الذمى العمل الذى يتقنه إذا آنس فيه كفاءة لا تتوافر لمسلم فى محيطه فقد ولّى مثلاً أبا يزيد الطائى وهو عرَبيّ صدقات قومه وكان نصرانياً (٤) كما استمر رضى الله عنه فى تخريج الجيل القرآنى فكان يعطى الجوائز لجنده للقرآن والنكاية فى العدو (٥) وكوسيلة لمنع الفتن كان ينتفع بمن ارتد

---

(١) الإصابة ج ١ ص ١٠٧ . الطبقات ج ٦ ص ١١٠ .
(٢) ترتون ص ١٩ .
(٣) الأنساب ج ٩ ورقة ٥٨٥ / أ .
(٤) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٥٨ . الإصابة ج ٤ ص ٨٠ .
(٥) انظر الإصابة ج ١ ص ١٧٨ . ابن الأثير ج ٢ ص ١٦٦ . الطبقات ج ٣ ص ٢١٤ .

عسكريا دون أن يولهم شيئاً من القيادة . فقد كتب إلى النعمان بن مقرن : أن قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معديكرب وطليحة بن خويلد فشاورهما فى الحرب ولا توليهما شيئاً من الأمر (١) .

عمر يشتد على ولاته ويهتم بجنده :

واشتد عمر على عماله كوسيلة للسيطرة على القبائل فكان يأمرهم بالعدل والأمانة وكان يقتص من أحدهم إذا اعتدى على واحد من أهل عمله ، وإذا شعر بعدم أهلية أحدهم عزله ولو كان من أعاظم الصحابة ، وإن كثرت الشكايات عزله حتى ولو أيقن نفسياً بأهليته . ولربما كانت هذه ثغرة يستطيع دعاة الفتنة النفاذ لتشويه سمعة الوالى وبذر بذور التذمر فى نفسيّة الولاة ولكن شخصية عمر القوية البعيدة عن المحاباة جعلت القاعدة الجماهيرية فى صفه فعزلت دعاة الفتن فكانوا يدورون فى فراغ يروعهم وليس لهم إلا محاولات قاتلة فى الإيقاع بين الولاة وعمر كمحاولتهم فى الإفساد بين عمر وسعد بن أبى وقاص والى الكوفة ، وقد عزله (٢) وولى عمار بن ياسر فقالوا عنه : إنه غير كاف وعالم بالسياسة ولا يدرى على ما استعملته (٣) فعزله عمر ورضى أهل الكوفة بأبى موسى الأشعرى إلى أن ولى المغيرة ابن شعبة (٤) كما ظهرت فى الشام حكاية عزل خالد بن الوليد عن قيادة الشام بمبالغات كبيرة اختلق لها دعاة الفتنة أسبابا غريبة بعيدة عن الحق (٥) . كان عمر إذا وثق فى رجل فولاه عملا ثم جاءه منه ما يريب أو ما يليق عزله على الفور ، لأن وضع الوالى حساس ودقيق والنظرة إليه ليست كالنظرة إلى عامة الناس ، استعمل النعمان بن عدى على ميسان ، ولم يستعمل من بنى عدى

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٣٥ . العينى ج ١٠ ق ٢ ص ٢٩٦ .
(٢) الكامل ج ٣ ص ٢ . الطبرى ج ٤ ص ١٢١ . الأنساب ج ٩ ورقة ٤٥٦ .
(٣) الكامل ج ٣ ص ١٦ .
(٤) نفسه . الأنساب ج ١ ص ١٦٤ .
(٥) انظر : الأنساب ج ٩ ورقة ٥٩٦ . الطبرى ج ٣ ص ٣٩٥ . الكامل ج ٢ ص ٤١٢ . الطبقات ج ٣ ص ٢٠٤ . الإصابة ج ١ ص ٤١٤ .

سواه ، وأراد النعمان زوجته على الخروج إلى ميسان فكتب إليها أبياتاً من شعره وفيها :

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا فى الجوسق المتهدم

فبلغ ذلك أمير المؤمنين فكتب إليه : أما بعد فقد بلغنى قولك ، وأيم الله لقد ساءنى ، ثم عزله فلما قدم عليه سأله فقال : والله ما كان من هذا شيء ، وما كان إلّا شعراً وجدته ، وما شربتها قط ، قال عمر : أظن ذلك ، ولكن لا تعمل لى عملاً أبداً [١] .

وعندما تأول قدامة بن مظعون شرب الخمر حدّه [٢] .

كما عزل شرحبيل عن قيادة أحد جيوش الشام وأقام مقامه معاوية فقال له شرحبيل : أعن سخطة عزلتنى يا أمير المؤمنين ، قال : لا إنك لكما أحب ، ولكنى أريد رجلاً أقوى من رجل « وأعلن ذلك على الناس » [٣] .

وقصة سعيد بن عامر والى حمص معروفة [٤] فى تتبعه لأخبار الولاة وكذلك قصة حرقه لقصر سعد بالكوفة [٥] .

وكان عمر يهتم بجنده يتحسس آلامهم يشارك قادته فى وضع خطط القتال بل كان هو الذى يضعها فى كثير من الأحوال ، واشتد على عماله دون أن يهمل الاقتصاص ممن يعتدى عليهم حفظا لكرامتهم وسلطتهم ، فكان الحاجز قويا بين المتآمرين وبين الجند والولاة . وحد من وضع الأحاديث النبوية فقطع أمل أهل الكتاب فى التسلل بأفكارهم عن طريق الأحاديث فيروى : أن الأحاديث كثرت على عهد عمر فأنشد الناس أن يأتوه بها فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال : مثناة كمثناة أهل الكتاب [٦] .

---

(١) أسد الغابة ج ٥ ص ٣٣٥ .
(٢) الإصابة ج ٣ ص ٢٢٠ .
(٣) نفسه .
(٤) الاستيعاب ج ٢ ص ١٢ .
(٥) الإصابة ج ٣ ص ٣١٤ .
(٦) ابن سعد ج ٥ ق ١ ص ١٤٠ .

وحجز الصحابة فى المدينة عنده ضنا بهم أن يتفرقوا فى الأمصار فلم يستطع أحد أن يستغل اسم أحدهم ، وكان يطلب مشورتهم فى معظم أعماله وأحكامه [١]

أهل الكتاب يلجأون إلى أسلوب الاغتيالات :

أمام هذه الشخصية العظيمة الرحيمة انعزل دعاة الفتنة فلجأوا إلى التكتم الشديد وإلى أسلوب الاغتيالات الذى بدأوه بمحاولات اغتيال الرسول ﷺ . ولا أخال إلا أن أبا بكر مات مسموما فعن سعيد بن المسيب : « أن أبا بكر والحرث بن كلدة أكلا جزيرة أهديت إلى أبى بكر . فقال له الحرث : ارفع يدك ياخليفة رسول الله والله إن فيها سماً وأنا وأنت نموت فى يوم واحد عند انقضاء السنة » [٢] ومعلوم عن الحرث أنه حمل الأفكار اليهودية وهو الطبيب المشهور [٣] وأن ابنه النضر كان معروفا بمعاداة الرسول ﷺ ومناوئته . كما أن وفاة سعد بن عبادة سيد الخزرج فى ظروف غامضة مدعاة للتّساؤل ، وموقفه من بيعة السقيفة معروف وقد رفض مبايعة أبى بكر ، ونصح بشير بن سعد أبا بكر بأن لا يرغمه على البيعة بقوله : إنه لجّ وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته فاتركوه فليس تركه بضاركم إنما هو رجل واحد [٤] ، فتركه رضى الله عنه ، ورحل سعد إلى الشام ولم يحرك فتنة ، وأرى أن دعاة الفتنة حاولوا الإيقاع بين الأنصار والمهاجرين باغتيال سيد الخزرج وتناقلوا أبياتا قيل إنها على لسان الجن [٥] :

---

(١) ابن تيمية – رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ٢٥ .
(٢) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٨٦ .
(٣) ابن العبرى ج ١ ص ٩٢ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٢ .
(٥) الأنساب ج ١ ص ٥٨٩ . الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ١٤٥ – أسد الغابة ج ٢ ص ٣٥٦ . الإصابة ج ٤ ص ١٥٢ .

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

وعن الكلبى أن عمر بعث رجلا إلى الشام وأمره أن يدعوه للبيعة فلقيه الرجل بحوران فدعاه إلى البيعة فقال : لا أبايع قرشيا أبدا . قال : فإنى أقاتلك . قال : وإن قاتلتنى . قال : أخارج أنت عما دخلت فيه الأمة ؟ قال : أما من البيعة فأنا خارج فرماه بسهم فقتله [(١)] سنة ١٥ هـ[(٢)]وهذه الرواية بعيدة عن الصحة فالرجل الذى أرسل نكرة ولا يعقل أن يكلف الخليفة رجلا بدعوة سعد وهناك الأمراء فى الشام ، كما لا يعقل أن يكلف رجلا بقتله ، ولكن الرواية تؤكد ما ذهبنا إليه أن اغتياله كان حلقة فى سلسلة التآمر التى دبرها دهاة خيبر بالتعاون مع أصحاب المصالح والموتورين من الإسلام وخلافته الناهضة القوية . فقد قال رجل من ولده : ما علمنا بموته بالمدينة حتى بلغنا أن غلماناً سمعوا قائلا يقول : قد قتلنا سيد الخزرج [(٣)] ومما يؤيد وجهة نظرنا هذا ما رواه النوبختي الشيعى : « أن سعداً قتل بحوران قتله الروم » [(٤)] .

كيف تم تنفيذ مؤامرة اغتيال عمر بن الخطاب :

كان كعب الأحبار يبحث عمن ينفذ له الجريمة فوجد فى الفرس الذين سكنوا المدينة وفى نصارى الحيرة والشام أداة لتنفيذ خطته ، ووجد فى بعض المسلمين عوناً له بحسن نية .

كانت المدينة من أواخر عهد النبى ﷺ ممنوعة على الكفار والمشركين

---

(١) الأنساب ج ١ ص ٥٨٩ . العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٠ .
(٢) المعارف ص ٢٥٩ .
(٣) المعارف ص ٢٥٩ . انظر مسند أحمد ج ٥ ص ٢٨٤ ، ج ٦ ص ٧ . الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ١٤٢ . أسد الغابة ج ٢ ص ٣٥٦ . الإصابة ج ٤ ص ١٥٢ . تهذيب ابن عساكر ج ٦ ص ٨٦ - ٩٣ .
(٤) فرق الشيعة ص ٤ .

ومن ظهر نفاقهم وكان عمر لا يأذن بسبى قد احتلم فى دخولها (١) وخشى كعب الاستعانة بالمنافقين المختفين المتظاهرين بالإسلام وأن يكلفهم اغتيال عمر فيفتضح أمره وأمرهم فتسلل إلى المغيرة بوسيلة ما ليقنع عمر بن الخطاب باستقدام غلام ماهر فى التجارة والحدادة وهو غلامه أبى لؤلؤة (٢) فكتب المغيرة بذلك إلى عمر وهو على الكوفة يذكر له أبا لؤلؤة وصناعته ويستأذنه أن يدخله المدينة ويقول : « إن عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس ، إنه حداد نقاش نجار » . فأذن له عمر بدخوله المدينة (٣) .

وأبو لؤلؤة فارسي المولد كان قد أسره البيزنطيون فى صغره فأصبح نصرانياً وبيع كعبد للمغيرة باعتباره نصرانيا لمنشئه (٤) . مجوسياً لأصله . وقد سُرب إليه الحقد على عمر خاصة حتى امتلأ به قلبه ، إذ لما قدم سبى نهاوند إلى المدينة جعل أبو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيرا إلا مسح رأسه وبكى وقال : أكل عمر كبدى (٥) .

والطرف الثانى فى المؤامرة كان جفينة وأصله من نصارى نجران ومن نصارى الحيرة ، كان ظئراً لسعد بن مالك (٦) يجيد القراءة والكتابة التى برع بها أهل الحيرة منذ الجاهلية ، وبعد أن اقتنع كثير من الصحابة بإدخال السبى إلى المدينة وأقنعوا عمر بذلك ، أتى به سعد ليعلم الناس الكتابة وكان يحقد على عمر لإجلائه نصارى نجران غاضبا لانتشار الإسلام مهياً بذلك للاشتراك فى أية مؤامرة تطيح بعمر أو تؤثر فى الإسلام .

---

(١) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٢) الاستيعاب ق ٣ ص ١١٥٥ . العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧٢ .
(٣) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٥١ . ابن الجوزى – سيرة عمر ص ١٨٤ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ١٩٠ . خطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٤ . العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧٢ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ١٣٦ .
(٦) الكامل ج ٣ ص ٣٩ . والظئر : العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل [لسان العرب ج ٤ ص ٥١٤] . والمراد هنا أنّ سعداً كان يعطف عليه .

وأما عنصر المؤامرة الثالث فكان الهرمزان ، وهو من قادة الفرس العظام الذين هزمهم سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أغرق قبل انهزامه بنكاية المسلمين وحرّض الفرس والدهاقين وفلاحى السواد على جيوش المسلمين ، ونقض عهده مع المسلمين فحاربه أبو موسى الأشعرى بتستر وحاصره ولما اشتد عليه الأمر سأله الأمان على أن يحمله إلى عمر بن الخطاب فأجابه إلى ذلك [١] . ولما جاء عمر استسقاه ماء فأُتى به فى إناء يرضاه فقال : إنى أخاف أن أُقتل وأنا أشرب الماء . فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه . فأكفأ الإناء وقال : لا حاجة لى فى الماء ، إنما أردت أن أستأمن به فأيّده بعض الصحابة وقال علىّ لعمر : يا أمير المؤمنين إنك قد أعطيته الأمان وقلت له : إنك لا تقتله أو تشرب الماء ، لكن ضع عليه الجزية وذره يكون فى المدينة [٢] ، فكان هدف علىّ أن يكون الهرمزان بالمدينة تحت سمع وبصر الصحابة فلا يستطيع التآمر ، فلما أحس الهرمزان بذلك قبل الإسلام ديناً وسماه عمر عرفطة [٣] وأسلم من كان معه من أهله وولده وأهل بيته وخدمه ، وأخذ بذكاء يتقرب من عمر فأدناه حتى أصبح من خاصته [٤] يستشيره فى أمور فارس ولكن بحذر ، فقد شاوره فى فارس فقال :

إن فارس اليوم رأس وجناحان ، الرأس نهاوند مع بندار فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان ، وذكر له مكانا للجناحين وقال : فاقطع الجناحين يهن الرأس . فقال عمر : كذبت ياعدو الله ، بل أعمد إلى الرأس فأقطعه فإن قطعه الله لم يعص عليه الجناحان [٥] .

شخص كهذا خليق أن يبطن العداوة للمسلمين ولخليفتهم بالذات ولا يغفر له أنه ثلّ عرش الأكاسرة وغلبهم على بلادهم ومجوسيتهم ، وخليق أن

---

(١) العينى ج ٨ ق ٢ ص ٢٠٨ .
(٢) العينى ج ٨ ق ٢ ص ٢١٠ . الطبرى ج ٤ ص ٨٨ .
(٣) الطبقات ج ٥ ص ٦٥ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٨٨ .
(٥) نفسه ص ١١٧ .

يبطن العداوة للإسلام لأنه سوى بين الناس فلا سيد ولا مسود ولا شريف ولا وضيع . وكان لا يفارق عمر حتى قتل [١] .

وأما بطل المؤامرة والروح الفعالة فى حبكها فكان كعب الأحبار ، ولعله هو الذى طلب من أبى لؤلؤة الاحتكام إلى عمر على ما يتقاضونه من جزية فحكم على الغلام فتظاهر الغلام بالغضب وتوعده بالقتل فقد قال له : « لئن سلمت لأعملن لك رحاً يتحدث بها من بالمشرق والمغرب » . فأدرك عمر الهدف فقال : لقد توعدنى العبد آنفا [٢] فاتخذ الموضوع فى الشكل خلافا بين عمر والغلام لادخل فيه لأحد ، فاستطاع مدبر الفتنة أن يسدل الستار على اشتراكه فى مؤامرة الاغتيال وجاء يقول لعمر : إنه قد عرف من التوراة أن أجله قد انتهى أنك ميت فى ثلاث ليالى . ويدّعى أن ذلك فى التوراة بصفة عمر . ويأتى الغد ويقول له : بقي يومان . ثم يأتى ويقول : بقي يوم وليلة [٣] . وكان جل ما يرمى إليه بث الرعب فى قلب عمر وقطع الأمل عنده من النجاة حتى يرتبك عند محاولة الاعتداء عليه ، ويلبس فى هذه الرواية وفى غيرها قناع الرجل الزاهد المسكين الخائف على الإسلام والمسلمين فى شخص رئيسهم ، فكان قد دخل قبل ذلك بيت عمر وقال لأم كلثوم ابنة علي وزوج عمر : إن عمر على باب من أبواب جهنم . فأخبرت عمر الخبر ، فأرسل إليه فلما جاءه قال : يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ والذى نفسى بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة . فقال عمر (ولا أظنه إلا ساخرا) أى شيء هذا ؟! أمرة فى الجنة ومرة فى النار ؟ فقال : يا أمير المؤمنين والذى نفسى بيده إنا لنجدك فى كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها فإذا مت لم يزالوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة [٤]

---

(١) العينى ج ٨ ق ٢ ص ٢١٠ و ج ٩ ق ١ ص ١٦ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٩١ . الكامل ج ٣ ص ٢٦ . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٥٠ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٩١ . الكامل ج ٣ ص ٢٦ . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٥٠ .

(٤) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٤٠ .

وإظهار كعب نفسه بهذه الصفة جعل عمر يحقر شأنه فلا يهتم كثيراً بما يقول ، وكان عمر يحس فى قرارة نفسه بالمؤامرة ولكنه لا يستطيع أن يدرك أبعادها ومثله لا يحاسب على الظنة فكان يقول : يقتلنى أعجم أو عجمى (١) وقال للعباس بعد أن طعن إدراكاً منه أن المؤامرة ليست من صنيع رجل واحد :

« هذا عملك وعمل أصحابك لقد كنت أنهى أن تجلبوا منهم أحدا » (٢) . وقد أتى كعب مسرعاً لما طُعن عمر ليبعد التهمة عن نفسه فيقول : ألم أقل لك إنك لا تموت إلّا شهيداً وأنت تقول من أين وأنا فى جزيرة العرب ؟ (٣) لقد أحكم كعب خطته وأوحى للهرمزان بتدبير الأمر والعلاقة بين فارس ، واليهود قديمة ، كما أن جفينة كان حلقة الوصل بين الفرس والنصرانية ووجد الثلاثة ضالتهم فى شخص أبى لؤلؤة الحاقد على عمر والذى يظهر أنه كان لا يعلم بتدبير كعب للمؤامرة ، فاتصاله كان بالهرمزان وجفينة فقط ، كما يظهر أن عدة اجتماعات تمت بين الهرمزان وجفينة وأبى لؤلؤة قبل تنفيذ الاغتيال : فقد ذكر عبد الرحمن ابن عوف أنه رأى السكين التى قتل بها عمر مع الهرمزان وجفينة وأنه قال لهما : ما تصنعان بهذه السكين ، فقالا : نقطع بها اللحم ، فإنا لا نمس اللحم (٤) .

وعن سعيد بن المسيب أن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق قال حين قتل عمر : قد مررت على أبى لؤلؤة قاتل عمر ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما بغتّهم (٥) ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه فى وسطه فانظروا ما الخنجر الذى قتل به عمر . فوجدوا الخنجر الذى قتل به عمر الذى نعت عبد الرحمن (٦) ، وهناك رواية عن ابن الهرمزان يقول فيها : كانت العجم بالمدينة

---

(١) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٤٢ .
(٢) الأنساب ج ٩ ورقة ٦١٥ .
(٣) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ - الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢١ . ابن الجوزية سيرة عمر ص ١٩٠ .
(٤) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٥٤ .
(٥) فى الطبرى : رهقتهم أى ضيقت عليهم ج ٤ ص ٢٤٠ .
(٦) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٥٨ . الكامل ج ٣ ص ٣٩ . الطبرى ج ٤ ص ٢٤٠ .

يستروح بعضهم إلى بعض فمر فيروز بأبى ومعه خنجر له رأسان فتناوله منه وقال ما تصنع بهذا فى هذه البلاد . فقال : آنس به . فرآه رجل . فلما أصيب عمر قال : رأيت هذا مع الهرمزان دفعه إلى فيروز فأقبل عبيد الله فقتله [١] .

وبإمعان النظر فى هذه الرواية نجد أنها تؤكد الروايتين السابقتين ولا تعارضهما وتؤكد حقيقة التآمر وإن حاول ابن الهرمزان أن ينفى التهمة عن أبيه ، والرواية التى تؤكد اشتراك الثلاثة رويت عن بعض الثقات الذين لا غرض لهم من ورائها وعبد الرحمن بن عوف وعبد الرحمن بن أبى بكر شاهدى عدل لما رأيا ، وقد أخبر ابن أبى بكر بأنه رأى كل هؤلاء الثلاثة يتناجون ومعهم شىء بينهم فلما رأوه ثاروا فسقط فيهم خنجر له رأسان وهو الذى قتل به عمر رضى الله عنه . فالهرمزان يسلم الخنجر لأبى لؤلؤة واجتماع الهرمزان وجفينة ثم الهرمزان وجفينة وأبى لؤلؤة . ولولا وجود مؤامرة لم يُراعوا عندما فجأهم عبد الرحمن كل هذه القرائن تؤكد وجود المؤامرة . ولكن كعب الأحبار بما أُوتى من دهاء ومكر وبمقدرته على التغلغل فى أوساط الصحابه استطاع أن يسدل الستار على القصة ولا يستبعد أنه أرسل لعبيد الله بن عمر من حرّضه على قتل الثلاثة لتختفى الجريمة وليستد فى خطته فى تقويض الدولة الإسلامية وهذه أساليب معروفة استعملتها الصهيونية [٢] والماسونية للتخلص من أدوات الجريمة بعد تنفيذها حتى يعجز التحقيق عن إثباتها ويتجه إلى زاوية أخرى يضيع بها الأصل ويتجه إلى الفروع ، ويبقى الداء مستمرا سترا وخفية .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٢) كقصة اغتيال كنيدى فى العصر الحاضر . وقد أغرق الصهاينة باخرتين من سفن اللاجئين اليهود عمداً دون علم هؤلاء المنكودين ثم بالغوا فى تصوير ذلك بأبشع الصور لاستدرار العطف العالمى ولفت نظره إلى خطورة المسألة اليهودية والضغط على الحكومة البريطانية كى تتخلص من قيود الكتاب الأبيض الذى أصدرته بريطانيا سنة ١٩٣٩ م للحد من الهجرة اليهودية .

(ب) فتنة الأمصار واستشهاد عثمان رضى الله عنه

انتخاب عثمان للخلافة :

استمرت القوى التى تآمرت على اغتيال عمر فى تآمرها زمن عثمان وهى إن كانت قد خنست فترة إلّا أنها سرعان ما ظهرت عندما بدأ التناقض بين الصحابة فكان تسلل هذه القوى عن طريق التناقضات بل كانت تخلقها أحيانا .

كانت عند المسلمين خلافات فى الفروع وكان من الممكن أن تظل هذه الخلافات فى دائرة الفروع فلا تشجب وحدة الأمة الإسلامية لولا الهجوم المسعور من القوى المضادة على الإسلام وعقائده .

وقد ظهر التنافس بين الصحابة فى قصة الشورى وانتخاب عثمان للخلافة وإن كان هذا التنافس يمكن تبريره بأنه تنافس لمصلحة الأمة للأخذ بيدها إلى الخير وكل منهم كان أهلاً لذلك . واستطاع عبد الرحمن بن عوف أن يقطع الطريق على دعاة الفتنة فقصر الأمر على اثنين على وعثمان وخرج يتلقى الناس فى أنقاب المدينة متلثماً لا يعرفه أحد ، فما ترك واحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ودعائمهم إلا سألهم واستشارهم فى من يكون الخليفة بعد عمر ؟ فلم يجد أحداً يعدل بعثمان [١] فسد باب الفتنة بمنع التنافس الذى عبر عنه أبو طلحة بقوله للصحابة :

« إنى كنت أظن أن تدافعوها ولم أكن أظن أن تنافسوها » [٢] .

وكان كثير من الصحابة لا يعدلون بعلىّ أحداً من القوم فأظهروا التململ وتحاملوا فى القول على عثمان ومنهم : المقداد بن عمر وأبو ذرّ وعبد الله ابن مسعود [٣] وعمار [٤] ، وهذا خلاف طبيعى عند انتخاب أى حاكم ولكن

---

(١) العينى ج ٩ ق ١ ص ٦ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٧ .
(٢) العينى ج ٩ ق ١ ص ٦ .
(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٣ . الطبرى ج ٤ ص ٢٣٢ .
(٤) انظر الطبرى ج ٤ ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

وُجد من يحرك ويستغل هذا التململ فكانت أصابع أهل الكتاب الخفية ، ثم كانت قضية عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذى قتل ابنة لأبى لؤلؤة وجفينة والهرمزان [(١)] فكان رأى علي أن يقتل فقال بعض المهاجرين : قُتل عمر بالأمس ويُقتل ابنه اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك [(٢)] فودى عثمان القتلى من ماله وخلى سبيل عبيد الله [(٣)] فأسدل الستار فى قضية مقتل عمر رضى الله عنه ، واجتهاد عثمان له ما يبرره ، فهو لم يعف عبيد الله من جريرة جريمته فلم يبرئه من قتل ابنة أبى لؤلؤة عمداً فى غير إثم وبغير حق ، ولكنه لو فتح باب التحقيق لظهر دور القوى المضادة فى حادثة الاغتيال ولأمكن تجنيب الأمة الإسلامية كثيرا من المصائب التى ألمت بساحة الدولة والتى كان عثمان نفسه أحد ضحاياها ، فبإغلاقه باب التحقيق أبقى حركات أهل الكتاب والفرس مستمرّة فتمكنوا من مواصلة عملهم وفتنهم سراً .

وكانت تثور كوامن العصبية لدى بعض بنى هاشم وبنى أمية ولكن سرعان ما يطغى عليها مبدأ الإسلام وتمسك القوم به ، ولكنها وجدت من يستغلها . فقد جاء المغيرة بن شعبة مع عمرو بن العاص فجلسا بالباب فى الشورى . فحصبهما سعد وأقامهما وقال : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى [(٤)] هذا وجاء المغيرة إلى عبد الرحمن بعد أن بويع عثمان فقال : « يا أبا محمد قد أصبت أن بايعت عثمان » . وقال لعثمان : « لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا » . فقال له عبد الرحمن : « كذبت يا أعور لو بايعت غيره لبايعته وقلت هذه المقالة »[(٥)] .

---

(١) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٦ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٣٩ .

(٣) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٦ . الكامل ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٥) الكامل ج ٣ ص ٣٨ .

كما ظهرت عصبية من نوع جديد هى عصبية الأمصار فالذين هاجروا إلى الشام كان معظمهم من المهاجرين والأنصار أهل مكة والمدينة ، وأما الذين استوطنوا البصرة والكوفة فقد جاءوا إليها من سائر شبه الجزيرة ، وكان للمهاجرين والأنصار فضل السبق على غيرهم من العرب إلى الإسلام ثم كان لسائر العرب فضل الجهاد لإقامة الدولة الإسلامية ، وكانوا فى معظمهم من الجفاة الذين لم يستكثروا من صحبة النبى ﷺ ولا ارتاضوا بخلقه . مع ما كان فيهم من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان ، فاستنكفوا أن يكونوا فى ملكة الأنصار والمهاجرين فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة والتحريض فى طاعتهم والتعلل فى ذلك بالتظلم منهم والإستعداء عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدل فى القسم . ففشت المقالة بذلك وانتهت إلى المدينة [١] ويضاف أن هذه القبائل كانت قبل إسلامها فى أكثريّتها من أهل الكتاب والمجوس فوجدت فيها عناصرهم مرتعاً خصباً تثيرها وتستثيرها عصبيةً أو طمعاً ، وهو من قبيل استغلال المتناقضات بين هذه القبائل وبين قريش . ولابد لنا أن نعيد ما ذكرنا : أن نصارى نجران سكنت النجرانية بالكوفة ، وكذلك سكنت عناصر نصرانية البصرة والكوفة من النمر وإياد وقاسط ، والبصرة والكوفة كانتا منبع الفتنة .

وقد حاول الدكتور طه حسين[٢] أن يعيد أمر الفتنة كله إلى العصبية فقط ، وهو يتناقض مع نفسه عندما يقول : إن أبا موسى كان والياً على البصرة والأمن مستتبٌّ لست سنوات من خلافة عثمان . كما كان والياً على البصرة قبل أيام عثمان فلم تظهر آثار العصبية بالشكل الذى أراد أن يصورها . وهذا دليل على أن هناك عوامل غير العصبية حركت التناقضات القبلية وغيرها وهى أصابع أهل الكتاب والفتنة السبئية لتلج منها إلى إيقاع الفتنة فى المصرين البصرة والكوفة ثم فى مصر .

وفى الواقع كانت دواعى الاختلاف بين الصحابة حتى آخر حياة عمر

---

(١) ابن خلدون – المقدمة ص ٢١٥ .
(٢) الفتنة الكبرى ص ١١٥ .

مفقودة ، وكانوا متعاونين على أشد ما يكون التعاون واستمر ذلك مدة طويلة فى خلافة عثمان حتى فى أهون الأمور :

« ففى عهد عثمان أهدى إليه مرة صيد كان قد صيد لأجله فهمّ بأكله حتى أخبره علىّ أن النبى رد لحماً أهدى له » [١] .

وكان عمر قد حجر على أعلام قريش فانساحوا فى البلاد فى عهد عثمان ورآهم الناس فانقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام فكان مغمورا فى الناس وصاروا أوزاعا إليهم وأملوهم وتقدموا فى التقرب إليهم والانقطاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت فى العامة [٢] فقد تمكن أحبار أهل الكتاب باسم هؤلاء أن يتسللوا بين العامة وإثارتهم ضد الخليفة وضد الأمراء ، وافتتن الناس بالصحابة كما افتتن بعض الصحابة بما رأوه من ألوان النعم ومظاهر الحياة فى البلاد التى خرجوا إليها فلم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الأمصار وانقطع إليهم الناس [٣] فسهل هذا الأمر على ابن السوداء فوجد عندما تكلم من سمع إليه وخاصة بعد أن امتد الثراء إلى المدينة ففى سنة ٣٠ هـ كثرت الفتوحات فأتى الخراج من كل ناحية فاتخذ له عثمان الخزائن ثم قسمها وكان يأمر للرجل بمائة ألف [٤] .

فأغرى هذا الثراء بعض المسلمين بالاستمتاع بها استمتاعا دفع بعضهم

---

(١) رفع الملام ص ٦ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٩٨ . انظر عن ثراء بعض الصحابة :
فطلحة قتل وفى يد خازنه ألف ألف درهم ومائتى ألف درهم وقدرت عقاراته ثلاثين ألف ألف درهم . الأنساب ج ٩ ورقة ٥٠٢ . أما الزبير فكانت قيمة ما ترك أحد وخمسين أو اثنين وخمسين ألفِ ألف درهم – وكانت له خطط بمصر والاسكندرية والكوفة والبصرة ودور وكانت له غلات ثابتة من أعراض المدينة . الأنساب ج ٩ ورقة ٤٣١ .

(٤) الذهبى – العبر – تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣٥٥ .

إلى حياة البذخ والترف فانتشرت فى المدينة بعض أنواع اللهو ، فاضطر عثمان إلى الضرب على أيدى أصحابها وكبح جماحهم ونفى بعضهم عن المدينة فتذمروا وتذمر ذووهم ، فاستجاب هؤلاء لدعاة الفتنة ضد عثمان فى الأقاليم (١) .

إذن كانت هناك عصبية وكان كره العرب لزعامة قريش وكان إثراء الناس وتفرق الصحابة فى الأقاليم ، كل هذه تناقضات وجدت داخل حدود الدولة الإسلامية ونتج عنها خلافات جزئية كان من الممكن تلاشيها ومن الممكن أستمرار الحياة بها بدون أن تعكر ساحة الدولة بالفتن لولا الأصابع الخفية التى أخذت تعمل عملها لتجميع هذه المتناقضات لتوجد تياراً واحداً هبّ على ساحة الدولة فغمرها بالفتن ، كما استغلوا بعض المآخذ البسيطة على عثمان فخلقوا منها مشاكل كبيرة ومنها :

أن عثمان رد الحكم بن العاص إلى المدينة وأنه استعمل الوليد بن عقبة بن أبى معيط على الكوفة (٢) وغيرها من الماخذ التى لفقها دعاة الفتنة وامتلأت منها كتب التاريخ (٣) .

كعب الأحبار وابن سبأ يمهدان للفتنة :

إن الذى ابتليت به الأمة فى أيام الخليفة عثمان كان فتنة ومؤامرة اشترك فى تدبيرها اليهود والفرس والنصارى وسائر أعداء الدولة الإسلامية وهى استمرار للمؤامرة التى ذهب ضحيتها الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد استمرت نفس القوى ونفس الأشخاص يحركون الفتنة وتعهدوها فى جميع الأمصار الإسلامية .

إن كعب الأحبار الذى بيّنا دوره فى مؤامرة اغتيال عمر ، ازداد تقربا لعثمان حتى أصبح من خاصته ويناقش كبار الصحابة : قال عثمان يوما : أيجوز

---

(١) حسن إبراهيم – تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٧ .

(٢) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٧ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٢ – ٣٤ .

(٣) انظر : التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ص ٣٣ – ٨٦ .

للإمام أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضى ، فقال كعب : لا بأس بذلك . فقال أبو ذر : يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا ؟ فقال عثمان : ما أكثر أذاك لى وأولعك بأصحابى – الحق بمكتبك ، وكان مكتبه بالشام إلا أنه كان يقدم حاجاً [١] .

وأكمل ابن سبأ دور كعب الأحبار فكان عملهما فى التقرب إلى الصحابة وإبراز التناقضات ما يشبه عمل الصهاينة واليهود فى العصور الحديثة بالجنسية المزدوجة والسيطرة على الشبكات الجاسوسية العالمية ، فلا غرابة ولا تناقض أن تبنّى كعب رأياً يخالف أباذرّ فى الوقت الذى سرب ابن سبأ رأياً إلى أبى ذر مستغلاً شدة إيمانه وعمق تقواه وحدبه وشفقته على الفقراء .

كما استغلوا موجة جديدة ظهرت بين المسلمين وهى موجة الزهد والتطرف والتشدد فى الدين التى تخرج المسلم عن بساطة الإسلام ، متأثرة بالمانوية المتنصرة التى تحض على قمع الشهوة وترك أكل اللحم وشرب الخمر والتناكح ، فشجع أهل الكتاب هذه الموجة بين المسلمين فظهر عامر بن عبد الله بن عبد القيس الذى تطرف فى العبادة ورفض الزواج ، فوشى ابن حمران بن أبان إلى ابن عامر [٢] قائلا :

إن ها هنا رجلا يقال له ما إبراهيم خير منك فيسكت وقد ترك النساء فأجلاه إلى الشام بأمر من عثمان إلى معاوية [٣] فأنزله معه الخضراء وبعث إليه بجارية فأمرها أن تعلمه ما حاله فكان يخرج من السحر فلا تراه إلى بعد العتمة ويبعث إليه معاوية بطعامه فلا يعرض لشىء منه ويجىء معه بكسرة يجعلها فى ماء ثم يأكل منها ويشرب من ذلك الماء ، فكتب معاوية إلى عثمان يذكر له حاله فكتب إليه أن اجعله أول داخل وآخر خارج ومر له بعشرة من الرقيق وعشرة من الظهر ، فرفض ذلك وكان يقول : « الدنيا أربع خصال : النوم والمال ، والنساء ، والطعام . فأما

---

(١) الأنساب ج ٥ ص ٣٢٣ .

(٢) المعارف ص ٤٣٩ .

(٣) الطبقات ج ٧ ق ١ ص ٧٧ .

اثنتان فقد عزفت نفسي عنهما : أما المال فلا حاجة لى فيه . وأما النساء فوالله ما أبالى امرأة رأيت أو جدارا . ولا أجد بدا من هذا الطعام والنوم أن أصيب منهما ، والله لأضرب بهما جهدى » . وكان إذا كان الليل جعله نهارا وإذا كان النهار جعله ليلا وصام ونام [١] .

فكان كعب يتصل بمثل هؤلاء الزهاد ويبث أفكاره بينهم وبين المسلمين فقد اتصل به فى الشام وأخذ يقرأ عليه التوراة ويفسر كما يحلو له . فعن عبيد الله حسن القاضى قال :

« فدخلت المسجد فإذا هو جالس إلى كعب وبينهما سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ فإذا مر على الشيء يعجبه فسره له » .

كما قال مالك بن دينار : « لما رأى كعب عامرا بالشام قال : من هذا ؟ قالوا : عامر بن عبد القيس العنبرى البصرى .

قال : هذا راهب هذه الأمة [٢] .

كما استطاع كعب أن يتقرب إلى معاوية بالشام حتى أصبح من خاصته ، وأعجب به كثير من الصحابة فقال عنه أبو الدرداء أو معاوية : « إن عند ابن الحميرية لعلما عظيما » [٣] .

وبعد أن هيأ كعب الجو فى المدينة وفى الشام نشط عبد الله بن سبأ يحبك خيوط المؤامرة متعاونا مع القوى المضادة فقام بدعاية منظمة لإحداث الفرقة فى صفوف المسلمين وبعث مرضى القلوب إلى الأقاليم الإسلامية فوجدت دعوتهم تجاوبا فى البصرة والكوفة ومصر .

وعبد الله بن سبأ يهودى من يهود صنعاء أمه أمة سوداء [٤] فسمى بابن

---

(١) الطبقات ج ٧ ق ١ ص ٨٠ .

(٢) نفسه ص ٧٩ .

(٣) نفسه ج ٧ ق ١ ص ١٥٦ .

(٤) الكامل ج ٣ ص ٧٧ .

السوداء ، تظاهر بالإسلام فى أول خلافة عثمان [١] مبطنا الكفر [٢] وأخذ يتنقل فى بلدان المسلمين فبدأ باليمن موطنه ثم بالحجاز فالبصرة والكوفة ثم الشام [٣] يريد امتلاك الناس فلم يقدر منهم على ذلك فأخرجه أهل الأمصار فأتى مصر فأقام بها [٤] وكان الرجل على غاية من الذكاء وصدق الفراسة والنظر البعيد والحيلة الواسعة والنفاذ إلى نفسية الجماهير ، فمكنته هذه الصفات أن يكون أحد أبطال جمعية سرية غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام ، تعمل لمصلحة اليهودية متعاونة مع القوى الأخرى المضادة للإسلام . واتسع نشاط هذه الجمعية لتشمل الميدان السياسى والدينى والحربى ، مما مكنه من الانتشار فساعد على غموض شخصية ابن سبأ فأنكرها البعض [٥] وتشكك بها آخرون . يقول الدكتور ضياء الريس :

« وقد أخذ بعض المؤلفين يميل إلى الشك فى شخصية هذا الرجل . ولكن تعدد الروايات وتواتر أنباء الثقات من المؤرخين تؤيد القول بوجوده وإن كان محل المبالغة أنهم ينسبون إليه كل ما حدث فى عهد عثمان ويحملونه تبعته . فالحقيقة وهذا ما تتجه البحوث الحديثة لإثباته الآن أن الدور الذى قام به مبالغ فيه جدا » [٦] .

أما طه حسين فبعد أن يحاول إلقاء الشكوك على دوره بأسلوبه الأدبى المعروف يقول :

« وأكبر الظن أن عبد الله بن سبأ هذا إن كان كل ما يروى عنه

---

(١) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٤٥ ، ص ١٦٨ .
(٢) خطط المقريزى ج ٤ ص ٣٤٠ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٠ .
(٤) الكامل ج ٣ ص ٧٧ .
(٥) السيد مرتضى العسكرى فى كتابه عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى .
(٦) النظريات السياسية ص ٤١ .

صحيحا . إنما قال ودعا إلى ما دعا إليه بعد أن كانت الفتنة وعظم الخلاف فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها » [١] .

وهذا الرأى قد يكون صحيحا لو كان ابن سبأ وحده ولم يكن ممثلا لجمعية كبيرة ذات أهداف بعيدة المدى قامت على أساس استغلال وسائل الأعلام المتوافرة آنذاك وكونت رأياً عاماً وجّهته لصالحها ضد الأمراء والحكام . فأوجدت فجوة بين الحاكم والمحكوم واتبعت أسلوب الضجيج حتى يضيع الحق فى خضم الضجيج . ولم يكن عيبا على الصحابة وعلى المسلمين ألا يكتشفوا حقيقة المؤامرة التى تزعمها هذا الكاهن فإن حقيقة أية مؤامرة لا تنكشف إلا بعد عشرات السنين إن لم تكن بعد مئات السنين .

ومن المحتمل جدا أن هذا الكاهن جاء إلى المدينة بعد أن تظاهر بالإسلام لا طمعا بإكرام عثمان واحترامه [٢] ولكن ليحبك مؤامرة مع كعب الأحبار وليتعرف على مواطن التناقض التى يمكن له النفاذ منها لتقويض الدولة ، وقد بدأ بالفعل بالاتصال بالناقمين على عثمان فى المدينة وأنكر إدارته علنا وبلغ عثمان خبره فأمر بنفيه [٣] من المدينة فذهب إلى البصرة فنزل على حكيم بن جبلة العبدى فاستماله لدعوته ، وكان هذا شابا جريئاً من عبد القيس يرافق الجيوش الإسلامية الزاحفة نحو الشرق فكان يجازف فى بعض الحملات معرضاً نفسه للخطر ولكنه كان لصا كما وصفه الطبرى عن سيف فكان إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى فى أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب عثمان إلى عبد الله ابن عامر أن احبسه ومن كان قبله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشدا فحبسه [٤] .

---

(١) طه حسين – الفتنة الكبرى ص ١٣٤ .
(٢) كما ذكر دونلدسن – عقيدة الشيعة ص ٥٩ .
(٣) روضة الصفا ج ٢ ص ١٦٠ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٣٢٦ .

وعند حكيم التف حول ابن سبأ نفر فنفث فيهم سمومه دون أن يصرح بيهوديته فقبلوا منه ، واستعظموه . ولما تناهت الأنباء إلى ابن عامر استقدمه فأخبره ابن سبأ بأنه رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك (١) فأمره بالخروج من البصرة فلحق بالكوفة .

ويظهر أن دعاة ابن سبأ كانوا قد سبقوه إلى البصرة من قبل فقد أتوا إلى عثمان فاستعفوه من الوالى أبى موسى الأشعرى وقالوا : ما كل ما نعلم نحب أن تسألنا فأبدلنا به . فقال من تحبون ؟ فقال غيلان بن خرشة : فى كل أحد عوض عن هذا العبد الذى أكل أرضنا أما منكم خسيس فترفعونه ، أما منكم حقير فتجبرونه ؟ يا معشر قريش حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعرى هذه البلاد ؟ فولى عثمان عبد الله بن عامر بن كريز (٢) .

وواضح فى هذه الحادثة نية الفتنة فهم يحركون فى قريش كوامن العصبية ويهاجمونها ، فهم يطلبون أن يُغيَّر الوالى بقريشي ثم يهاجمون عثمان لأنه ولى أقاربه .

وأصبح لابن سبأ أعوان فى البصرة منهم : حمران بن أبان مولى عثمان وكان من سبى عين التمر الذين بعث بهم خالد إلى المدينة (٣) يقال إنه كان يهوديا واسمه طويدا فاشترى لعثمان ثم أعتقه وصار كاتبه (٤) وكعادة اليهود فى انتحال الجنسيات المزدوجة فإنه انتمى إلى النمر بن قاسط النصارى ، وكان نزوله البصرة بسبب أنه أفشى على عثمان بعض سره فبلغ عثمان فقال : « لا تساكنّي فى بلد » . فرحل عنه ونزل البصرة واتخذ بها أموالا (٥) ويقال أن عثمان نفاه بسبب امرأة تزوجها فى عدتها ففرق بينهما وجلده سنة ٣٣ هـ ونفاه إلى البصرة (٦) فأصبح من دعاة السبئية .

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٧٢ .
(٢) نفسه ص ٤٩ .
(٣) الطبقات ج ٧ ق ١ ص ١٠٨ . الأخبار الطوال ص ١١٢ .
(٤) المعارف ص ٤٣٦ .
(٥) الطبقات ج ٧ ق ١ ص ١٠٨ .
(٦) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٤١ .

وفى **الكوفة** استطاع ابن سبأ أن يجمع حوله فئة من الناقمين على عثمان أو على ولاته ممن كانت لهم أطماع خاصة ، مستغلا التناقضات الكثيرة التى زخرت بها الكوفة فأخذ هؤلاء مع ابن سبأ يوسعون شقة الخلاف بين العامة والوالى الوليد بن عقبة ، الذى كان واليا على عرب الجزيرة زمن عمر بن الخطاب فى تغلب ، وكان فيهم أبو زبيد الشاعر وهم أخواله فظلموه دينا له فأخذ له الوليد بحقه ، فشكر أبو زبيد له ذلك وانقطع إليه وغشيه بالمدينة (١) ولما ولى الكوفة لعثمان تلطف بالناس وأقام خمس سنين ليس على داره باب فكان فيه رفق برعيته (٢) فأتاه أبو زبيد معظما على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة فنزل منزل الضيفان (٣) فاتهم الناس الوليد بأن أبا زبيد النصرانى كان ينادمه وأنه كان يجرى عليه ضيافة فى كل يوم خنزيرا وزق خمر من بيت المال (٤) ولما عظم إنكار الناس قوّم ما كان ووظف له دراهم وضمها إلى رزقٍ كان يجريه عليه (٥) . وهذا إجراء مستبعد لأنه لا وجود لبيع الخمر والخنزير العلنى فى الإسلام ، أما ضيافة أهل الذمة فهى من المبادىء التى سار عليها عثمان وولاته بالأمصار الإسلامية على سيرة عمر وولاته فى التسامح مع أهل الذمة (٦) وبينما كان أبو زبيد عند الوليد اقتحم عليه أبو زينب وأبو مورع وجندب الدار وكانوا يحقدون عليه قتل أبنائهم ، فظنوا أنه يشرب الخمر فلم يروا شيئا فسبّهم الناس (٧) كما حاول هؤلاء الإفساد بينه وبين عبد الله بن مسعود فقال عبد الله : من استتر عنا بشىء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره . فنقلوا أقواله إلى الوليد وحملوه على غير محله فكان سببا فى تغاضبهما .

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٥٢ . الطبرى ج ٤ ص ٢٧٣ .
(٢) العينى ج ٩ ق ١ ص ٤٢ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٧٣ . الكامل ج ٣ ص ٥٢ .
(٤) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٥١ .
(٥) الأنساب ج ٥ ص ٢٩٤ – ٢٩٥ .
(٦) الخربوطلى – أهل الذمة فى الإسلام ص ١٢٨ .
(٧) الكامل ج ٣ ص ٥٣ . الطبرى ج ٤ ص ٢٧٤ .

ويروى أن أبا زينب وأبا مورع تمكنا من سرقة خاتم الوليد (١) وأنكر هذه الحادثة الدكتور طه حسين (٢) كما حاول أن يصم الوليد بشرب الخمر كما اتهمه خصومه وهذا بعيد ولكن الأقرب لمنطق الأحداث أن أبا زبيد كشاعر كان يتغنى بشرب الخمر وكرجل من أهل الكتاب لِأمر ما ذكر الوليد فى شعره فتمكن خصومه من النفاذ لاتهام الوليد بذلك . كما أننى أستبعد رواية إسلام أبى زبيد (٣) لأننا حين نسمع أن الحد أقيم على الوليد فإننا لا نسمع أبدا أن الحد أقيم على أبى زبيد أو طلب للشهادة ، ولو كان مسلماً لأقيم عليه الحد أو طلب للشهادة . ويظهر أن الوليد أدرك أمر أبى زبيد بعد أن ثبتت عليه التهمة فلا نسمع عن اتصال بينهما بعد الحادث .

ولما عزل عثمان الوليد ولى مكانه سعيد بن العاص الذى خرج حتى قدم الكوفة أميرًا ومعه الأشتر وأبو خشنة الغفارى وجندب بن عبد الله وأبو مصعب بن جثامة الذين أوقعوا بالوليد (٤) وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال :

« والله لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ولكنى لم أجد بداً إذ أُمّرتُ أن أتّمر ألا إن الفتنة قد أطلَعت خطمها وعينيها ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعيينى وإنى لرائد نفسى اليوم » . وسأل أهل الكوفة فأُقيم على حال أهلها (٥) .

واستطاع ابن سبأ فى ولاية سعيد أن يتصل بالأشتر فاستماله وهو مالك بن الحارث بن عبد يغوث المذحجى أحد أشراف الكوفة والشجعان المذكورين اجتمع فيه الغلو فى الدين مع حب الرئاسة والجاه (٦) وفد مع مذحج إلى المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب فجعل عمر ينظر إليه ويصرف بصره وقال لعبد الله

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٥٢ . الطبرى ج ٤ ص ٢٧٤ .
(٢) الفتنة الكبرى ص ٩٥ .
(٣) انظر الطبرى ج ٤ ص ٢٧٣ . الكامل ج ٣ ص ٥٢ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩ . المقفى – تحت مادة مالك الأشتر .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩ .
(٦) المقفى – تحت مادة مالك الأشتر . العواصم ص ١١٧ .

ابن مسلمة : أمنكم هذا ؟ قال : نعم . قال قاتله الله . كفى الله أمة محمد شره والله إنى لأحسب للمسلمين من يسومهم عصيباً .

وسار إلى الشام فشهد اليرموك وفقد إحدى عينيه وأظهر بطولة وبراعة ولما فتحت دمشق سار مع من شهدها من جند العراق صحبة هاشم بن عتبة ولحق بسعد بن أبى وقاص فنزل الكوفة وأقام بها إلى أن كانت خلافة عثمان وإمارته الوليد ابن عقبة [١] فانزلق مع المنحرفين والعابثين على الدولة ورجالها ، فاشترك مع أبى مورع وأبى زينب فى الذهاب إلى المدينة لتوسيع دائرة الفتنة وشهد الحد على الوليد ثم رجع بصحبة سعيد ، الذى كان يغشاه وجوه الناس فى دار الإمارة بالكوفة ، فقال حبيش بن فلان الأسدى ، ما أجود طلحة بن عبيد الله . فقال سعيد : إن من له مثل النشاسنج لحقيق أن يكون جواداً . فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حدث : لوددت أن الملطاط لك – يعنى ما كان لكسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة – فقالوا : تتمنى له سوادنا . فقال والده : ويتمنى لكم أضعافه . فثار الأشتر وصحبةٌ على الأسدى وأبيه وضربوهما فى مجلس الإمارة حتى غشى عليهما . وتلافى سعيد الفتنة بحكمة ومنع أن يسمر عنده أحد أبداً . فجعل هؤلاء يشتمون عثمان وسعيد وكثر عددهم [٢] فكتب أشراف الكوفة وصلحاؤها إلى عثمان فى إخراج هؤلاء المشاغبين من بلدهم فأرسلهم إلى معاوية فى الشام [٣] درءاً للفتنة فاتبع بذلك سياسة عمر الذى نفى نصر بن حجاج [٤] من المدينة خوفا من الفتنة الخلقية فكان النفى أهون سبيل اتبعه عثمان خوفا من الفتنة السياسية التى قد تطيح بما بناه المجاهدون وتحقق رغبات القوى المضادة . ومن استعراض أسماء النفر الذى نفاهم سعيد وقبائلهم يتضح أن أصل معظمهم من القبائل التى كان يكثر بينهم أهل الكتاب كالنخع وعبد القيس من بكر بن وائل [٥]

---

(١) المقفى – تحت مادة مالك الأشتر – العواصم ص ١١٧ .
(٢) المقفى – مادة مالك الأشتر – الطبرى ج ٤ ص ٣١٨ .
(٣) المقفى – مادة مالك الأشتر . الأنساب ج ٥ ص ٣١١ .
(٤) المقفى ج ٤ من المجلد الثالث ورقة ١١٣ .
(٥) انظر أسماء بعضهم – الطبرى ج ٤ ص ٣٢٦ .

ولما خاطبهم معاوية فى الشام ونصحهم أدرك تمكّن الفتنة فى رؤوسهم وعلم أنهم لا يصلحون فكتب بذلك إلى عثمان يقول :

« فإنك بعثت إليّ أقواما يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم ويأتون الناس – زعموا – من قبل القرآن فيشبهون على الناس وليس كل الناس يعلم ما يريدون ، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم فقد أفسدوا كثيرا من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصرهم فلتكن دارهم فى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم » (١) . فأمره عثمان أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأنزلهم جزيرة عمر إلى أن تظاهروا بالتوبة فعادوا إلى الكوفة وبقى الأشتر عند عبد الرحمن .

ومن الحق أن نذكر أن بوادر الفتنة ظهرت فى العراق منذ القادسية باشتراك من كان من أهل الكتاب أو أسلم أو تظاهر بالإسلام فى القتال . فقد خرج طليحة وعمرو بن معديكرب فأما طليحة فأمره سعد بعسكر رستم وأما عمرو فأمره بعسكر الجالينوس . فخرج طليحة وحده وخرج عمرو فى عدة ، فبعث قيس بن هبيرة فى آثارهما وقال : إن لقيت قتالا فأنت عليهم فأدرك قيس عمروا الذى أراد أن يغير على عسكر الجالينوس فقال له قيس : لا أدعك والله وذاك ، إنى أمّرت عليك ولو لم أكن أميرا لم أدعك وذاك ... فقال عمرو : والله يا قيس إن زماناً تكون فيه عليّ أميراً لزمان سوء لأن أرجع عن دينكم هذا إلى دينى الذى كنت عليه وأقاتل عليه حتى أموت أحب إليّ أن تتأمر علي ثانية (٢) ، ولئن عاد صاحبك الذى بعثك لمثلها لنفارقنّه . وهذا دليل على عنجهية أهل الكتاب وكرههم المساواة المطلقة التى نادى بها الإسلام فاجتمعت العنجهية مع جلافة البادية فى البصرة والكوفة فكانت من عوامل الفتن فى العراق .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٢٥ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٥١١ .

وفى مقدمات القادسية ويوم إرمات بالذات نرى العصبية والعنجهية فقد كان سعد به دمامل وعرق النسا فاستخلف خالد بن عرفطة على الناس فاختلفوا عليه . فهم سعد بمحركي الفتنة وقال : « أما والله لولا عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ، وحبسهم » . ثم قال :

« والله لا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بإزائهم إلا سَنَنْتُ به سنة يأخذ بها من بعدى »[(١)] .

كما عملوا على التشكيك فى قيادة سعد فقال أحدهم :

نقاتل حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية معتم
فأُبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوة سعد ليس فيهن أيم

وبعث بها فى الناس حتى بلغت سعدا[(٢)] واضطر أن يعتذر إليهم . كما بدا دعاة الفتنة يفسدون بين المصرين العراق والشام ، مستغلين بعض المواقف ، فقد أمدّ أهل العراق أهل الشام فى غزوة أرمينيا فانتصر أهل الشام بقيادة حبيب بن مسلمة بدونهم ، فحاول أهل الشام حرمان أهل العراق من الغنيمة فكان ذلك أول العداوة التى وقعت بين المصرين[(٣)] ولما رُفع الأمر إلى عثمان حكم بإشراك أهل العراق فى الغنيمة فحسم الخلاف[(٤)] .

وأخذت جماعات من أهل الكتاب تنضم إلى صفوف الجيش الإسلامى بشكل جماعات – فكان ذلك نذير خطر – فى عهد عثمان بتشجيع من زعماء أهل الكتاب فراراً من الجزية أو بقصد التسلل إلى صفوف الجيوش الإسلامية وبذر بذور الفرقة تسهيلا لمهمة دعاة الفتنة .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٥٣١ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٥٨٠ . الكامل ج ٢ ص ٤٦٩ .
(٣) العينى ج ٩ ق ١ ص ٩٣ .
(٤) نفسه ص ٩٦ .

ولما تزوج عثمان نائلة بنت الفرافصة الكلبية سنة ٢٨ هـ [(١)] أو سنة ٣٠ هـ [(٢)] – وكانت نصرانية فأسلمت وحسن اسلامها قبل أن يدخل بها [(٣)] – تمكنت قبيلة كلب النصرانية أن تلعب دوراً هاماً فى الأحداث السياسية فى الشام [(٤)] بحكم مصاهرتها عثمان ، واستغلوا اسم نائلة فى التحريض دون أن يكون لها دور ، فقد أشاعوا بين الشاميين الدعايات التى ألهبت النفوس ضد علىّ . وقالوا : إن نائلة كتبت إلى معاوية كتابا تخبره فيه بأمر عثمان ومقتله وتعلمه أن أهل مصر أسندوا أمرهم إلى على بن أبى طالب وابن أبى بكر وعمار بن ياسر فأمروهم بقتله ، وأن فيمن حصره خزاعة وسعد بن بكر وهذيل وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب ، وبعثت بقميصه إليه . فقال قوم من أهل الشام : والله لنقتلن عليا [(٥)] .

استفحال الفتنة السبئية فى مصر :

فى الوقت الذى اشتدت فيه الفتن فى البصرة والكوفة ، كان ابن سبأ فى فسطاط مصر يعمل بجد على إشعال الفتنة بين الحاكم ورعيته ويسلل أفكارا غريبة على الفكر الإسلامى فيقول للرعية :

« العجب من يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ . محمد أحق بالرجوع من عيسى » .

فوضع مبدأ الرجعة . ثم قال لهم : « إنه كان لكل نبى وصى وعليّ وصيّ محمد فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصيّه . وإن عثمان أخذها بغير حق ، فانهضوا فى هذا الأمر وابدأوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلون الناس » .

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٤٩ .
(٢) العينى ج ٩ ق ١ ص ٦٢ .
(٣) الكامل ج ٣ ص ٤٩ .
(٤) العينى ج ٩ ق ١ ص ٦٢ .
(٥) الأنساب ج ٥ ص ٤١٣ .

وبث دعاته وكاتب من استفسد فى الأمصار الأخرى وكاتبوه ، وكان عملاؤه يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون حتى تناولوا المدينة وأوسعوا بذلك الأرض إذاعة [(١)] والحق أن ذكاء ابن سبأ جعل بشرا كثيرا يفتن به من أهل مصر وتولوا الاتصال بعوام أهل الكوفة والبصرة فمالأوا على ذلك وتكاتبوا فيه وتواعدوا أن يجتمعوا فى الإنكار على عثمان وأرسلوا له من يناظره ويذكر له ما ينقمونه عليه [(٢)] ووجد ابن سبأ محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر عوناً له على فتنته [(٣)] ومحمد بن أبى حذيفة ولد فى الحبشة ووالده من كبار الصحابة المهاجرين الأولين ، فتربى فى كنف عثمان بعد استشهاد والده فى اليمامة . وطلب من عثمان أن يوليه عملا بعد أن بويع بالخلافة فقال : لست أهلاً لذلك ولو كنت أهلا لذلك لوليتك . فاستأذنه فى الخروج إلى مصر فجهزه ولما قدمها رأى الناس عبادته فكرّموه حتى قدم عبد الله بن السوداء ودعا إلى بدعته فكان أول من أجابه مع محمد بن أبى بكر . ولما خرج المحمدان مع عبد الله بن أبى السرح فى غزوة ذات الصوارى تكلما فى عثمان وأظهرا عيبه وقالا : « قد خالف أبا بكر وعمر واستعمل عبد الله ابن سعد رجلا كان رسول الله قد أباح دمه ونزل القرآن بكفره وأخرجه رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر » .

ولما بلغ ابن أبى السرح ذلك أمرهما بألا يركبا معهم . فركبا مركبا مع القبط ولم يقاتلا قائلين : « كيف نقاتل مع ابن أبى السرح الذى استعمله عثمان وقد فعل عثمان كذا وكذا » [(٤)] ورجعا إلى مصر يفسدان الناس على عثمان [(٥)] فغضب ابن أبى السرح وقال لهما :

---

(١) الكامل ج ٣ ص ٧٧ . التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ص ٨٨ .
(٢) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٤٥ .
(٣) رسالة التوحيد ص ١٢ .
(٤) انظر المقفىّ . مادة محمد بن أبى حذيفة ، والأنساب ج ٨ ورقة ٤٠٩ .
(٥) المقفى . مادة محمد بن أبى حذيفة . الكامل ج ٣ ص ٥٨ – العينى ج ٩ ق ١ ص ٩١ .

« والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما أو حبستكما »[١]
وشكاهما إلى عثمان . ولكن عثمان كتب إليه يقول :

« أما ابن أبى بكر فإنه موهب لأبيه وإلى نبيه . وأما ابن أبى حذيفة فإنه ابنى وابن أخى وهو تربيتى وفرخ قريش »[٢] . ولكن ابن أبى السرح أدرك أن وراء ابن أبى حذيفة من يحركه فكتب إلى عثمان : « إن هذا الفرخ قد استوى وشب ولم يبق إلّا أن يطير » ، فبعث عثمان إلى ابن أبى حذيفة بثلاثين ألف درهم وحمل إليه كسوة ، فوضع محمد ذلك فى المسجد ، وقال : « يامعشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعنى عن دينى ويرشونى » . فازداد أهل مصر تعظيماً له وطعناً على عثمان وبايعوه على رئاستهم[٣] .

وقد طاف ابن سبأ فى كوز مصر وأظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتكلم فى الرجعة فقررها فى قلوب المصريين ، فاستجاب له غير المحمدين : الغافقى بن حرب العكى . وكنانة بن بشير التجيبى وسودان بن حمران السكونى من مراد اليمنية .

وقد تبنى السبئيون قصة **أبى ذر الغفارى**[٤] ابتدعوها ونشروها فى

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٩١ .
(٢) فى المقفى (مرنس) وهو خطأ فى النسخ .
(٣) المقفى مادة محمد بن أبى حذيفة .
(٤) كان أبو ذر رضى الله عنه وهو جندب بن جنادة الغفارى على رأس طائفة من زهاد الصدر الأول من العابدين المتمسكين بتعاليم الدين فى تزمت شديد ، متصفاً بالأمانة والصدق وكان يفتى فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ولكنه لا يصلح للإمارة فقد قال له النبى ﷺ : « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمّرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » (صحيح مسلم ج ٦ ص ٧ مسند أحمد ج ٥ ص ١٨٠ – الطبقات ج ٤ ص ٢٣١) مع أنه كان يقول عنه : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر – الطبقات ج ٤ ص ٢٢٨ .

الأمصار الإسلامية لاستقطاب الجماهير ، فقد كان رضى الله عنه من عادته أن يقرّع العمال ويتلو قوله عز وجل :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [١] .

ولما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال :

« يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله . ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين » . فأتاه أبو ذر فقال : ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أباذر : ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره . قال : لا تقله . قال : فإنى لا أقول إنه ليس له ولكن سأقول : مال المسلمين . وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء بشّر الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس . فكتب معاوية إلى عثمان فأمره أن يبعث إليه أباذر ويبعث معه دليلا وأن يرفق به .

واستمر أبو ذر فى المدينة يسلك تلك الطرق فقال له عثمان : لو اعتزلت ومعناه أنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس فإن للخلطة شروطاً وللعزلة مثلها ومن كان على طريقة أبى ذر فى عدم استجازة ادّخار النقدين وما فيه من حدة فحاله يقتضى أن ينفرد بنفسه أو يخالط ويسلم كل أحد حاله مما ليس بحرام فى الشريعة [٢] فاستأذن أبو ذر بالخروج إلى الربذة فأذن له عثمان وأرسل إليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا [٣] وكان مما يزيد حدة الخلاف فى الرأى :

---

(١) التوبة الآية ٣٤ .
(٢) العواصم من القواصم ص ٧٤ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٨٤ . الكامل ج ٢ ص ٦٧ .

كعب الأحبار الذى تبنّى رأيا يخالف أبا ذر فى حين يتظاهر ابن سبأ بتأييد رأيه كدأب الأساليب الصهيونية فى تتبع المتناقضات واستثارتها ثم استغلالها لإشعال الفتن .

وقد استغل السبئيون اعتزال أبى ذر فى الربذة ووفاته بها سنة ٣٢ هـ [(١)] وبما أوتوا من دعاية منظمة أشاعوا بين المسلمين روايات تحكى قصصا عن نفيه واضطهاده والتضييق عليه ، فزعمت أن عثمان نفى أبا ذر وصدقها كثير من جماهير المسلمين ومؤرخيهم [(٢)] .

السبئية تخطط لاغتيال عثمان :

وبعد أن كثر أتباع السبئية وتكاتبوا خططوا لاغتيال عثمان فاجتمع نفر فيهم الأشتر وزيد بن صوحان وكعب بن ذى الحبكة وأبو زينب وأبو مورع وكميل بن زياد وعمير بن ضابىء فقالوا : لا والله لا يرفع رأس ما دام عثمان على الناس . فتعهد عمير وكميل بقتله فركبا إلى المدينة فأما عمير فإنه نكل عنه وأما كميل فإنه حاول ففشل . ثم أقسم لعثمان أنه ما أراد شراً [(٣)] وبلغت الدعاية السبئية عام ٣٤ هـ كل مبلغ وأصبح طعنهم فى الأمراء يكاد يكون رأيا عاماً لدى كافة الأمصار ، كما انساق معهم بعض الصحابة واقعين تحت تأثير دعايتهم فتناهت الأنباء لعثمان وأدرك أن الفتنة واقعة فجمع الصحابة واستشارهم فأشاروا عليه أن يبعث رجالا ممن يوثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا له بالأخبار فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعمار بن ياسر إلى مصر وعبد الله ابن عمر إلى الشام وفرق رجالاً سواهم . فرجعوا جميعا إلّا عمار بن ياسر الذى استبطأه الناس حتى ظنوا أنه اغتيل فلم يفاجئهم إلا كتاب من عبد الله بن سرح

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) كاليقعوبى ج ٢ ص ١٧٢ . ولفهم الحقائق عن أبى ذر انظر : مسند أحمد ج ٥ ص ١٤٤ . الطبقات ج ٤ ص ٢١٩ - ٢٣٧ معجم الطبرانى الكبير ج ٢ ص ١٥٥ . أسد الغابة ج ١ ص ٣٥٧ و ج ٦ ص ٩٩ ، ١٠١ . الإصابة ج ١١ ص ١١٨ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٤٠٣ .

يخبرهم أن عمارا قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه منهم : عبد الله ابن السوداء وخالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر [١] .

فدعا عثمان حكام الأقاليم لبحث الموقف وإنقاذ الأمة مما ستتردّى فيه ، وكان ذلك بعد فوات الأوان وبعد أن استفحل دعاة السبئية بل بلغ بهم الأمر أن أرسلوا إلى عثمان من يناظره ليضيفوا إلى دعايتهم مادة جديدة لدى العامة ، فأرسلوا إليه رجلاً عنبرى من تميم [٢] فازداد عثمان إدراكاً لأبعاد الفتنةوأن فيها الخاصة والعامة فأرسل إلى معاوية وعبد الله بن سعد بن سرح وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وعمرو بن العاص وهم أمراء الأجناد [٣] ما عدا عمرو بن العاص الذى لم يكن واليا آنذاك . فشاورهم فى أمره ، فقال عبد الله بن عامر :

رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم فى المغازى حتى يذلوا فلا يكون همة أحدهم إلّا نفسه .

وقال سعيد بن العاص : يا أمير المؤمنين أن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

وقال معاوية : أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكتابة لما قبلهم وأنا ضامن لما قبلي .

وقال عبد الله بن سعد : أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم .

أما عمرو بن العاص فقال : أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعتدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل فإن أبيت فاعتزم عزما وامضى قدما . فغاظ ذلك عثمان ، وبعد أن تفرق القوم قال له : لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز علىّ

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٤١ .
(٢) نفسه .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

من ذلك ولكن قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً [١] .

وتظهر فى هذه المحادثات أن لين عثمان [٢] وعدم حزمه للسن التى بلغها أثر فى ازدياد قوة أنياب السبئية والدعاية المنظمة لها كما يظهر أن الاتجاه العام كان انتهاج سياسة هى أقرب للشدة ليقطع دابر الفتنة . فقد رد عثمان عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم وأمرهم بتجمير الناس فى البعوث وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه .

ولكن السبئية الواعية لكل حركة يمكن أن تحبط مخططاتها تناهت إليها أنباء الاجتماع فتحركوا فى مصر وكاتبوا أتباعهم من أهل الكوفة والبصرة وجميع من أجابهم أن يثوروا بخلاف أمرائهم واتعدوا لذلك يوماً [٣] .

ففى الكوفة نهض يزيد بن قيس بمن معه ممّن تألّب على عثمان يعاونه الأشتر الذى أسرع بالحضور من عند عبد الرحمن بن خالد فوصل الكوفة يوم الجمعة فقام خطيبا فى المسجد وقال :

« أيها الناس : إنى قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم إلى مائة درهم ورد أهل البلاء منكم إلى ألفين ويزعم أن فيئكم بستان قريش » .

فاستخف الناس وجعل القعقاع بن عمرو وغيره ينهونه فلا يسمع منهم .

وخرج يزيد بن قيس بالجموع التى استثارها الأشتر بحجة رد سعيد وطلب أمير غيره حتى نزل الجرعة وهناك قابلوا سعيداً فردوه ، ولكن الناس اجتمعوا على أبى موسى الأشعرى بعد خطبة استعاد بها وعى الجماهير فأقره عثمان [٤] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٣٤ .
(٢) الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٧ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٥ .
(٤) الأندلسى ص ٩٦ .

وفى مصر : تحرك ابن أبى حذيفة بجموع السبئية فى غياب عبد الله فانتزا على عقبة بن عامر خليفة ابن أبى السرح فى شوال سنة ٣٥ هـ وأخرجه من الفسطاط ودعا إلى خلع عثمان عن الخلافة وأسعر البلاد وحرض على عثمان بكل شيء يقدر عليه . فكان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى ﷺ فى الطعن على عثمان فيأخذ الرواحل فيحصرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم فيجعلهم على ظهور بيت فى الحر فيستقبلون بوجوههم الشمس ليلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا من طريق المدينة ثم يرسلوا رسلا يخبرون بقدومهم فيأمر بتلقيهم فإذا لقوا الناس قالوا لهم : ليس عندنا خبر . الخبر فى الكتب ، فيتلقاهم ابن أبى حذيفة ومعه الناس فيقول لهم الرسل : عليكم بالمسجد ، فيقرأ عليهم الكتب من أمهات المؤمنين : إنا نشكو إليكم يا أهل الإسلام كذا وكذا من الطعن على عثمان فيضج أهل المسجد بالبكاء والدعاء (١) .

ولما أرسل عثمان سعد بن أبى وقاص ليصلح ما أفسده ابن أبى حذيفة حرض محمد على سعد قائلا : إن عثمان بعث سعداً ليضل جماعتكم ويشتت كلمتكم ويوقع التخاذل بينكم فانفروا إليه . فنفر إليه مائة فلقوه وقد ضرب فسطاطه فغلبوه عليه وشجوه وسبّوه فركب راحلته وعاد راجعاً من حيث جاء (٢) وردوا عبد الله بن سعد عند جسر القلزم ، فانصرف إلى عسقلان فاشتدت الفتنة فى مصر وغلب عليها السبئيون (٣) الذين استطاعوا إثارة الجماهير وكسب العديد من القادة بترويج معايب عثمان متظاهرين قصد الإصلاح (٤) لطعن الإسلام وتفتيت المسلمين فغايتهم الإفساد ولن يعدم المدقق أن يلمس خبث طواياهم إذا أنعم النظر فى مآتى هؤلاء الثائرين وقد أشاعوا فى الأمصار الإسلامية كلها وخاصة

---

(١) المقفى ج ١ ص   . مادة محمد بن أبى حذيفة . الكندى ص ١٤ .
(٢) الإصابة ج ٦ ص ٥٣ . الكندى ص ١٦ . المقفى ص ٢٠٠ .
(٣) المقفى . مادة محمد بن أبى حذيفة .
(٤) ذكر فروخ وغيره أن غاية هؤلاء المطالبة بالإصلاح .
انظر فروخ – تاريخ الفكر العربى ص ١٨٥ .

مصر أن الصحابة كتبوا إلى بعضهم البعض : أن أقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد [(١)] فأوقع هذا الكثيرين فى الوهم بأن أصحاب الرسول ﷺ فى المدينة التقوا على البغض لبطانة عثمان مع أهل الأمصار فتبنى المستشرقون هذا الرأى واتهموا الصحابة [(٢)] وقد نجح السبئية فى اختيار الأمصار لدعايتهم لأنها كانت تتركز فيها القوة الحربية والمالية للدّولة الإسلامية .

السبئية تقتل عثمان رضى الله عنه :

فشل موعد السبئية سنة ٣٤ هـ فاتعدوا لفتنة أخرى سنة ٣٥ بالتوجه إلى المدينة مع الحجاج كالحجاج [(٣)] بعد أن تمت خيوط المؤامرة وتهيأ الجو لتنفيذها باستفساد دعاة السبئية الناس فى الأمصار وإجابتهم لهم [(٤)] فكاتبهم ابن سبأ وهو بمصر واختلف الرجال بينهم [(٥)] . فخرج أهل مصر سنة ٣٥ هـ فيما بين ستمائة وألف رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوى [(٦)] أو الغافقى بن حرب العكى [(٧)] كالحجاج ومعهم ابن السوداء متنكراً [(٨)] ، كما خرج أهل

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٢) انظر ولهوزن ص ٤٤ وهو يعكس رأى المستشرقين يقول : إن الغالبية الكبرى فى العاصمة وخصوصا الأنصار كانت وراء أهل الأمصار وكان على رأسهم الصحابة علي وطلحة والزبير على أن غضب الصحابة على بطانة عثمان كان له أسباب أخرى وقد كان من السهل عليهم أن يجعلوا لمناقشتهم تلك البطانة الصبغة الدينية اللازمة وأن يظهروا مدافعين عن الكتاب والسنة وأن يستغلوا السخط الدائم لمصلحتهم . ولكن بالرغم من جرأتهم على عثمان وعدم احترامهم له فإنهم لم يشاءوا أن يستعينوا بأهل المدينة ويحاربوه هم أنفسهم حربًا سافرة تحت سمعه وبصره بل هم آثروا أن يقذفوا النار فى الأمصار .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٤) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٦٨ .

(٥) الكامل ج ٣ ص ٧٢ . الأندلسى ص ٩٦ .

(٦) المقفى . ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٤٩ .

(٧) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٨) نفسه .

الكوفة بعدد كعدد أهل مصر عليهم عمرو بن الأصم [١] أو الأشتر [٢] وكذلك أهل البصرة فى عدد كعدد أهل مصر وعليهم حرقوص بن زهير السعدى [٣] أو حكيم بن جبلة [٤] ، خرج الجميع وبمن تلاحق من الناس [٥] فى وقت واحد وبهدف واحد وبحجة واحدة ، فكيف تمّ توافق هؤلاء وأولئك وكيف تمّ تواعدهم إذا أبعدنا عن المسرح عبد الله بن سبأ وكعب الأحبار وغيرهم من أهل الكتاب الذين برعوا فى التأويل والدسّ الذى لم يكن من اختصاص المسلمين فى ذلك العهد المتقدم بل كان من اختصاص أهل الكتاب وأساليبهم ؟ .. وعلى بن أبى طالب الذى كانت تدور الأحداث باسمه كان فى المدينة لا يعلم شيئاً وإذا علمه كان ينكره أشد الإنكار ويتبرأ منه . ثم كيف يتصرف هؤلاء القوم دون قيادة ؟ قيادة فكرية واضحة بمخططات محكمة برع فى مثلها اليهود منذ أقدم العصور يستغوون الجماهير وأصحاب المصالح وطلاب الزعامات ويقودونهم لتنفيذ مآربهم [٦] .

ولما كان هؤلاء على ثلاث من المدينة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب ونزل ناس من أهل الكوفة الأعوص وانضم إليهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذى المروة وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف [٧] فأرسل إليهم عثمان من يفاوضهم فظهرت سوء نياتهم من خلال المفاوضة فقد قالوا :

نريد أن نذكر له أشياء زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه [٨] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٩ . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٤٥ . ذكر عددهم مائتين .
(٢) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٠٣ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٩ . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٤٥ ذكر أن عددهم مائة .
(٤) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٠٣ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٩ . الكامل ج ٣ ص ٧٤ .
(٦) انظر : بروتوكولات حكماء وصهيون فى قيادتهم للعميان . البروتوكول العاشر ص ١٤٣ - ١٤٧ .
(٧) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٤٩ .
(٨) الطبرى ج ٤ ص ٣٤٦ .

وأرسل زعماء الجماعات إلى الصحابة على وطلحة والزبير يحاولون استثارتهم كمناورة أمام جماعاتهم ، وكان الصحابة وأهل المدينة قد صمموا على منعهم من تحقيق أهدافهم بالرغم من كرههم الفتنة ولم يكن بظنهم أبدا أن يصل الأمر إلى قتل عثمان (١) وكان زعماء الجماعات من الذكاء والفطنة بحيث تمكنوا من التفريق بين أهل المدينة والصحابة وعثمان بأن تظاهروا بالعودة إلى أمصارهم وأخذوا يزولون عن معسكراتهم فى الضواحى وتخلف منهم الأشتر وحكيم بن جبلة فى المدينة حتى إذا استيقن أهل المدينة أن قد زال الخطر وأن القوم رجعوا أدراجهم واستأنفوا حياتهم على ما ألفوا من أمن وهدوء فجأتهم الجماعات ودخلت المدينة وأحاطوا بعثمان وقالوا : من كف يده فهو آمن (٢) . وأثناء ذلك سللوا إلى الصحابة وأهل المدينة قصة الكتاب (٣) المزعوم ليبرروا عودتهم فأشاعوا ومعهم حمران بن أبان « أن عثمان أعطى القوم ما أرادوا .. » وأن مروان بن الحكم أمر حمران أن يكتب إلى ابن أبى السرح أن يضرب أعناق من ألب على عثمان وأنه بعث الكتاب مع غلام لعثمان يقال له حدس على ناقة من نوقه فمر بالقوم وهم نزول بحسمى ، فاتهموه وأخذوه وقرروه وأخرجوا الكتاب من إداوة له وانصرفوا إلى المدينة فبدأوا بعلى (٤) يستميلونه إلى جانبهم ، ويظهر فى القصة المزعومة أن الرجل كان يعرض للمصريين ثم يفارقهم مراراً ويكرر ذلك . وما كان إلّا ليلفت أنظارهم إليه ويثير شكوكهم منه وهذا ما أراده مستأجر الرجل لتمثيل هذا الدور ، وقد يكون المستأجر له الأشتر وحكيم (٥) اللذان تخلفا فى المدينة وهى خطة مدبرة مسبقا لرجوع هذه الجماعات بعد أن يأمن أهل المدينة . ولا يعقل لو كان الكتاب صحيحاً أن يوجه لابن أبى السرح لأن عبد الله كان قد خرج من مصر إلى

---

(١) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٤٩ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٥١ .
(٣) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٤٥ . الطبرى ج ٤ ص ٣٥٥ . اليعقوبى ج ٢ ص ١٧٥ الإمامة والسياسة ج ١ ص ٣٧ . تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٦١ .
(٤) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٠٤ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٣٧٥ .

عسقلان كما لا يعقل أن يكتبه حمران الذى كان من المغضوب عليهم عند عثمان فلا يعقل أن يكون كاتبه آنذاك .

والأعجب من كل شيء أن قوافل العراقيين كانت متباعدة فى الشرق عن قوافل المصريين فى الغرب بمراحل متعددة وعادتا معاً إلى المدينة فى آن واحد ووصلتا المدينة معا كأنما كانوا على ميعاد ، ومعنى هذا أن الذين استأجروا الراكب لتمثيل دور حامل الكتاب أمام قوافل المصريين استأجروا راكباً آخر قاصداً قوافل العراقيين ليخبرهم بأن المصريين اكتشفوا كتابا بعث به عثمان إلى عبد الله بن أبى السرح . فقد قال على رضى الله عنه :

« كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا ، هذا والله أمر أبرم بالمدينة » (١) قالوا : فضعوه على ما شئتم ، لا حاجة لنا فى هذا الرجل ليعتزلنا . وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة وأن الغرض هو إثارة الفتنة فما كانت قصة الكتاب فى واقعها إلّا من جملة الدسائس التى اتبعوها للحيلولة دون نصرة أهل المدينة لعثمان ودلت على ذكاء وفطنة المخططين ، فبلغت بهم الجرأة أن أتوا الصحابة وقالوا لهم : قوموا معنا إلى هذا الرجل ، فكانت حجة لهم لا عليهم أمام الجماهير وأمام جماعاتهم ، ولما قدم قوادهم إلى على قالوا له : قم معنا إلى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ قال والله ما كتبت إليكم قط (٢) وكأنهم بذلك يثبتون لدى جماعاتهم صحة إشاعاتهم عن كتب الصحابة إلى الأمصار وتصوير عملهم هذا أنه بوحى من الصحابة ، فأشاعوا فى المدينة أن أكثر من كان يؤلب على عثمان طلحة والزبير وعائشة (٣) .

وبالرغم من إدراك الصحابة للخطر ومحاولتهم دفعه ، إلّا أن أبعاد المؤامرة لم

---

(١) الطبرى – تاريخ ج ٤ ص ٣٥١ ويشير إلى تخلف الأشتر وحكيم فى المدينة .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٩٢ .

(٣) اليعقوبى – تاريخ – ج ٢ ص ١٧٥ .

تكن واضحة لديهم لتلاحق الإشاعات عن الأمصار وللاتصالات المستمرة بين دعاة الفتنة والصحابة ، ومن دلائل إدراكهم للخطر وأن الحركة حركة رعاع قول سعد بن أبى وقاص بعد أن عرف أسماء الزعماء وصفّق بيديه : « والله إن أمراً هؤلاء رؤساؤه لأمر سوء » [١] .

ولما دخلت الجماعات المدينة كوّنت زمراً يمنعون الناس عن الاجتماع [٢] ليصفو الجو لإشاعاتهم فقط ، فأكدوا بأن أهل المدينة قد خلّوا بين المصريين وبين ما أرادوا ولم يتدخلوا لمنعهم . وتناقل هذه الإشاعة بعض الرواة بحسن نية أو بسوئها .

والمتتبع للأحداث يجد أن الصحابة فى المدينة أصبحوا كالمأسورين لا يستطيعون التصرف المستقل ، فقد فاجأتهم الأحداث وأخذتهم الحيرة ، ولا أدل على ذلك من قول على لابنه الحسن حين لامه على عدم تركه المدينة فيقتل عثمان وهو ليس بها – قال على –: « أى بنى أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به » [٣] .

ولما قام محمد بن مسلمة وشهد لعثمان بالحق أخذه حكيم بن جبلة فأقعده . وقام زيد بن ثابت فقال : أبغنى الكتاب ، فثار إليه من ناحية أخرى محمد بن أبى قتيرة وقال فأفظع . وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وحصبوا عثمان حتى صرع عن المنبر مغشياً عليه [٤] ورغم ذلك صمم بعض الصحابة على التحدى والقتال ومنهم : سعد بن مالك وأبو هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن على ولكن عثمان أدرك عظم الخطر فبعث إليهم بعزمه لمّا انصرفوا ، فانصرفوا [٥] .

---

(١) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٥٠ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٥١ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٦ .
(٤) نفسه ج ٤ ص ٣٥٣ .
(٥) الأندلسى ص ١١٣ .

وبعد أن أوسع السبئية المدينة دعاية ضد عثمان وأصبح الرأى العام إلى جانب دعاة الفتنة بما أشاعوه وتناقله عملاؤهم استغلوا الفرصة ودخلوا على عثمان داره [١] وكان معهم : أبو قرة عبد الرحمن بن الأسود من سبي عين التمر ، ابتاعه عثمان من فاتح الأسدى وجعله يحفر القبور فلما وثب الناس كان معهم عليه فقال له : رد المظالم . فقال له : « أنت أولها ، ابتعتك من مال الصدقة لتحفر القبور فتركت ذلك » [٢] .

وظهرت فى قصة مقتل عثمان قصص غريبة من الحقد أظهره دعاة الفتنة وخاصة أهل مصر الذين تمكنت فيهم الدعاية السبئية فكانوا أجرأ الناس على عثمان يسيرهم الحقد اليهودى متمثلاً فى عبد الله بن سبأ المتنكر بينهم فقد دخل أحدهم الدار على عثمان ومعه السيف مصلتاً وقال : « والله لأقطعن أنفه » ولما حاولت المرأة منعه قطع إبهامها [٣] أما الغافقى فقد ضربه بحديدة كانت معه [٤] وأما كنانة بن بشر الكندى [٥] فرفع مشاقص كانت فى يده فوجأ فى أصل أذن عثمان حتى دخلت فى حلقه ثم علاه بالسيف [٦] . وكان عمرو بن الحمق قد وثب على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات [٧] . ولم يكتف السبئية بذلك بل اخترعوا قصصاً عن تأليب الصحابة على عثمان واخترعوا كتابا فيه فصاحة وأمثال كتب به عثمان مستصرخاً علياً [٨] ليوغروا قلوب المسلمين على السلف الماضين والخلفاء الراشدين .

---

(١) الفصل ج ٤ ص ١٥٨ . الأنساب ج ٨ ورقه ٤٠٩ – المقفى .
(٢) فتوح البلدان ص ٢٤٩ .
(٣) الاستيعاب ق ٢ ص ١٠٤٥ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٣٩١ .
(٥) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٩٣ .
(٦) الطبرى ج ٤ ص ٣٩٣ .
(٧) نفسه ص ٣٩٤ .
(٨) المبرد ج ١ ص ٢٧ . الطبرى ج ٤ ص ٣٧٠ .

ووقعت المأساة واحتمل الصحابة ما تمخضت عنه من عبء ثقيل فقال علي حين بلغته إشاعات السبئية :

« والله ما قتلت ولا أمرت ولكن غلبت » – يقول ذلك ثلاث مرات [١]

وعن عائشة حين قتل عثمان : تركتموه كالثوب النقى من الدنس ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش هلاكان هذا قبل هذا ؟ [٢] فقال لها مسروق : « هذا عملك أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه . فقالت « لا والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوداء فى بيضاء حتى جلست مجلسى هذا » .

وقد كانوا يكتبون على لسانها [٣] يستثيرون الناس ومر ذكر أسلوب محمد ابن أبى حذيفة فى ذلك .

ج) النزاع بين الصحابة رضي الله عنهم :

ظـــروف تولية عليّ الخلافة وأسباب قبوله :

وبمقتل عثمان بهت أهل المدينة والصحابة واختلط عليهم الأمر فبقيت المدينة خمسة أيام بدون خليفة يسيطر عليها الغوغاء من أهل الأمصار ، وكان على يختبىء منهم ويلوذ بحيطان المدينة [٤] فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم وكذلك طلحة والزبير إلى أن هدد الأشتر بقتل الثلاثة إن لم يبايع لأحدهم فاستجاب على وأحضر طلحة مكرها فبايع [٥] .

وفى ذلك الوضع يعتبر قبول عليّ الخلافة تضحية كبيرة لأنه فى الواقع كان أسيرا بين دعاة الفتنة يسيّرونه ولا يسيّرهم . وذلك واضح عند تتبع أحداث الفتن بعد مقتل عثمان . فقد بدأوا بتهديده حتى قبل أن يلى الخلافة بإلحاقه بعثمان

---

(١) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٥٧ .

(٢) ويظهر أن السبئية أضافت : هلا كان هذا قبل هذا . أو أن الدعاية السبئية كانت قد استفحلت بحيث اعتقدت عائشة المناكير التى ألصقت بعثمان صحيحة .

(٣) الأنساب ج ٥ ص ٤٢ . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٥٧ .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٢ .

(٥) الأنساب ج ٢ ورقة ٣٧٨ . الطبرى ج ٤ ص ٤٣٥ – المقفى . مادة مالك الأشتر .

صاحبه . فقيل له : « لتنصبن لنا نفسك أو لنبدأن بك » [١] .

وجاءه العبسيّ يحمل جواب معاوية وأعلمه أن أهل الشام يتهمونه بقتل عثمان ولا يرضون إلّا أن يقتلوه به . فقال له على : منّي يطلبون دم عثمان ، ألست موتوراً كترة عثمان ، اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان ، نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله فإنه إذا أراد أمراً أصابه . أُخرج . قال . وأنا آمن – قال : وأنت آمن .

فخرج العبسي وصاحت السبئية : هذا الكلب وافد الكلاب ، اقتلوه [٢] فلم يكد يفلت منهم إلا بعد مشقة وجهد وعناء وبعد أن تنادى بالعصبية قائلا : يا آل مضر ... فعليّ يؤمنه والسبئية تضرب أمانه عرض الحائط .

وكان رضى الله عنه يدرك أنه ليس له من الأمر شيء أمام قوة دعاة الفتنة الذين استثاروا الجماهير باسمه ، ولما جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له : « إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم » . قال لهم : « إنى لست أجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون » ؟ قالوا : لا . قال : « فلا والله فلا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله . إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا ، إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فأهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا [٣] .

والعجيب أن عليا الذى طالب الصحابة بالهدوء عنه فى أمر مقتل عثمان لم

---

(١) الأنساب ج ٢ ص ٣٧٨ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٤٦ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٤ . الأنساب ج ٢ ص ٣٨٥ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٧ .

يطالب نفسه بتأجيل عزل ولاة عثمان حتى يستقر له الأمر وليس لذلك تفسير سوى وقوعه تحت سيطرة السبئية الأمر الذى جعله يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أنّ هذا حد من حدود الله ويسرع فى أمر يقود إلى فتنة . وقد عبر تعبيراً صادقا عن وضعه لابنه الحسن :

« والله ما زلت مقهورا منذ وليت منقوصاً لا أصل إلى شيءٍ مما ينبغى » [١]

وشعر القرشيون بهذه السيطرة فاستبد بهم الخوف فأخذوا يهربون من المدينة متجمعين بمكة . وبرز الأشتر محب الرئاسة الذى هدد عبد الله بن عمر بن الخطاب عندما امتنع عن البيعة [٢] كما أنه وعن طريق علىّ حاول أن يترفع ليصل مرتبة الصحابة ، فعندما استعفى عبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وغيرهم من على وبلغ ذلك الأشتر دخل على علىّ فقال : « يا أمير المؤمنين إنا وإن لم نكن من المهاجرين والأنصار فإنا من التابعين بإحسان وأن القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه فليسوا بأولى مما شركناهم فيه ، وهذه بيعة عامة الخارج منها طاعن مستعتب فحض هؤلاء الذين يريدون التخلف عنك باللسان فإن أبوا فأدبهم بالحبس » . فقال على : « بل ادعهم ورأيهم الذى هم عليه » [٣] .

وحاول رضى الله عنه أن يتخلص من نفوذ السبئية بإحداث صدع بينهم وبين الجماهير ليعزلهم ، فخرج على الناس فى اليوم التالى لإمارته فقال :

« يا أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب » . وقال :

« يا معشر الأعراب ، الحقوا بمياهكم » [٤] .

ولكن السبئية وقد أدركوا مراده ذمروا الأعراب على عدم الخروج وقالوا لبعضهم : لنا غدا مثلها ولا نستطيع نحتج منهم بشيء .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٦ .
(٢) الأنساب ج ٢ ص ٣٧٩ . المقفى . مالك الأشتر . .
(٣) الأخبار الطوال ص ١٤٣ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٨ .

موقعة الجمـل :

كان على رضى الله عنه يريد أن ينفرد الوالغون فى دم عثمان من السبئية فلا يجدون مدداً من الغوغاء فيستطيع حينئذ أن يثأر منهم ، وعندما أراد الخروج إلى الشام لم يول ممن خرج على عثمان أحداً فهالهم الأمر وحركوا الفتنة بينه وبين طلحة والزبير وعائشة بأن نقلوا إليه : إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالئوا على سخط إمارته ودعوا الناس إلى الإصلاح [١] فكان جوابه لهم : « وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا وأقتصر على ما بلغنى عنهم » .

كان رأى طلحة والزبير قد اجتمعا على المسير إلى البصرة وأقنعا عائشة وحفصة بذلك [٢] فحال ابن عمر بين حفصة والخروج فقعدت ، وأمدهم يعلى ابن أمية بالمال بعد أن قدم من اليمن [٣] وقرروا جميعا قتال السبئية حتى يثأروا وينتقموا لعثمان [٤] ، فأحكم السبئية خطتهم بأن انتشروا بين الفرقاء يشعلون البغضاء ويشيعون الإشاعات ليزداد كل فريق خوفا من الفريق الآخر .

وأدرك كثير من المسلمين أن الفتنة خطيرة ولكن الأحداث كانت تجرفهم فلا يستطيعون وقفها ، فهذا عثمان بن حنيف يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، دارت رحا الإسلام ورب الكعبة » [٥] . وأما الزبير فقال : « إن هذه لهى الفتنة التى كنا نحدث عنها » . فقال له مولاه : « أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟ » قال : « ويحك إنا نبصر ولا نبصر ، ما كان أمر قط إلا علمت موضع قدمى منه غير هذا الأمر فإنى لا أدرى ، أمقبل أنا فيه أم مدبر » [٦] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٦ .
(٢) نفسه ص ٤٥٠ - ٤٥١ .
(٣) الأنساب ج ٢ ص ٣٨٣ .
(٤) الذهبى - العبر ص ٣٧ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٤٦٣ .
(٦) نفسه ٤ ص ٤٧٦ .

وبكى ثمامة بن عدى أمير صنعاء (وكانت له صحبة) لما بلغه مقتل عثمان وطال بكاؤه فلما أفاق قال : « هذا حين انتزعت خلافة النبوة » (١) .

وأبو موسى الأشعرى خطب أهل الكوفة ينصحهم ألا يتدخلوا فى هذه الفتنة حتى يلتئم الأمر وتنجلى الفتنة (٢) .

أما على فقد تحرك رضى الله عنه لما سمع بخبر مسير الصحابة إلى البصرة ليحول بينهم وبين الخروج حتى انتهى إلى الربذة فبلغه ممّرهم فأقام حين فاتوه يأتمر بالربذة (٣) .

وفى البصرة تمكن حكيم بن جبلة أن يدفع الجماعات الإسلامية للاقتتال باستثارة العصبية ضد قريش (٤) . ولكن الصحابة تمكنوا من إفراد سبئية البصرة ، فأنشب حكيم القتال فيمن غزا معه عثمان من نزّاع القبائل وفيهم ذريح وابن المحرش وحرقوص بن زهير (٥) فقتلوا جميعا إلا حرقوص أنقذته تميم .

وخرج على يريد الكوفة وتباطأ فى سيره وتباطؤ على رضى الله عنه ليس له إلا تفسيراً واحداً هو اتفاق الصحابة ليتخلص كل فريق منهم من قتلة عثمان ومن سيطرة السبئية بدليل رفضه أن يضم فى جيشه أحداً من طيىء وأسد . فقد قال لهم : الزموا قراركم ، فى المهاجرين كفاية (٦) .

---

(١) الإصابة ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٨٢ .

(٣) نفسه ٤ ص ٤٥٥ .

(٤) كان حكيم يذمر خيله ويقول : إنها قريش ليردينها جبنها والطيش . (الطبرى ج ٤ ص ٤٦٦) ولما حاول عثمان بن حنيف منعهم من دخول البصرة غدا حكيم وهو يبربر وفي يده الرمح . فقال له رجل من عبد القيس من هذا الذى تسب وتقول له ما أسمع ؟ قال عائشة : قال : يا ابن الخبيثة ألأم المؤمنين تقول هذا ؟ فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله . كما طعن امرأة فقتلها لأنها اعترضته لشتمه أم المؤمنين . (انظر الطبرى ج ٤ ص ٤٦٧) .

(٥) الطبرى ج ٤ ص ٤٧١ . والرواية عن سيف .

(٦) نفسه ٤ ص ٤٨٠ .

وأما الكوفة فقد أنقسمت بفعل السبئية بين مؤيد لطلحة والزبير وعائشة ومؤيد لعلى . كما حاول أبو موسى أن يمسك العصا من منتصفها فكان يدعو أهل الكوفة لطاعته ليكونوا جرثومة من جراثيم العرب .

« يأوى إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف » [١] وأمام رأى أبى موسى وخوفا من أن ينفرد السبئيون فى الكوفة كما انفردوا فى البصرة شال زيد بن صوحان يده المقطوعة (فى حد السرقة) فقال : « يا عبد الله بن قيس رد الفرات على أدراجه ، اردده من حيث يجئ حتى يعود كما بدأ فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد فدع عنك ما لست مدركه » [٢] وتمكن الأشتر أن يحسم النزاع لصالح على فى الظاهر ولصالح السبئية فى الحقيقة . فتأكد الانقسام واحتل قصر الإمارة من أبى موسى . وانضمت عبد القيس بأسرها إلى صفوف على [٣] .

وتراسل الصحابة على وطلحة والزبير وعائشة فأرسل على القعقاع بن عمرو إلى طلحة والزبير وكان خير سفير لإخلاصه للمسلمين وتكللت سفارته بالنجاح واتفقوا على الموادعة وأشرفوا على الصلح كره ذلك من كرهه ورضيه من رضيه [٤] وقال على رضى الله عنه : « ألا وإنى راحل غداً فارتحلوا ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء فى شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عني أنفسهم » [٥] .

وهنا شعر دعاة الفتنة بالخطر المحدق بهم فتنادوا إلى إجتماع سرى ضم أقطاب السبئية منهم : علباء بن الهيثم وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة العبسى وشريح بن أوفى بن ضبيعة والأشتر فى عدة من سار إلى عثمان ورضى بسير من

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٨٤ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٦٦ .
نفس عبارات المقفى (مالك الأشتر) .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٨٤ .
(٣) المقفى (مالك الاشتر) الطبرى ج ٤ ص ٤٨٧ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٤٨٩ . الكامل ج ٣ ص ١٢٠ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٤٩٣ .

سار واجتمع معهم المصريون منهم : ابن السوداء وخالد بن ملجم [(١)] . وتشاوروا فى الطريقة التى تمنع الصلح بين المسلمين فاستقر رأيهم على رأى ابن السوداء الذى تكلم فقال :

« يا قوم : إن عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون » . فأبصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون [(٢)] وقد انتقد بعض المؤرخين سياسة على تجاه مؤتمر السبئية [(٣)] وأنكره البعض بحجة أن علياً وأصحابه لم يكونوا من الغفلة بحيث تدبر الخيانة فى معسكرهم ويدبرها قوم من قادتهم وهم لا يشعرون [(٤)] وواقع الأمر أن علياً رضى الله عنه كان كالمأسور بين السبئية ولا يترك فرصة إلا اغتنمها ليتخلص منهم ومن نفوذهم ولكن الأحداث كانت أقوى ، ثم أن الفتن لا تدبر إلا فى الظلام ولو انكشفت خطط دعاة الفتنة ما تمت . وليس عيبا على الصحابة ألا يكشفوها فكل مؤامرة تحتاج لزمن لكشفها بعد نجاحها ، ومؤامرات الصهيونية أكبر شاهد على ذلك فى العصور الحديثة والمعاصرة .

وهكذا أحكم السبئيون خطتهم فى الوقت الذى كادوا ينفردون فيه فاجتمعوا على إنشاب الحرب فى السر واستسروا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٩٣ . الكامل ج ٣ ص ١٢٠ .
وورود اسم عدى بن حاتم قد يكون وهما أو هو شخص آخر غير عدى بن حاتم المعروف . فعدى رضى الله عنه من مشاهير الصحابة ولم يرد ذكره بين السبئية إلا فى هذه الرواية . وفى الطبرانى أنه خرج من الكوفة جرير وعدى بن حاتم وحنظلة الكاتب إلى قرقيسياء وقالوا لا نقيم فى بلد . يشتم فيها عثمان رضى الله عنه فلا يعقل أن يكون مع السبئية وهو ضدهم وضد من قتل عثمان أوساهم فى المؤامرة .
انظر الطبرانى ج ٢ ص ٣٢٩ رقم ٢٢١٧ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٩٤ .

(٣) منهم الشيخ عبد الوهاب النجار – تاريخ الإسلام – الخلفاء الراشدين ص ٤١١ .

(٤) طه حسين – علىّ وبنوه ص ٤٣ .

أحد من الشر فغدوا مع الغلس انسلّوا انسلالا وعليهم ظلمة فخرج مضريهم إلى مضريهم وربعيهم إلى ربعيهم ويمانيهم إلى يمانيهم فوضعوا فيهم السلاح فثار أهل البصرة وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين بهتوهم [١] .

فظن أصحاب الجمل أن عليا غدر بهم وظن أن إخوانه غدروا به فاشتجر الحرب وتكاثرت الغوغاء كل ذلك حتى لا يقع برهان ولا يقف الحال على بيان ويخفى قتلة عثمان [٢] وحاولت عائشة أن تضع حدا للقتال بأن دفعت لكعب بن سور مصحفا ليدعو الناس إليه فأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح فاستقبلهم كعب بالمصحف وعليّ من خلفهم يزعهم ويأبون إلا إقداماً فلما دعاهم كعب رشقوه فقتلوه [٣] ، فكانت وقعة الجمل أثارها سفهاء الفريقين على حد تعبير الذهبى [٤] وهم السبئية الذين خططوا فى مؤتمرهم للتخلص من الصحابة طلحة والزبير وعلى . فزعموا فيما بعد أن مروان بن الحكم رمى طلحة بسهم [٥] واشترك الأحنف الذى اعتزل فى خاصة قومه من بنى تميم [٦] فى الفتنة بشكل غير مباشر فأصبح موئلاً للفارين من قتلة عثمان أو المحرضين عليه كحرقوص بن زهير [٧] ولما انسحب الزبير من قتال الجمل جاء الأحنف الخبر فناجى عمرو بن جرموز ورجلا آخر ، ثم انصرفا ، ورجع عمرو بن جرموز إلى الأحنف فقال : أدركته بوادى السباع فقتلته [٨] فكان قرة بن الحارث ابن الجون يقول :

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٠٦ . الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٥٨ .
(٢) العواصم من القواصم ص ١٥٧ .
(٣) ابن عساكر ج ٧ ص ٨٥ . الأنساب ج ٢ ص ٤١٠ .
الطبرى ج ٤ ص ٥١٣ . المقفى .
(٤) العبر ص ٣٧ .
(٥) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢١٤ . الفخرى ص ٨٨ . الأنساب ج ٩ ورقة ٥٠٣ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٧٧ .
(٦) النوبختى ص ٥ .
(٧) الكامل ج ٣ ص ١٢٤ .
(٨) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٣٢ .

« والذى نفسى بيده إن كان صاحب الزبير إلا الأحنف » [١] .

وبعد الجمل بدأوا حملة تشكيك ضد على ، الذى أمر جيشه ألا يقتل مدبراً ولا يذفف على جريح ولا يكشف ستراً ، ولا يؤخذ مال . فتكلم السبئية قائلين : يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم [٢] ولما توجه إلى البصرة فبايعه أهلها وجد فى بيت المال أموالاً قسمها على من شهد الوقعة فخاضوا فى ذلك وطعنوا عليه خفية وسراً وقال الأشتر : ما بال مافى المعسكر نقسمه ولا يقسم ما فى البيوت [٣] .

السبئية بعد الجمل :

ورغم تشابك الفتنة فقد أخذ مجرى الأحداث يتحول فى غير صالح السبئية ومن لف لفهم فأحسوا بذلك بعد أن أخذ على يعين بعض أقاربه فقال الأشتر : « وعلام قتلنا عثمان [٤] » ، كما أمر علىّ أن يضرب قاذفين لأمّ المؤمنين مائة سوط لكل منهما [٥] وهذا نوع من أنواع التحرر من نفوذ السبئية الذين خافوه فأعجلوه عن المقام بالبصرة وارتحلوا بغير إذنه فارتحل فى آثارهم ليقطع عليهم أمرا كانوا أرادوه وقد كان له فيها مقام [٦] وأخذوا يبينون أنفسهم لتحوم الشبهات حول علىّ وتبرر اتهامه بالاشتراك فى دم عثمان .

ففى مصر دخل قتلة عثمان الفسطاط ومرتجزهم يقول :

خذها إليك واحذرن أبا الحسن　　إنا نمر الحرب إمرار الرسن

ولما دخلوا المسجد صاحوا : إنا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله [٧] فانقسم أهل

---

(١) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٧٨ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٤١ .
(٣) المقفى . مالك الأشتر . الطبرى ج ١ ص ٥٤١ .
(٤) المقفى (مالك الأشتر) .
(٥) انظر الطبرى ج ٤ ص ٥٤٠ .
(٦) نفسه ج ٤ ص ٥٤٤ .
(٧) المقفى مجلد ٤ جلد ٣ ورقة ٢٠٠ .

مصر إلى ثلاث فرق : فرقة دخلت فى الجماعة ، والثانية وقفت على الحياد واعتزلت فى خربتا وقالوا : إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم . والثالثة قالوا : نحن مع على ما لم يقد إخواننا [١] وهم فى معظمهم سبئية . وكان من رأى قيس بن سعد مهادنة أهل خربتا ومعهم مسلمة ابن مخلد [٢] فأوقع السبئية به عند على واتهموه بممالأة أهل خربتا فعزله وولى مكانه محمد بن أبى بكر [٣] .

مواقف الشام ومعركة صفين :

وأما فى الشام التى ضمت كثيرا من العرب المتنصرة كتغلب وإياد والنمر وكلب وقاسط والغساسنة فقد عاش المسلمون الفاتحون بينهم فى المدن القديمة مثل دمشق وحمص وقنسرين وغيرها ، وعاملوهم بالحسنى فأسلم كثير منهم إسلاماً صحيحاً ، وحقد البعض فتظاهر بالإسلام ليكيد أهله فكان أثرهم كبيراً إلا أن يد معاوية الحازمة لم تترك لهم مجالا لفتنة بل استطاع أن يستغل طاعتهم فى إنشاء جيش قوى مطواع وتبنى الطلب بدم عثمان ووضع قميصه على المنبر وأصابع نائلة معلقة فيه [٤] فاستثار قبيلة كلب وانضم إليه عمرو بن العاص لأن حبراً أخبره بأن الذى يلى بعد على أمير الأرض المقدسة فيطول ملكه فيجمع أهل تلك الفرقة وذلك الانتشار عليه » [٥] .

والواقع أن قبائل الشام لم تكن بحاجة للاستثارة ضد علىّ فقد كان أهل الكتاب قد هيئوهم لعداوته – ووجد هذا هوًى فى نفس معاوية فقد قال له شرحبيل بن السمط الكندى :

كان عثمان خليفتنا فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا [٦] كما آلى رجال الشام أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفراش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٢ .
(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ١٩٤ . الأعلام ج ١ ورقة ٢ / ١ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٥٦٢ .
(٤) نفسه ج ٤ ص ٥٦٠ .
(٥) الطبرى ج ٤ ص ٥٦٠ .
(٦) الأنساب ج ٢ ص ٤١٨ .

عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم [١] . فقوى بهم مركز معاوية وبعد أن كان على يطالبه بالعزل أصبح يطالبه بالبيعة فرفض مبايعته واتهمه بالاشتراك فى دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم فى جيشه ولم يعمل أى عمل فى القصاص منهم [٢] .

وبالمقابل جهد السبئية فى الإيقاع بين على والمخلصين من أتباعه فأوقع الأشتر بينه وبين جرير بن عبد الله البجلى رسول على إلى معاوية بعد أن أكثرت السبئية القول فى التهمة لجرير فى أمر معاوية [٣] فخرج جرير إلى قرقيسياء وكاتبه معاوية فقدم إليه [٤] .

ولما عزم عليّ على حرب معاوية قام رجل من فزارة يسمى أربد فقال لعلى :

« أتريد أن تسير بنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم كما سرت بنا إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم ، كلا والله إذاً لا نفعل ذلك » . فحرض الأشتر على قتله فضربوه حتى سقط ثم وطئوه بأرجلهم حتى مات ، ولما أُخبر عليّ بذلك قال : قتيل عمية لا يدرى من قتله فدفع ديته إلى أهله من بيت المال فقال بعض شعراء تميم :

أعوذ بربى أن تكون منيتى ... كما مات فى سوق البراذين أربد

تعاوره همدان خصف نعالهم ... إذا رفعت عنه يد وقعت يد

كما أخذ الأشتر يحرض علياً بقوله :

« يا أمير المؤمنين لا يؤيسنك من نصرنا ما سمعت من هذا الخائن ، إن

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٦٢ .

(٢) الخضرى ج ٢ ص ٦٠ ويحتمل أنه تأول الحديث : لعن الله من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا (ابن تيمية – السياسة الشرعية ص ٩١ ، صحيح مسلم ..) .

(٣) انظر وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٦٦ . الطبرى ج ٤ ص ٥٦٢ .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ٥٦٢ .

جميع من ترى من الناس شيعتك لا يرغبون بأنفسهم عنك ولا يحبون البقاء بعدك فسر بنا إلى أعدائك »[١] .

ولما كتب معاوية إلى عليّ كتابا يطالبه فيه بمعاقبة قتلة عثمان ودفعه إلى أبي مسلم الخولانى ، جمع عليّ الناس فى المسجد وقرىء عليهم الكتاب فقالوا : كلنا قتل عثمان وكلنا كان منكراً لعمله[٢] فرأى أبو مسلم أن علياً لو أراد أن يسلّم قتلة عثمان كلهم أو بعضهم لما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وتخلف عن على جماعة فيهم عبد الله بن مسعود وعبيدة السلمانى والربيع ابن خيثم فى نحو أربعمائة من القراء فقالوا : يا أمير المؤمنين قد شككنا فى هذا القتال مع معرفتنا بفضلك ولا غنى لك ولا بالمسلمين عمن يقاتل المشركين ، فولنا بعض هذه الثغور لنقاتل عن أهله . فولاهم ثغر قزوين والريّ وولى عليهم الربيع بن خيثم[٣] .

وأخذ معاوية يكتب إلى كل من كان يرى أنه يخاف علياً أو طعن عليه ومن أعظم دم عثمان واستغواهم إليه[٤] . فأتاه أبو الدرداء وأبو أمامة الباهلى فقالا : علام نقاتل علياً وهو أحق بهذا الأمر منك ؟ فقال : أقاتله على دم عثمان . قالا : أو هو قتله ؟ قال : آوى قتلته فسلوه أن يسلم إلينا قتلته وأنا أول من يبايعه من أهل الشام . فجاءا علياً فأخبراه بذلك فاعتزل من عسكر عليّ زهاء عشرين ألف فصاحوا : نحن جميعا قتلة عثمان . فخرج أبو الدرداء وأبو أمامة فلحقا ببعض السواحل ولم يشهدا شيئا من تلك الحروب[٥] واعتزل القتال أيضا أيمن بن خُرَيْم وكان معاوية قد جعل له ناحية من فلسطين على أن يبايعه فأبى[٦]

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٦٥ .
(٢) الأنساب ج ٢ ص ٤٤٨ .
(٣) الأخبار الطوال ص ١٦٥ .
(٤) الطبرى ج ٤ ص ٥٦٤ .
(٥) الأخبار الطوال ص ١٧٠ .
(٦) نفسه ص ١٩٤ .

وأخذ الشاعر الحجاج بن خزيمة بن الصمة يحرض معاوية على الأخذ بثأر عثمان فمن قوله [١] :

إن بنى عمك عبد المطلب　　هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالوثب فثب　　وسر مسير المحزمل المتلئب

وتمكن السبئية أن يبرزوا الأشتر حتى أصبح قائداً لمقدمات جيش عليّ فى صفين ، كما استطاع أبو الأعور أن يتسلم مقدمات جيش معاوية [٢] واستمر ابن خزيمة يحرض معاوية بقوله : « إنك تقوى بدون ما يقوى به عليّ لأن معك قوماً لا يقولون إذا سكتّ ويسكتون إذا نطقت ولا يسألون إذا أمرت . ومع عليّ قوم يقولون إذا قال ويسألون إذا سكت فلقليلك خير من كثيره وعليّ لا يرضيه إلا سخطك ولا يرضى بالعراق دون الشام وأنت ترضى بالشام دون العراق » [٣] .

وتكررت حادثة الجمل فبعد أن أوشك المسلمون على الصلح نتيجة مساعى عقلاء الطرفين فتوادعا المحرّم كله [٤] تحركت عوامل الفتنة [٥] وكانت قوية مؤثرة ، فأثيرت أحقاد بين بنى أمية وبنى هاشم [٦] كما تحركت عوامل العصبية خلال جيش عليّ بين قبائل ربيعة ومضر واليمانية [٧] فأصبحت هذه الفئات تتربص ببعضها ويعز عليها أن تكون الصدارة لبعضها دون غيرها .

واشترك عدد من نصارى الشام إلى جانب معاوية يزيدون خلافات المسلمين ، ذكر أبو مخنف أن راية بجيلة بصفين كانت مع قيس بن مكشوح

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٩٥ . وقعة صفين ص ٧٧ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥٦٨ .
(٣) الأخبار الطوال ص ١٥٥ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٨٢ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٥ .
(٥) انظر مقالة شبث بن ربعيّ لمعاوية وردّه ابن أعثم ج ٣ ص ٢٥ . الأنساب ج ٤ ص ٢٩٨ . الطبرى ج ٤ ص ٥٧٤ .
(٦) الأنساب ج ٤ ص ٢٩٨ .
(٧) نصر بن مزاحم – وقعة صفين ص ١٣٧ .

الذى حمل حتى وصل عبد الرحمن بن خالد فتعرض له رومى مولى لمعاوية فضرب قدم أبي شداد (قيس) فقطعها [١] . واشتركت النمر بن قاسط وعلى رأسهم عبد الله بن عمرو من بنى تيم الله بن النمر [٢] وأما تغلب فقد حرضت الفريقين فقال أحدهم محرضا :

أنا ابن أرباب الملوك غسان ۔ والدائن اليوم بدين عثمان
إنى أتانى خبر فأشجان أن علياً قتل ابن عفان

كما انضم بعض أهل الكتاب إلى صفوف على من ربيعة وكندة [٣] واشتركت غسان إلى جانب معاوية [٤] وتنوخ وعلى رأسها الحارث بن المنذر التنوخى الذى قتل هاشم بن عتبة بن أبى وقاص المرقال فى صفين [٥] كما اشترك معه من الهمذانيين شيعة علي البراء بن الرفيد الهمدانى وكان صديقاً لعمرو بن العاص [٦] وأما طيىء فقد اشتركت جماعة منها بزعامة عدى بن حاتم مع على وجماعة أخرى منهم حابس بن سعد الطائى اليمانى مع معاوية [٧] .

واشتركت هذه القبائل فى الحقد على قريش فقد قال عبد الله بن أبى حجر من حاشد :

نصرنا أمير المؤمنين حمية ودينا وأوطأنا رقاب المعاشر
ضربنا قريشاً بالسيوف وغيرها فأدرك منها كل وتر لثائر

ولما صيّر علىّ أمر همدان إلى سعيد بن قيس بن زيد [٨] غضب عبد الله

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٦ .
(٢) نفسه ص ٣٦ .
(٣) نفسه ص ٤٣ .
(٤) نفسه ص ٤٦ .
(٥) الاستيعاب ق ١ ص ٢٨٠ .
(٦) الإكليل ورقة ٣٨ ص ٤٠٧ .
(٧) الأخبار الطوال ص ١٨٣ . ابن أعثم ج ٣ ص ١٩٧ وقعة صفين ص ٣٤٨ .
(٨) الإكليل ورقة ٤٠ ص ٤٠٩ . ورقة ٢٦ ص ٣٩٥ وهو أحد الدهاة الخمسة وهم : معاوية ، وعمرو ، والمغيرة ، وقيس بن سعد ، وسعيد بن قيس .

هذا ولحق بمعاوية فكان عنده وجيها ، ولما قدم بسر بن أرطاة اليمن كان له يداً ورجلاً فى بلد همدان فنال من شيعة على فى بلد همدان وصنعاء [١] .

ولم يرد للسبئية ذكر فى حرب صفين لأن واقع الأمر أن الجماهير بدأت تنفضّ عنهم لتسير إلى جانب أحد الرأيين الإسلاميين رأى عليّ أو معاوية ، فتصنعت السبئية مسايرة الجماهير ، وفقدوا أملهم فى قيادة الأمة ، وأخذ زعماؤهم يعملون على إشعال نار الفتنة وإختلاط الأمر ونجحوا فى ذلك واختلطت الأمور ولكنها اتجهت لصالح الإسلام والمسلمين وإن كانت المعارك دامية ، فكانت حرب صفين الحرب الإنسانية الأولى المثالية فى تاريخ البشرية جرى فيها المتحاربان على مبادىء فاضلة هى المبادىء الإسلامية وإن كثيراً من قواعد فقه الحرب فى الإسلام لم تكن لتدون أو تعلم لولا وقوع هذه الحرب [٢] وقد ذكر قاضى أفريقية عبد الرحمن بن زياد المتوفى سنة ١٥٦ وكان رجلا صالحا من الآمرين بالمعروف أهل صفين فقال :

« كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضا فى الجاهلية فالتقوا فى الإسلام على الحمية وسنة الإسلام فتصابروا واستحيوا من الفرار ، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء فى عسكر هؤلاء فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم » [٣] . إن دفاع الصحابة عن الشرعية واستعدادهم للموت فى سبيل ما يؤمنون به ويعتقدون صوابه هو السبب الرئيسى الذى جعلهم يجودون بأرواحهم فى قتالهم فيما بينهم تماماً كما جادوا بها فى قتالهم لأعدائهم . وهكذا فقد كانت النتائج باهرة عندما كانت قواهم موجهة ضد الأعداء ومحزنة عندما استشرت الخلافات بينهم ووجهت قواهم إلى بعضهم البعض .

السبئية وقضية التحكيم :

ولذلك نبتت فكرة التحكيم من لقاء أهل العراق واختلاطهم فى غير

---

(١) الإكليل ورقة ٤٠ ص ٤٠٩ .
(٢) العواصم من القواصم ص ١٦٥ (الحاشية) .
(٣) البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٧٧ .

موطن فلم يكن من العسير عليهم أن يتناجوا ولا أن يأتمروا بما يشاؤون ، ويروى أن الأشعث قال لقومه : « قد رأيتم ما كان فى اليوم الماضى من الحرب المبيرة وإنّا والله إن التقينا غداً أنه لبوار العرب وضيعة الحرمات » . فانطلقت العيون إلى معاوية بكلام الأشعث فقال : « صدق الأشعث لئن التقينا غداً ليميلن الروم على ذرارى الشام وليميلن دهاقين فارس على ذرارى أهل العراق وما يبصر هذا الأمر إلّا ذووا أحلام ارفعوا المصاحف على أطراف القنا » [١] فاتهم اليعقوبى الأشعث بممالأة معاوية [٢] .

وعلى كل فالرأى إن كان من عمرو بن العاص [٣] أو من الأشعث أو من معاوية فإنه كان يمثل الرأى العام لدى الفريقين المتحاربين . وكعادة السبئية فى طرق الإفساد كانوا أول من أجاب لرفع المصاحف ليوهموا الفريقين أن الفكرة نبتت فيهم وأنهم أصحابها ، ليلقوا ظلال الشكوك عليها وليوهموا غيرهم أنهم أصحابها الحريصون على وحدة الأمة . بل بلغ الأمر أن هددوا علياً إن لم يجب فقالوا له : (يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه وإلّا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل بك كما فعلنا بابن عفان ، إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله [٤] فوالله إن لم تفعل لنحملنك كارهاً إلى معاوية أو لنفعلن بك كما فعلنا بابن عفان) [٥] وأيدهم الأشعث ومعه اليمانية [٦] وفى الوقت نفسه عمل السبئية الذين

---

(١) الأخبار الطوال ص ١٨٩ .

(٢) وعلل ذلك برواية عزل عليّ الأشعث عن الرئاسة بشيء بلغه عنه ودفع رايته إلى حسان بن مخدوج فغضبت لذلك سادات كندة حتى كاد أن يقع بين كندة وربيعة شيء من الحرب . اليعقوبى ج ٢ ص ١٨٩ . ابن أعثم ج ٣ ص ١٠٥ وقعة صفين ص ١٣٧ .

(٣) كما ذكر أبو مخنف – الطبرى ج ٥ ص ٤٨ . ابن أعثم ج ٣ ص ٣٠٥ .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٤٩ .

(٥) الفخرى ص ٩١ . ابن أعثم ج ٣ ص ٣٨٢ .

(٦) اليعقوبى ج ٢ ص ١٨٩ .

تخللوا جند عليّ على تعميق التناقض بين عليّ ومعاوية [١] إدراكاً منهم أن الصلح بين الطرفين ليس من مصلحتهم فلم يسكتوا عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ، وقد يكون الأشعث صادق النية فى قبوله التحكيم لا عن خيانة كما توهم المستشرقون [٢] وغيرهم [٣] ولكن وجود كثير من أهل الكتاب فى صفوفه من كندة وربيعة وتظاهر بعضهم بالإسلام جعل الفرصة سانحة لهم لبث أفكارهم وفتنهم ، ووجدوا لهم متنفسا بين الجماهير يعيدون دعاوى الفتنة دون أن تزهق أرواحهم فى ميدان القتال . والغريب أنهم تظاهروا بالندم بعد أن قبلوا التحكيم وحثوا على قبوله وجاءوا علياً قائلين :

« لا حكم إلا لله » [٤] فكانت صرخة حق أُريد بها باطل . زادت من فرقة المسلمين وأصبحت ميدانا لتدخل منها الأفكار والعناصر الأخرى بين المسلمين مستغلة إسلام الموالى الحديث تماما كما استغل ابن سبأ الفرصة من قبل فسلل مبدأى الرجعة والوصية .

واجتمع الحكمان فى شعبان سنة ٣٨ هـ [٥] واتفقا على ترك النظر فى الإمامة إلى كبار الصحابة ولم يتعرضا إلى إدارة البلاد التى كانت تحت يد الطرفين المتحاربين فبقى الوضع كما كان ، يتصرف عليّ فى العراق والحجاز ومصر وما يتبعها ، ويتصرف معاوية فى الشام وما يتبعها ولم يقع فيه مكر من

---

(١) فعلى كان يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة فيهم . وأما معاوية فإنه كان يرى نفسه عظيما من عظماء قريش لأنه شيخها وابن شيخها ، ثم كان يرى النبى ﷺ والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبيرة حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين بعد العراق . ويرى أن عليا يحطه من تلك المنزلة السامية التى نالها (الخضرى ج ٢ ص ٦٨) .

(٢) الفرق ص ٧٥ .

(٣) مثل طه حسين . عليّ وبنوه ص ٨١ .

(٤) الفخرى ص ٩٣ .

(٥) الطبرى ج ٥ ص ٧١ . مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧ .

عمرو بن العاص ولا خداع لأبى موسى الأشعرى ولا تخلله بلاهة ولا غفلة ، فخلافة معاوية لم تبدأ إلا بعد صلح الحسن مع معاوية فعمرو لم يغالط أبا موسى ولم يخذله لأنه لم يعط معاوية شيئاً جديداً ولم يقرر فى التحكيم غير الذى قرره أبو موسى ولم يخرج عما اتفقا عليه معا ، وتعلقت الإمامة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة بدليل حضور الصحابة المعتزلين اجتماع التحكيم ومنهم : عبد الله ابن عمر وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث والمسور بن مخرمة وعبد الله ابن عباس [١] وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث المخزومى وأبو جهم بن حذيفة العدوى والمغيرة بن شعبة الثقفى ، أما سعد بن أبى وقاص فقد رفض الحضور [٢] .

وأما أهم نتائج التحكيم أنه أعطى الفرصة لمعاوية لتزداد قوته فقد كان لا يطمع قبل التحكيم بأكثر من المحافظة على سلطته فى الشام ولم يكن يفكر فى الخلافة أو يدّعيها [٣] ، ولكن الوهن الذى أصاب جيش علىّ أعطاه أملًا بالخلافة . فقد أخذ أفراد جيش علىّ يتسللون بعد النهروان من معسكرهم [٤] واختلفوا عليه بالعراق [٥] وفسدت مصر على محمد بن أبى بكر [٦] وتمكن دهقان العريش من دس السم للأشتر [٧] فقتل محمد بن أبى بكر فى الصدام مع جند الشام [٨] .

وأفلت الزمام من يد علىّ رضى الله عنه بفعل تخلل السبئية صفوفه متستّرين باسمه ، فتجنبه المخلصون لتصرفاتهم الشائنة المقصودة . فعلى سبيل المثال ذكر

---

(١) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٢٧ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٦٧ .
(٣) الأخبار الطوال ص ٢١١ .
(٤) نفسه .
(٥) الأعلام ج ١ ورقة ٣/٢ .
(٦) الأعلام ج ١ ورقة ٢/ ١ . الطبرى ج ٥ ص ٩٥ .
(٧) الأعلام ج ١ ورقة ٣ / ١ . الطبرى ج ٥ ص ٩٥ .
(٨) الطبرى ج ٥ ص ١٠٣ .

ابن الكلبى : أن جماعة من بنى الأرقم بن النعمان الكندى كانوا بالكوفة زمن على فكان بعض أهل الكوفة يتناول عثمان فقال بنو الأرقم لا نقيم ببلد يشتم فيه عثمان . فتحولوا إلى معاوية فأنزلهم الرها من أراضى الجزيرة (١) . كما فعل جرير وعدى بن حاتم وحنظلة الكاتب العمل نفسه (٢) وأدرك علىّ أمره الواهن فعندما دعا جماعته لاستعادة مصر وطلب أن يخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة لم يوافه منهم رجل واحد ، ورجع وجمع أشراف الناس وقال :

« الحمد لله على ما قضى من أمرى وقدر من فعلى وابتلانى بكم أيتها الفرقة من لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت لا أبا لغيركم ... فوالله لئن جاء الموت وليأتين ليفرق بينى وبينكم وإنى لصحبتكم قالٍ وبكم غير ضنين ، لله أنتم لا دين يجمعكم ولا حمية تحميكم » (٣) .

وأشاعوا عن على وابن عباس واليه على البصرة أموراً يبعد تصديقها وهى ليست فى الواقع إلا من أقوال الحاقدين السبئيين لتشويه سمعة ابن عباس المفسر وراوى الأحاديث الشهير بقصد تجريحه (٤) .

وأخذ اليأس يدب فى نفس علىّ ممن يتظاهر بنصره وهو عليه ويظهر مقدار يأسه فى قوله بعد أن غزا معاوية اليمن :

---

(١) الإصابة ج ١ ص ٢١١ .
(٢) الطبرانى ج ٢ ص ٣٢٩ رقم ٢٢١٧ .
(٣) الطبرى ج ٥ ص ١٠٧ .
(٤) انظر القصة . الأنساب ج ٢ ص ٣٤٥ والعتاب ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ . الطبرى ج ٥ ص ١٤١ ، ١٤٢ . والصحيح أن عبد الله لم يبرح البصرة حتى صالح الحسن معاوية . الأنساب ج ٢ ص ٣٥٠ (وإن قال وليس ذلك بثبت . الطبرى ج ٥ ص ١٤٣) فشخص إلى الحسن وشهد الصلح بينه وبين معاوية ثم رجع إلى البصرة وثقله بها . فحمله ومالاً من بيت المال قليلا وقال : هى أرزاق – الطبرى ج ٥ ص ١٤٣ .

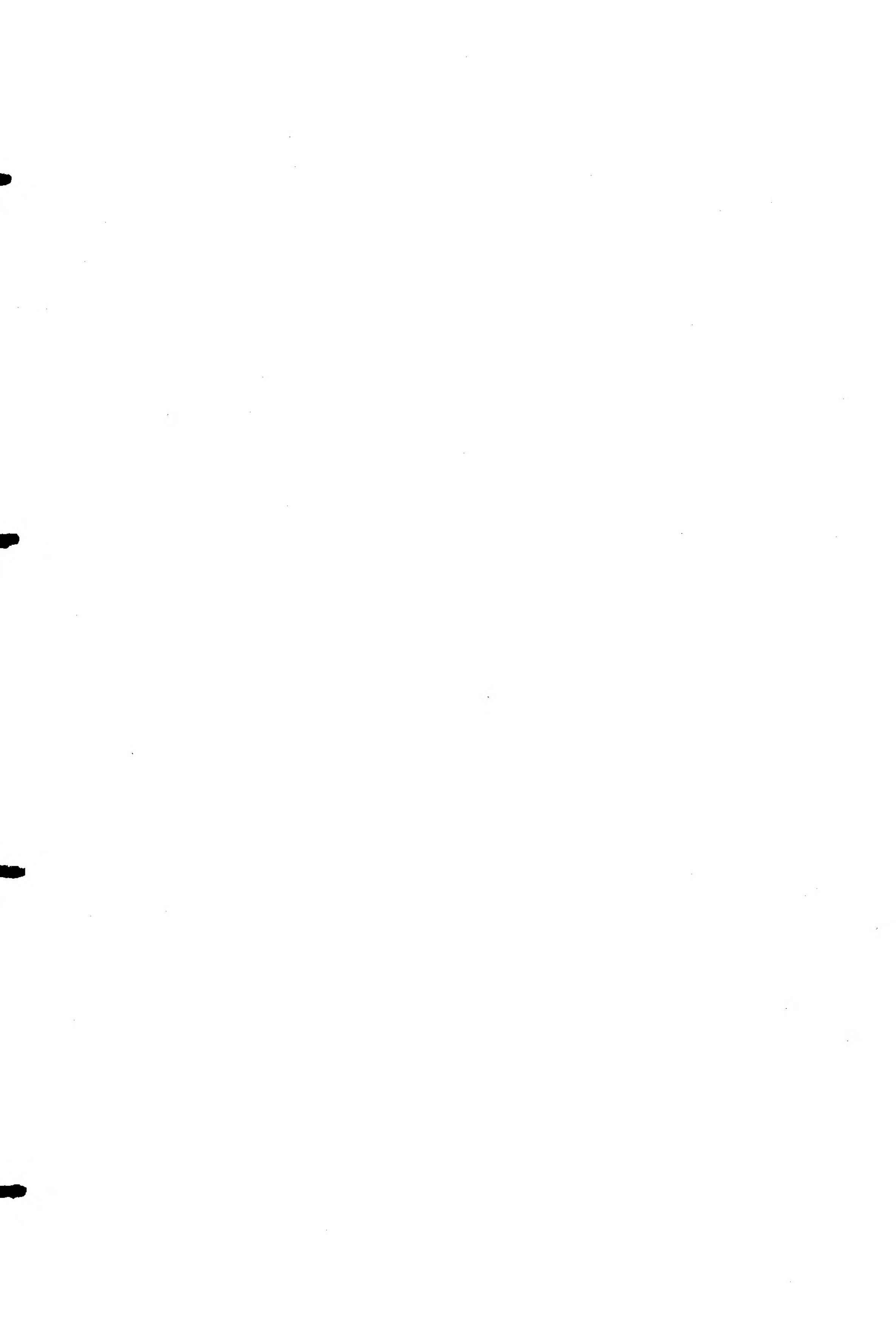
« نُبئت أن بسراً قد طلع اليمن وإنى والله لأحسب أن هؤلاء القوم سيظهرون عليكم وما يظهرون عليكم إلا بعصيانكم إمامكم وطاعتهم إمامهم وبخيانتكم وأمانتهم وإفسادكم فى أرضكم وإصلاحهم .

اللهم سئمتهم وسئمونى وكرهتهم وكرهونى – اللهم فارحمهم منى وارحمنى منهم » [1] .

وهكذا نجح أهل الكتاب في إثارة الفتن بين المسلمين ، نجاحاً لم يتمكنوا منه بمصادمة المسلمين وجهاً لوجه . وأخذوا ينظرون ويفركون أيديهم فرحاً وهم يرون طاقة المسلمين تُهدر بينهم فيما لا طائل وراءه .

* * *

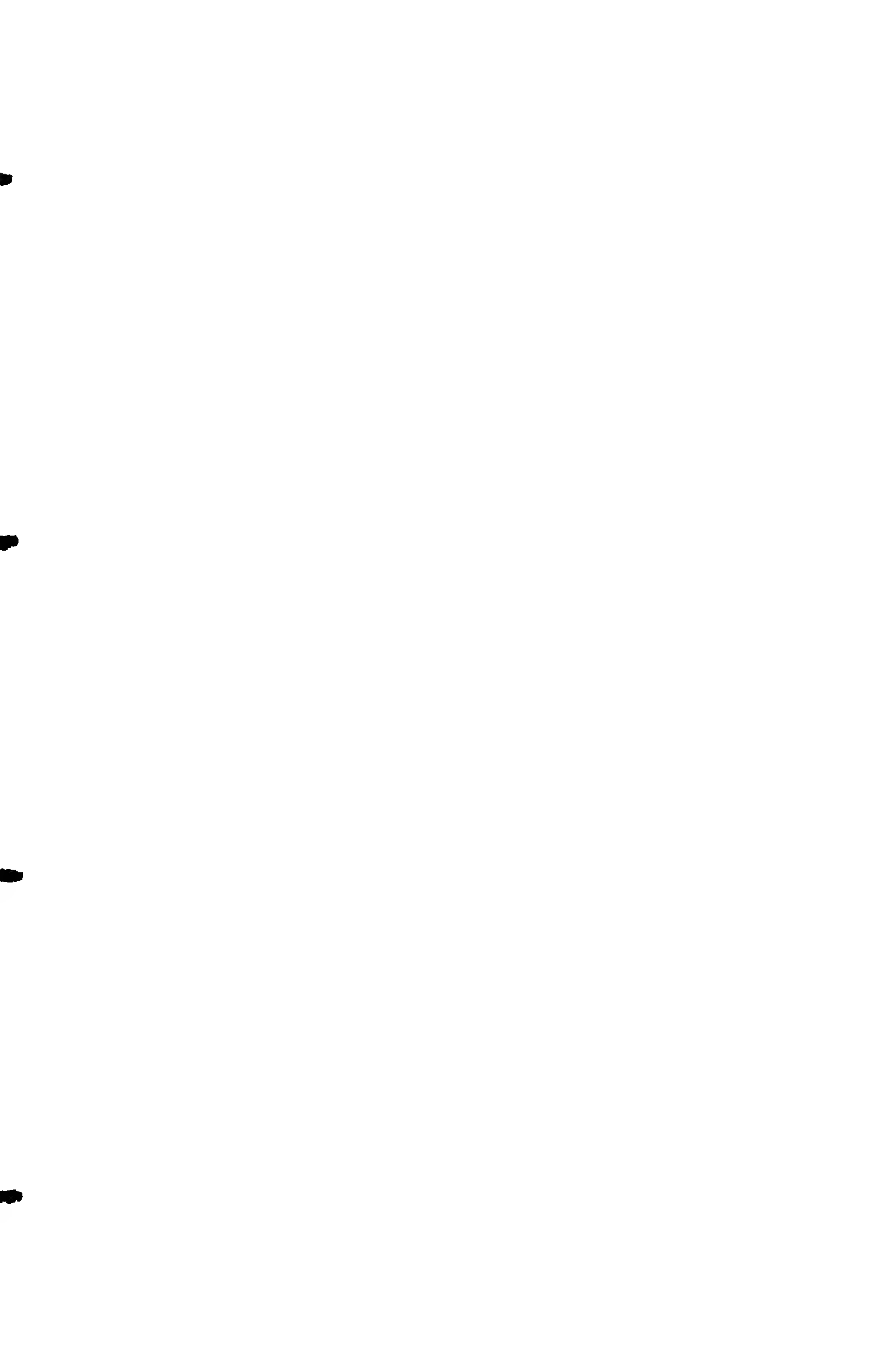
(١) ابن كثير – البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٢٥ .



الباب الثالث

أثر أهل الكتاب

فى نشوء الفرق الإسلامية



الفصل الأول

المدارس الفكرية التى واجهها المد الإسلامى

القوى الفكرية التى واجهها المد الإسلامى :

واجهت اليهودية المحرفة الإسلام من أول ظهوره ثم أول نشأته واشتبكت معه اشتباكات عقليه عنيفة حتى قبل أن يصل يثرب ، كما بدأ الجدل بين الإسلام والمسيحية المحرفة فى هضبة الحبشة فى حقيقة المسيح وفى الكلمة وفى المدينة مع وفد نجران إلى النبى ﷺ (١) ولم يتوقف هذا الجدل طيلة عهد النبى ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين (٢) بل ازداد حدة بازدياد تماس الإسلام مع أهل الكتاب ومدارسهم الفكرية النشطة عندما فتح المسلمون بلاداً واسعة ذات ثقافات عريقة كفارس والشام ومصر ، فكان الفرس يؤمنون بالزردشتية والمانوية والمزدكية وكانت اليهودية والنصرانية فى الشام ومصر . فانضم الفرس إلى القوى الفكرية المناهضة للإسلام فجادلوا بعقائدهم الأصلية والمتأثرة باليهودية والنصرانية . كما أخذت النصرانية تنازع الإسلام فى مصر والشام والعراق نزاعا فكريا شديدا معتمدة على الفلسفة والتفكير الفلسفى والمنطق اليونانى بمدارسها الفكرية المختلفة . وقابل الإسلام المذاهب الغنوسطية فى جميع هذه البلاد بشكلها اليونانى وفى شكل الأفلاطونية المحدثة (٣) .

ولما اشتد التحدى النصرانى وطالب المسلمين بتقديم الشواهد الخارقة

---

(١) انظر الفصل الأول من الباب الأول من هذا البحث .

(٢) بينما يذكر طه حسين خطأ : أن الكلمة فى أيام هؤلاء الخلفاء لم تكن للحجة ولا للسان وإنما كانت لهذا السيف الذى أزال الفرس واقتطع من الروم الشام وفلسطين ومصر وقسماً من أفريقية الشمالية (الأدب – ص ١٥٢) .

(٣) الغلو ص ٢٠ .

للطبيعة على نبوة محمد ﷺ استجاب بعض المسلمين فأخذوا فى التأويل . واستمر ضجيج النصارى عنيفاً لا تهدأ له ثائرة حتى بعد أن أسرف المسلمون فى الاستجابة لتلك المطالبة النصرانية [(١)] .

وأخذ معول هذه المذاهب المختلفة المتعمقة فى الفلسفة يهدم فى بناء الإسلام مجادلة إيّاه معتمدة فى جدالها على المتشابهات التى وردت فى آى الذكر الحكيم ، ومحاربة له بالسيف والقلم [(٢)] وقد بدأها أهل الكتاب فى مرحلة متقدمة وقام بها المنافقون الذين أثاروا الشبهات كما حدث فى حديث ذى الخويصرة التميمى الذى يظهر فيها القول بتحسين العقل وتقبيحه وحكما بالهوى فى مقابلة النص واستكبارا على الأمر بقياس العقل حتى قال عليه الصلاة والسلام : « سيخرج من ضئضيء هذا قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم . يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » [(٣)] .

واشتدت مجابهة الفرس الفكرية فقد كانوا كما قال ابن حزم من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأمراء والأبناء وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم العصبية وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى [(٤)] . وأما اليهود فقد كان تغلغلهم الفكرى بين جميع الفرق النصرانية والمجوسية لقدرتهم على التسلل ولامتلاكهم ناصية الفلسفة وانتشارهم الأخطبوطى ومقدرتهم على الازدواجية ، فواجهوا الإسلام من خلال الفرق جميعا . اليهودية والنصرانية والمجوسية .

---

(١) لوبون – الحضارة الإسلامية ص ١٢٥ .

(٢) النشار – نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ١٥ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٩٠ . الملل والنحل ج ١ ص ٢٢ . الفصل ج ٢ ص ٩١ .

(٤) الفصل فى الملل والنحل ج ٢ ص ٩١ .

المدارس الفكرية التى واجهها المد الإسلامى :

أ - المدارس الفكرية النصرانية المتأثرة باليهودية والمجوسية والوثنية :

كان من أشهر المدارس مدرسة **الاسكندرية** التى كانت من أهم المراكز لدراسة فلسفة اليونان ولاهوتهم فى القرن السابع للميلاد ، ونشأت فيها مذاهب فلسفية كثيرة الغالب عليها الاصطباغ بالدين (١) كالفيثاغورية المتأخرة والأفلاطونية المتهوّدة والأفلاطونية المتأخرة المعروفة بالمذهب الاسكندرانى ، وكانت قد بدأت بالضعف قبل الفتح الإسلامى واستمرت فى فقدان مركزها بعد الفتح بانقطاع الصلة بينها وبين بيزنطة وفقدان صلة علمائها بأقباط مصر بالإضافة إلى ظهور دمشق المركز الجديد للدولة الإسلامية . وهذا ما جعل المدرسة تنتقل إلى أنطاكية على مقربة من الامبراطورية البيزنطية فى زمن عمر بن عبد العزيز (٢) .

ومن أبرز ما أثرت به مدرسة الاسكندرية فى التفكير الإسلامى : التشبيه لله : فقد كان فلاسفة اليهود قد خاضوا جدلا حول هذه الفكرة فأوّل فيلو اليهودى الاسكندرانى (٢٠ ق . م - ٥٠ م) نصوص التوراة التى تضفى على الله سبحانه صفات خبرية من يد ولسان ووجه وعين ... الخ وأكد على وجوب تفسيرها تفسيراً مجازيا ووضع قوانين التأويل المجازى التى حدد هو درجاتها بنفسه (٣) .

وقد ساد مذهب الأفلاطونية المحدثة مدرسة الاسكندرية من منتصف القرن الخامس الميلادى إلى منتصف القرن السابع فكانت حركة التوفيق بين الفلسفة والدين المسيحى فتأثرت الفلسفة بالمسيحية (٤) ، وظهرت جماعة المحبين للعمل المسيحى وظهر نشاطها بهدف محو آثار الوثنية ، فكان أتباعها يهدمون معابد الوثنية بأيديهم ويحرقون كتبها ويعتدون على رجالها ، وكان من أبرز رجالها

---

(١) فروخ - تاريخ الفكر العربى ص ١٥٣ .
(٢) ابن أبى أصيبعة - طبقات الأطباء ج ١ ص ١٣٥ . التنبيه والإشراف ص ١٢١ .
(٣) الفرق ص ٢٠١ .
(٤) أبو ريان ج ١ ص ٦١ .

يوحنا النحوى ويسمى يوحنا الفيليبونى « المحب للعمل » . عاش فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى [١] .

ولعل الأعمال التى قام بها محبو العمل من حرق الكتب هى أصل الشبهة فى أسطورة حرق مكتبة الاسكندرية بأمر من عمر بن الخطاب رضى الله عنه [٢] .

وكان يوحنا مطارداً فلما جاء الفتح الإسلامى ظهر على عمرو بن العاص فأكرمه [٣] .

ومن أساتذة هذه الفترة أسطفان الإسكندرى الذى استدعاه هرقل امبراطور الروم فى أوائل القرن السابع الميلادى فى القسطنطينية وظل يقوم فيها بالتدريس مدة طويلة وينسب إليه المؤرخون العرب كتباً كثيرة ، وشرح أفلاطون وأرسطو وعمل على التوفيق بين العقيدة المسيحية والفلسفة وذلك بأن أهمل الجانب الميتافيزيقى من الأفلاطونية الحديثة [٤] .

وقبل الفتح الإسلامى تفرعت مدرسة الاسكندرية إلى مدرستين واحدة فى أثينا بزعامة إبرقليس والثانية فى الشام بزعامة بامبليخوس .

وقد واجهت الأولى نهايتها فى أثينا على يد جستنيان فى أوائل القرن السادس الميلادى وهرب فلاسفتها إلى جند يسابور وهى مدينة فى خوزستان (الأهواز جنوبى غربى فارس) كان بناها سابور الأول وأسكن فيها أسرى اليونانيين ، فاستضاف كسرى أنوشروان فلاسفة أثينا وبنى لهم مارستانا (مدينة طبّيّة) ليستفيد منهم . فبلغت (**جنديسابور**) فى الطب شهرة عظيمة وأمّها الأساتذة من كل صوب ، وأخذوا ينقلون التراث اليونانى إلى اللغة الفارسية القديمة

---

(١) أبو ريان ج ١ ص ٦١ .

(٢) انظر أبو الفرج الملطى ص ١٧٥ . بتلر كتاب فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٣) الفهرست ص ٣٧٠ .

(٤) نفسه ص ٥١٠ .

(الفهلوية) [١] واستمرت فى الازدهار خلال الحكم الإسلامى طيلة القرن الأول الهجرى .

وأما **مدرسة الشام** التى كانت فى **أنطاكيا** فقد ذكر الفارابى أن التعليم انتقل إليها بعد ظهور الإسلام وبقى فيها زمنا طويلا [٢] واستمرت فيها الدراسات الفلسفية [٣] التى اتجهت إلى التوفيق بين المسيحية والفلسفة أسلوب مدرسة الاسكندرية فى العهد المتأخر حتى أن النصارى سموا أنطاكية أم المدن [٤] .

وقد اشتهر من رجال هذه المدرسة قبل الإسلام اصطفان بارصديلة وبعد ظهور الإسلام يعقوب الرهاوى [٥] الذى توفى سنة ٧٠٨ م [٦] .

وهناك مدرستا **الرها ونصيبين** [٧] وكانتا فى المنطقة التى تتكلم السريانية والفارسية فى الشرق الأدنى ، وإذا كان المذهب اليعقوبى هو مذهب أنطاكيا فقد كانت النسطورية مذهب الرها ونصيبين ، ومن أشهر رجالها قبل الإسلام هيبا الملقب بالترجمان فى القرن الخامس ، وبعد ظهور الإسلام جورجيوس (سنة ٧٢٣ م) أسقف العرب المسيحيين فيما يسمى الآن بحوران [٨] .

وبقيت الرها أهم مركز ثقافى للنساطرة إلى أن رحلوا عنها حوالى سنة ٤٥٧ م فراراً من الاضطهاد إلى دولة الفرس فغدت مدينة **سلوقية** على نهر دجلة

---

(١) أبو ريان ج ٢ ص ١٣ – ماجد فخرى . تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦ .
(٢) البهى ص ٢١٧ .
(٣) التنبيه والإشراف ص ١٢٢ .
(٤) العينى ج ١ ق ٢ ص ٣ .
(٥) أبو ريان ج ١ ص ٦٤ .
(٦) البهى ص ٢٢١ .
(٧) ذكر المسعودى مدرسة نصيبين عرضا فقال : إن مقالة نسطور كانت درست فأحياها برسوما مطران نصيبين ودعا إليها المشارقة من النصارى – التنبيه ص ١٢٩ .
(٨) البهى ص ٢٢١ . أبو ريان ج ١ ص ٦٥ .

قبالة العاصمة طيسفون مركزاً ثقافياً خطيراً ينافس نصيبين التى احتلت فى النسطورية مكانة الرها . وأصبح هذا المركز من أهم معاقل النسطورية والتبشير فى العراق وفى سائر أنحاء امبراطورية الفرس [١] ويذكر أنه كان للنساطرة نحوا من خمسين مدرسة فى العراق تعلم اللاهوت والثقافة اليونانية باللغة السريانية ، فلما جاء زينون ملك الروم سنة ٤٧٤ م أغلقها كلها بعد أن اتهم أهلها بتطرفهم ، فانتهز الفرس الساسانيون هذه الفرصة فاستمالوا نساطرة الرها لأسباب سياسية وأعادوا لهم فتح مدرسة نصيبين [٢] .

ومن مدارس اليعاقبة فى شمال سورية **دير قنسرين** التى واصل فيها العلماء دراساتهم اللاهوتية فى غضون القرن السابع دون إزعاج [٣] وهكذا فقد وصلت إلى المسلمين فى القرن الأول الهجرى مسيحية نصّيّة بطريق المشافهة على حالتها الأولى لم تفلسف ولم تشرح عن طريق نصارى العرب من أهل نجران وتغلب وعن طريق من أسلم منهم . كما وصلت مسيحية مفلسفة أو مشروحة (تأويلية) عن طريق النساطرة واليعاقبة [٤] .

والنسطورية نسبة إلى نسطور ولد فى مرعش بسورية (٣٨٠ – ٤٥١ م) وأصبح بطريركا على القسطنطينية سنة ٤٢٨ م [٥] وأعلن آراء جديدة كأوريجين باتحاد الناسوت واللاهوت فى طبيعة المسيح [٦] فقال عن المسيح : إنه إلٰه وإنسان اتحدا ، وهما جوهران أقنومان طبيعتان جوهر قديم وجوهر محدث إله تام وإنسان تام ولم يبطل الاتحاد قدم القديم ولا حدوث المحدث لكنهما صارا مسيحاً واحداً

---

(١) جواد على ج ٦ ص ٧٤ .
(٢) فروخ – تاريخ الفكر العربى ص ١٥٥ .
(٣) ماجد فخرى ص ٢٥ .
(٤) البهى ص ١٠١ . أبو ريان ج ١ ص ٦٦ .
(٥) مختصر علم اللاهوت ج ٢ ص ٣٨ .
(٦) أبو ريان ج ١ ص ٦٦ .

مشيئة واحدة [١] وذهب بالحلول إلى أقصى حد فذهب إلى أن المسيح لم يكن إلها حقيقة بل بالموهبة والكرامة [٢] واعتبر مريم والدة الإنسان لا والدة الإله لأنه لا يمكن أن يولد من إنسان فهى أم إنسان أو أم المسيح [٣] .

وكان لآراء النساطرة تأثير كبير على المسلمين لأن السريان كانوا على هذا المذهب فتأثرت الشيعة بعقائدهم وعلى الأخص حلول اللاهوت فى الإمام أو أن الإمام له طبيعة إلهية [٤] ولما كانت النسطورية منتشرة فى المشرق فى العراق والموصل والفرات والجزيرة [٥] كان ظهور الفرق الإسلامية الغالية فى هذه المواطن .

وكان نسطور قد تميز بالجرأة فى تأويله فحكم العقل دون رغبات الكنيسة ولذلك أجتمع مائتا أسقف فى أفسوس سنة ٤٣١ م فلعنوا نسطورس وتبرأوا منه ونفوه فسار إلى صعيد مصر ومات فى قرية سيفلح ببلاد أخميم والبلينا [٦] .

وقد تناولت النسطورية مشكلة الجبر والاختيار وأعتنقوا مبدأ الاختيار فكان لهم أثر على أصحاب النظر العقلى فى الإسلام القائلين بحرية الإرادة الإنسانية [٧] وسميت فرقتهم فيما بعد – المعتزلة .

---

(١) الشهرستانى ج ٢ ص ٥٣ . الفصل ج ١ ص ٤٨ .
(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٨٠ .
(٣) اللاهوت ج ٢ ص ٣٨ .
(٤) الشهرستانى ج ٢ ص ٥٣ .
(٥) ابن البطريق ص ١٥٢ .
(٦) التنبيه والإشراف ص ٢٧ .
وقد أقر مؤتمر أفسوس هذا ما يلى :
أ – المسيح وجسده شخص واحد هو إله وإنسان معا .
ب – الكلمة الإلهى هو متحد بجسده اتحادا داخليًا فيزيقيا أو جوهريا ، والمسيح ليس بحامل الله بل هو الإله حقًا .
ج – العذراء مريم هى أم الله لأنها ولدت بحسب الجسد الكلمة الإلهى الذى صار إنسانا . (مختصر علم اللاهوت ج ٢ ص ٣٩) .
(٧) الفرق بين الفرق ص ٩٨ .

واليعقوبية : (المونوفيزتية أتباع الطبيعة الواحدة) :

أتباع يعقوب البرادعى [١] وهو ديسقورس بطرك الاسكندرية أو تلميذه ولربما كان يعقوب البرذعانى تلميذ سويرس بطرك أنطاكية [٢] وقالت هذه الفرقة أن المسيح ذو طبيعة واحدة قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة بين اللاهوت والناسوت [٣] وقد شرحوا كيفية اتحاد اللاهوت والناسوت فى طبيعة واحدة على أوجه مختلفه ، فالبعض قالوا بتغير الطبيعة البشرية إلى طبيعة إلهية أو بامتصاص الطبيعة الإلهية للطبيعة البشرية وغيرهم قال بامتزاج واختلاط الطبيعتين بحيث تؤلفان طبيعة ثالثة ، وغيرهم أخيرا قال باتحاد الطبيعتين كما فى اتحاد الجسم والنفس على قول سويرس الأنطاكى [٤] . وقالت أن المسيح هو الله تعالى نفسه وإن الله مات وصلب وقتل وإن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر والفلك بلا مدبر ثم قام ورجع كما كان [٥] وقد اعتنقت الكنيسة الأرثوذكسية آراء اليعاقبة وأصدرت قراراً بتكفير النساطرة .

وقد قالت اليعاقبة بالجبر فكان أثرهم كبيراً على فرقة الجبرية فى الإسلام . وهذا يفسر ذيوع الجبرية فى الشام فى القرن الأول الهجرى .

ومن الفرق النصرانية التى تأثر بها المسلمون : **الآريوسية فرقة آريوس** : الذى كان قسيسا بالاسكندرية [٦] عاش بين (٢٥٦ - ٣٣٦ م) ، وأعلن فى سنة ٣١٠ م أن المسيح ليس إلها ، ولكنه مخلوق من لا شيء وهو كسائر الناس [٧] أى نادى بالتوحيد المجرد على حد تعبير ابن حزم [٨] وأن عيسى مخلوق مرآته كلمة الله تعالى

---

(١) الشهرستانى ج ٢ ص ٥٤ .
(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٧٨ .
(٣) الشهرستانى ج ٢ ص ٥٤ .
(٤) مختصر اللاهوت ج ٢ ص ٤٢ .
(٥) الفصل ج ١ ص ٤٨ .
(٦) الفصل ج ١ ص ٤٧ .
(٧) مختصر علم اللاهوت ج ٢ ص ٣٥ .
(٨) الفصل ج ١ ص ٤٨ .

التى نطق بها خالق السموات والأرض . وكانت هذه الفكرة موجودة عند المسيحيين قبل آريوس فقد جاء فى تاريخ الأمة القبطية ما نصه : « الذنب ليس على آريوس بل على فئات أخرى سبقته فى إيجاد هذه البدع فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير آريوس الذى جعل الكثيرين ينكرون الألوهية حتى انتشر هذا التعليم وعم » (١) وكان بطريرك الاسكندرية قد حكم على آريوس بالحرمان وغادر إلى فلسطين وقد حاول قسطنطين الجمع بين آريوس والاسكندر بطريرك الاسكندرية ولكنهما لم يتفقا فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م .

والملكانية :

وكان معظم الروم على هذا المذهب . وقالوا : أن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ويعنون بالكلمة أقنوم العلم ويعنون بروح القدس أقنوم الحياة ولا يسمون العلم قبل تدرعه به ابنا بل المسيح مع ما تدرع به ابن . فقال بعضهم : إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر اللبن أو الماء اللبن . وصرحوا بالتثليث (٢) فقالوا : إن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أسباب : الأب والابن وروح القدس ... كلها لم تزل وأن عيسى إله تام كله وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر وأن الإنسان هو الذى صلب وقتل وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معاً شيء واحد (٣) ولصراحة التثليث فى هذه الفرقة كانت قليلة الأثر بين المسلمين .

والمارونية :

أتباع يوحنا مارون من حماة (٤) اشتهر برأيه سنة ٦٦٧ م ودعا إليه وشايعه بعض القسيسين وبعض نصارى آسيا (٥) . وكان يقول : إن المسيح ذو طبيعيتين

---

(١) أبو زهرة محاضرات فى النصرانية ص ١٣٠ .
(٢) الشهرستانى ج ٢ ص ٥١ .
(٣) الفصل ج ١ ص ٤٧ . صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٧٦ .
(٤) التنبيه والإشراف ص ١٣٢ . يوسف دريان – أصل الطائفة المارونية ص ٤٣ .
(٥) التنبيه والإشراف ص ١٣٢ . الجامع المفصل ج ٣ ص ١٧ .

ولكنه ذو مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد [١] فأوعز البطارقة إلى الإمبراطور بجمع مجمع القسطنطينية السادس سنة ٦٨٠ م واتخذ هذا المجمع قراراً بإدانة مذهب الطبيعة الواحدة [٢] .

بعض الفرق النصرانية التي واجهها الإسلام :

وقد تأثرت المذاهب النصرانية **بالعرفانية (الغنوصية)**[٣] وأثرت فيها :

ولا يزال مصدر الغنوسطية وجوهرها الحقيقى موضع جدل بين العلماء ، فالبعض يراها هرطقة مسيحية أو حركة روحانية داخل الإكليروس هددت بتحويل المسيحية إلى خرافة تأملية أو هى عقيدة شرك للخلاص عن طريق المعرفة . وقد انتشرت فى القرنين الثانى والثالث للميلاد على يد طبقة من المفكرين الذين لفقوا مذاهب دينية واجتماعية وفلسفية جمعوا مقوماتها من اليهودية والثنوية والنصرانية ومن المذاهب الفيثاغورية والرواقية والاسكندرانية [٤] . وكانت فى أساسها ثنائية تقول إن المادة والروح فى تعارض تام وإن الجسد مقبرة للروح . وافترضت أن الكون المادى شر وإن خلق الأرواح الشريرة أو السفلية تأجج بالعواطف الشريرة فى ثورة ضد الذات الأعلى الذى تفرد بالوحدانية ، وعلى ذلك فإن الولادة شر لأنها تعنى دخول كائن روحانى إلى مستوى مادى منحط ، كذلك فإن الزواج شر لأنه يقود إلى التناسل وإلى عبودية خلال دورة الوجود ، ولذا يجب – المحافظة على نقاء الروح بتجنب الزواج وعدم تعريض الجسم لدنس الحياة .

---

(١) التنبيه والإشراف ص ١٣٢ .

(٢) أبو زهرة – محاضرات فى النصرانية ص ١٥١ .

(٣) وهى مصطلح للفلسفة الشرقية التى كانت ذائعة قبل نزول الإسلام احتوت على مذاهب متعددة من المجوسية والمانوية والزرادشتية والديصانية والمزدكية والمندانية والمرقوية . وتمثل فى الفكر الشرق القديم مكانة الهيلينية فى الفكر الغربى القديم . وقامت على أساس الإشراق والمعرفة عن طريق الروح والبصيرة بينما قامت الهيلينية على مفهوم العقل والمعرفة عن طريق المنطق (الإسلام والدعوات الهدامة – لأنور الجندى ص ١٤) .

(٤) أبو ريان ج ١ ص ٦٧ .

إذ تقول شيعة افقارتوديت المونوفيزية التى أنشأها يوليانوس أسقف هليكرناس فى أوائل القرن السادس . بأن جسد المسيح كان منذ التجسد غير قابل للفساد أى أنه لم يكن خاضعا لا للانحلال ولا للفساد وأن الحوادث البشرية فى حياته على الأرض لا سيما آلامه وموته لم تكن إلا مجرد ظواهر . (مختصر علم اللاهوت ج ٢ ص ٧٨) .

واعتنق بعضهم النصرانية وأثروا فيها فقالوا : « أن العرفان ليس العلم بواسطة المعانى المجردة والاستدلال كما هو الحال فى المعرفة الفلسفية المنطقية بل هو المعرفة الحدسية الحاصلة من اتحاد العارف بموضوع المعرفة ، أما غاية هذه المعرفة فهى الوصول إلى عرفان الله بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة وخيال » ، وفى هذا تعتبر الغنوسطية صوفية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة وترجع بأصلها إلى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سراً وجميع الفرق الغنوسطية تؤمن بإله مخلص يهبط من السماء ليسير على الطريق الذى سار فيه البشر ثم يموت وينهض من الموت ، وهبوط هذا الإله إنما هو لتخليص البشر من شرور الحياة . ومن هنا أثروا فى شخصية المسيح الذى اعتبروه شبحا يشبه الإنسان المادى لا جسداً ماديا . أى أن جسده غير حقيقى . ومن هنا جاء قول بولس فى وصف المسيح :

(إنه جاء فى شبه جسد الخطيئة)[١] .

وآمنت الغنوسطية بالباطنية (بكتمان سر أمور العقيدة) فلم يكن يباح بأمور العقيدة إلا للمجتبين وهم الذين قبلهم رؤساء الفرقة وصرحوا لهم بالأسرار بمقادير مختلفة باختلاف سن هؤلاء المقبولين وباختلاف قدرتهم على فهم وجوه العقيده . أما غير هؤلاء فكان اسمهم السماعون أى المنتسبين للفرقة والمكتفين بسماع ما فيها من أمور الدين الظاهرة من غير إطلاع على أسرار العقيدة [٢] ومن هنا أيضا جاء تقسيمهم للبشر إلى ثلاث طوائف :

(١) الروحانيون : وطريق الخلاص لهم واضح ممهد لِما ركب فى طبيعتهم من أصل إلهى .

(٢) الحيوانيون : وفيهم الجسم يعوقهم عن الخلاص فيجب التخلص منه بضرب من الرياضيات والمجاهدات الصوفية حتى تتمكن النفس من السيطرة على نوازعه الشريرة .

---

(١) رومية ٨ : ٣ .

(٢) فروخ – تاريخ الفكر العربى ص ١٤٤ .

(٣) الماديون : والمادة تعوقهم عن الصعود فوق العالم السفلى وتمنعهم من الوصول إلى المقر الروحانى .

والطريق إلى الله ملىء بالوسطاء وتجتاز النفس فى رحلتها إلى قمة الوجود أفلاك السيارات السبع حتى تصل إلى الله [١] ومن هنا جاء إيمانهم بالعدد سبعة وأنه يمثل آخر الفيوضات أو القوى السبعة عندهم متمثلة فى الكواكب السبعة عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل والشمس والقمر وهذه هى التى تدير العالم أى تؤثر فيه وتصنع فيه الحياة والحركة والموت وسوى ذلك وقد أشار المعرى إليهم فى قوله :

يقولون صنع من كواكب سبعة وما هو إلا من زعيم الكواكب [٢]

(أى الله) .

وكان للغنوسطية أثر كبير فى التغلغل إلى تفكير بعض المسلمين وخاصة فى الفرق الكيسانية والهاشمية ثم الباطنية من الشيعة .

ب – ومن الفرق الفارسية التى تأثرت بالنصرانية أو اليهودية ثم كان لها أثر على تفكير المسلمين :

(١) المرقيونية :

وهى ثنوية كغيرها من الفرق الفارسية [٣] وضع أسسها مرقيون [٤] الذى أثبت أصلين قديمين متضادين أحدهما النور والآخر الظلمة فبعث النور إلى العالم الممتزج روحاً مسيحية هو روح الله وابنه تحنّناً على المعدل السليم الواقع فى شبكة الظلام الرجيم حتى يخلصه من حبائل الشياطين [٥] فهى والحالة هذه متأثرة بالزرادشتية والمسيحية لأن مرقيون وابن ديصان سمعا كلام عيسى وأخذا منه إلى

---

(١) أبو ريان ج ١ ص ٦٩ .

(٢) فروخ ص ١٤٥ .

(٣) المسعودى – التنبيه والإشراف ص ٨٩ .

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) الشهرستانى ج ٢ ص ٧٢ .

جانب أخذهما عن الزرادشتية [١] وقال عنهم ابن النديم : « وهم طائفة من النصرانية أقرب من المنائية » والديصانية زعمت أن الأصلين القديمين النور والظلمة وأن ههنا كونا ثالثاً مزجها وخالطها ، وقالت بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء لا يخلو من ضرر وهو مجلى عن ذلك . واختلفوا فى الكون الثالث ما هو فقال طائفة منهم هو الحياة وهو عيسى [٢] واعتبر مرقيون المسيح مظهر جسد دون حقيقة [٣] .

ولا يخفى مقدار ما كان لهذه الفرقة من أثر بين المسلمين خاصة فى صفوف الشيعة .

(٢) الديصانية :

الذى وضع أسسها ابن ديصان ومذهبه قريب من المانوية [٤] ، وظهر قبل مانى لأن مانى ذكره فى كتبه ورد عليه [٥] وبينهما اختلاف فى اختلاط النور بالظلمة . وقد افترقت الديصانية فى ذلك على فريقين :

الأولى : زعمت أن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج عنها امتنع ذلك عليه .

والثانية : زعمت أن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لمّا أحس بخشونتها ونتنها شابكها بغير إختياره .

وزعم ابن ديصان أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعضهم أن الظلمة أصل النور وذكر أن النور حى حساس عالم وأن الظلمة بعكس ذلك

---

(١) البيرونى – الآثار الباقية ص ٢٠٧ .
(٢) الفهرست ص ٤٨٨ .
(٣) اللاهوت ج ٢ ص ٣٣ .
(٤) الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ٣٧ .
(٥) الفهرست ص ٤٨٨ .

عامية غير حاسة ولا عالمة فتكارها [١] وقد وضع ابن ديصان مبدأ الحلول : فزعم أن نور الله قد حل قلبه [٢] متأثرا بالفرق النصرانية ومؤثرا فيها . فكان له تأثير كبير على المذاهب المنشقّة عن الإسلام .

(٣) **المانوية** : ومؤسسها مانى الذى كان كاهنا بحران [٣] وهى من أشهر الفرق المتأثرة بالمسيحية . فمزج مانى فى تعليمه الأفكار الزرادشتية والمسيحية كما أخذ من مرقيون وابن ديصان فعد هرمس وزارادشت وأفلاطون وبوذا وعيسى من الأنبياء ولكنه لم يعد موسى . ثم وضع دينا بين المجوسية والنصرانية [٤] وادعى النبوة وأنه الفارقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام [٥] وأنه خاتم النبيين [٦] .

وتأثر باليهودية فى أحاديثه عن النور والظلمة وآدم التى تشبه أحاديث التوراة المحرفة بما فيها من فسق وفجور [٧] وقال : إن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين — النور والظلمة — وأنهما لم يزالا وهما سميعان بصيران متباينان فى الجوهر متقابلان فى الحيز [٨] وطريق الخلاص من هذا الامتزاج يكون بالامتناع عن النسل والزواج حتى ينقرض البشر ويعجل فراغ العالم [٩] ولمّا نُفى إلى الهند أخذ فكرة الحلول وبثّها [١٠] كذلك قال بالتناسخ [١١] .

---

(١) الفهرست ص ٤٨٨ .
(٢) البيرونى — الآثار الباقية ص ٢٠٨ .
(٣) الفصل ج ١ ص ٣٧ .
(٤) الشهرستانى ج ٢ ص ٦٥ .
(٥) الفهرست ص ٤٧٢ .
(٦) البيرونى — الآثار الباقية ص ٢٠٧ .
(٧) انظر الفهرست ص ٤٧٢ — ٤٧٥ . بناء العالم والحروب التى كانت بين النور والظلمة وابتداء التناسل على مذهب مانى ٤٧٦ — ٤٧٧ .
(٨) الشهرستانى ج ٢ ص ٦٥ .
(٩) الفصل ج ١ ص ٣٧ .
(١٠) البيرونى — تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ص ٢٧ .
(١١) البغدادى — الفرق بين الفرق ص ١٦٢ .

وتعرضت المانوية إلى اضطهاد ملوك الفرس فقتل بهرام بن بهرام ماني[١] وصلبه ، وأما كسرى فقد اضطهد المانوية وحرم على أهل مملكته الجدل فى الدين وقتل المانوية فى أى موضع وجدهم فيه . فهربوا منه إلى أن عبروا نهر بلخ ودخلوا مملكة خان فكانوا عنده [٢] وتحولت فى بلاد الفرس إلى حركة سرية وبقيت كذلك فى الفترة الإسلامية واستطاعت استقطاب عدد كبير من الفرس وكان لها أثر فى تنشيط الحركة العلمية إبان القرن السابع الميلادى – القرن الأول الهجرى – ودونت آدابها بالفارسية [٣] وساعدها على الاستمرار تستر الشيعة ومبدأ التقية الذى افتعلوه ودسوه بين المسلمين .

حـ – الإسلام يواجه الفرق اليهودية :

كانت اليهودية فرقاً أجادت فن الجدل وفن التسلل فى الأفكار والمذاهب فى الشرق والغرب . وقد أثروا فى الفكر الفارسى منذ الأسر البابلى حيث واصل كهنتهم أعمالهم فى ظل الفرس وأنشأوا التعاليم اليهودية المعروفة باسم التلمود البابلى ، وأصبحوا عملاء الفرس منذ زمن كورش الذى سمح لمن يريد العودة من اليهود إلى فلسطين ، وعرف اليهود نفسية الشعب الفارسى فتملقوه حتى أنهم جعلوا الفرس يدّعون أنهم من ولد إبراهيم عليه السلام [٤] فكان تأثيرهم على الفكر الفارسي كبيرا .

ومن أشهر الفرق اليهودية التى واجهها الإسلام عند امتداده :

(١) السّامريّة :

نشأت هذه الطائفة فى فلسطين بعد تدمير مملكة أخاب على يد ملك أشور ، الذى أحلّ محلّهم بعض القبائل فى سكنى السامرة التى بنيت على

---

(١) الفصل ج ١ ص ٣٨ . الشهرستانى ج ٢ ص ٦٥ .
(٢) الفهرست ص ٤٨٦ .
(٣) بارتولد – تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٨ .
(٤) التنبيه والإشراف ص ٩٤ .

أنقاضها مدينة نابلس العربية . واعتبرهم سفر الملوك الثانى بأنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود ، وبعبادة الأصنام [١] وأطلق اليهود عليهم (اسم شومر ونيم) أى السامرة ولكن أولئك حرفوها إلى (شمير نيم) أى المحافظين بدعوى أنهم أصحاب الدين الموسوى الأصل .

وبنوا هيكلهم فوق جبل جرزيم فى نابلس واتخذوا الجبل قبلة لهم يقدمون إليه الأضاحى بدلا من بيت المقدس ولهم توراة غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود ويبطلون كل نبوة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام ويوشع [٢] . ويقولون عن التوراة التى بأيدى اليهود إنها محرفة مبدلة [٣] وقد مارسوا عبادتهم منعزلين . ولذلك كان تأثيرهم بين المسلمين قليلا .

(٢) **الصدوقية** : ونسبوا إلى رجل يقال له صدوق وكان وجودهم باليمن ويقولون من بين سائر اليهود : العزير ابن الله [٤] وهم الذين أشار إليهم تعالى فى القرآن الكريم :

﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ [٥] .

وأنكروا البعث وجاهر بعض كهنتهم وكتبتهم بذلك بحجة أن التوراة ليس فيها ذكر البعث والنشور والقيامة ، وأن عقاب العصاة وإثابة المحسنين إنما يحصلان فى حياتهم [٦] ورفضوا كل ما هو خارج عن الوحى المدون فى أسفار موسى الخمسة .

---

(١) سفر الملوك الثانى . الإصحاح ١٧ .
(٢) الفصل ج ١ ص ٨٢ .
(٣) الفصل ج ١ ص ٩٤ . صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٦٩ .
(٤) الفصل ج ١ ص ٨٢ .
(٥) التوبة الآية : ٣٠ .
(٦) أحمد سوسة – العرب واليهود فى التاريخ ص ١٩٣ .

(٣) العنانية : الفريسيون :

وهم أصحاب عانان الداودى اليهودى ويسميهم اليهود الفراس أو المس [(١)] ويؤمنون بالقيامة وبالروح والملائكة على نقيض الصدوقيين وهم على حدّ قولهم يتبعون شرائع التوراة وما جاء فى كتب الأنبياء ويتبرأون من قول الأحبار ويكذبونهم وكانوا فى مصر والعراق والشام والأندلس [(٢)] .

(٤) الربانية :وهم الأشعنية القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود ويتأولون ما وقع فى التوراة [(٣)] . وقد آمنوا بالتلمود كتابا مقدسا واعتقدوا أنه منزل من عند الله على موسى كالتوراة سواء بسواء [(٤)] وقد انقسم الربانيون إلى قسمين : الفاريزيون : ويعتقدون المذهب القائم على الظواهر .

والكباليون : وهم طبقة المتصوفين من حاخامين وسواهم ممن أدخلوا السحر والتنجيم وكل أسطورة غريبة على كتب العبادة التى وضعوا أركانها وهم يتنكرون لكل ما هو روحى ومعنوى فى الحياة ومذهبهم يجارى مبادىء الماديين والقوميين الأنانيين الأشداء . ومن جملة معتقداتهم : أن الله فضل بنى إسرائيل على كافة الخلق وهو سريع الغضب على من عصاه ينتقم منه حتى من ذريته بشدة وعدم تسامح ، فعبادتهم تشبيهية تتمشى على الوجهات التى تتشبه لهم بكونها الأصلح لمنافعهم فهى والحالة هذه عبادة استنتاجية مادية تتحرى وجود النفع للعبد وتفترض أن المعبود يتمشى مع أهواء المخلوقات ولا توحيد ولا تنزيه لألوهية [(٥)] ولا يتورعون أمام هذه العقيدة أن يندسوا فى كل فكر لإفساده

---

(١) الفصل ج ٢ ص ٨٢ .

(٢) الفصل ج ١ ص ٨٢ ويرجع بعض الباحثين أصل هذه الفرقة إلى (عنان بن داودت عام ١٩٠ هـ / ٨٠٠ م) ولكن الحقيقة أن هذه الفرقة وجدت من قبل وهى من الفرق التى واجهها الإسلام فى القرن الأول الهجرى .

(انظر المقريزى – الخطط ج ٢ ص ٤٧٢) .

(Universal Jewish Ency : Art : Karraites)

(٣) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٥٧ .

(٤) وقد انتمت الصهونية الحديثة بعقيدتها إلى هذه الفرقة .

(٥) الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ٢٠٨ .

فاندسوا فى صفوف المسيحية الأولى حتى أفسدوها . ولما رأوا الإسلام ينتشر ويفشو ناصبوه العداء وتظاهر بعضهم بالإسلام وعملوا على إيجاد الخلافات بين المسلمين واستغلالها فنفثوا سمومهم من داخل الإسلام وخارجه .

مواجهة الإسلام لهذه القوى الفكرية :

واجه الإسلام هذه العقائد المختلفة وفرقها وكانت قد تمكنت فى نفوس أربابها وقادرة على أن تخوض جدلاً فكرياً ضارياً مع الإسلام وعقيدته . والإسلام كدين يتكون من طرفين متمايزين فى الواقع مختلفين فى الطبيعة عقيدة وشريعة [١] .

فالعقيدة : هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا وقبل كل شيء إيماناً لا يرقى إليه شك ولا تؤثر فيه شبهة . وقد استوفى الله سبحانه أصولها كلها فى قرآنه الكريم وأوضحتها وحددتها أقوال الرسول ﷺ وأفعاله فلا مجال البتة للبحث فيها بالاستقصاء والنظر والاجتهاد الشخصى . ولذا فعامة المسلمين كانوا لا يرون إلا الوحى سبيلا إلى تقرير العقائد ، أما العقل فلا مجال له فى ذلك واعتبروا الخوض فيها بدعة .

والشريعة : هى النظم التى شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته بربه وبأخيه المسلم وبالإنسان والكون والحياة وتضم مجملا من الأحكام الواردة فى القرآن الكريم وفسرها وبيّنها الرسول عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله وتقريراته إلا أنها تختلف عن العقيدة فى أن أمر تفاصيلها وإنمائها ترك للنظر والاستدلال والاجتهاد الشخصى كيما تتلاءم فى فروعها المستنبطة مع تلك الأصول العامة مع متطلبات الحياة المتغيرة المتطورة ذلك : لأن النصوص متناهية والوقائع غير متناهية وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى [٢] .

وهذا الموقف السليم كما يقول الدكتور النشّار [٣] نتيجة منطقية للنزعة

---

(١) محمود شلتوت – الإسلام عقيدة وشريعة ص ٢٢ .
(٢) الفرق ص ١٢٧ .
(٣) نشأة التفكير الفلسفى فى الإسلام ج ١ ص ٥٣ .

العملية التى تسود الإسلام والتى تجعله زاهدا فى المناقشات الجدلية فكانت طبيعته عملية تتجه نحو تحقيق الأفعال الإنسانية وتحاول قدر الإمكان أن تجتنب المسائل الجدلية الاعتقادية . فتجنب المسلمون فى القرن الأول مجالس البحث والمجادلة فى العقيدة إلا أنه ظهرت بعض العوامل للتفكير فى العقيدة أو الاختلاف فى فهمها فى هذه الفترة ومنها التغير والتبدل لحال الجماعة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ عنه على حالها فى عهده . وهذا التغير يجب أن نتلمس علله فى الخلاف والتصدع الذى طرأ على الجماعة الإسلامية أولا وبالذات لأن التفكير هذا – محاولة جذب نصوص العقيدة إلى رأى أو آراء معينة حددتها بواعث أخرى غير العقيدة ذاتها – من سياسية واجتماعية وغيرها وسيطرت على طائفة أو طوائف من المسلمين . والخلاف الذى طرأ على الجماعة الإسلامية بعد وحدتها هو أحد هذه البواعث بل هو أهمها ، فالصلة وثيقة بين خلاف فى الجماعة المعتقدة ومحاولة المختلفين فى تفهم هذه العقيدة [١] .

وكان المسلمون قد ابتعدوا عن المتشابهات والخوض فيها كصفات الله التى أجروها على ظاهرها دون أن يتعرضوا لتأويلها [٢] لأنهم أدركوا عجز العقل الإنسانى عن إدراك كنه وحقيقة هذه الصفات التى أطلقها سبحانه على نفسه فقالوا : (إن العجز عن الإدراك إدراك) [٣] .

ووجدت القوى المضادة من أهل الكتاب والفرس فاستغلوا الخلافات القائمة والمتشابهات من آى القرآن الكريم فأعلن بعضهم إسلامه محاولاً أن يتخذ من إسلامه ستاراً لغايات معادية لهذا الدين ، واتخذوا من الغلو [٤] أسلوبا بقصد

---

(١) البهى – ص ٤٢ .
(٢) الشهرستانى ج ١ ص ١٣٧ – ابن رشد . فصل المقال ص ٢٣ .
(٣) ابن خلدون – المقدمة ص ٨٣٠ . ابن تيمية – الفتاوى ج ٥ ص ٥٣ .
(٤) الغلو – لغة الارتفاع ومجاوزة القدر فى كل شىء ، وقال بعضهم غلوت فى الأمر غلوا وغلانية وغلانيًّا إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه .
ابن منظور . لسان العرب ج ٥ ص ١٣١ – ١٣٢ .

هدم الإسلام وهو من أخطر وأشد الأساليب فتكا . فلم يعلن من تظاهر (من اليهود والنصارى والمجوس) بالإسلام تناقضهم مع الإسلام ولا محاربتهم له ولكنهم ساروا بخطى متوازية له وبخطى تعود إليه فتدخل فيه وتظل تعمل على هدمه إبّان عملية الدخول هذه ، وقد تظهر أحيانا بمظاهر إسلامية تسترا وإخفاء لمقاصدهم . وهذا التستر على المبادئ والدسائس والأغراض والأشخاص مكنهم من مواصلة عمليات الهدم والتخريب [(١)] فتمكن الغلاة من وضع إنسان الرسالة محمد ﷺ فى غير مكانه ، ووضع الرسالة فى غير حدودها . وبقدر ما استطاع هؤلاء تحقيق خطوة أو خطوات فى محاولاتهم هذه كان لهم المجال لتوجيه ضربات هدامة لمكونات الرسالة بطرفيها الأساسيين : الإنسان والنظرية [(٢)] .

ويؤكد ابن الجوزى إسقاط الإنسان المسلم عن مكانته فى وضعه فى غير مكانه فقال : « وكما لبّس إبليس على هؤلاء الخوارج حتى قاتلوا علىّ بن أبى طالب حمل آخرين على الغلو فى حبه وزادوه على الحد فمنهم من كان يقول : هو الإله ، ومنهم من يقول هو خير الأنبياء [(٣)] .

واندفع ممن لم يدخل الإسلام من هذه الفرق فى جدل ومناقشة للإسلام بلغت حد التحدى مستغلين الحرية التى وفرها لهم الإسلام . الأمر الذى أثار المفكرين المسلمين فانبروا يوضحون عقائده ويفلسفون مبادئه فابتعدوا عن غير قصد عن الفكر الإسلامى الصحيح .

وكانت أولى التناقضات التى حصلت بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ مسألة الإمامة فاستغلها خصوم الإسلام وتسربوا تحت اسمها إلى عقيدة الإسلام

---

(١) وهذه عين الأساليب الماسونية فى هدم العقائد والأديان لتحطيم الحكومات وتدمير مقومات الشعوب غير اليهودية والقضاء على الأخلاق والدين وإثارة الفتن والحروب التى تنتهى دائما لمصلحة اليهود . انظر الغلو ص ٨ . طعمة ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) الغلو ص ٦٨ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٩٧ .

التى من الصعب مجابهتها ، فسربوا بعض معتقداتهم بقصد الإفساد كالنظر العقلى فى العقائد .

وقد أجمع كتاب مقالات الفرق الإسلامية على أن النظر العقلى فى العقائد الدينية بدأ فى الإسلام على يد القدرية والجهمية أسلاف المعتزلة ، وكانوا فى أكثرهم من الموالى الذين حملوا عقائدهم السابقة من مسيحية ويهودية . ومجوسية والذين اعتنقوا الإسلام فأصبحوا من أصحاب العقليات المركبة التى تستطيع النفوذ إلى أعمق المسائل الدينية والفلسفية والمتمرسين على طرق الاستدلال والنظر العقلى [١] . واستغلّهم أحبار أهل الكتاب ورهبانهم الذين تظاهروا بالإسلام فظهرت البدع والضلالات فى الأديان من أبناء السبايا على حد تعبير البغدادى [٢] .

المسائل العقلية التى أثيرت وواجهها الإسلام :

وأهم المسائل العقلية التى بحثوها : الصفات الإلهية وعقيدة القضاء والقدر ومشكلة الجبر والاختيار والتشبيه والحلول والتناسخ ويرى معظم المستشرقين (كما ذكر دكتور عرفان) [٣] أن مسألة القضاء والقدر والصفات الإلهية ظهرت فى الإسلام بتأثير من تعاليم الكنيسة المسيحية ونفوذ أساتذتها المتكلمين أمثال القديس يوحنا الدمشقى وتلميذه ثيودور أبو قرة . وإلى هذا الرأى يذهب بعض كتاب المقالات الإسلاميين أمثال ابن حزم والشهرستانى والبغدادى فيلعن حكمه بتأثر الفرق الإسلامية فى مذاهبها وشروح هذه الأصول ببعض مسائل الديانات غير الإسلامية وبما نقل معها من تعليلات عقلية أو شروح مذهبية .

ويرى آخرون وخاصة فنسنك وواط وترتون والمرحوم مصطفى عبد الرزاق أن الخلافات العقيدية والجدل الدينى نشأ بسبب من تعاليم الإسلام ذاته وكنتيجة للتطور السياسى والاجتماعى للجماعة الإسلامية نفسها .

---

(١) النشار — نشأة التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٥٧ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ١٠١ .

(٣) الفرق ص ١٣١ .

وأرى أن الأمرين فيهما الكثير من الصحة ، فكثير ممن دخل الإسلام حمل معه عقائده السابقة وأفكاره ، ومنها ما كان من مصادر نصرانية أو يهودية مباشرة كمشكلة خلق القرآن التى كانت بتأثير يوحنا الدمشقى وتلميذه (أبى قرة) الذى تبنى فكرة أن عيسى ابن مريم عليه السلام ليس بمخلوق إذ كان كلمة الله [١] ، وبتأثير اليهود فقد نشر لبيد بن الأعصم اليهودى مقالة خلق القرآن [٢] ثم أخذ ابن أخته طالوت هذه المقالة عنه وصنف فى القرآن فكان أول من فعل ذلك فى الإسلام وكان زنديقا فأفشى الزندقة [٣] كما يقال أن أول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعيد العجلى وكان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى [٤] .

أما مسألة نفى **الصفات الإلهية** فقد ارتبطت بشخصين وهما :

الجعد بن درهم والجهم بن صفوان الراسبى .

فالجعد : كان مولى من موالى بنى الحكم [٥] ولا يعرف المكان أو السنة التى ولد فيها وكل ما يعرف عنه أنه كان مقيما بدمشق إذ كانت له دارا بالقرب من القلاسيين إلى جانب الكنيسة [٦] .

قام بتأديب مروان بن محمد فسمى مروان بالجعدى نسبة إليه [٧] . ولما أصبح مروان واليا على الجزيرة ذهب إليه الجعد [٨] وقام بتأديب ابنه وأخذ يفسر آراءه فى نفى الصفات [٩] . أيام هشام بن عبد الملك .

---

(١) الأشعرى – الإبانة ص ٤٩ . الشهرستانى ج ١ ص ٦٣ .
(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٨٠ – الطبقات ج ٣ ق ٢ ص ٦٤ . صحيح مسلم ج ٧ ص ١٤٠ . السيرة ج ٤ ص ١٥٣ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥٠ .
(٣) الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ٤٩ .
(٤) عيون الأخبار ج ١ ص ١٤٨ .
(٥) الفهرست ص ٤٨٧ . الأنساب ج ٣ ص ٤٤١ .
(٦) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥٠ .
(٧) الفخرى ص ١٣٨ . الفهرست ص ٤٨٦ – الأنساب ج ٣ ص ٤٤١ .
(٨) السمعانى – الأنساب ص ١٣١ .
(٩) أنساب الأشراف ج ٣ ص ٤٤١ .

ويظهر أنه تجول فى المشرق فذهب إلى الكوفة والجزيرة والبصرة وفى الكوفة اتصل بالجهم بن صفوان فتعلم عنه ، وتردد على وهب بن منبه لمناقشته فى نفى الصفات (١) وكان يقول عن وهب : ما كلمت عالما قط إلّا حلّ حبوته أو غضب إلّا وهب بن منبه (٢) وكانا على طرفى نقيض فى غلوهما فوهب يرى الصفات على ظاهرها والجعد ينكرها .

وأما **الجهم** وكنيته أبو محرز فكان مولى لبنى راسب من الأزد وأصله من بلخ (٣) ويعرف بالسمْرقندى لأنه عاش فترة من حياته فى سمرقند فنسب إليها (٤) ولا تعرف سنة ولادته . ذهب إلى الكوفة واتصل بالجعد وتعلم منه نفى الصفات الإلٰهيه وطوّرها فارتبطت الفكرة باسمه تاريخيًّا حتى صارت الجهمية علماً على من ينفى الصفات الإلهية (٥) . وتطرف حتى نفى الأسماء الحسنى فأنكر علماء أهل السنة وفقهاؤها قوله ونظروا إليها كبدعة وعدّوا الجهمية ضالين وحذروا الناس منهم وذموا من جالسهم فقد قال أبو حنيفة لجهم : الكلام معك عار والخوض فيما أنت فيه نار تتلظى (٦) .

وأنتشرت آراؤه فى الكوفة وعرفت عند العامة والخاصة ونظروا إليها نظرة ريبة وكفر ولعدم معرفتنا بأسماء دعاته فنرجح أنهم كانوا من خصوم الإسلام ومن أهل الكتاب . وامتدّ أثره إلى بلخ عندما رجع إليها وكان يصلى مع مقاتل بن سليمان فى مسجده ويناظره ، فكان جهم يبالغ فى نفى الصفات والتعطيل فى حين كان مقاتل يسرف فى الإثبات والتجسيم أى أنهما على طرفى نقيض كالجعد وابن منبه .

---

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٦ .
(٢) الذهبى – العبر – ج ٥ ص ١٥ .
(٣) السمعانى – الأنساب ص ١٤٥ (ب) .
(٤) الفصل ج ٢ ص ١٢٩ .
(٥) الملل والنحل ج ١ ص ٩٠ .
(٦) المكي – المناقب ج ١ ص ١٤٥ .

ودخلت فكرة سلب الصفات الإلهية بين المسلمين قبل المعتزلة على يدى : ضرار بن عمرو والحسين بن محمد النجار [١] واستمدت أصولها من الفلسفة اليونانية والأفلاطونية المحدثة . فقد ذكر الشهرستاني : أن الفلاسفة كانوا يرون أن الصفات سلب فالقدم معناه نفى الأولية والغنى معناه نفى الحاجة [٢] .

ويقول : إن أفلاطون ذكر فى النواميس أن الله تعالى إنما يعرف بالسلب أى لا شبيه له ولا مثال [٣] .

كما كان لليهود أثر فى الصفات السلبية فقد كان فيلو الفليسوف اليهودى الاسكندرانى وأحد أركان الأفلاطونية الحديثة من أبرز الداعين إلى تفسير الصفات الإلهية تفسيراً سلبياً وقد أقام منهجه على أدلّة فلسفية ونقلية استمدها من التوراة . تلك الأدلة التى تنفى المماثلة بين الخالق والمخلوق . ومن فيلو استمد آباء الكنيسة المتأخرون الفكرة فكان يوحنا الدمشقى يقول : « إن الله ماهية لا يعرفها غيره لذا فإننا لا نستطيع أن نحد الله تعالى أو ندرك طبيعته ومن ثم فلا يمكن وصفه إلا بالسلوب فإذا قلنا له أنه تعالى خير فالمعنى أنه لا يفعل الشر » [٤] .

القول بالتشبيه ونفيه :

كان المسلمون يقللون من جدالهم لأهل الكتاب لقوله تعالى :

﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا : آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ [٥] .

---

(١) الملطى – الرد والتنبيه ص ٣٠ . البغدادى – الفرق بين الفرق ص ١٩٥ و ص ٢٠١ – الأشعرى – مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣١٣ ، و ص ٣١٥ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٦٦ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ٤ .
(٤) الفرق ص ٢٢٥ . زهدى جار الله – المعتزلة ص ٢٧ – ٢٨ .
(٥) العنكبوت الآيتان ٤٦ ، ٤٧ .

فتحاشى أهل الكتاب الجدل العلنى وأخذ بعضهم يدخل الإسلام ليعملوا من خلاله فكانوا يثيرون الأسئلة . وكان السائل أحد رجلين : إما رجلا يطلب جواباً ليطمئن به قلبه وإما رجلا يريد أن يجادل لإدخال البلبلة فى القلوب المطمئنة ومن هذين النوعين من السؤال نشأ علم الكلام [١] ولجأوا إلى التأويل الذى أصبح الستار الكثيف تحرك خصوم الإسلام فى ركابه وكان ستاراً مانعاً من الكشف فترة من الزمن [٢] وظهر التأويل فى الفكر الإسلامى على يد مجاهد المكى (ت سنة ١٠٢ هـ) ، وعطية الكوفى (ت سنة ١١١ هـ) [٣] ففسرا المتشابهات تفسيرا مجازيا له مبرراته فى اشتقاقات اللغة العربية وأصولها إلا أن محاولتهم كان ينقصها الجمع والتنظيم المنهجى فلم تنته إلى تكوين اتجاه فكرى عام ، وقد جعله المعتزلة منهجا عقليا متأثرين بآباء الكنيسة – فقد فسر (أوريجيون) – (١٨٥ – ٢٥٤ م) نصوص الإنجيل تفسيرات مختلفة حرفيا للعامة وأخلاقيا للمتقدمين ورمزياً صوفيا لأهل العقول الفائقة معتمدا فى ذلك على حد قوله على البصيرة والإلهام والتجلى والإشراق [٤] واتبعه فى ذلك يوحنا الدمشقى (٧٠٠ – ٧٥٤ م) الذى عاش فى دمشق وكان على صلة بالبلاط الأموى . ويرى البهى أن المسلمين تأثروا باليهود فى طريقة جدلهم حول إثبات التشبيه ونفيه وفى نوع المعالجة لطرفى هذه المسألة [٥] على أننى أرى أن التأثير كان شديداً ممن أسلم منهم أو تظاهر بإسلامه مستغلين حداثة إسلام الموالى وقلة معرفة الكثير منهم بالعربية وأساليبها فى المجاز فأوحوا إليهم هذه الألفاظ إمّا على الحرفية دون المجاز أو بالتعمّق فى المجاز حتى وصل إلى التأويل . فقد كان التشبيه عند اليهود طباع كما ذكر الشهرستانى [٦] فتذكر توراتهم المحرفة عن الإله : « اشتكت عيناه فعادته الملائكة وبكى على طوفان

---

(١) فروخ – تاريخ الفكر العربى ص ٢٠٨ .
(٢) الغلو ص ٣٥ .
(٣) الطبقات ج ٥ ص ٢٨ و ج ٦ ص ١٢٠ .
(٤) البهى ص ٨٢ .
(٥) الملل والنحل ج ١ ص ١٤١ .
(٦) نفسه .

نوح حتى رمدت عيناه وأن العرش ليئط من تحته كأطيط الرحل الحديد » [١] وفى كتاب لشعيا : « أنه رأى الله عز وجل شيخاً أبيض الرأس واللحية » [٢] . وجاء فى سفر التكوين عن إبراهيم عليه السلام : « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار » [٣] وجاء أيضا :

« ثم صعد موسى وهارون وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا » [٤] .

وفى كتاب لهم سفر توما من التلمود وهو من أقوال أحبارهم بلا خلاف من أحد : أن تكسير جبهة خالقهم من أعلاها إلى أنفه خمسة آلاف ذراع [٥] فعن طريق اليهود أو مَن تظاهر منهم بالإسلام سرت هذه التشبيهات فوقع المسلمون فى التشبيه الصرف على خلاف ما اعتقده السلف [٦] . وأطلق على المشبهين اسم الحشوية وعلى رأسهم مقاتل بن سليمان [٧] الذى نسب إليه قوله : إن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه . وقوله أنه مصمت من أسفله مجوف من أعلاه [٨] .

ودخلت مسألة التأويل إلى عقيدة **القضاء والقدر** أو مسألة الجبر والاختيار

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٤١ . الرازى : اعتقادات المسلمين والمشركين ص ٦٤ – البغدادى – الفرق بين الفرق ص ٥٤ .

(٢) الفصل ج ١ ص ١٥٥ .

(٣) سفر التكوين الإصحاح ١٧ ص ٢٥ .

(٤) سفر الخروج الإصحاح ٢٤ ص ١٢٥ .

(٥) الفصل ج ١ ص ١٦٣ .

(٦) الملل والنحل ج ١ ص ١١٠ – ١١٣ . مقدمة ابن خلدون ص ١٣ .

(٧) البدء والتاريخ ج ١ ص ١٠٥ .

(٨) ونسب ابن حزم ذلك إلى غيره . الفصل ج ٤ ص ١٧٠ – ١٧١ . الأشعرى ج ١ ص ٢٥٨ . الفرق بين الفرق ص ٢١٦ .

التى كان المسلمون الأولون فى غنى عنها وكانوا على الجادة التى لا عوج فيها ولا انحراف فكان القول بالقدر أى إنكار نسبة الخير والشر فى دائرة الإنسان إلى القدر كالقول بالجبر بدعة طرأت على التفكير الإسلامى الإلهى ودخلت مع دخول العناصر غير الإسلامية عندما اختلط اليهود بالمسلمين ونفذوا إلى الأحاديث النبوية يضعونها لتؤيد وجهات نظرهم . فقد روى ابن سعد : أخبرنا حماد بن خالد الخياط .. قال : حدثنى عبد الرحمن بن قتادة السلمى وكان من أصحاب النبى ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره فقال : هؤلاء فى الجنة ولا أبالي وهؤلاء فى النار ولا أبالى . فقال قائل : يا رسول الله على ماذا نعمل ؟ قال : على مواقع القدر » [١] .

والواقع إن التفكير فى مسألة الجبر والاختيار ظاهرة نفسية عامة تميز حياة الجماعات المتدينة ، وكان المسلمون الأولون من الوعى على نصوص دينهم ولغتهم ما أبعدهم عن الخوض فى هذا الموضوع [٢] . وقديما أثار هذه المسألة فلاسفة اليونان فكان بعضهم كأبيقور يقول بحرية الإنسان وبأنه لا قدر ولا قدرة تضمر للإنسان شراً ولا خيراً [٣] .

ورأى الرواقيون أن حياة الفرد خاضعة لقانون ربطت به الأشياء بعضها ببعض لا فكاك منه وهذا القانون الذى لا يمكن أن يجترح أبدا بالقضاء والقدر يقضى على كل فعل إنسانى ، فإذا كانت الأشياء كلها تحدث وفقا لقدر مرسوم فالأشياء التى قدر أن تقع لنا ستقع سواء فعلنا أم لم نفعل [٤] .

وفى اليهودية قال القراءون بالجبر والقدر وقال الربانيون بالاختيار [٥] وأما

---

(١) الطبقات ج ١ ق ١ ص ٩ انظر أيضا ج ٥ ص ٢٨٢ ، ج ٥ ص ٣٤٤ .
(٢) محمد عبده – رسالة التوحيد ص ٩ .
(٣) الفرق ص ٢٤٢ .
(٤) د . أمين (عثمان) الفلسفة الرواقية ص ١٧٢ .
(٥) الفرق ص ٢٤٣ .

المسيحية الشرقية فكانت النزعة الغالبة على أهلها القول بحرية الإرادة الإنسانية فكان بيلاجوس صاحب المدرسة الكلامية التى نسبت إليه يرى وجوب الاعتقاد بمسئولية العبد عن أفعاله الحسنة والقبيحة [١] .

وتسللت هذه المبادىء سواء حرية الاختيار أو الجبرية إلى المسلمين عن طريق الفلاسفة وأهل الكتاب بحجة تعارض دلائل السمع وحجج العقول كما قال ابن رشد [٢] وبدأ ذلك بالشام وفى دمشق [٣] بالذات مركز الخلافة الإسلامية زمن الأمويين . وهذا لا يمنع أنه كان نقاشاً عقلياً لمشكلة الجبر والاختيار بين المسلمين أنفسهم ولكنه كان بصورة عارضة تساور البعض فقد جاء فى الحديث الشريف :

« أن النبى ﷺ سمع جمعاً من الصحابة يتباحثون فى القدر فخرج مغضباً يعرف الغضب فى وجهه حتى وقف عليهم فقال : أى قوم بهذا – ضلّت الأمم قبلكم – ضلت باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ولكن يصدق بعضه بعضا فما عرفتم فاعملوا به وما تشابه عليكم فآمنوا به » [٤] .

ويروى أن رجلا قال لابن عمر : ظهر فى زماننا رجال يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التى حرم الله ثم يحتجون علينا ويقولون كان ذلك فى علم الله ... فغضب ابن عمر وقال :

« سبحان الله كان ذلك فى علم الله ولم يكن علمه ليحملهم على المعاصى » فكان هذا النقاش يثبت القدر لله بمعنى علمه الأزلى بما سيكون من شئون خلقه وإن علمه الأزلى هذا بشئون عباده لا يتضمن الإجبار ولا يعنى

---

(١) الفرق ص ٢٤٤ . البهى ص ١٠٠ .
(٢) مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص ٢٢٥ .
(٣) جولدتسيهر – العقيدة والشريعة ص ٩٥ .
(٤) الطبقات ج ٤ ص ١٤٦ ق ٢ . صحيح البخارى كتاب التفسير رقم ٢٣٧ . صحيح مسلم ج ٨ ص ٤٧ .

الإكراه والاضطرار فلا يصح أن يكون تبريراً للشر وإلقائه على الله سبحانه وتعالى فأدركوا معنى قوله سبحانه :

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (١) .

وأخذ أهل الكتاب يتبعون ما تشابه من القرآن فى مرحلة متقدمة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله (٢) فتأثر بعض المسلمين برأى النصرانية الشرقية وزاد الجدل والنقاش حتى ظهر المعتزلة . وأول من تكلم بالقدر فى الإسلام معبد بن عبد الله الجهني(٣) أخذ ذلك عن نصرانى من الأساودة يقال له أبو يونس سنسويه ويعرف بالأسوارى . كما ذكر ابن نباتة : أن أول من تكلم فى الإسلام رجل من أهل العراق يدعى سوزان كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر وعنه أخذ معبد الجهنى (٤) وذكر ابن قتيبة : أن غيلان الدمشقى كان قبطيا قدريا لم يتكلم أحد قبله فى القدر ودعا إليه إلا معبد الجهنى (٥) .

ومن ذلك يتضح أن الفكرة سللها الفكر النصرانى إلى الإسلام . وتمكن غيلان الدمشقى أن يسلل هذا الفكر بجرأة فى دمشق لمركزه من بنى أمية فقد كان أبوه مولى لعثمان بن عفان (٦) فدعا ذلك البعض إلى اتهام معاوية حين استقر له الأمر بأنه أراد أن يثبت فى أذهان المسلمين أن إمرته على المسلمين إنما كانت

---

(١) الملك الآية ١٤ .

(٢) قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله – والراسخون فى العلم يقولون كل من عند ربنا ﴾ (آل عمران الآية ٧) .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٩٦ . الجمهرة لابن حزم ص ٤٤٥ . الخطط للمقريزى ج ٤ ص ٧٦ .

(٤) سرح العيون ص ١٥٧ .

(٥) المعارف ص ٢٠٧ ، ص ٤٨٤ .

(٦) عبد الحليم محمود – التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ١٩٧ .

بقضاء الله وقدره فأشاع الفكرة وشجع مذهب الجبر . وأن خلفاء بنى أمية من بعده أخذوا يبثون الفكرة بمختلف الوسائل وأنهم رأوا أن القول بالجبر يبرر كل ما يأتون به من مظالم ، فعملوا أن يفسر الناس كل ظلم بقضاء الله وقدره (١) ويستدل هؤلاء على كلام عبد الملك بعد قتله لعمرو بن سعيد : إذ أمر أن ينادى فى الناس بأن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ (٢) . وهو نصّ عادى جدا لا يحتمل هذا الاستنتاج البعيد الذى بنوا عليه رأيهم ، وكيف يتناسون أن أقطاب الجبرية قد قتلوا على أيدى خلفاء بنى أمية . فقد قتل غيلان والجعد والجهم على يد هشام بن عبد الملك (٣) .

واستطاعت العناصر التى تسللت إلى الإسلام أن تنشر مذهبين جديدين على فكر الإسلام هما : **الحلول والتناسخ** . وتبنّت ذلك الفرق الغالية الذين وصفهم الشهرستانى بقوله : « الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبّهوا واحداً من الأئمة بالإله وربما شبّهوا الإله بالخلق وهم على طرفى الغلو والتقصير وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى (٤) .

وقد ظهر **التناسخ** (٥) فيما عدا الهندوكية فى الفكر المسيحى ، فقد عقد مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ م بسبب أن بعض الاساقفة كما قال ابن البطريق (٦) اعتنق فكرة تناسخ الأرواح وسار فيها إلى أقصى مداها حتى لقد قال

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ١٩١ . الذهبى – ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٨٣ جولدتسيهر – العقيدة والشريعة ص ٩٧ .

(٢) ابن قتيبة – المعارف ج ٢ ص ٤١ .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ٢٠٣ . خطط المقريزى ج ٤ ص ١٩١ .

(٤) الملل والنحل ج ٢ ص ١٠٢ .

(٥) التناسخ : انتقال الأرواح بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أُخر ولدت حديثا وإن لم تكن من نوع الأجساد التى فارقتها سواء أكان الجسدان جسدى إنسانين أو جسد إنسان وجسد حيوان – الفصل ج ١ ص ٧٧ .

(٦) محاضرات فى النصرانية ص ١٥١ .

إنه ليس هناك قيامة ، وبسبب أن بعض الأساقفة قالوا إن شخص المسيح لم يكن حقيقة بل كان خيالا فقرر المجمع حرمان هؤلاء الأساقفة ولعنهم وطردهم من زمرة المسيحيين .

وأما فكرة **الحلول** [١] **فقد** كانت واضحة فى الفكر النصرانى **فقد قيل** فى شرح عقيدة أوريجنيوس زعيم الاتجاه العقلى فى العقيدة النصرانية . أن المسيح الذى هو كلمه أو عقله حل فى عيسى الإنسان والمسيح بهذا المعنى بدأ فى شخص عيسى وعيسى بناء على ذلك إنسان إلٰهى صورته الخارجية صورة إنسان وطبيعته الداخلية مما ينتمى للإله فهو طبيعة مركب من الناسوت واللاهوت . فوضع مبدأ حلول المسيح فى عيسى [٢] .

وظهرت هذه الفكرة فى الفكر اليهودى بدليل قول ابن سبأ لعلىّ أنت ، أنت . فألّه علياً بأن جزءاً إلٰهياً حل فيه ، وأن هذه الصفات الإلهية تتناسخ فى الأئمة من أبنائه واحداً بعد الآخر [٣] .

وبإسلام بعض أهل المآرب من أهل الكتاب نبتت هذه الفكرة بين المسلمين الحديثى العهد بالإسلام . بأن حملوا أفكارهم وسلّلوها ، ومن أجل أن يبقى هؤلاء فى إطار الإسلام حاولوا أن يفتشوا عن آية أو أكثر يبررون فيها توهمهم فى التناسخ فقالوا فى قوله تعالى :

﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ [٤] أنهم مشاركون لنا فى نفوسهم بالقوة [٥] . كما فسروا قوله تعالى : ﴿ حتى يلج الجمل فى سم الخياط ﴾ [٦] أن النفس غير البرة لا تزال تتردد من بدن إلى بدن ألطف

---

(١) الحلول : انتقال روح الله إلى جسم الإنسان .
(٢) البهى ص ١٩ .
(٣) فاروق عمر – طبيعة الدعوة العباسية ص ١٠٨ .
(٤) الأنعام الآية ٣٨ .
(٥) ابن سينا – رسالة أضحوية فى أمر المعاد ص ٥٨ .
(٦) الأعراف الآية ٤٠ .

منه حتى تصغر وتصير بحيث تحصل فى بدن دودة صغيرة جرمها أن ينفد فى الإبرة بعد ما كان فى بدن جمل [١] .

واستغل أهل الكتاب التأويل أسوأ استغلال مغتنمين فرصة قلة معرفة الكثير من الموالى بالعربية وأساليبها . قال الزهرى : إنما أخطأ الناس كثيرا من تأويل القرآن لجهلهم بلغة العرب [٢] كما قال الأصمعى سمعت الخليل بن أحمد يقول : سمعت أيوب السختياني يقول : عامة من تزندق بالعراق لقلة علمهم بالعربية [٣] .

وقد هيأ جو الحرية الذى عاشه النصارى فى ظل دولة الإسلام إمكانية الجدل حتى قال الجاحظ : إن هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس كما ابتليت بالنصارى لأنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ويتخذونها هدفاً لهجماتهم . والضعيف الإسناد من رواياتنا والمتشابه من آى كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين وحتى من ذلك ربما تبرأوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ويشغبون على القوي ويلبسون على الضعيف [٤] .

* * *

(١) رسالة أضحوية ص ٤٢ .
(٢) كتاب الزينة ج ١ ص ١١٦ .
(٣) الزينة ج ١ ص ١١٧ .
(٤) لوبون – الحضارة ص ٢٣٥ .

الفصل الثانى

أثر أهل الكتاب فى نشوء فرقة الخوارج وتطورها

ظهور فرقة الخوارج فى الإسلام :

لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى فأجمعت الأمة على اختيار أبى بكر للخلافة ثم عهد أبو بكر بالخلافة إلى عمر وكانت غالبية المسلمين فى ميادين الجهاد أمام الفرس والروم بعد أن استشار من بقى فى المدينة منهم ، ثم عهد عمر بالخلافة إلى واحد من ستة فتم اختيار عثمان رضى الله عنه .

وقد اجتمعت الأمة صفاً واحداً وراء هؤلاء الخلفاء حتى كانت الفتنة المشئومة التى ذهبت ضحيتها عثمان ، فوقع اختلاف انقسمت فيه الجماعة على نفسها شطر مع علىّ وشطر مع خصومه ولم يخرجوا فى ذلك عن الجماعة لأن اختلافهم لم يكن دينيا فلم يكفّروا بعضهم برغم تبادلهم التّهم السياسية وكانت كل فرقة تجيز الصلاة وراء الفرقة الأخرى ، وكان التعبير المستعمل فيما بينهم : قتال أهل الصلاة .

ولما فارق الخوارج على أساس اعتقادى كانوا أول مفارقين للجماعة استحقوا اسم فرقة . وهم أول فرقة تركت الصلاة وراء الجماعة وكفّرتها وتبرأت منها على السواء .

وقد فسر الشهرستانى الخوارج والوعيدية بأنهم كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم [1] وتبعاً لهذا التعريف حاول أن يرجع بذور الخوارج إلى

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٣ .

زمن النبى ﷺ عندما أعطى المؤلفة قلوبهم فغضبت بعض قريش والأنصار فأقنعهم الرسول ﷺ وبيّن أنه فعل ذلك لتألفهم ، فاعترض ذو الخويصرة وهو حرقوص بن زهير التميمى المشهور بذى الثدية على قسمة الغنائم (١) ولما استأذنه أحد المسلمين بقتله قال ﷺ : « إن من ضئضىء هذا قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد وإرم » (٢) .

وكانت العصبية فى نفس العربى الذى لم يتمكن من قلبه الإيمان موجودة بالفعل خاصة وأن الإسلام هدم بيوتًا وأقام بيوتًا ولا أدلَّ على ذلك من هذه الحادثة :

حج أبو بكر ومعه أبو سفيان بن حرب فتكلم أبو سفيان فرفع أبو بكر صوته ، فقال : أبو قحافة : اخفض صوتك يا أبا بكر عن ابن حرب . فقال : أبو بكر يا أبا قحافة إن الله بنى بالإسلام بيوتاً كانت غير مبنيّة وهدم بيوتًا كانت فى الجاهلية مبنيّة وبيت أبى سفيان مما هدم (٣) .

وكانت تظهر الروح التقليدية للتمرد القبلى على المركزية فى الحكم فى بعض القبائل العربية وخاصة تميم وتتغلّب فيها النزعة الفردية ، فوجدت فيها اليهودية والنصرانية الضالة لضرب الإسلام وحركوا فيهم هذه النزعات – فكان ذو الخويصرة تميمى وسجاح تميمية ومالك تميمى – (٤) ولذا يمكن القول أن فكرة الخوارج وجدت التربة الصالحة فى أعراب تميم وبكر .

لقد أدركت عناصر أهل الكتاب الحاقدة أن مناهضة الإسلام بالسيف

---

(١) تلبيس إبليس ص ٩٠ .
(٢) ابن تيمية ص ٥٣ ، ٥٤ – ابن هشام – السيرة ج ٤ ص ١١٢ . المغازى ص ٩٤٨ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٥ .
(٣) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٨٨ .
(٤) الخضرى ج ١ ص ١١٧ . بروكلمان ج ١ ص ١٠٠ . حتى ج ١ ص ١٩٢ فلهوزن – الدولة العربية . Literary p : 84 .

لا سبيل إليه فسايرت الإسلام ومشت على موازاته تتحين ثغرة للتسلل فاستغلت بعض الأحداث التى بينّاها فى الفصول السابقة من أجل تعميق الخلاف فأثارت فكرة العصبية والتناحر المتوارثة بين القبائل العربية المختلفة وخاصة فى جيش على ، وقد ذكرنا من قبل وعند الحديث فى وقعة الجمل اعتراض فئة على سياسة علىّ فى : ألا يقتل مدبراً ولا يذفف على جريح ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا . فقالت هذه الفئة : كيف يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ فتكلمت الخوارج من يومئذ [١] وعودة سريعة إلى مؤتمر ابن السوداء فى وقعة الجمل نجد فيه فرقة كانت تريد حرب على وطلحة والزبير فقد قال علباء بن الهيثم :

انصرفوا بنا عنهم ودعوهم فإن قلّوا كان أقوى لعدوهم وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم ودعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم من تتقون به وامتنعوا من الناس [٢] .

فمراجعة هذه الأحداث توضح أن فرقة الخوارج نبتت من فرقة السبئية الغلاة وأن زعماء الخوارج الأول أو بعضاً منهم على الأقل كانوا يعارضون ولاية عثمان نفسه واشتركوا جميعا فى المسئولية فى مقتل عثمان بل فاخروا بهذا الاشتراك ، لذلك كانوا يتخوفون من انقطاع الحرب وعقد الصلح مخافة أن يعاقبوا على اشتراكهم فى مقتله فكانوا سببا فى العمل من أجل الدعوة إلى الحرب واستمرارها [٣] فحرقوص بن زهير كان من زعماء تميم وتاريخه فى الفتن طويل بل مشهور اشترك فى فتنة مقتل عثمان وكان بحماية تميم والأحنف من غضب طلحة والزبير فوجد من تميم ملجأ ومنبتاً يبذر فيه فكره ، وباشتراكهم مع على فى صفين استغلوا الرأى العام الذى ساد معسكر أهل العراق ضد عليّ فخرجوا عليه [٤] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٤١ .
(٢) نفسه ص ٥٩٤ .
(٣) الفرق ص ٧٢ .
(٤) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٣ .

فكان ظهور الخوارج كظاهرة سياسية ودينية متميزة إثر هذه الموقعة وما أسفر عنها من قيام التحكيم ونتائجه بين الطرفين المتخاصمين حين تنادوا . « لا حكم إلا لله »[١] .

وقد حاول بعض المؤرخين إنكار أن الخوارج والشيعة يعودون إلى أصل واحد فى فرقة السبئية [٢] بأن خلطوا بين حركات الخوارج وفكرتهم ونشوء فرقتهم . فقد كانت حركاتهم سابقة لتكوين فرقهم ، فكانت السبئية تستغل تناقضاتهم مع معسكرات المسلمين لتعمق فى نفوسهم أفكارا إسلامية فى أصلها لتصل إلى درجة الغلو الذى أخرجهم من دائرة الإسلام . وهذا ما يتناسب مع عرب البادية الذين كانوا قد ارتدوا عن الإسلام ثم سكنوا البصرة والكوفة بعد القضاء على ردتهم فحقدوا على أبى بكر وعلى قريش وحسدوها وأخذوا فى محاربة قريش اتجاها عن طريق الإسلام نفسه وتأويله وهو أمر لم يكن باستطاعة أعراب تميم وبكر القيام به لولا العناصر اليهودية والنصرانية الفكرية المتغلغلة فيهم والتى استطاعت أن تحول عصبيتهم إلى نوع من الحماس الدينى الشاذ الذى يفوق أى حماس . فكانوا فى أصلهم من دعاة الفتنة على عثمان وتبجّحوا فى ذلك بل وهددوا علياً بإلحاقه بعثمان . فقد قام على يخطب يوما فقام أولئك الخوارج فقطعوا كلامه فنزل ودخل وهو يقول : « ألا إنما أُكلت يوم أُكل الأبيض ، ألا إنما وهيت يوم قتل عثمان » [٣] .

ولما رفعت المصاحف على الرماح جاء مسعر بن فدكى التيمى وزيد بن حصين الطائى السنبسى فى عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك فحضّوا علياً على قبول التحكيم وحملوه عليه [٤] بقولهم : « يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه » [٥] . ثم بتهديده بإلحاقه بعثمان إن لم يفعل [٦] .

---

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥١٢ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٦ .
(٢) محمود كامل ص ١٧٤ .
(٣) الأنساب ج ٢ ص ٣٥٧ .
(٤) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٣ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ١١٦ .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ٤٩ .
(٦) الفخرى ص ٩١ . الملل والنحل ص ١٢٣ . الطبرى ج ٥ ص ٤٩ .

وافترق السبئية فى صفوف علىّ إلى فئتين : فئة لا ترى التحكيم وفئة أخرى تراه وهذا هو الأسلوب الذى درج عليه خصوم الإسلام كأسلوب مرتب ومنظم بشكل دقيق فقد وجدوا فى عملية الانتشار على كل الفرق الإسلامية أسلوباً يحقق أهدافهم فى تقويض الإسلام ودولته وإضعاف حماته وهم العرب ، فظهر الخلاف من أول الأمر بين الأشعث وعروة بن أدية وهو أبو بلال تميمى من حنظلة [(١)] ولولا حكمة الأحنف بن قيس لحدثت فتنة بين أهل اليمن وتميم [(٢)] .

واشترك من أصبح من زعماء الخوارج من السبئية فى إجبار علىّ على الموافقة على بعث أبى موسى الأشعرى فى التحكيم [(٣)] ولكنهم عادوا متظاهرين بالندم قائلين لعلى : « لا حكم إلا لله ، لِمَ حكمت الرجال » [(٤)] . وطلبوا منه الندم والتراجع وأن يقر بالذنب كما أقروا هم يريدون أن يضعفوا مركز على وأن يزيدوا من انشقاق المسلمين . وكانوا يعنون بتعبيرهم « لا حكم إلا لله » أى لا سلطة للإمام عليهم لأن السلطة الحقيقية لله . فاعتبروا التحكيم جريمة كبيرة تستوجب التوبة بل اعتبروه كفراً يجب الرجوع عنه والتوبة منه ، كما أخذوا يقطعون على علىّ القول ويجادلون . فكان علىّ يقول :

« كلمة حَقٍّ يُراد بها الباطل . نعم إنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله . وأنه لابد للناس من أمير برّ أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمن به السبل ، ويؤخذ به الضعيف من القوى حتى يستريح بر ويستراح من فاجر » [(٥)] .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٣ . المبرد – الكامل ج ٢ ص ١١٦ .
(٢) انظر الاستيعاب ق ١ ص ١٤٥ . الطبرى ج ٥ ص ٥٥ . الملل والنحل ج ١ ص ١٢٧ .
(٣) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٣ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٣٠ .
(٤) الفخرى – الآداب السلطانية – ص ٩٣ .
(٥) تلبيس إبليس ص ٩٣ . المبرد – الكامل ج ٢ ص ١١٧ .

وضايقوا عليا بالإكثار من : « لا حكم إلا لله » فإذا خطب فى المسجد قاطعوه بقولهم : لا حكم إلا لله فتجاوبت بها أنحاء المسجد فاستطاعوا بذلك أن يضموا بعض القراء إلى صفوفهم ممّن خيّب التحكيم أملهم فى حقن دماء المسلمين وهم ممن قال فيهم ابن حزم (١) :

(كانوا أجلافا أعرابا قرأوا القرآن قبل أن يتفقهوا فى السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء لا من : أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب عمرو ولا أصحاب علىّ ولا أصحاب عائشة ولا أصحاب أبى موسى ولا أصحاب معاذ بن جبل ولا أصحاب أبى الدرداء ولا أصحاب سلمان ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر . ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضا عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها فظهر ضعف القوم وجهلهم وأنهم أنكروا ما قام به البرهان) .

فنجحت مساعى السبئية فى إضعاف جيش علىّ ورجع من صفين متباغضا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط (٢) .

وفى الكوفة اجتمع الخوارج وقرروا الخروج وبايعوا شبث بن ربعى مؤذن سجاح أيام ادّعت النبوة (٣) ولكنه تركهم بعد أن أدرك الخطر وخرجوا إلى قرية قريبة من الكوفة تسمى حروراء فسموا الحرورية (٤) وهناك تم انتخاب عبد الله بن وهب الراسبى الذى لا سابقة له ولا صحبة ولا فقه (٥) بتأثير من ذى الخويصرة وصحبه بعد أن تظاهر برفضها زيد بن حصين الطائى وحرقوص بن زهير وحمزة

---

(١) الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٣٢ . الطبرى ج ٥ ص ٧٤ . مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٤ . الطبرى ج ٥ ص ٦٣ .

(٣) الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٢٢ .

(٤) الأنساب ج ٢ ص ٢٢٢ . الطبرى ج ٥ ص ٥٧ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٦ .

(٥) الفصل ج ٤ ص ١٢٢ . الملل والنحل ج ٢ ص ٢٠٧ .

ابن سنان وشريح بن أوفى العبسى (١) وذلك ليسهل انقياده لهم وائتماره بأمرهم ، فأصبحوا شوكة فى حلق الدولة الإسلامية يستميلون الخارجين عن القانون وذوى الأطماع والتقاة الذين هالهم أمر الفتن فخرجوا ابتغاء مرضاة الله بتأويل آيات الله (٢) .

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ (٣) .

كما سموا أنفسهم الشراة أى الذين باعوا أنفسهم لله متأولين قوله سبحانه : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ (٤) .

واستطاع علىّ أن يقنع عدداً منهم ففوّت الفرصة على دعاة الفتنة ولكنهم استغلوا الظروف بعد نتيجة التحكيم واجتمعوا فى منزل شريح بن أوفى وقرروا الخروج إلى النهروان وكاتبوا جماعتهم من أهل البصرة (٥) . وأما من بقى من السبئية فى جيش علىٍّ فقد تظاهروا بالغلو فى حبه فكانوا يقولون محرضين :

(يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك نعادى من عاديت ونشايع من أناب إلى طاعتك فسر بنا إلى عدوك) (٦) .

ولما دخل الخوارج المدائن قابلهم عبد الله بن خبّاب ويقال إنه كان واليا عليها (٧) فطلبوا منه أن يحدثهم شيئا عن رسول الله ﷺ فقال :

(سمعت أبى يحدث عن رسول الله ﷺ ذكر فتنة القاعد فيها خير من النائم والقائم فيها خير من الماشى والماشى فيها خير من الساعى فإن أدركت ذلك

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٧٥ .
(٢) الأنسَاب ج ٢ ص ٥٢٢ .
(٣) النساء الآية : ١٠٠ .
(٤) البقرة الآية ٢٠٧ .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ٧٥ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٢ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٦ .
(٦) الطبرى ج ٥ ص ٨٠ .
(٧) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٦ .

فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل) . وسألوه عن أبى بكر وعمر فأثنى عليهما خيراً وعن عثمان فى أول خلافته وفى آخرها فقال : (إنه كان محقا فى أولها وفى آخرها) . وعن علىّ قبل التحكيم وبعده فأثنى عليه فأخذوه وقدموه على ضفة نهر فضربوا عنقه وبقروا بطن امرأته [١] . كما قتلوا نسوة وولداناً فاشتدّ أذاهم باستباحتهم دماء من خالفهم ، فأرسل علىّ الحارث بن مرة العبدى إليهم فينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه ، ولما طلب منهم قيس بن سعد بن عبادة الرجوع إلى الجماعة قال له عبد الله بن شجرة السلمى : (إن الحق قد أضاء لنا فلسنا نتابعكم أو تأتونا بمثل عمر) [٢] إعجازاً وطلبا للفتنة فاعتزل بعض الخوارج القتال وعليهم فروة بن نوفل الأشجعى [٣] .

فكانت وقعة النهروان وكانت هزيمة ساحقة للخوارج لم يفلت منهم إلا القليل [٤] وعفى علىّ عن جرحاهم الأربعمائة فجعل منهم من كان وراءهم شهداء ورمزا [٥] .

كما اتهم الأشعث زعيم كندة فى الكوفة [٦] بممالأة معاوية فقال عنه اليعقوبى :

(وقد كان معاوية استماله إليه وكتب إليه ودعاه إلى نفسه) [٧] وأما ابن قتيبة فيذكر : (أن معاوية أرسل عتبة بن أبى سفيان إلى الأشعث وقال له :

---

(١) ابن سعد – الطبقات ج ٥ ص ١٨٢ . الطبرى ج ٥ ص ٨١ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٧ – مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٤ – الفرق بين الفرق ص ٥٧ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٨٣ . الفرق بين الفرق ص ٥٧ .

(٣) الأنساب ج ٢ ص ٥٢٩ . الطبرى ج ٥ ص ٨٦ .

(٤) انظر الملل والنحل ج ١ ص ١٢٦ . الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٣٩ / البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٧ .

(٥) نيكلسون Literary p : 208 .

(٦) الاستيعاب ق ١ ص ١٧٤ .

(٧) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٣٤ .

(ألن إلى الأشعث فإنه إن رضى بالصلح رضيت به العامة ، فأتاه عتبة فكلّمه فأقنعه) [١] .

ولهذه الاعتبارات نظر إليه الشهرستانى على أنه من الخوارج بل اعتبره من أشد الناس خروجاً على علىّ [٢] .

حركة الخريت بن راشد كظاهرة من ظواهر فرقة الخوارج :

أظهر الخريت الخلاف على علىّ سنة ٣٨ هـ بعد تحكيم الحكمين وانضم إليه بنو ناجية بعد أن كان شهد معه الجمل وصفين والنهروان [٣] ورأى فلهوزن أن الخريت أخذ على علىّ عدم قبوله حكم أبى موسى الأشعرى الذى يقضى بترك اختيار الخليفة إلى الشورى بين المسلمين [٤] وواقع الأمر غير ذلك إذ عندما تذرع الخرّيت بأسباب لم يتذرع بهذا وإنما قال لعلى : (لأنك حكّمت فى الكتاب وضعفت عن الحق إذ جد الجد وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم فأنا عليك زارٍ وعليهم ناقم ولكم جميعاً مباين) [٥] . فكان خروجه على علىّ وعلى أهل الشام بعد أن وجد الفرصة سانحة ، بعد أن شعر أن الضعف أخذ يدب فى جيش علىّ ، وشجعه نصارى العراق والخليج وسارعوا للإنضمام تحت لوائه نكاية بالمسلمين مبتهلين الفرصة لضرب الإسلام والمسلمين ومشكّكين المسلمين فى دينهم مقتدين بأسلافهم من أهل الكتاب زمن الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد كان قومه بنو ناجية فى معظمهم من النصارى الذين أسلموا فلما رأوا اختلاف الناس قالوا يشكّكون الناس بالإسلام :

(والله لديننا الذى خرجنا منه خير وأهدى) . فارتدّوا ومنعوا الصدقة عام

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١١٦ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٣ .
(٣) الطبرى ج ٥ ص ١١٣ .
(٤) فلهوزن P : 92 .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ١١٤ .

صفين والعام الذى تلاه وانضموا إلى الخريت [١] .

وبرع الخريت فى مخاطبة الناس بما يهواه كل منهم فكان يأتى إلى من كان معه من أصحابه فمن يرى رأى الخوارج فيسرّ إليهم :

« إنى أرى رأيكم فإن علياً لن ينبغى له أن يحكّم الرجال فى أمر الله » وقال للآخرين منددا :

« إن عليا حكم حكما ورضى به فخلعه حكمه الذى ارتضاه لنفسه فقد رضيت أنا من قضائه وحكمه ما ارتضاه لنفسه » .

وقال سرا لمن يرى رأى عثمان :

« أنا والله على رأيكم قد والله قتل عثمان مظلوما » .

وقال لمن منع الصدقة :

« شدوا أيديكم على صدقاتكم وَصِلوا بها أرحامكم وعودوا بها إن شئتم على فقرائكم » .

وأغرى من ارتد عن الإسلام إلى النصرانية بمتابعته قائلا :

« أتدرون حكم علىّ فيمن أسلم من النصارى ثم رجع إلى نصرانيته لا والله ما يسمع لهم قولًا ولا يرى لهم عذرا ولا يقبل منهم توبة ولا يدعوهم إليها وأن حكمه فيهم لضرب العنق ساعة يستمكن منهم » [٢] .

فاجتمع له بذلك جمع غفير من قومه ومن عبد القيس ومن والاهم من سائر العرب وأخذوا يفسدون فى الأرض فقد واجهوا مسلماً أعجميا بناحية نفرّ فقتلوه لأنه ذكر لهم أنه مسلم وكان معه رجل من أهل الذمة فقالوا : « أما هذا فلا سبيل عليه » [٣] .

---

(١) الأنساب ج ٢ ص ٥٨٨ . الأعلام ورقة ١٣ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٢٥ .

(٣) نفسه ص ١١٧ . ونفرّ قرية من أعمال الكوفة . ياقوت – معجم البلدان ج ٥ ص ٢٩٥ .

ولما توجه إلى الأهواز ضم إليه الكثير من أهلها الأعاجم الذين أرادوا كسر الخراج ، كما ضم إليه اللصوص وقطاع الطرق والناقمين على العرب [١] وحرض أهل فارس فطمعوا فى المسلمين فأرسل إليهم ابن عباس زياداً فى جمع كثير فأدوا الخراج [٢] .

فكانت حركة الخريت حركة نصرانية منظمة ضمت فئات كثيرة من النصارى والمجوس واليهود تذكرنا بحركة مسيلمة ومالك بن نويرة .

وأدرك علىّ خطر حركته فأرسل إليه معقل بن سنان أشهر قادته فألجأه إلى الفرار بعد أن قاتله بجموع كثيرة ، ولما ظفر معقل سبى من بنى ناجية رجالًا كثيراً ونساء وصبيانًا فأما من كان مسلماً فخلّاه وترك له عياله وأما من كان ارتد فعرض عليه الإسلام وعمد إلى النصارى وعيالهم فاحتملهم مقبلًا بهم حتى مر بهم على مصقلة بن هبيرة الشيبانى عامل علىّ على أردشير خرّة فاشترى السبى وأعتقهم ولم يدفع شيئا ولحق بمعاوية [٣] .

وبالإضافة إلى اعتماد الخريت الرئيسى فى حركته على النصارى فقد كانوا يقومون بالاتصال بين من يريد من أصحاب على ومعاوية فقد أرسل مصقلة إلى أخيه ابن هبيرة المناصح لعلى يعده ويمنيه إن التحق بمعاوية مع رجل نصرانى من تغلب [٤] فعملوا بذلك على إضعاف شأن علىّ وخدموا معاوية بن أبى سفيان بشكل غير مباشر .. كما استمرت السبئية المحركة لحركات الخوارج فى إضعاف شأن علىّ فقد جمع عبد الله بن وهب الهمذانى وهو ابن سبأ جماعة فيهم حجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق الخزاعى وحبّة بن جوين البجلى ثم العرنى وجاءوا إلى علىّ فسألوه عن أبى بكر رضى الله عنه فقال :

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) نفسه ص ١٢٣ .

(٣) نفسه ج ٤ ص ١٢٦ .

(٤) البدء والتاريخ ج ٣ ص ٧ . الطبرى ج ٥ ص ١٣٢ .

أوقد تفرغتم لهذا ؟ وهذه مصر قد افتتحت وشيعتى بها قد قتلت ؟ وكتب كتابا يقرأ على شيعته فى كلّ الأيام فلم ينتفع بذلك الكتاب وكان عند ابن سبأ منه نسخة حرّفها [١] فاشتد اليأس بعلى عام ٤٠ هـ فجرت مهادنة بينه وبين معاوية بعد مكاتبات [٢] على أن يكون لعلى العراق ولمعاوية الشام ولا يدخل أحدهما فى عمل الآخر بجيش ولا غزو [٣] وهذا فى غير صالح دعاة الفتنة فقد رأوا أن الأمور تجرى بما لا تشتهي أنفسهم من اتفاق كلمة المسلمين فخطّطوا على أن يشغلوا الساحة الإسلامية ويروّوها بالدماء ليتقلّص المد الإسلامى وتتقوّض دولته فاجتمع ثلاثة من الخوارج [٤] بمكة وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى وعابوا ولاتهم وذكروا أهل النهروان فتكفّل ابن ملجم باغتيال على والبرك بمعاوية وعمرو بن بكر بعمرو بن العاص [٥] .

وابن ملجم هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى وهو من تجوب [٦] من حمير وعداده فى مراد [٧] من كندة [٨] . ولا استبعد يهودية ابن ملجم الحميرى فحمير عرفت بكثرة يهودها ومنهم عبد الله بن سبأ ، وكعب الأحبار ووهب بن منبه ومنهم الشخصيات التى لعبت دوراً فى إثارة الفتن وتشجيعها فى الدولة الإسلامية .

وكان ابن ملجم يحقد على النصارى يروى عنه أنه قبل أن يضرب علياً جلس فى بنى وائل فمرت عليه جنازة أبجر بن جابر العجلى النصرانى فرأى النصارى

---

(١) الأنساب ج ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٤٠ .

(٣) العينى ج ١٠ ق ١ ص ٢٤ .

(٤) تلبيس إبليس ص ٩٤ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٥٩ .

(٥) الأنساب ج ٢ ص ٦٥٤ .

(٦) وسبب تسميته تجوب أن رجلًا من حمير كان قد أصاب دماً فى قومه فلجأ إلى مراد فقال لهم : جئت إليكم أجوب البلاد فقيل أنت تجوب . الاستيعاب ق ٣ ص ١١٢٢ .

(٧) ابن سعد – الطبقات ج ٣ ص ٢٣ ق ١ . التنبيه والإشراف ص ٢٥٧ .

(٨) الأعلام ورقة ٢٤ . الطبرى ج ٥ ص ١٤٤ .

حوله وأناسا من المسلمين معهم لمنزلة ابنه حجّار فقال ابن ملجم : « والله لولا أني أبقي نفسي لأمر هو أعظم عند الله من هذا لاستعرضتهم بسيفي » [(١)] .

وأما البرك واسمه الحجاج بن عبد الله [(٢)] فكان من تميم وكذلك عمرو ابن بكر [(٣)] والبعض يقول عمرو هذا زادويه مولى بنى العنبر [(٤)] أو داود مولى بنى العنبر [(٥)] .

ولا يهمنا هنا إن كان اجتماع الثلاثة قد تم فى مكة أو فى منزل قطام فى الكوفة ولكن مما لا شك فيه أن السبئية التى حركت فتنة مقتل عثمان ، وأوجدت الصدع بين المسلمين ، بين على وطلحة والزبير وعائشة أولا ثم بين على ومعاوية ثانياً لا يصعب عليها أن تخطط لمقتل الزعماء الثلاث والذين كانوا أكفأ المسلمين آنذاك القادرين على أن يعيدوا للجماعة الإسلامية وحدتها وقد اتهم كثير من المؤرخين الأشعث بن قيس الكندى بالاشتراك فى مؤامرة الاغتيال وسوابق الأشعث فى الارتداد عن الإسلام وفى مواقفه من علىّ مشهورة ، فذكر اليعقوبى أن عبد الرحمن نزل على الأشعث بن قيس فأقام عنده شهراً يشحذ سيفه [(٦)] ، وأما العينى فيذهب إلى أبعد من ذلك فذكر أن ابن ملجم وصاحبيه شبيب ووردان ألقوا بما فى نفوسهم إلى الأشعث فواطأهم على ذلك [(٧)] وأما الشيعة فتذهب إلى أن الأشعث حضر فى تلك الليلة لمعونتهم على ما اجتمعوا عليه [(٨)] .

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢١٤ . الأنساب ج ٢ ص ٦٦٠ .
(٢) الأعلام ورقة ٢٤ .
(٣) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٣ . مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٧ .
(٤) الأعلام ورقة ٢٤ . مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٧ .
(٥) البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٣١ .
(٦) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٢ .
(٧) العينى ج ١٠ ق ١ ص ٣٨ .
(٨) تاريخ الكوفة ص ٢٦٢ .

وهناك رواية ذكرها المبرد تبرىء الأشعث :

« فقد رأى عبد الرحمن سيفا حديداً فقال : ماتقلدك السيف وليس بأوان حرب ؟ فقال : إنى أردت أن أنحر به جزور القرية فركب الأشعث بغلة وأتى عليًّا فأخبره وقال له : قد عرفت بسالة بن ملجم وفتكه . فقال علىّ : « ما قتلنى بعد » [١] .

ولكنه يعود فى موضع آخر لاتّهامه فيذكر قصة حجر بن عدىّ وقوله : إنه سمع الأشعث يقول لابن ملجم : « فضحك الصبح » . فلما قتل أمير المؤمنين ، قال حجر للأشعث : « أنت قتلته يا أعور » [٢] .

والذى أراه . أن عبد الرحمن كان من الذكاء بحيث تقرب إلى علىّ رضى الله عنه وإلى الأشعث فكان عند الأشعث ويختلف إلى علىّ . وكان علىّ يلاطفه ويتوسم فيه الشر وفيه يقول :

أريد حياته ويريد قتلى ... عذيرك من خليلك من مراد [٣]

وتمكن عبد الرحمن أن يضم إليه رجلين وردان من تيم الرّباب وشبيب بن بجرة من أشجع [٤] وناجى فى الليلة التى عزم فيها أن يقتل علياً الأشعث بن قيس فى مسجده حتى كاد يطلع الفجر فقال له الأشعث : « فضحك الصبح فقم » [٥] ففسرها من سمعها بمعنى التواطؤ معهم ، وليس فى الواقع ما يستبعد عن الأشعث فهو خارجى أيضا على قول الشهرستانى .

وتمكن ابن ملجم وصاحباه من قتل علىّ وهو خارج لصلاة الفجر لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ [٦] .

---

(١) المبرد . الكامل ج ٢ ص ١٢٦ .
(٢) نفسه ص ١٥٢ .
(٣) ابن الوردى ج ١ ص ١٦٤ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٣٢ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ١٤٤ .
(٥) ابن سعد — الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٤ .
(٦) الطبرى ج ٥ ص ١٥٢ — التنبيه والإشراف ص ٢٥٧ .

أما البرك فقد قعد لمعاوية فى نفس الليلة التى قتل بها علىّ فلما خرج ليصلى الغداة شد عليه بسيفه فوقع فى إليته ودووي من الضربة (١) .

وجلس عمرو بن بكر لعمرو بن العاص فلم يخرج تلك الليلة وكان قد اشتكى وخرج خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته ليصلى فشدّ عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله ولمّا عرف أنه قتل خارجة قال : « أردت عمراً وأراد الله خارجة » (٢) فذهب مثلا .

مناقشة أثر أهل الكتاب فى بعض آراء الخوارج :

اتسمت حركات الخوارج بطابع السرعة دون التنظيم والتنسيق وإعداد الوسائل الكفيلة بنجاحها وكأنهم كانوا يستهدفون تقويض الدولة الإسلامية من الداخل وحسب ، وهذه الحركات تناسبت مع فكرهم السياسى الدائم التغير والتبدل ، إذ لم يكن لهم فئة معينة أو فكر واحد يجمعهم فخاض الخائضون من كل فكر وجنس فى مبادئهم فتسللت إلى أفكارهم أفكار أهل الكتاب واتجاهاتهم ، وقد تميزوا فى التشدد فى فهم النصوص الدينية بأن اتخذوا صورة التطرف والقسوة فى معاملة الغير من المسلمين واعتبروا غيرهم من المسلمين ديار حرب فاستحلوا قتالهم وسبيهم ، فكانوا إذا وجدوا مسلماً امتحنوه فإذا وجدوه مخالفا قتلوه وهذا ما يعرف عندهم بالاستعراض (٣) .

فهابهم المسلمون وانفصلوا عن المجتمع المسلم انفصالا كاملا . يذكر البلاذرى : « أن أحد خوارج الكوفة وهو شبيب بن عزة الأشجعى كان إذا جن عليه الليل خرج فلم يلق صبيا ولا رجلا ولا امرأة إلّا قتله » (٤) .

---

(١) ابن الوردى ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) الطبقات ج ٧ ق ١ ص ١٩٠ . ابن الوردى ج ١ ص ١٦٤ . مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٧ – الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٦١ .

(٣) الفرق ص ٨١ .

(٤) أنساب الأشراف ج ٤ ورقة ٤١ أ .

لقد تمسكوا بظاهر الألفاظ فنرى عليا عندما كان يناقشهم لا يجادلهم بالنصوص لأنهم لا يأخذون إلا بظواهر الألفاظ فيما يناسبهم ويوافق رغباتهم فكان يناقشهم بعمل الرسول ﷺ لأن العمل لا يقبل تأويلا ولا يُفهم إلّا على وجهه الصحيح فلا يكون فيه مجال لنظراتهم السطحية وتفكيرهم الذى لا يصيب إلّا جانبا واحداً ولا يتجه إلّا إلى اتجاه جزئى وفى الاتجاه الجزئى فى فهم العبارات والأساليب بعد عن غرض مرماها ومقصدها . وفى النظرة الكلّية الصواب وإدراك الحق من كل نواحيه (١) .

وأصاب بعضهم الهوس الدينى الذى تسلل إلى نفوسهم بفعل السبئية والذى مردّه إلى اضطراب الأعصاب لا مجرد الشجاعة ، ويلوح من حال الخوارج أنهم كانوا يشترطون العصمة فى الإمام ، والقول بعصمة الإمام لم يكن معروفا فى عصرهم بل هى من مصطلحات قرون متأخرة إلا أن مفهومها كان يدور فى أذهان الخوارج بغير مفهومها عند علماء الكلام (٢) فاعتقدوا عصمة أبى بكر وعمر وعثمان فى الشطر الأول من خلافته ، وفى تولى أبى بكر وعمر وعثمان فى أول خلافته خدعة سبئية ماكرة الهدف منها إيجاد حاجز متين يمنع اللقاء بين المسلمين المتنازعين ، وفى جانب آخر فإن أخذ الخوارج بمفهوم العصمة وتسربها فى أذهان جماعاتهم أوقعهم فى حرج كبير وكان سببا لتمزقهم وتشردهم وهذا مانواه السبئيون الذين سربوا إليهم هذه الفكرة فقد كانت تفرق بينهم هفوة تافهة فتقسمهم إلى فريقين أو أكثر .

والذى يؤكد وحدة أصلهم مع السبئية أن تصنيفات كتبهم كانت مستورة

---

(١) أبو زهرة - تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٧٣ .
انظر أمثلة من هذا الجدال - الفرق بين الفرق ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) فمفهومها عند علماء الكلام ملازمتها المفروض فيه العصمة ملازمة لا انفصال لها عنه فى قول ولا عمل ويرونها منحة من الله ، ولذلك لا يستطيعون خلعها على أحد مهما بلغ من التقوى والاستقامة إلا بنص قاطع ولذلك حصروها فى الأنبياء على تفصيل لهم . وأما مفهومها عند الخوارج : الاستقامة المطلقة مع جواز الانحراف ، الذى يمكن تداركه بالتوبة .

محفوظة [١] حتى كتب فقهائهم ، وقد علل ابن النديم ذلك بأن العالم استتاء منهم وتتبعهم بالمكاره [٢] فكانوا بذلك فى الواقع أول الناس فى الإسلام الذين طبقوا التقيّة الفكرية ثم طبق بعضهم التقيّة السياسية فيما بعد .

وقد أجاد النصارى استغلال حركات الخوارج وأفكارهم فكانت أعداد الخوارج فى أيام السلم هائلة مع شبيب وقطرى بفعل انضمام النصارى والأعاجم إليهم . ولكنهم يتقلصون إلى ألوف بل إلى مئات فى أوقات الحرب .

فالنصرانية فى العراق وفارس – التى كانت قوية نشيطة قبل الإسلام وعلى اتصال بشمال جزيرة العرب وخاصة فى البحرين حيث كان لهم أساقفة وأديرة منذ القرن الخامس للميلاد – لم تعجبها منافسة الإسلام الذى عاملهم بالحسنى . فشجعوا الحركات الخارجة عليه أو حركوها . فكانوا موضع ثقة الخوارج بِكَرْمان التى كان أهلُها من النصارى [٣] كما انضموا للخوارج فى ثوراتهم مع بعض من أسلم من الفرس والنصارى ، الأمر الذى قاد إلى خروج بعض فرقهم عن الإسلام كلية **ومن هذه الفرق الخارجة عن الإسلام :**

(١) **اليزيدية** : أصحاب يزيد بن أنيسة الذى ادّعى أن الله سيبعث رسولًا من العجم وينزل عليه كتابا من السماء جملة واحدة ويترك شريعة محمد ﷺ ، وزعم أن أتباع ذلك النبى هم الصابئة المذكورون فى القرآن [٤] الكريم وكان يقول إن فى هذه الأمة شاهدين عليها هو أحدهما والآخر لا يدرى من هو حتى ولا هو يدرى لعله كان قبله ، وإن من قال من اليهود والنصارى : « لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى العرب لا إلينا فإنهم مؤمنون أولياء لله تعالى وإن ماتوا على

---

(١) ابن النديم – الفهرست ص ٢٧٢ .
(٢) نفسه ص ٣٤٣ .
(٣) ابن البطريق ص ١٥٨ .
(٤) الشهرستانى – الملل والنحل ج ١ ص ١٤١ . الأشعرى ج ١ ص ١٧١ الفرق بين الفرق ص ٢٦٣ .

هذا العقد وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى » [١] .

(٢) الميمونية :

فرقة من العجاردة الصفرية ، قالت بإباحة نكاح بنات الأولاد من الأجداد وبنات أولاد الأخوة والأخوات [٢] متأولين قوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ [٣] .

وقالوا : إن سورة يوسف ومريم ليستا من القرآن الكريم [٤] .

إن هاتين الفرقتين تؤكدان على وحدة الأصل بين الخوارج والسبئية وقد عدها كتاب الفرق الإسلاميون من الفرق الخارجة عن الإسلام ولم يعتبروها من فرقه .

صفة الاستعراض :

وقد غلبت صفة الاستعراض على الخوارج قبل أن تظهر فرقهم المنظمة ، فكانت حركاتهم فى البصرة بين ٤١ - ٦٤ هـ أشبه بحركات القتلة والسفاحين يقومون باستعراض الناس حتى ممن لم يكونوا أعداءهم . وكان أول من كفر المسلمين جميعا منهم سهم بن غالب الهجيمى سنة ٤٦ هـ [٥] وتبعه فى ذلك متشدّدا بصورة أكثر قريب بن مرة الأزدى وزحاف بن زحر الطّائى سنة ٥٠هـ وكانا أول من خرج بعد أهل النهروان [٦] فى ناس من طيئ وإياد يستعرضون الناس ويقتلون من لقوا من المسلمين واشتد الاستعراض حتى بلغ ذروة تطرفه عند الأزارقة

---

(١) الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) الفصل ج ٤ ص ١٤٥ . الأشعرى ج ١ ص ١٦٦ . الفرق بين الفرق ص ٢٦٤ .

(٣) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٨ . الآية ٢٤ سورة النساء .

(٤) الأشعرى ج ١ ص ١٦٦ . الفرق بين الفرق ص ٢٦٥ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٨ .

(٥) أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤١ أ .

(٦) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٨ . الفرق بين الفرق ص ٦٢ .

سنة ٦٤ هـ . الذين اعتقدوا أن المسلمين مشركون تجرى عليهم أحكام المشركين وأن دارهم دار حرب يستباح فيها ما يستباح فى دار الحرب من قتل الأطفال والنساء وسبى الذرية والنساء وبالتالى يباح استرقاق مخالفيهم وقتل من قعدوا عن القتال فبرئوا بذلك ممن قعد عن الخروج لضعف أو غيره وكفّروا من خالف هذا القول بعد موت أول من قال به منهم ولم يكفّروا من خالفه فى حياته .

والغريب أن هذا الاستعراض انصَبّ على من خالفهم من المسلمين وحرموا قتل من انتمى إلى اليهود وإلى النصارى وإلى المجوس [١] .

وهنا يظهر التأثير اليهودى واضحا إذ تروى كتب اليهود أن عخان ابن كرمى من سبط يهوذا غل من المغنم فأمر يوشع برجمه ورجم بيته ورجم بناته حتى يموتوا كلهم بالحجارة وأمر بإحراق مواشيه كلها [٢] .

ومن المؤثرات اليهودية فى الأزارقة أنه يجوز على الأنبياء أن يرتكبوا الكبائر والصغائر [٣] . وهذه من المتناقضات فى أقوال الأزارقة إذ بينما يكفرون مرتكب الكبيرة يجوزونها على الأنبياء . فالنبى قد يكفر ثم يتوب وهذا من تأثير الأفكار اليهودية التى امتلأ بها كتاب اليهود المحرف (التوراة) من اتهامات فاحشة لأنبيائهم سربوها إلى الخوارج معتمدين على ظاهر الآية :

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [٤] ، فقد كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها لأهل الإسلام بالعربية وقد حذر الرسول ﷺ المسلمين منهم لإدراكه خطر ذلك فكان يقول :-

---

(١) الشهرستانى – الملل والنحل ج ١ ص ١٢٩ . الأشعرى ج ١ ص ١٥٨ .
(٢) الفصل ج ١ ص ١٥٣ . سفر يشوع الإصحاح ٧ ص ٣٤٨ .
(٣) الشهرستانى – الملل والنحل ج ١ ص ١٢٩ .
(٤) سورة الفتح الآية ١ ، ٢ .

« لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد » [١] .

وقد سبق عبد الله بن الوضين فى هذه الأقوال نافع بن الأزرق فتبرأ منه نافع ثم تبع آراءه بعد موته وزعم أن الحق كان معه [٢] واستغل حداثة إسلام الموالى فحرك أشجانهم ووجههم لمحاربة الدولة الإسلامية فى شخص الدولة الأموية لأنه صادف فى بعضهم نفوساً حانقة متحفزّة للثورات ضد العرب والمسلمين .

ثم رأى نافع أن ولاية من تخلف عنه لا تنبغى وأن لا نجاة له متأولاً الآية :

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ [٣] والآية : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ [٤] . فقال : لقد حرم الله ولايتهم والقيام بين أظهرهم وإجازة شهادتهم وأكل ذبائحهم وقبول علم الدين عنهم ومناكحتهم ومواريثهم [٥] .

فخالفه عبد الله بن أباض قائلا : « لقد صدق نافع بن الأزرق لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأيا وحكماً ، ولكن القوم كفار بالنعم ، والأحكام وهم براء من الشرك فما يحل لنا إلا دماؤهم وما سوى ذلك من أموالهم فهو علينا حرام » .

أما ابن صفار فقد رأى أن ابن أباض قد قصر وأن ابن الأزرق قد غلا . فتبرأ منهما [٦] فانقسم الخوارج كما أراده لهم المحركون لحركاتهم والموحون لأفكارهم .

---

(١) الفصل ج ١ ص ١٦٠ . البخارى – صحيح ج ٩ ص ١٣٦ . المصنف ج ١١ ص ١١٠ .
(٢) الإسفراييني – التبصير فى الدين ص ٥٠ . الفرق بين الفرق ص ٦٣ .
(٣) التوبة الآية ١ .
(٤) البقرة الآية ٢٢١ .
(٥) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٩ .
(٦) الطبرى ج ٥ ص ٥٩٨ . الكامل ج ٤ ص ١٦٧ .

واختلف نجدة بن عامر مع نافع سنة ٦٤ هـ بسبب التقية فكان نافع يرى : أن التقية لا تحل والقعود عن القتال كفر [١] واحتج بقوله تعالى : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ [٢] . ورأى نجدة جواز التقية واحتج بقوله سبحانه :

﴿ إلّا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ [٣] ، وقال :

(القعود جائز والجهاد إذا أمكن أفضل) [٤] .

وقد ضمت حركة الأزارقة كثيراً من الأعاجم فحاولوا السيطرة الكاملة عليها فاصطدموا بالعرب ، وبرزوا كزعماء معارضة .

والواقع أن أكثر هؤلاء الموالى من غير أهل الكتاب والأعاجم قد غُرّر بهم من قبل العرب الذين تظاهروا بالإسلام بعد أن كانوا من اليهود والنصارى فقد كان الأزارقة العرب من سكان البصرة واليمامة والبحرين ، كما أنهم استمالوا المجوس إلى صفوفهم وفرضوا لكل واحد منهم خمسمائة وأطلقوا عليهم اسم البنجكية [٥] وقد تمكن بعض الموالى أن يرتقى إلى صفوف قيادة الأزارقة كعبد ربه الكبير الذى كان مولى لبنى يشكر يبيع الرمان قبل التحاقه بالأزارقة [٦] . وعبد ربه الصغير : من موالى قيس بن ثعلبة وكان معلم كتاب قبل التحاقه بهم [٧] . وصالح بن مخارق : مولى لقريش أو لآل مصقلة الشيبانى [٨] . وراشد العمى من عشائر بنى العم وهم

---

(١) الزينة ق ٣ ص ٢٠٥ . الأشعرى ج ١ ص ١٦٢ . الفرق بين الفرق ص ٨٧ .
(٢) النساء الآية ٧٧ .
(٣) آل عمران الآية ٢٨ .
(٤) كتاب الزينة ص ٢٨٥ .
(٥) أنساب الأشراف ج ٦ ورقة ٣٥ .
(٦) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٣٨ .
(٧) الأشعرى – مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٦٠ .
(٨) ابن الأعثم ج ٢ ورقة ٢١٣ .

من سكان الأهواز وهذا يدل على أن عددا من أهالى الأهواز (النصارى خاصة) التحقوا بالأزارقة [١] .

وهناك بعض الآراء التى هدفت إلى الهدم والتخريب تبنتها بعض فرق الخوارج .

فقد أجمع النجدات على أن الناس لا حاجة لهم إلى إمام قط وإنما عليهم أن يتناصفوا بينهم فإذا رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز [٢] .

وأما العجاردة فقد اشتدوا فى بدعهم فأنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن الكريم بحجة ألا يجوز أن تكون قصة الفسق من القرآن [٣] .

ودخلت فكرة القدر إلى فرق الخوارج فزادت من عوامل انقسامهم وأذاهم فى تقويض دولة الإسلام : فقالت الحمزية [٤] :

القدر خيره وشره من العبد وأثبتوا الفعل للعبد خلقاً وإبداعاً ، والاستطاعة قبل الفعل . وقالوا : بأن الله تعالى يريد الخير دون الشر وليس له مشيئة فى معاصى العباد [٥] وقد ثبتت الميمونية والإطرافية هذه الآراء فى القدر [٦] .

وأما الفضيلية وهم فرقة من الصفرية فقد قالوا كاليزيدية : من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله بلسانه ولم يعتقد ذلك بقلبه بل اعتقد الكفر والدهرية أو اليهودية أو النصرانية فهو مسلم عند الله مؤمن ولا يضره إذ قال الحق بلسانه

---

(١) الأزارقة ص ١٧٢ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ .
(٣) نفسه ص ١٣٦ .
(٤) أتباع حمزة بن أدرك من أصحاب الحصين بن الرقاد الذى خرج بسجستان من أهل أوق زمن هرون الرشيد . (الملل والنحل ج ١ ص ١٣٣) .
(٥) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ . الفرق بين الفرق ص ٧٧ .
(٦) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٧ . الأشعرى ج ١ ص ١٦٥ .

ما اعتقد بقلبه (١) . وواضح فى هذا الرأى مراد من سلله من القضاء على الإسلام كعقيدة وشريعة .

وقد ضمت فرق الخوارج جماعة من المجتهدين المسلمين الورعين مثل أبو بلال (٢) الذى اقتربت آراؤه إلى بقية آراء المسلمين فكان لا يبيح الاستعراض وقتل المسلمين ويرى ذلك أمراً منكراً ولم يجرد سيفاً ولم يخف أحداً من الناس ولم يقاتل إلا من قاتله ولم يكن يستحل مال غيره ويأخذه بغير حق ، إذ لما سيطر على أموال ترجع إلى عبيد الله بن زياد لم يأخذ منها إلا عطاءه ، وعطاء أصحابه ورد الباقى لأن ذلك فى نظره مال المسلمين كافة .

وقد استغل الخوارج سيرته فكسبوا مزيداً من عطف الناس وتأييدهم ممن كانوا يكرهون تصرفات الخوارج خاصة وأنه قُضِى عليه وعلى جماعته أثناء الصلاة سنة ٦١ هـ (٣) .

فكرة التقية السياسية :

وقد لجأت فرقة الأباضية إلى فكرة التقية السياسية فى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى فتمكن جابر بن زيد أحد رؤسائهم أن يؤسس نظام دعوة سرية بلغت درجة عظيمة من النظام على يد خلفه أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة الذى كان قد سجنه الحجاج وبعد خروجه وجه الدعاة إلى خراسان ولكن أخفقت فيها دعوته لتشيع أهلها .

ونجحت فى عمان فأقاموا دولة أباضية بعث أبو عبيدة إليها بالأموال الوفيرة والسلاح فتمكنت هذه الدولة من فتح اليمن ثم الحجاز حيث خطب أبو حمزة على منبر الرسول ﷺ . لكن الجيوش الأموية تمكنت من هزيمتهم فانسحبوا إلى عمان وحضرموت حيث ظلت دولتهم إلى زمن العباسيين (٤) .

---

(١) الفصل ج ٤ ص ١٤٥ . الأشعرى ج ١ ص ١٨٣ .
(٢) المبرد - الكامل - ج ٤ ص ١٨٨ .
(٣) الكامل ج ٣ ص ١٩٧ .
(٤) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٨ .

كما تمكنت الأباضية من الانتشار فى المغرب على يد داعية أبى عبيدة مسلمة بن سعيد الذى استمال كثيرا من البربر وجعل جبل نفوسة دار هجرة بعد اعتناق بربر نفوسة هذا المذهب .

استغلال أهل الكتاب لحركات الخوارج :

تمكن أهل الكتاب والمجوس من استغلال حركات الخوارج وهم الذين أجادوا التنظيم والتحريك والذين عجزوا عن مواجهة الإسلام وقوته علنا بعد أن جربوا حظهم فى ذلك فكان أثرهم من خلاله وفى سبيله أعظم وأجدى عليهم فجعل من تظاهر بالإسلام منهم **البصرة** مسرحاً وهي متناحر الآراء ومضطرب الأفكار ومزيج النحل وحركوا سنة ٤١ هـ سهم بن غالب الهجيمى (١) فاتخذت حركته طابع التخريب وبذر القلق فى نفوس أهل البصرة . ثم قام مرة أخرى باستعراض الناس سنة ٤٥ هـ فى ولاية زياد بن أبيه (٢) فقتله زياد .

ولما اشتدت حركة الفوضى سنة ٥٠ هـ خرج قريب الأزدى وزحاف الطائى يستعرضان بجماعتهما الناس فيقتلون من لقوا (٣) واشترك معهم أهل الكتاب بشكل غير مباشر فكانت البلجاء وهى امرأة من بنى يربوع بن حنظلة من رهط سجاح إحدى مجتهدات الخوارج (٤) وفى سنة ٦٤ هـ اجتمع الناس على ابن زياد ونصبوه أميرا وسألوه أن يطلق الخوارج الذين فى السجون فأطلقهم وفيهم نافع بن الأزرق وعبد الله بن الماحوز وقطرى بن الفجاءة المازنى (٥) الذين اغتالوا على الأرجح مسعود بن عمرو فثارت الفتن بين الأزد وربيعة وتميم وقيس (٦) ففر كثير من العبيد من أسيادهم والتحقوا بالأزارقة الذين انضم إليهم الموالى وخاصة

---

(١) أنساب الإشراف ج ١ ص ٤٥ .
(٢) نفسه ص ٤٦ .
(٣) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٨ . المبرد – الكامل ج ٢ ص ١٥٣ .
(٤) المبرد – الكامل ج ٢ ص ١٥٣ .
(٥) البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٨ .
(٦) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٧ .

موالى العتاقة . فعاثوا فى الأرض وأفسدوا . وكان نافع ممن خرج من الخوارج إلى عبد الله بن الزبير بحجة حماية الكعبة ومقاتلة الأمويين فلما رأى زعماؤهم أن عبد الله بن الزبير مباين لهم رجع نافع إلى البصرة مع عبد الله بن صفّار السعدى ، وعبد الله بن أباض من بنى صريم ، وحنظلة بن بيهس وعبد الله وعبيد الله ابنا الماحوز والزبير من بنى سليط بن يربوع [١] . كما توجه نجدة إلى اليمامة [٢] .

وقد عمل من بقى من خوارج البصرة على تحريك النفوس ضد الخوارج ليجبروا باقى الخوارج على الخروج فاتفق الأزد وتميم على أمير البصرة وقاموا بإجراءات انتقامية ضد الخوارج فى البصرة فأخافوهم فالتحقوا بنافع فى الأهواز ولم يبق سوى عبد الله بن صفار وعبد الله بن أباض وأبو بيهس مع عدد قليل من أتباعهم [٣] .

واشتد الأزارقة فى قتل النساء المسلمات الأمر الذى يثير النفوس ففى ساباط قتلوا أم ولد لربيعة بن ماجد وبنانة ابنة أبى يزيد بن عاصم الأزدى وكانت قد قرأت القرآن ومن أجمل الناس [٤] وفى قرية جوبر قتلوا أم يزيد ابنة سماك بن يزيد وتروى قصة قتلها ظئر لها نصرانية كانت معها حين قتلت ، وأنها كانت تقول :

يا أهل الإسلام إن أبى مصاب فلا تقتلوه وأما أنا فإنما أنا جارية والله ما آتيت فاحشة قط ولا آذيت جارة لى قط ولا تطلعت ولا تشرفت قط إلى أن وقعت مغشيا عليها أو ميتة ثم قطعوها بأسيافهم [٥] .

وأرى أن النصارى نقلوا هذه الأخبار ونشروها بين جماهير الناس لإثارة

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٥٦٦ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ .
(٣) المبرد - الكامل ج ٣ ص ١٣٥ - الطبرى ج ٥ ص ٥٦٧ . الكامل ج ٤ ص ١٩٤ .
(٤) الطبرى ج ٦ ص ١٢١ .
(٥) الأنساب ج ٦ ص ٣٣٠ . الطبرى ج ٦ ص ١٢٤ .

النقمة وتوسيع شقة الخلاف ، وإن حوت بعض الصحة فقد كانت مجالًا للتهويل وإثارة الرعب بين الناس كشأن الصهاينة الذين غزوا فلسطين فى القرن الحالى وحادثة دير ياسين ليست ببعيدة .

ونافع بن الأزرق غير بعيد الصلة بأهل الكتاب إن لم يكن منهم فى الأصل فهو أبو راشد نافع بن قيس بن نهار أحد بنى الدؤل من بكر بن وائل [١] كما يروى أبو مخنف أنه حنظلى من تميم [٢] أما البلاذرى فذكر أن أباه الأزرق كان حدادا روميا يسكن الطائف [٣] ويظهر أنه كان على درجة عظيمة من الذكاء بحيث استقطب كافة المخالفين للدولة حتى إنه حاول استثمار حركة ابن الزبير وتوجيهها لصالح دعوته وأرسل سنة ٦٥ هـ . إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره [٤] .

ولما قتل نافع بدولاب سنة ٦٥ هـ وصل أمر الأزارقة إلى عبيد الله بن الماحوز الذى هزم أهل البصرة هزيمة منكرة [٥] ولم تبق مقاومة تقف فى وجه الأزارقة فى جميع بلاد الأهواز والمناطق الواقعة شرقا .

فاشتدوا على أعدائهم من المسلمين فكانوا يحرقون الدور ويذبحون الرجال والنساء والأطفال واستمر ذلك لعدة شهور [٦] وأيدتهم الأعاجم والنصارى وانضم لهم خوارج عمان واليمامة حتى أصبح عدد المقاتلين من الأزارقة فى هذه الفترة أكثر من عشرين ألفا [٧] ففكر ابن الماحوز فى السيطرة على البصرة فتولى المهلب

---

(١) المعارف ص ٦٢٢ . الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٨١ . المبرد – الكامل ج ٣ ص ١٠٣ – المقريزى – خطط ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ١٢٠ .

(٣) فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٤) المبرد – الكامل ج ٢ ص ١٧٦ .

(٥) الأنساب ج ٦ ص ٣٩٠ . الفرق بين الفرق ص ٦٤ . الكامل ج ٤ ص ١٩٤ . الطبرى ج ٥ ص ٦١٤ .

(٦) The Encyclopedia of Islam I P . 103 .

(٧) الكامل ج ٤ ص ١٩٤ . الفرق بين الفرق ص ٦٤ .

قتاله ودفعهم عن البصرة سنة ٦٩ هـ إلى سلّى أو سلّبرى أحد معاقلهم بالأهواز (١) . وكانوا يلجأون إلى قاعدتهم الحصينة كرمان (٢) وأصبح معظمهم من غير العرب حتى دعاهم المهلب بالعبيد ، كما كانت تأتيهم المادة من قبل البحرين (٣) حيث قبائل عبد القيس وغيرها من القبائل النصرانية الأصل .

ولما آل أمر الأزارقة إلى قطرى بن الفجاءة أبدى مرونة كبيرة مع الأعاجم أثناء تجواله فى الأهواز وكرمان وفارس فانضم إليه كثير منهم فقد كان ملّاحو قطرى ينادون إخوانهم من الأعاجم للانضمام إلى قطرى :

تعالوا إلى خير الناس وأوفاهم (٤) .

كما انضم إليه بعض قادة الخوارج منهم : عطية بن الأسود الحنفى وأصحابه وسعد الطلائع (٥) ، فأبعدوا عن مصعب بن الزبير فى البصرة خيرة قواده لحربهم : المهلب وإبراهيم بن الأشتر الذى أرسله مكان المهلب إلى الجزيرة والموصل فبقى المصعب فى موطن الخطر مع قادة يحقدون عليه فقتله عبد الملك سنة ٧١ هـ بعد أن استمال قادته . واستغل المهلب صفة الخوارج فى الميل للانقسام لأصغر الأمور فى حربهم فقد كان عندهم حداداً يصنع نصالًا مسمومة فيرمى بها أصحاب المهلب ، فوجه المهلب رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى وأمره أن يلقى الكتاب ومعه الدراهم وأن يحذر على نفسه وكان فى الكتاب :

« أما بعد فإن نصالك قد وصلت إلىّ وقد وجهت إليك بألف دينار فاقبضها وزدنا من النصال » . فوقع الكتاب إلى قطرى فأمر بالرجل فقتل ،

---

(١) الكامل ج ٤ ص ١٩٨ . وسِلّى أوسُلّى وسلّبرى جبل من أعمال الأهواز (ياقوت ج ٣ ص ٢٣٢) .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٦١٩ .
(٣)الأنساب ج ٧ ورقة ٤ – الطبرى ج ٦ ص ٢١٣ – الكامل ج ٤ ص ٣٩٠ البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠ .
(٤) أنساب الأشراف ج ٦ ورقة ٣٥ .
(٥) نفســه .

فاعترض عبد ربه الصغير فقال قطرى : إن قتل رجل فيه صلاح أمر غير منكر وللإمام أن يحكم بما يراه صالحاً وليس للرّعية أن تعترض عليه . فتنكّر له مع جماعة معه وإن لم يفارقوه [١] .

ثم دس المهلب رجلا نصرانياً يدعى أبزى [٢] جعل له جعلًا وأمره أن يسجد لقطرى ، فإذا نَهاه فليقل إنما سجدت لك . ففعل النصرانى ذلك فقال قطرى :

إنما السجود لله . فقال النصرانى : ما سجدت إلّا لك . فقال رجل من الخوارج : إنه قد عبدك من دون الله . وتلا قوله تعالى :

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [٣] فقال قطرى : إن النصارى قد عبدوا المسيح عيسى ابن مريم فما ضرّ عيسى ذلك شيئا . فقام رجل إلى النصرانيّ فقتله ، فأنكر قطرى ذلك عليه وأنكر قوم على قطرى إنكاره !

ولما اتهموا عبيدة بن هلال بامرأة كان يدخل إليها بغير إذن متفضّلًا جمع قطرى بينهم وبينه فقرأ عبيدة :

﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ [٤] . فبكوا وقاموا إليه وعانقوه . وقالوا : استغفر لنا [٥] فانتقلوا بذلك من النقيض إلى النقيض من غير سبب قوى يقتضى ذلك العدول السريع . فقد اتهموا من غير بيّنة كما برأوه أمام ظاهر النص الكريم من غير دليل أيضا [٦] .

---

(١) المبرد – الكامل ج ٢ ص ٥٣١ . الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٤٣٨ (الذى أنكر هو عبد ربه الكبير) .
(٢) الأنساب ج ٦ ص ٣٦ .
(٣) الأنبياء الآية ٩٨ .
(٤) النور الآية ١١ .
(٥) الأنساب ج ٧ ورقة ٧٢ . المبرد ج ٢ ص ٢٢٥ .
(٦) أبو زهرة – تاريخ المذاهب ص ٧٩ .

فأنكر عبد ربه الصغير ذلك وبايعه نصف الذين كانوا مع قطرى وتحاربا [١] . وانفصل عبد ربه الكبير أيضا بجزء من الجيش بسبب أن المقعطر من بنى ضبّة كان عاملا لقطرى على ناحية من كرمان فقتل أحد الخوارج فطلبوا من قطرى أن يمكنهم من الضبّى فقال لهم : ما أرى أن أفعل . رجل تأول فأخطأ فى التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم [٢] فاقتتلوا شهرا والمهلب لا يحركهم إلى أن خرج قطرى بمن اتبعه إلى طبرستان ، فقاتل عبد ربه الكبير وهزمه فى موقعة جيرفت [٣] واتبع قطرى إلى طبرستان سفيان بن الأبرد بجيش عظيم من أهل الشام إلى أن تفرق عنه أصحابه وقتل [٤] فضعف أمر الأزارقة وعادوا إلى عادتهم الأولى فى البصرة وكقطاع طرق أو سفاحين بالتقية ، وتحركوا زمن الوليد بن عبد الملك بقيادة زياد بن الأعسم وداود بن النعمان ولكنهما قتلا [٥] .

وفى الكوفة :

استغل الخوارج سياسة المغيرة بن شعبة الذى كان يحب العافية فلم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم فالتقوا وتذاكروا وخرجوا عدة مرات [٦] ونشطوا سنة ٤٣ هـ فحبس المغيرة عددا منهم ، ولما فر المستورد بن علفة آوى إلى الحيرة البلدة النصرانية ونزل داراً إلى جانب قصر العدسيين من كلب [٧] فأمن هناك وأرسل جماعته فأخذوا يختلفون إليه ويتجهزون . كما لجأ بعضهم إلى عبد القيس بالكوفة [٨] . ولما علم المغيرة بنيّة الخوارج فى الخروج خطب الناس وقال :

---

(١) الأنساب ج ٧ ورقة ٧٢ . المبرد . الكامل ج ٢ ص ٢٢٥ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٠٣ . الكامل ج ٤ ص ٤٣٨ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ٣٠٤ . الكامل ج ٤ ص ٤٤٠ . البدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٢ . وجيرَفت من أعظم مدن كرمان ياقوت ج ٢ ص ١٩٨ .
(٤) الطبرى ج ٦ ص ٣١٠ . الكامل ج ٤ ص ٤٤٢ .
(٥) الأنساب ج ٧ ورقة ٣ .
(٦) الأنساب ج ٤ ص ٢٥ الطبرى ج ٥ ص ١٦٦ و ص ١٨٢ .
(٧) الطبرى ج ٥ ص ١٨١ .
(٨) نفسه ص ١٨٣ .

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى .. فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم . وقد ذكر لى أن رجالًا منكم يريدون أن يظهروا فى المصر بالشقاق والخلاف وأيم الله لا يخرجون فى حى من أحياء العرب فى هذا المصر إلّا أبدتهم وجعلتهم نكالًا لمن بعدهم . فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم . فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار » (١) .

واستغل المغيرة حماس الشيعة فى مناهضة الخوارج فأمر أن يكفيه كل امرىء قومه ، فخرجوا من بيت سليم بن محدوج من عبد القيس فطاردهم معقل بن قيس الرياحى (٢) .

وبعد مطاردات فى العراق وفارس اشتبك الخوارج والشيعة فى معركة بديلمايا وهى قرية من قرى استان بهرسير إلى جانب دجلة أسفرت عن مقتل معقل بن قيس والمستورد (٣) . وتشتيت الخوارج . فلجأ خوارج الكوفة إلى الهدوء لقلة عددهم ولسياسة الولاة الشديدة فى تعقبهم وسجنهم فى حين أصبح نفوذ الشيعة فيها غير منازع فحولوا نشاطهم إلى البصرة .

وفى شبه الجزيرة العربية :

انطلق أبو طالوت من بنى زمان من بكر بن وائل بعد مفارقة الخوارج لابن الزبير إلى اليمامة فوثب بها مع عبد الله بن فديك وعطية بن الأسود اليشكرى (٤) مستغلين كثرة أهل الكتاب هناك وبايعوا نجدة بن عامر الحنفى بعد أبى طالوت لمركزه من بنى حنيفة وسموه أمير المؤمنين سنة ٦٦ هـ . فعظم أمره حتى استولى

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٨٢ .

(٢) نفسه ص ١٩٣ .

(٣) نفسه ص ٥٦٦ . الكامل ج ٤ ص ٢٠٢ . وعند ياقوت ديلمان ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٤) الفرق بين الفرق ٦٧ . الأشعرى ج ١ ص ١٦٢ . الفصل ج ٤ ص ١٤٥ .

على البحرين وحضرموت واليمن ونهج نجدة[١] فكرة الشعب المختار عند اليهود بفعل المندسين بين أتباعه فتولى أصحاب الحدود من أتباعه وقال : « لعل الله يعفو عنهم وإن عذبهم ففى غير النار ثم يدخلهم الجنة » فخالف بذلك المبدأ العام للخوارج وهو تكفير مرتكب الذنب[٢] وكأنه يرى إذا كان مرتكب الذنب من المنتمين للخوارج فقد عفا الله عنهم وأما غيرهم فجنس آخر لا يعفو الله عنه .

كما أن نجدة طبق فكرة التقية السياسية فكاتب عبد الملك وأعطاه الرضا فاستتابوه فأظهر التوبة وندمت طائفة على هذه الاستتابة فطلبوا منه أن يتوب عن توبته [٣] فاختلف أصحابه إلى : العطوية أصحاب عطية بن الأسود الحنفى وذهبوا إلى سجستان . وجماعة بايعت ثابت التمار من الموالى وكانت أخته عند أبى فديك ولما قالوا لا يقوم بأمرنا إلّا رجل من العرب جعلوا له الاختيار فاختار أبا فديك[٤] . وقد تمكنت هذه الفرقة أن تضع يدها على ما كان نجدة قد استولى عليه بعد مقتله سنة ٧٢ هـ[٥] .

وأرسل عبد الملك عمر بن عبيد الله بن معمر فقتل أبا فديك سنة ٧٣ هـ[٦] وبقيت عبد القيس فى البحرين مركزا يلوذ إليه الخوارج الأمر الذى جلب عليها غضب الحجاج فلما أخذ منهم عبد الله بن سوار العبدى قال له : لأقتلنّك فإنما أنت لص أو خارجى أو نصرانى . فقطع يده[٧] .

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٠ . وفى الفصل نجدة بن عويم الحنفى .
(٢) الفرق بين الفرق ص ٦٨ . الكامل ج ٤ ص ٢٠٥ . الأشعرى ج ١ ص ١٦٣ . تلبيس إبليس ص ٩٥ .
(٣) الفرق بين الفرق ص ٦٩ . الأشعرى ج ١ ص ١٦٣ . الملل والنحل ج ١ ص ١٣٩ . الكامل ج ٤ ص ٢٠٦ .
(٤) الأنساب ج ٧ ورقة ٧٦ . الكامل ج ٤ ص ٢٠٦ .
(٥) الطبرى ج ٦ ص ١٧٤ .
(٦) نفسه الكامل ج ٤ ص ٣١٢ .
(٧) الأنساب ج ٧ ورقة ١٠٠ . كما خرج فى البحرين من بنى عبد القيس على الأمويين مسعود بن أبى زينب وهزم سفيان بن عمرو العقيلى . الأنساب ج ٨ ورقة ٢٣١ .

وفى العراق والجزيرة :

ظهرت فرقة الصفرية [١] وقادها صالح بن مسرح أحد بنى امرئ القيس وقد آوى إلى دارا وأرض الموصل والجزيرة وكان معظم أصحابه من شيبان وعليهم شبيب بن يزيد فخرج بدارا سنة ٧٦ هـ . ولما قتل صالح بموقعة المدبّج من أرض الجزيرة استخلف مكانه شبيب ، وهو ابن أمة نصرانية أسلمت بعد أن حملت به [٢] ، فكان وطيد الصلة بالنصارى وأصبح من كبار قطاع الطرق حقا تحدى جيوش الحجاج من مكاناته المتنقلة أبدا من مكان إلى آخر [٣] فقتل أربعة وعشرين أميرا من أمراء الجيوش [٤] يساعده سلامة بن سيار التيمى (تيم شيبان) [٥] فبث الرعب فى قلوب الناس وأخذ يذرع العراق من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله أدانى أذربيجان ويؤوى إلى النصارى هناك [٦] وقد تملقوه وحركوه لما نزل ببيعة أهل السبت جاءوا وقالوا له :

« أصلحك الله أنت ترحم الضعفاء وأهل الجزية ويكلمك من تلى عليه ويشكو إليك ما نزل بهم فتنظر لهم وتكفّ عنهم وإن هؤلاء القوم جبابرة لا يكلّمون ولا يقبلون العذر والله لئن بلغهم أنك مقيم فى بيعتنا ليقتلننا إن قضى لك أن ترحل عنا فإن رأيت فانزل جانب القرية ولا تجعل لهم علينا مقالًا » [٧] : وانضم إلى شبيب ناس كثير ممن طلبوا الدنيا وناس ممن كان الحجاج يطلبهم بمال

---

(١) يختلفون فى نسبة هذه الفرقة فينسبها بعضهم إلى زياد بن الأصفر وينسبها آخر إلى عبد الله بن الصفار وتنسب كذلك إلى الصفرة لأن أصحابها اصفرت وجوههم من طول العبادة وكثرة الصوم .

الفرق بين الفرق ص ٧٠ . الطبرى ج ٦ ص ٢١٦ - الأشعرى ج ١ ص ١٦٩ . الكامل ج ٤ ص ٣٩٣ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٨٢ .

(٣) بروكلمان ج ١ ص ١٧٤ . فلهوزن P : 230 .

(٤) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٥ . الفرق بين الفرق ص ٩٠ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ٢٢٥ . الكامل ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٦) انظر الكامل ج ٤ ص ٤٠٥ .

(٧) الطبرى ج ٦ ص ٢٥٢ . الكامل ج ٤ ص ٤١٥ . وانظر عن ايوائه إلى أديرة النصارى : البداية والنهاية ج ٩ ص ١٥ - ١٦ .

أو تبعات [١] وتمكن شبيب بتجمعاته دخول الكوفة مرتين [٢] وانهزم فى الثانية فتآمر عليه مقاتل من بنى شيبان مع رجال كثير كان شبيب أصاب من عشائرهم فقطعوا جسر دجيل على نهر الأهواز وهو فى أخراهم فمالت السفن ففزع فرسه ونفر ووقع فى الماء وغرق [٣] .

وفى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى لجأ الصفرية إلى فكرة التقية السياسية ، وأصبح عمران بن حطان زعيمهم [٤] بعد غزالة زوجة شبيب – وهو الذى امتدح عبد الرحمن بن ملجم وضربته – يتنقل فى القبائل مطارداً من قبل الحجاج . وأساليبه فى التنكر إلى أن مات سنة ٨٤ هـ [٥] تشهد على لجوء الخوارج إلى التقية السياسية [٦] .

وبقى النصارى فى المشرق الإسلامى يسيّرون بعض حركات الخوارج لتميزهم فى ظل الإسلام بالثراء ولمقدرتهم على تمثل آداب المسلمين [٧] فكان الخطار النمرى مثلا من النمر بن قاسط نصرانيا ولما أسلم دعته الخوارج فأجابها وتزعمها وخرج براذان على سفيان المدّانى فحاربه سفيان فقتله وأصحابه [٨] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٥٧ . الكامل ج ٤ ص ٤١٩ .

(٢) المرة الأولى انظر : الطبرى ج ٦ ص ٢٤٢ . الكامل ج ٤ ص ٤١١ . المرة الثانية انظر : الطبرى ج ٦ ص ٢٧١ . الكامل ج ٤ ص ٤٢٨ . البداية والنهاية ج ٩ ص ١٨ سنة ٧٧ هـ .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٢٨١ . الكامل ج ٤ ص ٤٣٢ ولكنه يذكر غرقه من غير مؤامرة وهو الأصح (على قوله) . الفرق بين الفرق ص ٩١ . الملل والنحل ج ١ ص ١٣٥ . ابن الوردى ج ١ ص ١٧٨ .

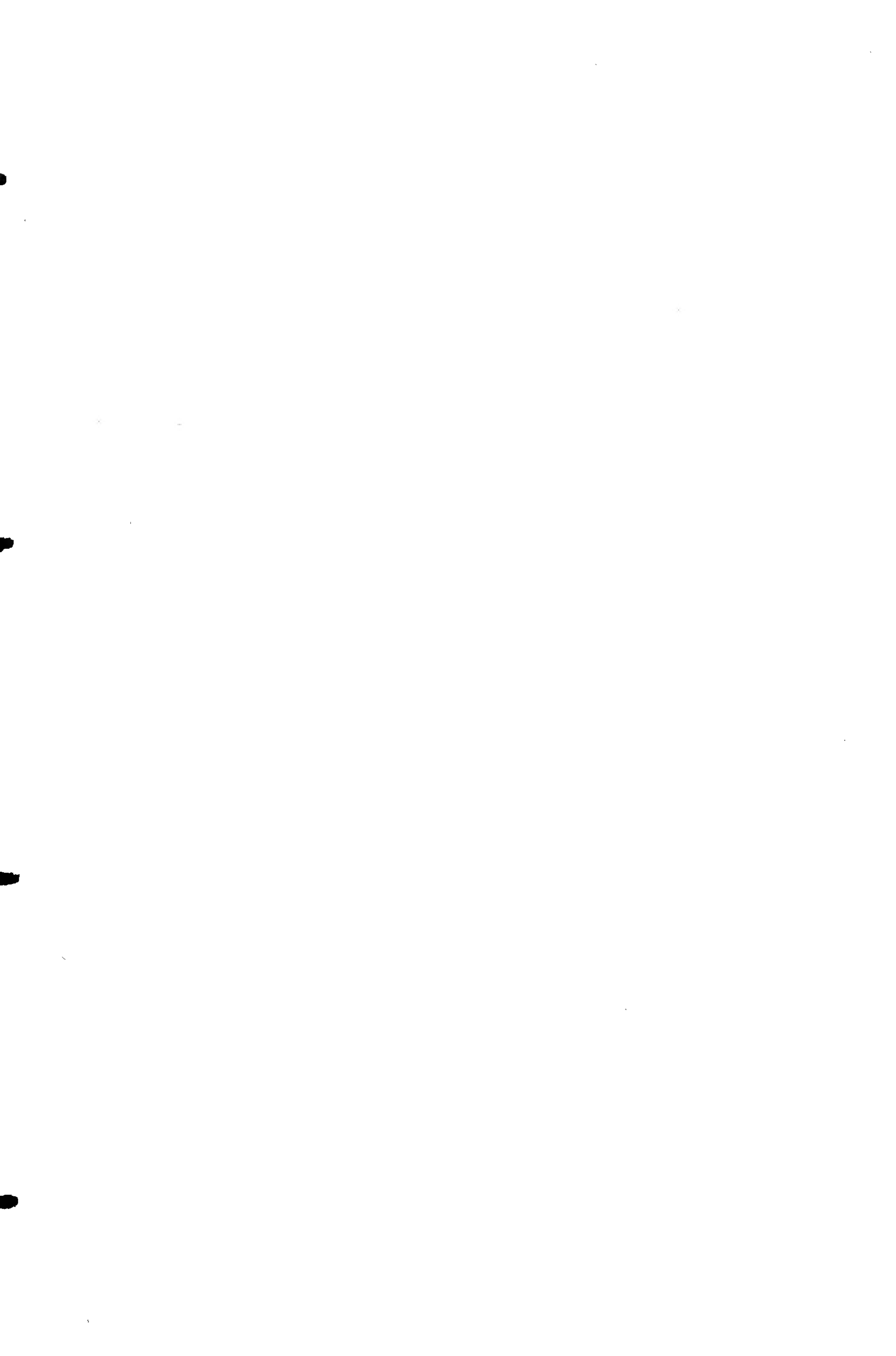
(٤) الفرق بين الفرق ص ٧٣ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٥٣ .

(٥) البداية والنهاية ج ٩ ص ٥٣ .

(٦) انظر المبرد (الكامل) ج ٢ ص ١٠٩ – ١١١ .

(٧) لوبون – الحضارة – ص ٢٣٥ .

(٨) الأنساب ج ٧ ورقة ١٠١ .



الفصل الثالث

أثر أهل الكتاب
فى نشوء فرقة الشيعة وتطورها

الشيعة لغة :

كل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع .

وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره .

وأهل الشيعة : الفرقة من الناس على حدة وكل من عاون إنسانا وتحزب له فهو له شيعة .

والشيعة اصطلاحا :

غلب الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته ، وأصل ذلك من المشايعة وهى المطاوعة والمتابعة [١] .

فالشيعة لغة : الصحب والأتباع وفى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف أطلقت على اتباع علىّ وبنيه رضى الله عنهم [٢] .

---

(١) لسان العرب ج ٨ ص ١٨٨ . تاج العروس ج ٥ ص ٤٠٥ (مادة شيع) القاموس المحيط ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٦ . وفى عصور لاحقة للقرن الأول الهجرى اعتبر الإمامية (من بين الشيعة) أنفسهم هم أتباع على وأهل البيت حقيقة وأمّا سائر الفرق الإسلامية فهم أتباع أئمتهم الذين يقتدون بهم . علىّ والشيعة ص ٧٤ .

ظهور اسم التشيع :

إن من يتتبع الآراء [(١)] حول ظهور اسم التشيع يجد فيها ما يجملها . فقد كانت الشيعة لا تعدو فى معناها « الصحب والأتباع » حتى حدثت مأساة كربلاء عام ٦١ هـ . فكان يقال شيعة علىّ وشيعة معاوية . إلا أن دعاة الفتنة وأصحاب الأطماع فى هدم الصرح الإسلامى وجدوا فى تناقضات الفئات الإسلامية ما يسر لهم الأمر فانبثّوا بين الشيع يؤرثون بينها العداوة والبغضاء

---

(١) اختلف المؤرخون وكتاب الفرق فى تحديد الزمن الذى ظهر فيه اسم التشيع فيرى الشيعة أن التشيع ظهر فى حياة الرسول ﷺ فيقول الرازى : إن الشيعة لقب قوم كانوا قد ألفوا أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى حياة الرسول ﷺ وعرفوا به مثل سلمان الفارسى وأبى ذر الغفارى والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وغيرهم وكان يقال لهم شيعة على وأصحاب على – كتاب الزينة ضمن كتاب الغلو ص ٢٥٩ . النوبختى ص ١٦ . العاملى – أعيان الشيعة ج ١ ص ١٣ ويذهب الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء إلى أبعد من ذلك فيقول :

« إن أول من وضع بذرة التشيع فى حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية يعنى أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنبا إلى جنب وسواء بسواء » . كاشف الغطاء – أصل الشيعة وأصولها ص ١٠٩ .

ورأى ابن خلدون أن التشيع ظهر بعد وفاة الرسول ﷺ . العبر ج ٣ ص ١٧١ .

وأما ابن حزم فرأى أن الشيعة ظهرت بعد موت النبى بخمس وعشرين سنة أى فى أول زمن عثمان رضى الله عنه . الفصل ج ٢ ص ٦٥ . وأما ابن النديم فرأى أن التشيع بدأ منذ أيام علىّ كرم الله وجهه . الفهرست ص ٢٦٣ .

كما رأى ذلك الشهرستانى . فاعتبر ظهور الغلاة فى حق على أنهم ظهروا فى زمانه مثل عبد الله بن سبأ . ومن المحب والمبغض ظهرت البدعة والضلالة فصدق فيه قول النبى ﷺ :

« يهلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال » . الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٠ . وأرجع الدكتور طه حسين أصل الشيعة إلى ما بعد أن تم الأمر لمعاوية وبايعه الحسن بن على . على وبنوه ص ١٨٩ .

واعتمد فى ذلك على رواية للبلاذرى وحينما رجعت للرواية وجدت فيها :=

فظهرت بجهود ابن سبأ وبمن ورثه فى حركاته السرية الهدامة فئة الشيعة المناهضة للفرق الإسلامية الأخرى مستغلة الشعور الإسلامى تجاه بيت النبوة ، فكون ابن سبأ فرقة شيعية ولكنها لم تكن منفصلة ولا مميزة وإنما ارتبطت بحب آل البيت والتشيع لهم تمهيداً لاكتساب عطف الناس وتكوين فرقة مميزة أخيرا بإدخال الآراء والفلسفات التى تتلاعب بالأفكار والمشاعر مستغلة كل حدث وكل تناقض بين الفئات المسلمة وزاد الأمر سوءاً ما ألصقه هؤلاء من تصرفات جارحة بخلفاء بنى أمية تجاه عليّ وآله . فذكروا أن معاوية قال للمغيرة : « أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان وصحبه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فادنوا مجالسهم وقدموهم وأكرموهم واكتبوا لى بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه واسم عشيرته » [1] .

وقد بقيت هذه الكلمة (الشيعة) تستعمل بمعنى الصحب والأتباع حتى بعد حادثة كربلاء فقد قال حسان بن بحدل لأهل الأردن سنة ٦٤ هـ :

= قال الحسن لأشراف الكوفة بعد أن عاتبوه : « أنتم شيعتنا وأهل مودتنا فلو كنت بالحزم فى أمر الدنيا أعمل ولسطانها أعمل وأنصب ما كان معاوية بأبأس منى بأساً ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة ولكنى أرى غير مارأيتم وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء فارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر والزموا بيوتكم وأمسكوا وكفوا بأيديكم حتى يستريح برّ أو يستراح من فاجر » . الأنساب ج ٣ ورقة ٥٤ .

وهذا بعيد عن استنتاج الدكتور طه حسين .

أما الدكتور عرفان عبد الحميد فقد جاء بجديد فى قوله : « إن التشيع كمذهب فكرى وسياسى لم يتكامل بنيانه إلا مع ظهور القول بنظرية النص والتعيين التى أعطت له من المتميزات والملامح ما جعله يتخصص ويتميز عن غيره من الاتجاهات والمذاهب . وهكذا يرى (أى الدكتور عرفان) أن التشيع ارتبط وما زال أصلا بهذه النظرية . فيوصف بالتشيع من دان بها واعتقدها وإن جمع إليها كثيراً مما تأباه الشيعة وترفضه ولا يستحق الوصف مَن لم يعتقدها تديناً وإن جمع فى نفسه كل معانى التشيع الأخرى . وإذا نظرنا إلى التشيع كمصطلح مرادف للقول بالنص والتعيين أمكننا أن نقول إن ظهوره الدينى والفكرى كمذهب الإمامة والسياسة قد تأخر إلى نهاية القرن الأول الهجرى . (دراسات فى الفرق الإسلامية) ص ١٥ .

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٥٣ .

« وأنا أشهد لئن كان دين يزيد بن معاوية وهو حي حقا يومئذ أنه اليوم وشيعته على حق وإن كان ابن الزبير يومئذ وشيعته على باطل أنه اليوم على باطل وشيعته » [١] . كما يذكر المسعودى عن (سفيان بن عون) « أنه كان من شيعة معاوية » [٢] وجاء فى التنبيه والإشراف : « وكان مع مروان حين قتل ابناه عبد الله وعبيد الله وكانا وليي عهده فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من أهل خراسان من شيعة بنى أمية » [٣] .

وبمحاولات من دخل الإسلام من أهل الكتاب وتسلل أفكارهم إلى الفرق الإسلامية اكتسبت الشيعة مفهوما خاصا استوعب كافة التناقضات الفكرية والاجتماعية والسياسية فى دار الإسلام ، ووضعوا الروايات التى تؤيد مذهبهم واتجاههم حتى أن بعضهم أرجع التشيع إلى العهد المكى وفى مرحلة مبكرة جدا وشايعهم من المعاصرين فى هذا الرأى جورجى زيدان [٤] اعتمادا على الحادثة التالية :

عندما عمل الرسول ﷺ الوليمة فى المرة الثانية ودعا إليها عشيرته قال :

« ما أعلم أن إنساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرنى فى هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم فظلوا ساكتين وجل سكوتهم استخفافا فتقدم علي ابن عمه وقال : أنا يانبى الله أكون وزيرك عليهم .

فأخذ النبى برقبته وقال : هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا .

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه ثم انصرفوا » [٥] .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٥٣١ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩ .
(٣) التنبيه والإشراف ص ٢٨٥ .
(٤) التمدن الإسلامى ج ١ ص ٤٤ .
(٥) الطبرى ج ٢ ص ٣٢١ . تاريخ أبو الفدا ج ١ ص ١١٩ . النشار ج ٢ ص ٩ . وهى رواية بينة الوضع .

وكان من أثر وضعهم النصوص على لسان النبى ﷺ أن جعل المسلمين من أهل السنة يهتمون بالأحاديث التى تؤيد حق أبى بكر فى الخلافة وعمر من بعده . فاعتبروا قول الرسول ﷺ : اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر » [١] نصاً لأحقيّة أبى بكر بالخلافة ثم عمر . ويكاد يجمع المؤرخون وكتاب الفرق [٢] حتى الشيعة منهم على ربط التشيع بحركة ابن سبأ فابن المرتضى وهو معتزلى ينتسب لآل البيت ومن أئمة الشيعة الزيدية يقول [٣] :

« وأما الرافضة فحدث مذهبهم بعد مضى الصدر الأول ولم يسمع عن أحد من الصحابة من يذكر أن النص فى علىّ جلىّ متواتر ، فإن زعموا أن عماراً وأبا ذر والمقداد بن الأسود كانوا سلفهم لقولهم بإمامة علىّ كذبهم كون هؤلاء لم يظهروا البراءة من الشيخين ولا السب لهما ، ألا ترى أن عمارا كان عاملا لعمر بن الخطاب فى الكوفة وسلمان الفارسى فى المدائن . ثم ربط ظهور التشيع بعد ذلك مباشرة بعبد الله بن سبأ » .

وتساءل الكثير أين بدأت فكرة الشيعة وبين من ؟ :

فمال دوزى إلى أن أساسها فارسي ، فقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى

---

(١) الأنساب ج ٩ ورقة ٤١٣ .

(٢) حاول بعض الشيعة المحدثين أن يلقوا غموضا على شخصية ابن سبأ كالمرتضى العسكرى فى كتاب ابن سبأ ، وقد اشتط الباحث العراقى ابن الوردى فاعتبر ابن سبأ هو عمار بن ياسر . انظر : ابن الوردى وعاظ السلاطين ج ٨ ص ٢٧٤ . الصلة بين التصوف والشيعة . ص ٣٦ ، ٣٧ ومن كتب الشيعة التى أثبتت وجود ابن سبأ ، الكشى وهو أكبر من ألف من الشيعة فى تراجم الرجال والماقمغانى فى كتابه تنقيح المقال ، والنوبختي فى كتابه فرق الشيعة ، وأول من نفى وجود شخصية ابن سبأ اليهودى فريد لندر ثم كايتانى ثم برنارد لويس ثم فلهاوزن ، وجلهم من المستشرقين اليهود الذين زعموا أن الدور المنسوب إلى عبد الله بن سبأ هو من اختلاق المتأخرين وقد تلقّف كتاب الشيعة هذا القول وتشبّثوا به .

(٣) ابن المرتضى - كتاب طبقات المعتزلة ص ٧٢ .

الملك نظرة فيها معنى إلٰهى فنظروا هذا النظر نفسه إلى علىّ وذريته وقالوا : إن طاعة الإمام أول واجب وإن إطاعته إطاعة الله (١) .

ويرى ولهوزن أن فكرة الشيعة التى أسسها عبد الله بن سبأ ترجع إلى اليهود أقرب من أن ترجع إلى الإيرانيين ، فالفكرة القائلة بأن النبى ملك يمثل سلطان الله على الأرض قد انتقلت من اليهودية إلى المسلمين ، إذ أن المبدأ الأساسى الذى بدأ منه مذهبهم : أن النبوة وهى المعرف ، الشخصى الحى للسلطة الإلهية تنتسب بالضرورة إلى الخلافة وتستمر تحيا فيها . وقبل محمد وجدت سلسلة طويلة متصلة من الأنبياء الذين يتلو بعضهم بعضا على نحو ما يقول اليهود سلسلة دقيقة من الأنبياء وكما ورد فى سفر التثنية – الاشتراع – من أنه لم يخل الزمان أبدا من نبى يخلف موسى ومن نوعه (٢) وهذه السلسلة لا تقف عند محمد ، ولكل نبى خليفة إلى جانبه يعيش أثناء حياته . وهذا الزميل الثانى هو أيضا فكرة يهودية . فكما أن لموسى خليفة هو يوشع كذلك لمحمد خليفة هو علىّ به يستمر الأمر . على أن كلمة نبى لم تطلق على علىّ وبنيه بل أطلق عليهم أسماء (الوصيّ) أو (المهدى) أو (الإمام) عادة ولكن إن لم يطلق الإسم فإن الحقيقة الفعليّة كانت مقبولة بوصفهم عارفين بالغيوب وتجسيدات الخلافة عن الله (٣) .

أما نيكلسون فيذهب إلى أن فكرة الشيعة بدأت أولا بين العرب الخلصاء السبئيين ، فمؤسسها عبد الله بن سبأ من صنعاء اليمن يهودى وفكرة المسيح المنتظر فكرة مسيحية يهودية قبل الشيعة (٤) وابن سبأ مؤسس مذهب غلاة الشيعة (٥) فقد بلغ به الأمر أن أله عليا عندما قال له : أنت أنت . يعنى أنت الإله (٦) . كما استطاع أن يوجه جماعة للقول بقوله فاستعظم على الأمر فأمر بنار فأجّجت وألقاهم بها وفى ذلك يقول علىّ رضى الله عنه :

---

(١) أبو النصر – معاوية ص ٣٦ .
(٢) سفر التثنية الإصحاح ٨ ص ٣٠٨ .
(٣) أحزاب المعارضة ص ١٤٠ .
(٤) NICKLSONP 216 .
(٥) الفصل ج ٢ ص ٦٥ .
(٦) الملل والنحل ج ٢ ص ١٢ .

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أجّجت ناراً ودعوت قنبرا [(١)]

وواقع الأمر أن من تظاهر بالإسلام من أهل الكتاب سلل أفكار الشيعة إلى المسلمين ولا يمنع أن يكون أصل التشيع عربياً ما دام الذى قام ببذر بذورها يهودى من يهود اليمن من قبائل همذان وهى قبيلة انتشرت فيها اليهودية والنصرانية قبل الإسلام . فسرب ابن سبأ لمن أسلم منهم فكرة التشيع فآمنوا بها ثم نقلوها إلى من أسلم حديثا من العرب والموالى . فيكون أهل الكتاب هم أصل فكرة التشيع فى الإسلام الذين استغلوا مسألة الخلافة التى شغلت المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ، فجعلت الشيعة محور عقائدها ترتكز على نظرتهم فى الإمامة وفى الوراثة الشرعية لمن اصطفاهم الله من ذرية آل البيت [(٢)] . فصادفت هذه الأفكار هوى فى نفوس بعض المسلمين المخلصين لآل البيت من العرب ثم من الموالى فيما بعد .

وقد رأى فريد لندر ما يشبه رأينا فى أصل التشيع فقال [(٣)] :

« استمد أفكاره الرئيسية من اليهودية حيث استمد منها فكرة المهدية واستمد من المسيحية فكرة (الدوسيتزم) التى دخلت الدوائر الإسلامية بتأثير المانوية التى اعتنقت هذه الهرطقة المسيحية وأعطتها شكلا محددا . فالمسيح فى هذه العقيدة المانوية ليس له حقيقة واقعة ، فحياته كلها وولادته وتعميده وآلامه من أجل التكفير عن خطايا البشر كل ذلك كان قضية ظاهرية لا حقيقة لها .

---

(١) الفصل ج ٤ ص ١٤٣ . البغدادى - الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ - ٢٢٤ الإسفراييني - التبصير فى الدين ص ٧١ ، ٧٢ . البدء فى التاريخ ج ٥ ص ١٢١ - المعارف ص ٦٢٢ .

ويريد بقنبر مولاه وهو الذى تولى طرحهم فى النار .

(٢) جولدتسيهر - العقيدة والشريعة ص ٢١٥ .

(٣) فريد لندر - الفرق الإسلامية ص ٣٠ .

عن فكرة التشبيه انظر ابن البطريق ص ٢٠٥ . فى عصر يوستيانيوس ظهر أوريجنوس أسقف منبج وكان يقول بالتناسخ وإن ليس قيامة ومعه أسقف الرها وأسقف المصيصة وأسقف أنقرة وقالوا : إن جسد المسيح فانطاسياً أى خيالًا غير حقيقة .

فالشخص الذى ربط على الصليب فى رأيهم لم يكن المسيح بعينه وإنما كان عميلًا للشيطان الذى أراد أن يوقف نشاط المسيح فربطه المسيح على الصليب بنفسه عقابا على سوء سلوكه . أما المسيح فإنه اختفى وسيعود فى المستقبل . وهذا شبيه بما كان يراه الغلاة من أن الإمام لم يمت وإنما بَدا للناس ذلك ، وإنما اختفى وسيعود فى الوقت المناسب قبل يوم القيامة لإعادة العدل إلى الأرض » .

وكما اختلف المؤرخون فى أصل التشيع اختلفوا فى **موطنه ومبدأ ظهوره فرأى** الشيعة أن التشيع بدأ فى الحجاز أيام النبىّ ﷺ بلد المتشيع له على حد تعبير الدكتور محمد كرد على [١] ثم زمن أبى ذر انتقل إلى الشام فى جبل عامل ثم أصبح العراق موطن التشيع زمن خلافة علىّ وبعد مقتل الحسين [٢] .

وواقع الأمر أن التشيع وجد موطناً له أينما حل مدّعوه فى الأمصار الإسلامية لأن فكرة التقرب لآل البيت تجد هوى فى نفوس المسلمين جميعا وكان أهل الكتاب من الدّهاء بحيث استغلوا هذه الفكرة ممثلين فى شخص ابن سبأ ولكنها ظهرت فى العراق على أوضح ما يكون فى زمن الأمويين وخاصة فى الكوفة أما فى مصر فقد قضى فيها على التشيع فى مهده بعد أن حملت راية العصيان ضد الخليفة عثمان وإثارة الفتنة ، فقد حكمها عمرو بن العاص لصالح معاوية وهو من الحكمة والدهاء بمكان جعله يتغلب على جميع عناصر الفتنة ثم جاء بعده عتبة بن أبى سفيان فحذر المصريين مغبّة السير فى طريق الفتن فقال :

« يا أهل مصر خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تأتونه وذم الباطل وأنتم تفعلونه كالحمار يحمل أسفاراً ينقل حملها ولا ينفعه علمها وإنى لا أدارى داءكم إلا بالسيف ولا أبلغ السيف ما كفانى السوط ولا أبلغ السوط ماأصلحتم بالدرة وأبطىء عن الأول إن لم تسرعوا إلى الآخرة فالزموا ما ألزمكم الله لنا تستوجبوا ما عرض الله لكم علينا وهذا يوم ليس فيه عقاب ولا بعده عتاب » [٣] .

---

(١) خطط الشام ج ٦ ص ٢٥٦ .
(٢) د . حسن على محفوظ - تاريخ الشيعة ص ٣١ .
(٣) الاستيعاب ق ٢ ص ١٠٢٦ . النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٤ .

وسياسة عمرو وعتبة جعلت مصر بمنأى عن حركات الشيعة والخوارج طيلة عهد الأمويين .

وأما الشام فقد دخلها التشيع بتأثير أهل الكتاب ولكن حزم معاوية وحكمته فى سياسته حال دون تمكن التشيع فيه كمركز للدولة واقتصر أثر أهل الكتاب على مناقشات دينية مع المسلمين (١) فأثار هذا دعاة التشيع فوصف صعصعة بن صوحان الشاميين بأنهم : « أطوع الناس لمخلوق » (٢) وأثاروا الشبهات حول التجاء بعض الصحابة إلى معاوية بأن ذلك كان من زهد على وتشدده الإسلامى وهذا اتهام لمعاوية الذين اتهموه أيضا بأنه كان يعزل الشاميين عن أبسط المعلومات الإسلامية واستدل البعض على ذلك من قول الشاميين لأبى العباس السفاح : أنهم ماعلموا للرسول قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية (٣) وعلى كل فقد بقيت الشام بمنأى عن الصراعات العقائدية الدّموية التى ألمّت بساحة الدولة الإسلامية زمن الأمويين .

وأما البصرة التى اشتهرت بالتجارة ، وكان أكثر سكانها من مضر والتى تأثرت بالفرس حتى قال الجاحظ على لسان أبى عمرو بن العلاء البصرى : « لنا دهاء الفرس ، وأحلامهم » (٤) فقد تسلل إليها كثير من أهل الكتاب وخاصة قبيلة عبد القيس الشيعية (٥) ولتسلط القبائل عليها وجد فيها طبقة السفهاء وقطاع الطرق واللصوص (٦) فوصفهم ابن عباس بقوله : « اعلم أن البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن فحادث أهلها بالإحسان إليهم واحلل عقدة الخوف من قلوبهم » (٧) فحكمها زياد بالشدة والعسف ونكل بخوارجها وشيعتها وشدد

---

(١) الدورى – مقدمة تاريخ صدر الإسلام ص ٩ الصلة ص ٣٣٢ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٨ .
(٣) اليعقوبى – تاريخ – ج ٣ ص ٤٥ مع أنه واضح أن النبى ﷺ لا يورث .
(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٨ .
(٥) خطط الكوفة ص ٣٨ الصلة ص ٣٠٩ .
(٦) انظر فصل الخوارج من هذا البحث ص .
(٧) نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٠ .

عليهم للانحلال الخلقي الذى يظهر فى خطبته :

« ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصرة » [١] .

وأما الكوفة فقد كانت أعظم مراكز التشيع فى عهد الأمويين . وكانت تختلط فيها الديانات القديمة من النصرانية واليهودية والزرادشتية والمزدكية حتى أن بعض اليهود والنصارى تسلل إلى جيش علىّ [٢] من همذان التى كان معظمها من أهل الكتاب قبل الإسلام ، وسكن معهم الحمراء الذين انضموا للجيش الإسلامى فى القادسية [٣] وأصبحوا حلفاء عبد القيس الشيعية . كما سكن معهم أيضا أهل الكتاب الذين أجلاهم عمر رضى الله عنه مع الحيرة القريبة منها .

فكثرة من كان أصلهم من أهل الكتاب فى الكوفة ولتناقض الأفكار والآراء تمكن أهل الكتاب من تسريب أفكارهم إلى أهلها بوضوح أكثر من بقية الأمصار الإسلامية الأخرى . كما ظهر فيها أهل البصر والتدقيق والنظر والبحث عن الآراء والعقائد [٤] وأصبح الفرد الكوفيّ من جراء ذلك سريع التقلب والمكر والخديعة – أو أصبح عميق الإيمان – الأمر الذى يدعو للانزواء أو الغلو فكان الكوف كما وصفه علىّ الوردى [٥] يقول لزعمائه : انهضوا فإنى معكم ثم إذا نهضوا وجد فى نهضتهم مخافة فقبع في بيته يشكو تصاريف الزمان » .

ولهذه التناقضات تظاهر بعض أهل الكتاب بالتشيع لتحريك التناقضات ولنشر أفكارهم . وعلى هذا نستطيع القول : إن الكوفة هى مهد التشيع بأشكاله المختلفة . فكانوا كلما اشتد عليهم بنو أميّة أشاعوا بين الناس أن ذلك فى سبيل

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٢١ .
(٢) حركات الشيعة المتطرفين ص ١٨ .
(٣) فتوح البلدان ص ٣٨٠ .
(٤) نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٥ . أبو زهرة ص ٣٩ – الصلة ص ٢٧٢ .
(٥) شخصية الفرد العراق ص ٤٧ .

أهل البيت . فروجوا بذلك أمورهم واستعطفوا القلوب عليهم [١] ووضعوا الأحاديث والروايات لتأكيد مذهبهم واستطاعوا بحسن سبك الأحاديث أن يدفعوا بعضها لتأخذ مكانها بين المسلمين [٢] كما وضعوا لهم أحاديث خاصة اكتفوا فى سندها بسلسلة الرواة حتى أحد الأئمة دون الاهتمام بذكر السند بين الإمام والرسول لأن عصمة الإمام كافية لإيضاح أن الحديث المروى عنه صحيح ، فوضعوا أحاديث فى فضائل على تشينه وتؤذيه على حد تعبير ابن القيم [٣] .

ولا توجد فكرة من أفكار الشيعة إلّا ولها فى ذهن من ابتدعها جذور فى أفكار أهل الكتاب وتصوراتهم وعقائدهم . وسنستعرض فيما يلى أهم الأفكار التى تبنّتها فرق الشيعة لنرى أثر أهل الكتاب فيها :

الإمامة بالنص :

ادعت الشيعة أن الإمامة لعلى بالنص الظاهر والتعيين الصادق واستدلوا على ذلك برواية ضعيفة ! « أن النبى ﷺ قال : من يبايعنى على ماله ؟ فبايعه جماعة ، ثم قال : من يبايعنى على روحه وهو وصيي ووليّ هذا الأمر من بعدى فلم يبايعه أحد حتى مدّ أمير المؤمنين عليه السلام يده إليه فبايعه على روحه ووفى بذلك » [٤] .

كما لفقت الشيعة حادثة غدير خمّ [٥] فادعت أنه فى ١٨ ذى الحجة سنة

---

(١) انظر كاشف الغطاء ص ١١٩ .
(٢) دونلدسن – عقيدة الشيعة ص ٢٨٦ .
(٣) تلبيس إبليس ص ٩٩ .
(٤) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٣٠ . ويضيف : وهذه الوصية لا تعرف عن أصدق أهل الأثر بل هى من موضوعاتهم .
(٥) الملل والنحل ج ٢ ص ٣ . صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٧ . بستان الرازى ص ٨٠ – ٨٦ مع أن المؤاخاة كانت بين المهاجرين والأنصار عندما وصل الرسول ﷺ المدينة والحادثة كما ذكروها فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٠ هـ .

١٠ هـ لما عاد الرسول من حجة الوداع نزل بالغدير وآخى بين الصحابة ولم يؤاخ بين علي وبين أحد منهم ، فرأى النبى ﷺ منه انكساراً فضمّهُ إليه وقال : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبى بعدى . والتفت إلى أصحابه وقال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه ، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه » .

وهذه الفكرة (أن الإمام هو وصيّ الرسول) من الأفكار اليهودية التى سللها ابن سبأ إلى الفكر الإسلامى واعتبرها الشيعة عقيدة من عقائدهم ، واتجهوا إلى أن تكون الإمامة فى أولاد على بالنص . فقد روى الشعبى وهو ميّال إلى التشيع معروف به ، عدّه ابن سعد والشهرستانى من الشيعة الأمر الذى يجعل لرأيه وزن فى هذا المجال :

« إن محنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود لا يكون الملك إلّا فى آل داود ، وقالت الرافضة لا يكون الملك إلا فى آل على بن أبى طالب » (١) .

وقد تطلبت هذه الفكرة وأعقبتها بالفعل فكرة :

عصمة الأئمة :

فقد اعتقد الشيعة عصمة الأئمة من الخطأ والخطيئة والنسيان وتبنوا فكرة : « أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبىّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوما عن الكبائر والصغائر » (٢) .

وقد بنت الشيعة فكرتها فى عصمة الأئمة علىّ وأولاده على حديث

---

(١) البغدادى – الفرق بين الفرق ص ١٤٤ ، العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٩ الشهرستانى – الملل والنحل ج ٢ ص ١٤ .

(٢) ابن خلدون – المقدمة – ص ١٩٦ . انظر أدلتهم التى يوردونها المقدمة ١٩٦ – ١٩٨ .

الكساء أو العباءة أو المرط الذى يزعمون أن النبى ﷺ قد غطى به عليا وفاطمة وولديها ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا [١]
وقد ناقش دونالدسن [٢] فكرة العصمة عند الشيعة وتوصل على رأيه إلى أن :

« هذه الفكرة لم تأت عن طريق الأسفار الدينية اليهودية ، وكذلك العهد الجديد لم ينسب صفة العصمة إلا ليسوع وحده ، وقد اتخذه الذين آمنوا به لأول مرة المسيح المنتظر فنسبوا إليه تلك الصفة باعتباره مسيحا لا نبياً » .

على أن ما توصل إليه دونالدسن لا ينهض دليلا على عدم تأثر الشيعة باليهودية والنصرانية فى فكرة العصمة . فالنصرانية اعتبرت « البابا معصوم عن الغلط حين يتكلم من منصة التعليم » [٣] « وقراراته غير قابلة التعديل والإصلاح بذاتها » [٤] وعصمة البابا تفترض عصمة الكنيسة ، فهى فى رأيهم معصومة من الغلط فى أحكامها النهائية [٥] والأساقفة يتولون على رعاياهم بمقتضى الحق الإلهى سلطة راعوية خاصة وعادية ومباشرة وهم جملة معصومون من الغلط وذلك عندما يعلّمون مجتمعين فى مجمع عام أو متفرقين فى كل الأرض تعليما فى الإيمان والآداب [٦] .

وهذا يبين لنا أن من تظاهر من اليهود والنصارى بالإسلام سلل فكرة العصمة بالتركيز على ميراث محمد ﷺ وأن عليا هو الذى كأن يجب أن يخلفه ، وإن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى آل على » . وقد نشروا هذه الفكرة بين من أسلم حديثا من الفرس وغيرهم ، ولأجل أن يجعلوه متناسقا مع الأفكار

---

(١) والحديث ضعيف ساقط من جهة الإسناد ، ورد فى (١٤) صيغة كلها ضعيفة الإسناد ومختلفة لفظا مضطربة معنى ودلالة . تبديد الظلام ص ٥٠٦ - ٥١٢ .
(٢) عقيدة الشيعة ص ٣٢٥ .
(٣) موجز علم اللاهوت ج ٣ ص ١٠٢ .
(٤) نفسه ص ١٠٤ .
(٥) نفسه ص ١١٨ .
(٦) نفسه ص ١٢١ .

الإسلامية استخدموا فكرة العصمة واعتبروا الطاعة المطلقة للإمام فى نظرهم الواجب الأعلى ، حتى إذا ما أدى المرء هذا الواجب استطاع بعد ذلك وبغير الأئمة أن يفسر سائر الواجبات والتكاليف الشرعية تفسيرا رمزيا وأن يتجاوزها ويتعداها [١] .

وقد أدى التمسك بفكرة العصمة الزائدة إلى ظهور فكرتين متباعدتين نوعا ما . وهما فكرة المهدى والرجعة ، وفكرة تأليه الإمام .

فكـــرة المهـــدى :

وكلمة المهدى فى الأصل كلمة بسيطة ، فهى اسم مفعول من هدى يهدى : « فكل من هداه الله فهو مهدى » [٢] ولم ترد فى عصر الرسول ﷺ بغير هذا المعنى – معناها اللغوى المحض – بدليل خلو صحيحى البخارى ومسلم منها كما لاحظ الأستاذ أمين [٣] وعلى هذا المعنى جاءت فى شعر حسان بن ثابت فى رثائه للرسول ﷺ :

جزعا على المهدى أصبح ثاويا ... يا خير من وطئ الحصى لا تبعد [٤]

كما جاءت بهذا المعنى فى شعر الفرزدق عندما مدح سليمان بن عبد الملك :

سليمان المبارك قد علمتم ... هو المهدى قد وضح السبيل [٥]

وأما المهدى بالمصطلح الجديد فقد ظهرت فكرته عند الشيعة من بين

---

(١) أحزاب المعارضة ص ٢٤٠ .
(٢) أحمد أمين – المهدى والمهدوية ص ٧ .
(٣) أحمد أمين ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٣٧ .
(٤) السيرة ج ٤ ص ٢٧٦ .
(٥) ديوان الفرزدق ج ١ ص ٨٠ . وبهذا المعنى وردت أحاديث المهدى الصحيحة عن الرسول ﷺ . وهذه الأحاديث تدل على حقيقة ثابتة بلا شك هى حصول مقتضاها فى آخر الزمان ولا صلة ألبتة لهذه الحقيقة الثابتة عند أهل السنة بالعقيدة الشيعية .

الفرق الإسلامية ، وهو الإمام الذى لا يموت ولابد له من أن يظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا [١] .

واعتقد الكثير أنها أطلقت على محمد بن الحنفية الذى لم يأخذ فى الواقع هذه الكلمة بأكثر من معناها الحقيقى اللغوى كما سنبين فيما بعد . ولكن المختار ومن لف لفه من السبئيين ثبتوا فكرة المهدى بهذا المفهوم .

وقد ربط ابن حزم فكرة المهدى بالمانوية [٢] وكذلك ماسينيون استنادا إلى أن أول من قال بها هم الموالى من أنصار المختار [٣] .

واتصال الفكرة بالنصرانية واليهودية أكيد فإن النقاش النصرانى حول شخصية يسوع والمسيحية المفلسفة التى ناقشت طبيعة المسيح وعيسى – لاهوته وناسوته – التى اختط مناهجها أوريجنوس (١٨٥ – ٢٥٤ م) كان له أكبر الأثر فى القول بحلول الجزء الإلهى فى أئمة الشيعة . ونقل ابن السوداء هذه الفكرة من النصرانية المفلسفة وزعمها فى على وذريته ثم زج بها فى البيئة الإسلامية لا سيما تلك التى تقدس آل البيت فنمت [٤] . وقد بحث الدكتور على الوردى [٥] فكرة المهدى ووصل إلى آراء سديدة بشأنها فقال :

« أما كلمة المهدى فهى فى الواقع تعريب للفظة المسيح الموجودة فى التوراة .

فالمسيح معناه الممسوح أى أنه ذلك البطل المنقذ الذى مسحه الإله ، والمسيح فى التوراة معناه الهداية والإرسال والتأكيد الربانى » . يقول أشعيا : « الرب مسحنى لأبشّر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ، لأنادى

---

(١) النوبختى – فرق الشيعة ص ٢٠ . الفصل ج ٤ ص ١٣٨ ويجمعان على أن هذه الفكرة مأخوذة من اليهودية .

(٢) الفصل ج ٢ ص ١١٥ .

(٣) الإنسان الكامل فى الإسلام ص ٨٨ .

(٤) سعد محمد حسن – المهدية ص ٨٠ .

(٥) الصلة بين الشيعة والتصوف ص ١١٠ . ووعاظ السلاطين ص ٣٨٧ .

للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق ، لأنادى بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا ، لأعزّي كل النائحين » (١) .

وتصف التوراة هذا الممسوح الذى يرسله الرب ليبشر المساكين فتقول :

« ويحل عليه الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة وروح المعرفة ، ومخافة الرب ، ولذته تكون فى مخافة الرب فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم سمع أذنيه بل يقضى للمساكين ويحكم لبائس الأرض فيكون الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى » (٢) .

ومن يقرأ أسفار أشعيا فى التوارة يجد تشابها غريباً بينه وبين ما يؤمن به الشيعة فى شأن الإمام والمهدى .

فأبو منصور العجلى المقتول سنة ١٢١ هـ أحَد الغلاة زعم أنه عرج به إلى السماء وأن الله مسح رأسه بيده وقال له : يابنى بلغ عنى (٣) وكان يرى بتأثير النصرانية أن عيسى أول من خلق الله من خلقه (٤) وهذا كله يؤكد أن مصدر هذه الفكره هو التوراة وما اتصل بها من الفلسفات النصرانية واليهودية الأخرى فذكر ابن حزم فى معرض حديثه عن الكيسانية وانتظارهم المهدى :

« أنهم صاروا فى سبيل اليهود القائلين أن ملكهم صدوق بن عامر والعهد الذى وجهه إبراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت نبوءال وإلياس عليه السلام وفنحاص بن العازار بن هارون عليه السلام أحياء حتى اليوم » (٥) .

والذى يزيدنا تأكدا باتصال هذه الفكرة باليهودية أن عبد الله بن سبأ كان يرى فى يوشع بن نون وصيّ موسى مثل ما قال فى على رضى الله عنه (٦) وهذا

---

(١) الإصحاح ٦ سفر أشعيا .
(٢) سفر أشعيا الإصحاح ١١ ص ١٠٠٥ .
(٣) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩ . الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٩ . فرق الشيعة للنوبختى ص ٣٨ . الفرق بين الفرق ص ٢٣٤ . التبصير فى الدين ص ٧٣ .
(٤) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧ .
(٥) الفصل ج ٣ ص ٢٨٠ .
(٦) الملل والنحل ج ٢ ص ١٢٠ . انظر الفصل ج ١ ص ١٤١ .

الذى دعا ابن حزم ليقول فى الدعاة لهذه الفكرة « وهى طائفة تجرى مجرى اليهود والنصارى فى الكذب والكفر » (١) .

وقد أثرت فكرة المهدى على عقائد بعض المسلمين وتسربت إلى الفرق الأخرى فظهرت فكرة القحطانى المنتظر وادعاها اليمنيون ، ويقال : إن محمد بن الأشعث ادّعى بأنه ذلك القحطانى المنتظر وإنه يعيد الملك لليمانية (٢) . كما ظهرت فكرة السفيانى المنتظر ويقال إن الذى وضع فكرته هو خالد بن يزيد بن معاوية الموصوف بالعلم والعقل والشجاعة والمولع بالكيمياء (٣) .

وارتبطت بالمهدى فكرة أخرى كما قلنا وهى **فكرة الرجعة** : التى تعنى فى رأى الشيعة :

« عودة الميت أو المختفى إلى الظهور أو الحياة من جديد فى الدور الأخير دور الاحتضار لهذا الكون » (٤) وتمكن ابن سبأ أن يسلل هذه الفكرة رجعة محمد ﷺ أولا وهو فى مصر بالاعتماد على الآية : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ (٥) .

ثم أضافها إلى عليّ بعد وفاته بقوله : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا (٦) وهذا القول أضيف لابن سبأ بعد وفاته ولكنه بلا شك واضع جذور الفكرة التى لصقت بمحمد بن الحنفية الذى لقبته شيعته بالمهدى ثم زعمت أنه لم يمت وأنه بجبل رضوى مختبىء عنده عسل وماء » (٧) .

---

(١) الفصل ج ٢ ص ٦٥ .
(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٧٢ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢١ .
(٤) المهدى والمهدية – سعد محمد حسن – ص ٣٥ .
(٥) القصص الآية : ٨٥ .
(٦) العينى ج ٩ ق ١ ص ١٦٨ . الفصل ج ٤ ص ١٣٨ .
(٧) الذهبى – العبر فى خبر من غبر ج ١ ص ٩٣ .

وليس هناك شك بتسرب فكرة الرجعة من اليهود والنصارى فعندهم أن النبى إيلياء قد رفع إلى السماء وأنه لابد أن يعود إلى الأرض فى آخر الزمان لإقامة دعائم الحق والعدل . ولاشك أن إيلياء هو الأنموذج الأول لأئمة الشيعة المختبئين الغائبين الذين يحيون لا يراهم أحد والذين سيعودون يوما كمهدين منقذين للعالم (١) .

وتطورت فكرة الرجعة واتسعت فأصبحت لا تقتصر على محمد ﷺ وعلىّ والأئمة وإنما تعدت ذلك إلى كثيرين ، واختلق المتسللون باسم الإسلام أحاديث وحكايات تؤيد ما ذهبوا إليه . ففى أوائل المائة الثانية ردّد أحد وضاعي الحديث المعروفين جابر بن يزيد الجعفى المتوف سنة ١٢٨ هـ والذى قال فيه أبو حنيفة : ما رأيت أكذب منه (٢) نداء ابن السوداء وقال برجعة على . وقد رأى فى قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ أن الدابة هى عَلى بن أبى طالب . وزعم أن رجلا قال لعمار بن ياسر يا أبا اليقظان : آية فى كتاب الله تعالى أفسدت قلبى قال عمار : وأية آية هى ؟ قال : قوله تعالى : وإذا وقع بهم القول ... فأية دابة هذه ؟ قال عمار : والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أريكها . فجاء عمار مع الرجل إلى أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وهو يأكل تمراً وزبداً ، فقال : يا أبا اليقظان هلم . فجلس عمار يأكل معه ، فتعجب الرجل منه ، فلما قام عمار قال الرجل . سبحان الله حلفت أنك لا تجلس ولا تأكل ولا تشرب حتى ترينيها . فقال عمار : قد أريتكها إن كنت تعقل (٣) .

واعتقدت جميع فرق الشيعة مبدأ الرجعة ما عدا الزيدية ، فتكون هذه الفكرة اليهودية والنصرانية قد دخلت جميع فرق الشيعة عدا الزيدية .

---

(١) جولدتسهير – العقيدة والشريعة ص ٢١٥ .
(٢) الألوسى ج ٦ ص ٣١٢ .
(٣) نفسه .

فكرة التقية :

وهى تعنى إعلان الشيعى عكس ما يبطن من عقائد تحاشياً للأخطار [١] ففيها الحيطة والحذر والمداراة فى العمل .

والشيعى لا يستطيع أن يخفى مذهبه وأن يكتم عقيدته فحسب بل عليه أن يفعل ذلك وأن يبالغ فى الإخفاء والكتمان ، وعليه أن يعمل فى البلد التى يسودها خصومه وأن يتكلم كما لو كان واحداً منهم حتى لا يجلب الخطر والاضطهاد لأصحابه [٢] .

وليس من شك أن هذه الفكرة تسربت من أهل الكتاب الذين برعوا فيها أيام اضطهادهم . وهى تذكرنا بقصة بطرس تلميذ المسيح الذى أنكره تقية ثلاث مرات [٣] . وبولس مؤسس النصرانية الصليبية لم يتورع من اللجوء إلى مختلف الوسائل لاقتناص الناس فهو يقول : إنى إذ كنت حرا مع الجميع ، استعبدت نفسى للجميع لأربح الأكثرين فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود وللذين تحت الناموس كأنّي تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس مع أنى لست بلا ناموس لله . بل تحت ناموس المسيح لأربح الذين بلا ناموس . صرت للضعيف لأربح الضعفاء ، صرت لكل شيء لأخلص على كل حال قوما وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكا فيه [٤] . كما تذكرنا بمبدأ التقية الذى أقره النصارى فى مؤتمر التغيير سنة ٣٠٠ م [٥] بعد توالى الاضطهادات وقد حاول المتسللون إلى الإسلام من أهل الكتاب أن يرجعوا هذه الفكرة إلى على رضى الله عنه وألصقوا به : « أنه تنبأ بأنه سيطلب إلى شيعته سبه والبراءة منه فقال : أما السب فسبونى فإنه لى زكاة ولكم نجاة وأن البراءة فلا تتبرأوا

---

(١) محمود إسماعيل ص ٦٩ .
(٢) جولدتسيهر – العقيدة والشريعة ص ٢٤ .
(٣) إنجيل متى – الإصحاح ٢٦ ص ٤٩ – ٥١ .
(٤) كورنتوس ٩ : ١٩ – ٢٣ .
(٥) موجز تاريخ الحضارة ص ٥٩٦ .

منى فإنى ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والهجرة » [١] .

وتمسك فرق الشيعة بالتقية جعلها مخالفة لغيرها من الفرق تحيط بها الأسرار وتغشاها أساليب من المكر والمراوغة وسائر ما تقتضيه ، والحكمة والحذر من الأخطار التى يستهدف لها المندمجون فى سلك التشيع ، فأصبحت مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد أو من كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندوسية ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكة الإسلام ، كل أولئك اتخذوا حب أهل البيت ستارا يخفون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم [٢] .

فكرة تأليه الإمـــام :

بدأها عبد الله بن سبأ [٣] فكانت آراؤه جرثومة لهذا الرأى ، فى بيئة عربية خالصة ، فيكون من أسلم من أهل الكتاب العرب قد سللوا هذه الفكرة ، ونهجهم هذا يشبه ذلك الذى اتفق عليه أحبار اليهود عندما رشوا بولس البنياميني وأمروه بإظهار دين عيسى عليه السلام وأن يضل أتباعهم ويدخلهم إلى القول بألوهيته ، وقالوا نحن : نتحمل إثمك فى هذا ، ففعل وبلغ من ذلك حيث قد ظهر ... وقالوا بألوهيته [٤] .

وكانت هذه الفكرة نقطة هجوم من الشيعة أنفسهم على الغلاة فقد قال السيد الحميرى فيهم [٥] :

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ١٠١ .

(٢) انظر فجر الإسلام ص ٢٧٦ . جولدتسيهر – العقيدة والشريعة ص ٢٠١ بروكلمان – تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) انظر المعارف ص ٦٢٢ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٥ . التبصير فى الدين ص ٧١ .

(٤) الفصل ج ١ ص ١٦٤ . الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ .
فقد دعا بولس إلى ألوهية المسيح وكانت رسائله أقدم كتب قبلتها الكنيسة ودعا فيها المسيح ابن الله بنوّة حقيقيّة لا مجازية .
(موجز علم اللاهوت ج ٢ ص ٤٢) .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٥ .

قوم غلوا فى عليّ لا أبا لهم وأجشموا النفس فى حبه تعبا
قالوا هو الله جل الله خالقاً من أن يكون ابن شيء أو يكون أبا

وقد وجدت هذه الفكرة مجالا لها بين الفرس والهنود وكانت الفكرة الشائعة فى القرن الأول الهجرى بالنسبة لفكرة الألوهية :

الحلول والتناسخ :

وقد اتفق غلاة الشيعة على الحلول والتناسخ ، وكان التناسخ مقالة لفرقة فى كل أمة تلقوها من المجوس والمزدكية والهندية البرهمية ومن الفلاسفة والعامية ومذهبهم أن الله تعالى قائم بكل مكان ناطق بكل لسان ظاهر من أشخاص البشر . وقد يكون الحلول بجزء وقد يكون بكل . والحلول بجزء يكون كإشراق الشمس فى كوة ، أو كإشراقها على البلور ، وأما الحلول بكل فهو كظهور ملك بشخص أو كشيطان بحيوان (١) .

والقول بالتناسخ فكرة هندية وفارسية تبناها الفلاسفة كسقراط وأفلاطون ونجد بعض اليهود من قال بالتناسخ فزعم أنه وجد فى كتاب دانيال أن الله مسخ بختنصر فى سبع صور من صور البهائم والسباع (٢) ، وانتقلت هذه الفكرة إلى الفكر النصرانى فقال أبو ليناريوس (ت سنة ٣٩٠ م) معتمداً على المذهب الأفلاطونى إن الكلمة الإلهى اتخذ له جسدا بشرا ونفسا حيوانيّة ، أما النفس الروحانية فلقد ناب الكلمة منابها (٣) . وأما نسطور (ت سنة ٤٥١ م) فذكر أن فى المسيح شخصين مقابل الطبيعتين متحدين ، فالإنسان المسيح ليس الله بل فقط حامل الله ، والتجسد ليس سوى سكنى الكلمة الإلهى فى الإنسان يسوع المسيح كسكنى الله فى الأبرار لا غير (٤) .

---

(١) الشهرستانى – الملل والنحل ج ٢ ص ١٣ .
(٢) عرفان عبد الحميد – الفرق – ص ٥٩ .
(٣) مختصر علم اللاهوت ج ٢ ص ٣٥ .
(٤) نفسه ص ٣٨ .

وأما المونوفيزيتية النصرانية التى أنشاها يوليانوس أسقف هليكرناس فى أوائل القرن السادس فرأت : أن جسد المسيح كان منذ التجسد غير قابل للفساد أى أنه لم يكن خاضعا لا للانحلال ولا للفساد ، وكان من نتائج هذا الرأى إنكار حقيقة آلام المسيح وموته (١) .

تبنى هذه الفكرة بعض من تظاهر بالإسلام من أهل الكتاب والمجوس وسللها بخبث إلى من أسلم من الفرس وغيرهم ممن وجد فيها مرتعاً للتستر ومحاربة الدولة الأموية (٢) وأفكار النصارى فى هذه الفكرة واضحة بنسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليه حين قالوا : إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الإمام وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبدا . فمن اتحد به اللاهوت فهو نبى (٣) .

ولا شك أن الذين وضعوا فكرة الحلول والتناسخ والتجسيد قوم من أهل الكتاب العرب الذين تظاهروا بالإسلام استمدوها من الغنوصية النصرانية (٤) .

أشار إليهم ابن خلدون بقوله :

« ومنهم (أى الشيعة) طوائف يسمون الغلاة ، تجاوزوا حدّ العقل والإيمان فى القول بألوهية الأئمة إما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية أو أن الإله حل فى ذاته البشرية ، وهو قول بالحلول يوافق مذهب النصارى فى عيسى صلوات الله عليه (٥) .

---

(١) مختصر علم اللاهوت ج ٢ ص ٤٤ .

(٢) المقريزى – الخطط ج ١ ص ٣٦٢ .

(٣) أحمد أمين – فجر الإسلام ص ٢٧٧ .

(٤) فى أواخر القرن الأول الميلادى وأوائل الثانى أنكر مبتدعون حقيقة جسم المسيح البشرى قائلين بأن الحوادث البشرية فى حياة يسوع على الأرض ولا سيما آلامه وموته لم تكن إلا مجرد ظواهر ، ونسبت فيما بعد إلى المسيح إما مظهر جسد دون حقيقة وإما جسماً من الأجرام السماوية . وأخذت هذه من الثنوية الغنوصية التى تنكر إمكان اتحاد الكلمة الإلهى مع جسم بشرى لأن المادة هى مركز البشر ، موجز علم اللاهوت ج ٢ ص ٣٣ .

(٥) ابن خلدون – المقدمة ص ١٩٨ م ، الفرق بين الفرق ص ٢٢٥ .

فقد قال أتباع ابن سبأ بعد مقتل على :

« إن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطاناً » . وقالوا : « كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى كذلك كذبت الخوارج فى دعواها قتل على » وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهوه بعيسى ، كذلك القائلون بقتل على . رأوا قتيلًا يشبه علياً فظنوا أنه على (١) . وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها المسيح عليه السلام (٢) .

وقد أدت فكرة الحلول إلى **فكرة التشبيه** الواردة فى النص السابق . أى « شبه على الرائي » وهى التى ستقود إلى علم الباطن وظهور الشيعة الباطنية فيما بعد الفترة موضوع بحثنا وقد قادت إلى أن المعرفة هى معرفة الإمام فقط ومتى عرف الإمام سقطت عنه التكاليف الشرعية (٣) .

كما ارتبطت بهذه الفكرة **فكرة التجسيم** :

والتى حاول اليهود أن يدخلوها إلى الإسلام فى أول عهد الرسول ﷺ ، فأتاه رهط من اليهود فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ، قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى امتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه .... فنزل قوله تعالى :

---

(١) النوبختى ص ٦٤ ، الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٧ .
الإسفراييني – التبصير فى الدين ص ٧١ ، ٧٢ . الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ .

(٢) التبصير فى الدين ص ٧٢ . انظر هذا الرأى عند النصارى . ابن البطريق ص ٢٥ .

(٣) وهى فكرة نصرانية بالفعل ، فبمعرفة الإمام يتم الإيمان يشبه قول يوحنا الدمشقى : بالإيمان نعرف سر الثالوث الأقدس بالإيمان لا بالأبحاث والبينات . موجز علم اللاهوت ج ١ ص ١٠٩ بل أن النصارى فضلوا الرسل على الأنبياء – والشيعة فضلت الأئمة عليهم قال غريغوريوس الكبير : تقدمت معرفة الآباء بتقديم الزمن ، ولا جرم فلقد كان موسى أكثر معرفة بالله القدير من إبراهيم ، والأنبياء من موسى ، والرسل من الأنبياء ، موجز علم اللاهوت ج ١ ص ١٠ .

﴿ وما قدروا الله حق قدره ..... ﴾ [(١)] فدخلت هذه الفكرة صفوف الشيعة بفعل أهل الكتاب من اليهود واجتمع غلاتهم على التجسيم والعلة فى ذلك هو أنهم قد ركزوا همهم فى الارتفاع بالإنسان مرة حتى يصير إلهاً والنزول بالإله حتى يصير إنسانا ، فعقيدتهم فى جدلهم الصاعد والنازل تعتمد على إله وإنسان وكلها تدور حول الارتفاع بهذا الإنسان ، فحاجتهم إلى التجسيم أشد من حاجتهم إلى التجريد . فهم لا يستطيعون تجريد المادة الحية السائرة الآكلة الشاربة وإنما يستطيعون أن يجسموا المجرد لتقريب فكرة تأليه الإنسان [(٢)] .

ومن هنا تسربت للشيعة الفكرة الخطيرة وهى **فكرة الشعب المختار** عن اليهود الأمر الذى دعا الرازى وهو أحد أئمتهم أن يعتبر الشيعة هم أهل الجماعة وأطلق على سائر أهل السنة : العوام [(٣)] فيقول عن أهل السنة العوام فى رأيه : « فإنهم وإن كانوا فى ظاهر أمرهم مجتمعين على أمر واحد فإنهم متباينون متباغضون مشتتون يتبرأ بعضهم من بعض ويكفر بعضهم بعضا لأنهم يتأولون الكتاب بآرائهم ويعيشون الدين بمذاهبهم ، فمن استحسن رأيا أخذ به ، لا يرجعون إلى إمام مؤيد ولا يفزعون إلى عالم موفق ، بل اعتمدوا على عقولهم ، وعدلوا على اختياراتهم ، فهم سدى مهملون كأنهم لم يسمعوا قول الله عز وجل : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ [(٤)] .

وقالوا : [(٥)] « والله لولا ما فى الأرض منكم ما أنعم الله على مخالفيكم بشيء من طيبات الحياة كل ناصب ، وإن تعبّد واجتهد ، فهو كما قال الله :

﴿ عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية ﴾ [(٦)] .

---

(١) ابن هشام – السيرة ج ٢ ص ٢٠٢ . الآية ٦٧ سورة الزّمر .
(٢) الصلة بين التشيع والتصوف ص ١٢٩ .
(٣) بستان الرازى ص ١٠٧ . كتاب الزينة – تحقيق د . عبد الله سلام السامرائى ضمن كتاب الغلو ص ٢٥٤ .
(٤) القيامة الآية : ٣٦ .
(٥) روضة الكافى ص ١٨٠ وألصقوا هذه الأقوال جميعا بجعفر الصادق .
(٦) الغاشية الآية : ٣ ، ٤ .

وغير خاف أن هذه الفكرة سربها وسللها من تظاهر بالإسلام من أحبار اليهود إلى المسلمين ، وهم الذين ميزوا أنفسهم على العالم واعتبروا غيرهم أميين - جوييم - أى بهائم . فقالوا فى تلمودهم :

« لولم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة على الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس ولما أمكن لباقى المخلوقات أن تعيش ، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وباقى الأميين » (١) بل إن الله لم يخلق الأميين على شاكلة اليهود إلّا تكريماً لليهود حتى يكون من يخدمهم على شاكلتهم . فقالوا عنهم :

« غير اليهود خنازير ، كلاب ، وثنيون ، حيوانات تتكلم ، يجب غشها ونقض عهودها وإبادتها ، وإلحاق الأذى بها ، وأكل الربا منها ، وحلف الأيمان الكاذبة لها وشهادة الزور عليها » (٢) . وقالوا : ﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ (٣) . فأباح الشيعة مال الناصبى كما أباح اليهود أموال الأميين . فقالوا عن جعفر (٤) : « خذ مال الناصبى حيث ما وجدته وادفع إلينا الخمس » .

وكما احتكر اليهود الله نفسه بزعمهم أن موسى علاوة على وصايا الله المكتوبة بلغ وصايا غير مكتوبة ، ومنح اللاويين (وهم خدمة خيمة الاجتماع) (٥) حق احتكارها وأقاموا على هذا الزعم مجلدات التلمود كذلك تسلل إلى الفكر الشيعى ذلك عن آل علىّ وعن أئمتهم . فقالوا إن لدى الأئمة الصحيفة الكاملة والتى يسمونها زبور آل محمد وإنجيل أهل البيت ، يروى الكلينى :

« أن فاطمة رضى الله عنها مكثت بعد النبى ﷺ خمسة وسبعين يوما

---

(١) جورج طعمة ج ١ ص ١٢٦ عن التلمود فى الجزء الخاص بالحديث عن فلسطين والمسمى المشنا .

(٢) الماسونية فى العراء ص ٢٧٧ .

(٣) آل عمران الآية ٧٥ .

(٤) تبديد الظلام ص ٥٨ عن كتاب التهذيب .

(٥) سفر العدد الإصحاح ١٨ .

صبت عليها مصائب من الحزن لا يعلمها إلا الله ، فأرسل الله إليها جبريل يسلّيها ويعزيها ويحدثها عن أبيها ، وعما يحدث لذريتها إلى يوم القيامة ، وكان علىّ يسمع ويكتب ما سمع حتى جاء به مصحف قدر القرآن ثلاث مرات ليس فيه شيء من حلال وحرام ، لكن فيه علم ما كان وما يكون وما لم يكن إلى يوم القيامة » [١] .
وهذا شبيه بما عند اليهود من التلمود وما عند النصارى من أقوال الرسل والأحبار .

وهكذا سرب اليهود والنصارى **فكرة الشعب المختار وعلم الباطن وعصمة الأئمة** ، فوصل الأمر ببعض الشيعة أن قالوا :

« إن النار محرمة على الشيعى إلا قليلا » كما قال اليهود :

﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ [٢] .

ومن أجل تركيز هذه الأفكار فى البيئة الإسلامية عمد الأحبار والرهبان الذين تظاهروا بالإسلام إلى توجيه المسلمين إلى **التأويل** [٣] :

الذى برع فيه أهل الكتاب ومدارسهم الفكرية قبل ظهور الإسلام والتأويل يعنى لغة الرجوع أو العودة والتفسير . والمرجع أو التفسير هما الأمران اللذان استعمل فيهما الرسول ﷺ لفظ التأويل وتابعه الصحابة ومن بعدهم من أهل السنة . فالمفسر عندهم يلتزم ظاهر اللفظ إلا إذا وجد ما يصرفه إلى المجاز – وهو المعنى المقابل للمعنى الظاهر من اللفظ فى المتشابهات –. أما فى المعنى الاصطلاحى فهو ترك المنهج الإسلامى إلى معانٍ من الأخيلة أو تفسير النصوص

---

(١) تبديد الظلام ص ٤٥ .
(٢) البقرة الآية : ٨٠ – انظر فجر الإسلام ص ٢٧٦ .
(٣) استعمل أهل السنة التأويل بمعنى التفسير .
فالمفسر يلتزم ظاهر اللفظ إلا إذا وجد ما يصرفه إلى المجاز – وهو المعنى المقابل للمعنى الظاهر من اللفظ لكن هذا الانتقال إلى المعنى المجازى يخضع لشروط وضعها من يسلكون هذا الطريق منها : ألا تكون الآية محكمة وأن تكون متشابهة ، وأن يكون العرب قد عرفوا المعنى المجازى في لغة التخاطب ، وألا يخرج المعنى المجازى على نص آية محكمة وحديث قطعى المعنى .. والدلالة ، أو على قاعدة شرعية .

تفسيرات رمزية فقالوا أن للشريعة ظاهر وباطن ، والحقيقة تكمن فى الباطن لا فى الظاهر وقسموا القرآن الكريم إلى أربع مراتب هى :

(١) فهم العبارة وهو للعامة .

(٢) فهم الإشارة وهو للخاصة من العلماء .

(٣) إدراك اللطائف الدقيقة وهو للخاصة من الأولياء الذين لازموا الأوصياء .

(٤) إدراك الحقائق (أى مراد الله سبحانه) وهو للأوصياء خاصة .

وكان الرسول ﷺ يدرك مقدرة أهل الكتاب التأويلية والجدلية فحذر المسلمين من الاستماع إليهم ، عندما كانوا يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية كما يشتهون . فقال ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » [١] .

ولما سمع الرسول ﷺ أناسا يتراجعون فى القرآن عند حجر رسول الله ﷺ خرج إليهم مغضباً يعرف الغضب فى وجهه وقال : « أى قوم بهذا ضلّت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض . إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه لبعض ولكن ليصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه عليكم فآمنوا به » [٢] .

وقد حاول بعض المسلمين التأويل فأبو جندل تأول شرب الخمر من الآية : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا ﴾ [٣] .

---

(١) الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ١٦٠ . القرطبى – الجامع – ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) ابن سعد – الطبقات – ج ٤ ق ١ ص ١٤١ عن هشام وعمرو ابنا العاص .

(٣) المائدة الآية ٩٣ وقد وصف المستشرقون هذا التأويل الذى – يهدم الإسلام بالتفسير الحر . انظر جولدتسيهر . العقيدة والشريعة ص ٧٠ .

وقد تعدى التأويل فرق الشيعة إلى الفرق الأخرى . فأول الخوارج النصوص التى تخالف نحلتهم ، وأوّل المعتزلة أحاديث وآيات كثيرة وما امتحن الفكر الإسلامى بمحنة إلا كان سببها التأويل ، وما دخلت أفكار الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل . وقد قيل أن ابن عباس قال : « دعانى رسول الله ﷺ فمسح على ناصيتى وقال : اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب » [١] .

وإن صح هذا الحديث فإنه لا يقصد به إلا التأويل الذى يوضح المعانى والأحكام التى جاءت فى القرآن – أى التفسير – ولا يعنى أبدا علم الباطن أو الإغراق فى التأويل الذى تبنتّه الشيعة من أجل تبرير أفكارها ، فقد نسجت الشيعة حول سلمان الفارسى [٢] الأساطير واستغلته فى التأويل فنسبوا إليه أنه صاحب التأويل ، أى أن لديه **العلم اللدنى** الذى يسمح له بتأويل القرآن واستخراج مفهومه الباطنى ، ونسبوا إليه القدرة على تفسير الآى المتشابه ، واعتبره غلاة الشيعة الأصل فى التشيع فكان الرسول ﷺ (على زعمهم) يتلقى الوحى بظاهره بينما يتلقى سلمان الوحى مؤولا ، وسللوا فيه الأحاديث التى تقبلها المسلمون إعجابا بشخصيات الصحابة – فروى أن عليا قال فيه –:

« ذلك امرؤ منا وإلينا أهل البيت أدرك العلم الأول والعلم الآخر وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر » [٣] .

وعن إلصاق العلم اللّدنّى قالوا إنه قال فى عليّ :

« فلو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام لقالت

---

(١) مخطوطة أخبار العباس ورقة ٢٣ . ابن سعد . الطبقات ج ٢ ق ٢ ص ١١٩ .

(٢) هناك أخبار كثيرة عن سلمان وما نسبه إليه الشيعة فى رواياتهم . انظر الأنساب . مخطوط نسخ محمد القناوى . بدار الكتب المصرية برقم ٤٨٥٦ ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) الطبقات لابن سعد ج ٤ ق ١ ص ٦١ . ابن الجوزى صفة الصفوة ج ١ ص ٢٢٠ .

طائفة منكم هو مجنون . وقالت أخرى : اللهم اغفر لقاتل سلمان » [١] .

كما أسندوا خبراً عن على بن الحسين زين العابدين نصه

« لو علم أبو ذر مافى قلب سلمان لقتله وقد آخى رسول الله بينهما فما ظنكم بسائر الخلق » [٢] .

فاستنتج علماء الشيعة من هذه الأخبار صلة سلمان بعلى والأمانة والوصية والعلم اللدنى الذى وهبه عليّ لسلمان تعلماً عن النبى ، والمعرفة التى توجب قتل المسلم هى الإشراك بالله . فيفهم من هذه الأخبار أن المقصود بفضائل أمير المؤمنين عليّ صفاته الألوهية والعلوم السرية التى يعرفها . وما عقيدة سلمان السرية هذه التى ألصقوها به إلا تأكيداً **لمبدأ التقيّة والعلوم السرية** التي كان يخشى البوح بها (على زعمهم) من فضائل على بن أبى طالب خوف القتل – اعتقادا قائماً على الحلول الذى قال به غلاة الشيعة – [٣] .

واستمر تسلل أفكار اليهود إلى المسلمين الشيعة فأوجدت عندهم فكرة الانعزال بالإنضواء إلى الأئمة والبراءة من أعدائهم . حتى أصبحت **البراءة** من الفرائض الدينية الرئيسية .

كما تسللت للفكر الشيعى فكرة أخرى ارتبطت بالأفكار السابقة وتبنتها بعض الفرق الكيسانية وهى **فكرة البداء** : والبداء لغة الظهور والإبانة .

قال تعالى : – ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ [٤] .

وقال : ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ [٥] .

---

(١) الصلة ص ١٦ عن طرائق الحقائق ج ١ ص ٢١١ .
(٢) صفة الصفوة ج ١ ص ٢٣٢ .
(٣) الصلة ص ٢٣ .
(٤) الزمر الآية : ٤٧ .
(٥) الزمر الآية ٤٨ .

وقد يطلق ويراد منه تغيير الإرادة وتبديل العزم تبعا لتغير العلم [١] .

فقد ذهبت الكيسانية إلى أن الله تعالى يريد الشيء ويعزم عليه ثم يبدو له فلا يفعله [٢] .

وهذا المعنى خطير وفيه أن الله سبحانه ينتقل من عزيمة إلى عزيمة على وجه الاستعارة وفى ذلك وضع الله وإرادته وعلمه فى غير مكانه وهدم الركن الرئيسى فى العقيدة الإسلامية وهو مبدأ الألوهية [٣] .

والفكرة نفث فى روحها عبد الله بن سبأ اليهودى فهى يهودية الأصل وأن نفى الشهرستانى [٤] والقلقشندى [٥] عن اليهود القول بالبداء وفى توراتهم المحرفة الدليل الأكبر على فكرة البداء فقد جاء فى أسباب الطوفان :

« ورأى الرب أن شر الإنسان قد كبر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه » [٦] .

وجاء ما يناقض ذلك فى نفس السفر :

« وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر » [٧] .

وفى توراتهم أيضا : أن الله عز وجل قال لموسى :

---

(١) هاشم الحسينى – الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة ص ٢٦٩ . الغلو ص ١٣٤ .
(٢) الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٢ . الأشعري انظر مقالات الإسلاميين ص ١٠٩ .
(٣) الغلو ص ١٣٦ .
(٤) الملل والنحل ج ٢ ص ٤٢ .
(٥) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٦١ .
(٦) سفر التكوين الإصحاح ٥ ص ١٠ .
(٧) نفسه .

(دعنى أغضب عليهم وأهلكهم وأقدمك على أمة عظيمة ، وأن موسى رغب إليه وقال له : تذكر إبراهيم وإسرائيل وإسحق عبيدك الذين خلقتهم بيدك وقلت لهم سأكثر ذريتكم حتى يكونوا كنجوم السماء وأورثهم جميع هذه الأرض التى دعوتهم بها ويملكونها ، فحنّ السيد ولم يتم ما كان أراد إنزاله من المكروه بأمته) [(١)] .

وفيها : لما أراد الله هلاكهم : (وتنهد بنو إسرائيل عن العبودية وصرخوا فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية ، فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب) [(٢)] .

وفى سفر أشعيا : (فصار قول الرب إلى أشعياء قائلا : إذهب وقل لحزقيا هكذا يقول الرب إله داود أبيك ، قد سمعت صلاتك قد رأيت دموعك ها أنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة) [(٣)] .

موقف آل البيت من مدعى التشيع :

لقد وقف آل البيت على الأغلب موقف كفاح وجهاد ضد ضلالات مدعى التشيع فكانوا يفندون آراءهم ويهاجمون المعتقدات الضالة التى يثيرونها كما كانوا يبعدونهم ويدعون للبعد عنهم وينزلون بهم أشد العقوبات إن كانت السلطة في أيديهم . والأمثلة على ذلك كثيرة كموقف **على** رضى الله عنه من السبئية فقد نفى عبد الله بن سبأ وحرق بعض أتباعه .

وأما **الحسن** بن على رضى الله عنهما فقد أدرك مواقف مدعى التشيع عندما أشاعوا كذبا قتل قيس بن سعد قائد جيشه ، فأدّى ذلك إلى وقوع الفوضى والاضطراب فى صفوف الجيش فشد دعاة الفتنة على فسطاطه فدخلوه وانتزعوا مصلّاه من تحته وانتهبوا ثيابه وطعنه رجل فى فخذه طعنة أشوته وانصرفوا عنه إلى

---

(١) الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ٨٤ .
(٢) سفر الخروج - الإصحاح ٣٣ ص ١٤٠ .
(٣) سفر أشعيا - الإصحاح ٣٨ ص ١٠٣٧ .

الكوفة فى حين حُمل هو إلى المدائن [١] فتنازل لمعاوية راضياً للحيلولة بين دعاة التشيع والفتنة ، ولكنهم اعتبروا التنازل بداية مرحلة جديدة . فأشاعوا أن زعماء التشيع بقوا على صلة وطيدة بالحسن وأنه أوصاهم بالتريث انتظارا لمواتاة الظروف [٢] فكانوا يدسون إليه من يحرضه على نقض البيعة لمعاوية واستغلوا التأويل لاستمالة الأشياع فكان حجر أول من ندّمه على ما صنع ودعاه إلى الحرب [٣] مع جماعة من الشيعة ونقض البيعة فأبى وأجابهم بخلاف ما أرادوه عليه [٤] وقال لهم : كرهت أن أقتلكم على الملك [٥] .

وممّا يدل على معرفة الحسن بطبيعة مدعى التشيع ما روى عن عليّ بن محمد بن بشير الهمذانى عن خروجه إلى الحسن بالمدينة مع جماعة من الشيعة قال : فقلت : السلام عليك يامذلّ المؤمنين . قال : وعليك السلام . إجلس ، لست بمذل المؤمنين ولكنى معزهم ما أردت بمصالحة معاوية إلا أن أدفع عنكم القتل عندما رأيت تباطؤ أصحابى عن الحرب ، ونكولهم عن القتال . ووالله لئن سرنا إليه بالجبال والشجر ما كان بد من إفضاء هذا الأمر إليه [٦] .

وكان حجر قد اغتر بمن دفعه من أهل الكوفة من دعاة التشيع فقد أشاعوا أنه ذهب بصحبة عبيدة بن عمرو إلى الحسين فقالا :

(أبا عبد الله شريتم الذل بالعز وقبلتم القليل وتركتم الكثير أطعنا اليوم وأعصنا الدهر ودع الحسن وما رأى من هذا الصلح وآجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها وولنى وصاحبى هذا المقدمة فلا يشعر ابن هند إلا ونحن نقارعه

---

(١) الأنساب ج ٢ ورقة ٧٠١ . الطبرى ج ٥ ص ١٦٢ . النوبختى ص ٢١ واعتبر طاعنه من الخوارج . البدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٣٦ .

(٢) تبنى هذا الرأى طه حسين – على وبنوه ص ١٣٥ .

(٣) الأخبار الطوال ص ٢٢٠ .

(٤) الأنساب ج ٣ ورقة ٥٤ .

(٥) الصواعق المحرقة ص ١٣٥ . انظر العواصم ص ١٨ – ٢٢ .

(٦) الأخبار الطوال ص ٢٢١ .

بالسيوف . فكان جواب الحسين شافياً فقال : « إنا قد بايعنا وعاهدنا فلا سبيل إلى نقض بيعتنا » [١] .

ولأجل أن يستثيروا المسلمين ضد معاوية أشاعوا أن وفاة الحسن سنة ٤٩ هـ كانت بتدبير من معاوية بأن جعل امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس تدس له السم [٢] وواقع الأمر أن الحسن وفّى ببيعته ولم يكن منه لمعاوية ما يخشاه . ولعل الناقمين على الحسن من الذين نهبوا خيمتة وسلبوه جبته فعلوا ذلك استعجالا للفتنة عندما أوصد الحسن فى وجوههم باب الفتنة . وتمكنوا أخيرا من استمالة **الحسين** رضى الله عنه وحركوه إلى مصرعه واستغلوا مأساته التى أصبحت صدعا لا يجبر فى الإسلام حتى اليوم . **وأما محمد بن الحنفية فقد كان أكثر آل البيت** حذرا من مدعى التشيع إلى أن توفى سنة ٨١ هـ أو سنة ٨٢ هـ [٣] وكان قد نصح الحسين قبل خروجه إلى الكوفة ليكفه عن الخروج [٤] وحذره غدرهم كما غدروا بأبيه من قبل ولما بلغه اجتماع الشيعة سراً فى بيت هند بنت المتكلفة الناعطية وفى بيت ليلى بنت ثمامة المزينية كتب إلى المخلصين بالكوفة مع يزيد بن شرحبيل يحذرهم ويقول :

« فاخرجوا إلى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة فإن خشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين » [٥] .

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٢٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣ . ويقول : وهو ليس بصحيح ج ٨ ص ٤٣ الاستيعاب ق ١ ص ٣٨٩ . المعارف ص ٢١٢ . الإمامة والسياسة ج ١ ص ٧٤ مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٧ . تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢٩٣ . البدء والتاريخ (ج ٦ ص ٥) .

(٣) ابن خلكان ج ٤ ص ١٧٢ .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٣٤١ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ١٠٣ . قال ذلك أيضا للجماعة الذين أرسلهم المختار إليه – ابن سعد ج ٥ ص ٧٢ .

ولما استغل المختار اسمه فى حركته لم يؤيده وتبرأ منه . ووقف من الخراسانى الذى هدد بالزهد إن لم يخرج الإمام داعيا لنفسه موقفا صليبا إذ قال :

« فلا تفعل ، فإن تلك البدعة الرهبانية ولعمرى لأمر آل محمد أبين من طلوع الشمس » (١) .

كما أنه هبط ببيت النبوّة (حذراً على المسلمين) إلى مرتبة الناس هبوطاً نال الإعجاب والعجب فكان يقول :

« ما أشهد على أحد بالنجاة ولا أنه من أهل الجنة بعد رسول الله ﷺ ولا على أبى الذى ولدنى » (٢) وقد وضح علة اتجاهه هذا بقوله :

« أهل بيتين تتخذهما العرب أنداداً من دون الله :–
نحن وبنو عمنا هؤلاء » .   يعنى بنى أمية . (٣)

وأما **على بن الحسين** بن على الذى توفى سنة ٩٤ هـ فقد انقطع إلى العلم والعبادة وكان يكره أهل العراق الذين كثر بينهم من استغل التناقضات . فقد جاء نفر فأثنوا عليه فقال :

« ما أكذبكم وما أجرأكم على الله فنحن من صالحى قومنا وبحسبنا أن نكون من صالحى قومنا » (٤) .

وكان حرباً على كل من تسول له نفسه الارتفاع بآل البيت فوق مستوى البشرية كالسبئية والكيسانية ويقول لهم : « أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (٥) » وقال :

---

(١) ابن سعد . الطبقات ج ٥ ق ١ ص ٧٠ .
(٢) نفسه ج ٥ ق ١ ص ٦٨ .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه ص ١٥٨ و ص ١٦٤ .
(٥) الحشر الآية ١٠ تاريخ الشيعة الإمامية ص ٤٢ .

« أيها الناس أحبونا حب الإسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا » [١] .

وكان ينحى باللائمة على أولئك الذين يستغلون حبّ آل البيت لدس أفكارهم بين المسلمين ويقول : « إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء وأشار بيده إلى العراق » [٢] .

ولما دسّ الغلاة فكرة البراءة من أبى بكر وعمر تكنّى على بن الحسين بأبى محمد وبأبى بكر وهذه أصبحت كنيته الغالبة عليه [٣] ليؤكد على عدم براءة آل البيت من الشيخين .

ولما قام المختار بحركته باسم آل البيت قام على باب الكعبة فلعن المختار وقال :

« انه كان كذاباً يكذب على الله وعلى رسوله » [٤] .

ووقف **محمد الباقر** وهو ابن على بن الحسين كوالده من مدعى التشيع للحفاظ على الإسلام من دس أهل الكتاب ومؤثراتهم . وكان معاصراً لأبى هاشم الذى التف حوله الغلاة – ولما بلغته فكرة البراءة قال :-

« بلغنى أن قوما بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا وينالون من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ويزعمون أنى أمرتهم بذلك فأبلغهم أنى إلى الله منهم برىء . والذى نفس محمد بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم ، لا نالتنى شفاعة محمد إن لم أستغفر لهما » [٥] .

ورأى الناس باسم آل البيت يبتعدون فى التفسير بين الجبر والاختيار فدعا

---

(١) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٣٦ .
(٢) ابن سعد – الطبقات ج ٥ ق ١ ص ١٦٠ .
(٣) النوبختى ص ٤٧ .
(٤) ابن سعد ج ٥ ق ١ ص ١٥٨ .
(٥) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٥ .

إلى التزام القرآن ليبقى الأمر فى نصابه قال : « إن الله أرحم بخلقه من أن يريد أمراً فلا يكون » . وعندما سئل هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة ؟ قال : « نعم وسع ما بين الأرض والسماء » [١] فهو ينفى الجبر على الإطلاق أولا ثم ينفى الاختيار على الإطلاق أيضا فيعيد المياه إلى مجاريها [٢] .

أثر أهل الكتاب فى حركات الشيعة :

سبق وأن قلنا أنه بحجة الانتصار لعلى والقيام بأمره ألب ابن سبأ اليهودى الناس على عثمان فأثارها فتنة أودت بالخليفة نفسه ، واستمر دعاة الفتنة يتوارون وراء آل البيت الأمر الذى جعل بنى أمية يتشددون على آل البيت فبثوا العيون والأرصاد على الشيعة وأخذوهم بالظنة ، فكان عمل دعاة الفتنة على طرفى نقيض يشجعون آل البيت على الثورة ويعدونهم النصرة ، ويحرضون بنى أمية على آل البيت بتهمة الثورة والخيانة ، وكانوا هم المستفيدين فى كلا الحالين فلم تكن حركات مدعى التشيع فى عهد الأمويين تهدف إلى إسقاط الأمويين فقط بل إلى إضعاف المسلمين جميعا وتقليم أظفارهم . ومن أجل ذلك كانوا يهزمون أو يتصنّعون الهزيمة وهم من أجل ذلك أحيانا يقتلون زعيمهم الشيعى بأنفسهم يكونون معه ويدفعونه للثورة فإذا استجاب انقلبوا عليه وقتلوه [٣] .

ولتسلل أهل الكتاب فى صفوف الكوفيين استجابوا لكل نداء للثورة دون سبب معقول كأن الثورات أصبحت هدفا لذاتها واضطراب الأمن أصبح مقصوداً لذاته وكانوا سرعان ما ينكمشون ويستترون ، فحركوا الخوارج والمتشيعين من وراء ستار يدفعونهم ثم يدعونهم لمصيرهم المحتوم ثم يقطفون الثمرة بدس أفكار تسمّم أجواء المسلمين وقد اشتد زياد والى العراقين على الشيعة والخوارج وموقفه يدعو إلى الريبة فقد كان والياً لعليّ وله معرفة بأصحابه ، فهل تتبع أصحابه الحقيقيين أو

---

(١) أصول الكافى ص ٣٦ .
(٢) الصلة ص ١٧٠ .
(٣) أحمد شلبى – ج ٢ ص ١٩٢ .

تتبع مدعى صحبته ، فهو قد حمل المتناقضات فى سياسته فكأنه ورث أساليب اليهود ومكرهم فأمه كانت مولاة للحارث بن كلدة وهو نصرانى وولد على فراش عبيد الرومى . ويظهر أنه شمل فى حملته الجميع وبدون استثناء فقتلهم حيث وجدهم وسجن منهم الكثير (١) فكانت فى زمنه حادثة **مقتل حجر بن عدى الأزدى** :

والمتتبع لقصة مقتله يجد أن أهل الكوفة كانوا وراء مقتله فهم قد شهدوا عليه أمام زياد ، وبلغ بهم الأمر أن كتبوا شهاداتهم عليه : أنه خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة وجمع إليه جموعا يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية فكفر بالله كفرة صلعاء وأتى معصية شنعاء (٢) .

وكان حجر قد استجاب لمدعى التشيع فحرض الحسن ثم الحسين على نقض العهد كما سبق ، وكان زياد يحذره ألا يستجيب لداعى الفتنة فيقول له : « تعلم أنى أعرفك وقد كنت وإياك على ما قد علمت – يعنى من حب على بن أبى طالب – وأنه جاء غير ذلك وأنى أنشدك الله أن تقطر لى من دمك قطرة فاستفرغه كله ، أملك عليك لسانك وليسعك منزلك وهذا سريرى فهو مجلسك وحوائجك مقضية لدى فاكفنى نفسك فإنى أعرف عجلتك فأنشدك الله يا أبا عبد الرحمن فى نفسك وإياك وهذه السفلة وهؤلاء السفهاء أن يستزلّوك عن رأيك فإنك لو هنت عليّ ، أو استخففت بحقك لم أخصك بهذا من نفسى » (٣) .

ولكن مدعى التشيع أبوا إلّا أن يستزلّوه بقولهم : « إنك شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر (٤) . وكان إذا جاء المسجد مشوا معه ، وأدرك بعد فوات الأوان أن أهل العراق هم قتلته الحقيقيون – فقد قال عندما وصل حصن عذراء وكان قد افتتحها –:

---

(١) الأنساب ج ٤ ص ٤٨٣ . مروج الذهب ج ٢ ص ٦٧ .
(٢) الأنساب ج ٤ ص ٤٨٤ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٥١ .
(٣) ابن سعد . الطبقات ج ٦ ص ١٥٢ .
(٤) نفسه . البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٣ .

« الله بيننا وبين أمتنا أما أهل العراق فشهدوا علينا وأما أهل الشام فقتلونا ، والله لقد فتحت هذا الموضع وإنى لأرجو أن أكون شهيداً فيه »[(١)] وكعادة أهل الكوفة بعد مقتل من يدفعونه للهلاك نظر الشيعة إلى حجر وأصحابه بعد قتلهم نظرتهم إلى الشهداء يستميلون بذلك جماعات أخر .

ولما استجاب **الحسين** للنداء وخذله الكوفيون تمكن دعاة الفتنة أن يسللوا إلى أتباعه المخلصين فكرة يهودية نصرانية – وهى **فكرة الندم** –[(٢)] فظهرت فكرة التوابين والذنب الذى يتحمله الأبناء على الآباء وتنادوا أنهم أخطأوا خطأ كبيرا بدعائهم الحسين إلى النصرة ثم تركهم إجابته حتى قتل إلى جانبهم دون أن ينصروه ورأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه – وتولى أمر هؤلاء : سليمان بن صرد الخزاعى[(٣)] وكانت له صحبة مع الرسول ﷺ ، وكان يدرك أن قتلة الحسين هم المطالبون بدمه – فقد قال :

« إنى نظرت فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه »[(٤)] .

وكانت نتيجة سياسة زياد وابنه فى تتبع الشيعة وغيرهم إثارة الفزع فى النفوس فوجدت الشائعات طريقها إلى الناس وأخذت الخرافات والتطيرات تملآن

---

(١) الأنساب ج ٤ ص ٤٩٢ . الطبقات ج ٦ ص ١٥٣ .

(٢) ترى النصرانية أن خطيئة آدم وحواء خطيئة لا توصف فظاعتها على حد تعبير أوغسطينوس (موجز علم اللاهوت ج ١ ص ١٥٣) وأن آدم قضى عليه بالموت عقابا على خطيئته ، وأن هذه الخطيئة تنتقل بالوراثة إلى كل ذريته وتبقى فى كل فرد منها كخطيئة خاصة (موجز ج ١ ص ١٥٨) وأن المسيح قرب نفسه قربانا لله على الصليب لمغفرة خطايا البشر (موجز ج ٢ ص ٩٣) . وأن الكنيسة تسلمت من المسيح مغفرة الخطايا (موجز ج ٤ ص ١٢٥) . وقد تسللت هذه الأفكار إلى الشيعة بأن وضعت الحسين مقام المسيح فى عذابه من أجل خلاص البشر . وأن أبناء الشيعة يتحملون تبعة دم الحسين لتركهم نصرته .

(٣) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ١٦٢ .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٥٥٨ .

الجو فى الكوفة . وهذا الجو الذى تعشش فيه الأفكار الدخيلة من أهل الكتاب ومن غيرهم فتحوّلت مقاومتهم لزياد وابنه من بعده إلى أمانى يتمنّونها وأحلام يتصورونها فصار موت زياد عندهم أسطورة غريبة فرووا أن شيئا طويلا يسمى بالنقاد ذى الرقبة دخل على زياد فى قصره ، فما كان مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر قال : انصرفوا فإن الأمير عنكم مشغول وإذا به قد أصابه من البلاء (الفالج)[١] . وتحولت حركات الشيعة فى عهد عبد الملك والوليد إلى مقاومة سرية ودعاية خفية لعقيدتهم ضد خصومهم فأصبحت مباءة للأفكار التى سربها أهل الكتاب إليهم بكل يسر ، فكانوا بذلك أخطر الجماعات على الدولة الأموية .

بعض فرق الشيعة التى ظهرت فى القرن الأول الهجرى :

المعروف أن حب آل البيت نزعة غالبة على المسلم وأن الشيعة المعتدلة قد وجدوا بطبيعتهم من بين المسلمين وهم الذين يقولون بأحقية على – بالخلافة وأفضليته على الصحابة – وكان منهم سلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى وحسان ابن ثابت وغيرهم من الصحابة الأجلاء وهؤلاء جميعا ليسوا من مدعى التشيع وإنما كان تشيعهم حقيقة خالية من الكذب والادعاء[٢] .

وأما المدعون للتشيع فقد حملهم على ذلك أغراضهم الخبيثة فى استغلال حب المسلمين لآل البيت لدس آرائهم الفاسدة بين المسلمين ، فأظهروا الغلو فى حب آل البيت وانشعبوا إلى فرق كثيرة عدّدها كتاب الفرق . ولسنا بصدد تفصيل ذلك ولكنا سنمر فى هذا البحث على بعض الفرق التى وضعت بذورها فى القرن الأول الهجرى لتلمس آثار أهل الكتاب فى هذه البذور والنبتات .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٦٩ .

(٢) فيلتقون مع أهل السنة فى حبهم آل البيت حقيقة .

وأولى هذه الفرق : السبئية :

ومؤسسها عبد الله بن سبأ الذى تحدثنا عنه – وهو الذى وضع بذور الوصية والرجعة والنص بإمامة علي وألوهيته – واستمرت السبئية بعد عليّ فزعموا أن علياً حى لم يقتل وإن فيه الجزء الإلهى وهو الذى يجىء فى السحاب والرعد صوته والبرق سوطه ، وقالوا : بالتوقف والغيبة وبتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة بعد على [١] ثم تَبَنّوا فكرة رفض أبى بكر وعمر فجعلوا لعلى ما جعله النصارى فى المسيح عليه السلام [٢] وسيطلق اسم الروافض على جميع فرق غلاة الشيعة بل على الشيعة بأجمعهم بعد حركة زيد بن على سنة ١٢٢ هـ .

ومن الفرق المتطرفة الأخرى : **الكيسانية :**

وتدعى المختارية أيضا وقد انشعبت عن السبئية وتبنت أفكارها وطورتها بما يحقق أهداف معتنقيها . وسميت الكيسانية بالنسبة لكيسان الذى قيل إنه مولى على بن أبى طالب [٣] ولكنه قول غريب لأنه مات فى صفين قبل قيامهم بنحو ثلاثين سنة . وقيل إنه أبو عمرة مولى بجيلة صاحب شرطة المختار [٤] (وبجيلة هى القبيلة التى ستعرف بتبنيها لحركة الغلو الشيعى) كما قيل إنه لقب المختار [٥] وعلى العموم فإن المختارية والكيسانية شىء واحد وهم أصحاب المختار بن أبى عبيد [٦] والمرجح أن كيسان هذا من أعوان المختار وممن شهدوا بأن محمد بن الحنفية قد

---

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ١٢ . الفرق بين الفرق ص ١٢٤ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٧ . مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٠ . الملل والنحل ج ١ ص ١٥٢ .

(٤) النوبختى ص ٢١ . مروج الذهب ج ٢ ص ٧٩ . العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩ ابن سعد . الطبقات ج ٥ ص ٧٢ . الأخبار الطوال ص ٢٩٦ . أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٩ .

(٥) مخطوطة أخبار العباس ورقة ٧١ أ . النوبختى ص ٢١ .

(٦) الفصل ج ٤ ص ١٣٧ .

بعث بكتاب إلى إبراهيم بن الأشتر يأمره فيه بنصرة المختار [١] فقد كان أبو عمرة معروفاً بغلوه المتطرف فقد أخذ الناس على المختار استعانته به وقالوا : قد جاوره أبو عمرة [٢] . ويظهر أن أبا عمرة كان على صلة بعلى بن أبى طالب وتظاهر بالغضب لقتل الحسين فأغرى المختار بالطلب بدمه ودله على قتلته ثم نسب إليه أتباعه أنه كان له بصر بالأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس [٣] وأدخلت الكيسانية فكرة المهدى واعتبروها جزءا من عقيدتهم فقالوا : إن محمد ابن الحنفية حى بجبال رضوى عن يمينه أسد وعن يساره نمر تحدثه الملائكة يأتيه رزقه غدواً وعشياً لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جوراً [٤] .

كما آمنوا بتناسخ الأرواح [٥] واشتدوا فى أمر هذه الفكرة فيما بعد حتى كان أحدهم يأخذ البغل والحمار فيعذبه ويضربه ويعطشه ويجيعه على أنه روح أبى بكر وعمر رضى الله عنهما [٦] واحتجوا فى أمر التناسخ بقوله تعالى :

﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ [٧] .

واستهوتهم فكرة التبرؤ من الخلفاء الثلاثة الأُول واعتبروهم مغتصبين لحق عليّ فى الخلافة [٨] قاصدين ضرب الإسلام واستطاعوا أن يستميلوا إلى مذاهبهم

---

(١) الطبقات ج ٥ ص ٧٢ .
(٢) الأخبار الطوال ص ٢٦٠ .
(٣) الملل والنحل ج ١ ص ١٥٢ .
(٤) الفصل ج ٤ ص ١٣٧ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٨ . الفرق بين الفرق ص ٢٨ .
(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٨ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٩ .
(٦) الفصل ج ٤ ص ١٨٢ .
(٧) الانفطار الآية : ٩ .
(٨) الفرق بين الفرق ص ٢٨ .

بعض ضعاف النفوس ككثيّر عزة الشاعر الغزلي المشهور الذى اشتهر بالغفلة والحمق والخيلاء ، قال فيه صاحب الأغانى :

« وكان غالياً فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ وكان محمقا مشهوراً بذلك وكان آل مروان يعلمون بمذهبه فلا يضيرهم ذلك لجلالته فى أعينهم ولطف محله فى أنفسهم » [١] .

وانساق فى فكرة التناسخ ، فقد دخل يوما على عمة له يزورها وكانت تكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها . فقال لها : والله ما تعرفيننى ولا تكرمينني حق كرامتي .. إلى أن قال : « أنا يونس ابن متى » [٢] ودان بالرجعة فقد دخل عليه عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب يعوده فى مرضه الذى مات فيه . فقال له كثير : « أبشر فكأنك بى بعد أربعين ليلة قد طلعت على فرس عتيق » [٣] .

وفى قوله :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يتبعه اللواء
تغيب لا يرى عنا زماناً ... برضوى عنده عسل وماء [٤]

عبر عن فكرة الأسباط ، وقصة الأسباط وردت فى القرآن ولكن اقتباسها

---

(١) الأغانى ج ٩ ص ٤ .
(٢) الأغانى ج ٩ ص ١٩ .
(٣) نفسه ص ١٧ .
(٤) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٨ . القمي ص ١٢٩ . الفرق بين الفرق ص ٢٩ . الأشعرى – مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٨ .

وتطبيقها على الأربعة من أهل البيت يسترعى النظر فى أوساط الكوفة ، ومن قبل نادى السبئية بمهدية علىٍّ فى المدائن فالمنزع يهودى بحت ، ولاشك أن السبئية بدأت تختلط بالكيسانية فى الكوفة . وبين لنا كثير المصدر اليهودى ببساطة حين يقول : (١)

هو المهدى خبرناه كعب — أخو الأحبار فى الحقب الخوالى
أقر الله عينى إذ دعانى — أمين الله بلطف فى السؤال
وأثنى فى هواى علىّ خيرا — وساءل عن بَنِيّ وكيف حالى

فكعب الأحبار – الدعامة اليهودية – قد أخبر بمهدية ابن الحنفية واختفائه وغيبته ورجعته . فقضية الأسباط وكعب تجعل أصل هذه الأفكار يهوديا دون مشقة وعناء سربوها فى أوساط الكوفة المستعرة بالفتن لتقوّض دعائم المجتمع الإسلامى (٢) .

وأما **فرقة الغرابية** : التى انشعبت عن السبئية فى أيام على رضى الله عنه . فقد زعمت أن النبوة كانت لعلى وكان جبريل أخطأ ونزل على النبى لما بينه وبين النبى ﷺ من مشابهة كمشابهة الغراب للغراب (٣) .

وهذه الفكرة يهودية تعيد إلى الأذهان فكرة مباركة إسحق ليعقوب على عيسو فأخطأت البركة عيسو وذهبت إلى يعقوب (٤) وتبعهم فى ذلك **العليائية والعينية**(٥) ومذهبهم جميعا كما قال المرحوم الشيخ أبو زهرة : جهل بالتاريخ وجهل

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ٢ ص ١٠١ الأغاني ج ٩ ص ١٦ .

(٢) وقالوا فى التناسخ وتسرب هذا القول إلى كثير من فرق الشيعة ليس يموت من بنى أمية ميت إلا مسخ وزغا ، وإن عبد الملك بن مروان لما نزل به الموت مسخ وزغا فذهب من بين من كان عنده ، فلما افتقدوه عظم عليهم ذلك فلم يروا كيف يصنعون ، ثم اجتمع أمرهم على أن يأخذوا جذعا فينحتونه وألبسوه الأكفان فلم يطلع عليه على، زعمهم إلا أنا (أى والد جعفر) وأولاده – روضة الكافى ص ١٩٤ .

(٣) الفصل ج ١ ص ١٠٨ . الفرق بين الفرق ص ٢٣٧ .

(٤) سفر التكوين الإصحاح ٢٧ ص ٤٣ .

(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٣٩ . الملل والنحل ج ٢ ص ١٣ .

بالحقائق فعليّ عند البعث المحمدى كان غلاما وما كان فى سن يتحمل فيها الرسالة بل كان فى التاسعة وهى ليست سن التكليف فضلا عن أن تكون سن التبليغ . وأما كون هذا الكلام يتضمن جهلًا بالوقائع فلأن علياً فى رجولته لم يكن مشابهاً للنبى ﷺ فى جسمه بل كان لكل منهما كيان جسمى خاص على ما هو مدون فى الصفة الجسمية لكل منهما (١) . وحتى اليعقوبى الشيعى لم يذكر عليا بين المشبهين برسول الله ﷺ (٢) .

وأما المغيرية :

أتباع المغيرة بن سعيد البجلي مولى بجيلة فكان ميدان عمله الكوفة بين قبيلة بجيلة (٣) المشهورة بالغلو وكان له من المركز ما يمكنه الاتصال بمختلف الفئات من حيث كونه مولى خالد بن عبد الله القسرى (٤) أمير الكوفة وكان أولا من السبئية (٥) وأثبت لمحمد ابن الحنفية النبوّة ثم زعم أن أبا جعفر محمد بن على أوصى إليه (٦) ثم ادّعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد (٧) وتراقى به الأمر إلى أن زعم أنه رسول نبيّ وأن جبريل عليه السلام يأتيه بالوحى من عند الله (٨) وكان يقول :

---

(١) أبو زهرة – تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ ص ٤٣ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١١٧ – وذكر المشبهين وهم : جعفر والحسن وقثم ابن العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسد بن (المعزة) وهاشم بن عبد المطلب ومسلم بن معتب بن أبى لهب .

(٣) الفصل ج ٤ ص ١٨٠ . الفرق بين الفرق ص ٢٢٩ . الأنساب ج ٨ ورقة ٢٨٦ والأشعرى – مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٦ .

(٤) النوبختى ص ٥٥ . الطبرى ج ٥ ص ١٢٨ .

(٥) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٦) النوبختى ص ٥٥ . الفرق بين الفرق ص ٤٣ .

(٧) الملل والنحل ج ٢ ص ١٤ .

(٨) النوبختى ص ٥٥ .

« إن الأنبياء لم يختلفوا فى شيء قط من الشرائع » [١] .

واستطاع استمالة الناس لبصره بالسحر والنيرنجات ، وكان يقول : لو أردت أن أحيي عاداً وثمود أو قروناً بين ذلك كثيراً لأحييتهم [٢] . ثم كان يأتى الإمام الصادق فيستفتيه ثم يمضى فيكذب عليه [٣] .

ويظهر أثر اليهودية فى أفكاره من رواية الكشّي عن الإمام الصادق أنه أى المغيرة تعلم من يهودية كان يختلف إليها [٤] ونادى بالتشبيه فكان يقول :

« إن معبوده صورة رجل على رأسه تاج وإن أعضاءه على عدد حروف الهجاء الألف للساقين والعين على صورة عينيه ونحو ذلك » [٥] وهذا أثر واضح للكبالا اليهودية فكأنه يريد أن يقول إن الوحي إنما هو نزول الله نفسه إلى النبى أو الإمام وإن كل كلمة يتلقاها إنما هى حلول يستمر باستمرار الوحى [٦] .

وادعاؤه إحياء الموتى [٧] مسحة من الأفكار النصرانية كما فى فكرته عن التناسخ والحلول ما يشبه فكرة حلول اللاهوت بالناسوت النصرانية . وقبل أن يقتله خالد بن عبد الله القسرى أتاه برجل من أصحابه قتله فقال للمغيرة أحيه [٨] ليثبت للناس ترهاته وأكاذيبه .

والمنصورية :

أتباع أبى منصور العجلى [٩] من ذات قبيلة المغيرة ولكنه عربى ليس مولى

---

(١) الأنساب ج ٨ ص ٢٨٦ – الفرق بين الفرق ص ٢٢٩ – الفصل ج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) الطبرى ج ٨ ص ٢٤٠ . البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٠ .

(٣) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٨٦ . الطبرى ج ٧ ص ١٢٨ .

(٤) معرفة أخبار الرجال ص ١٤٧ .

(٥) الفصل ج ٤ ص ١٨٤ . الأشعرى – مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٢ – الفرق بين الفرق ص ٢٢٩ . الملل والنحل ج ٢ ص ١٤ .

(٦) الصلة ص ١٣٠ .

(٧) النوبختى ص ٥٥ .

(٨) البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٩ .

(٩) الفرق بين الفرق ص ٢٣٤ . مقالات الإسلاميين ص ٧٤ . النوبختى ص ٧٤ – الفصل : أتباع منصور المشير العجلى ج ١ ص ١٤١ .

وكان يقيم فى الكوفة فى بنى عبد القيس [١] القبيلة المشهورة بكثرة أهل الكتاب فيها قبل الإسلام .

وقد أعاد أبو منصور فكرة النبوة بدل الإمامة بجرأة تعيد إلى الأذهان حركة مسيلمة والأسود العنسى وسجاح ، إذ قال أولا بمهدية الباقر فتبرأ منه وطرده فزعم أنه هو الإمام ودعا إلى نفسه [٢] . ثم ادعى النبوة قائلا :

(كان على بن أبى طالب نبيا رسولا وكذلك الحسن والحسين وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على وأنا نبى والنبوة فى ستة من ولدى يكونون بعدى آخرهم القائم) [٣] .

وزعم أن جبريل يأتيه بالوحى من عند الله وأن الله بعث محمداً بالتنزيل وبعثه هو (يعنى نفسه) بالتأويل [٤] .

وقد ظهر تأثير أهل الكتاب فى أفكاره بوضوح فقد زعم حين ادعى الإمامة لنفسه أنه عرج به إلى السماء ورأى معبوده فمسح بيده ورأسه فقال له : يا بنى انزل فبلغ عنى ثم أهبطه إلى الأرض فهو الكسف الساقط من السماء أى المراد من قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا ﴾ [٥] .

واشتد الأثر النصرانى فى دعوته فزعم أن أول من خلق الله تعالى : عيسى ابن مريم ثم على بن أبى طالب : وأباح المحرمات من الزنا والخمر والميتة وقال : (إنما هم أسماء رجال) . وأسقط العبادات كالصلاة والصوم والحج . واتبع أصحابه

---

(١) النوبختى ص ٣٤ .

(٢) تلبيس إبليس ص ١٠٣ . الملل والنحل ج ٢ ص ١٥ - الفرق بين الفرق ص ٢٣٤ .

(٣) النوبختى ص ٣٤ . فرق الشيعة ص ٣٨ . الفرق بين الفرق ص ٦٥ .

(٤) النوبختى ص ٣٤ .

(٥) الفصل ج ٤ ص ١٨٥ . الملل والنحل ج ٢ ص ١٥ . الفرق بين الفرق ص ٢٣٤ مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٤ .

أسلوب الاغتيالات فكانوا يقتلون من كان منهم ومن خالفهم ويقولون : (نعجل المؤمن إلى الجنة والكافر إلى النار) [١] .

وتتعدد الفرق المنشعبة عن السبئية وتختلط مع نهاية القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى مستغلة التعصب لآل البيت فظهرت :

الحمزيـــة :

أتباع حمزة بن عمارة البربرى – انشق عن الكيسانية بعد موت محمد ابن الحنفية – وادعى النبوة وقال أن محمد بن الحنفية هو الله عز وجل : فلعنه أبو جعفر محمد بن على بن الحسين وبرئ منه وكذبه . وكان من أقواله : (من عرف الإمام فليصنع ما شاء فلا إثم عليه) .

فأحل جميع المحارم ونكح ابنته [٢] .

والبيانيـــة :

أتباع بيان أو بنان بن سمعان النهدى والتميمى [٣] الذى زعم أن أبا هاشم مهدى كأبيه وأنه لم يوص لأحد فجعل من نفسه رئيسا للفريق الثابتين على إمامة أبى هاشم ونصب نفسه وصياً على إمامة أبى هاشم بنصّ إلهى فزعم أنه المعنى بقوله تعالى : ﴿ هذا بيان للناس ﴾ [٤] ورسم للغلاة الوسيلة التى يخدعون بها الناس ويعتمدون عليها فى تنصيب أنفسهم دعاة وقادة تجب طاعتهم [٥] واعتمد فى مبدئه على فكرة التجسيم – فكان يقول :–

---

(١) الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .
انظر الفرق بين الفرق ص ٢٣٤ . مقالات الإسلاميين ص ٧٤ . النوبختى ص ٣٤ .

(٢) النوبختى ص ٢٥ – ٢٦ .

(٣) الفصل ج ٤ ص ١٤١ . الأشعرى ج ١ ص ٦٦ . الفرق بين الفرق ص ٢٢٧ .

(٤) آل عمران الآية : ١٣٨ .

(٥) حركات الشيعة المتطرفين ص ٣٣٦ .

(إن الله تعالى يفنى كله حاشا وجهه فقط) [١] متأوّلا الآية :

﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [٢] ودان بدورة الحلول وهى فكرة نصرانية غنوصية ، وفسر بهذه الفكرة الغنوصية قصة سجود الملائكة لآدم [٣] وكتب إلى أبى جعفر محمد بن على يدعوه إلى نفسه والإقرار بنبوته [٤] .

والهاشمية :

أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية الذى أنساق مع حركة الغلو وكان لسناً خصيما عالماً كما وصفه أبو الفرج الأصفهانى [٥] فالصق به أتباعه علم الباطن الذى نفاه أبوه عن نفسه وقالوا عنه :

(إن أباه أخفى إليه أسرار العلوم وأطلق على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن) [٦] فلجّوا فى الباطن والتأويل وتفننوا فيهما فالتفتوا إلى خطورة الأعداد وسريتها وهي فكرة مستمدة من فلسفة الفيثاغوريين [٧] فأشار أبو هاشم على محمد بن على العباسى أن يختار دعاته : فليكونوا اثنى عشر نقيبا فإن الله عز وجل لم يصلح بنى إسرائيل إلا بهم وسبعين نفراً يتلونهم . فإن النبى إنما اتخذ اثنى عشر نقيبا من الأنصار أتباعا لذلك [٨] . وليس المهم هنا العدد وإنما فكرة تقديس العدد .

---

(١) الفصل ج ٤ ص ١٤١ . الفرق بين الفرق ص ٢٢٧ .
(٢) الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) الملطى – التنبيه ص ٣٠ .
(٤) انظر الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٦ .
(٥) مقاتل الطالبيين ص ١٢٦ .
(٦) الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٣ .
(٧) الفرق ص ٦٥ .
(٨) مخطوطة أخبار العباس ورقة ٨١ ب . اليعقوبى ج ٣ ص ٩٨ .

ولما مات أبو هاشم حدث انقسام فى التشيع فادعى محمد بن عبد الله العباسى أنه الإمام[١] كما ادعى عبد الله بن حرب من المدائن انتقال الإمامة إلى عبد الله بن معاوية[٢] وادعى كلا الفريقين أن أبا هاشم قد أوصى بما ادّعياه ....

وما شارفت الدولة الأموية على السقوط إلا وكانت فرق التشيع جميعها قد أخذت فى اتجاه مناهض للإسلام وتطورت أفكارها حاملة تناقضات الفلسفات وأديان أهل الكتاب وغيرهم . وكلما تساقطت حركاتها ألقت ببذور جمعتها الشيعة الإمامية والباطنية فنبتت أفكارها على نبتها وقد سرت فيها أفكار أهل الكتاب وتناقضاتهم مع الإسلام سريان الدم في الجسم ، فتآلفوا مع أفكارهم هذه واستيقنتها أنفسهم وأصبحوا معاول تعمل لهدم الإسلام وكيانه كلما سنحت الفرصة لهم إما بالعمل الجدى المباشر وإما بالفكر النشط اليقظ وإما ببذر الفساد فى المجتمع الإسلامى بإشاعة الاضطرابات والمخاوف والتنبؤات والشكوك بين الحاكم والمحكوم – وهذا سبب توقف المد الإسلامى على المدى الطويل – وتسلل السم إلى المجتمع الإسلامى نفسه .

أجل لقد كانت الحركات المناهضة للإسلام وخاصة حركات أهل الكتاب فى القرن الأول الهجرى والربع الأول من القرن الثانى تطفو على سطح بحر المد الإسلامى دون أن تؤثر فيه . فكان جيل الصحابة ثم التابعين وتابع التابعين بالمرصاد لكل حركة تساعدهم سيوف بنى أمية المصلتة على هذه الحركات تقمعها بشدة وإن أخذت البرىء بجريرة المسيء إلا أنها مكنت بذلك للإسلام أن يشق طريقه بخطوات ثابته . وما أن أخذت قوة بنى أمية تتلاشى وآذنت دولتهم على الزوال إلا وكانت دعائم الإسلام قد تركزت ، وتركزت معها الطاقة العربية الهامة – اللغة العربية – فى كل مكان أظلته راية الإسلام . فأخذت الحركات الحاقدة من أهل الكتاب والمجوس وغيرهم تسير بخط مواز لحركة الإسلام وحركة روحه القوية المتسللة إلى المجتمعات الظامئة لعدالته .

---

(١) فرق الشيعة ص ٣٣٥ .

(٢) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٦٧ .

كانت تسير بخط مواز لهذه الحركة تمهيدا للتسلل إلى قلب هذا الخط السليم فكان أن وصل الشيعة إلى وضع مذهبهم النهائى فى عهد إمامة جعفر الصادق .

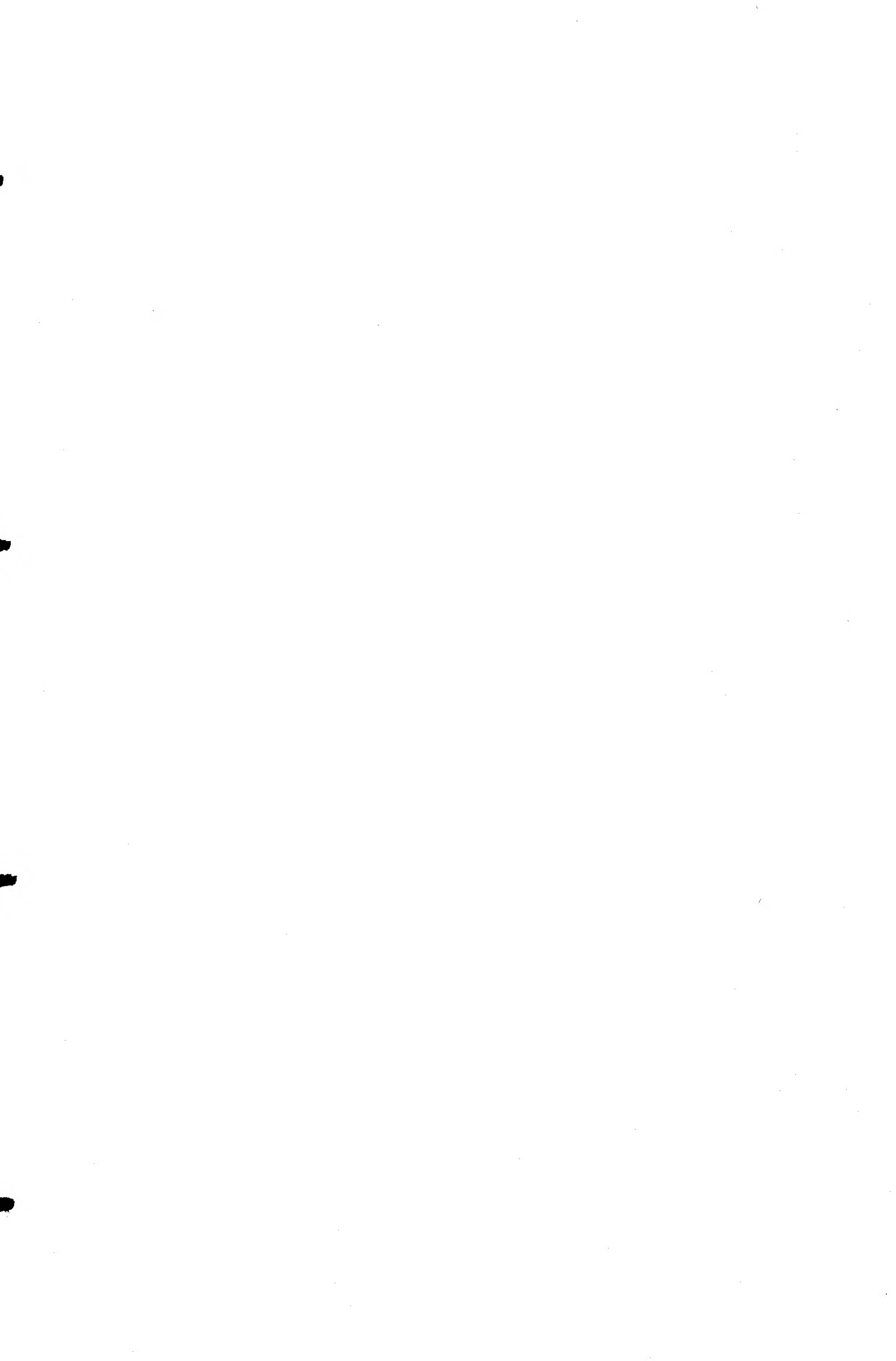
وتستمر مسيرة الإسلام فى القرون التالية وإن اعتورها المد والجزر وتستمر القوى المناهضة إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وما الحركات التى قامت متمسحة بالإسلام أو محاربة له كالدروز والحشاشين والبهائية والقاديانية والماسونية الحديثة والصهيونية والدعوات باسم التقدمية أو الرجعية . إلا أمثلة على هذا الخط الذى يسيره أهل الكتاب وخاصة اليهود بمكر وذكاء لتحطيم الكيان الإنسانى عن طريق تحطيم الإسلام ودعوته الإنسانية الرائعة ...

* * *

الباب الرّابع

أثــر أهل الكتاب
فى الدولة الإسلامية زمن الأمويين



الفصل الأول

أثر أهل الكتاب فى البناء الاجتماعى الإسلامى فى الدولة الأمويـــة

القرآن الكريم أساس المجتمع المسلم :

القرآن الكريم المرجع الأول للجماعة الإسلامية انبعثت الأمة الإسلامية من خلال نصوصه ، وامتازت هذه الجماعة بالبساطة بعيدة عن التعقيدات والجدل ، ولم يبدأ الجدل فى هذه النصوص إلا بعد المشكلات منذ مقتل عثمان رضى الله عنه ، ولما بدأت المباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة ، فانحرفت بتأويلات النصوص القرآنية .

لقد أقام الرسول ﷺ مجتمعا إسلاميا قويا مطبّقا ما أوحي إليه فنظم العبادات والمعاملات ونظم علاقة الفرد بربه وبمجتمعه وبنفسه مما أوجد الانسجام للفرد مع ذاته ومجتمعه وبيئته .

فالعبادات ذات جانب روحى وجانب اجتماعى – الصلاة والصوم والزكاة والحج ، فالصلاة فيها المساواة المطلقة – صفا واحدا وراء إمام واحد – تزيل الفوارق وتحقق التعارف والتعاون فهى تنظيم اجتماعى جميل يعمق مبدأ الجماعة والوحدة فى النفوس ، وهذا ما جعل الحسد يملأ قلوب أهل الكتاب فاندس بعضهم بين هذه الصفوف ليفرقها .

والزينة شرط من شروط الصلاة : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[1] دعوة حضارية اجتماعية .

---

(١) الأعراف الآية ٣١ .

والصوم : يربى الإحساس الاجتماعى فى نفسيّة المسلم ويهذب النفس .

والزكاة : من يدفعها لا يدفعها صدقة وإنما يدفعها واجبا ومن يتقاضاها لا يتلقاها إحسانا وإنما حقاً . وهذا منهج اجتماعى سليم . وتنظيم اجتماعى رائع ﴿ وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ [١] .

والحج : فيه اختلاط لأعضاء الأمة الواحدة واشتراك الحواس المتعددة فى معرفة أمور المسلمين ، وقد جعل عمر بن الخطاب منه مؤتمراً سياسياً يدعو فيه عماله فيجتمع بهم لوضع السياسة العامة للدولة .

والمرأة كرمها الإسلام ابنةً وأختا وأماً وزوجاً ورحماً وأشركها فى الأمور جميعها بما فيها السياسة كما ورد فى بيعة العقبة الأولى والثانية [٢] وأوجب الإسلام على من يتولى المسئولية أن ينصف الناس جميعا .

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [٣]
ولأن نص القرآن هو أصل هذه الجماعة وأساس المجتمع المسلم فقد حرص المسلمون ألّا يَدَعوا لأحد من أهل الكتاب ولغيرهم مجالا للتدخل فى نصه فجمعوه زمن أبى بكر الصديق بعد يوم اليمامة [٤] وقام عثمان بنسخ المصاحف بعد أن تفرق الصحابة فى البلدان واختلف الناس فى القراءات ووقف عبد الله بن مسعود موقف النكير لذلك ولكنه عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب الرسول ﷺ وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم [٥] ولكن دعاة الفتن فى الكوفة والعراق استغلوا موقفه الأول وأشاعوه على أنه رأى عبد الله بن مسعود وموقفه الدائم .

---

(١) الذاريات الآية ١٩ .
(٢) انظر السيرة – لابن هشام ج ٢ ص ٣٩ و ص ٤٧ . الطبرى ج ٢ ص ٣٥٣ و ص ٣٦٠ .
(٣) المائدة الآية ٨ .
(٤) انظر القرطبى ج ١ ص ٥٠ .
(٥) نفسه ص ٥٣ .

وأمر عبد الملك بن مروان بشكل المصحف ونقطه فتجرد لذلك الحجاج ابن يوسف بواسط وجدّ فيه [١] .

ولم يعرف الإسلام النظام الطبقى وتصنيف الناس إلى طبقات فقد حارب التّعالي الطّبقى وأعلن ذلك المبدأ فى مثل قوله ﷺ :

« كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وسار خلفاء الرسول ﷺ على منهجه فكانت الفتوحات الإسلامية وكانت الشعوب تتوقع أن ينهب العرب الزاحفون من الصحراء البلاد التى فتحوها ، ثم الانسحاب بغنائمهم على طريقة القبائل فى البادية والصحراء ولكن ما حدث كان نقيض ذلك تماماً . لأن الغزوات كانت فى سبيل نشر دين جديد أى فى سبيل إقامة نظام اجتماعى جديد أو بعبارة أخرى فى سبيل إقامة العالم الإسلامى وليس فى سبيل إقامة الحكم العربى [٢] . فوجدت دولة كبيرة فى الشرق الأدنى وفى حوض البحر المتوسط فريدة النوع تحررت فيها الشعوب من القيود القديمة من الجاهليات ، وطبق فيها النظام الإسلامى على أروع ما يكون التطبيق :

فكانت حركة الردة وحروبها قد أثرت فى صهر القبائل العربية فاختلطت فى السكن والتزاوج ، ونفذ عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – عملية الفداء وكانت ذات دلالة اجتماعية عميقة ، حشد فيه قوى الجماعة الإسلامية واستثار طاقاتها فى سبيل تثبيت دعائم نظامها بتوطيد الألفة وتحقيق الوحدة الاجتماعية ، فصفّى أحقاد الجاهلية والردة وأسدل الستار على الخلافات وجراحات الماضى .

وأثرت حركة الفتوح على العرب فى بناء مجتمع إسلامى قوى متكامل اختلطت القبائل فى الخروج للفتوح ، وبالتعاون والتزاوج واختلاط الدماء والأنساب وكان لذلك كله أثره البين فى المباعدة بين الانطلاق وبين الطابع القبلى فاختلطوا فى المدن المفتوحة وكان قول الرسول ﷺ :

---

(١) القرطبى ج ١ ص ٦٣ .
(٢) جون بادو – عبقرية الحضارة العربية ص ٤٣ .

« ليس منا من دعا إلى عصبيّة » قاعدة للمجتمع الجديد الذى قطع الصلة أو كاد بالحياة القبلية العربية السابقة . كما أدت إقامة العرب المسلمين فى المدن الإسلامية الجديدة فى الأمصار المفتوحة إلى الامتزاج بينهم وبين أهالى البلاد وأهل الذمة ، فقد تعاونوا جميعا فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ولم تكن عناصر الأمصار المفتوحة غريبة على المسلمين الفاتحين كما أن الفروق الدينية لم تقف حائلا فى سبيل تكوين مجتمع سرعان ما تكلم العربية واعتنق الإسلام [١] انطلاقا من عالمية الدين الإسلامى .

كل ذلك ساعد على تطوير المجتمع فى صدر الإسلام وكان من آثار ذلك أن تعقّدت الحياة الاجتماعية وتحيّرت نوعاً ما بالجمع بين الأضداد ، فهنا تقوى وزهد وانصراف من الدنيا وشهواتها وهناك إلحاد ومجون وإقبال على الدنيا وملذاتها يساعد على كل ذلك البحبوحة المادية الناتجة من كثرة الأسلاب والغنائم وكثرة النساء الأجنبيات اللاتى اندمجن فى المجتمع الجديد فحملن إليه ألواناً من اللهو [٢] فاشتد عمر بن الخطاب فى تنفيذ الحدود فضرب فى الخمر ثمانين سوطاً [٣] وغرّب ربيعة بن أمية إلى خيبر [٤] فلحق بهرقل وتنصر ومات [٥] فى أرض الروم ، ونفى نصر بن حجاج لجماله وفتنته للنساء إلى البصرة دون أن يسىء إليه بل أقطعه فيها داراً ومالا فكان راضياً وأبلى بلاء حسناً فى الإسلام [٦] ولما حاول أهل الكتاب التسلل إلى البيت المسلم عن طريق الزواج بالكتابيات طلب عمر من حذيفة بن اليمان بعد أن كثرت المسلمات أن يطلق الكتابية فطلّقها ، وكان المهاجرون

---

(١) الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ١١٧ .
(٢) الرافعى – الحضارة العربية ص ٤٦ .
(٣) الأنساب ج ٩ ورقة ٥٦٥ . الاستيعاب ق ٤ ص ١٦٢٣ . الكامل ج ٢ ص ٣٩٨ . صحيح البخارى ج ٨ ص ١٩٧ .
(٤) ابن سعد . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٠٢ .
(٥) الأنساب ج ٩ ورقة ٥٦١ .
(٦) المقريزى – المقفى ج ٤ ورقة ٢١٣ مجلد ٣ .

والأنصار قد تزوجوا فى أهل السواد (يعنى فى أهل الكتاب منهم) (١) .

وكان الزواج بالكتابيات زمن الرسول ﷺ فقد تزوج عبد الرحمن بن عوف إبنة الأصبغ بن عمرو الكلبى (تماضر) وقدم بها إلى المدينة بأمر رسول الله بعد أن أسلم أبوها وأسلمت هى بالطبع ، كما تزوج عبد الرحمن بن أبى بكر ليلى ابنة الجودى التى عشقها وقال فيها شعراً ، ولكنها أسلمت كما أسلم أبوها (٢) فكان حذر عمر أن لا يبقي الكتابية على عصمة الأنصار والمهاجرين ما دام هناك مسلمات أو من هنّ على استعداد للإسلام . وفى العهد الأموى تسلل أهل الكتاب إلى المجتمع المسلم عن طريق النساء بالزواج والتسرى :

وكان **التسرى** أهم الوسائل للتسلل ، وكان التسرى شائعا عند الروم قديما والسرية أحط منزلة من الزوجة وإن كانت علاقة الرجل بها شرعية ، وجاء الإسلام والعرب يزاولون التسرى فأباحه ولكنه منع بيع الأمة التى تلد لسيدها فتصبح أم ولد . وقد كثرت السبايا (٣) . وانتشرت فى البلدان الإسلامية لكثرة الفتوحات ولكثرة الأموال فأغرق السبى الشام والحجاز وكان فى معظمه من أهل الكتاب فدخلن البيت المسلم وتسلل أهل الكتاب عن طريقهن بهدف تقويض البيت المسلم . وكان قد أدرك تقاة المسلمين مغبة ذلك فلما غزا معاوية قبرص بكى أبو الدرداء . فلما سئل أتبكى فى يوم عز الإسلام ؟ قال ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره بينا هى أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك إذ تركوا أمر الله فصاروا

---

(١) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٦٤ .

وحذيفة بن اليمان هو من نجباء أصحاب محمد ﷺ وصاحب سره . ولاه عمر بن الخطاب المدائن فبقى عليها إلى بعد مقتل عثمان (الطبقات ج ٧ ص ٣١٧) .

وكان النبى ﷺ قد أسر إليه أسماء المنافقين وضبط عنه الفتن الكائنة فى الأمة (انظر البخارى ١٣/٤٠ ، ٤٢ فى الفتن ، ومسلم ١٤٤ والترمذى ٢٢٥٩) .

(٢) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٩٣ . فتوح البلدان ص ٧٤ .

(٣) والسبى كما جاء فى القاموس المحيط . النساء لأنهن يسبين القلوب أو يسبين فيملكن ولا يقال ذلك للرجال . د . محمد الطيب النجار – الموالى ص ١٢ . وانظر لسان العرب ج ١٤ ص ٣٦٨ .

إلى ما نرى فسلط عليهم السباء وإذا سلط السباء على قوم فليس لله فيهم حاجة (١) .

وبالاختلاط بالأمم السابقة بدأ التقليد فى حياة القصور وما صاحبها من طبقات المحظيات والخدم فسعوا وراء الجوارى والتمسوا فيهن الأدب وفنون الغناء والموسيقى وبدأت ترتفع أثمانهن مما دعى النخاسين إلى الإقبال على تعليمهن وإتاحة الفرص لنبوغهن فى الآداب والفنون والغناء والموسيقى ، ومن الجوارى الشهيرات زمن الأمويين برزت :

سلامة المتخرجة على معبد فى الغناء والمقدمة لديه على سواها من مولدات المدينة (٢) .

وحبابة : التى أخذت أصواتها على ابن سريج وهى من مولدات المدينة وشغف بها يزيد بن عبد الملك (٣) .

وجميلة الخزرجية : مولاة بنى سليم من مكة التى جمعت مع جمالها ورزانتها أرفع طبقات الغناء ورخامة الصوت (٤) .

وبانتشار الجوارى تمكن ضعاف النفوس افتعال قصص نسجها خيال مجان أهل الكتاب مثل قصة وضاح اليمن وتعلقه بأم البنين زوجة عبد الملك (٥) . وهى قصة ليس لها نصيب من الصحّة .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٦٢ ، وأبو الدرداء ، عمر بن عامر الخزرجى صحابى مشهور وقاضى دمشق وسيد قرائها زمن عثمان . وكان عمر قد أرسله مع معاذ وعبادة لتعليم أهل الشام وتفقيههم (الطبقات ج ٢ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧) وتوفى سنة ٣٢ هـ . (ابن سعد ج ٧ ص ٣٩٣) .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٩٧٠ .

(٣) نفسه ج ٤ ص ١٥٨١ .

(٤) نفسه ج ٣ ص ٨٣٥ .

(٥) انظر القصة : الأنساب ج ٧ ورقة ١١٥ — ١١٦ .

واستغل بعض المجان فرصة الحج من الجنسين فيروى أبو حازم المدينى : « بينا أنا أرمى الجمار رأيت امرأة سافرة من أحسن الناس وجها ترمى الجمار ، فقلت لها يا أمة الله أما تتقين الله ؟ تسفرين فى هذا الموضع فتفتنين الناس : قالت : أنا والله يا شيخ من اللواتى قال فيهن الشاعر :

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا [١]

وأما عمر بن أبى ربيعة فيقول :

يقصد الناس للطواف احتسابا وذنوبى مجموعة فى الطواف [٢]

على أن كل هذه الوسائل لم تؤثر فى المجتمع العربى المسلم بل مسته مساً خفيفا **فبقيت النساء المسلمات على درجة عالية من الفضيلة .**

فقد كتبت أم البنين للحجاج حينما نصح ابنها بالعدول عن الركون للنساء فقالت : « وعلى هذا فإن نساء أمير المؤمنين قد نفضن العطر من غدائرهنّ والحليّ من أيديهن وأرجلهن فبعثنه فى أعطيته أوليائه » [٣] وزوجة عمر بن عبد العزيز . أمرها معروف مشهور فقد أعيدت حليها إلى بيت المال حتى ثوبها [٤] .

كما أن الخلفاء الأمويين والأمراء كانوا فى الإجمال منصرفين عن اللهو أو معتدلين فيه الأمر الذى ساعد المجتمع المسلم على السلامة من أدران الفساد جهد الإمكان فحفظ عليه أخلاقه الفطرية الفاضلة . فقد تورع بعض الخلفاء – حتى عن الغناء – لما سمع سليمان مغنّياً حسن الصوت أرسل إليه فعاقبه ، وأمر بخصي

---

(١) عيون الأخبار – كتاب النساء ج ١٠ ص ٢٩ .
(٢) الأنساب ج ٧ ورقة ١٣٠ .
(٣) نفسه ورقة ١٢٠ .
(٤) نفسه ورقة ١٥٢ . الطبقات لابن سعد ج ٥ ص ٢٩٠ .

المخنّثين فى المدينة الذين تعاطوا الغناء[١] ولما كتب هشام لإحضار أشعب المضحك ندم وتراجع .

وليس فى الخلفاء من ركن إلى اللهو غير يزيد بن عبد الملك والوليد وهما خليعا بني أمية ويزيد هو صاحب سلامة وحبابة ولهج بالغناء والشراب والصيد بتأثير نديمه النصرانى القاسم بن طفيل من الحيرة . كما نقل عن النصارى استعمال الشمع فاتخذ له الشمع الطوال فيه ستة أرطال أو أكثر ليستعمله فى مجالسه[٢] وقد أثر على سوء تربيته إشراف عبد الصمد بن الأعلى النصرانى على تأديبه ، بالإضافة إلى علاقته بالجوارى ، وقد حمله عبد الصمد على شرب الخمر والاستخفاف واتخاذ الندماء ، ونسب عبد الصمد إلى الوليد بن يزيد ابن عبد الملك كثيرًا من أبيات الشعر ليزيد شقة الخلاف بين البيت الأموى فهو القائل على لسان الوليد :

يا أيها الباحث عن ديننا نحن على دين أبى شاكر
نشربها صرفا وممزوجة بالسخن أحيانا وبالفاتر[٣]

وأبو شاكر هو ابن هشام الذى ألزمه والده الأدب وحضور الصلوات والجماعات[٤] وقد أساء عبد الصمد لسعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى فشكاه إلى هشام فاستقدمه من عند الوليد واقتص منه[٥] .

وتأثر الوليد بمخالطة الجوارى فانحرف وشذ فقد قالت عنه إحداهنّ : « والله لقد نالنا تعافه البهائم »[٦] .

---

(١) الأنساب ج ٤ ص ١٩ .
(٢) الأنساب ج ٨ ورقة ٣١٠ .
(٣) انظر الأنساب ج ٨ ورقة ٣٠٩ – ٣١٥ . الطبرى ج ٧ ص ٢٣٢ عن صفات الوليد .
(٤) الأنساب ج ٨ ورقة ٣١٠ .
(٥) نفسه ورقة ٣١٢ .
(٦) نفسه ج ٨ ورقة ٣٢٥ .

هذا وقد أخذت الأخبار الغرامية تتسلّل إلى المجتمع فوضعت قصص عمر ابن أبى ربيعة الغرامية (١) وأكثرها من صنع الخيال ولكنها تدلنا على تسلل المرأة الخليعة إلى المجتمع المسلم بقصد انحرافه .

أما الزواج بالكتابيات زمن الأمويين فقد ازداد وأفادت هذه الظاهرة فى تحقيق شيء من التجانس والتماثل بين جماعات أهل الكتاب والمسلمين . وفى زمن الراشدين تزوج سعيد بن العاص هند بنت الفرافصة النصرانى الكلبى ، وتزوج عثمان أختها نائلة (٢) فكان دور كلب القبيلة النصرانية فى المؤامرة الرهيبة التى ألمّت بالمسلمين والانشقاق بين على ومعاوية ، وقد حاول معاوية بدوره أن يؤكد اتصاله بقبيلة كلب فخطب نائلة فرفضت (٣) ليتزوج ميسون بنت بحدل من هذه القبيلة النصرانية .

وكانت والدة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى نصرانية سباها والده ومعها ستمائة من الحبش وهو عامل لعثمان ، فطلبت منه :

عتق الضعفاء وأن لا يمسّها إلى أن يصير إلى بلده وأن يقرها على دينها . فأجابها إلى ذلك (٤) . ولما ماتت شهدها مع الحارث الناس فكانوا ناحية وجاء أهل دينها فولوها وشهدها من المسلمين جماعة كثيرة وكانوا على حدة (٥) .

وتزوج عبد العزيز بن موسى أرملة لوذريق (٦) كما كانت والدة خالد القسرى نصرانية رومية الجنس (٧) حاول أن يدعوها للإسلام ليكون ذلك أقوى على برها فكتبت إليه : « ودينى لى ودينك لك وأمّا برّي فلعمرى إنك قادر عليه حيثما

---

(١) انظر الأغانى ج ١ ص ٣٥ - ٩٣ .
(٢) الأنساب ج ٣ ص ٢٥٩ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٦١ .
(٤) نفسه ج ٩ ورقة ٥٣٢ .
(٥) الطبقات ج ٥ ص ١٩ / الأنساب ج ٩ ورقة ٥٣٢ .
(٦) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٢ .
(٧) الفطاركة ص ٦٦ .

كنت » . فأرسل لها مالًا اتخذت به بيعة بالشام دعيت بيعة أم خالد[١] ، ولما قدمت الكوفة بنى لها كنيسة [٢] .

ولم ينظر أهل الكتاب لهذا النوع من الزواج نظر استهجان بل اعتبروه وسيلة للتسلل إلى المجتمع المسلم بقصد تقويضه حتى أن أزيدور الأندلسى الذى شدد النكير على الفاتحين المسلمين قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة لوذريق دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر هذا الفعل [٣] .

معاملة المسلمين لأهل الذمة :

وبمقدار ما أفادت معاملة المسلمين الحسنة لأهل الذمة فى إقبال الكثير منهم على الإسلام عن يقين وإيمان تمكن بعض من تظاهر منهم بالإسلام ومن بقى على دينه من التسلل إلى المجتمع . فقد تقيّد الخلفاء الأمويون إجمالا بالقرآن والسنة وهما يحرمان ظلم الذّمي ولا يجوز التعدى عليه ما لم ينقض عهداً مقابل دفع الجزية التى كان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ولا يدفعها ذوو العاهات ومن لم يكن لهم يسار .

فاليهود : اعترف المسلمون بكيانهم الدينى وبالإجزيلارك أو رأس الجالوت فى كل من بابل وأرمينيا والتركستان وفارس واليمن رئيساً لجميع اليهود فيها [٤] فكان رأس الجالوت هذا يدير شئونهم وفقاً للعادات الخاصة بهم فى الأمور المدنية والجنائية فيما لا يمس المسلمين [٥] ، وكان البستانى أول رأس جالوت [٦] تولى

---

(١) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٨٠ . من غير إسناد : « قال بعضهم » .

(٢) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٨٠ .

(٣) أرنولد ص ١٦٠ .

(٤) ديورانت ج ٣ من المجلد ١٣ ص ٦٢ .

(٥) ديمومين – النظم الإسلامية . بنيامين التطيلى ص ١٧٢ .

(٦) يوسف رزق الله نزهة المشتاق ص ١٠١ . الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ٢١١ .

شئون اليهود فى العهد الإسلامى وبقى هذا المنصب فى أعقابه يتوارثونه لمدة طويلة . وقد استغل اليهود هذه السماحة فادعوا أن الإجزيلارك يرجع بنسبه إلى داود عليه السلام [١] .

والنصارى : أبقى لهم المسلمون كنائسهم ورؤساءهم ومدارسهم وأزالوا عنهم الخوف والاضطهاد الذى وقع عليهم من بعضهم البعض لاختلاف مذاهبهم النسطورية والملكانية واليعقوبية ، فمارسوا عباداتهم بأمان واطمئنان وتركت لهم تنظيم جماعاتهم داخلياً وكان البطريرك الذى يعين بالانتخاب يقوم بإدارة شئونهم المدنية ، ولم يثبت أن أحد الولاة المسلمين تدخّل فى تعيين أو انتخاب أحد البطارقة إلا إذا طلب النصارى منه ذلك . فكان أهل الكتاب على ذلك هيئات شبه مستقلّة داخل كيان الدولة الإسلامية .

ويعلق على ذلك لوبون فيقول : (إن سماح الدولة الإسلامية بأن تقوم فى صميم كيانها هيئات شبه مستقلة مكونة من أقوام يحتمل عداؤهم يعدّ على التحقيق نقطة ضعف خطرة عليها . وقد حدث هذا بينما لم تسمح بيزنطية بقيام أية منظمة إسلامية فى بلادها) [٢] .

وقبل أن نتكلم عن نماذج من المعاملة الحسنة التى حظى بها أهل الكتاب فى ظل الحكم الإسلامى نطرق قضيتين اعتبرهما المستشرقون مظاهر اضطهاد أهل الذمة ، وهما قضية الغيار والختم :

فالغيار : هو تحديد شكل ولون الثياب . وقد أمر الخلفاء أن يلبس أهل الذمة ثيابا مخالفة للمسلمين حتى يعرفوا وكان سبب ذلك :

أن سعد بن أبى وقاص استخلف خالد بن عرفطة على الكوفة فجاءت إليه امرأة أسلمت وزوجها على النصرانية فذكرت له أن زوجها يضربها على أن تعود إلى

---

(١) ديورانت ج ٣ من المجلد ١٣ ص ٤٢ .

(٢) لوبون ص ٢٣٢ .

النصرانية وأقامت على ذلك بيّنة ، فضربه خالد وحلقه وفرق بينها وبينه ، فأتى النصرانى عمر بن الخطاب فشكا خالدا ، فأشخصه عمر ، فأخبره أنه نصرانى ، وقص عليه قصته ، فأقره على حكمه وكتب إلى أهل الأمصار : « أن تجزّ نواصيهم وأن لا يلبسوا ألبسة المسلمين حتى يعرفوا » [١] .

فكان الغرض من الغيار سهولة التمييز لكل من الفريقين بثيابه الخاصة وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو إلزام [٢] ، فهو نوع من التحديد للملابس فى نطاق الحياة الاجتماعية للتمييز بين أصحاب الأديان المختلفة ، للمسلمين ملابسهم وللنصارى أو اليهود أو المجوس ملابسهم ، وقد علق على ذلك محمد حميد الله فذكر أن ذلك لم يعمل لإذلالهم بل لمصلحتهم فإن عقدة النقص عند الإنسان المحكوم تحمله على تقليد الملوك وأهل السيادة تقليدا أعمى فى اللباس والزينة وغير ذلك ، فإذا ألزم بعض الخلفاء بارتداء أزيائهم ومنعهم من تقليد المسلمين فى الزينة الشخصية فقد أعانهم من حيث يريد أو لا يريد على حفظ كيانهم وصيانة ثقافتهم فى البيئة الإسلامية [٣] .

والثابت أن أهل الذمة لم يلزموا الملابس المتميزة أو الغيار فى أيام النبى ﷺ [٤] ، ومن البديهى أيضا أن المسلمين فى بداية عصر الفتوح الإسلامية كانوا يتميزون بملابسهم عن أهل البلاد التى فتحوها ، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة لفرض القيود الخاصة بالملابس على غير المسلمين ، إلا أنه بمضيّ الوقت برزت الحاجة للتميز بعد أن أخذ أهل الكتاب يحاكون المسلمين باللباس ، فطبق بعض الخلفاء هذه القيود .

---

(١) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٥٢ . ابن الجوزية – أحكام أهل الذمة ص ٢٣٦ خطط المقريزى ج ٢ ص ٧٦ . ابن عبد الحكم ص ١٥١ .

(٢) ترتون ص ١٢٢ .

(٣) محمد عبد الله – مقدمة كتاب أحكام أهل الذمة ص ٩٥ .

(٤) ابن قيم – أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

وأما **قضيّة الختم** فقد وردت فى عهد الحجاج بن يوسف والى العراقين [(١)] فقط ، والحجاج كان شديدا على المسلمين وأهل الذمة بل كان أرأف على أهل الذمة منه على المسلمين ، والختم كعادة يعود إلى زمن الأشوريين الذين كانوا يعلّقون فى رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوب عليها اسم العبد واسم سيده ، وكان اليهود فى عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب [(٢)] وفى زمن الحجاج كانت وسيلة لمعرفة وتمييز من أدى الضريبة ومن لم يؤدها ومازالت بعض الدول فى أفريقيا وآسيا فى القرن العشرين تتبع هذه العادة فى الانتخابات فيقومون بختم أيدى الناخبين بنوع من الأختام لا تزول إلا بعد يومين أو أكثر حتى لا يعطى الناخب صوته أكثر من مرة [(٣)] .

والصورة الدائمة لمعاملة المسلمين لأهل الذمة فى كل عصورهم حسنة فقد سكن اليهود طرابلس بعد أن استولى عليها معاوية [(٤)] كما سكنوا الحيرة والكوفة وحازوا فيها الثراء ونزل منهم عدد كبير فى أيلة زعموا أن عندهم برد النبى ﷺ وأنه بعثه إليهم أماناً وكانوا يخرجونه رداءً عدنياً ملفوفاً فى الثياب أبرز منه قدر شبر فقط [(٥)] . كما تمتعوا فى الأندلس بالتسامح بعد الاضطهاد الذى عانوه من القوط فاشتغلوا بالعلوم والآداب والطب والفلسفة [(٦)] ، وأسكنهم المسلمون مع بعض المسلمين فى الأماكن الخالية من طليطلة وإشبيلية [(٧)] .

وأما النصارى : فقد حال المسلمون بينهم وبين اضطهادهم بعضهم لبعض

---

(١) اليعقوبى - تاريخ ج ٢ ص ١٣٠ .
(٢) متز الحضارة ج ١ ص ٨١ .
(٣) الخربوطلى - الإسلام وأهل الذمة ص ٧٢ .
(٤) الخربوطلى - العلاقات ص ١٠٢ .
(٥) رزق الله - نزهة المشتاق ص ١٠٣ .
(٦) ترتون ص ٩٨ . الخربوطلى - الإسلام وأهل الذمة ص ٧٧ .
(٧) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٥٦٤ . نفح الطيب ج ١ ص ١٧٠ .

ففى **مصر** عومل المصريون على أساس أن بلادهم فتحت صلحا ، وقد خير الروم بين الالتزام بشروط المعاهدات أو الخروج إلى أرض الروم (١) .

وغلب اليعقوبيون وخاصة زمن البطرك حنانيا سنة ٣٩ هـ وأقاموا بجميع كراسيهم أساقفة يعاقبة كما أرسلوا أساقفتهم إلى النوبة والحبشة (٢) إذ كانت الكنيسة القبطية هى الكنيسة الأم لكنائس فلسطين والنوبة والحبشة . وسلبوا الأرثوذكس كنائسهم ، فأعادها المسلمون بعد أن دلل الأرثوزكس على ملكيتهم لها (٣) من أيدى اليعاقبة . وبمرسوم من يزيد بن معاوية شغل ثيودورس الملكانى المذهب منصباً رفيعاً فى الاسكندرية ومريوط وما يلحق بهما فاضطهد الأقباط لنقمته على البطرك القبطى أنبا أغاثوا فكاده وأجبره على دفع الضرائب المعفى منها . وكان يقول لأتباعه محرضاً : (إذا رأيتم بابا الأرثوذكس خارجاً ليلًا أو نهاراً فارجموه بالحجارة واقتلوه وأنا أجاوب عنكم) ، ولما مات أغاثوا عمد ثيودورس إلى ضم البطركية حتى عجز أهلها عن الحصول على الخبز يومذاك فتدخل عبد العزيز ابن مروان وأمر بفتحها (٤) .

وسمح المسلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة والاحتفال بأعيادهم فبنيت عدة كنائس بمساعدة أولى الأمر أحياناً (٥) . فبنيت كنيسة مار مرقص بالاسكندرية بين عامى ٣٩ – ٥٦ هـ (٦) . وعمرت كنيسة ابن مقار (٧) . كما بنيت كنيسة بالفسطاط فى ولاية مسلمة بن مخلد على مصر (٨) .

---

(١) انظر ابن عبد الحكم ص ٧٠ – ٨٥ . فتوح البلدان ص ٢١٤ ، ٢١٥ ابن البطريق ص ٢٢ – ٢٤ . الخطط للمقريزى ج ١ ص ٧٧ .

(٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) ارنولد ص ٨٨ . ابن البطريق ص ٤٥ – ٤٦ .

(٤) ساويرس – الفطاركة ص ١١٦ .

(٥) خطط المقريزى ج ١ ص ٢٦٢ .

(٦) نفسه ج ٢ ص ٤٩٢ .

(٧) ساويرس الفطاركة ص ٦ .

(٨) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣١٤ . ابن عبد الحكم ص ١٣٢ ابن البطريق ج ٢ ص ٤١ .

ولما أنشأ عبد العزيز مدينة حلوان سمح ببناء كنيسة فيها وقفت على القديس يوحنا مع أن هذه المدينة من المدن التى أسسها المسلمون [١] وسمح عبد العزيز لبعض الأساقفة ببناء ديرين ، ولكاتبه النصرانى اثناسيوس ببناء كنيسة مارجرجس وكنيسة « أبو قير » فى قصر الشمع [٢] وبنيت كنيسة يعقوبية بإذن الوليد سنة ٩٢ هـ - ٧١١ م [٣] وازدهرت كنيسة الاسكندرية وازدادت أهميتها زمن البطرك ثيودور (٩٠ - ١٢٠ هـ) حتى عادت إلى حالها وسيرتها الأولى إن لم تزد عما كانت عليه من قبل الحكم الإسلامى [٤] .

وحاول ساويرس تشويه المعاملة الحسنة التى عامل بها المسلمون أهل الذمة فى مصر بالخلط بين ذلك والحركات المناهضة التى كان يقوم بها الذميون ، فيذكر مثلًا : أن عمرو بن العاص عندما احتل الاسكندرية هدم أسوارها وأحرق المسلمون بيعاً كثيرة بالنار [٥] وأن عبد العزيز أمر بكسر الصلبان [٦] إلا أنه يعود لتفصيل علاقة عبد العزيز بالكتبة النصارى وبالمتعبد بوادى هبيب (أبى نفار) [٧] يدلل بذلك على حسن معاملة أهل الذمة فى مصر .

وفى **الشام** : حافظ المسلمون على كنائس النصارى وأموالهم وأنفسهم فرمّم معاوية كنيسة الرها الكبرى سنة ٦٠ هـ بعد أن هدمها الزلزال [٨] وزاد استخدامهم فى الدواوين فكان لهم أثر كبير فى الإدارة . وبنى اثناسيوس الثرى

---

(١) أرنولد - الدعوة - ص ٨٥ . ساويرس ص ٢٤ .

(٢) الخربوطلى - الإسلام وأهل الذمة ص ٣٩ . ترتون ص ٤٥ .

(٣) أرنولد - الدعوة ص ٨٥ .

(٤) انظر ساويرس ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٥) ساويرس ص ١٠٨ .

(٦) نفسه ص ١٧١ .

(٧) نفسه ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٨) ساويرس ص ١٥٠ . ترتون ص ٨٢ . حتى ج ١ ص ٢٥٨ . فلهوزن ١/٥ P : 110 .

النصرانى كنيسة أخرى فى الرها زمن عبد الملك بن مروان [١] .

وكان الأخطل الشاعر النصرانى التغلبى الحيرى صديق القديس يوحنا الدمشقى يدخل على الخليفة عبد الملك والصليب مدلى من عنقه ، وسيرد ذكره كثيراً فقد لعب دوراً بارزاً فى تحويل الصراع فى دار الإسلام إلى صراع قبلىّ استفاد منه أهل الكتاب فى توهين المسلمين ، كما كان نابغة بنى شيبان النصرانى صديقا لعبد الملك وانقطع إليه ومدحه [٢] . كما استعان عبد الملك بأهل الكتاب فيما لا يضرّ مصلحة الدولة فعندما حدث سيل الجحاف والجراف الذى ذهب بالحجاج وأمتعتهم وأحاط بالكعبة أرسل رجلًا نصرانياً ردم الردم الذى يعرف بردم بنى قراد .

ونهج الوليد بن عبد الملك منهج أبيه فى معاملة النصارى واليهود بالحسنى فكان يجالسهم ويجالس رأس الجالوت ، وأخذ أهل الكتاب من خلال هذه الجلسات يسربون فكرة ظهور ملك من آل داود . وهى الفكرة التى كان المسلمون المستنيرون وبضمنهم الوليد يتخذونها مجالا للتندر [٣] . وكان الأعشى التغلبى النصرانى صديقا للوليد كما كان نديماً للحرّ بن يوسف الذى وَلى مصر فيما بعد [٤] .

وفى زمن الوليد بنى الجامع الأموى العظيم ، وكان فى الأصل معبداً وثنياً أخذه النصارى فصيّروه كنيسة دعوها كنيسة ماريحنا [٥] فلما كان الفتح الإسلامى وقع قسمه الشرقى فى الجهة التى دخلها خالد عنوة فحوله المسلمون إلى مسجد وبقى الجانب الغربى كنيسة ، وبقي الأمر على هذا الوضع من سنة

---

(١) محمد كرد على – الإدارة ص ٧٨ .
(٢) فتوح البلدان ص ٦٥ .
(٣) انظر الأنساب ج ٧ ورقة ١١٧ .
(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٨ .
(٥) ابن عساكر ج ٢ ص ٢٣ .

١٤ هـ إلى ٨٦ هـ [١] . فأراد الوليد أن يأخذ بقية الكنيسة من النصارى ولكنه كان مقيداً بقيد القرآن والسنة وهما يحرمان ظلم الذمى فلم يستطع أن يصدر أمره بأخذ الكنيسة قسرا وعرض غليهم أن يعطوه بقية الكنيسة مقابل أربعة كنائس بديلًا عنها . وقالوا : (إننا نتمسك بالعهد الذى كان بيننا وبينكم) ، ولمّا أفهمهم أنها تقع ضمن الحدود التى دخلها المسملون عنوة وافقوا [٢] فأضافها إلى مسجد الصحابة .

ولما أراد المسلمون هدم الكنيسة أوهمهم النصارى أن من يهدمها يجن فبدأ الوليد نفسه بعملية الهدم قائلا : (إننى أول من يجن فى سبيل الله) .

واحتاج الوليد كثيرا من الصناع فأرسل إلى ملك الروم أن يبعث له ما يريد لبناء المسجد وهدده إن لم يفعل يغزو بلاده ويخرب كل كنيسة فى دمشق والرها وبيت المقدس وسائر آثار الروم [٣] فأرسل له ما أراد وجهز لذلك طاقات الدولة الإسلامية الفتيّة واستمر البناء تسع سنوات فخرج آية من الروعة وبإقرار من المستشرقين العارفين بالآثار كما قال الدكتور صلاح المنجد : إن تخطيط المسجد وهندسته شيء مبتكر لا يشبه هندسة الكنائس البيزنطية وأنه يخرج عن طريقة العمارة السورية النصرانية المتوارثة[٤] .

وقد حاول المؤرخون الغربيون الربط بين بناء المسجد الأموى وبناء الصخرة المشرفة زمن عبد الملك فذكروا أن قضية بناء المسجد كانت من أجل تحويل

---

(١) وقد شك البعض فى خبر قسمة الكنيسة فاعتبرها أرنولد أسطورة (الدعوة إلى الإسلام ص ٨٣) وانظر رأى ترتون فى هذه المسألة ص ٤٣ ، ٤٤ ولكن الخبر فى ابن عساكر مسند إلى أبي يعلى قاضى دمشق وهو من مؤرخى القرن الثالث للهجرة وثقة فيكون الخبر قريبا إلى الصحة . انظر ابن عساكر ج ٢ ص ١١ ، ١٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ١١٥ . ابن خلدون ج ٢ ص ٤٧٠ . الطبرى ج ٦ . ابن عساكر ج ٢ ص ٢٤ .

(٣) ابن عساكر ج ٢ ص ٢٣ . فتوح البلدان ص ١٣٢ .

(٤) الطنطاوى ص ٤٤ .

المسلمين عن مكة والمدينة إلى القدس والشام – وهذه مغالطة ووهم لا يقع فيه إلا الحاقد على الإسلام والمسلمين ، وقد رد المستشرق (جب) عليهم ووصف تلك الفكرة بحق بأنها فكرة خياليّة وإن كان المؤرخون الغربيون لا يزالون يرددونها ، ومما يدل على كذبها وسخافة نسجها أن مسجد المدينة كان أحد المساجد الثلاثة الكبرى التى شيدها الأمويون أو أعادوا بناءها [١] .

وفى العراق والمشرق :

نعم النساطرة فى ظل الخلفاء المسلمين ونهضت كنيستهم فأرسلت البعوث الدينية إلى الصين والهند [٢] ، وقد عين المسلمون مطران جنديسابور إيشوعيهب فطركاً . ويقال إنه عاون المسلمين أثناء فتح الموصل وإن على بن أبى طالب كتب له كتابا بالوصاة على النصارى ورعاية ذمتهم فكان يظهره لكل من يتولى من الرؤساء المسلمين فيمتثلونه [٣] .

ووقف المسلمون موقف الحكم فى منازعات النصارى على فطركة المشرق ، ومن قبيل ذلك : التنافس على فطركة المدائن :

فقد تقرب يوحنا الأبرص إلى عبد الملك سنة ٦٧ هـ مدعيا أن (حنانيشوع) بطرك المدائن كان عميلا للمختار ومصعب (لأنهم نصبوه) وبذل الأموال لبشر بن مروان ، فعين عبد الملك يوحنا الأبرص فطركا وترك حنانيشوع ليموت فى مغارة فأنقذه تلميذان له فأساء يوحنا السيرة ومد يده إلى آلات البيع وباع ورهن وأساء إلى من عينهم حنانيشوع وطرد بعضهم ، واستعان بسرجون كاتب عبد الملك للطعن بحنانيشوع بحضرة عبد الملك ، كما حاول أن يسمم حنانيشوع بمساعدة مردان شاه المتطبب [٤] ، فأدرك الحجاج ألاعيبه فحبسه

---

(١) جب الحضارة ص ٦٦ . انظر الأنس الجليل ج ١ ص ٢٧٢ .
(٢) أرنولد – الدعوة ص ٨٧ . الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ١٣٩ .
(٣) الفطاركة ص ٦٢ .
(٤) نفسه ص ٦٣ .

وجماعة من الأساقفة ثم هرب إلى قرية من سواد الكوفة وتوفى فيها [١] .

ورفض حنانيشوع العودة إلى المدائن وفضل البقاء بطركاً فى نصيبين والموصل وباجرمى وسائر البلاد سوى أعمال الحجاج ، فبقيت بيعة المدائن عشرين سنة بلا جاثليق [٢] .

وأحسن عبد الملك لمردان شاه بسبب معاونته لأخيه محمد بن مروان على أخذ نصيبين فقلّده إياها ، ولكنه أساء السيرة فقبض عليه عبد الملك وقبض أمواله [٣] .

وبالرغم من محاولة الخلفاء أن يحذروا أهل الكتاب فتخلّصوا من بعضهم فى الأعمال الإدارية فقد استمروا فى معاملة أهل الكتاب بالحسنى فاتخذ سليمان بن عبد الملك لنفسه كاتبا نصرانيا من أهل فلسطين فاستعمله ناظراً على مبانيه فى الرملة ومراقباً القنوات والآبار والمسجد القائم بها [٤] .

وأما عمر بن عبد العزيز النموذج الرائع للحاكم المسلم التقى الورع فقد امتاز بالتسامح مع أهل الذمة ، فتناوله جولد تسيهر بالنقد اللاذع واعتبر عدله من الجهل بالأمور السياسية ساعد على سقوط بيته وشايعه فى ذلك كثير من المؤرخين العرب والمستشرقين [٥] وتناسوا النتائج الباهرة التى حصل عليها المسلمون ودولتهم فى زمنه ، وعظمتها زمن هشام بن عبد الملك من بعده الذى امتد عشرين سنة والدولة شامخة قوية .

هذا وقد نفى بارتولد عن عمر منعه النصارى من بناء كنائس جديدة

---

(١) الفطاركة ص ٦٤ .

(٢) نفسه ص ٦٥ . ساويرس (يوحنا السينادى) ص ١٢٠ .

(٣) نفسه ص ١٢١ .

(٤) الجهشيارى ص ٤٨ .

(٥) العقيدة والشريعة ص ٥٧ . انظر عمر فروخ الذى يعتبره وبالا على ملك بنى أمية . تاريخ الفكر العربى ص ١٩٧ وهو نفس رأى فان فلوتن السيادة العربية ص ٦٠ .

وإصلاح القديمة [١] وكان أمره لعماله ألا يحمل أهل الذمة فوق طاقاتهم فقال لأحدهم :

« وتألف أهل الأرض فإن أرضهم وبلادهم أحب إليهم من الجلاء إذا عدلت بهم ورفقت بهم » [٢] . وعوض النصارى عن كنيسة القديس توما فى الغوطة على الرغم من أنها حولت إلى جامع منذ الفتح بخلاف ما نصت عليه شروط الاستسلام ، كما خفف الجزية عنهم فى قبرص وأيلة ونصارى نجران الذين سكنوا الحيرة والشام ورد إليهم كنائسهم التى أخذت منهم [٣] وضرب أروع أمثلة العدل برد مدينة سمرقند إلى أهلها لما جاءوا ببيّنة على أنها فتحت غدراً [٤] .

فطمع النصارى فى استرجاع كنيسة ماريحنا التى أضيفت إلى المسجد الأموى ورفعوا دعواهم وحاول إرضاءَهم ودفع لهم مائة ألف دينار فأبوا فأمر أن تعاد إليهم الكنيسة ، وكلف محمد بن سويد الفهرى بهذه المهمة فأكبر محمد ذلك وأكبره الناس وقالوا : كيف ندفع إليهم مسجدنا بعد ماصلينا فيه وقرأنا فيهدم فيعاد كنيسة ، ورفعوا الأمر إلى عمر : بأننا نتمسك بالمعاهدة ، والمعاهدة تحمى كنائسهم التى كانت حين الفتح ولكنها تمنعهم أن يحدثوا غيرها وقد أحدثوا بعد الفتح سبع كنائس ما لهم فيها حق وعليهم بحكم المعاهدة هدم كل ما أحدثوا من كنائس ، فتنازلوا عن دعواهم [٥] .

وفى حادثة خصام النصرانى وهشام برز أسمى أنواع التسامح وحسن المعاملة والمساواة فقد أمر عمر هشاما أن يقوم مع خصمه ولم يرضى أن يوكل عنه وكيلا ،

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٧ . دوزى – ثغرات فى تاريخ الإسلام ص ٤٠١ – ٤٠٣ .

(٢) الأنساب ج ٧ ورقة ١٤٢ .

(٣) انظر ابن عساكر ج ٢ ص ١٢٦ – ١٢٩ .

(٤) انظر الطبرى ج ٦ ص ٤٧٢ – ٤٨١ و ج ٦ ص ٥٥٦ – ٥٦٨ .

(٥) فتوح البلدان ص ١٣٢ . ابن عساكر ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١ .

ولما انتهر هشام النصرانى قال له : « يا أحول عندى تنتهر فإن عدت عاقبتك » ، وقضى للنصرانيّ . ولما ولى هشام الخلافة استؤذن فى أخذ الضّيعة من يد النصرانى فقال : « لا تردوا حكماً حكم به عمر » (١) .

واهتم بأهل الكتاب فأمر إذا كبر الرجل فيهم وليس له مال أن تنفق عليه الدولة ، فعمل بعدله فى مدة خلافته البسيطة مالم يستطع غيره عمله فى عشرات السنين فقد تسارع أهل الذمة للدخول فى الإسلام فى المشرق والمغرب ، وأرسل عشرة فقهاء من أعيان التابعين لإرشاد البربر وتعليمهم اللغة العربية والدين الإسلامى ، وأرسل إلى ملوك السند ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعا ، وأرسل إلى ليو امبراطور الروم ودعاه إلى الإسلام ، فشعر الناس جميعا بالراحة وأصابهم الغنى فذكر يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ولم نجد من يأخذها منّا قد أغنى عمر الناس ، فاشتريت بها رقاباً وأعتقتهم » (٢) .

ومن أبرز أعماله رضى الله عنه فى التخفيف عن الرعية مسلمهم وذميهم سياسته المالية التى قامت على أساس التفريق بين الخراج والجزية وكانتا تستعملان كثيرا بمعنى واحد فيقولون جزية الرأس وجزية الأرض (٣) الأمر الذى كان يسبب اضطراباً في السياسة المالية لدى بعض الولاة . فحفظ للدولة مورداً ثابتاً وحفظ للناس حقوقهم .

وكان قد أدرك تسلل أهل الكتاب إلى المسلمين عن طريق الحاشية فأقصاهم ولكن يزيد رد النصارى إلى خدمته (٤) .

---

(١) الأنساب ج ٧ ورقة ١٥١ . ابن سعد – الطبقات ج ٥ ص ٢١٠ .
(٢) ابن عبد الحكم ص ١٢٨ .
(٣) البلاذرى – فتوح البلدان ص ١٤٣ . يحيى بن آدم – الخراج ٦١ – الريس – الخراج والنظم المالية ص ١٣٦ – ١٣٨ .
(٤) الفطاركة ص ٦٥ .

وأما هشام فقد سمح للنصارى الملكانيين أن يعيدوا شغل كرسى أنطاكيا وعينوا صديقه اصطفان بطريقاً عليهم ، وكان رفيقاً بجميع النصارى ، ففى عهده دخل البطرك ميخائيل مدينة الاسكندرية فى احتفال رائع بين يديه الشموع والصلبان والأناجيل والكهنة يصيحون لقد أرسل الرب إلينا الداعى المأمون الذى هو مرقس الجديد [١] .

وأما واليه خالد القسرى فكان يقصد الجاثليق كثيرا ، وظهر فى زمنه طائفة من الرهبان والقديسين فبنوا الأعمار وتظاهروا بصنع المعجزات واتخذ من اليهود والمجوس عدداً من كتاب الخراج والإدارة فشاعت أخبار منكرة ضده فروى عنه أهل الكوفة (وأهل الكتاب فيها هم أصل الشائعات والأراجيف) بأنه اتخذ طستاً فى مسجد الكوفة وأخذ بيد أسقف النصارى فمشى به فى المسجد حتى وقف على الطست ثم قال للأسقف ادع لنا بالبركة فوالله لدعاؤك أرجى عندى من دعاء على ابن أبى طالب [٢] .

وأنه اتخذ كنيسة لأمّه فى قصر الإمارة وأمر المؤذّنين لا يؤذنون حتى يضرب النصارى بنواقيسهم [٣] .

هذه المعاملة الحسنة التى واجهها أهل الذمة فى المجتمع الإسلامى تمخضت عن نتائج عديدة أهمها :

(١) انتقل أهل الكتاب إلى الإسلام فى جموع هائلة فى العراق وخراسان والشام ومصر والمغرب والأندلس عن إيمان واقتناع ، وتظهر رسالة البطريق النسطورى يشوع ياف إلى سمعان رئيس أساقفة فارس مقدار تسارع أهل الكتاب فى الدخول للإسلام ففيها يقول :

---

(١) ساويرس ص ١٩٩ . ترتون ص ٢١٢ .
(٢) تاريخ الكوفة ص ٩٩ .
(٣) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٨٠ . الطبرى ج ٧ ص ١٣١ .

« أين أبناؤك أيها الأب الذى ثكل أبناءه – أين أهل مرو العظماء الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفاً ولا ناراً ولا تعذيباً ...... واحسرتاه واحسرتاه على هذه الآلاف المؤلفة التى تحمل المسيحية والتى لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب ويريق دماءه فى سبيل الدين الحق – أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء .... وأن العرب الذين منحهم الله السلطان يشاهدون ما أنتم عليه وهم بينكم كما تعلمون ذلك حق العلم ، ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية بل على العكس يعطفون على ديننا ويكرمون قسيسينا وقديس الرب ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار فلماذا هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب ؟ ولماذا حدث ذلك أيضا فى وقت لم يرغمهم فيه العرب كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم على ترك دينهم بل تعهدوا أن يبقوا عليه آمنا مصونا إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم ... » [١] .

وأما **مصر** فقد صحب عمرو بن العاص لفتحها الحمراء ، وهم من الروم والفارسيون وهم من الفرس فسكنوا الجيزة مع همدان [٢] بعد أن اعتنقوا الإسلام وتسارع أهل مصر للإسلام لما رأوه يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ، واعتنق بقايا الروم الإسلام فشمل الإسلام كل طبقات المجتمع المصرى ومنهم فريق من الرهبان مثل يوحنا أحد رهبان دير سينا ومن المفكرين ومن الأشراف ومن العامة . وكان انتشار الإسلام يتناسب مع انتشار القبائل المهاجرة إلى مصر التى أنتجت صلات التقارب أو التراحم [٣] .

وأما **أفريقيا** فلم يبق أحد من البربر فى ولاية إسماعيل بن عبيد الله سنة ١٠٠ هـ لحسن سيرته إلا أسلم [٤] .

---

(١) أرنولد – الدعوة إلى الإسلام ص ١٠١ – ١٠٢ .
(٢) ابن عبد الحكم ص ١٢٩ .
(٣) الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ١٦٣ .
(٤) ابن عبد الحكم ص ٢١٣ . ابن أبى دينار ورقة ٢٢ أ .

واعتنق اليهود الإسلام فى أعداد عظيمة وحماسة كبيرة [(١)] وقد أرجع أرنولد أسباب التحول إلى الإسلام إلى نشاط المسلمين فى عرض دينهم فأثار ذلك كتابات النصارى المتحمسين من أمثال كتابات يوحنا الدمشقى وتلميذه ثيودور أبو قرة [(٢)] ونشاط المسلمين أدى إلى تطبيق أحكامه العادلة فأدى ذلك لانتشاره رغبةً من أهل الكتاب لارهبة .

(٢) اشتغل أهل الذمة مطمئنين بالمهن فى ظل حكم الإسلام فكادوا يحتكرونها لانشغال المسلمين بالجهاد وبشئون الحكم . وكان عمر قد حذر المسلمين بقوله : « تعلموا المهن فإنه يوشك الرجل منكم أن يحتاج إلى مهنة » [(٣)] .

فاحترف اليهود الصياغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وإدارة السفن [(٤)] وقام سمير اليهودى بعمل الدراهم للحجاج ولما اجترأ فغشّها ، أمر الحجاج بقتله فاقترح سمير على الحجاج وضع الأوزان لينجو من القتل [(٥)] واستغلّ أهل الكتاب التّسامح الإسلامى فنفذوا إلى الوظائف الإدارية للدولة ككتاب فى الدواوين [(٦)] فكثر عددهم وتمكنوا من التقرب إلى الأمراء والحكام والخلفاء فتمكن سرجون بن منصور وغيره الذين كانوا فى البلاط الأموى من إثارة الفتن فى الدولة الإسلامية وكانوا سبباً فى خروج الحسين ومقتله زمن يزيد . واستمر سرجون يقوم بأعماله ككاتب [(٧)] عند معاوية ثم يزيد ثم عبد الملك فزاد نفوذه فى دمشق .

---

(١) أرنولد – الدعوة ص ٢ .
(٢) نفسه ص ١٠٤ .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ج ١ ص ١١٦ .
(٤) أرنولد – الدعوة ص ١٠٤ .
(٥) صبح الأعشى ج ١ ص ٤٢٥ .
(٦) نفسه ج ٢ ص ١٤٦ .
(٧) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٣٢ .

وفى مصر تولى الأقباط المناصب الإدارية وخاصة زمن عبد العزيز فكان منهم كاتب لإدارة مصر العليا وآخر لإدارة مصر السفلى ، وذكر ترتون كثيراً من أسماء الأقباط ممّن تولوا المناصب الكبرى فى الدولة (١) .

واشتغل أهل الكتاب كمعلمين فكان مؤدّب يزيد بن معاوية نصرانياً وكذلك مؤدّب ولده خالد ، واختار عبد الملك اثناسيوس مؤدّباً لأخيه عبد العزيز وقد صاحبه فى مصر وجمع ثروة طائلة استغلها فى بناء الكنائس كما سبق القول .

ولم يستطع أهل الكتاب التأثير فى المجتمع الإسلامى فى هذه المرحلة بل اكتفوا بمسّه مسًّا دون الولوج إليه باكتساب بعض الأشخاص وتسريب بعض الأفكار وإثارة التناقضات فى المجتمع المسلم نفسه ، وقد تعود قلة تأثيرهم إلى ارتباط العلم فى الإسلام بالمسجد الذى كان معبداً ومدرسة ونادياً ومحكمة فكان المسجد أول دار علم فى الإسلام منذ أن أسس الرسول ﷺ مسجده ففى البخارى :

« بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد ، قال : فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه ، وأما الآخر فاستحيا ، فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » (٢) .

ولكن أهل الكتاب وباسم العلم ركزوا بعض المفاهيم فى أذهان بعض المسلمين فقد حاول وهب بن منبه أن ينفث فكرة عودة اليهود إلى فلسطين

---

(١) انظر الأنساب ج ٦ ورقة ٤٤٢ . الجهشيارى ص ٤٠ . ترتون ص ٢٠ . فلهوزن ص ٢١٦ . الخربوطلى – الإسلام وأهل الذمة ص ١٣٢ .

(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ٢٦ .

فى حكاية طريفة عن العزير فى إعادة إيليا [١] .

كما أشاعوا بادعائهم العلم فكرة المهدى المنتظر واعتقد بها الشيعة وفكرة القحطانى المنتظر للقبائل اليمانية [٢] وفكرة السفيانى المنتظر وزعموا أن فكرته تعود إلى خالد بن يزيد [٣] ولعل أستاذه النصرانى هو صاحب الفكرة ، كما سللوا فكرة التنبؤات والتى بثّها كعب الأحبار وتبيع الحميريّين فكانت سببًا فى عزل يزيد بن المهلب عن خراسان [٤] .

كما أدخلوا بعض المصطلحات الفلسفية اليونانية فاهتم خالد بن يزيد بالكيمياء فدعا جماعة من اليونانيين فى مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية [٥] .

وعملهم كمؤدبين للأمراء ووجودهم فى الحاشية سبب فشو اللحن فأدرك الخلفاء الأمويون كما أدرك الراشدون من قبل من أن الإسلام لا يتم إلا بالعربية الصحيحة فكانوا يعاقبون على اللحن فقد ضرب عمر بن الخطاب كاتب أبى موسى سوطين وعزله عن عمله بسبب اللحن [٦] كما كان يقول : « سوء اللحن أسوأ من سوء الرمى » [٧] ويقول : « تعلّموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة » [٨] .

---

(١) عيون المعارف ص ٢٧٣ – ٢٧٥ مجلد ٢ ج ٦ كتاب الزهد .

(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٧٢ . المروزى – الفتن ج ٢ ورقة ٢٧ ب .

(٣) الأنساب ج ٨ ورقة ٣٤٢ . المروزى ج ٣ ورقة ٥٢ أ ورقة ٧٤ أ . النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢١ .

(٤) انظر الكامل ج ٤ ص ٥٠٢ – ٥٠٣ .

(٥) الطبرى ج ٧ ص ١٦ . الأنساب ج ٥ ورقة ٥٩٢ . وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٦) الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٠ . الأنساب ج ٩ ورقة ٥٩٩ .

(٧) صبح الأعشى ج ١ ص ١٦٨ . الطبقات ج ٣ ق ١ ص ٢٠٥ .

(٨) المروزى – كتاب الفتن ج ٣ ورقة ٥٣ .

واعتبر الأمويون لحن الوليد بن عبد الملك عيباً كبيراً [١] ولحنه دليل على تغلغل أهل الذمة فى الدوائر العليا للدولة . وكان والده عبد الملك يوصى بنيه أن يحفظوا لغة العرب فإنه لا يلى العرب إلا من يحسن كلامهم . كما أن مسلمة بن عبد الملك عاقب أحد العرب لأنه قال : « من بنو تغلب » [٢] . ومن أجل ذلك عربت الدولة فبدأ عملية التعريب عمر بن الخطاب ونشط فيها عبد الملك وأتمها الوليد فكانت خطوة من محاولات التخلص من استفراد غير المسلمين والنصارى بالوظائف الديوانية الرسمية وكانوا قد شعروا بقوة نفوذهم حتى أن عبد الملك أمر سرجون ببعض الأمر فتراخى فيه فجدّ عبد الملك فى التعريب [٣] . فاغتاظ سرجون وأدرك الخطر بضياع مركز أهل الكتاب فقال للكتاب الروم :

(أطلبوا العيش من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم) [٤] .

فأخذ أهل الكتاب يتعلمون العربية ليحتفظوا بوظائفهم ، وحذقوها ، وتقرب بعضهم إلى الأمراء ولو على حساب النزاهة فلعبوا دوراً رئيسياً فى اختيار مروان بن الحكم للخلافة عاملين على إيجاد صدع فى الدولة الإسلامية التى كادت تلتئم على يد عبد الله بن الزبير ، فحاول عبد الملك أن يحدّ من نفوذهم بعد أن ظهر المدعى بالنبوة وسط الجو الذى هيأه أهل الكتاب فى الشام وهو الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقى مولى الجلّاس العبدرى أو الحكم بن مروان [٥] فأخذ عبد الملك يحد من تأثيرهم فى الدولة وراقب القسوس مراقبة دقيقة وحدث أن وفد قسيس من الهند على البطرك سيمون السريانى الأصل وسأله أن يرسل أسقفا لأهل الهند فامتنع سيمون عن إجابة طلبه حتى يستأذن الوالى [٦] ولكن

---

(١) الأنساب ج ٧ ورقة ١١٣ .
(٢) نفسه ج ٨ ورقة ٢٣٣ .
(٣) الجهشيارى ص ٤٠ . فتوح البلدان ص ١٦٨ .
(٤) فتوح البلدان ص ١٩٧ مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٤ .
(٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩٩ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٧ – ٢٨ . مختصر تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٥٢ .
(٦) خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٩٢ .

ثاودوروس أرسل معه كاهنين وأسقفاً فأمسكهم المسلمون وعاقبوهم [١] .

وسار الوليد بن عبد الملك على خطة والده فأقصى النصارى شيئا بعد شيء من الجهاز الإدارى لمعرفته بمكائدهم وأساليبهم فى التسلل حتى أنه استغنى عن أسرة سرجون بن منصور ، وقد استطاع النصارى فى زمنه أن يحتالوا على المرآة التى على منارة الاسكندرية والتى كان يرى فيها من قصد إليها على بعد وتهتدى بها المراكب السائرة إلى الأسكندرية فكسروها [٢] .

واستمر سليمان فى سياسة سلفه للحد من نفوذ أهل الذمة فى الجهاز الإدارى فأخذوا يتحركون فى الأطراف فى زمنه خاصة فى الأندلس .

وحاول عمر بن عبد العزيز إقصاءهم عن الحاشية التى برعوا من خلالها فى أساليب الدس والوقيعة ، وألزمهم بالغيار [٣] .

وأمر عماله ألّا يستعينوا بالكتاب من أهل الكتاب [٤] فاتخذ التعريب شكله النهائى زمن عمر بن عبد العزيز ، وحاول البعض حمل هذه التصرفات من عمر على أنه اضطهد النصارى وضيّق عليهم وهذا مجاف للحقيقة وللتاريخ فهو قد التزم حدود الشرع الإسلامى التزاماً تاماً وحمى أهل الذمة وأحسن إليهم [٥] .

وبرزت أزمة الأيقونات زمن يزيد بن عبد الملك وكانت قد بدأت فى بيزنطة بأن أصدر الإمبراطور ليو الثالث الإيسوري قراراً انتقد فيه قرارات المجمع الدينى السادس الذى عقد سنة ٦٨١ م ضد الإرادة الواحدة وأعلن أن مذهب

---

(١) ساويرس ص ١٢٧ .
(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٧ .
(٣) الأنساب ج ٧ ورقة ١٤١ .
(٤) انظر ابن الجوزية – الأحكام ص ٢١٤ . الجهشيارى ص ٦٥ الأنساب ج ٧ ورقة ١٤٧ .
(٥) انظر فلهوزن ورأى تيوفانس – ص ٢٨٩ .

الإرادة الواحدة هو الوحيد الذى يمثل الأرثوذكسية ، وأمر بهدم نصب تذكارى كان موضوعا فى القصر الإمبراطورى لتخليد ذكرى المجمع كما أمر برفع الكتابة الموضوعة على إحدى بوابات القصر التى تشير إلى عقد جلسات هذا المجمع ، وصفت صور الامبراطور والبطرك سرجيوس مكان هذين الأثرين فأثار ذلك حفيظة البابا وأصبحت الأيقونات نقطة خلاف بين البابا والامبراطور كما أصبح قبول الصور أو رفضها هو المحور الذى ستدور حوله هذه الأزمة [١] .

وانعكس أمر هذه الأزمة إلى الدولة الإسلامية فأمر حنظلة والى مصر أسامة ابن زيد التنوخى بكسر الأصنام والتماثيل [٢] ومحو الصور والأيقونات سنة ١٠٤ هـ . كما أمر مسلمة فى العراق وخراسان بمحو الصور جميعها سواء ما كان فيها فى الكنائس أم على الجدران أم فى البيوت والكتب كما قام بتحطيم الأصنام والتماثيل سواء أكانت من الحجر أم العاج [٣] فأخذ يوحنا الدمشقى يقاوم هذه الحركة التى قامت ضد الأيقونات [٤] .

وعاد أهل الكتاب للتسلل إلى البلاط الأموى زمن يزيد الثانى فحدّ منه هشام الذى خبرهم قبل توليه الخلافة ، فيروى أنه أُقطع الضّيعة التى تدعى دورين ، فأرسل فى قبضها فإذا هى خراب ، فقال لدويد (وهو كاتب بالشام) ويحك كيف الحالة ؟ قال : ما تجعل لى ؟ قال :

أربعمائة دينار . فكتب دويد : (وقراها) وأمضاها فى الدواوين فأنتجت الضيعة وفشت ، فلما ولى هشام الخلافة دخل عليه (دويد) كالمتقرب بما كان منه ، فلما وقعت عين هشام عليه قال : « وقراهالي » والله لا أولّيه ولاية أبداً فأُخرجه [٥] .

---

(١) الأيقونات عبارة محاولة تجسيد المسيح عليه السلام والعذراء والقديسين بالتماثيل ، والصور واستعمالها في دور العبادة وخارجها . انظر عاشور – أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١١٥ Gibbons op. cit 149 .

(٢) الكندى ص ٧١ .

(٣) ترتون ص ١١١ .

(٤) سيرة يوحنا الدمشقى ورقة ٤٦ ب .

(٥) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٣٩ . الجهشيارى ص ٦٠ – ٦١ .

على أن أعظم المهن التى عمل بها اليهود والنصارى ونبغوا فيها فى ظل الحكم الإسلامى وأثروا من خلالها فى المجتمع الإسلامى ، كانت **مهنة الطب** ولشهرتهم فى هذه المهنة اتخذ الخلفاء والولاة أطباءهم من أهل الكتاب فكان ابن آثال طبيب معاوية الخاص ، وكان معاوية كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلا ونهاراً ، وكان رئيس أهل الذمة فى حمص (١) .

كما اتخذ معاوية أبا الحكم الطبيب النصرانى العالم بأنواع العلاج والأدوية طبيباً اعتمد عليه فى تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه ، وصحب يزيد بن معاوية عندما ولى الموسم أيام معاوية متطببا له (٢) .

واشتهر ماسرجويه الطبيب البصرى السريانى اللغة اليهودى المذهب زمن مروان بن الحكم ، وينسب إليه تعريب كتاب الخلاصة الطبية . (الكناش بالسريانية) الذى وضعه (أهرن) الطبيب الاسكندرى من القائلين بالطبيعة الواحدة وكان هذا الكتاب أقدم ما نقل إلى العربية من كتب الطب (٣) .

واتخذ الحجاج قباذوق اليهودى طبيبا اعتمد عليه ووثق بمداواته وتتلمذ عليه كثير من الأطباء ومنهم من أدرك الدولة العباسية كفرات بن شخناثا (٤) كما اتخذ الحجاج ثيادوق أو (ثيادورس) طبيبا خاصا وكان يهوديا وقد بعثه لصالح عندما أمره زادان فروخ أن يتمارض فى قضيّة تعريب الدواوين وله كناش كبير ، عمله لابنه (٥) .

---

(١) الجهشيارى ص ٢٧ . ابن أبى أصيبعة – طبقات الأطباء ص ١٧١ البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٧٥ .

(٣) ماجد فخرى – تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٨ . ابن العبرى ج ١ ص ١١٣ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ١٧٩ . ابن العبرى ج ١ ص ١١٣ .

(٥) الفهرست ص ٣٥٢ . فتوح البلدان ص ٢٩٨ . ابن العبرى ج ١ ص ١١٣ .

وبرز الطبيب عبد الملك بن أبجر زمن عمر بن عبد العزيز وكان قد أقام فى الاسكندرية وتولى التدريس فيها بعد الاسكندرانيين ، وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز قبل خلافته وصحبه ، فلما تولى عمر الخلافة نقل ابن أبجر التدريس إلى أنطاكية وحرّان وتفرق فى البلاد [١] .

وبسبب نبوغهم فى الطب والعلوم الأخرى وميلهم إلى الانتقام من المسلمين وإيقاع الفرقة فى صفوف مجتمعهم وإثارة روح العداء والشكّ فقد تطوعوا كمستخدمين لتنفيذ المؤامرات – وبرز ذلك بشكل خاص فى مجال السموم – فقد تمكن ابن أثال طبيب معاوية من سم عبد الرحمن بن خالد الذى ولى الصوائف وحسن أثره وادعوا أن معاوية دس ابن أثال إليه فسقاه شربة فمات وهذا زعم باطل لم يصح [٢] . بل هو من وضع أهل الكتاب ، ولما اعترضه خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد فقتله حبسه معاوية أياما ثم أغرمه ديته ولم يقده [٣] وذكر أن ابن أثال دس لعبد الرحمن مَن سمّه وافتخر بذلك [٤] وهو الأرجح .

كذلك سُمّ الأشتر والحسن بن علي فى عهد معاوية [٥] من عظماء الناس .

وروى فى سبب وفاة عبد الله بن عمر بن الخطاب أن الحجاج دس له رجلا فسم زج رمحه ، فزجه فى الطريق سنة ٧٣ هـ [٦] أثناء الطواف ولما عاده الحجاج عاتبه عبد الله بسبب إدخاله النصارى إلى الحرم . ولما مرض الوليد بن عبد الملك ذكر له موسى بن نصير طبيباً رومياً قدم به من المغرب فأدخله إليه

---

(١) ابن أبى أصيبعة ص ١٧١ .
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١ .
(٣) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٧ . الأنساب ج ٩ ورقة ٥٤٢ ابن أبى أصيبعَة ص ١٧١ .
(٤) المعارف ص ١٨٥ . ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٣٦ – ١٣٨ الاستيعاب ق ٣ ص ٩٥٢ .
(٥) ابن أبى أصيبعة ص ١٧١ .
(٦) الأنساب ج ٧ ورقة ١٧٠ .

وعنده الطبيب ابن رأس البغل ويقال له ابن رأس الحمار طبيب عبد العزيز بن مروان من الاسكندرية ؛ فتراطنا بالرومية وقدّما له دواء فمات فى سحر ذلك اليوم (١) وهذا يحملنا على الظن أن الوليد مات مسموما بتآمر من أطباء أهل الكتاب المغربى والاسكندرى .

وأما سليمان بن عبد الملك الذى أحسن السيرة ورد المظالم وأعتق سبعين ألفا بين مملوك ومملوكة وكساهم واتخذ من عمر بن عبد العزيز وزيراً ، وخرج بالجيوش ونزل بمرج دابق وبعث أخاه مسلمة إلى القسطنطينية ، فيروى فى سبب موته أن نصرانيا أتاه وهو بدابق بزنبيلين مملوءين تيناً وبيضاً فأكل تينةً وبيضةً وهكذا حتى فرغا ... فأتخم فمات (٢) وبالرجوع إلى صفات سليمان الجسمية نجده وسيماً جميلًا نحيفاً وهذه الصفات لا تتفق مع ماأُشيع من نهمه فى الأكل فهى لفّات أهل الكتاب والأعاجم كانوا يتقربون بها إلى بنى العباس (٣) لإخفاء مؤامراتهم وسترها .

وأما عمر بن عبد العزيز ، فقد أشيع أنه ثقل على قومه لكثرة ما استردّه منهم مما امتلكوه من قبل حتى خيف أن يمسوه بسوء أو يسقوه سماً فنصحه أرطأة ابن منذر بأن يتخذ حرساً ويحترز فى طعامه وشرابه فكان جواب عمر ؟ اللهم إن كنت تعلم أنى أخاف شيئا دون يوم القيامة فلا تؤمّن خوفى (٤) وبعد أن تهيأ هذا الجو سمه مولى له بأن وضع السم على ظفر إبهامه فلما استسقى عمر غمس إبهامه فى الماء ثم سقاه فمرض مرضه الذى مات فيه (٥) ولما سأله الطبيب إن كان أحس بالسم أجابه : نعم قد عرفت حين وقع فى بطنى . وحاولوا بعد ذلك

---

(١) الأنساب ج ٧ ورقة ١٢٤ . ابن الوردى ج ١ ص ١٨١ . وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٢١ .

(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٨٣ .

(٣) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٢٣٤ .

(٤) الجهشيارى ص ٢٧ . وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٣٨ لتلاحظ احتمال الأصابع اليهودية في سمّه .

(٥) البداية والنهاية ج ٩ ص ٢١٠ . العقد الفريد ج ٤ ص ٤٣٩ .

الإفساد بين أفراد بنى أمية بأن أشاعوا أن الذى دس له المولى بنو أمية أو يزيد بن عبد الملك .

وكان كلما ازداد إقبال أهل الكتاب على اعتناق الإسلام رغبة ازداد الحاقدون منهم على الطعن فى الإسلام وتشويهه أمام جماعاتهم ليبعدوهم عنه فكان النصرانى الحاقد كما يقول لوبون : (إذا نظر إلى الإسلام لا يجعل همه الأول دراسة هذه الظاهرة المجسمة فى صورة عقيدة أجنبية تلوح كأنما تجمع بين المشابهة والمخالفة لعقيدته بل يروح يفسّر ما لا سبيل إلى تفسيره ، يعنى الوسائل الماهرة التى استطاع بها محمد أن يفوز بقبول أمته لأحاديثه ، فكان التّحامل على الإسلام يشيع على ألسنة النصارى) [١] كيوحنا الدمشقى .

وكان ذلك نتيجة لهذا التسامح الإسلامى ، فبرعوا فى وسائل الفتنة بإيغار الصدور ، فحذرهم بعض الخلفاء والأمراء فقد سأل رجل عبد الملك بن مروان الخلوة فقال لأصحابه : إذا شئتم تنحوا . وقال للرجل :

« إياك وأن تمدحنى فإنّى أعرف بنفسي منك أو تكذبنى فإنه لا رأى لكذوب أو تسعى بأحد إلى ، وإن شئت أن أقيلك أقلتك قال : أقلنى » [٢] .

وفى الأندلس تمكن أهل الكتاب بمساعدة زوجة لوذريق من استغلال التناقض فأثاروها فتنة ذهب ضحيتها عبد العزيز بن موسى بن نصير زمن سليمان ابن عبد الملك وكان قد تزوج أرملة لوذريق فألحت عليه أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له عند الدخول عليه كما كان يفعل لزوجها ، فقال : إن ذلك ليس فى ديننا (وكان ديّناً فاضلًا) فلم تزل به حتى أمر بفتح باب قصير فكان أحدهم إذا دخل طأطأ رأسه فيصير كالراكع له ، فرضيت به وقالت له : الآن لحقت بالملوك وبقى أن أعمل لك تاجاً مما عندى من الذهب واللؤلؤ ، فأبى ، فلم تزل به

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٦٥ .
(٢) عيون المعارف مجلد ٢ ج ٤ كتاب الطبائع ص ٢٣ .

حتى فعل . فانكشف ذلك للمسلمين فقيل إنه تنصّر فثاروا عليه وقتلوه وهو يصلى الصبح فى المحراب وقد قرأ سورة الفاتحة والواقعة [١] .

واتصل أهل الكتاب فى الشام بالبيزنطيين يمنونهم العودة إلى الشام ولما أراد عمر أن يخلع الفسيفساء والرخام من مسجد دمشق ويرده إلى بيت المال [٢] جاء وفد من الروم فوجه عمر عشرة من المسلمين معهم رجل يحسن الكلام بالرومية ولا يعلمونهم بذلك . فدخلوا المسجد ، فلما رأى رئيسهم القبّة خرّ مغشياً عليه فحمل إلى منزله ثم أفاق ، فقال بالرومية إنا معشر أهل رومية نتحدث أن بقاء العرب قليل فلما رأيت ما بنوا علمت أن لهم مدة سيبلغونها ولذلك أصابنى ما أصابنى . فلما علم عمر بذلك قال : لا أرى مسجد دمشق إلا غيظاً على الكفار . فترك ما كان هم به من أمره [٣] .

واستطاع أهل الكتاب التأثير فى المجتمع الإسلامى عن طريقين : **الغناء والديارات** فقد استطاعوا أن يجروا بعض مجان المسلمين إلى الديارات وتغنوا بها ، وكانت هذه الأديرة منتشرة فى جميع أرجاء دار الإسلام الفسيحة ومنها : فى الشام : دير فيق [٤] والطور [٥] والبخت [٦] ومارسرجيس باسم سرجيوس الذى قتله القيصر الرومانى مكسيمنوس غاليريوس نحو سنة ٣٠٧ م [٧] وكان أعظم مشهد لليعاقبة فى الشام يحجون إليه وينذرون له ، وكان عرب الشام النصارى يتيمّنون بسرجيوس ويضعون صورته مع الصليب على راياتهم وإليه يشير الأخطل بقوله :

لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وموتاً ناقعا

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٢ . ابن عبد الحكم – فتوح مصر ص ٢١٢ .
(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٥١ . ابن عساكر ج ٢ ص ٤٢ – ٤٣ .
(٣) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٥ . ابن عساكر ج ٢ ص ٤٣ .
(٤) الذيارات ص ٢٠٤ .
(٥) نفسه ص ٢٠٧ .
(٦) نفسه ص ٢١٤ .
(٧) نفسه ص ٢٢٨ .

وهذا دليل على أن شهرة سرجيوس ظلت بين النصارى حتى فى أيام الإسلام [١] .

وفى الحيرة : كثرت ديارات النصارى كديارات الأساقف [٢] . وقبة الشقيق ودير هند بنت النعمان بن المنذر ودير الجاثليق ، وكانت الحيرة قد استهوت الشعراء والمجان لصحة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها [٣] ، لذلك ظهر فيها الغناء وأساطين المغنين كحنين وأبى محرز ، وقد ردّ حُنين أبا محرز إلى العراق [٤] كما فعل ابن سريج بالغريض فى المدينة كخطة لتوزيع أنفسهم فى إطار دار الإسلام للتأثير فى المجتمع .

فمن الحيرة انتقل الغناء إلى مكة والمدينة ، ويقال إن أول من غنى فى صدر الإسلام عبد مكى هو سعيد بن مسجح كان بمكة عند حصار الأمويين لها فى عهد عبد الله بن الزبير [٥] وعلّم ابن سريج والعريض [٦] .

واشتهر من المغنين طويس مولى بنى مخزوم وكان لا يضرب بالعود وإنما ينقر بالدف عالماً بأنساب المدينة ، واعتبره ابن سريج أحسن الناس غناء [٧] فاستغل طويس ذلك فكان كثيرا ما يغنى بالشعر الذى قيل فى الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، فيثير ما بينهما من كوامن عداء وتسيل بسبب ذلك الدماء [٨] .

---

(١) جواد على ج ٦ ص ٨٤ ..
(٢) الديارات ص ٢٢٦ .
(٣) انظر : الأغانى ج ٢ ص ٣٥١ - ٣٥٢ .
(٤) الأغانى ج ٢ ص ٣٤٥ .
(٥) الأغانى ج ١ ص ٤ ٤١ . كتاب التحرير .
(٦) نفسه ص ٢٠١ .
(٧) انظر الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٥٨ . الأغانى ج ٢ ص ٣٥ وج ٣ ص ٣٢ . تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥٣٥ ..
(٨) الأغانى ج ٣ ص ٣٩ ، ج ١ ص ٣٢٤ .

وبعمل أهل الكتاب فى الغناء جروا معهم الموالى فدخلوا البيت المسلم ، فكان أكثر المغنين والقيان فى هذا العصر من غير العرب وإن كانوا مسلمين على الأغلب ، ولكنهم لم يستطيعوا التأثير فى البلاط الأموى كثيرا بسبب اعتدال الخلفاء والأمراء فى اللهو كما سبق لنا القول وإن سمعوا الغناء كانوا يختارون منه ماهو بعيد عن الفحش والبذاءة ، إذ عندما سمع معاوية لحناً من (سائب خاثر) عند ابنه يزيد قال لابنه يزيد : « اختر له ، فما رأيت بنشيده بأساً » (١) .

ولم يظهر أثرهم فى البلاط الأموى إلا فى عهد يزيد الثانى والوليد الثانى خلعاء بنى أمية ، فقد بدأت عادة فصل الحرائر زمن الوليد الثانى (٢) ، حرصاً على الأخلاق بسبب انتشار الجوارى وكثرة السبايا .

ومقابل ذلك فقد تسللت فكرة الرهبنة إلى أفراد من المجتمع الإسلامى وخاصة عند من كان فى أصله من أهل الكتاب كعامر بن عبد الله بن عبد القيس الذى رفض فكرة الزواج (٣) .

كانت هذه بعض المؤثّرات الاجتماعية البسيطة التى تسللت إلى بعض أفراد المجتمع المسلم وخاصة بين الموالى الحديثى العهد بالإسلام ويقصد **بالموالى** :

كل من أسلم من غير العرب ، وهم إما أن يكون أصلهم أسرى حرب

---

(١) الأنساب ج ٤ ص ١٧٢ .

(٢) سيد أمير على ص ١٨٨ . فون كريمر ص ١٩١ .

(٣) انظر ابن سعد . الطبقات ج ٧ ق ١ ص ٧٧ / ٧٨ – ابن الأثير أسد الغابة ج ٣ ص ٨٨ – ٨٩ .

فقد نشأ عامر فى قبيلة عبد القيس اليمنية التى كانت نصرانية ، ثم أصبحت من الشيعة الغالية وكثر فيها الغنوصيون . قرأ القرآن الكريم على أبى موسى الأشعرى ثم انتهى إلى الزهد فكان أعبد أهل زمانه وأشدهم اجتهادا قال كعب الأحبار حين رآه فى الشام هذا راهب هذه الأمة . فاختلف مع أبى موسى فى الطريقة اختلافا تاماً فأرسل إليه أبو موسى : « أما بعد فإنى عهدتك على أمر وبلغنى أنك تغيّرت فاتق الله وعد » . – أبو نعيم (الحلية ج ٢ ص ٩٥) وامتنع عن أكل اللحم وهذه نزعة هندية ، وعن الزواج وهى نزعة رهبانية نصرانية . توفى ببيت المقدس ودفن بها . وبالطبع كان الرجل عالماً زاهداً عابداً فتقوّلوا عليه أشياء دافع هو عن نفسه وردّها أمام معاوية .

انظر : الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٧٣ .

استرقوا ثم أعتقوا ، وإما أن يكونوا من أهل البلاد المفتوحة انضموا حين إسلامهم إلى العرب فصاروا موالى بالحلف والموالاة (١) وقد ساوى الإسلام بين العرب والموالى وحارب العصبية المتمكنة فى نفس العربى ، وجعل المفاضلة على أساس التقوى لا على أساس الجنس أو اللون ، واعتبرها من دعاوى الجاهلية ، فتشربت نفوس المسلمين الأوائل بالمساواة المطلقة بأسمى معانيها ، فزوج عبد الرحمن بن عوف أخته من بلال وهو حبشى ، وزوج أبو حذيفة بنت أخيه من مولاه ولم ينكر عليهما الرسول ﷺ ذلك بل لقد زوج الرسول مولاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته وكان من الممكن أن يسير المجتمع الإسلامى على هذه الوتيرة من المساواة ، لولا أصابع أهل الكتاب الخفية الذين استطاعوا استثارة العصبية من مكامنها فى النفس العربية ، وقاموا بهذا الدور من أول قيام المجتمع الإسلامى فكانت محاولاتهم للإفساد بين الأوس والخزرج ثم بين المهاجرين والأنصار ثم بين العرب والموالى ، ونجحوا إلى حدّ ما فى تأثيرهم بينما استمر المسلمون المخلصون يسيرون على النهج السليم لأنهم كانوا على بيّنة من دينهم الذى دانوا به . هذا وقد حاول كثير من المؤرخين والكتاب أن يصوروا الموالى وكأنهم طبقة متميزة مظلومة فى المجتمع الإسلامى عاملهم العرب أسوأ معاملة واستدلوا على ذلك برفض العرب تزويج بناتهم من الموالى وعدم ترحيبهم بفكرة الزواج من الأجنبيات ، وحرمان الموالى من الوظائف وفرض الجزية عليهم كما عمل الحجاج فى العراق ، وعدم إعطائهم الأعطيات فى الجيش كالعرب .

والمتصفح لتاريخ الدولة الأموية يجد أن هذه الأحكام أطلقت جزافا وبدون تمحيص ، فقد استخدم الأمويون الموالى وأهل الذمة فى الدواوين وهى عماد الإدارة المحلية واستخدموا فى الجباية والأمور المالية على نطاق واسع (٢) ، وهذا الأمر جعل كثيرا من أهل الكتاب يتظاهر بالإسلام ليسرب ما يريده باسم العلم والتفوق فى مجاله الذى أتاحته لهم الدولة الإسلامية من أوسع الآفاق . كما وصل الأمر بالموالى

---

(١) د / الطيب النجار الموالى ص ٤٤ .
(٢) الدورى – الجذور – ص ١٦ .

أن تسلموا الإمارة وقيادة الجيوش ، ولو اقتصرت الإمارة على العرب لكان لهم المبرر بحكم أنهم أول الشعوب الإسلامية التى وصلت النضج الإسلامى وهم أقدر الناس على نقله إلى الأمم بصفائه بحكم أنه نزل بلغتهم ، ومن الموالى الذين وصلوا الإمارة : موسى بن نصير وكان والده من سبى عين التّمر ويقال إنه من أراشة من بلى سبى من جبل الخليل بالشام أيام الصديق [١] ، وكان معاوية قد استعمل والده على حرسه ولم يسر معه إلى صفين فلما سأله عن السبب قال : لا أشركك بكفر من هو أولى منك وهو الله عز وجل ، فسكت عنه معاوية [٢] .

وبلغ حيان النبطى مركزا عظيما فى خراسان ، كذلك ابنه مقاتل بن حيان [٣] وأما طارق بن زياد مولى موسى بن نصير فقد تولى قيادة فتح الأندلس [٤] وولى أبو المهاجر دينار مولى الأنصار أفريقيا سنة ٤٧ هـ [٥] وتولى يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج ولاية أفريقية أيضا وكان من الموالى ولما قتل ولوا محمد بن يزيد مولى الأنصار سنة ١٠٢ هـ [٦] وفي زمن سليمان ويزيد الثانى كان أسامة بن يزيد من أهل دمشق والى الخراج على مصر [٧] وولى عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبيد الله مولى بنى مخزوم والياً على أفريقية [٨] وأما هشام فقد أراد أن يولى عقفان مصر ثم عدل عن ذلك فولاه أمر العصاة ثم على الصدقة [٩] .

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٧١ .
(٢) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٥٣٩ .
(٣) نفسه ج ٩ ص ١٧١ .
(٤) الجهشيارى ص ٦٤ .
(٥) الطبرى ج ٦ ص ٦١٧ . الجهشيارى ص ٥٧ . ابن عبد الحكم ص ٢١٣ .
(٦) ابن عبد الحكم ص ١٩٧ .
(٧) الجشهيارى ص ٥١ .
(٨) وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر الأنصارى مفقه أولاد عبد الملك ، وقد أسلم عامة البربر فى أيامه وتوفى عام ١٣٢ هـ قبل دخول بنى العباس دمشق بثلاثة أشهر . تاريخ الإسلام للذهبي ج ٥ ص ٢٢٦ / ابن عذارى ج ١ ص ٤٥ / ابن خلدون ج ٤ ص ٤٠٣ .
(٩) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥١ . الأنساب ج ٨ ورقة ٢٣ .

وأما كتاب الدواوين وأشهرهم عبد الحميد الكاتب فتدل قائمة أسمائهم على أنهم من الموالى [١] .

وانفتح مجال القضاء أمام الموالى فكان شريح قاضى الكوفة من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن [٢] ، وتولى سعيد بن جبير القضاء ثم عطاء الجند زمن الحجاج [٣] .

وعلى ذلك يكون الأمويون قد اعتمدوا على من أسلم من الموالى وأشركوهم وعينوهم فى أرقى المناصب [٤] ويكفى دور رجاء بن حيوة فى اختيار عمر بن عبد العزيز للخلافة دليلا على تقدير واحترام الأمويين للموالى [٥] .

وانصرف كثير من الموالى للعلم ميدانهم الفسيح حتى جاء عهد كان الموالى فيه رؤوس العلم والمعرفة لا يساويهم فى هذا أحد من المسلمين العرب ، واشتغلوا بالتدوين فعن الزهرى قال :

كنا نكره أن يكتب عنا العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا ألا يمنعه أحد من المسلمين [٦] .

وعن طريق نبوغهم فى العلم تسللت قصص أهل الكتاب إلى المسلمين ، سللها من كان أصله من أهل الكتاب ومنهم من اشتهر بالتقوى والتدين كتميم الدارى الذى كان أول من قص القصص [٧] . فنقلوا أحاديثهم إلى تفسير القرآن فتضخم التفسير بالإسرائيليات والنصرانيات وممن نقل ذلك ابن جريج النصرانى الأصل ، ومجاهد الذى اشتهر بكثرة سؤاله لأهل الكتاب والأخذ عنهم [٨] .

وأما بالنسبة للجزية : فلم يكن التفريق بين جزية الرأس والخراج واضحاً

---

(١) انظر الجشهيارى ص ٣٨ – ٧٢ . نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٤٠ تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢١٦ .
(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٢ .
(٣) ابن سعد ج ٦ ص ١٨٥ . ج ٦ ص ٤٨٩ .
(٤) الريس – الخراج والنظم المالية فصل بنو أمية والموالى ص ٢٨٠ – ٢٨٧ .
(٥) انظر ابن سعد ج ٥ ص ٢٤٧ . الطبرى ج ٦ ص ٥٢ .
(٦) الأنساب ج ٩ ورقة ٤٦٩ .
(٧) الإصابة ج ١ ص ١٩١ .
(٨) ابن سعد ج ٥ ص ٣٤٤ .

زمن الأمويين إلى أن قام الخليفة عمر بن عبد العزيز بالتمييز بين الخراج والجزية فاقتصر الخراج على الأرض التى فتحت عنوة سواء ملكها مسلم أو غير مسلم ، بينما أسقط جزية الرأس عمن أسلم من أهل الذمة إذا أظهر الإسلام واختتن وقرأ سورة من القرآن الكريم (١) .

أما قضية بناء المولى بعربية ، فقد اتصف العربىّ بفخره بنفسه ونسبه فكانوا فى جاهليتهم برغم تأخرهم يغالون فى تقدير أنفسهم ويحتقرون الأجناس الأخرى دون مبرر أو مسوغ من العقل والمنطق السليم (٢) وقصة كسرى وقد أراد أن يتزوج من بنات بنى المنذر مشهورة (٣) وحينما جاء الإسلام حارب العصبية ولكنه لم يمحها من بعض نفوس أصحابها فبقيت فى طوايا نفوسهم فأثارها أهل الكتاب من مكامنها ، فكان العربى يميز قبيلته عن غيرها ويميز فخذه عن الفخذ الآخر من نفس القبيلة بل يميز نفسه عن ابن عمه ، والشواهد لا تزال موجودة حتى الآن بيننا نحن العرب .. ومنافرات هاشم وأمية وهما ابن أخ وعم كثيرة (٤) ونافر حرب بن أمية عبد المطلب ابن هاشم (٥) وقال العرب كثيرا فى ذم باهلة وهى قبيلة عربية حتى أفحشوا فقيل فيها :

ولـــو قيـــل للكـــلب يا باهلى عوى الكلب من لؤم هذا النسب (٦)

فاكتسب هذا التعالى والفخر صفة العادات والتقاليد لدى العربى فكان يرى أنه من العار إذا رغب مولى البناء بعربية ، فيحكى أن سلمان الفارسى خطب ابنة عمر بن الخطاب من أبيها فوافق عمر ولكن أخاها بمساعدة عمرو

---

(١) الأنساب ج ٧ ورقة ١٣٩ .
(٢) محمد الطيب النجار . الموالى ص ١٥ .
(٣) انظر القصة / الكامل في التاريخ ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٩ .
(٤) النزاع والتخاصم ورقة ٦٨ / ص ٧ - ١٠ .
(٥) نفسه ورقة ٧١ ص ١١ .
(٦) ابن خلكان ج ٤ ص ٩٠ .

ابن العاص حال بينه وبين زواجه منها [١] ولماذا نعجب من هذه المواقف والبدوى حتى الآن يرى أنه من العار أن يزوج ابنته من قروى والعكس صحيح .

وتصفح أخبار عقيل بن علفة من مرة يظهر ما كان يحمله بعض العرب من الجفاء والعجرفة بالنسب فقد كان لا يرى له كفئاً فقد رفض أن يزوج ابنته من عثمان بن حيان أمير المدينة ، ولما أصبح يحيى بن الحكم أميرا للمدينة طلب منه أن يزوج ابنته من ابن خاله ابن أوفى ، فقال له : إن ابن خالك ليرضى منى بدون ذلك . قال : وما هو ؟ قال : أن أكفّ عنه سنن الخيل إذا غشيت سوامه . وقد أنكح إحدى بناته يحيى وزوج ابنته الجرباء يزيد بن عبد الملك بن مروان [٢] .

وصاهر سعيد بن حمزة آل الحرث بن عبد المطلب ، فلما دخل على عبد الملك بن مروان فى بعض شأنه قال له : بلغ من أمرك أن تزوج فى بنى هاشم ؟ فقال له سعيد : ما أصبت لى كفؤاً سواهم . فقال عبد الملك : إنما كان لكم فى بنى أمية كفء . قال : أما فى بنى الحكم فلا [٣] .

وعزل يزيد بن عبد الملك عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى عن المدينة لأنه طلب الزواج من فاطمة بنت الحسين [٤] .

وقد استرسلت فى هذه الأمثلة لأبيّن أن زواج المولى بعربية كان من الصعب قبوله على نفسية العربى لا لاحتقاره ولا استهانة به ولكنها مجرد العادات والتقاليد ، وقد حدث أن زوّج إبراهيم بن النعمان بن بشير يحيى بن أبى حفصة (جد مروان

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١١٢ . عيون المعارف مجلد ٢ . كتاب السؤدد ص ٢٦٨ .

(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٣٧٧ – ١٣٨٠ .

(٣) الإكليل ورقة ٣٧ ص ٤٠٦ .

(٤) عيون الأخبار ج ١٠ ص ١٦ .

الشاعر وكان يهودياً فأسلم على يد عثمان) ابنته ، فعيِّر فقال :

فما تركت عشرون ألفا لقائل مقالًا فلا تحفل مقالة لائم
فإن أك زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلى وحب الدراهم [١]

واهتمام العرب بالأنساب كان سبباً فى كرههم الزواج من غير العربية فكانوا يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد وخاصة فى المدينة ، فلما نشأ منهم على بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله بن عمر الذين فاقوا أهل المدينة فهماً وورعاً رغب الناس فى السرارى فقال رجل من أهل المدينة :

لا تشتمن امرءاً من أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللأحساب آباء
ورب واضحة ليست بمنجبة وربما أنجبت للفحل سوداء [٢]

وكان من أسباب كرههم لذلك أن المرأة تحمل معها دينها وعاداتها وتقاليدها فيتأثر الأولاد بذلك ، والإسلام يرى القدوة ويهتم بها .

وما دامت هذه نفسية العربى وعاداته وتقاليده كانت مجالا لأن ينفذ أهل الكتاب إلى المجتمع الإسلامى فيثيرون الموالى المسلمين ضد العرب بأن أشعروهم أن ذلك هو الازدراء والاحتقار ، فعملوا على التفريق بين العرب والموالى من جهة ثم التفريق بين العرب أنفسهم ، فاتسعت التجمعات القبلية لتصبح قيس ويمن أو العرب العدنانيين والعرب اليمنيين ، وهذا يقودنا لكتابة نبذة عن العصبية والشعوبية :

فالعصبية [٣] : ذات جذور قوية فى التاريخ العربى الجاهلى ، وكانت

---

(١) عيون الأخبار ج ١٠ ص ١٦ .
(٢) نفسه مجلد ٤ ج ١٠ ص ٩ .
(٣) العصبية : أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبيته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين وهى مشتقة من التعصب أى التجمع وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا على فريق آخر . لسان العرب ج ٢ ص ٩٦ .
ولما كان أقارب الرجل يعصبون به أى يلازمونه ويطيفون به سموا عصبة وقد أطلق هذا اللفظ على أقارب الرجل من جهة أبيه وهم قومه الذين يتعصبون له . لسان العرب ج ٢ ص ٩٥ .

عصبية الأسرة والقبيلة ولم تتسع يوما لتكون يمنية وقيسية ، أما النوع الواسع من العصبية فلم يظهر إلا فى فترة متأخرة فى عهد الإسلام لأهداف تحركت فى نفوس أهل الكتاب ومن تظاهر بإسلامه منهم فأثاروا الروح القبلية أولا ثم عملوا على تقسيم العرب إلى قيس ويمن فأوسعوا الساحة الإسلامية بالدماء ، وكانت قبيلة كلب النصرانية الأصل التى اعتنق معظمها الإسلام رائدة هذا الأمر ، وقبيلة تغلب التى بقيت فى معظمها نصرانية وسعت شقة الخلاف فى الشام ثم انتقلت إلى العراق وخراسان وشمال أفريقيا والأندلس . وعن طريق وضع الأنساب أسهم أهل الكتاب فى إثارة العصبية بين قيس ويمن ، فقد قال الأخباريون وهم فى معظمهم فى الأصل أهل الكتاب من اليمن وخاصة وهب بن منبه : أن جميع العرب يرجعون إلى ثلاثة رجال وهم عدنان وقحطان وقضاعة [١] وهذا التقسيم لم يوجد بين العرب فى الجاهلية ، نعم كان التكتل معروفا عندهم ولكن لا يوجد فى الشعر الجاهلى الموثوق بصحته ما يدل على هذا التقسيم كما لم يجد الباحثون فى الكتابات والنقوش الجاهلية ما يدل على ذلك .

وقد حاول علي مظهر أن يرجع ظهورها بين قريش وعامّة القبائل خاصة اليمنيين إلى زمن سعيد بن العاص والى الكوفة وقصته مع الأشتر السّواد بستان قريش [٢] وأجمع الكثيرون على أنها بلغت الأوج فى موقعة مرج راهط سنة ٦٥ هـ [٣] .

وقبل ذلك ظهر التحزب مثلا الأزد ضدّ ربيعة أو معد أو قيس ولكن لا نجد اجتماع القبائل كلها فى الحرب والسلم تحت رايتين راية قحطان أو راية عدنان على نحو ما يذكره الأخباريون الذين وضعوا الأنساب فى الإسلام وسط المعركة السياسية وهم معروفون بميلهم إلى الإسرائيليات فأخذت أنساب الأمم القديمة منذ عهد آدم وأبناء سام وبعض قبائل العرب البائدة من التوراة فى الغالب ومن أقوال

---

(١) ابن عبد البر – كتاب القصد – ورقة ٢٠ . ابن حزم – الجمهرة ص ٧ .
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣١٨ . المقفى مادة الأشتر . ابن أعثم ج ٢ ص ١٧١ .
(٣) محمد الطيب النجار – الموالى ص ٢٩ .

أهل الكتاب ، وكثيرا ما كان النسابون يشيرون إلى استمدادهم من هذين المصدرين (١) فقد روى أهل الكتاب أمثال وهب بن منبه وكعب الأحبار كثيرا من أخبار القدماء وأنسابهم ، وكان ابن إسحق يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم فى كتبه أهل العلم الأول (٢) . فمن الوضع فى الأنساب أن الهيثم بن عدى زعم أن جرهم بن عابر بن سبأ هو قحطان متأولا قول النبى ﷺ حين قال للرماة من الأنصار : « ارموا بنى إسماعيل » أنه عليه السلام نسبهم إلى إسماعيل من جهة الأمهات وما نالهم من الولايات من ولد إسماعيل (٣) ، وعمل اليهود على أن يدعى الفرس أنهم من ولد إبراهيم عليه السلام (٤) كما أرجعوا نسب الروم إلى إسحق بن إبراهيم(٥) . ونسبوا الفرس إلى إبراهيم عليه السلام(٦) .

وقد تنبه بعض القدماء إلى حقيقة وضع الأنساب ولكنه أجاب عنها بحذر فيذكر ابن حزم : « وبلاد قضاعة متصلة بالشام وبلاد اليونان والأمم التى بادت ممالكها بغلبة الروم عليها وبلاد بنى عدنان ولا تتصل ببلاد اليمن أصلا إلا أن الذى يقطع به ويثبت ويوقن ويحقق فهو أنه ليس على ظهر الأرض أحد يصل نسبه بصلة قاطعة ونقل ثابت إلى إسماعيل ولا إلى إسحق نعنى ابنى إبراهيم ، فكيف إلى نوح ؟ فكيف إلى آدم ؟ هذا ما لا مرية فيه » (٧) .

وبين ابن خلدون اختلاط الأنساب للقبائل العربية المتاخمة للفرس والروم فقال : « وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان مثل لخم وجذام وغسان وطيىء وقضاعة وإياد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم ، ففى كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف » (٨) .

---

(١) الجمهرة ص ٧ . المعارف ص ٦ . انظر جواد علي ج ١ ص ٣٤٨ .
(٢) الفهرست ص ١٤٢ .
(٣) المسعودى – مروج الذهب ج ١ ص ٣٨١ .
(٤) التنبيه والإشراف ص ٩٤ – ٩٦ .
(٥) نفسه ص ١٠٧ .
(٦) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٤٥ .
(٧) الجمهرة ص ٨ .
(٨) المقدمة ص ١٣٠ .

وأول من ألحق قضاعة باليمن عمرو بن مرة بن عيسى بن مالك من غطفان المتأثرة باليهودية من أهل الكتاب ، وكان قد عاش فى دمشق وعلى صلة بأهل الكتاب من اليهود والنصارى وبكلب خاصة ، وقد عبر أحد الشعراء عن أسفه وحذر قضاعة قائلا : (لا تهلكوا لجنة قالها عمرو) [(١)] .

الشعر : وأدرك أهل الكتاب ما للشعر من أثر فى نفوس العرب [(٢)] فتحرك الكتابيون العرب للقول وأثاروا النعرات القبلية والعصبيات منذ وقعة الجمل وصفين [(٣)] وفى زمن معاوية اتخذوا الشعر سلّماً لأغراضهم المكبوتة فى نفوسهم فأثروا على العرب المسلمين ، وكان الشعر أهم وسائل الدعاية وقد أقام العرب فى البصرة والكوفة أسواقا أدبية للمفاخرة والمفاضلة والمناشدة على غرار أسواقهم فى الجاهلية ، فكان المربد فى البصرة من أشهر الأسواق فدعى (عكاظ الإسلام) عقدت فيه مجالس العلم والأدب وحلقات المناشدة والمفاخرة ، وتوافد إليه الشعراء ومعهم رواتهم للمفاضلة والمناشدة أو المحاكمة .

ووجد فى الكوفة سوق الكناسة كمنتدى المربد ، وتسلل أهل الكتاب إلى هذه المنتديات وأشعلوا الحماس فى قلوب القبائل المختلفة بعضها ضد بعض ، ورجعة واحده إلى تاريخ الأدب العربى يتبين لنا أثر الشعراء وخاصة الأخطل وجرير والفرزدق فى توجيه الحركة الكلامية إلى إثارة العصبية فى نفوس القبائل وإذكائها . فأساءوا استخدام الشعر فانقلب إلى ضرر [(٤)] ، وكان عمر بن الخطاب قد أوجس خيفة من ذلك فضيق على الشعراء فى مواطن سوء استغلاله وروى عنه رضى الله عنه يحث المسلمين : « رووا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر [(٥)] ،

---

(١) الجمهرة ص ٤٤٥ . ابن عبد البر – كتاب القصد ص ٢٤ .

(٢) مخطوطة الشعر ص ٧ .

(٣) انظر وقعة صفين لنصر بن مزاحم . والفتوح لابن أعتم . الجزء الثالث بأجمعه .

(٤) انظر كتاب الزينة ج ١ ص ١٠١ . مخطوط فى الشعر ص ٧ .

(٥) الرافعى – تحت راية القرآن ص ٩٣ .

وارووا من الشعر أعفّه » (١) وأوشك أن يقطع لسان الحطيئة لأنه أطلقه فى الهجاء (٢) .

وأدرك أهلِ الكتاب استطاعتهم التسلل للمجتمع المسلم عن طريق الشعر فجنّدوا شعراءهم ومنهم :

أبو زبيد الطائى الشاعر النصرانى ، وكان يقيم أكثر أيامه بين أخواله بنى تغلب (٣) وكان قد تقرب من عثمان بن عفان (٤) ثم إلى الوليد بن عقبة وأثر على سمعة الوليد كما سبق فى هذا البحث .

وأدرك معاوية خطر الشعر فحذر عبد الرحمن بن الحكم قائلا :

« ياابن أخى إنك لهجت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء ، فتعر الشريف ، والهجاء فتعر كريماً وتستثير لئيماً ، والمدح فإنه طعمة الوقاح ، ولكن افخر بمفاخر قومك وقل من الأمثال ما تزين به نفسك وتؤدب به غيرك » (٥) .

ولكن ابنه يزيد استمع إلى عبد الله بن همام السلولى عندما طلب إليه البيعة لابنه معاوية وحرضه قائلا :

أديروها بنى حرب عليكم ولا ترموا بها الغرض البعيدا (٦)

وانقطع نابغة بنى شيبان وهو شاعر نصرانى إلى عبد الملك يمدحه واستغل ثقته به للإيقاع بين البيت الأموى فحرضه على خلع أخيه عبد العزيز فى مثل قوله :

لأبنك أولى بملك والـــده ونجم من قد عصاك مطرح

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٣ .
(٢) الجمهرة ص ١٥ .
(٣) الأغانى ج ١ ص ٢٣٤ . فحول الشعراء ص ٥٢٤ . الطبرى ج ٤ ص ٢٧٣ - ٢٧٦ .
(٤) فحول الشعراء ص ٥٠٥ .
(٥) الكامل ج ٤ ص ١٢ .
(٦) فحول الشعراء ص ٥٢٤ . النقائض ص ٣ .

ولم يتكلم عبد الملك بإقرار أو دفع ، ولما بلغ قوله عبد العزيز قال :

« أدخل ابن النصرانية نفسه مدخلا صعبا وأوردها موردا خطرا ولله عليّ إن ظفرت به لأخضبنّ قدمه بدمه » (١) .

ورأى عمر بن عبد العزيز شدة أثر الشعراء فعمل على الحد من تأثيرهم فقال لجرير لما مدحه : « ما أرى لك فى مال الله حق ، ولكن انتظر عطائى فانظر مايكفِ عيالى سنة منه فأدّخره لهم ، ثم إن فضل فضل صرفناه إليك » . ولما خرج جرير قال لأصحابه وفيهم الفرزدق :

« خرجت من عند رجل يقرب الفقراء ويباعد الشعراء وأنا على ذلك عنه راضٍ » (٢) .

ولما مدحه الأعشى التغلبى النصرانى لم يعطه شيئا وقال له :

« ما أرى للشعراء فى بيت المال حقا ، ولو كان فيه حق لما كان لك ذلك لأنك امرؤ نصرانى » فقال الأعشى متحسرا على الوليد :

لعمرى لقد عاش الوليد حياته إمام هدى لا مستزاد ولا نزر
كأن بنى مروان بعد وفاته جلاميد ماتندى ولوبلّها القطر (٣)

ولما شبّب الأحوص فى شعره بنساء أهل المدينة وتغنّى به معبد ومالك أمر سليمان بن عبد الملك والى المدينة أن يضربه مائة ويسيره إلى دهلك ، فلما ولى الخلافة عمر رفض شفاعة أهل المدينة بإرجاعه قائلا :

« والله لا أرده ما بقى لى سلطان » (٤) .

والمهم فى الأمر أن أهل الكتاب استغلوا الشعر أسوأ الاستغلال فأثاروا به

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٨٢٨ (كتاب التحرير) .
(٢) نفسه ج ٣ ص ٨٩٣ .
(٣) نفسه ج ٣ ص ١٢٧٨ .
(٤) الأغانى ج ٢ ص ٥٤٩ .

التناقضات ووسعوها ، كما استطاعوا أن يحولوا الصراع بين الأحزاب الإسلامية إلى صراع عصبيات ، وكان الأخطل فارس هذا الميدان .

والأخطل اسمه غياث بن غوث نصرانى من أهل الجزيرة تغلبى ، والأخطل لقب له معناه السفيه . لقب به عندما هجا رجلا من قومه وهو غلام [١] واقتصر مدحه على الأمويين فمدح يزيد بن معاوية وبشر بن مروان والوليد كما مدح الحجاج وعباد بن زياد ومسلم بن زياد ومن إليهم . وهجى القيسية والزبيريين وانتهى إلى هجاء نصيرهم ولسانهم جرير ، كما بلغ به الأمر أن هجا الأنصار فقال فيهم :

ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار [٢]

ويذكرنا موقفه هذا بموقف شاس اليهودى فى محاولة الإيقاع بين الأوس والخزرج فكان أن غضبت الأنصار ودخل النعمان بن بشير على معاوية فحسر عمامته ثم قال : يامعاوى أترى لؤما ؟ فقال : ما أرى إلا كرما . فقال النعمان :

معاوى ألا نطقت الحق تعترف ... لحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة ... فما الذى تجدى عليك الأراقم
فمالى ثأر دون قطع لسانه ... فدونك من ترضيه عنك الدراهم

فوهبه معاوية قطع لسانه فأسرع الأخطل إلى يزيد الذى ركب إلى النعمان فاستوهبه إياه فوهبه له [٣] .

وأصبح للأخطل فى عهد عبد الملك مركز سياسى بجانب مركزه الأدبى فى الشعر والمديح فكان أشبه بسفير تغلب والنصارى عند عبد الملك يتكلم بلسانهم

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٩٥٠ .

(٢) الجمحى – طبقات الشعراء ص ٣٩٦ . المبرد – الكامل ج ١ ص ١٧٩ . العقد الفريد ج ٥ ص ٣٢٢ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٣٨٦ . المبرد ج ١ ص ١٧٩ – العقد الفريد ج ٥ ص ٣٢٢ – الأغانى ج ٤ ص ١٦٤٣ (كتاب التحرير) .

ويعبر عن مصالحهم ، وتمكن من تعميق حدة التهاجى بين جرير والفرزدق وهما من تميم .

وكانت تغلب قبيلة الأخطل مشبوهة المواقف تجاه المسلمين فكان على بن أبى طالب يقول : « لئن تفرغت لبنى تغلب ليكونن لى فيهم رأى ، لأقتلن مقاتلتهم ولأسبين ذراريهم فقد نقضوا العهد وبرئت منهم الذمة حين نصّروا أولادهم » [(١)] .

وكان العرب الذين نزلوا الشام بعد الفتوح جلّهم يمانية ولهذا ضرب المثل بذلة القيسي [(٢)] فى حمص .

وفى العراق : كانت أكثرية الكوفة من أهل اليمن ، فى حين أن البصرة كان جل أهلها من مضر .

كما توافدت القبائل العربية إلى مصر وخراسان وشمال أفريقية والأندلس ، ولما كان كثير منهم ممن أصله من أهل الكتاب فقد عمل من تظاهر بإسلامه على إبقاء النعرة القبلية ووضعت الأشعار المنسوبة إلى التبابعة فى أيام معاوية وابنه يزيد وضعها عبيد بن شربة الجرهمى ، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ (توفى سنة ٦٩ هـ) وهو الشاعر المتعصب لليمن ، حمله تعصبه ولا شك على وضع قصص تبع [(٣)] فكانت البصرة مسرح العصبية الأولى وتجددت أحلاف الجاهلية المزعومة وهو حلف الأزد وربيعة بعد هروب عبيد الله بن زياد ، فادّعوا أن لهذا الحلف أصلا قديماً يعود إلى أيام الجاهلية ونسبوا إلى المهلهل شعراً بيّن الوضع يشير فيه لهذا الحلف ، وتحرك غطفان بن أنيف الشاعر التميمى يستثير تميماً على مسعود الأزدى فكانت فتنة البصرة القبلية [(٤)] .

---

(١) ابن الجوزية وأحكام أهل الذمة ص ٧٨ .

(٢) الميدانى – مجمع الأمثال ج ١ ص ٢٩٤ . الإدريسي ص ٣٢٤ .

(٣) جواد على ج ١ القسم السياسى ص ٣٤٧ .

(٤) انظر الطبرى ج ٥ ص ٥١٥ – ٥٣٥ – الإصابة ج ١ ص ١١٧ الكامل ج ٤ ص ١٤٢ .

وأما العصبية التى أثارتها فى الشام كلب وتغلب فكانت من القوة بحيث لا توازيها عصبية أخرى وكانت جرحاً لم يقدر له أن يندمل فى تاريخ الإسلام فقد تمكنت القبيلتان من تحويل الصراع بين الأمويين والزبيريين إلى صراع قبلى خفت فيه صوت الإسلام ، وتميزت وقائعها بضخامة عدد القتلى وألوان الوحشية التى تجلت فيها كقتل الأسرى وبقر بطون النساء وهذه العادات لم تكن مألوفة أو معروفة بين العرب ولكنها كانت مألوفة بين قبائل أهل الكتاب فى الشام قبل الإسلام [١] . فقد كانت الأمة الإسلامية قد أجمعت على خلافة عبد الله بن الزبير بمكة ، فتحركت كلب أصهار بنى أمية ودفعوا زعيمهم حسان بن بحدل لادّعاء الخلافة لنفسه بحجة أن معاوية الثانى عهد إليه عند موته أن يصلى بالناس ، ولما سلمها إلى بنى أمية قال جماعة من قومه بنى كلب :

« ماله أخزاه الله لم ير نفسه ولا قومه لها أهلا » [٢] ، كما لعب الكلبيون ومن ورائهم النصارى يثيرونهم دوراً بارزاً فى اتفاق الجابية الذى تم بعد صعوبات وشروط كثيرة كشروط حسان وعمرو ومالك ، فكانت سبب الوقيعة بين اليمنية والقيسية [٣] وبعد أن كان مروان على نية مبايعة ابن الزبير بايعه الكلبيون وعبيد الله ابن زياد [٤] بالخلافة ، فكان عهد مروان بن الحكم والقسم الأول من خلافة عبد الملك صراعا قبليا كالذى كان فى الجاهلية ، واتخذ شكل أيام العرب ولكن بشكل أكثر اتساعا وأكثر شمولًا ووحشية !

وكان من مقدمات يوم المرج – يوم جيرون – أثارته غسان وكلب [٥] . ثم كان يوم المرج [٦] ظاهرها النزاع بين قيس وكلب وباطنها الرغبة فى القضاء على

---

(١) ولهوزن ص ١٧١ .
(٢) النقائض ص ٧ .
(٣) انظر تاريخ الخميس ج ٢ ص ٣٧ . الاستقصاء ج ١ ص ١٦٤ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٥٣٠ .
(٥) انظر الأنساب ج ٥ ص ٤٧٦ .
(٦) انظر الطبرى ج ٥ ص ٥٣٥ – ٥٤٤ . ابن سعد ج ٥ ص ٢٥ – ٣٦ صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩٥ . أبو الفدا – المختصر ج ٢ ص ١١٠ .

دولة الإسلام بإثارة الأحقاد بين حمير ومضر ، على أننا نلاحظ أن الصراع حتى فى يوم المرج لم يكن التعصب لقيس أو يمن واضحا فقد كتب الضحاك إلى زفر بن الحارث الكلابى بقنسرين كما كتب إلى ناتل بن قيس الجذامى بفلسطين وإلى النعمان بن بشير بحمص يستنجدهم وكانوا على طاعة ابن الزبير فأمدوه ، وهذا ما جعل الدكتور الدورى يستنتج بحق أن واقع تطور المجتمع العربى كان يشعر بأن القبيلة كانت فى مرحلة ضعف وتراجع وأن الاتجاهات الحزبيّة هى التى اكتسحت الميدان (١) ... وكانت نتائج المرج مريرة استغلها الكلبيون أبشع استغلال فعدوا انتصارهم يوما من أيام العرب فى الجاهلية وتناقلوا الأشعار يفتخرون بانتصارهم ويعيرون القيسيين بانخذالهم ، فنفث الشعراء السموم وتولى عمير بن الحباب زعامة قيس لمعركة الثأر وأخذ يغير بهم على كلب واليمانية ... ورغم أن تغلب أقرب إلى القيسيين منها إلى كلب إلّا أنهم كنصارى افتخروا بانتصار كلب فحصل الاحتكاك بين عمير وتغلب قبل شخوص عبد الملك إلى زفر والمصعب (٢) ، فاتجهت تغلب إلى زفر تطلب منه إخلاء السّلميين الخابور ولكنه لم ينجح رغم مساعيه فاشتعلت الحرب بين تغلب وسليم ، كما تمكن عمير أن يقنع مصعب بن الزبير أن تغلب النصرانية حرية بالتفاهم مع أهل الشام ، ولكن المصعب عزل قبل أن يحدث لهم حدثا (٣) ، ولكن عمير تمكن أن يفتك بهم فى ماكس أو ماكسين (٤) ، بمساعدة زفر الذى قال بعد أن أغارت تغلب على بنى الحريش ومن معهم من قشير :

« شغلت قيس بغزل نسائها عن هؤلاء النصارى » (٥) وهزمت أيضا تغلب بالشكير وفى يوم المعارك (٦) . ولكنهم انتصروا يوم الحشاك على نهر الثرثار وقتل

---

(١) الجذور التاريخية ج ٦ ص ٢٣٢ .
(٢) الأنساب ج ٦ ص ٢٠٨ . الكامل ج ٤ ص ٤ .
(٣) الأنساب ج ٦ ص ٢٣٢ .
(٤) الأغانى ج ٤ ص ١٧٣٥ .
(٥) الأنساب ج ٦ ص ٢١٣ .
(٦) نفسه ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

عمير وانهزم زفر [١] وهنا تحرك الأخطل شاعر تغلب ليحول الصراع إلى عصبية مع الشعراء الآخرين فقال :

فقد نهضت للتغلبيين حية ... كحية موسى يوم أيّد بالنصر
فنحن قتلنا ابن الحباب مغربا ... وقد كان سِكْراً دونكم أيما سِكْر

فأجابه نفيع بن صفار :

وقد علمت أفناء بكر وتغلب ... أبا مالك فى الحرب أن بئس ما تجرى
قتلتم عميرا لا تعدون غيره ... وكم قد قتلنا من عمير ومن عمرو [٢]

وأرسلت تغلب رأس عمير إلى عبد الملك وهو بغوطة دمشق فجعلوا ذلك منّة عليه [٣] ، وانضمت النمر إلى تغلب ولكن زفر أوقع بهم الهزيمة يوم الكحيل على بعد عشرة فراسخ من الموصل [٤] . وانهزمت تغلب أيضا يوم الثرثار الثانى وقتل ابنا يسوع بن حرب ومحكان وعبد الحارث من بنى الأوس من تغلب [٥] ويستمر الأخطل فى إثارة العصبية وتحويل وجهة الصراع إليها وشعراء تغلب دون أن ينسوا التعبير عن حقيقة الصراع الكامنة فى نفوس النصارى تجاه المسلمين فيقول الأخطل أو ليلى بنت الحمارس التغلبية :

لما رأونا والصليب طالعا ... ومارسرجيس وسماً ناقعا
والخيل لاتحمل إلا دارعا ... والبيض فى أيماننا قواطعا [٦]

ويجيب جرير على الأخطل ، فيخفت صوت الإسلام إلى حين ويحاول

---

(١) الأنساب ج ٦ ص ٢٢٣ . ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥ الكامل ج ٤ ص ٣٠٩ - ٣٢٢ .

(٢) النقائض ص ٣٣ والسكر ما يسدّ به النهر ونحوه . المعجم الوسيط ج ١ ص ٤٣٨ ط ١ دار المعارف بمصر . ١٣٩٢ هـ . ١٩٧٢ م .

(٣) الأنساب ج ٦ ص ٢٢٧ .

(٤) الأنساب ج ٦ ص ٢٦٥ . النقائض ص ٢٢٦ .

(٥) الأنساب ج ٦ ص ٢١٨ .

(٦) نفسه ج ٦ ص ٢١٨ .

الأخطل إثارة عبد الملك على زفر عندما يراه بحضرته وعلى سريره فقال : « ياأمير المؤمنين أيقعد زفر هذا المقعد وقد قاتلك وحاول زوال نعمتك وسلبها » ؟ فقال زفر : « إنا كنا قاتلناك بالأمس ثم أرانا الله خيراً مما كنا فيه فواليناك ودخلنا فى أمرك فنحن اليوم فى طاعتك على أشد مما كنا فيه من معصيتك فلا تسمعن ما يقول هذا القدوسكى النصرانى ، ولا تولّ قومه فإنّا أمسّ بك قرابة وأوجب عليك حقا » (١) .

واستمر فى التقرب من عبد الملك والمن عليه بقتال تغلب وكلب إلى جانب بنى أمية فيذكره يوم المرج ويمنّ عليه ويذم قيساً فى قوله :

وقد كان يوما راهط من ضلالكم ... فناء لأقوام وخطباً من الخطب (٢)

وكان يحاول ألا تفوته فرصة دون المن على عبد الملك وبنى أمية فيذكر عبد الملك برأس عمير عند تحريضه على زفر فيقول :

ولقد نصرت أمير المؤمنين بنا ... لما أتاك ببطن الغوطةِ الخبر (٣)

وكأن جريراً أدرك هدف الأخطل والنصارى فى التضليل فقال فى بعض رده :

يقضى الكتاب على الصليب وأهله ... ولكل منـزِلِ آيـةٍ تأويـلُ
إن النبوة والخلافة والهدى ... عن رغم تغلب فى الحياة طويل
خالفتم سبل النبوة فاخضعوا ... بجزى الخليفة والذليل ذليل (٤)

وقد استغل الأخطل ثقة عبد الملك بشعره الفذّ أبشع استغلال ، فلما بصر الجحاف عند عبد الملك قال :

ألا أبلغ الجحاف هل هو ثائر ... بقتلى أُصيبت من سليم وعامر (٥)

---

(١) الأنساب ج ٦ ص ١٩٢ . انظر الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٣٣٧ – ٣٤١ .
(٢) النقائض ص ٩٨ .
(٣) النقائض ص ١٦١ .
(٤) نفسه ص ١٨٤ .
(٥) نفسه ص ٢٢٩ . الكامل للمبرد ج ٢ ص ٩٨ . الأنساب ج ٦ ص ٢٣٣ .

فأجابه الجحاف :

بلى سوف نبكيهم بكل مهند ونبكي عميرا بالرماح الخواطر

ثم قال له : يا ابن النصرانية ما ظننتك تجترىء عليّ بمثل هذا ولو كنت مأسوراً [١] . وخرج الجحاف وافتعل عهداً من عبد الملك له على صدقات بكر وتغلب وصحبه من قومه ألف فارس فهاجم تغلب يوم الرحوب [٢] وبئر البشر [٣] وقتل كثيرا منهم حتى قال لهم الشمرذى : إنكم إن دفنتموهم فرأى الناس كثرتهم غزوكم استقلالا لكم واجتراء عليكم فأحرقوهم [٤] وهرب الجحاف إلى بلاد الروم حتى أمنه عبد الملك فحاول الأخطل استعداء عبد الملك عليه فقال :

فسائل بنى مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف ما يزال يوصل [٥]

وكانت تغلب تظن أن عبد الملك سيقتل الجحاف فلما خلّاه قال له الأخطل : خليته وقد فعل ما فعل بجيرانك :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعول [٦]

وتشتدّ المعركة الكلامية بين الشعراء فيحاول جرير استعداء عبد الملك على تغلب وتظهر العداوة بين كلب وقيس ولكن فى مكان آخر فافتعل حميد بن حريث بن بحدل سيد كلب فى حرب عمير عهداً يجمع صدقات فزارة وقتل كثيراً منها [٧] فتدخل عبد الملك وأصلح بين الفريقين ودفع الديات ، ولكن فزارة أخذت الديات وابتاعت بها خيلا وسلاحاً وأغارت على بنى عبد ودّ وبنى عليم وهما

---

(١) انظر الأغانى ج ٤ ص ١٣٥٤ .
(٢) الأنساب ج ٦ ص ٢٣٤ .
(٣) الأغانى ج ٤ ص ١٣٥٤ .
(٤) الأنساب ج ٦ ص ٢٣٤ .
(٥) النقائض ص ٦٢ . الأنساب ج ٦ ص ٢٣٦ .
(٦) المبرد . الكامل ج ٢ ص ٩٨ . النقائض ص ٦٣ .
(٧) الأنساب ج ٦ ص ١٩٩ – ٢٠١ . شرح حماسة أبى تمام ج ٢ ص ٩٦ .

بطنان من كلب فى بنات قين ، فغضب عبد الملك وأمر واليه على الحجاز وهو الحجاج يومذاك أن يوجه إليه سعيد بن عيينة وحلحلة بن قيس الفزاريين وهما اللذان قادا جموع فزارة يوم بَنات قين ودفعهما إلى كلب فقتلتهما ، فلقى قتلهما إنكارا شديدا من جانب قيس وابتهاجا من جانب كلب فقال أحد شعرائهم :

نحن قتلنا سيدهم بشيخنا   سويد فما كانا وفاء به دما

وتمكن عبد الملك بحكمته أن يحقق الهدوء بين الحيَّيْن بعد ذلك (١) .

وكما استطاع الشعراء فى الشام تحويل النزاع الحربى والسياسى إلى صراع قبلى موسع فقد استطاعوا ذلك فى العراق التى تعددت عناصرها من يهود ونساطرة وعرب وفرس وشيعة وزنج ، وتمثّلت حركة العصبية فى حركة ابن الجارود الذى دفعه للثورة الهذيل بن عمران البرجمى وعبد الله بن حكيم المجاشعي وغيرهم (٢) وأثناء ثورته استغل الزنج الفرصة وعلى رأسهم رباح شيرزنجى ويعنى أسد الزنج فأفسدوا فى جنوب العراق (٣) .

وفى موقعة الجفرة سنة ٧٠ هـ بين خالد بن عبد الله بن أسيد وكان من قبل عبد الملك وبين أهل البصرة من أصحاب مصعب يتضح الميل إلى العصبية — فقد قال رجاز تميم —:

نحن ضربنا الأزد بالعراق   والحى من ربيعة المراق (٤)

كما أن وجود الأسر العريقة فى العراق وخاصة كندة جعلها تستمر فى مناوئة قريش فكان أبناء الأشتر والأشعث يشتركون فى كل فتنة تقوم ضد الحكم الأموى (٥) كفتنة يزيد بن المهلب التى تمثلت فيها ازدياد روح العصبية بين

---

(١) الأنساب ج ٦ ص ١٩٩ — ٢٠١ . شرح حماسة أبي تمام ج ٢ ص ٩٦ .
(٢) الأنساب ج ٧ ق ٢ ورقة ٥ — ٧ . الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٣٨٥ . .
(٣) الأنساب ج ٧ ق ٢ ص ١٣ .
(٤) المبرد ج ١ ص ١٣١ .
(٥) انظر الأنساب ج ٨ ورقة ٢٥١ .

القيسية واليمنية والربعية (١) وكان الذى حرض الحجاج على يزيد هم أهل الكتاب إذ تنبأ له راهب بأن يزيد سيكون خليفة (٢) .

وقد رأى بعض المؤرخين أن الخلفاء الأمويين أثاروا العصبية أو شجعوها لمصالحهم الخاصة وهذا مبالغة ومجافاة عن الحقيقة ، فالعصبية اليمانية والقيسية كانت فى مرحلة التكوين والصراع كان حزبيا أكثر منه قبلياً ، رغم المحاولات الحثيثة التى قام بها الكلبيون والتغلبيون ومن شايعهم من الشعراء الذين ردوا عليهم لتحويل الأمر إلى عصبية . وكان الخلفاء الأمويون يختارون الأصلح لهم والمطواع لأمرهم ، فكان الانقسام القبلى نتيجة لا أصلا إذ وقفت الدولة الأموية بوجه عام ضد الصدامات القبلية ولم تؤيدها ، فزياد بن أبيه لجأ إلى أخذ رؤوس القبائل بسفهائها وملحقى الفتنة فيها لإطفاء نار العصبية ، ووجه جماعات كثيرة من أهل المصرين البصرة والكوفة إلى خراسان ليستقروا فيها . كما أن توزيعه قبائل الكوفة أرباعا كانت الغاية منه على رأى ولهوزن ولامانس (٣) القضاء على عصبية القبائل فى الكوفة ، بأن جعل عليها رؤساء يعينون من قبله ليضمن ولاءهم له . وأما عبد الملك الذى رأى العصبية قد اشتدت فى الشام بفعل كلب وتغلب فقد أخذ يتخلص بالتدريج من نفوذ القبيلتين فقرب إليه رجالًا من القيسية واليمنية على حد سواء واستمالهم جميعا ، واعتمد على جميع أهل الشام فى الحرب والإدارة ففوّت الأمر على أهل الكتاب فقبعوا إلى حين دون أن يكلّوا أو يهدأوا عن حمل الحطب وإشعال النيران .

وموقف عبد الملك من العصبيات جعل كلبا وتغلب تشتدان فى محاولات إثارته عن طريق الشعراء فيخاطب عمرو بن المخلاة الكلبى بنى أمية فينكر عليهم كفرانهم صنيعهم وإظهار الجفاء لهم ويذكرهم بلاء قومه فى نصرتهم يوم جيرون ويوم مرج راهط فى قوله :

---

(١) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٢١ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٩٢ - ٣٩٥ حوادث سنة ٨٥ هـ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٧٩ - انظر خروج يزيد - الطبرى ج ٦ ص ٥٩٣ - ٥٩٥ .

(٣) فلهوزن ص ١٠٣ . إحسان النص ص ٢٤١ .

ضربنا لكم عن منبر الملك أهله بجيرون إذ لا تستطيعون منبرا
وأيام صدق كلها قد عرفتم نصرنا ويوم المرج نصراً مؤزراً
فلا تكفروا حسنى مضت من بلائنا ولا تمنحونا بعد لين تجبّرا [١]

وأما جواس بن القعطل الكلبى فيبدو كلامه أعنف وأقسى لهجة حتى أنه اتهم عبد الملك بالجبن والخوف يوم الموقعة فيقول :

أعبد المليك ما شكرت بلاءنا فكل فى رجاء الأمن ما أنت آكل
بجابية الجولان لولا ابن بحدل هلكت ولم ينطق لقومك قائل
وكنت إذا أشرفت من رأس هضبة تضاءلت إن الخائف المتضائل [٢]

ولكنه أى جواس يلجأ إلى المداراة واللين عندما يرى أن عبد الملك مستمر فى تصفية العصبية ليحوله عن خطه فيقول :

صبغت أمية بالرماح دماءنا وطوت أمية دوننا دنياها
أأمي رب كتيبة مكروهة صيد الكماة عليكم دعواها
كنا ولاة حربها وطعانها حتى تجلت عنكم غماها
فالله يجزى لا أمية سعينا وعلًا شددنا بالرماح عراها [٣]

ويجارى أعشى تغلب النصرانى الأخطل فى ثورته على بنى أمية لصنيع بشر بشمعلة فيقول يمن عليهم :

وكم قد دفعنا عنكم من ملمة ولكن أبيتم لا وفاء ولا شكر
ألم نكفكم قيساً وقيس مهيبة وبرّبةً قلبا حواجبها صعر
ونحن قتلنا مصعبا قد علمتم بمسكن يوم الحرب أنيابها كشر
فمارب ذاك الفضل كاسر عينه هشام ولا عبد العزيز ولا بشر [٤]

---

(١) حماسة أبي تمام ج ٤ ص ٦٦ . الأنساب ج ٥ ص ١٣٥ .
(٢) حماسة أبي تمام ج ٤ ص ٦٨ .
(٣) شرح حماسة أبى تمام ج ٤ ص ٧٠ .
(٤) انظر الأغانى ج ١١ ص ٤٠٦٩ ، ديوان الأعشى والأعشين ص ٢٨٩ احسان النص – العصبية القبلية ص ٦١٥ .

فتغلب تحاول بإثارة روح العصبية إبعاد عبد الملك من إعادة الأمور إلى نصابها ، وستعمل على إثارة المفاخرات والمهاترات بين الشعراء فى نطاق العصبيات الصغرى عندما ترى الفشل فى موطن الخلافة فى خراسان والأندلس . فكانت العصبية فى خراسان صدى لعصبية أهل الشام فقد وثب أهل خراسان بعد وفاة يزيد بن معاوية بعمالهم فأخرجوهم وغلب كل قوم على ناحية ووقعت الفتنة سنة ٦٤ هـ وغلب عبد الله بن خازم على خراسان (١) مؤيداً من مضر بينما وقفت بكر بن وائل وعليهم أوس بن ثعلبة ضده . ولما حاول ابن خازم استرضاء بكر كان جوابهم :

« إما أن تخرجوا من خراسان ولا يدعُ فيها لمضر داعٍ وإما أن تقيموا وتنزلوا لنا عن كل كراع وسلاح وذهب وفضة » — فقال قولته المشهورة : « لم تزل ربيعة غضابا على ربها منذ بعث الله النبى ﷺ من مضر » (٢) . ولما انتهى الأمر بانتصار ابن حازم تحركت العصبيات الصغرى فخرجت تميم عليه ووقعت الحرب سنة ٦٥ هـ (٣) .

والذى يؤكد صلة عصبية خراسان بالشام أن اليمنيين فى الشام أرسلوا رجالًا منهم وحاولوا التحريف فى النسب بين القبائل العربية الخراسانية فلما كانت الحرب بين المضرية واليمانية وربيعة بالبروقان من أرض بلخ سنة ١٠٦ هـ ... ادّعَت تغلب أن قبيلة باهلة تنسب إليها ووضعوا لها شعرا يؤيد ذلك استظهارا بباهلة وأميرها ببلخ عمرو بن مسلم على المضرية ، كما ادّعت الأزد مثل هذه الدعوى ، وكان جواب عمرو حين عزاه التغلبى إلى بنى تغلب : « أما القرابة فلا أعرفها وأما المنع فإنى سأمنعكم » (٤) . كما شهدت خراسان معارك هجائية

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٥٤٦ .

(٢) نفسه ج ٥ ص ٥٤٩ . ابن الأثير ج ٤ ص ٩١ وقيل بل القائل نصر بن سيار .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٦٢٣ .

(٤) نفسه ج ٧ ص ٣٠ – ٣٢ .

ومناقضات كثيرة كالتى جرت بين زياد الأعجم مولى عبد القيس وشاعرها ، وقتادة بن مغرب اليشكرى وكلاهما من ربيعة ، وقد بالغ زياد فى هجاء قتادة وعشيرته فهو من الشعوبيين فلامه بعض قومه ونهاه عن تمزيق الأعراض لأنه عم بهجائه قبيلة يشكر كلها (١) .

واستمر أهل الكتاب يحركون العصبية كلما أراد خلفاء أمية لها الركود حتى أخذ الشقاق يدب فى البيت الأموى بعد وفاة هشام فاشتعلت العصبية الكبرى بشكل مخيف بين نزار واليمن فى الشام وامتدت إلى خراسان والأندلس ، ونسبوا إلى الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ قصيدة يهزأ فيها بالقحطانيين ويفخر عليهم بقومه ويتحداهم أن ينتصروا لخالد القسرى ففيها وهى طويلة (٢) :

وهذا خالد فينا أسيرا ألا منعوه إن كانوا رجالا

فلو كانت قبائل ذات عز لما ذهبت صنائعه ضلالا

فكانت السبب فى إثارة اليمنيين ضد خلفاء بنى أمية حركتهم الغيلانية والقدرية وازداد انشقاق البيت الأموى وقتل الوليد (٣) .

كما تمكنوا من إثارة عصبية البربر فى شمال أفريقيا والأندلس ضد العرب فقامت حركة ميسرة السقاء سنة ١٢٢ هـ ضد الحكم الأموى (٤) .

وعلى الإجمال فقد عصفت العصبية التى حركها أهل الكتاب بقلب الدولة الإسلامية فى الشام وبجناحيها الأندلس وخراسان فآذنت بزاول الدولة الأموية .

الشعوبية :

كان المجتمع الإسلامى يسير نحو الانسجام رغم جميع العوائق ويتسارع

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦٩٣ / العقد الفريد ج ٦ ص ١٥٢ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٣٥ . ومما يؤيد الرأى فى وضع هذه القصيدة على الوليد . رواية بعض الكلبيين : أن هذا الشعر قاله بعض شعراء اليمن على لسان اليمانية يحرض اليمانية على الوليد . الطبرى ج ٧ ص ٢٣٤ .

(٣) الأنساب ج ٨ ورقة ٣٢٨ - ٣٣٥ . الطبرى ج ٧ ص ٢٣٩ - ٢٤٧ .

(٤) انظر : ابن عذارى ج ١ ص ٥١ - ٥٤ . نهاية الأرب ج ١ ص ٢٥ . ابن عبد الحكم ص ٢١٨ نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

الناس لاعتناق الإسلام ، وكان كثير ممن أسلم لا يفقه اللغة العربية ومن هنا تسلل أهل الكتاب إلى نفوس الموالى وخاصة الفرس فأوجدوا فكرة الشعوبية ونفثوها فى نفوسهم ليفرقوا بين العرب والمسلمين فتمزق وحدة الدولة الإسلامية ويسهل التسلط عليها وهدم كيانها .

واشتقّت الشعوبية من الشعب وجمعه شعوب . قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ (١) والشعب هو الجيل من الناس أوسع من القبيلة (٢) . ثم اكتسبت الشعوبية معنًى اصطلاحياً فأطلقت على محتقري العرب والذين يصغرون شأنهم (٣) .

وقد حاولوا تأويل الآية والنفاذ من خلالها إلى أذهان الشعوب التى أسلمت من غير العرب فقالوا : إن القبائل للعرب ، والشعوب للعجم (٤) . كما حاولوا أن يضفوا على الشعوبية اسم أهل التسوية فادعوا أنهم يطالبون بالعدل والتسوية .

ولا أرى للشعوبية معنًى إلّا الخروج عن الإسلام بتعصب العجم للعجم وتعصب العرب للعرب فهى دعوة عنصرية مخالفة لروح الإسلام سللها أهل الكتاب لشق المسلمين إلى عرب وغير عرب عندما استطاعوا شق العرب أنفسهم إلى نزارية ويمنية وربعية ، وقد وجد من بين المسلمين من يتبناها بحسن نية أو بسوئها . وبهذا المعنى فهي تشمل العربى وغير العربى المتعصب لقومه أو جماعته . ويؤيد رأيى هذا معنى الشعب فى اللغة « بمعنى التفريق » (٥) ويرى الدكتور عبد العزيز الدورى أن جذور الشعوبية تمتد فى العصر الأموى فقال : « وقد ظهرت الحركة فى العصر الأموى فى إطار الإسلام وبدت وكأنها تحمل روحاً

---

(١) الحجرات الآية ١٣ .
(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١٣ ص ٣١٥ (مترجم) .
(٣) انظر القاموس المحيط ج ١ ص ٩١ . ابن منظور ج ١ ص ٤٨٢ .
(٤) دائرة المعارف مجلد ١٣ ص ٣١٥ .
(٥) لسان العرب ج ١ ص ٤٧٩ .

إسلامية حين دعت إلى مساواة الشعوب الأخرى بالعرب فى الإدارة والمجتمع ثم انكشفت أهدافها الحقيقية فى العصر العباسى » [(١)] ، ورأى المرحوم أحمد أمين ما يشبه هذا الرأى ويلخص رأيه : « أن دعاة الشعوبية بدأوا مستندين على تعاليم الإسلام نفسه فلم تكن عقيدة محدودة التعاليم لها شعائر ظاهرة معينة ، وهم أصناف مختلفة من الناس منهم فرس ومنهم نبط ومنهم قبط ومنهم أندلسيون ، وهى درجات مختلفة تبتدئ معتدلة هادئة وتنتهى متطرفة ، تبدأ بالدعوة الإسلامية إلى تسوية العرب بغيرهم وتنتهى بمهاجمة العرب وسلبهم كل مزية ، ولم يعرضوا للإسلام بمكروه ، بل صرحوا بأن الإسلام ابن الناس جميعا لا العرب وحدهم » [(٢)] .

لقد بدأت الشعوبية حركة سرّية مستترة ، لم يتح لها مجال الظهور إلا فى العصر العباسى وليس من البعيد أن تكون مبادئها وضعت فى مؤتمر نهاوند (على رأى الفكيكى) الذى حضره دهاقين ووجوه فارس برئاسة يزدجرد قبيل الزحف الإسلامى على جنوب بلاده سنة ٢١ هـ [(٣)] . وفيه نرى روح العداوة لعمر بن الخطاب ولدولة الإسلام [(٤)] وقد وجد الفرس فى أهل الكتاب العون على ذلك فى التخطيط داخل الدولة الإسلامية وفى مركزها ، فكانت حركة اغتيال عمر رضى الله عنه ، ثم تسترت بعد ذلك بستار من الإسلام ، بينما كانت تبث فى السر تعاليم تناقض مبادئه بعد أن أخذوا يضمّون إليهم بعض الناقمين من الموالى وأحكموا بذلك خطتهم فى التسلل إلى الحركة العلوية والحركة العباسية ، وابتدعوا فنوناً من الدعاية لتنفيذ برنامجهم الجهنمى الذى يقود لتقويض دعائم الإسلام ولتحقيق أهدافهم وأغراضهم الخفية ، واندسوا فى فرق الغلاة وكونوا بعضها فكانت غذية تربتهم ، ثم استغلوا عقيدة المعتزلة

---

(١) الدورى – الجذور التاريخية للشعوبية ص ٩ .

(٢) ضحى الإسلام ج ١ ص ٥٧ – ٦٠ .

(٣) الفكيكى ص ١٤ .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ١٢٢ . ابن أعثم الكوفى – الفتوح ج ٢ ص ٣٢ .

وعلم الكلام . كما اتخذوا من الغناء وسيلة لإفساد المجتمع المسلم فدربوا المغنين والمغنيات ودفعوهم إلى الحجاز والبلاطات والأمصار الإسلامية .

على أن أعظم الأساليب التي نجحوا فيها كانت توغلهم فى دراسة الأدب واللغة والشعر العربى والتأليف والمفاخرة والمفاضلة بين العجم والعرب واستغلوا وجود التناقضات العصبية بين العرب فسللوا محاربة الثقافة الإسلامية باسم العرب فمثلًا استغلوا وضاعة أصل زياد بن أبيه وعدم إقرار العرب انتسابه لأبى سفيان بعد أن استلحقه أبو سفيان بنسبه فأوحوا لزياد أو هم على الأرجح ألّفوا باسمه فى مثالب العرب وألصقوا بهم كلّ عيب وعار وإفك ، ثم ثنّى على ذلك الهيثم بن عدى ، وكان دعيًّا فأراد أن يعيب أهل الشرف تشفّياً منهم . في القرن الثاني الهجري .

ونسبوا إلى ابن شميل الحميرى وخالد بن مسلمة المخزومى كتاب المثالب والمناقب وكانا أنسب أهل زمانهما ، وهو كتاب مشهور بانتقاص أقدار العرب كما نسبوا إلى هشام أمره لهما بأن يبيّنا مثالب العرب وأن يدعا قريشا بما لها وما عليها .

وجدد أبو عبيدة – المثنى – كتاب المثالب لزياد بن أبيه وزاد فيه ، وكان هذا يهوديا فى أصله ويرى رأى الخوارج [١] .

وأصبح للشعوبيين باع فى الشعر طويل طاولوا فيه أصحاب اللغة وتمكنوا من ناحية العربية فهاجموا العرب بلغة العرب ، وكان إسماعيل بن يسار مولى بنى تميم سيد هذا الميدان تقرب إلى العرب فتظاهر بالولاء للزبيريين وتقرب إليهم ، ثم ادعى المروانية وتظاهر بها ، كما أنه ادعى أنه شاعر مضحك لعبد الملك إمعانا فى التستر ، ثم كشف عن شعوبيته حين نظم مفتخراً بالفرس [٢] :

رب خال متوج لى وعم ماجد مجتذى كريم النصاب
إنما سمى الفرس بالفر س مضاهاة ورفعة الأنساب
فاتركى الفخر يأمام علينا واتركى الجور وانطقى بالصواب

---

(١) الفكيكى ص ١٦ .
(٢) الأغانى ج ٢ ص ٥٩٦ .

واسألي إن جهلت عنّا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسون سفاهاً بناتكم فى التراب

ولم يكتفى بذلك بل أظهر شعوبيته فى حضرة هشام بن عبد الملك إذ أنشده قصيدة أغضبته افتخر فيها بالعجم على العرب ومنها [1] :

من مثل كسرى وسابور الجنود معا والهرمزان لفخر أو لتعظيم
جحاجح سادة بلج مرازبة جرد عناق مساميح مطاعيم

ومن أولئك الشعراء : زياد الأعجم الذى تدخل فى إثارة العصبية بين العرب من قبيلة يشكر مستغلا الخصومة السياسية بين الأحزاب العربية ليشفى مافى صدره من غلّ وضغينة للعرب والإسلام .

والشاعر الضحاك بن فيروز الديلمى ويزيد بن ضبّة مولى ثقيف الذى ظهرت شعوبيته فى القصيدة التى قالها يذكر ما فعله هشام معه حيث لم يحسن مقابلته ولم يكرم وفادته ومنها :

وقد كان الملوك يرون حقا لوافدنا فنكرم إن وفدنا [2]

وقد استطاع أهل الكتاب بالتحالف مع الشعوبين وإثارتهم من استغلال التراث الفكرى للموالى فضموا كثيراً منهم إلى صفوف الناقمين على العرب واستغلوا قلة معرفة الكثير من الموالى باللغة العربية وأساليبها ففسروا لهم الآيات والأحاديث كما يحلو لهم ليثيروهم ضد العرب ثم الإسلام ، واشتركوا فى جميع الحركات الهدامة التى كانت ضد الدولة الأموية ، والملاحظ أن العرب هم الذين نظموا الموالى فى العصر الأموى وأشركوهم فى الثورات لدوافع حزبية أو إسلامية (وهذا يؤكد لنا أثر تسلل أهل الكتاب) واشترك الموالى معهم لأهدافهم الخاصة ، وتبدو هذه الوجهة أكثر وضوحا باتساع نشاط الغلاة الذين انضم إليهم كل من تظاهر بالإسلام ، وشجعتهم بعض الحركات العربية رغم خطر اتجاههم كما

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ٥٩٧ .
(٢) د / محمد الطيب النجار – الموالى ص ١٠٢ .

حصل فى حركة المختار وفى الدعوة العباسية وشاركوا فى حركة ابن معاوية وكانوا مساعدين له فى حركته ومنهم عمارة بن حمزة ويرمى بالزندقة ، ومطيع بن إياس وكان نديماً لابن معاوية وزنديقاً ، والبقلى الذى سمى كذلك لأنه كان يقول : الإنسان كالبقلة فإذا مات لم يرجع أى أنه كان ينفى البعث والحساب [١] ، ومن الحركات الشيعية الغالية التى اشترك فيها الشعوبيون أو قادوها : المغيرية والمنصورية - الخناقين - . وعلى كل فقد حارب الأمويون النزعة الشعوبية وصدّوها بعنف وشدة فكبتت وبقيت سرية تتسلل إلى الأحزاب والمنظمات السرية والحركات الفكرية والدينية وعلى هذا فيمكننا القول كما رأى فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد الطيب النجار :

« إن الشعوبية كان لها فى العصر الأموى إرهاصات ومقدمات وحسب » [٢] .

* * *

---

(١) الدورى - الجذور التاريخية ص ٣٣ .
(٢) الموالى ص ١٠٤ .

الفصل الثانى

دور أهل الكتاب فى الفتن الداخلية
زمن الخلفاء الأمويين

الفرع السفيانى وأهل الكتاب :

اتصف معاوية بالتسامح – وكان شخصية قوية ، فاكتسب أهل الذمة فى الشام إلى جانبه من يهود ونصارى – واستطاع لقوة شخصيته أن يستفيد منهم دون أن يتأثر كثيرا ، وأقروا أنهم كانوا يعيشون فى زمنه فى رخاء فحدث ثيوفان عن عطفه على النصارى بتجديد عمارة كنيسة الرها التى أخربها الزلزال [1] وكان فى زمنه القديس أغانوا يشترى السبى من المسلمين ويعتقهم [2] ، فقد خرج عبد الملك ومعه نافع بن جبير بن مطعم فوقف على راهب فذكر الراهب معاوية فأطراه ، فقال عبد الملك لنافع : لشد ما أطرى هذا الراهب ابن هند ، فقال نافع : « إن معاوية كان لذلك أهلًا ، أصمته الحلم وأنطقه العلم بجأش ربيط وكف نديه » [3] . ووثق معاوية ارتباطاته بقبيلة كلب النصرانية عندما تزوج ميسون الكلبية كما تزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها [4] كل ذلك مكنه من الشام فبقيت هادئة أيام كانت الأمصار الإسلامية تموج بالفتن زمن عثمان ، وقدم أيامها إلى المدينة فأتى مجلسا فيه الصحابة فقال :

« يا معشر الصحابة أوصيكم بشيخى هذا خيراً ، فوالله لئن قتل بين

---

(١) حتى ج ١ ص ٢٥٨ . فلهوزن .

(٢) ساويرس ص ١٢٢ .

(٣) الأنساب ج ٤ ص ٢٤٨ .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٣٢٩ .

أظهركم لأملأنها عليكم خيلًا ورجالًا ، وتوجه إلى عمار فقال له : يا عمار إن بالشام مائة ألف فارس كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته ولا عماراً ولا سابقته ولا الزبير ولا صحابته ولا طلحة ولا هجرته ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سعداً ولا دعوته ، فإياك ياعمار أن تقع فى فتنة إن عرف أولها فقد لا يعرف آخرها » [١] .

وكان يقول : « أعنت على عليّ بكتمان سرى ونشره أسراره ، وبطاعة أهل الشام لى ومعصية أصحابه له وبذلى مالى وإمساكه إياه » [٢] .

وكان معاوية يجلس كثيراً مع أهل الكتاب يحدثونه فيستفيد من أحاديثهم فى تسيير سياسته – فوفد عليه رواة الأخبار ومنهم :

دغفل بن حنظلة السدوسى النسابة ، وعبيد بن شربة الجرهمى الذى سأله معاوية عن الأخبار المتقدمة وملوك اليمن وسبب تبلبل الألسنة وافتراق الناس فى البلاد – وعمر طويلًا – والبكرى النسابة النصرانى كما ذكر الأصمعى [٣] .

وكانت ثقافة هؤلاء ثقافة توراتية لا فلسفية – سامروا معاوية الليالى الطوال وقصوا عليه أخبار الأبطال الغابرين [٤] دون أن ينسوا تسريب الأفكار التوراتية – كما جالس معاوية أهل الكتاب من غير الإخباريين فكان يسألهم ويستمع إليهم ، فعن المدائنى أنّ معاوية قال لسعية بن عريض اليهودى أنشدني مرثية أبيك نفسه ، فأنشده :

ياليت شعرى حين أندب مالكا ماذا تواتينى به أنواحى

قال معاوية : صدق – وتغرغرت عيناه [٥] . ولما ذكر محمد بن مسلمة

---

(١) ابن قتيبة – الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٨ .
(٢) الأنساب ج ٤ ص ١٦١ .
(٣) المعارف ص ٥٣٤ ، الفهرست ص ١٣٧ – ١٣٨ .
(٤) حتى ج ١ ص ٢٩٤ .
(٥) الأنساب ج ٤ ص ٢٨٨ .

الأنصارى قتل كعب بن الأشرف اليهودى عند معاوية قال يهودى كان عنده غدر به . فقال محمد : يا معاوية أتمسك عنه وقد نسب رسول الله ﷺ إلى الغدر ؟ فأخرجه معاوية وطلبه محمد فلم يقدر عليه (١) .

وأما كعب الأحبار فقد تقرب إلى معاوية أثناء ولايته على الشام حتى أصبح من خاصته (٢) وأشيع من الأخبار :

إن الحادى كان يحدو لعثمان فيقول : « إن الأمير بعده علي وفى الزبير خلف رضى » ؛ فقال كعب : لا هو صاحب البغلة الشهباء (يعنى معاوية) فأتى معاوية كعباً فقال : يا أبا إسحق أنّى يكون هذا وهؤلاء أصحاب النبى ﷺ ؟ قال : أنت صاحبها يا أبا عبد الرحمن (٣) .

ولما حدثه حديث إرم ذات العماد قال معاوية : لقد فضلك الله على غيرك من العلماء ، ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين مالم يعطه أحد فقال : « والذى نفس كعب بيده ما خلق الله تعالى فى الأرض شيئا إلا وقد فسره فى التوراة لعبده موسى تفسيراً وإن هذا القرآن أشدّ وعيداً ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ والله الهادى للصواب » (٤) . واستطاع عنده أن يبثّ أخباراً كثيرة بتفضيل أهل الشام ادّعى أنها من التوراة روى معظمها مكحول (٥) وملأ الأخبار الإسلامية بالروايات الإسرائيلية ، ومن خلال الثقة التي اكتسبها عند معاوية حاول الإيقاع بين المسلمين فيروى عن كعب أنه كان عند معاوية فقرأ معاوية فى عين حامية . فقال كعب فى عين حمية (٦) فلم يقبل منه ، وقال علي بآبن عباس فلما جاء قال :

---

(١) الأنساب ج ٤ ص ٣٥٦ .

(٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثانى من هذا البحث .

(٣) الأنساب ج ٣ ص ٢٥٧ . النزاع والتخاصم ورقة ٨٥ (مخطوط) .

(٤) نهاية الأرب ج ١٣ ص ٦٧ .

(٥) انظر ابن عساكر ج ١ ص ٦٨ ، ٦٩ و ج ٢ ص ٩٧ – ١٢٥ ، و ص ١٤٢ – ١٨٩ .

(٦) أصل الآية تغرب (أى الشمس) فى عين حمئة وهى من سورة الكهف أى فى عين من الحمأ – وهو الطين – وتكون قراءة كعب وابن عباس هى الصحيحة وتفسيره الآية هنا يحتاج إلى تأويل بعد أن عرف أن الشمس لا تغرب أبداً وأنها حينما تتراءى لنا أنها =

كيف تقرأونها ؟ فوافق كعب فلم يرجع معاوية . فغضب كعب فقال ابن عباس : لا تغضب ياكعب فإنك من الذين أوتوا الكتاب تؤمن به ومعاوية من الأحزاب ينكر بعضه [١] . ويروى أن كعب اجتمع بابن عباس فقال ابن عباس : أما نحن بنى هاشم فنقول : إن محمداً قد رأى ربه مرتين . فكبر كعب حتى جاوبته الجبال وقال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد فكلمه موسى ورآه محمد بقلبه [٢] . فدخل فى روع المسلمين وفي روع معاوية أن كعب من أهل العلم حتى قال معاوية : ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء ، ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء ، إن كان عنده لعلم كالثمار وإن كنا فيه لمفرطين » [٣] .

واتخذ معاوية منصور الرومى مستشاراً وكان منصور قد ساعد المسلمين فى فتح الشام بأن أبى أن يمدّ رجال هرقل بالمال والمؤن والذخائر ، وبعد وفاته اتخذ معاوية ابنه سرجون مستشاراً وكتب على ديوان الخراج فكان كاتبه وصاحب أمره [٤] وأصبح سرجون ذا أثر فى تسيير سياسة الدولة زمن معاوية ويزيد ابنه من بعده وكانت فتنة مقتل الحسين وما تبعها من أحداث زلزلزت الدولة الإسلامية زمن يزيد .

واتخذ معاوية على حرسه رجلا من الموالى يقال له المختار أو مالك ، وكنيته أبو المخارق مولى لحمير [٥] كما اتخذ ابن أثال طبيبا خاصا ويقال إنه اتخذه عاملا على حمص وليس ذلك بصحيح [٦] ....

= قد غربت تكون قد أشرقت فى نفس الوقت فى بلاد أخرى .
(من تعليقات فضيلة الأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار) .

(١) الأنساب ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٢) نهاية الأرب ج ١٦ ص ٢٩٦ .
(٣) ابن سعد – الطبقات ج ٢ ق ٢ ص ١١٥ .
(٤) انظر الطبرى ج ٦ ص ١٨٧ و ج ٥ ص ٣٣٠ . والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢١ و ص ١٤٦ .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ٣٣٠ . البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٥ . الكامل ج ٤ ص ١١ .
(٦) اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦٥ . ابن عساكر ج ٥ ص ٨٠ .

وتصرف معاوية بذكاء فهو سائس دول وأمم فرغم اعتماده على كثير من أهل الكتاب كأشخاص إلا أنه لم يمكنهم من الفتنة ، وأحسن استمالتهم ومراقبتهم فى الشام ، فكان يحذرهم ويحذر ممن يسلم منهم فقد كتب إلى زياد : إن حولك مضر وربيعة واليمن فأما مضر فولّهم الأعمال واحمل بعضهم على رقاب بعض وأما ربيعة فأكرم أشرافهم فإن أتباعهم منقادون لهم ، وأما اليمن فأكرمهم فى العلانية وتجافى عنهم فى السر [١] . ولا يخفى أثر أهل الكتاب بين اليمن ولعله كان يتبع نفس هذا الأسلوب فى الشام تجاه أهل الكتاب فكان يكرمهم علانية ويتجافى عنهم فى السر ، ولا أظن أن وفد حمص الذى وفد مع عمرو بن العاص إلى معاوية كان من الغباء بحيث لا يميز بين النبوة والخلافة – بل كان مكرا منهم – فقد أوصاهم عمرو إذا دخلوا أن يقفوا ولا يسلموا بالخلافة . فلما دخلوا قالوا : السلام عليك يارسول الله .. وتتابعوا على ذلك . فضحك معاوية وقال اغربوا وزجرهم [٢] . ولم يدع معاوية لأصهاره بنى كلب دوراً بارزاً فى تسيير سياسة الدولة بل اتخذهم تكأة فكانوا منفذين لأمره ، وكان ثقيلا عليهم . أما يزيد ابنه الذى لم يكن بشخصية والده فقد ظهر دورهم فى زمنه وبذكاء استغل من بقى على النصرانية الفرصة فحركوا من أسلم ، وكان يزيد قد عاش طفولته فى البادية كلفا بالصيد واللهو [٣] وعندما ولي الخلافة اتخذ على شرطته حميد بن حريث بن بحدل ثم عامر بن عبد الله الهمذانى من أهل الأردن [٤] ، وصاحب أمره سرجون بن منصور [٥] ونديمه يوحنا الدمشقى الذى كان نديمه قبل أن يلي الخلافة [٦] وكان – يميل للموالى – فقد كتب له والده مرة يشكو قرابته فكتب له : عليك بالموالى فإنهم أنصر وأغفر وأشكر [٧] فكان لا يتحرز من الموالى كوالده وكتب له منهم

---

(١) الأنساب ج ٤ ص ١٥٩ .
(٢) الأنساب ج ٤ ص ١٧٧ . البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٠ .
(٣) الفخرى ص ٥٥ .
(٤) الأنساب ج ٤ ص ٥٣٥ و ج ٥ ص ٥٢ .
(٥) الأنساب ج ٥ ص ٥٢ .
(٦) حتى ج ١ ص ٣١٥ . طلس – عصر الاتساق ص ٦٤ .
(٧) المعارف ص ٥٣٤ .

قنّان بن متى ثم ابن قيس بعد وفاته الذى كتب لمروان ولعبد الملك ثم لهشام [١] ، واستمع إليهم فاشتد تأثيرهم فكانت الأحداث التى زلزلزت الدولة الإسلامية :

مقتل الحسين فى كربلاء ، ووقعة الحرة وحصار مكة وضربها بالمنجنيق وكان أجلُّها وأعظمها خطراً وأعظمها مصرع الحسين يوم عاشوراء من المحرم سنة ٦١ هـ [٢] .

حركة الحسين بن على رضى الله عنهما :

غلب حب آل البيت على قلوب مختلف المسلمين فوجد أذكياء أهل الكتاب ودعاة الفتن فيه مجالا فسيحاً لاستقطاب بعض المسلمين وضربهم بعضهم ببعض ، وكان أهل الكوفة كما بينا فى حركات الشيعة قد وفدوا على الحسن كثيرا وخطّأوه على الصلح وعرضوا عليه نقضه فأبى فأتوا للحسين فعرضوا ما قالوا للحسن فقال : « قد كان صالح وكانت بيعة كنت لها كارها فانتظروا مادام هذا الرجل حياً فإن يهلك نظرنا ونظرتم » [٣] . وأخذوا يوالون الكتابة إليه ، ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد [٤] سنة ٤٩ هـ ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعا آنذاك لأننا لا نلمس لها أثراً فى قضية قيام الحسين أو حتى عتاباً من الحسين لمعاوية .

ويبدو أن بطانة معاوية من أهل الكتاب وسعت التناقضات بينه وبين الحسين حتى وقر فى ذهنه عداء الحسين وخروجه على يد أهل العراق ، فأسهموا فى الكتب التى وجهت من الكوفة للحسين وأخذ سرجون يحذر معاوية من ذلك ، فكتب معاوية إلى الحسين يحذره أهل الكوفة :

(قد دعوك إلى الشقاق وأهل العراق من قد جربت قد أفسدوا

---

(١) الفهرست ص ١٨٣ .
(٢) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ١ .
(٣) الأنساب ج ٣ ص ٥٤ .
(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٤٣ .

على أبيك وأخيك فاتق الله واذكر الميثاق) [١] وكان بنو جعدة بن هبيرة من بنى مخزوم قد كتبوا للحسين يخبرونه بحسن رأى أهل الكوفة فيه وحبهم لقدومه وتطلعهم إليه [٢] .

وكثر اختلاف الناس للحسين فحذر عمرو بن عثمان مروان بن الحكم الذى كتب لمعاوية بذلك – فكتب إليه معاوية – : « أن اترك حسيناً ما تركك ولم يظهر عداوته ويبد صفحته وأكمن عنه كمون الثرى إن شاء الله والسلام » [٣] .

وكتب إلى الحسين :

« أما بعد فقد أنهيت إلى عنك أمور إن كانت حقاً فإنى لم أكن أظنها بك رغبةً عنها وإن كانت باطلا فأنت أسعد الناس بمجانبتها » .

فكتب إليه الحسين كتابا غليظاً يعدد فيه ما فعله فى أمر زياد وفى قتل حجر ، فكان معاوية يشكو ما كتب به الحسين إليه إلى الناس ولم يقطع شيئا مما كان يصله ويبره به ، وكان يبعث إليه فى كل سنة ألف ألف درهم وعروض وهدايا من كل ضرب [٤] .

وأوصى معاوية ابنه يزيد قبل موته : « انظر حسين بن على بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنه أحب الناس إلى الناس فصل رحمه وأرفق به يصلح لك أمره فإن يكن منه شيء فإنى أرجو أن يكفيك الله بمن قتل أباه وخذل أخاه » [٥] .

وعندما حذر ابنه يزيد من الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير قال عن الحسين :

« فأما حسين فإن له رحما ماسة وحقا عظيما وقربة بالنبى ﷺ ولا أظن

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦١ .
(٢) الأنساب ج ٣ ص ٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ٥٧ .
(٤) المصدر نفسه ٥٨ .
(٥) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٢ .

أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه عليك فإن قدرت عليه فاصفح عنه فلو أنى الذى ألى أمره لعفوت عنه » [١] .

واستمر معاوية فى التأكيد بخروج الحسين فيقول لابنه :

« فلست أخاف عليك إلّا حسيناً وابن عمر وابن الزبير ، فأما حسين فلست أشك فى وثوبه عليك فسيكفيكه من قتل أباه وجرح أخاه » [٢] . فلم يكن شىء أحب إلى أهل الكتاب وإلى الشيعة من هلاك معاوية [٣] .

ولما بويع ليزيد وهو ليس أحق من الحسين بالخلافة وليس لديه كفاءة الحسين وشعبيته بين المسلمين ولم تكن له صفات معاوية ، نوى الحسين الخلاف معتقداً أن أهل العراق معه . وأرسل له أشراف الكوفة الكتب وافتعلت كتب كثيرة بأسمائهم من قبل سرجون وابن زياد وحاشيه يزيد من أهل الكتاب ومن الذين تظاهروا بالإسلام . وتوالت هذه الكتب حتى أصبحت حمولة خرجين [٤] . فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل لينظر الأمر ، فذهب مسلم ونزل فى دار المختار بن أبى عبيد الثقفى [٥] أو بيت ابن عوسجة [٦] وأخذت الشيعة تختلف إليه والنعمان بن بشير والى الكوفة ينصح أهلها ألا يسارعوا إلى الفتنة فكتب جماعة إلى يزيد يضعّف النعمان ، فاستشار يزيد سرجون كاتبه وأنيسه فيمن يوليه الكوفة فأشار عليه بعبيد الله بن زياد . وكان يزيد يكره عبيد الله فقال له : إنه لا خير عنده ، فقال له سرجون : أرأيت لو كان معاوية حَياً فأشار عليك به

---

(١) الأنساب ج ٤ ص ٣٣٥ . الطبرى ج ٥ ص ٣٢٣ .
(٢) الأنساب ج ٤ ص ٣٣٦ .
(٣) الأنساب ج ٣ ص ٥٤ .
(٤) المصدر نفسه ص ٦١ – ٦٢ . أبو مخنف ص ١٩ – ٢٠ . الكامل ج ٤ ص ٢٠ – ٢١ – الأخبار الطوال ص ٢٢٩ . البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥١ . الطبرى ج ٥ ص ٣٥٢ .
(٥) الكامل ج ٤ ص ٢٢ . أبو مخنف ورقة ٢٢ . البداية والنهاية ج ٨ ص ١٥٢ .
(٦) الطبرى ج ٥ ص ٣٤٧ .

أكنت توليه ؟ قال نعم . قال : فهذا عهد معاوية إليه بخاتمه وقد كان ولاه فلم يمنعني أن أعلمك ذلك إلّا معرفتي ببغضك له . فتمكن سرجون بذلك من إقناع يزيد فأخذ برأيه وضم إليه المصرين البصرة والكوفة [١] ولما وصل ابن زياد الكوفة تحول مسلم إلى منزل هانئ بن عروة المرادى [٢] .

واتبع ابن زياد سبيل الرشوة والخديعة والقسوة لتفريق شمل الناس الذين اجتمعوا حول مسلم ، فأرسل مولى له يتتبع أثر الشيعة ومعه ثلاثة آلاف درهم ليقدمها لهم ليأمنوه وجلس هذا إلى مسلم بن عوسجة الأسدى من بنى سعد فى المسجد الأعظم فقال له : أبا عبد الله إنى امرؤ من أهل الشام مولى لذى الكلاع أنعم الله عليّ بحب أهل هذا البيت وحب من أحبهم . فوصل بذلك إلى طلبه وتوصل إلى مكان مسلم ومعرفته [٣] . فهذا المولى وأمثاله يظهر مدى تسلل أهل الكتاب بين الفرقاء واستغلالهم التناقضات بين المسلمين ، وقد ظهر من معاملة ابن زياد لمسلم وهانئ من القسوة ما يؤكد تأثره بأهل الكتاب كأبيه . فقد قال له مسلم : أما والله لو كانت بينى وبينك قرابة ما قتلتنى [٤] .

وكان مسلم قد اغتر بلقاء أهل الكوفة وكتب إلى الحسين يطلب إليه المسير إلى الكوفة قبل وصول ابن زياد ، كما كتب إليه ناس من البصرة بعد أن تجمعوا فى منزل امرأة من قبيلة عبد القيس الشيعية [٥] .

فكتب الحسين نسخة واحدة إلى مالك بن مسمع البكرى والأحنف بن قيس والمنذر بن الجارود ومسعود بن عمر وقيس بن الهيثم وعمر بن عبيد الله بن معمر فكلهم كتموا إلا المنذر بن الجارود فإنه خاف أن يكون دسيساً من

---

(١) الجهشيارى ص ٣١ . الأنساب ج ٥ ص ٨٧ – الكامل ج ٤ ص ٢٣ . الطبرى ج ٥ ص ٣٥٦ . ابن خلدون ج ٣ ص ٢٢ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٤٨ و ص ٣٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٧٨ .

(٥) الكامل ج ٤ ص ٢١ .

ابن زياد فأتاه بالرسول والكتاب فضرب عنق الرسول وهدد الناس بخطبة شديدة [(١)] قبل خروجه إلى الكوفة .

ولما وصل كتاب مسلم إلى الحسين مع حابس بن أبى شبيب الشاكرى وفيه يقول : « فعجل الإقبال حين يأتيك كتابى فإن الناس كلهم معك وليس لهم فى آل معاوية رأى ولا هوى » [(٢)] حزم الحسين أمره على المسير – رغم نصح الناصحين – فقد كان ابن الحنفية نصحه قائلًا :

« انزل مكة فان إطمأنت بك الدار فبسبيل ذلك وإن نأت لحقت بالرمال وشعب الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ، ويقرن لك الرأى فإنك أصوب ما تكون رأيا وأحزمه عملًا حين تستقبل الأمور استقبالًا ولا تكون الأمور أبدا أشكل منها حين تستدبرها » [(٣)] فتحول الحسين من المدينة إلى مكة وفى طريقه لقيه عبد الله بن مطيع فحذره أهل الكوفة قائلا : « فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة فإنها بلدة مشئومة بها قتل أبوك وخذل أخوك واغتيل بطعنةٍ كادت تأتى على نفسه ، الزم الحرم فإنك سيد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً ، ويتداعى إليك أناس من كل جانب لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي ، فوالله لئن مت أو هلكت لنسترقن بعدك » [(٤)] .

وفى مكة نصحه عمر بن عبد الرحمن المخزومى بقوله : « بلغنى أنك تريد المسير إلى العراق وإنى مشفق عليك من مسيرك ، إنك تأتى بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه » [(٥)] . ونصحه

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٥٧ . الكامل ج ٤ ص ٢٣ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٧٥ .
(٣) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ١٧ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٣٥١ .
(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٨٧ – الطبرى ج ٥ ص ٣٨٢ .

ابن عباس بمثل ذلك فلما لم يقبل قال له : « إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم » . وأشار عليه إن أبى أن يخرج إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا ولأبيه بها شيعة [١] . كما أنه لم يستمع لنصيحة ابن عباس فى إبقاء نسائه وولده فى مكة أو المدينة .

ولقد انخدع ابن الزبير فأشار عليه بالخروج فأثيرت حول موقفه هذا الشبهات بالرغم أن قوله لا يحمل أى معنًى للشبهة فقد قال :

« لو كان لى بها مثل شيعتك لما عدلت عنها » . ثم خشي أن يتهمه فقال له : « أما إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ههنا لما خالفنا عليك وساعدناك ونصحنا لك » [٢] .

رغم ذلك أصر الحسين على الخروج وبعد مسيره كتب إليه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مع ابنيه وطلب من عمرو بن سعيد بن العاص أن يرسل له كتابا فبعثه مع أخيه يحيى بن سعيد ، فلم يقبل الرجوع [٣] ، ولقيه الفرزدق الشاعر عند الصفاح فسأله عن أهل الكوفة فقال : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية » [٤] والواقع أن قلوب الكثيرين منهم كانت كسيوفهم ليست مع الحسين ولا مع المسلمين فبتلك السيوف قتل بعض قادة الشيعة وكبارهم [٥] .

ولا أرى سببا لإصرار الحسين بعد ذلك إلا لثقته القوية بأهل الكوفة وبما أرسلوا به ، ولعله لم يطلع أحدا على تلك المراسلات من الذين نصحوه فقد كان

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ . الطبرى ج ٥ ص ٣٨٣ . الكامل ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٨٤ . الكامل ج ٤ ص ٣٨ .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨ . الكامل ج ٤ ص ٤٠ .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٣٨٦ . الكامل ج ٤ ص ٤٠ .

(٥) أحمد شلبى ج ٢ ص ١٩٢ .

يحملها ملء خرجين ، كما تدل هذه النصائح على معرفة الناصحين بأهل العراق وبتسارعهم إلى الفتنة ثم نكوصهم لتسلل أفكار أهل الكتاب إلى كثير منهم فى بيئة العراق المضطربة – فقد ذكروا عن رأس الجالوت عن أبيه قال – : « ما مررت بكربلاء إلا وأنا أركض وابنى حتى أخلف المكان – كنا نتحدث أن ولد نبى مقتول فى ذلك المكان ، وكنت أخاف أن أكون أنا . فلما قتل الحسين قلنا هذا الذى كنا نتحدث وكنت بعد ذلك إذا مررت بذلك المكان أسير ولا أركض » (١) . فبمثل إشاعة هذه التنبؤات كانوا يهيئون الأرضية للفتن .

ولم تهتز ثقة الحسين بأهل الكوفة إلا عندما وصله خبر مقتل مسلم بن عقيل من إياس الطائى الشاعر الذى أرسله ابن الأشعث برسالة مسلم فقال له الحسين : « كل ما حم نازل وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا » (٢) .

وقال لمن معه : « خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا ذمام » . فتفرق من كان معه يميناً وشمالًا حتى بقي فى أصحابه الذين جاءوا معه من الحجاز (٣) .

وكان يزيد قد كتب لابن زياد : « قد بلغنى أن الحسين قد توجه نحو العراق فضع المناظر والمسالح واحترس واحبس على الظنّة وخذ على التهمة غير أن لا تقتل إلا من قاتلك » (٤) .

فأمر ابن زياد بأخذ ما بين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج (٥) . وخرج للحسين ألف فارس عليهم الحر بن يزيد التميمى اليربوعى فكانوا يصلّون وراء الحسين ويقول لهم : « وإن كنتم

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٩٣ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٧٥ . الكامل ج ٤ ص ٣٣ .
(٣) الكامل ج ٤ ص ٤٣ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٣٨١ . الكامل ج ٤ ص ٣٦ – البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٥ .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ٣٩٢ .

لقدومي كارهين رجعت إلى المكان الذى جئتكم منه » [١] . ولما ذكرهم بالكتب والرسل وأخرج لهم الخرجين ونشر الكتب أنكرها الحر وقال : « لسنا من الذين كتبوا إليك » [٢] . وجاءه بالعذيب أربعة نفر سألهم عن الناس فقالوا : « أما الأشراف فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرايرهم يُستمال ودّهم وتستنزل نصائحهم فهم عليك إلب واحد وما كتبوا إليك إلا ليجعلوك سوماً ومكسباً . وأما سائر الناس فأفئدتهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك » [٣] . وأرسل ابن زياد عمر بـن سعد فى أربعة آلاف من أهل الكوفة كان فيهم كل من كاتب الحسين وليس فيهم شامى واحد [٤] . فلما واقف الحسين قال – لابن سعد –:

« اختاروا منى واحدة من ثلاث إما أن أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه ، وإما أن أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه وإما أن تسيّرونى إلى أى ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلا من أهله لى ما لهم وعليّ ما عليهم » [٥] .

وعرضه لهذه الأمور أثبت الآراء لصدوره من الجهات الرسمية عمر بن سعد وابن زياد والحسين ويزيد ، فقد كتب عمر إلى ابن زياد بذلك وليس من الضرورة أن يكون الناس قد سمعوه . وقال ابن زياد لما وصل كتاب ابن سعد : « هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه ، قد قبلت » [٦] .

---

(١) العينى – عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ٣ .

(٢) العينى ج ١١ ق ١ ص ٤ . الأنساب ج ٣ ص ٧٢ . الطبرى ج ٥ ص ٤٠٢ الكامل ج ٤ ص ٤٧ .

(٣) الأنساب ج ٣ ص ٧٦ ، ٧٧ . الطبرى ج ٥ ص ٤٠٥ .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٩١ .

(٥) الأنساب ج ٤ ص ٥٥ . الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧ . العينى ج ١١ ق ١ ص ١٤ . الطبرى ج ٥ ص ٤١٣ .

(٦) الطبرى ج ٥ ص ٤١٤ (العينى – فاضح لأميره خطأ من الناسخ) . ج ١١ ق ١ ص ١٤ – الأنساب ج ٣ ص ٨٧ .

وهنا تقفز شخصية غريبة فى التاريخ الإسلامى ويكون لها أكبر الأثر فى حوادثه ومصائره شخصية شمر بن ذى الجوشن الكلابى الضبابى [(١)] – شخصية ميكافيلية كوالده ذى الجوشن لاتهمّه الوسيلة لتحقيق غايته – فقد أسف ذو الجوشن على عدم إسلامه بعد بدر فقال : « ولو أسلمت يومئذ ثم أسأله الحيرة لأقطعنيها » [(٢)] .

فحرض شمر ابن زياد على الحسين قائلًا : « أتقبل هذا منه وهو إلى جانبك والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكوننّ أولى بالقوة والعزة ولتكوننّ أولى بالضعف والعجز ، والله لئن لم ينزل على حكمك ليكونن وهناً عليك » . كما حاول أن يوقع بين ابن زياد وعمر بن سعد : « ولقد بلغنى أن الحسين وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل » [(٣)] وحرضه أن يطلب من ابن سعد مقاتلة الحسين [(٤)] .

فأمر ابن زياد عمر بمناجزة الحسين وإلا فليخل بين شمر وبين العسكر . ويظهر أن شمر كان معروفا بالحقد والقسوة ... إذ لما قدم على عمر بالكتاب قال له « مالك ويلك لاقرّب الله دارك وقبح الله ما قدمت به عليّ والله إنى لأظنك أنت ثنيتهُ أن يقبل ما كتبت به إليه أفسدت علينا أمراً – كنا رجونا أن يصلح – لا يستسلم والله حسين إن نفساً أبيّةً بين جنبيه » [(٥)] .

اشترك رؤساء الأرباع كلهم فى قتل الحسين إلا الحر بن يزيد الذى مال إلى عسكر الحسين [(٦)] ولما ناداهم الحسين أنهم كتبوا له أنكروا وقالوا لم نفعل [(٧)] .

---

(١) الأنساب ج ٣ ص ٨٧ .
(٢) ابن سعد ج ٦ ص ٣١ .
(٣) العينى ج ١١ ق ١ ص ١٤ . الأنساب ج ٣ ص ٨٧ . الطبرى ج ٥ ص ٤١٤ الكامل ج ٤ ص ٥٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ١٧٠ .
(٤) مقتل الحسين ورقة ٦٢ .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ٤١٥ .
(٦) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ٢٧ .
(٧) الطبرى ج ٥ ص ٤٢٥ .

كما شهد شبث بن ربعى مصرع الحسين واشترك فيه ويقول (كمواقفه المشبوهة) فى إمارة مصعب : « لا يعطى الله أهل هذا المصر خيراً أبدا ولا يسددهم الرشد ، ألا تعجبون أنا قاتلنا مع على بن أبى طالب ومع ابنه من بعده آل أبى سفيان خمس سنين ثم عدونا على ابنه وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية . ضلال ياله من ضلال » [١] .

وصرع أصحاب الحسين جميعا ومكث طويلا من النهار بعد مصرعهم يتحاشى الناس قتله ولكن شمر استمر يحرضهم فقتل قتلة شنيعة [٢] فى يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ .

وهكذا نجحت القوى المضادة لدولة الإسلام فى حدوث واقعة كربلاء ثم وجدوا فيها الفرصة السانحة تمزيق الجماعة الإسلامية وتفريق الكلمة بتحويل النزاع بين هاشميين وأمويين .. فقد كانت الكوفة مجمع شذاذ الناس وأشرارهم مع خيارهم أتى إليها الصحابة كما أتى النصارى واليهود ، وأقبلت القبائل العربية كما أقبل الموالى وانتشرت الزندقة والسحر والنيرنجات وانتشرت الحلقات المتعارضة والمجامع المتنافرة فكانت العلوية والعثمانية ، إلى جانبهم اليهود الذين نشروا فى منفاهم (العراق) التلمود وكتبوه ، والنصارى الذين كانوا ينادون بتجسيد الألوهية ، فأطلت رؤوس مجامعهم السرية مع المراكز المتطفلة الخفية [٣] واستغل دم الحسين واعتبروه ذا قيمة فى التضحية تشبه دم المسيح عند النصارى ، وتسلل إلى نفوس من أسلم من الفرس من هذا الطريق يستثيرونهم ضد الدولة بحجة أن الحسين كان قد تزوج جيهان شاه ابنة يزدجرد أم على بن الحسين [٤] فارتفعوا بهذه الفاجعة عن مصائب البشر الاعتيادية فشبهوها بمصائب الأنبياء [٥] ، وتسللت من خلالها

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٣ . الفخرى ص ١١٥ .
(٣) النشار – نشأة الفكر الفلسفى ج ١ ص ٦٨ .
(٤) النوبختى – فرق الشيعة ص ٥٣ . واسمها عند ابن سعد غزالة ج ٥ ص ١٥٦ .
(٥) عبد الله فياض – تاريخ الإماميّة وأسلافهم من الشيعة ص ٥٤ .

أفكار أهل الكتاب بسهولة – فقد رووا على لسان أبى عبد الله أنه قال : إن إسماعيل الذى قال الله عز وجل فى كتابه :

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ [١].

لم يكن إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله عز وجل إلى قومه فأخذوه وسلخوا فروة رأسه . فأتاه ملك فقال : إن الله بعثنى إليك فمرنى بما شئت فقال لى أسوة بما يصنع بالحسين [٢] . واعتبروا أن الحسين لم يتألم لما أصاب أهله ونفسه من القتل والإيذاء بل إنه تألم لأن أمة جدّه المسئول عن هدايتها بصفته الإمام والحجة ضلت بحربها إياه [٣] . وهذا يذكرنا بفكرة النصارى عن صلب المسيح وتعذيبه – فكان من السهل بذر هذه الفكرة من قبل أهل الكتاب فى نفس من أسلم حديثاً فأقبل الموالى على التشيع ورأوا فى الحسين إنسانا روحانياً قدر له الله منذ الأزل أن يفتدى الإسلام بدمه ويحفظه بتضحية نفسه فقرن بدور المسيح المخلص ، وجاء ذكر المسيح عند الشيعة موصولا بالحسين بمناسبة ولادته الشاذة لستة أشهر فروى الكلينى عن جعفر الصادق قوله : « ولم يولد لستة أشهر إلّا عيسى ابن مريم والحسين بن على » [٤] . وكلما ازداد عدد المسلمين ممن لم يفقه العربية نمت عند الشيعة فكرة الانتقام اليهودية فوجهت هذه الفرقة فى الإسلام إلى هدف محدد لا ريب عندها فى مشروعيته ، وتشعبت منها أفكار جانبية اتصلت بها أفكار الزهاد والمتصوّفة بتأثير عاطفى يؤجّج الحماس ويزيد من الترابط .

وأخيرا فلنا أن نتساءل من المسئول عن قتل الحسين وفاجعة كربلاء ؟ . لقد حاول ابن زياد أن يحمل المسئولية عمر بن سعد فطلب منه الكتاب الذى كتب به إليه ليقتله ولما ألح عليه قال : « ترك والله يقرأ على عجائز قريش اعتذاراً

---

(١) سورة مريم – الآية ٥٤ .
(٢) علل الشرائع ج ٨ ص ٧٧ .
(٣) عبد الله فياض ص ٥٤ .
(٤) أصول الكافي ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

إليهن بالمدينة » [١] . فكان عبيد الله بذلك يحاول إخفاء أثر الجريمة ، وأما يزيد بن معاوية فإن أقواله وأفعاله تدل على أنه لم يأمر بقتل الحسين ولم يعلم بكل ما حدث إلا بعد وقوعه .

واتهام يزيد فقط بالمسئولية كرئيس مسئول عن كل شيء وعما يقع من نوابه ولكنها ليست مسئولية الاشتراك فى الفعل أو الإيعاز به ، ولكن مسئولية ضعف الرأى وقصر النظر وسوء السياسة [٢] . ويقال عن روح بن زنباع : أن يزيد لما بلغه قتل الحسين دمعت عيناه وقال : « كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ورحم الله الحسين » [٣] . وقيل لما وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده وزاده ووصله وسره ما فعل ثم لم يلبث إلّا يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم وسبهم فندم وكان يقول : « وما على لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معى فى دارى وحكمته فى ما يريد وإن كان على فى ذلك وهن فى سلطاني حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته . لعن الله ابن مرجانة فإنه اضطره فقد سأله أن يضع يده فى يدى أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله فلم يجبه إلى ذلك فقتله ، فبغضنى بقتله إلى المسلمين وزرع فى قلوبهم العداوة فأبغضنى البر والفاجر بما استعظموا من قتل الحسين ، مالى ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه » [٤] .

وقال أيضا :

« قبّح الله ابن سمية أما والله لو أنى صاحبه ما سألنى خصلة إلّا أعطيته إياها ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ولكن الله قضى ما رأيت » [٥] .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٦٧ .

(٢) الريس – عبد الملك ص ١٠٧ .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٤٦٠ . الكامل ج ٤ ص ٨٣ . البداية والنهاية ج ٢ ص ١٩١ .

(٤) الكامل ج ٤ ص ٨٧ .

(٥) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ٦٧ .

وحاول البعض أن يلقى اللوم على أهل الكوفة لتقاعسهم بحجة أنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً أمام الحكم الأموى القوى (١) .

ومما استعرضناه فى الصفحات السابقة نستطيع التأكيد أن مسئولية قتل الحسين تقع على مستشارى يزيد من أهل الكتاب من مثل سرجون وعلى الحركات السرية الخفية من أهل الكوفة الذين حركوا أصحاب الأطماع وقصار النظر أمثال – عبيد الله بن زياد وشمر ويزيد – كل أولئكم اشتركوا فى المسئولية وفى إيجاد الصدع الذى لا يجبر بين المسلمين إلى اليوم . وينبغى ألا نغفل مسئولية الحسين نفسه من وقوع التبعة عليه فإنه قد سعى إلى حتفه بظلفه وأعرض كل الإعراض عن نصح الناصحين وما كان ينبغى له الخروج على يزيد بهذا العدد القليل من الأنصار والأعوان لأنه بذلك قد عرض نفسه للتهلكة المحققة إلا أن حبّنا لَهُ حيث كان آنذاك أفضل من على الأرض وحبنا لآل البيت جميعاً ولبشاعة النكبة التى أحلّت به وبمن معه جعلنا كل ذلك ننظر إلى النتائج دون النظر إلى الأسباب . هذا بالإضافة إلى ما كتبه قتلته الذين يدعون أنهم شيعة له وصوروا المأساة وغالوا فأدموا القلوب ولم يبق من كتابات وصور غيرها وشاعت بين الناس وأكثر الكتّاب من ذكرها . مع أنه قد قتل أبوه وهو مبشر بالجنة وأفضل منه ولم يذكر عن مقتله مثل هذا ، ومن قبل قتل عثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فلم يقل عنهما ما قيل عنه .

تبع مصرع الحسين حركات متتابعة أدمت الساحة الإسلامية وكان أولها خروج عبيد الله بن الحر الذى اتهمه ابن زياد أنه كان مع الحسين (٢) .

وقعـــة الحـرة :

وكانت نتيجة لمصرع الحسين فى كربلاء فقد قدم وفد من المدينة على يزيد سنة ٦٢ هـ ضم كثيراً من أشرافها فقابلهم بكل حفاوة وأغدق عليهم الكثير من

---

(١) ماجد – الدولة العربية ج ٢ ص ٧٩ . البداية والنهاية ج ٢ ص ٧٩ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٤٧٠ .

المنح والعطايا ، واتصلوا بحاشيته وعرفوا ندماءه من الكتابيين الذين زودوهم بمعلومات عن حياته وصلاته بهم وخاصة بالأخطل النصرانى وبنى تغلب وأخواله من بنى كلب [١] ولما عادوا إلى المدينة خلعوا يزيد قائلين : « قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر وتعزف عنده القينات بالمعازف » . وولّوا عليهم عبد الله ابن حنظلة الغسيل [٢] .

وأنكر عليهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ذلك ، كما أنكره محمد ابن الحنفية الذى قال :

على ماذا أقاتله ولم أخلعه ؟ قالوا : أنه كفر وفجر وشرب الخمر وفسق فى الدين . فقال لهم محمد : ألا تتقون الله ؟ هل رآه أحد منكم يعمل ما تذكرون ؟ وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت منه سوءاً . قالوا : إنه لم يَكن يطلعك على فعله – قال : أفأطلعكم أنتم عليه ؟ فلئن كان فعله إنكم لشركاؤه ولئن كان لم يطلعكم لقد شهدتم على غير ما علمتم – ولما حاولوا إكراهه على الخروج أو البيعة لنفسه قال : لا أقاتل تابعا ولا متبوعا . وخرج إلى مكة فأقام بها [٣] .

أما يزيد فقد أرسل النعمان بن بشير يحذر أهل المدينة ويأمرهم بالرجوع إلى السمع والطاعة ولزوم الجماعة فعصاه الناس . وحينذاك وجه حملة لإخضاعهم ظهرت فيها شخصية جديدة أخرى على مسرح التاريخ الإسلامى وهى شخصية مسلم بن عقبة المرى الغطفانى ويسمى مسرف بن عقبة [٤] . من غطفان التى طالما ناصرت اليهود فى حربهم مع النبى ﷺ ، ووجود هذه الشخصية بالشام جعلها على صلة بأهل الكتاب ، ويقال إن اختياره كان برأى معاوية الذى نصح يزيد أن يرمى المدينة بمسلم بن عقبة [٥] ، وهذا رأى سرجون الرومى ولا شك

---

(١) الأنساب ج ٥ ص ٣٠١ . الطبرى ج ٥ ص ٤٨٠ . الكامل ج ٤ ص ١٠٣ المعارف ص ١٧٨ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣ و ٢٥٢ . الأنساب ج ٣ ص ١٨٥ .

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

(٥) الكامل ج ٤ ص ١١٢ . الطبرى ج ٥ ص ٤٩٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ .

حيث توفرت فى مسلم صفات استراح لها سرجون ، ففى نفسه طاعة الدولة التى درج عليها أهل الشام ، وقد تشبّع بفكرة مؤداها : « أن الخروج على الدولة خيانة عظمى » . كما تشبع من غطفان المتصلة باليهود الحقد على قريش والأنصار ، فوجد فيه سرجون الخادم المطيع لسيده المنفذ لما عجز عنه أهل الكتاب من صراحة ووضوح ومجاهرة بالعداء لقريش والأنصار ، وكانت قد تأصلت فيه الرغبة لقتل قتلة عثمان معتقداً أن أهل المدينة هم قتلته ، وكان أهل الكتاب ومن تظاهر بإسلامه منهم قد بَثوا هذه الفكرة فى الشام فتأصلت فى نفوس الشاميين يساعدهم على ذلك سكوت بنى أمية لتحقيق أغراضهم . فمسلم يقول للطبيب الذى أصحبه إياه يزيد : « إليك عنى إنما كنت أود أن أبقى حتى أشتفى من قتلة عثمان وقد أدركت ما أردت فما شىء أحب إلى من أن أموت على طهارة قبل أن أحدث حدثاً فإن الله طهرنى بقتل هؤلاء الأرجاس » [١] .

ولما توجهت الحملة إلى المدينة استطاع عدد كبير من النصارى أو من تظاهر منهم بالإسلام الاشتراك فيها ، وكان عمل يزيد هذا موضع استهجان المسلمين فيذكر أن عبد الملك قال لصديقه يوسف الذى كان ممن أسلم من أهل الكتاب : « ألا ترى خيل عدو الله قاصدة لحرم رسول الله ﷺ ؟ فقال يوسف جيشك والله إلى حرم رسول الله أعظم من جيشه » [٢] .

وكانت وقعة الحرة فى أواخر ذى الحجة من سنة ثلاث وستين للهجرة وقتل أكثر سادة أهل المدينة فيها ويقال إن المدينة أبيحت ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال ، وقد بالغ المدائنى فى روايته [٣] . الأمر الذى جعل دوزى ومولر

---

(١) الأنساب ج ٥ ص ٢٠ .

(٢) المبرد ج ٢ ص ١١٧ . عقد الجمان ج ١١ ق ٢ ص ١٩ وهى محاولة من أهل الكتاب لإظهار أنفسهم أنهم من أهل العلم وهى تحمل معنى لدينا « أن لهم ضلع فى كل مؤامرة ، كما أن لهم القدرة على تهيئة الأجواء لتقبلها » .

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٨ الطبرى ج ٥ ص ٤٨٧ .

يصفان المدينة بأنها أصبحت مرتعاً للكلاب والوحوش المفترسة لأن الناس هجروها على زعمهم وذهبوا إلى الجيش الإفريقي . وهذا على رأى فلهوزن محض خيال وتحامل [١] ورواية عوانة أقرب إلى الحقيقة وهى لا تذكر استباحة المدينة [٢] ، ولعل مصدر رواية المدائنى هم الذين اشتركوا فى الحملة من نصارى الشام ومن أهل كتابها الذين قاموا بأعمال دنيئة فى المدينة (ضخمها الرواة كالمدائنى) حقداً وانتقاماً من مدينة الرسول ﷺ ، فقد كان يحمل راية مسلم غلام رومي شجاع ظنه الفضل بن عباس أمير القوم [٣] .

وعندما دخل مسلم المدينة أظهر حقده على الأنصار وقريش فأخذ يبايع الناس على أنهم خول ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء . فمن امتنع قتله ، فقد جاءه عبد الله بن ربيعة بن الأسود وأحمد بن أبى الجهم بن حذيفة ومعقل بن سنان الأشجعى بأمان فقال : بايعوا على الشرط ، فقال القرشيان : نبايعك على كتاب الله وسنة رسوله فضرب أعناقهما . فقال مروان سبحان الله أتقتل رجلين من قريش أتيا بأمان ؟ فطعن بخاصرته بالقضيب فقال : وأنت والله لو قلت بمقالتهما لقتلتك [٤] .

ولما قاربت منيته فى طريقه إلى مكة قال للحصين بن نمير :

« خذ عنى أربعا : أسرع السير ، وعجل المناجزة ، وعمّ الأخبار ، ولا تمكن قريشاً من أذنك » [٥] . وفى رواية أخرى : « ولا ترد أهل الشام عن شيء يريدونه بعدوّهم ولا تجعل أذنك وعاء لقريش فيخدعوك » [٦] . ويظهر الرضا عن نفسه عن فعله فى آخر لحظاته :

---

(١) فلهاوزن P 160 - 163 .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٤٩٠ .
(٣) الكامل ج ٤ ص ١١٦ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٤٩٣ . الكامل ج ٤ ص ١١٨ .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ٤٩٦ . الكامل ج ٣ ص ١٢٣ .
(٦) الأخبار الطوال ص ٢٦٧ .

« اللهم إنى لم أعمل عملا قط بعد الشهادة أحب إلىّ فى الدنيا والآخرة من قتال أهل المدينة » [١] .

وكانت وقعة الحرة مأساة أخرى فى حكم يزيد ، ولما أرسل إليه روح بن زنباع ببشارتها وأخبره بما وقع قال : « واقوماه » حزناً عليهم ثم دعا الضحاك بن قيس الفهرى واستشاره فأشار عليه بإرسال الطعام والأعطية . فأمره بحمل الطعام إليهم وأفاض عليهم أعطيته [٢] .

حركة التوابيـــن :

وكان من نتائج فاجعة كربلاء أن اجتمع الشيعة إلى خمسة من زعمائهم فى منزل سليمان بن صرد الخزاعى وأخذوا يتلاومون ويندمون بدعائهم الحسين وتركهم نصرته ومقاتلتهم له ونصرهم لقتلته بعد إرسالهم إليه واستدعائهم له القدوم عليهم فتابوا من ذلك فسموا التوابين [٣] واختاروا سليمان زعيماً وأميراً عليهم ودعوه شيخ الشيعة [٤] وبقيت حركتهم سرية من سنة ٦١ هـ - ٦٤ هـ (وفاة يزيد) حيث تمكن أثناءها عدد من الموالى المتظاهرين بالإسلام من التسلل خلال هذا التجمع السرى متظاهرين بالإخلاص لآل البيت وتسللت معهم أفكار أهل الكتاب فوجدت فكرة الندم وتحمل الأبناء ذنب الآباء وهى فكرة من التوراة المحرفة التى جاء فيها : « الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع » [٥] . وعن الأفكار النصرانية فكرة خطيئة آدم التى يتحملها على زعمهم كافة البشر .

---

(١) عقد الجمان ج ١١ ص ١٢٨ . الكامل ج ٤ ص ١٢٣ .
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٢ .
(٣) الفخرى ص ١٢٠ - وكما قال ابن كثير : فجادت بوصل حين لاينفع الوصل (البداية ج ٨ ص ٢٦٦) .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٥٥٤ .
(٥) سفر العدد الإصحاح ج ١٤ ص ٢٣٤ .

ورغم إدراك سليمان أن قتلة الحسين فى الكوفة [(١)] إلا أنه وجّههم لحرب ابن زياد قائلا :

« إنى نظرت فيما تذكرون فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه ومتى علموا ما تريدون وعلموا أنهم المطلوبون كانوا أشد عليكم ، ونظرت فيمن تبعنى منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا أنفسهم ولم ينكوا فى عدوهم وكانوا لهم جزرا ، ولكن بثّوا دعاتكم فى المصر فادعوا إلى أمركم هذا شيعتكم وغير شيعتكم ، فأرجو أن يكون الناس حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم واستجابة منهم قبل هلاكه » .

فخرج منهم دعاة الناس فاستجاب لهم الكثير بعد هلاك يزيد أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك [(٢)] فتواعدوا النخيلة ليأخذوا بثأر الحسين حين فر ابن زياد إلى الشام ، كما كتب سليمان إلى سعد بن حذيفة بن اليمان فى المدائن فاستجاب له ومن معه من الشيعة ومن أطاعه من أهل المدائن وكتب بذلك إلى سليمان . كما استجابت له قبيلة عبد القيس الشيعية فى البصرة وعليهم المثنى ابن مخربة العبدى [(٣)] ، وفى هذه الأثناء قدم الكوفة المختار وعبد الله بن يزيد الأنصارى أميراً من قبل ابن الزبير ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة أميرا على الخراج ، وقد أعلن التوابون حركتهم ، فاستطاع المختار أن يثبّط الهمم [(٤)] ومعه كيسان فلم يواف سليمان بالنخيلة إلا أربعة آلاف من أهل الكوفة [(٥)] ولم يوافيهم جماعتهم من أهل البصرة والمدائن فى الوقت المحدد . وكان كلما سار هذا الجيش تناقص عدده وبذلك نجحت القوى الخفية فى عزل الفئة المخلصة فخرجت

---

(١) الكامل ج ٤ ص ١٧٦ الطبرى ج ٥ ص ٥٨٦ .
(٢) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ١٦٢ . الطبرى ج ٥ ص ٥٥٩ .
(٣) الكامل ج ٤ ص ١٦١ . الطبرى ج ٥ ص ٥٥٨ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٧ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٥٦٠ .
(٥) الأنساب ج ٦ ص ٢ – ٤ . الكامل ج ٤ ص ١٧٥ .

مضحية بنفوسها بعد أن تسللت إليها أفكار التوبة واستيقنتها أنفسهم وأصبح اسم الحسين وقبره مثابة لنفوسهم وأمنا . ورغم عروض المساعدة التى قدمها لهم عبد الله بن يزيد والي الكوفة ثم زفر أمير قرقيسياء . إلا أنهم صمموا على المسير إلى أهل الشام فكانت هزيمتهم فى عين الوردة سنة ٦٥ هـ بعد أن أبلوا البلاء الحسن ، وتراجع من بقى منهم مع رفاعة بن شداد البجلى ومروا بقرقيسياء ، فاستضافهم زفر وزودهم وساروا إلى الكوفة وفى أثناء ذلك كان سعد بن حذيفة قد بلغ هيت فيمن تابعه من أهل المدائن فتراجع عندما سمع خبر عين الوردة ولقي المثنى بن مخربة فيمن خرج معه من أهل البصرة بصندوداء فأخبره الخبر ، فأقاموا حتى أتاهم رفاعة فاستقبلوه وبكى بعضهم إلى بعض ثم تفرقوا فسارت كل طائفة إلى بلدهم [١] .

حركة ابن الزبـــير وخلافته :

كان عبد الله بن الزبير جنديا من جنود المسلمين المجاهدين قبل أن يستخلف معاوية يزيد بن معاوية ، يشترك مع الجيوش فى محاربة الأعداء ، فكان فى الجيش الذى سار لغزو القسطنطينية بقيادة يزيد سنة ٥٠ هـ . وكان معاوية يترضاه ويتودد إليه ويحسن وفادته ويغدق عليه العطايا ، ولما استخلف معاوية يزيد كان عبد الله من المعارضين بل من أشدهم فى المعارضة ليزيد فقال عنه معاوية محذرا منه يزيد –:

« وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب وإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً » [٢] .

وفى رواية لعوانة أنه قال : « وأما ابن الزبير فإنه خبّ ضبّ فإذا شخص لك فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحاً فإن فعل فاقبل وأحقن دماء قومك ما استطعت » [٣] .

---

(١) الكامل ج ٤ ص ١٨٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٧٥ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣١٣ .
(٣) نفسه ج ٥ ص ٣٢٣ .

وبعد مقتل الحسين أظهر الخلاف فى مكة فقد قام فى الناس فعظم مقتله وعاب أهل الكوفة خاصة وأهل العراق عامة فقال :

« إن أهل العراق غدر فجر إلا قليلًا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق وأنهم دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا عليه فقالوا : إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية فيمضى فيك حكمه وإما أن تحارب ، فاختار المنية الكريمة على الحياة الذميمة » . فتسارع الناس إلى مبايعته قائلين : « إنه لم يبق أحدٌ إذا هلك الحسين ينازعك هذا الأمر » (١) .

وبعد وفاة معاوية الثانى دعى له على سائر منابر الحجاز ومصر والجزيرة والعراق وخراسان وسائر أمصار الإسلام (٢) وتبعته الشام مركز الدولة الأموية الإسلامية فقد ثار زفر بن الحارث الكلابى بقنسرين وبايع لابن الزبير كما بايعه النعمان بن بشير بحمص وناتل بن قيس بفلسطين والضحاك بن قيس فى دمشق . ولم يبق إلا أهل الأردن التى خرجت على إجماع المسلمين بمبايعة أهلها لمروان ، فقد قادتهم قبيلة كلب فى حركة ضمن حركات أهل الكتاب لتقويض الدولة الإسلامية ، وتزعم هذه الحركة حسان بن مالك بن بحدل وعبيد الله بن زياد ، وأثاروا العصبية بشكل موسع بين قيس ويمن التى امتدت إلى بقية أرجاء الشام وخراسان (٣) .

أما الموالى فقد أيدوا فى المرحلة الأولى ابن الزبير لأنهم كانوا يفرحون ويبتهجون بكل خروج على الدولة الأموية (٤) فانضموا إليه وأيّدوه فى مطالبته بالخلافة فلما أصبح خليفة بالفعل ناصبوه العداء وأشاعوا حوله الشائعات فوصفوه بالشح وبالتظاهر بالنسك والعبادة وبأنه يقول : « بطنى شبر وما عسى أن يشبع

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٤٧٥ . الكامل ج ٤ ص ٩٨ .
(٢) التنبيه والإشراف ص ٦٦٦ . الطبرى ج ٥ ص ٥٣١ .
(٣) الطبرى ج ٥ ص ٥٣٧ – ٦٢٣ . الأنساب ج ٥ ص ١٨١ . الكامل ص ٢٥ – الاستقصاء ج ١ ص ١٦٤ .
(٤) محمد الطيب النجار – الموالى ص ١٠٦ .

شبر » ، وهو أشره خلق الله [١] . واتسعت الشائعات حتى شوهت صورة ابن الزبير واعتبر بعضهم حركته فتنة فقيل فى البدء والتاريخ : « وكانت فتنة ابن الزبير فتنة تسع سنين منذ موت معاوية إلى أن مضت ست سنين من ولاية عبد الملك [٢] .

وعمل حمران بن أبان على تهييج الفتنة فى البصرة وجر معه أشرافها ورجالاتها فتصرف مصعب تصرفا طائشاً بذم أشرافها ودعا حمران فقال له : « إنما أنت ابن يهودية علج نبطى سبيت من عين التمر » [٣] .

فكاتبهم عبد الملك ومنّاهم وكلهم أخفى كتابه إلا إبراهيم بن الأشتر فإنه لما جاءه عبد الملك أعطاه لمصعب فوجده يمنّيه بولاية العراق وأخبره خبر القواد وأنهم أخفوا كتب عبد الملك وأشار عليه بقتلهم أو حبسهم فأبى ذلك [٤] . كما كتب أشراف الكوفة إلى عبد الملك إلا المهلب . فوصف المصعب أهل العراق بما وصفهم به الأحنف : « هم كالمومسة تريد كل يوم بعلا وهم يريدون كل يوم أميراً » [٥] . ولم يستطع المصعب عمل شيء فقد خرج الأمر من بين يديه وفى لقاء مسكن مع عبد الملك تفرق عنه أهل العراق وقتل سنة ٧١ هـ أو سنة ٧٢ هـ [٦] . واحتزّ رأسه عبيد الله بن زياد بن ظبيان وذهب إلى عبد الملك فسجد

---

(١) البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٥ . مروج الذهب ج ٢ ص ٩٩ .
(فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا) ...

(٢) البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٥ .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٥٤ . الكامل ج ٤ ص ٣٨ .

(٤) الطبرى ج ٦ ص ١٥٧ .

(٥) الأنساب ج ٦ ص ٢٤١ .

(٦) التنبيه والإشراف ص ٢٢١ . الطبقات ج ٥ ص ١٣٦ . اليعقوبى تاريخ – ج ٢ ص ٢٦٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢١ . الكامل ج ٤ ص ٣٢٨ . الطبرى ج ٦ ص ١٥٩ .

شكراً لله ، فكان ابن ظبيان يقول : « ليتنى قتلت عبد الملك حين سجد يومئذ فأكون قد قتلت ملكى العرب » [١] .

وقام حمران بن أبان بعد مقتل مصعب فى البصرة بما قام به سنة ٤١ هـ [٢] وثب فأخذ البصرة ولم يزل كذلك حتى قدم عليه خالد بن يزيد فعزله ، فلما قدم الحجاج آذاه وأخذ مائة ألف درهم فكتب إلى عبد الملك يشكوه فكتب إلى الحجاج : « أن حمران أخو من مضى وعم من بقى فأحسن مجاورته ورد عليه ماله » [٣] .

واستغل أهل الكتاب حركة ابن الزبير فوجهوا همّتهم إلى شمال أفريقيا فنشطوا فى مصر وتمكن قسيسان أن يسيرا من مريوط إلى الهند فأمسكهما المسلمون [٤] . وتعاونوا مع الروم البيزنطيين فى أفريقيا رغم قلة عدد النصارى هناك .

وكانت غزوات المسلمين لأفريقيا قد بدأت زمن عمرو بن العاص الذى اكتسب قبيلة لواته الكبيرة إلى جانب المسلمين ، وأرسل عقبة بن نافع الفهرى إلى زويلة وفزان وودان فأقام نحو عشرين سنة يدعو للإسلام ويضرب لأهلها مثلًا جميلا للمسلم المتفانى فى دينه فاجتذب قلوب الكثير من نفّوسة ولواتة وتغراوه وهم البربر البتر أي البربر الظاعنة ، والبرانس وهم البربر المستقرون المتحضرون بالحضارة اللاتينية فأصبحوا عوناً للمسلمين على الروم الذين كانوا يحاولون العودة بالتعاون مع البربر كلما وجدوا إلى ذلك سبيلًا . وفى سنة ٤٥ هـ وصل معاوية بن خديج برقة ومعه نفر كبير من الصحابة والتابعين أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، وهزم الجيش الذى أرسله الروم وتراجعوا إلى صقلية [٥] . وأنشأ عقبة بن نافع القيروان سنة ٤٩ هـ بعد أن قاتل من

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢١ . الكامل ج ٤ ص ٣٢٨ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٦٧ .
(٣) المعارف ص ٤٣٦ . الطبرى ج ٦ ص ١٦٥ .
(٤) ساويرس ص ١٣٦ .
(٥) ابن عبد الحكم ص ١٩٣ .

بأفريقيا من النصارى والبربر [١] فأصبحت نقطه ارتكاز للمسلمين تخرج منها الغزوات وتنظم شئون البلاد .

وفى سنة ٦٨٠ م جمع قسطنطين الرابع مجلسا دينيا نجح فى وضع حد للخصومات المذهبية بين الدولة البيزنطية ورعاياها فى أفريقية وإيطاليا فبدأ الحلف النصرانى بين البيزنطيين والبربر فى الشمال الأفريقى وتحركت قبائل أوربة البربرية النصرانية فى البرانس بزعامة كسيلة بن لمزم الأوربى ولكن أبو المهاجر هزمهم واجتذب جماعة منهم للإسلام [٢] ، كما تظاهر كسيلة بالإسلام ليكون عيناً للبيزنطيين يرصد حركة المسلمين وينظم فى الوقت نفسه المقاومة السرية التى برع بها أهل الكتاب ضد الإسلام . ولما عاد عقبة إلى الولاية مرة ثانية سنة ٦١ – ٦٤ هـ تظاهر كسيلة بالطاعة فدخل خدمته وراسل البربر النصارى سراً كما راسله الروم [٣] الذين أمدوه بالمال والسلاح فارتد عن الإسلام [٤] . وكان عقبة قد زحف على شمال أفريقيا من القيروان عبر الطريق الداخلى البعيد عن الساحل [٥] حتى بلغ طنجة وفى طريق عودته صرف جنده إلى القيروان وسار فى ثلاثمائة من رفاقه إلى بلدة تهودة [٦] وعرض له كسيلة بجمع كبير ضم الروم والبربر فاستشهد عقبة وأبو المهاجر سنة ٦٤ هـ [٧] . فاستطاع تحالف أهل الكتاب مع البيزنطيين دحر

---

(١) ابن أبى دينار ورقة ١٥ . البيان المغرب ج ١ ص ٢٠ . ابن خلدون ج ٣ ص ٢١ . ذكر الإدريسى أن القيروان بنيت سنة ٦٠ هـ (ص ٢٨٦) أما صاحب الاستقصاء . فذكر سنة ٥٠ هـ (ص ٧٨) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٦ . البيان المغرب ج ١ ص ٨ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤ . النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٧ . ابن عبد الحكم ص ١٩٨ .

(٤) ابن أبى دينار ورقة ١٦ . الاستيعاب ق ٣ ص ١٠٧٧ .

(٥) السلاوى – الاستقصاء ص ٣٨ .

(٦) عقد الجمان ج ١ ص ١٠٢ . الكامل ج ٤ ص ١٠٧ .

(٧) ابن عبد الحكم ص ١٩٨ . البيان المغرب ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ . الاستيعاب ق ٣ ص ١٠٧٧ .

المسلمين وانتزعوا القيروان وتراجع المسلمون إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوى [(١)] حتى سنة ٦٩ هـ .

واستطاعت القوات البيزنطية بالمدن الساحلية أن تستعيد ما كان للدولة من نفوذ فى هذه البلاد ودعمت أقدامها فيها لمقاومة أى زحف إسلامى فى المستقبل [(٢)] .

وتمكن زهير سنة ٦٩ هـ من هزيمة كسيلة وحلفائه من الروم وقتله [(٣)] كما تمكن من القضاء على مقاومة البرانس حلفاء البيزنطيين تماما ، وترك البيزنطيون المسلمين يطيلون خطوط تموينهم لقطع خط الرجعة عليهم واتصلوا بدولتهم التى اغتنمت خلو برقة فخرجوا فى مراكب كثيرة وقوية من جزيرة صقلية وأغاروا على برقة فأصابوا سبياً كثيرا وقتلوا ونهبوا [(٤)] ووقع زهير (فيما وقع فيه عقبة من قبل) فى كمين أُستشهد فيه وأصحابه ولم ينج منهم أحد سنة ٦٩ هـ [(٥)] وأنعش مقتل زهير آمال البيزنطيين فى عودة أفريقية إليهم فأرسل الامبراطور ليونتيوس (٦٩٥ – ٦٩٨ م) مدداً إلى قرطاجنة ، وبقيت الساحة الأفريقية مسرحاً لتحالف أهل الكتاب مع البيزنطيين بعد انتهاء حركة ابن الزبير فتجمع البربر حول امرأة لقّبها العرب بالكاهنة واسمها داهية بنت ماتية بن ثيفان ملكة جبال أوراس ، وكانت تنتسب إلى قبيلة جراوة اليهودية [(٦)] ، وكسائر المتنبئين أخذت الكاهنة تخبرهم بأشياء من الغيب فتجمع حولها أعوان كسيلة [(٧)] وبنو يفرن ومن كان بأفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر .

ولما جاء حسان بن النعمان هاجم الروم أولًا واحتل قرطاجنة وهدم أسوارها وحصونها [(٨)] إلا أن الكاهنة هزمت المسلمين فى باجاية بجبل الأوراس [(٩)]

---

(١) فجر الأندلس ص ٤١ .
(٢) عدوى ص ٢٤٦ .
(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٣٢ .
(٤) نفسه .
(٥) البيان ج ١ ص ٣٣ . ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٧ .
(٦) الاستقصاء ص ٩٣ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٨ .
(٧) البيان المغرب ج ١ ص ٣٥ . الكامل ج ٤ ص ٣٧١ .
(٨) أسد الغابة ج ٤ ص ١٣ .
(٩) الكامل ج ٤ ص ٣٧٢ . ابن خلدون ج ١ ص ١٦٩ .

وأشاعت بين البربر أن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى ، فلا أرى إلا خراب أفريقية كلها حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر [١] فقامت بخراب أفريقية مع الروم ، وأمد عبد الملك حسان بجيش كثيف تمكن به من القضاء عليها فخضع البربر لسيادة المسلمين [٢] . ولما عاد الروم مرة أخرى إلى قرطاجنة بقيادة البطرق يوحنا طردهم منها حسان وبنى مدينة تونس فقطع عليهم خط الرجعة سنة ٧٨ هـ .

وأشاع أهل الكتاب نتيجة حركة ابن الزبير أن عبد الملك بنى قبة الصخرة المشرفة بديلا عن البيت الحرام [٣] ، وشايعهم المستشرقون . والواقع أن عبد الملك ابتدأ بناءها سنة ٦٦ هـ . حين حضر إلى بيت المقدس فأرسل الكتب إلى عماله برغبته فى بناء قبة على حفرة بيت المقدس تقى المسلمين الحر والبرد وأنه كره أن يفعل ذلك دون رأى رعيته [٤] فلا علاقة بين هذا الأمر وبين ما ادعوه .

فتنة عمرو بن سعيد « الأشدق » .

كانت الروايات التى يقصها أهل الكتاب على معاوية ويسمرون معه بها من عوامل الفتنة بين أبناء البيت الأموى . فأخذ معاوية يغرى بينهم العداوة والبغضاء ليبقى قطب الرحى لهم ، فأغرى بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم ، بأن كتب لسعيد وهو على المدينة يأمره بهدم دار مروان فلم يفعل ، فلما ولى مروان المدينة كتب إليه بهدم دار سعيد ، فأراد تنفيذ الأمر ولكن سعيدا جاء

---

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٣٦ . ابن أبى دينار ورقة ١٩ ب .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٤١ . الكامل ج ٤ ص ٣٧٢ .

(٣) انظر اليعقوبى ج ٢ ص ٢٦١ . بروكلمان ج ١ ص ١٦٩ . فلهاوزن : P 213 . بخيت – ظهور الإسلام ص ١٨٥ .

(٤) الأنس الجليل ج ١ ص ٢٧٢ .

بكتب معاوية إليه فى هدم دار مروان ونية معاوية فى أن يغرى بينهما [(١)] .

وبدأت المدرسة القدرية تتسلل إلى البيت الأموى على يد عمر المقصوص أستاذ معاوية الثانى فدان معاوية بالقدر وتحققه [(٢)] خاصة وإن يوحنا الدمشقى كان نديم والده يزيد ، ويظهر أن فئة ما كانت تكره اتجاهه هذا فدبرت أمر سمه ثم افتعلت قصة تنازله فى محاولة لتبرير حكم المروانيين [(٣)] ، ولا يستبعد أن الذى دبر سمه كان على صلة بمروان . إذ لما أمر معاوية « حسان بن مالك » أن يصلى بالناس وتغيب هو دخل عليه مروان فقال : « أعطيت من نفسك ما يعطى الذليل المهين » . ثم رفع صوته فقال :

« من أراد أن ينظر فى خلافة آل حرب فلينظر إلى هذا » [(٤)] .

وكان يزيد قد استعمل عمرو بن سعيد بن العاص على الحجاز فلما بايع الناس ابن الزبير وهنوا عمرا عند يزيد فعزله وولى مكانه الوليد الذى أخذ غلمان عمرو ومواليه فحبسهم فكلمه عمرو فأبى أن يخليهم فسار عن المدينة ليلتين وأرسل إلى غلمانه بعدتهم من الإبل فكسروا الحبس وساروا إليه فلحقوه عند وصوله الشام ، وأعلم يزيد ما كان من مكايدة ابن الزبير فعذره وصدّقه [(٥)] وأخذ يمكن روابطه مع أبناء يزيد فزوج عبد الله بن يزيد ابنته أم موسى بنت الأشدق [(٦)] كما وثق روابطه بالأسرة الكلبيّة درع يزيد .

ولما خرجت كلب على إجماع المسلمين فى مبايعة ابن الزبير بايعت لمروان ابن الحكم فى الجابية على أن يكون الأمر لخالد بن يزيد من بعده ثم لعمرو بن سعيد بن العاص [(٧)] وكان الناس قد أرادوا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يتولى

---

(١) الأنساب ج ٢ ص ١٧٩ .
(٢) ابن العبرى – مختصر الدول ص ١٩١ .
(٣) فلهاوزن ص ١٣٨ .
(٤) الأنساب ج ٥ ص ٥٨ .
(٥) الكامل ج ٤ ص ١٠٠ . الطبرى ج ٥ ص ٤٧٨ .
(٦) الكامل ج ٤ ص ٢٩٨ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠٨ .
(٧) الطبرى ج ٥ ص ٥٣٧ .

عليهم فأبى ، وهلك فى تلك الليالى [١] فى ظروف غامضة .

وكان مؤتمر الجابية يظهر وكأنه ميثاق لتجميع الأسرة الأموية أسهمتْ فيه كلب وعلى رأسها حسان بن بحدل وعبيد الله بن زياد من أجل تحقيق أهدافهم فى ضرب قريش بعضها ببعض . فوقف الأشدق مع مروان واشترك معه فى دخول مصر [٢] . وكان يقول : « إن هذا الأمر لى من بعد مروان » . فدعا مروان حسان ابن مالك وأخبره بمقالة عمرو وأنه يريد أن يبايع لعبد الملك وعبد العزيز ابنيه من بعده فقال : أنا أكفيك عمراً ، فلما اجتمع الناس عند مروان عشياً قام ابن بحدل فقال : « إنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أماني . قوموا فبايعوا لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده » ، فقام الناس وبايعوا عن آخرهم [٣] فقضى حسان على الميثاق بين الأسرة بعد أن كان قد أبرمه هو وقبيلته ، وأسقط فى يد عمرو وأخذت عوامل الفتنة تحركه وتستثيره ، وكما كان حسان وسفيان بن الأبرد الكلبيين بجانب عبد الملك كان حميد بن حريث بن بحدل وزهير بن الأبرد الكلبيين بجانب عمرو ، ولما توجه عبد الملك إلى قرقيساء لحرب زفر بن الحارث انخذل عنه عمرو ومعه حميد وزهير فأتى دمشق وغلب عليها [٤] ورجع عبد الملك فحاصره ستة عشر يوما فأتت نساء كلب وصبيانهم فبكين وقلن لسفيان بن الأبرد ولابن بحدل علام تقتلون أنفسكم لسلطان قريش ، ثم اصطلح عبد الملك وعمرو وكتبا بينهما كتاباً أمن فيه عبد الملك عمرا [٥] . وأدرك عبد الملك تلاعب قبيلة كلب

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠٨ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٥٤٠ .

(٣) نفسه ص ٦١٠ .

(٤) انظر الكامل ج ٤ ص ٢٩٧ . الطبرى ج ٦ ص ١٤٠ . اليعقوبى ج ٢ ص ٣٢١ – البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٠ .
وهذه أصح الروايات عن عوانة إذ لا يعقل أن يكون عبد الملك تركه والياً عليها فقد كان حذرا منه .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ١٤١ . الكامل ج ٤ ص ٢٩٨ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٨ .

بمقدرات الأسرة الأموية فأراد أن يضرب ضربته ليشل تأثيرها دون أن يخسرها ، فصمم على قتل عمرو غدراً وأخذ يهيىء لذلك نفسه . فقد قال له روح بن زنباع وقد خلا به يوما وكان من أحظى الناس به : يا أمير المؤمنين هل من رأيك الوفاء لعمرو ؟ قال : ويحك ياابن زنباع وهل اجتمع فحلان فى محبة قط إلا قتل أحدهما صاحبه ؟ (١) . ولما حزم عبد الملك أمره لحرب مصعب قال لابن زنباع وهو يتجهز : « والله إن فى أمر هذه الدنيا لعجب لقد رأيتنى ومصعب بن الزبير أفقده الليلة الواحدة من الموضع الذى نجتمع فيه فكأنى واله ، ويفقدنى فيفعل مثل ذلك ، ولقد كنت أوتى باللطف فما أراه يجوز لى أكله حتى أبعث إلى مصعب أو ببعضه ثم صرنا إلى السيف ، ولكن هذا الملك عقيم ليس أحدا يريده من ولد ولا والد إلا كان السيف » وإنما يقول هذا القول لأن خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد جالسان معه فأرادهما به (٢) . ولما أتم استعداداته أرسل إلى عمرو يطلبه فأشار عليه عبد الله بن يزيد بألا يذهب وذلك أن تبيع ابن امرأة كعب الأحبار قال : (إن عظيما من عظماء ولد إسماعيل يرجع فيغلق أبواب دمشق ثم يخرج منها فلا يلبث أن يقتل » . فكان جواب عمرو : « والله لو كنت نائماً ما تخوفت أن ينبهنى ابن الزرقاء ويجترئ على ذلك منى » . ولكنه أحسّ بالشر حين دخل عند عبد الملك وحوله بنو مروان ومعهم حسان بن مالك وقبيصة بن ذؤيب (٣) . وتمكن عبد الملك من قتله غدراً سنة ٦٩ هـ أو سنة ٧٠ هـ (٤) . ولا شك أن قتل عمرو كان موجهاً إلى قبيلة كلب للحدّ من تأثيرها على الدولة فقبعت عناصر الفتنة فى دمشق والشام ولم تجد فرصة أمام جبروت عبد الملك الذى أحسن لأبناء عمرو بعد أن استتبّ له الأمر وقضى على حركة ابن الزبير فقال

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٨٦ .

(٢) ابن سعد الطبقات ج ٥ ص ١٦٨ .

(٣) الكامل ج ٤ ص ٢٩٨ . الطبرى ج ٦ ص ١٤٣ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣١ – الأنساب ج ٥ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٤) الطبرى ج ٦ ص ١٤٨ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٤ .

لهم معتذراً : « إن أباكم خيّرنى بين أن يقتلنى أو أقتله فاخترت قتله . وأما أنتم فما أرغبنى فيكم وأوصلنى لقرابتكم وأرعانى لحقّكم » [١] .

فتنة المختار الثقفـــى :

المختار بن أبى عبيد الثقفى ، والده الصحابى المشهور الذى استشهد مع أولاده الأربعة فى معركة الجسر زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، من رجالات الطائف المشهورين » [٢] .

اتصف المختار فى التاريخ الإسلامى بالجرأة والمغامرة فى جمع المال والجاه دون أن يهتم بالوسائل التى توصله إليها ، فكان على استعداد أن يكذب وأن ينافق وأن يدعى النبوة أو الألوهية وأن ينقلب من صديق إلى عدو ومن عدو إلى صديق إذا كان يساعده ذلك على تحقيق مآربه [٣] .

وشخصيته حادة الذكاء منحرفته ساعدت دعاة الفتنة على الالتفاف حوله ينفثون سمومهم فى أجواء الكوفة المضطربة ليستغلها أيضا لنيل أغراضه . فتعاونت الكوفة معه وأظهرت أنها تعمل لصالحه وكأنه هو الذى يوجهها ، واستغلت كونه من ثقيف المشهورة بتأييدها الأمويين ، كما وجد أهل الكتاب فى شخصيّة خارجة من هذه القبيلة فرصة الالتفاف حولها وسبيلًا يمكنهم من نفث أفكارهم بين المسلمين من أجل ضعضعة الدولة وتصديع أركانها ، فتسارعوا لتأييده ووجد بعض الموالى الحاقدين فيه ضالتهم المنشودة ، لأنهم يرون أن الحرب التى تقوم بين العناصر العربية ستؤدى حتماً إلى إضعاف الغالب والمغلوب وفى ذلك قوة ونجاح لهم . كما وجد المختار فيهم ضالّته المنشودة فهو يريد أن يصل إلى المجد والسلطان مهما يكن الثمن وهو فى سبيل ذلك بغيّر سلوكه واتجاهه من وقت لآخر [٤] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٨ . الكامل ج ٤ ص ٣٠٢ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٣ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١١ .

(٣) أحمد شلبى – الدولة الأموية ص ٢٠٧ .

(٤) الموالى فى العصر الأموى ص ١٠٨ .

فهو لم يخدع الموالى كما تخيل طلس (١) وإنما تعاون معهم ليحقق أهدافه ولم يكن بحاجة لأن ينفخ فيهم روح التمرد على العرب لأنهم كانوا على استعداد لذلك لما في بعضهم من كره للإسلام . فما كان كرههم للعرب إلا لكونهم حملة الإسلام وحماته آنذاك .

وكان أول ظهور المختار على مسرح السياسة سنة ٤١ هـ خارجيا (٢) وكان غلاماً شابا جاء لعمه سعد بن مسعود والى المدائن والحسن مجروح فى المقصورة وقال : هل لك فى الغنى والشرف ؟ أن توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : « عليك لعنة الله . آت على ابن بنت رسول الله ﷺ فأوثقه ؟ بئس الرجل أنت » (٣) .

ثم أخذ يتقرب إلى الشيعة زمن الحسين ونزل مسلم بن عقيل داره فى الكوفة وقبض عليه ابن زياد ، وحبسه وضربه بقضيب فى وجهه فخبط عينه فشترها (٤) . ولما استشهد الحسين شفع له زوج أخته عبد الله بن عمر عند يزيد ابن معاوية الذى أمر ابن زياد أن يخلي سبيله (٥) فأطلق سراحه على أن يخرج من الكوفة . فتوجه إلى ابن الزبير قائلا : أما أنه رجل العرب اليوم (٦) فأصبح زبيرياً (٧) يحرض ابن الزبير على أن يبايع له . ولما سأله ابن الزبير عن أهل الكوفة قال : « هم لسلطانهم فى العلانية أولياء ، وفى السر أعداء » فقال له ابن الزبير : « هذه صفة عبيد السوء إذا رأوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم فإذا غابوا عنهم

---

(١) عصر الاتساق ص ٩٧ .
(٢) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٨٣ . المبرد ج ٢ ص ٨٤ . كتاب الزينة ص ٢٩٤ .
(٣) الأنساب ج ٢ ورقة ٧٠١ . الطبرى ج ٥ ص ١٥٩ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١٢ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٥٧٠ . الكامل ج ٤ ص ١٦٩ .
(٥) الطبرى ج ٥ ص ٥٧١ . البداية والنهاية ص ٣١٢ .
(٦) اليعقوبى – تاريخ ج ٢ ص ٢٥٨ . الكامل ج ٤ ص ١٦٩ .
(٧) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٨٣ . المبرد ج ٢ ص ٨٤ .

شتموهم ولعنوهم » (١) ولما لم يستجب ابن الزبير للمختار توجه المختار إلى الطائف يزعم أنه صاحب الغضب ومبير الجبارين فلما سمع عنه ابن الزبير قال : قاتله الله ، لقد انبعث كذاباً متكهناً إن الله إن يهلك الجبارين يكن المختار أولهم . ولكنه عاد وبايع ابن الزبير على أن يوليه بعض أعماله إذا ظهر . وقاتل معه الحصين بن نمير فى حصار مكّة الأول (٢) وأقام معه خمسة أشهر بعد مهلك يزيد ولما رآه لا يستعمله رجع إلى الكوفة وكان يظهر مدح ابن الزبير فى العلانية ويسبه فى السر وادعى أنه جاء الكوفة من قبل ابن الحنفية للطلب بدم الحسين والثأر له .

وكانت الشيعة تتجهز بزعامة شيخها سليمان بن صرد لذلك . وقال : إن محمداً بعثه أميراً إلى الشيعة وقال : « وأمرنى بقتال المحلين والطلب بدماء أهل بيته المظلومين وإنى والله قاتل ابن مرجانة والمنتقم لآل رسول الله ممن ظلمهم » (٣) . وأخذ يضعف من شأن سليمان ويخذل الشيعة عنه بقوله : « إنى قد جئتكم من قبل ولى الأمر ومعدن الفضل ووصى الوصى والإمام المهدى بأمر فيه الشفاء وكشف الغطاء وقتال الأعداء وتمام البقاء وسليمان يرحمنا الله وإياه إنما هو غشمة من الغشم وشن بالى ليس بذى تجربة للأمور ولا علم له بالحروب فاسمعوا منى وأطيعوا أمرى » ، فالتف حوله خلق كثير من الشيعة (٤) وكذبته جماعة فارتفع شأن الحزب الذى توارى فى الظلام حتى ذلك الحين وهو حزب السبئية (٥) وكانت لا تزال أوكارهم فى الكوفة فانتهزوا فرصة الفوضى وانتشروا بين الموالى من الفرس والآراميين الذين اعتنقوا الإسلام (٦) وانضموا إلى المختار وتقوّلوا

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٥٧٤ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٥ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٥٧٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٤ .
(٣) الاستيعاب ص ١٤٦٥ . اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥٨ . الملل والنحل ج ٢ ص ٢٨٣ . الكامل ٤ ص ١٦٣ .
(٤) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ١٧١ . الكامل ج ٣ ص ٥٣٩ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٩ بنفس المعنى .
(٥) الأنساب ج ٥ ص ٢٤٦ .
(٦) فلهوزن ص ٦٤ . بروكلمان ج ١ ص ١٦٠ .

على ابن الحنفية يستميلون المخلصين ليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة [١] حيث كانوا فى معظمهم من أهل الكتاب أصلا من همذان التى جعل فيها ابن سبأ أعشاشا تأوى إليها دعاوى الفتنة وتبيض وتفرخ بهدوء ، فلجأ إليها المختار أول دخوله الكوفة : حدث الثقة [٢] سويد بن غفلة قال : « بينا أنا أسير بظهر النجف إذ لحقنى رجل فطعننى بمخصرة من خلفى فالتفتّ إليه فقال : ما قولك فى الشيخ ؟ قلت : أى الشيوخ ؟ قال : على بن أبى طالب . قلت إنى أشهد أنى أحبه بسمعى وبصرى وقلبى ولسانى . فسرنا حتى دخلنا الكوفة فافترقنا ، فمكث بعد ذلك سنين ثم إنى لفى المسجد الأعظم . إذ دخل رجل ملثّم يتصفح وجوه الخلق فلم يزل ينظر فلم ير لحى أحمق من لحى همذان ، فجلس إليهم فتحولت فجلست معهم فقالوا : من أين أقبلت ؟ قال : من عند أهل بيت نبيّكم .. ووعدهم من الغد موعداً ، فغدا وغدوت فإذا قد أخرج كتاباً معه فى أسفله طابع من رصاص فدفعه إلى غلام فقال له ياغلام اقرأه : فقال الغلام :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب للمختار بن أبى عبيد كتبه له وصى آل محمد أما بعد ... فكذا وكذا . فاستفرغ القوم بالبكاء » [٣] .

ولما قام سويد فحَدّثهم بقصته ونصحهم فسروا ذلك بأنه تثبيط للهمم وتشكيك فأيدته جماعة وتجمع حوله العبيد والموالى واستجابت له حبًّا فى آل البيت تدفعهم السبئية لتقويض دولة الإسلام ، وانقادت إليه الشيعة التى لم تكن مجتمعة تماماً على رأى أو زعيم [٤] ، فكان من السهل على ابن زياد أن يهزم سليمان ومن كان معه فى عين الوردة بعد أن ثبط المختار والسبئية الناس [٥]

---

(١) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ١٦٣ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٨ .
(٢) الاستيعاب ص ١٤٦٥ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ١١٤ . الكامل ج ٤ ص ١٧٢ .
(٤) الكامل ج ٤ ص ١٦٥ .
(٥) الأنساب ج ٦ ص ٢ - ٤ . الطبرى ج ٥ ص ٥٨٤ . الكامل ج ٤ ص ١٧٦ . ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥١ .

واتصل المختار بالنساطرة النصارى فالتفوا حوله وأصبحوا على استعداد لمساعدته عندما يثب بالكوفة . فسجنه عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة واليا الكوفة ، وفى السجن سجع أسجاعاً وحاول أن يدعى النبوة لنفسه وأنذر بالغيوب عن الله (١) وأرسل إلى رفاعة بن شداد بعد تراجعه بفلول الهيعة : « أما بعد فإن الله أعظم لكم الأجر وحط عنكم الوزر بمقارعة القاسطين وجهاد المحلين ، إنكم لم تنفقوا نفقة ولم تقطعوا عقبة ولم تخطوا خطوة إلا رفع الله بكم بها درجة وكتب لكم بها حسنة إلى ما لا يحصيه إلا الله من التضعيف ، فأبشروا فإنى لو قد خرجت قد جرّدت فيما بين المشرق والمغرب فى عدوكم السيف بإذن الله فجعلتهم بإذن الله ركاما وقتلتهم فذا وتوأما ، فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى والسلام ياأهل الهدى » (٢) . فجاءهم بالكتاب سيحان بن عمرو من عبد القيس وكانت جماعة السبئية تعمل بالكوفة وعلى رأسهم صاحبه أبو عمرة كيسان الذى كان له صلة بجماعات ثنوية ونصرانية ويهودية يحمل أفكارها ينسبها للمختار وكان كيسان مولى لقبيلة عربية (٣) من بجيلة الغالية المتمسكة بالغلو والتى وجدت فيها الأفكار اليهودية والنصرانية والمانويّة طريقاً إلى نفوس أفرادها ، وأصبح جارا للمختار فى سكنه وصاحب سره ومؤامراته (٤) يصور المختار بالصورة التى يريدها ويقنعه بها (٥) . واستمال العجم الحمراء الذين كانوا قد فرض لهم معاوية بالكوفة وكان عددهم زهاء عشرين ألف رجل فأصبحت له قوة إلى جانب قوة همذان (٦) وفلول الشيعة بعد أن وصلهم كتاب المختار مع سيحان . وأرسل غلام المختار زربيا إلى عبد الله بن عمر يذكر أنه حبس مظلوما ، فتشفع له عند عبد الله

---

(١) انظر الفصل ج ٤ ص ١٨٤ . الأنساب ج ٦ ص ٦٢ . الكامل ج ٤ ص ١٧٣ . الطبرى ج ٥ ص ٥٨٢ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٦ . الكامل ج ٤ ص ١٨٦ .
(٣) الأنساب ج ٦ ص ٤٩ .
(٤) القمّي – كتاب المقالات والفرق ص ٢٢ .
(٥) البغدادى – الفرق بين الفرق ص ٣٩ .
(٦) الأخبار الطوال ص ٢٨٨ .

ابن يزيد وإبراهيم بن طلحة ، فدعوا للمختار بكفلاء يضمنونه بنفسه فأتاه أناس كثير فضمنه عشرة منهم ، وحلّفاه بالله أن لا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها عند رتاج الكعبة ومماليكه كلهم ذكرهم وأنثاهم أحرار ، فحلف لهم بذلك وجاء داره فنزلها [١] والتف حوله أصحابه فقال لهم : « ماأحمقهم حين يرون أني أفي لهم بأيمانهم هذه ، أما حلفى لهم بالله فإنه ينبغي لى إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً أن أدع ما حلفت وآتي الذى هو خير وأكفر يميني وخروجي عليهم خير من كفي عنهم وأكفر يميني . وأما هدى ألف بدنة فهو أهون عليّ من بصقة وما ثمن ألف بدنة بالذى يهولني ، وأما عتق مماليكي فوالله لوددت أنه قد استتب لي أمري ثم لم أملك مملوكاً أبداً » [٢] . وجاء السبئية يقولون : « أنت حجة هذا الزمان » وحملوه على دعوى النبوة فادعاها عند خواصه وزعم أن الوحي ينزل عليه [٣] وزاد من أسجاعه فأصبح صاحب دعاوى ونيرنجات وشبه مخاريق [٤] ادعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون ثم يحتال فيوقعها فيقول للناس هذا من عند الله عز وجل [٥] . وزاد الأمر فادعى أن جبريل يأتيه [٦] بالوحي فروى رفاعة الجهمي وهو ثقة : [٧] « دخلت على المختار ابن أبي عبيد في قصره فسمعته يقول : قام الآن من عندى جبريل ، فهممت أن أضرب عنقه ، فذكرت حديثا حدثناه سليمان بن صرد عن النبيّ ﷺ أنه قال : « إذا ائتمنك رجل على دمه فلا تقتله » [٨] وسمح للسبئية ولأبي عمرة بتكوين

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٨ . الكامل ج ٤ ص ٢١١ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٤ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٩ .

(٣) البغدادى – الفرق بين الفرق ص ٣٩ .

(٤) الزينة ص ٢٩٤ .

(٥) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٥ . المبرد ج ٢ ص ٨٤ .

(٦) المعارف ص ٤٠١ .

(٧) الاستيعاب ص ١٤٦٥ .

(٨) الأنساب ج ٦ ص ٥٠ . عقد الجمان ج ١١ ق ٢ ص ٢٢٠ . البداية ج ٨ ص ٣١٣ .

الآراء الأسطورية عند غلاة الشيعة ، وبتكوين عقيدة تقوم على محاولة إسباغ علم سرى إلى الإمام ، وإحاطة المثل الإسلامية بهالة من القدسية تنبعث من مقام الإمام ، وعاشت هذه الأفكار برغم تبرؤ الأئمة منها كابن الحنفية وغيره من آل البيت (١) . وتعمقت فى المختار الآراء اليهودية والنصرانية فكان يمسح رأس ابنته ثم يقول : « عليه‌السلام على عيسى ابن مريم » لأنهم فيما يزعمون كان يقول : سيتزوجها المسيح عليه السلام (٢) . واشتد أمر المختار بالكوفة وما زال حتى استحوذ عليها بطريق التشيع وإظهار الأخذ بثأر الحسين والتفاف جماعات كثيرة من الشيعة عليه . فأخرج عامل ابن الزبير منها واستقر ملكه بها . وكتب إلى ابن الحنفية يزعم أنه ينتظر أوامره وأنه على رأيه ، فشاور ابن أخيه علىّ بن الحسين فأشار عليه ألا يجيبه إلى شيء من ذلك وإن يظهر كذبه ، ولكنه شاور ابن عباس فقال له : « لا تفعل فإنك لا تدرى ما أنت عليه من ابن الزبير » ، فسكت ابن الحنفية ولم يظهر عيوب المختار أولا (٣) لعدم وضوح أفكاره لديه ، ولكنه لم يقبل دعوته وعندما اتضحت أفكاره تنكر لها وتبرأ منها . ولم يعجب المختار موقف ابن الحنفية فاتصل بعلى بن الحسين وتظاهر بالقول بإمامته ، فرفض طلبه وأبى أن يقبل هديته أو يجيبه على كتابه بل سبه على رؤوس الملأ فى مسجد النبى صلى‌الله‌عليه‌وسلم وأظهر كذبه وفجوره (٤) . فعاد بالتظاهر للدعوة لابن الحنفية وأحسّ البعض بألاعيبه وألاعيب سبئيته فاتهموه فأرسلت شبام وهى جماعته الخاصة من همدان وفداً لابن الحنفية فأعلموه حال المختار وما دعاهم إليه واستأذنوه فى اتباعه فقال لهم : « أما

---

(١) انظر فصل أثر أهل الكتاب فى نشوء فرقة الشيعة من هذا البحث ص ٣٧١ .

(٢) الأنساب ج ٦ ص ٦٣ .

(٣) مروج الذهب ج ٦ ص ١٥٦ . وأرى أن مشاورته لعلى بعيدة عن الصحة . فعلى بن الحسين كان فى المدينة وابن الحنفية فى مكة ، ولا يبقى إلا الأمر الواضح البين وهو : « أن موقف ابن الحنفية كان السكوت أولا لا الرضا ثم تحول إلى الوقوف ضد آراء المختار » .

(٤) مروج الذهب ج ٦ ص ١٥٥ .

ما ذكرتم ممن دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » [(١)] . وهذا شبيه بموقفه من كتاب المختار إذ لم تكن نوايا المختار واضحة عنده ولم يذكر فى النص شيئا يدل على أن ابن الحنفية راسل المختار أو أرسل إليه ، بدليل أن ذلك شق على المختار وخاف أن يعود الوفد بأمر يخذل الشيعة عنه . ولكن الوفد عاد يقول : أُمرنا بنصرك قال : « الله أكبر » اجمعوا إلىّ الشيعة فجمع من كان قريبا منهم فقال لهم : إن نفراً قد أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به فرحلوا إلى الإمام المهدى فسألوه عما قدمت به عليكم فنبأهم أنى وزيره وظهيره ورسوله وأمركم باتباعى وطاعتى فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين [(٢)] والذى يؤكد لنا عدم معرفة ابن الحنفية بآراء المختار وجماعته في المرحلة الأولى أن المختار وكيسان كانا يرسلان جماعتهما إليه فيسلمون عليه قائلين :

سلام عليك يامهدى : فكان يأخذ الأمر بحسن نية ويقول : « أجل أنا مهدى أهدى إلى الرشد والخير واسمى اسم نبى الله وكنيتى كنيته » ، ولكنه يحتاط للأمر فيقول : « فإذا سلّم أحدكم فليقل سلام عليك يامحمد والسلام عليك ياأبا القاسم » [(٣)] . وليس هذا قبولا منه بمصطلح المهدى ، كما أنه لا يوجد تواطؤ بينه وبين المختار كما استدل منه البعض [(٤)] قال محمد حسن : « إن معاهدة خطيرة قد عقدت بين المختار وابن الحنفية ضد ابن الزبير وبنى أمية جميعا على أن تكون

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٢ – ١٤ . اليعقوبى – تاريخ ج ٢ ص ٢٥٨ .
(٢) الكامل ج ٤ ص ٢١٤ .
(٣) الطبقات ج ٥ ص ٦٩ .
(٤) المهدى فى الإسلام ص ٩٨ . وعبد المنعم ماجد يقول : إنه من المرجح أن ابن الحنفية بعد هزيمة التوابين اصطنعه لنفسه ليأخذ له بثأر أخيه لما عرف من حماسه فى ذلك فأمره بالطلب بدم الحسين وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا وسماه كيسان لكياسته وإخلاصه لمذهبه (على رأى النوبختى لاسم كيسان – الفرق ص ٢٧) الدولة العربية ج ٢ ص ١١٨ وأما بالنسبة لرأى ابن الحنفية فى الطلب بدم أخيه فيظهر فى عدم خلعه بيعة يزيد عندما دعى إلى ذلك قبل موقعة الحرة وفى خروجه إلى مكة .

مساعدة المختار حربية سياسية ومساعدة ابن الحنفية روحية دينية يلهب بها المختار الداهية ظهور الجماهير فتنساق وراءه عن طواعية » ، واستدل على ذلك من قول المختار لابن الحنفية عند خروجه من مكة : « أنا خارج إلى العراق . فقال له محمد : فاخرج وهذا عبد الله بن كامل الهمذانى يخرج معك » [١] . وهذا استنتاج مبالغ فيه ، كما أن فيه عدم ترتيب أو تجاهل للزمن فقد خرج المختار من مكة دون أن تتضح نواياه لا لابن الحنفية ولا لابن الزبير وأما كتاب المختار لابن الحنفية فكان بعد أن أصبح له فى الكوفة قوة يركن إليها ، ويروى البلاذرى عند خروج المختار أنه قال لابن الحنفية :

« إنى على الشخوص الطّلب بدعائكم والانتصار لكم » ، فسكت ابن الحنفية ولم يأمره ولم ينهه . فاعتبر المختار سكوته إذناً له وودعه [٢] . وآنذاك لم يكن هناك عداء بين ابن الزبير وابن الحنفية اللهم إلا امتناع محمد عن البيعة لابن الزبير ، ولم يظهر العداء إلا بعد أن أفسد بينهما المختار فى مراسلاته بعد وثوبه على عامل ابن الزبير بالكوفة .

واستطاع المختار وجماعته استمالة إبراهيم بن الأشتر لجانبه وهو رجل اجتمعت فيه الشجاعة وحب الرئاسة والجاه كوالده ، فقد راسله المختار وطلب منه الاشتراك فى الطلب فى دم الحسين فقبل على أن يكون هو وليّ الأمر [٣] فأخبره جماعة المختار أن المهدى محمد بن على وجه المختار فهو الآمر والمأمور ، وأنه شخص إليه نفر منا اعتبارا لما جاء فأمرنا بطاعته » [٤] فسكت ابن الأشتر [٥]

---

(١) وهذا من وضعه ووضع الشيعة فيما بعد ليبرر دعوته لابن الحنفية ، وإن صح فليس فيه ما يدل على عقد حلف . انظر الطبقات ج ٥ ص ٦٧ . ولم يعرف رجال القرن الأول الهجري الفصل بين السياسة الحربية والدينية .

(٢) أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٢٠ .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٦ .

(٤) الأنساب ج ٦ ص ٣٧ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ١٦ – الكامل ج ٤ ص ٢١٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٥ . أما المبرد فيذهب إلى أن إبراهيم استأذن محمد بن على فى تأييد المختار فكتب إليه : إنه ما يسوءه أن يأخذ الله بحقنا على يدى من يشاء من خلقه (الكامل ج ٣ ص ٢٦٧) وهذا خلط فى الخبر الذى أوردناه عن الجماعة التى ذهبت لترى رأى ابن الحنفية فى المختار .

وافتعل المختار كتابا من ابن الحنفية جاء به لإبراهيم [١] وفيه : « من محمد المهدى » [٢] فلفتت العبارة انتباه إبراهيم وشك فى الأمر وأدرك أن فيه سراً فقال :

« لقد كاتبت محمد بن على وكاتبنى فما رأيته قط إلا باسمه واسم أبيه لا يزيد على ذلك وقد استربت بهذا الكتاب » [٣] . فشهد جماعة مع المختار بأن الكتاب من ابن الحنفية ، وقد أعجب إبراهيم ما فيه فهو يحقق أطماعه ففيه :

« فإنك إن نصرتنى وأجبت دعوتى وساعدت وزيرى كانت لك عندى بذلك فضيلة ولك بذلك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام » . فقبل إبراهيم لا عن اقتناع بالكتاب أنه من ابن الحنفية ولكن للوعد الذى فيه ، فهو يقول للشعبى : « ياشعبى إنى قد حفظت أنك لم تشهد أنت ولا أبوك أفترى هؤلاء شهدوا على حق » [٤] ؟

وتنحى إبراهيم عن صدر المجلس وأجلس المختار وبايعه وأخذ يختلف إليه فقويت شوكته وأصبح قادراً على الوثوب على ابن مطيع عامل ابن الزبير فى الكوفة ، وتحرك بالفعل وأمر أبا عثمان أن ينادى فى أصحابه : « يالثارات الحسين يامنصور أمت أمت : ياأيها الحى المهتدون إنّ أمين آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل ديرهند وبعثنى إليكم داعيا ومبشراً فاخرجوا رحمكم الله » . فخرجوا وتوافوا فى جبانة السبيع وتحركت الدعاية السبئية فوضعت فى المختار ما لا يوضع إلا فى الأنبياء فزعموا أنهم استقبلوه بالماء فسقى أصحابه وأبى هو أن يشرب فظن أصحابه أنه صائم فقال أحمر بن شميط الهمداني لابن كامل : أترى الأمير صائماً ؟

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٨٩ .

(٢) انظر نص الكتاب الأنساب ج ٦ ص ٣٧ .
الطبرى ج ٦ ص ١٦ . الكامل ج ٤ ص ٢١٥ .

(٣) الأنساب ج ٦ ص ٣٨ – البداية ج ٨ ص ٢٨٦ .

(٤) البداية ج ٨ ص ٢٨٧ قال الشعبى فقلت :
إنهم قراء وأمراء ووجوه الناس ولا أراهم يشهدون إلا بما يعلمون . قال وكتمته ما فى نفسى من اتهامهم ولكنى كنت أحب أن يخرجوا للأخذ بثأر الحسين .

فقال له : نعم . فقال له : فلو أنه كان فى هذا اليوم مفطراً كان أقوى له ، فقال إنه معصوم وهو أعلم بما يصنع . فقال له : صدقت أستغفر الله . [١] ولما تسللت هذه الدعايات إلى صفوف ابن مطيع حذر أصحابه من خطر حركة المختار فقال :

« فلقد علمت الذين صنعوا هذا منكم من هم ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وطغاتكم وأخساؤكم ما عدا الرجل أو الرجلين » [٢] . وكان قد خرج مع ابن مطيع الأمراء من جيشه وفيهم شبث بن ربعى الذى مثل السبئية بجانب ابن مطيع ، فقد انتشرت السبئية كعادتها بين الفريقين تؤرث الفتنة ، ترفع من شأن ابن مطيع فى جانب وتختار العبيد والموالى وحديثى العهد بالإسلام إلى جانب المختار ، فشبث المعروف بمواقفه السبئية يرى مسعرا الحنفى فيقول له : ويحك ما أردت إلى اتباع هذه السبئية قبح الله رأيك – دعوا هذا – فكان يقتل المولى ويترك العربى [٣] . ولعله كان يقتل المخلص ويترك القادر على الفتنة فكانت حركة المختار فرصة استغلتها السبئية للقضاء على كثير من المخلصين فكان المختار صورة الرجل الأول الذى اتخذ من التشيع وسيلة لغاياته وأول من تجرأ على ذلك ، فكان قدوة سيئة للغلاة الذين ساروا فى طريقه الذى شقه لهم [٤] .

وثب المختار بالكوفة فى رابع وعشرين ربيع الأول سنة ٦٦ هـ . وتمكن أن يحصر ابن مطيع فأشار شبث على ابن مطيع أن يأخذ من المختار أماناً أو أن يذهب متخفيا حتى يلحق ابن الزبير ، فاختار الذهاب إلى البصرة وأخذ شبث أماناً فخرج وبايع الناس للمختار وبعث الأمراء إلى النواحى والبلدان والرساتيق من أرض العراق وخراسان [٥] .

ولما استولى المختار على الكوفة شرع يتحبب لأهلها ويحسن مجاورتهم وسيره

(١) الكامل ج ٤ ص ٢٢٣ . الطبرى ج ٦ ص ٢٩ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣١ . الكامل ج ٤ ص ٢٢٥ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ٢٥ .
(٤) الصلة ص ١٠٢ .
(٥) الكامل ج ٤ ص ٢٢٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ .

فيهم فأكرم أشرافهم [١] ، وهى خطة اتفق عليها المختار مع قائد حرسه كيسان – أبى عمرو – حتى تتضح الأمور ومدى سيطرة المختار على الكوفة ، ولم يدرك الموالى من أتباع الشيعة هذه الخطة – وقد أوجد أبو عمرة ودعاته فى نفوسهم عداء العرب ومسلمى الكوفة – فانتقدوا سياسة المختار فنقل أبو عمرة إليهم قول المختار يطمئنهم : « إنا من المجرمين منتقمون » يبشر الموالى بأنه سيدنيهم ويقربهم وسينتقم من العرب فسكتوا ، وأصبحوا أداة بيد أبى عمرة والسبئية ومن يحركهم من أهل الكتاب على قتل العرب والموالى المخلصين ، فكانوا يقولون لبعضهم : أبشروا كأنكم والله به قد قتلهم [٢] وبين أولئك شاعت الأفكار التى أُلصقت بالمختار وسكت عنها ليستغلها لأغراضه .

وحاول المختار وسبئيته خداع ابن الزبير لكسب الوقت فأظهروا أنهم على طاعته مخفين الأمر كل الإخفاء عن الشيعة ، فأرسل إليه يمالئه حتى يستمكن له الأمر [٣] : « إن ابن مطيع كان مداهناً لبنى أمية وقد خرج من الكوفة وأنا ومن بها على طاعتك » [٤] . فأرسل ابن الزبير عمرو بن عبد الرحمن المخزومى لولاية الكوفة ، فلما سمع المختار بذلك دعا زائدة بن قدامة وأمره أن يعطيه مالًا ويرده وإلّا فليره الخيل وقد أكمنها ، فسار عمرو إلى البصرة فاجتمع هو وابن مطيع فى إمارة الحارث بن أبى ربيعة قبل وثوب المثنى بن مخربة العبدى [٥] فعميت المواقف على ابن الزبير . وأرسل المختار ثلاثة آلاف بقيادة شرحبيل الهمذانى كانوا من

---

(١) الأنساب ج ٦ ص ٤٩ . الطبرى ج ٦ ص ٣٣ . الكامل ج ٤ ص ٢٢٦ . البداية ج ٨ ص ٢٨٩ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٣ . الكامل ج ٤ ص ٢٢٧ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٨٩ .

(٣) اليعقوبى – تاريخ ج ٢ ص ٢٥٨ . الطبرى ج ٦ ص ٧ . المبرد ج ٣ ص ٢٦٥ .

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٧ .

(٥) الكامل ج ٤ ص ٤٦ . البداية ج ٨ ص ٢٩٧ .

الموالي ليس فيهم من العرب إلّا سبعمائة بحجة مساعدة ابن الزبير ضد جيش عبد الملك الذى توجه للمدينة ، وأوصاهم بأخذ المدينة ولكن ابن الزبير احتاط للأمر وأخذ له عدته فقضى عليهم (١) . عندئذ فقط وضحت نية المختار فى ابن الزبير ، وكتب لابن الزبير يوقع بينه وبين ابن الحنفية : « من المختار بن أبى عبيد الثقفى خليفة الوصى محمد بن على أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أسماء » . وملأ الكتاب بسبه وسب أبيه (٢) . ليقنع ابن الزبير أنه كان رسول محمد إلى الكوفة (٣) ، وكتب فى الوقت نفسه لابن الحنفية يشكو له ابن الزبير ويعلمه أنه متابع له ومشايع وأنه بعث الجيش فى طاعته ففعل بهم ابن الزبير ما فعل ويستأذنه فى بعث الجيوش إلى المدينة وأن يبعث ابن الحنفية رجلًا من قبله فيفهم الناس أنى فى طاعته (٤) .

وهنا اتضحت نوايا المختار أمام ابن الحنفية فأجابه بعدم قبوله وقال :

« واعلم أنما لو أردت لوجدت الناس إلىّ سراعاً والأعوان كثيراً ولكنى أعتزلهم وأصبر حتى يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » . كما وأدرك استغلال المختار لاسمه فأوصى صالح بن مسعود بقوله : « قل للمختار فليتق الله وليكفن عن الدماء » (٥) ، إلا أن المختار وسبئيته فسروا القول بما يناسبهم فأظهر للناس : « إنى قد أمرت بأمر يجمع البر واليسر ويطرح الكفر والغدر » (٦) . وادعت السبئية وافتعلت كتاباً من ابن الحنفية يستنصر فيه المختار على ابن الزبير فى مكة ، قالوا إنه كسر الحجرة (سجن عارم) وأنقذ آل بيت رسول الله ، وأن أبا عبد الله البجلى

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٧٨٣ . الكامل ج ٤ ص ٢٤٧ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٢) المبرد – الكامل ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٣) الأنساب ج ٥ ص ٢١٨ .

(٤) الكامل ج ٤ ص ٢٤٩ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٨ . ابن خلدون ج ٣ ص ٢٧ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ٧٤ . البداية ج ٨ ص ٢٩٨ .

(٦) الطبرى ج ٦ ص ٧٥ .

قائد الخشبية قال لمحمد بن على : « دعنى وابن الزبير » ، ولكن محمد أبى أن يدع عبد الله يقتل ابن الزبير ، وقال : « لا أستحل من قطع رحمه ما استحل منى » [١] . وهى رواية ظاهرة الوضع ، والواقع أن الدعاية التى أثارتها سبئية المختار أوجدت سوء التفاهم بين الرجلين اضطر فيها ابن الزبير أن يتبع بعض الشدة تجاه ابن الحنفية فخرج ابن الحنفية وبرضى من ابن الزبير إلى الطائف [٢] .

وأرسل المختار يزيد بن أنس لحرب ابن زياد الذى أرسله عبد الملك لحرب الكوفة وكان اللقاء لصالح أصحاب المختار ولكن يزيد توفى فصلى عليه خليفته ورقاء ابن عامر ودفنه فأسقط بأيدى أصحابه وجعلوا كعادة الكوفيين يتسللون راجعين إلى الكوفة [٣] .

وفى أثناء ذلك أعلن أبو عمرة عن رأيه واشتد فى الهدم والتخريب والتدمير بحجة الانتقام للحسين ، وقرب المختار الموالى وأقصى العرب فأصبح الخوف ماثلاً أمام كل عربى أو مولى . واجتمع الأشراف فى منزل شبث بن ربعى الجاهلى الإسلامى الذى ذكرنا مواقفه ، وتشاوروا في الأمر واتفقوا على قتاله وحربه وإخراجه من بين أظهرهم وقالوا : « إنه كذاب زعم أن ابن الحنفية قد أمره بالأخذ بثأر الحسين وهو لم يأمره بشىء وإنما هو متقول عليه » [٤] . وكعادة السبئية أنذر شبث المختار بذلك بأن توجه إليه ببعض الأشراف بحجة معاتبته فعاتبوه فقال : « لا يبعد الله غيركم أكرمتكم فشمختم بأنوفكم ووليتكم فكسرتم الخراج وهؤلاء العجم أطوع منكم وأمتّ وأسرع إلى ما أريد » [٥] . فرجعوا يتهمونه بالسبئية وقالوا : « وأظهر هو وسبئيته البراءة من أسلافنا الصالحين » [٦] . واجتمعت

---

(١) المبرد ج ٣ ص ٢٦٦ . اليعقوبى ج ٢ ص ٧ . الأنساب ج ٣ ص ١٩١ . البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢١ « ويعلق ابن كثير على ذلك فيقول وفى صحته نظر » البداية ج ٨ ص ٢٩٩ .
(٢) الأنساب ج ٣ ص ١٩٨ .
(٣) الكامل ج ٤ ص ٢٢٩ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٠ .
(٤) الكامل ج ٤ ص ٢٣١ . الطبرى ج ٦ ص ٤٣ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٠ .
(٥) الأخبار الطوال ص ٣٠٠ .
(٦) الطبرى ج ٦ ص ٤٤ .

القبائل كندة والأسد وبجيلة والنخع وقيس وتيم الرباب وتميم على محاربته وولّوا أمرهم رفاعة بن سوار ، فأرسل المختار إلى خاصته من همذان واجتمع إليه أبناء العجم واعتزلت ربيعة [١] فى الوقت الذى كان جيشه الذي يرتكز عليه بقيادة إبراهيم بن الأشتر قد توجه لحرب ابن زياد [٢] فأخذ يسايرهم ليكسب الوقت ويخبرهم أنه يبعث الرّسل لابن الحنفية وعللهم بأمثال هذه المراجعات وكف أصحابه عن قتالهم ينتظر وصول ابن الأشتر وقد بعث إليه بالرجوع . ولما رجع كانت وقعة جبانة السبيع سنة ٦٦ هـ انتصر فيها المختار وأخمد ثورة العرب من غير الشيعة وقتل كثيرا منهم بحجة الاشتراك بدم الحسين [٣] . وتمكن أبو عمرة من الإيقاع بشمر ذى الجوشن قاتل الحسين وألقيت جثته للكلاب [٤] وأما عمر بن سعد بن أبى وقاص فقد أخذ له عبد الله بن جعدة بن هبيرة وكان أكرم الناس بعلي أماناً من المختار ففعل ، وكتب له المختار أماناً وشرط فيه أن لا يحدث ، فخدعه بذلك وأمن فذهب إليه أبو عمرة وضربه بسيفه فقتله ، وأخذ رأسه إلى المختار وكان ابنه حفص جالسا عنده فقال له المختار : أتعرف هذا ؟ قال : نعم . ولا خير فى العيش بعده . فأمر به فقتل [٥] وأرسل إلى محمد بن الأشعث بن قيس حوشباً سادن الكرسى فى مائة وكان فى قرية إلى جنب القادسية فهرب محمد إلى مصعب ، فهدم بيته [٦] . فتمكن من تتبع قتلة الحسين من استمالة الشيعة فى الكوفة وضمن سكوتهم عن المخاريق التى ألصقتها به السبئية ، فقتل وخرب

---

(١) الأخبار الطوال ص ٣٠٠ . البداية ج ٨ ص ٢٩١ .

(٢) الأنساب ج ٥ ص ٢٤٦ . الأخبار الطوال ص ٢٨٢ .

(٣) الكامل ج ٤ ص ٢٣١ . الطبرى ج ٦ ص ٤٤ . ابن خلدون ج ٣ ص ٢٥ .

(٤) الأخبار الطوال ص ٢٩٦ . انظر قرة العين بثأر الحسين . الكامل ج ٤ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ – الاستيعاب ق ٢ ص ٤٦٨ . الطبرى ج ٦ ص ٥٣ البداية ج ٨ ص ٢٩١ – ٢٩٣ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ٦١ . البداية ج ٨ ص ٢٩٤ .

(٦) الطبرى ج ٦ ص ٦٦ .

دون هوادة [١] فوجد أهل الكتاب فرصتهم وانضمت العناصر النصرانية الذين سكنوا الحيرة إلى أبى عمرة مع غيرهم من الحاقدين فقادهم فى أبشع صورة تتبع فيها المخلص والمسىء باسم الثأر للحسين ، جمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول وتتبع الدور فهدمها فى لحظة فمن خرج إليه من أهلها قتله ، حتى هدم دوراً كثيرة وقُتل أناسٌ كثيرون ، وجعل يطلب ويستقصى فمن ظفر به قتله وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه حتى بلغ من قتل وعذب عشرين ألفا [٢] . وأثناء هذه الحملة الرهيبة تمكن أبو عمرة والسبئية من تركيز أفكار الكيسانية بواسطة المدارس التى اتخذوها فى البيوت كبيت هند بنت المتكلفة الناعطية وليلى بنت ثمامة المزينية [٣] وخاصة بين من أسلم من الموالى مستغلين انشغال العرب وذهولهم ، وكانوا بين مبتهج بتتّبع قتلة الحسين وخائف وجل أن يتهم بذلك وما كان أسهل من توجيه التهمة إلى كل من تسوّل له نفسه أن يرفع صوته بنقد أو إصلاح أنه اشترك فى دم الحسين فيهدم بيته ويُقتل أو يُحرق وتُقطع يداه ورجلاه ويُطعن بالرماح [٤] ، فخلا الجو للسبئية تبث أفكارا جديدة ولا عجب فى هذا الجو أن سمعنا بقصة كرسى المختار الذى يدل بدون أدْنى شك على مقدار أثر أهل الكتاب فى تفكير المختار وسبئيته . فقد جاء طفيل بن جعدة بن هبيرة إلى المختار فى هذا الجو وأعلمه بوجود كرسى عنده – كان قد أخذه من زيات بدرهمين وغسله – فيه أثر من على ، فأخذه المختار باثنى عشر ألفاً وغشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة [٥] ثم أخرجه للناس وقال : « إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٨ . الاستيعاب ص ١٤٦٥ . الكامل ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الأخبار الطوال ص ٩٣ . أخذ الثأر ص ٩٣ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٠٣ .

(٤) الأنساب ج ٥ ص ٢٣٦ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ٥٧٩ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠٠ . تاريخ ابن الوردى ج ١ ص ١١٦ – المبرد ج ٣ ص ٢٦٩ . نهاية الأرب ج ١٤ ص ٣٨ – ٤٤ . انظر رواية أخرى لأبى مخنف . الطبرى ج ٦ ص ٨٤ .

كائن فى هذه الأمة مثله ، وإنه كان فى بنى اسرائيل التابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وهارون ، وإن هذا فينا مثل التابوت ، اكشفوا عنه » [١] . وقال أيضا « إن هذا عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل [٢] فضعوه فى برحاء الحرب وقاتلوا عليه فإن محله فيكم محل السكينة فى بنى إسرائيل » [٣] . وكانت السبئية قد أعدت نفسها لذلك فقاموا ورفعوا أيديهم وكبروا ثلاثا [٤] . فصدق الموالى حديثو العهد بالإسلام ذلك ، وكانوا على استعداد باسم النبوة والإسلام للتصديق بكل ما يمت إليهما بصلة ، وقد أدخل أهل الكتاب فى أنفسهم استمرار المعجزات مع حملة الإسلام كما هو عند اليهود : إن النبوة تستمر فى بنى إسرائيل بعد موسى . وهذا السبب نفسه الذى جعل جماعات من حنيفة وتميم وغيرهم تصديق المتنبئين أيام الردة ، ثم كان هناك المستهترون بأمر النبوة وبأمر الإسلام والذين لا هم لهم إلا مصلحتهم فشجعوا ذلك وبثوا هذه الأفكار ، فطفيل نفسه يقول :

« ثم ما لبث أن قيل ، هذا عبيد الله بن زياد قد نزل بأهل الشام باخمرا ، فخرج بالكرسى على عجل وقد غشى يمسكه عن يمينه سبعة ، وعلى يساره سبعة ، فقتل أهل الشام مقتلة لم يقتلوا مثلها ، فزادهم بذلك فتنة ، فارتفعوا حتى تعاطوا الكفر . فقلت (أى طفيل) إنا لله وندمت على ما صنعت » [٥] .

وإبراهيم بن الأشتر الرجل الطموح يخرج لملاقاة ابن زياد فيرى جيشه وهم عاكفون على الكرسى فلا يزيد على القول : « اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء ، سنة بنى إسرائيل ، والذى نفسى بيده إذ عكفوا على عجلهم » [٦] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٨٣ . الكامل ج ٤ ص ٢٥٩ .
(٢) الزينة ق ٣ ص ٢٩٥ . ابن الوردى - تاريخ - ج ١ ص ١٧٦ .
(٣) المبرد ج ٣ ص ٢٦٩ . وعن قصة التابوت فى بنى إسرائيل انظر سفر يشوع الإصحاح ٣ - ٦ صفحة ٣٤٠ - ٣٤٥ . الطبرى ج ٥ ص ٥٧٩ (فى براح الحرب) . الحرب) .
(٤) الكامل ج ٤ ص ٢٥٩ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠٠ .
(٥) الطبرى ج ٦ ص ٨٣ .
(٦) نفسه ص ٨٢ .

كان الكرسى يحمل على بغل فى القتال فى الصف الأول [١] وشاع أمره حتى وصل إلى ابن الزبير فقال : أين بعض جنادبة الأزد عنه [٢] ؟ وأصبح كأسجاع المختار مدعاة لسخرية الساخرين . فقال فيه أعشى همدان ، وهو من القبيلة المؤيدة للمختار والمشهور منها كعب الأحبار وابن سبأ :

شهدت عليكم أنكم سبئية ... وأنى بكم ياشرطة الشرك عارف
وأقسم ما كرسيّكم بسكينة ... وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن ... سعت شبام حواليه ونهد وخارف
وإنى امرؤ أحببت آل محمد ... وتابعت وحياً ضمنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تبايعت ... عليه قريش شملها والغطارف [٣]

واشتد كيسان والسبئية ومن تظاهر بالإسلام من أهل الكتاب فى تأييد مخاريق المختار حتى أصبح مصدقا لما يقال عنه . فأخذ يدعى أن جبريل يأتيه فازداد خداعاً لنفسه كلما أوحوا له بصدق نبوءة أو بصحة خبر ، فقد أسر سراقة ابن مرداس البارق يوم جبانة السبيع فحبسه ليلة فقيل للمختار : إن سراقة يحلف بالله لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض [٤] ، فما كان منه إلا أن أمره بالصعود إلى المنبر فيعلم الناس ما رأى ، ففعل ، ثم هرب إلى مصعب بن الزبير وهو فى البصرة [٥] فقال :

ألا أبلغ أبا إسحق أنى ... رأيت البلق وهماً مصمتات
كفرت بوحيكم وجعلت نذرا ... علىّ قتالكم حتى الممات
أُرى عينىّ مالم تبصراه ... كلانا عالم بالترهات [٦]

---

(١) تاريخ ابن الوردى ج ١ ص ١٧٦ . الزينة ق ٣ ص ٢٩٥ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٨٤ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ٨٣ - ٨٤ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠١ .
(٤) الكامل ج ٤ ص ٢٣٨ . الطبرى ج ٦ ص ٥٥ .
(٥) الأنساب ج ٦ ص ٥٩ .
(٦) الأنساب ج ٦ ص ٦٠ . عيون الأخبار مجلدا ج ٢ ص ٢٠٣ (كتاب الحرب) ..

وهذا يظهر أن المختار توهم بصدق ذلك وخاله حقيقة ، وإن ذكر أبو مخنف أن المختار خلا بالبارق فقال له : إنى قد علمت أنك لم تر الملائكة وإنما أردت ما قد عرفت ألا أقتلك فاذهب حيث أحببت ولا تفسد عليّ أصحابى [١] . ولو كان ذلك صحيحا ما تركه حيا فهو يعلم أنه شاعر ودور الشعر فى تلك الأيام معروف وما كان أسرع ما يطير بيت من الشعر وما أسرع ما يصل إلى أقصى دار الإسلام بسرعة عجيبة ، ولقد أثبت الجمحي أن البارق هذا قال للمختار عندما قدمه للقتل : والله ياأمين آل محمد إنك تعلم أن هذا ليس باليوم الذى تقتلنى فيه . قال : ففى أى يوم أقتلك ؟ قال : يوم تضع كرسيك على باب مدينة دمشق فتدعونى يومئذ فتضرب عنقى . فقال المختار لأصحابه : ياشرطة الله من يرفع حديثي . ثم خلّى عنه فقال ما قال[٢] .

وبالأساليب نفسها تسللت السبئية الكيسانية إلى البصرة فوجدت جماعة تؤيد المختار فى ولاية الحارث بن عبد الله بن ربيعة الملقب بالقباع ، على يد المثنى بن مخربة العبدى الذى اجتمع عليه بنو عبد القيس وابتنى بها مسجدا اتخذه وسيلة اللقاء والتكتل وبث الأفكار وهو الأسلوب ذاته الذى انتهجه مسلمة أهل الكتاب فى مدينة الرسول ﷺ عندما ابتنوا مسجد الضرار انتظاراً لأبى عامر الراهب ! .. ولما حاربهم عبد الله بن ربيعة قام الأحنف بالصلح بينهما [٣] . وبقيت دعاياتهم تعمل عملها ولكن بغير نجاح كبير حتى قدم مصعب البصرة سنة ٦٧ هـ [٤] وقضى عليها .

ولما استتب الأمر للمختار بالكوفة جمع وأبو عمرة جيشاً فيه كثير من العجم الحمراء وعلى رأسه إبراهيم بن الأشتر لتتبع قتلة الحسين وقتل ابن زياد ،

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٥٥ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٣٧٦ .
(٣) الكامل ج ٤ ص ٢٤٥ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٩٦ . الطبرى ج ٦ ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٤) الطبرى ج ٦ ص ٩٣ . المقفى .

وقد بلغ هذا الجيش زهاء عشرين ألفاً جلهم من الموالى حتى قال بعض الناس لإبراهيم : « لقد اشتد غمى منذ دخلت عسكرك وذلك أنى لم أسمع فيه كلاماً عربيا حتى انتهيت إليك » (١) .

وخرج المختار يشيع إبراهيم حتى إذا بلغ دير عبد الرحمن بن أم الحكم إذا أصحاب المختار قد استقبلوه قد حملوا الكرسىَ على بغل أشهب فوقفوا على القنطرة وصاحب أمر الكرسى حوشب البرسمى يدعو وأصحابه يقولون آمين آمين ... فقال المختار . أما ورب المرسلات عرفا لتقتلن بعد صف صفا ، وبعد ألف قاسطين ألفا ... وأما إبراهيم لما رأى أمر الكرسى وجهل جيشه وهم عاكفون عليه يرفعون أيديهم إلى السماء يستنصرون لم يزد على أن قال : « اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا – سنة بنى إسرائيل والذى نفسى بيده إذ عكفوا على عجلهم » (٢) . أعماه حب الإمرة وأسكته . وقد أدرك بعض أهل الشام ما فى جيش المختار من ترهات حتى فى أيام يزيد بن أنس فقد قال ربيعة بن المخارق –:

« يا أهل الشام فإنكم تقاتلون العبيد الأباق وقوماً قد تركوا الإسلام وخرجوا منه ليست لهم تقية ولا ينطقون بالعربية » (٣) .

ولما التقى الجيشان فى معركة الخازر الدامية سنة ٦٧ هـ . قرب الموصل انهزم عمير بن الحباب السلمى الذى راسل إبراهيم من قبل منادياً يا لثارات المرج فتشتت جيش الشام وقتل عبيد الله بـن زياد وحمل رأسه إلى المختار (٤) . فكانت فرصة لتركيز مبادئ السيئة فى النفوس فقد قال لما جاءته البشرى : « ياشرطة الله ألم أبشركم بهذا من قبل أن يكون » ؟ قالوا بلى والله لقد قلت ذلك . فقال رجل من الهمذانيين للشعبى : أو لم تؤمن بأن المختار يعلم الغيب ؟ أو لم يقل لنا أنهم قد

---

(١) الأخبار الطوال ص ٨٨ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٨١ . الكامل ج ٤ ص ٢٥٨ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ٤٢ .
(٤) الكامل ج ٤ ص ٢٦١ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠٤ وذكر المسعودى أن المعركة كانت سنة ٦٦ هـ مروج الذهب ج ٥ ص ٢٢١ المبرد ج ٣ ص ٢٦٩ .

هزموا ؟ فأجابه الشعبى : إنما زعم لنا أنهم هزموا بنصيبين من أرض الجزيرة وإنما هو بخازر من أرض الموصل . فقال الهمذانى : والله لا تؤمن ياشعبى حتى ترى العذاب الأليم (١) . وكأن همذان تحاول إضفاء صفة النبوة على المختار ، كما تحاول أن تشبه غير المصدقين بنبوته بالمنافقين الذين ظهر دورهم أيام الرسول عليه الصلاة والسلام فى تبوك .....

تعلق الشيعة بالمختار بعد مقتل ابن زياد قاتل الحسين فخشى ابن الزبير على مكانه فى العراق فبعث أخاه مصعباً بجيش كثيف واستمد المهلب عامله على فارس . فأخرج المختار أحمر بن شميط على جيش كبير فيه عدد من الموالى والعجم وعليهم أبو عمرة ، وكان الناس قد لاقوا العنت من أبى عمرة وكيسانيته فأشار عبد الله بن وهب الجشمى بالمدار على ابن شميط أن ينزل الموالى عن الخيول قائلا : « فليمشوا معك فإنى أتخوف أن يطيروا عليها ويسلموك » . وكان هذا غشاً للموالى ، أحبّ إن كانت عليهم الهزيمة ألا ينجو أحد فلا يتهمه ابن شميط ، ففعل وأنزل الموالى معه . فكانت الهزيمة ومقتله ومقتل أبى عمرة فى وقعة المذار سنة ٦٧ هـ (٢) .

وكان من نتيجة الهزيمة أن ضعفت ثقة الموالى الذين كان يسيرهم المختار وسبئيته فيؤمنون بمخاريقه وأكاذيبه بحسن نية . فقالوا : هذه المرة كذب (٣) . وخرج المختار إلى حروراء ليحول بينه وبين الكوفة وكان قد حصن قصره والمسجد ولا يزال هناك من يؤمن بأفكاره ممن تخرج من مدرسة هند بنت المتكلفة وغيرها ، فقد خرج عبد الله بن نوف من بيت هند إلى حروراء مع المختار وهو يقول : يوم الأربعاء ترفعت السماء ونزل القضاء بهزيمة الأعداء فاخرجوا باسم الله إلى حروراء ، وعند رجوعهم منهزمين لقيهم عبد الله بن شريك النهدى وقد سمع

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٩٢ . البداية ج ٨ ص ٣٠٤ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٩٦ . الكامل ج ٤ ص ٢٦٩ . والمذار قصبة ميسان بين واسط والبصرة [ياقوت ج ٥ ص ٨٨] وهي غير المدار : موضع بالحجاز [نفسه ج ٥ ص ٧٤] .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٩٦ .

مقالة ابن نوف فقال له : « ألم تزعم لنا ياابن نوف أنا سنهزمهم ؟ قال : أو ما قرأت فى كتاب الله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [(١)] .

وهذا النص يثبت أن فكرة البداء بدأت فى عهد المختار ومن مدرسة هند بنت المتكلفة وليلى بنت ثمامة [(٢)] بالكوفة فإن لم يكن المختار صاحب الفكرة فقد ألصقت به وسكت عنها وتركزت فى نفوس أتباعه بفعل أهل الكتاب الذين تسلل بعضهم إلى صفوفه بل كان من تظاهر بإسلامه منهم جلة أعوانه من السبئية ...

وتفرق جيش المختار وقتل من أصحابه المخلصين لآرائه سلمان بن حمير من همذان [(٣)] كما قتل من جيش المصعب محمد بن الأشعث وعبيد الله بن على بن أبى طالب – فقال المصعب للمهلب – قتله من يزعم أنه لأبيه شيعة أما أنهم قتلوه وهم يعرفون [(٤)] ...

رجع المختار مع فلوله إلى القصر وحاصره المصعب أربعين ليلة فكشف المختار عن حقيقة حركته حينما أيقن بالهلاك والفشل [(٥)] . فروى أنه قال للسائب ابن مالك الأشعرى وكان من خاصته : ماذا ترى ؟ قال : الرأى لك . قال : أرى أم الله يرى .. قال : الله يرى . قال : ويحك أأحمق أنت ؟ إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز ورأيت نجدة انتزى على اليمامة ومروان على الشام فلم أكن دون أحد من رجال العرب فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم ، إلا أننى قد طلبت بثأر أهل بيت النبى ﷺ إذ نامت عنه العرب فقتلت من شرك فى دمائهم وبالغت فى ذلك إلى يومى هذا .. فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية [(٦)] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٤ . سورة الرعد الآية ٣٩ .
(٢) نفسه ص ١٠٣ .
(٣) نفسه ص ٩٢ .
(٤) الكامل ج ٤ ص ٢٧٢ .
(٥) د / محمد الطيب النجار – الموالى ص ١٠٩ .
(٦) الطبرى ج ٦ ص ١٠٧ . الكامل ج ٤ ص ٢٧٣٢ . وفى رواية : ويحك يأحمق وثب ابن الزبير فى الحجاز ووثب نجدة فى اليمامة ومروان فى الشام وكنت كآحدهم . الأخبار الطوال . ص ٢٩٨ . ابن خلدون ج ٣ ص ٣ .

وتمكن مصعب من القضاء عليه وعلى أتباعه ، وكان من رأى المصعب أن يقتل العجم ويترك العرب فكلمه من معه : أى دين هذا ؟ وكيف ترجو النصر وأنت تقتل العجم وتترك العرب ودينهم واحد ؟ فقدمهم فضرب أعناقهم [١] . وهذه من أخطاء مصعب الكثيرة وكان الأوْلى به العفو عن الجميع وهذا يؤكد أن الصراع فى حقيقته كان فكرياً عقائديًّا وإن تداخلت فيه عوامل قبلية وطبقية وشعوبية . وذهبت فى هذا الصراع ضحايا كثيرة منها المذنب المسيء وأكثرها المخلص البرىء بفعل تسلل من أسلم من أهل الكتاب بين الفريقين يثيرون هذا تارة وذاك تارة أخرى ، فكان دور أهل الكتاب خفيا أحيانا وعلنياً حيناً وتمكنوا من بذر بذور الفرقة بين ابن الزبير وابن الحنفية ، والبصرة والكوفة ، والمختار وابن الزبير ، كما أوحوا أوهاماً وأفكاراً خدعوا المختار بها وكرروها عليه حتى خدع نفسه فصدقها فى ذاته ، لأنهم أشاعوها وتظاهروا بتبنّيها وأقنعوا الكثير بها وتنادوا بها كما تنادوا لعلى من قبل . ولكن عليّ حرقهم ووضع لهم حداً . والمختار أيدهم وسار فى طريقهم يبتغى ارتقاء سلم المجد على أشلاء الضحايا . فازدادت حدة التناقضات على الساحة الإسلامية فى العراق وكان لابد لها من يد قوية باطشة تحد من أثر هذه التناقضات – ووقف تسللها – فكانت يد الحجاج الباطشة القاتلة الذى قبض العراق بيد من حديد وسيّره من جديد ، فسكتت أصابع أهل الكتاب عن العبث خوفاً لتعود من جديد وتظهر فى فتنة أخرى ملائمة لها . هى فتنه ابن الأشعث .

فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى :

اتصف عبد الرحمن بالفخر والتيه بنفسه ، ورأى نفسه شخصية رجل من سلالة ملوك كندة جعلته الظروف مرؤوسا [٢] للحجاج ، افتخر يوم الجماجم وقال : « ألا إن بنى مروان يعيرون بالزرقاء والله ما لهم نسب أصح منه ألا إن بنى أبى العاص أعلاج من أهل صفوريا ، فإن يكن هذا الأمر فى قريش فعني فقئت

---

(١) الاستيعاب ص ١٤٦٥ . الطبرى ج ٦ ص ١١٦ .
(٢) د / محمد الطيب النجار – الموالى ص ١١١ .

بيضة قريش ، وإن يك فى العرب فأنا ابن الأشعث بن قيس » ومد بها صوته يسمع الناس [١] . ولما حذر عبيد بن أبى سبيع التميمى الخارجى رتبيل منه قال : « قد جاءك أغدر العرب وأشدهم أبّهة وكبراً فتحول من مكانك فإنى لا آمن عليك أن يأتيك وأنت غار » [٢] .

رجل فيه هذه الصفات تحركه الأطماع تسهل استثارته ، وكما حدث للمختار الذى حرك كيسان والسبئية أطماعه ، فكذلك صنع أهل الكتاب والفرس فحركوا أطماع ابن الأشعث الذى كان على صلة وثيقة بهم لكونه من كندة [٣] ولوجوده فى الكوفة . فاشترك الموالى فى حركته واستغلوا التناقضات وحاربوا فى صفوفه [٤] وإن كانوا تابعين .

كان أهل الكتاب الذين تسللوا بين مختلف الأحزاب بتظاهر بعضهم بالإسلام قد استغلوا فكرتين انضمتا لحركة ابن الأشعث وتبناها العرب والموالى – فكرة القدرية وفكرة المرجئة – فيذكر ابن سعد [٥] « أنه كان للقية بن أبى الجعد الغطفاني مولى له ستة بنين فكان اثنان منهم متشيعين واثنان مرجئين واثنان يريان رأى الخوارج » ....

واستطاع **مذهب الإرجاء** [٦] كغيره من المذاهب التغلغل فى أوساط

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤٩ .
(٢) الأنساب ج ٧ ص ٢ ص ١٨ .
(٣) التنبيه والإشراف ص ٢٦١ .
(٤) النجار – الموالى ص ١١١ .
(٥) الطبقات ج ٦ ص ٢٩٢ .
(٦) المرجئة فى عهد الأمويين ليست فئة منفصلة أو مميزة إذ لم تزد عن معناها اللغوى من أرجأ بمعنى أمهل وأخر . ويشتق بعضهم اسم المرجئة من أرجأ بمعنى بعث الرجاء أو أعطاه بمعنى أنهم يرجون لكل مسلم مغفرة من الله (الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٢) أو لأنهم يقولون بأن الإيمان تصديق فحسب أو تصديق بالقلب واللسان ويؤخرون العمل على النية والعقد . فإن فى اعتقادهم وإن لم يصلوا ولم يصوموا نجاهم الله بإيمانهم أو لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى . =

الكوفة على يد قيس بن الماصر من سبى الديلم مولى على بن أبى طالب الذى كان أول من اعتنق مذهب الإرجاء من الموالى [١] .

كما اعتنقه محمد بن الأشعث الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن ، وعمرو بن قيس الذى كان من موالى ثقيف فأيدت حركة المرجئة عبد الرحمن فى حركته واشترك زعماؤها كعامر الشعبى ومحمد بن السائب الكلبى [٢] وعبد الرحمن بن أبى ليلى فى الكوفة والبصرة .

وأما **القدرية** : وهم القائلون بالقدر أى قدرة الإنسان على اكتساب أعماله ، فقد بدأ ظهورهم فى دمشق ، وكان معبد الجهنى أول من نادى ببدعة القدر – ومعه عدد من الموالى منهم سنسويه –[٣] . أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق وعمرو المقصوص الذى عاصر معبداً وكان معلّماً لمعاوية

= (لسان العرب – القاموس المحيط – تاج العروس مادة رجا) . وقد عرف الذين امتنعوا من الاشتراك فى الفتنة زمن على بن أبى طالب بالمرجئة الأولى . فمحارب بن دثار قاضي الكوفة فى ولاية خالد القسري وخلافة هشام كان من المرجئة الأولى الذين يرجون علياً وعثمان ، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر (الطبقات ج ٦ ق ١ ص ٢١٤) . وكذلك بريدة الأسلمى الذى سئل عن رأيه فى على وعثمان وطلحة والزبير لاستخراج رأيه فقال : قوم سبقت لهم من الله سوابق فإن يشأ يغفر لهم بما سبق لهم فعل وإن يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل ، حسابهم على الله . ولكن المرجئة اتجهت بعد قليل من نشأتهم إلى البحث فى بعض الأمور اللاهوتية التى تتفق واتجاهاتهم السياسية كالإيمان والكفر وجرّهم ذلك إلى البحث فى حرية الإرادة فكانت بيئتهم حقلاً لبذور كثيرة نبتت متأثرة ببعض الآراء النصرانية والإغريقية الممتزجة بالفلسفة اليونانية عن طريق الاختلاط بأولئك الذين ظلّوا زمناً طويلاً تحت المؤثرات الهيلينية . ثم ظهرت أصناف من المرجئة انبتّت فيما بعد عنهم فجمع البعض إلى الإرجاء القول بالقدر كما جمع البعض الآخر إلى الإرجاء القول بالجبر بينما بقى آخر على إرجائه الخالص .

(١) تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٤٨٩ . ابن حجر .

(٢) نفسه ج ٩ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ١٨٠ .

(٣) ابن سعد . الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ٢٧ – الملل والنحل ج ١ ص ٣٣ . الجمهرة ص ٤٤٥ .

ابن يزيد ، وأبو محمد عطاء بن يسار القاضي البَصرى [(١)] وغيلان الدمشقى نسبة إلى بلده والقبطى [(٢)] نسبة إلى أصله الذى أخذ القول بالقدر عن معبد وقال بخلق القرآن ثم جمع بين القدر والإرجاء [(٣)] وقد أسهم فى تكوين هذه المدرسة يوحنا الدمشقى النصرانى الذى كان نديماً ليزيد بن معاوية ثم تسلّم الإدارة المالية حتى خلافة هشام وأخيرا اتجه إلى حياة الزهد والتعبّد [(٤)] . وكان أنشطهم معبد الجهنى وغيلان الدمشقى .

فأما معبد بن عبد الله بن عليم فقد قدم المدينة وأفسد فيها أناساً ثم اتخذ البصرة مجالًا لنشاطه وحاول مع عطاء بن يسار استمالة الحسن البصرى [(٥)] ومالأ الحجاج فلم تتضح له فكرته فقد قال له يوماً : « يامعبد ، أتتكلم فى القدر ؟ قال : نعم . زعم فساق أهل العراق أن الله قضى وقدر أن يقتل عثمان ، فقلت : كذبتم » . فقال : صدقت . ولما بلغ هشاماً قوله قال : لقد قدر الله قتل عثمان لما كتب على قاتليه من الشقاء وكذب معبد والحجاج [(٦)] . ولاشتداد حركة القدرية فى الكوفة والبصرة ودمشق اتخذ الخلفاء الأمويون منها موقفاً شديداً ، فقتل عبد الملك عمرو المقصوص سنة ٨٠ هـ كما أمر الحجاج بقتل معبد فى نفس السنة [(٧)] أى قبل حركة ابن الأشعث فلم يشترك فى الفتنة كما زعمت بعض الروايات [(٨)] . ولعل شدة أثره فى تحريك هذه الفتنة جعلت الأمر يبدو وكأنه اشترك فيها بالفعل أو أنه كان مع حركة القدرية يهيىء للثورة قبل حركة ابن الأشعث وكان يبحث عمن يستغلّه فى حركته ، فوجدت فكرة القدرية فرصتها فى ابن الأشعث من بعده .

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ١٩١ .
(٢) المعارف ص ٤٨٤ .
(٣) فروخ – تاريخ الفكر العربىّ ص ٢١٣ .
(٤) مخطوطة سيرة يوحنا الدمشقى – حتى ج ١ ص ٣٥١ .
(٥) الذهبى – ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٨٣ .
(٦) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٥٦ .
(٧) الكامل ج ٤ ص ٤٥٦ . ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٨٣ .
(٨) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٤٥ . ابن سعد ج ٥ ص ٢٨٣ .

وأما **غيلان** . فكان والده مولى لعثمان بن عفان ، وقد توسع فى حركة القدر حتى اعتبره أكبر كتاب الفرق المؤسس الحقيقى لهذا المذهب ونشط فى الحركة بعد الضربة التى وجهت لابن الأشعث . واستتابه عمر بن عبد العزيز لمّا ولي الخلافة [١] . ولكنه عاد إلى ما كان يقول به بعد وفاة عمر وجاب البلاد يتكلم بمذهبه وينشره حتى أصبح خطراً ، فصلبه هشام مع صالح أبي عبد السلام على باب دمشق [٢] .

فكانت أسباب ثورة ابن الأشعث جملة عوامل امتزجت وتمخضت عنها الفتنة مستغلة طموح ابن الأشعث الشخصى ، فاشترك فيها كل أعداء الإسلام من الموالى الذين حركهم من تظاهر بالإسلام والنجرانيين [٣] ، والشيعة من المرجئة والقدرية ، حتى أنهم أكرهوا الحسن بن أبى الحسن على الخروج وادعوا أنه قدرى [٤] .

وقد أكد كثير من المؤرخين على أن الحجاج كان يكره عبد الرحمن بن الأشعث ويبغضه وأنه يريد قتله ، وأنه يقول عنه : « هو أهوج أحمق حسود ، وأبوه هو الذى سلب عثمان نقابه وقاتله ودل عبيد الله ابن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله وجده الأشعث ارتد عن الإسلام » . وأن : عبد الرحمن كان يكره الحجاج ويقول للشعبى - : « أنا أزيله عن سلطانه » [٥] .

وذكروا أن الحجاج لما أراده للخروج على رأس جيش الطواويس إلى رتبيل جاء عمه إسماعيل بن الأشعث إلى الحجاج ونصحه ألا يبعثه قائلا : إنى أخاف

---

(١) ابن سعد ج ٥ ص ٢٨٤ .
(٢) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٥٨ .
المعارف ص ٤٨٤ . ابن المرتضى - طبقات المعتزلة ص ٢٥ .
(٣) البلاذرى - فتوح البلدان ص ٧٨ .
(٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١١٩ - ١٢٢ .
(٥) الطبرى ج ٦ ص ٣٢٧ . الكامل ج ٤ ص ٤٥٥ . ابن خلدون ج ٣ ص ٤٧ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥ ، ٣٩ .

أن تؤمره فلا يرى لك طاعة إذا جاوز الصّراة (جسر الفرات) ، فيقول الحجاج : « هو أهيب لى من أن يخالف أمرى » [(١)] .

وواضح أن هذه الروايات من جماعات متسللة من القدرية والمرجئة وأعوان أهل الكتاب لتوهم عبد الرحمن ببغض الحجاج له ولتثيره ، ولو أبغضه الحجاج لما أمّره على جيش اختاره من البصرة والكوفة من أهل الغنى والشجاعة أخذهم بالخيل الرائعة والسلاح الكامل حتى دعي هذا - الجيش - جيش الطواويس لحسنه [(٢)] وقوله لعمه : هو لى حبيب [(٣)] .

فتح عبد الرحمن كثيرا من بلاد رتبيل سنة ٨٠ هـ وكتب إليه الحجاج يستعجزه ويغلظ له ، فكانت فرصة للقوى المضادة مستغلة الإجماع على بغض الحجاج وكراهيته[(٤)] . فتنادى رؤساء أهل العراق لخلعه وأولهم عامر بن وائلة الكنانى الشاعر الخطيب ثم عبد المؤمن بن شبث بن ربعى التميمى [(٥)] . وصالح عبد الرحمن رتبيل على إن ظهر عبد الرحمن فلا خراج عليه أبدا مابقى ، وإن هزم فأراده ألجأه عنده ، وفى فارس اجتمع به الناس وخلعوا عبد الملك كما لحقه كثير من أهل العراق ورؤساؤهم وقراؤهم ونساكهم باصطخر فى فارس ، فسمى نفسه « ناصر المؤمنين » وذكر أنه القحطانى الذى ينتظره اليمن وأنه يعيد الملك فيها ، وكانوا قد أوحوا إليه أن القحطانى على ثلاثة أحرف فقال : « اسمى عبد وأما الرحمن فليس من اسمى » [(٦)] . وانضم إليه كثير من الفرس [(٧)] وأدرك المهلب أن وراء

---

(١) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥ . الطبرى ج ٦ ص ٣٢٧ . الكامل ج ٤ ص ٤٥٥ .

(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٧١ . الكامل ج ٤ ص ٤٥٦ . ابن خلدون ج ٣ ص ٤٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥ .

(٤) التنبيه والإشراف ص ٢٧١ . انظر نص الكتاب . الطبرى ج ٦ ص ٣٣٤ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ٣٣٦ .

(٦) التنبيه والإشراف ص ٢٧٢ . البدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٥ .

(٧) الأنساب ج ٧ ق ٢ ورقة ١٥ و ج ٧ ورقة ٢٢ .

حركة عبد الرحمن قوى تحركها وتستثيرها فكتب إليه وهو بسجستان يقول :

« أما بعد فإنك وضعت رجلك ياابن محمد فى غرز طويل الغيّ على أمة محمد ﷺ ، الله الله فانظر لنفسك لاتهلكها ودماء المسلمين فلا تسفكها . والجماعة فلا تفرقها والبيعة فلا تنكثها ، فإن قلت : أخاف الناس على نفسى فالله أحق أن تخافه عليها من الناس فلا تعرضها لله فى سفك دم ولا استحلال محرم والسلام عليك » [١] .

وتقدم ابن الأشعث وهزم الحجاج فى تستر ودخل البصرة فى آخر ذى الحجة سنة ٨١ هـ ، وأجابه أهل البصرة وبايعه جميع قرائها وكهولها وذلك لسبب : أن الخراج كان انكسر وأسلم أهل الذمة فلحقوا بالأمصار فكتب الحجاج إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها ، فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية [٢] (الخراج) . فجعلوا يبكون وينادون يا محمداه يامحمداه ولا يدرون أين يذهبون ، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون ، فلما قدم ابن الأشعث بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك ، حتى أصبح معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل [٣] ولكنه هزم فى الزاوية سنة ٨٢ هـ بعد معارك عنيفة [٤] وتجمعت معه الجيوش البصرية والكوفية وجملتهم مائة ألف ممن يأخذون العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم فى دير الجماجم [٥] كما نزل الحجاج أمامه فى دير قرة ، وأمده عبد الملك بابنه عبد الله بن عبد الملك وأخيه محمد بن مروان وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يجرى عليهم أعطياتهم

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٣٨ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٤٠ .

(٢) لم يكن التفريق بين الجزية والخراج قد اتضح آنذاك ، حتى جاء عمر بن عبد العزيز . انظر يحيى بن آدم ص ٢١ . فتوح البلدان ص ١٤٣ . الريس – الخراج والنظم المالية ص ٢٥١ .

(٣) الطبرى ج ٦ ص ٣٨١ . الكامل ج ٤ ص ٤٦٥ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٤٠ .

(٤) الطبرى ج ٦ ص ٣٨١ .

(٥) نفسه ص ٣٤٧ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٤٥ .

كما تجرى على أهل الشام وأن ينزل ابن محمد أي بلد من عراق شاء يكون عليه والياً ما دام حياً وكان عبد الملك والياً . ولكن أهل العراق كانوا أجمع على خلعه يوم الجماجم من خلعهم إياه بفارس [١] .

بلغت زحوف الجماجم أكثر من ثمانين وقعة هائلة فى آخر سنة ٨٢ هـ وأوائل سنة ٨٣ هـ . وفر فى آخرها الأبرد بن قرة الرياحي التيمى الذى كان على ميسرة عبد الرحمن ويظهر أنه كان قد أومن وصولح على أن ينهزم بالناس ، فلما فعل ذلك تقوضت صفوف أهل العراق فكانت الهزيمة . فسار عبد الرحمن على أثرها إلى البصرة فتبعه الحجاج والتقوا فى معركة مسكن سنة ٨٣ هـ وهزم عبد الرحمن وقتل أهل العراق قتلًا ذريعاً ، فمضى ابن الأشعث بمن تبعه إلى سجستان [٢] فتتبعه عمارة بن تميم اللخمي فى أهل الشام ، فدخل بعض أهل الشام فى مفازة كرمان فإذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من شعر ابن حلزة اليشكرى وهى طويلة [٣] ، وتظهر هذه الرسالة مقدار التناقضات فى جيش العراق :

أيا لهفا ويا حزنا جميعا ... ويا حر الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعا ... وأسلمنا الحلائل والبنينا
فما كنا أناسا أهل دين ... فنصبر فى البلاء إذا ابتلينا
فما كنا أناساً أهل دنيا ... فنمنعها ولو لم نرجُ دينا
تركنا دورنا لطغام علك ... وأنباط القرى والأشعرينا

ودخل عبد الرحمن بلاد رتبيل فأنزله وأكرمه وعظّمه وبقى إلى أن أوقع به عنده عبيد بن أبى سبيع التيمى الخارجى فلاقى حتفه على اختلاف الروايات فى ذلك سنة ٨٤ هـ أو ٨٥ هـ [٤] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤٩ .
(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٧٢ . الطبرى ج ٦ ص ٣٦٣ .
(٣) الكامل ج ٤ ص ٤٨٤ . الطبري ج ٦ ص ٣٦٤ .
(٤) انظر الطبرى ج ٦ ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .
الكامل ج ٤ ص ٤٨٥ . التنبيه والإشراف ص ٢٧٣ .

ظهر فى فتنة ابن الأشعث - كافة تناقضات المشرق - اشترك فيها العرب والشيعة والخوارج ، والفرس والنصارى ، وقد اعتبر الحجاج نصارى نجران الذين نزلوا النجرانية بالكوفة مسئولين عن هذه الفتنة [١] كما وجد فيها الموالى متنفسا فعاقبهم الحجاج بأن أمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العرب بها وأمر أن تنقش على يد كل إنسان منهم اسمه واسم قريته التى وجهه إليها [٢] ، وآشترك معه بقايا الزبيريين كعباد بن الحصين وابنه جهضم [٣] والقراء المخلصون كطلحة بن مصرف قارىء أهل الكوفة اشترك يوم الجماجم وتوفى سنة ١١٢ هـ [٤] وسعيد بن جبير الذى كان يحرض أهل العراق بقوله : « قاتلوهم على جورهم في الحكم وخروجهم من الدين وتجبرهم على عباد الله وإماتتهم الصلاة واستغلالهم المسلمين » . وقد استشهد على يد الحجاج [٥] ، وقيل إنه اشترك معه من الثقات سويد بن غفلة وهذا بعيد فقد كان كبير السن آنذاك وذكر ابن سعد أنه توفى سنة ٨١ هـ أو سنة ٨٢ هـ بالكوفة وهو ابن مائة وثمانى وعشرين سنة [٦] . واشترك بعض رجالات قريش منهم عبد الرحمن من بنى عبد شمس [٧] ومحمد بن سعد بن أبى وقاص [٨] وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب [٩] .

هذا وقد أسفرت فتنة ابن الأشعث عن نتائج هامة منها خروج

---

(١) فتوح البلدان ص ٧٨ .
(٢) المقفى ج ٤ ص ١١٠ جلد ٣ . العقد الفريد ج ٢ ص ٩٣ .
(٣) المعارف ص ٤١٤ .
(٤) ابن سعد ج ٦ ص ٢١٦ .
(٥) نفسه ص ١٨٥ .
(٦) نفسه ص ٤٦ . البدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٥ البداية والنهاية ج ٩ ص ٤١ .
(٧) الأنساب ج ٨ ورقة ٤٠١ .
(٨) الطبرى ج ٦ ص ٣٧٥ .
(٩) جمهرة أنساب العرب ص ٧١ .

الزنج بالبصرة فغلبوا عليها وأحرقوا الأسواق وانتهبوا الأموال والسلاح [١] .

ومنها اشتداد الحقد بين الشاميين والعراقيين المصرين الهامين من أمصار الدولة الإسلامية ، ومنها التحامل على الحجاج وتضخيم قسوته وتجاهل إصلاحاته وحماسته . ومنها بناء مدينة واسط التى بناها الحجاج وجعلها معسكرا لجيش الشام الذى أفسد بالكوفة سنة ٨٣ هـ ويأبى أهل الكتاب إلا أن يضعوا الروايات بضلوعهم فى اختيار مكانها : فقد أخذ راهب بول أتانه ورماه فى دجلة أمام الحجاج . فلما سأله عن السبب قال : نجد فى كتبنا أنه يبنى فى هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه ما دام فى الأرض أحد يوحده . فاختطّ الحجاج مدينة واسط وبنى المسجد فى ذلك الموضع [٢] .

وهكذا تنطوى صفحة فتنة أخرى بعد أن أغرقت المشرق الإسلامى بالدماء ويبقى أثرها عاملًا فى توسيع شقة التناقضات فيستغلها دعاة الفتن ومنهم بعض أهل الكتاب الحاقدين على دولة الإسلام ...

المردة والجراجمة وضلوعهم مع الروم البيزنطيين فى حرب المسلمين :

وقف المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب عند السفوح الجنوبية الشرقية لجبال طوروس على حين تحصن البيزنطيون خلف هذه السلسلة الجبلية فى آسيا الصغرى وأخذوا يخربون المنطقة الواقعة إلى الشمال من حلب وأنطاكية من أجل توقيف حركة المد الإسلامى ونقل هرقل كثيراً من سكان أنطاكية معه حين ودع سوريا الوداع الأخير وخرب الحصون البيزنطية الواقعة بين الإسكندرونة وطرسوس ، فلم يجد المسلمون أثناء إغارتهم على هذه المنطقة أثرا للبيزنطيين أو لمقاومتهم [٣].

وفر المستعربون وهم الجماعات النصرانية العربية وعلى رأسهم جبلة

---

(١) البدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٦ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٨٤ . البداية والنهاية ج ٩ ص ٥٦ .
(٣) البلاذرى – فتوح البلدان ص ١٧٠ .

ابن الأيهم الغسانى إلى الروم (١) ، فجعلهم البيزنطيون وسيلة اتصال بينهم وبين القبائل العربية المتنصرة فى أطراف المدن الشمالية ، لتأليبهم ضد الدولة الإسلامية وإمدادهم بالمساعدات الحربية (٢) . وفى نفس الوقت اشترط أبو عبيدة كاحتياط أن على أهالى بعض الجهات الشامية الشمالية بذل جهدهم لمعرفة أخبار البيزنطيين وتزويد المسلمين بها مقابل تركهم أحراراً فى شئونهم الخاصة (٣) .

ولما انفرد معاوية بإقليم الشام رأى المسلمون ضرورة العناية بالمعاقل المخربة كوسيلة أمنية أخرى ، فاهتم معاوية بمدينة أنطاكية التى كانت عرضة لغارات البيزنطيين المتعاقبة وغارات سكان الجبال وأغرى الناس على الإقامة بها ومنحهم إقطاعات من الأرض وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم ، ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك وحمص واليهود (٤) وقام بنفسه بغزوة على عمورية بآسيا الصغرى سنة ٢٥ هـ لمشاهدة الحصون المخربة ما بين أنطاكية وطرسوس فأقام بها جنداً إسلامياً وبدأ بتعميرها بعد أن ازداد أثر سكان المناطق الجبلية وتعاونهم مع البيزنطيين بمن لجأ إليهم من القوى المناهضة لدوله الإسلام . وفى بداية الأمر لم يكترث المسلمون لسكان الجبال هؤلاء فعاشوا على مقربة من أنطاكية على جبل اللكام بين قريتى بياس وبوقا معيشة أشبه أن تكون مستقلة واتخذوا حاضرة لهم اسمها (الجرجومة) ومن هنا كانت تسميتهم بالجراجمة ، وكانوا فى معظمهم نصارى ، يخضعون لوالى أنطاكيا وبطريقها ، ولما غزاهم المسلمون بقيادة حبيب بن مسلمة الفهرى عاهدوه على أن يكونوا عوناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام مقابل إعفائهم من الجزية (٥) . ولكنهم أصبحوا فى نفس الوقت ملاذاً ومأوى لكل من تسول له نفسه الخروج على المسلمين وإلحاق الأذى بهم (٦) ، وكانت صلاتهم ببيزنطية قوية ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٦ .
(٢) البلاذرى – فتوح البلدان ص ١٥٥ .
(٣) عدوى – الأمويون – والبيزنطيون ص ١٩ .
(٤) البلاذرى – فتوح البلدان ص ١٥٤ .
(٥) نفسه ص ١٦٦ .
(٦) حتى – تاريخ لبنان ص ٣٠٠ .

الأمر الذى جعلهم غير مخلصين فى تعهداتهم للمسلمين ، بل تحيّنوا الفرص للانقضاض مع البيزنطين على المسلمين ، ونقلوا إليهم أخبار المسلمين وآووا جواسيس الروم فى منازلهم وأعانوهم فى استطلاع الأخبار وفى هذه البيئة وجدت جماعة الموارنة النصرانية [1] ملجأ لها مع المارقين فى هذه الجبال الحصينة ، سلل البيزنطيون بينهم عناصر تقودهم ضد الحكم الإسلامى بل وأرسلوا قوات بيزنطية عاشت بينهم وعاثت فساداً فى بلاد الشام أيام الفتن الداخلية التى ألمّت بساحة دولة الإسلام .

واتبع معاوية سياسة معينة وهى إضعاف البيزنطيين بتوالى ضربات المسلمين فأنشأ الثغور وهى الحصون الملاصقة للدروب ، والثغرات التى ينفذ منها البيزنطيون من جبال طوروس لمهاجمة شمال الشام ، كما أنشأ العواصم وهى سلسلة الحصون الخلفية لمنطقة الثغور ، كما استكمل السيطرة الإسلامية على المعاقل الهامة الواقعة فى منطقة التخوم فاستولى حبيب بن مسلمة الفهرى على مدينة سميساط ثم ملطية التى وضع فيها رباطا قوياً ونقل إليها جماعة من خيرة رجال الشام والجزيرة وأصبحت قاعدة للغارات الإسلامية على أرض البيزنطيين [2] .

كما أنشأ معاوية نظام الصوائف والشواتي – وهى الغارات المنظمة لتخريب أراضى البيزنطيين وإشغالهم بأنفسهم بدل انشغالهم بالمسلمين صيفا وشتاء ، أبدى فيه قادة المسلمين مواهبهم وتدربوا على أساليب القتال فعلًا وعلا صيت كثير منهم لما أبدوه من شجاعة فى هذه الإغارات حتى أطلق على مالك بن عبد الله الخثعمى وهو رجل من أهل فلسطين اسم مالك الصوافى [3] .

---

(١) التنبيه والإشراف ص ١٣١ . الدبس – الجامع المفصل ص ٣ دربان – أصل الطائفة المارونية ص ٤٣ .

(٢) فتوح البلدان ص ١٩٢ . انظر ياقوت – معجم البلدان ج ١ ص ٦٩٣ و ص ٨٩٥ . ج ٢ ص ٨٦٥ . ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٣) فتوح البلدان ص ١٩٩ .

كان الجراجمة يقبعون أثناء قوة المسلمين هذه فى جبالهم يتودّدون إلى المسلمين ويتظاهرون بأنهم عيون لهم ، حتى إذا غرقت الساحة الإسلامية بالفتنة واشتد الأمر بين عليّ ومعاوية وتنفست بيزنطة الصعداء أظهر الجراجمة عداءهم مع من انضم إليهم من أهل الشام من النصارى والعبيد والأسرى وأخذوا يشنون الغارات فضايقوا المسلمين فاضطر معاوية أن يسترضي الروم بدفع إتارة لهم من أجل أن يكفّهم عن معاونة الجراجمة الذين تمكنوا مع فرقة كبيرة من الجند البيزنطيين المردبين من دخول جبل لبنان وكل جبل اللكام (١) .

والمردبون على ما هو ثابت الآن قبيلة منشؤها أعالى جبال أرمينيا مما يلى فارس كانت مخلصة لملوك الروم فاستخدموها فى تذليل البلاد الجبلية لشدة مراسها كقبيلة الأكراد المشهورة . وقد أقام المردة الذين أرسلهم الروم مع الجراجمة وأصبح جميعهم وكلاء يعملون على تنفيذ أغراض الدولة البيزنطية فى الأراضى الإسلامية . فالجراجمة إذن لا تدل على جنس معين أو دين معين وإنما ذات دلالة على الجماعات التى اتخذت الجرجومة حاضرة لها ، أما المردة فهى ذات جنس معين كما ذكرنا . وقد أطلق المسلمون اسم المردة على الجراجمة والمردبين على السواء لما لمسوه فيهم من العصيان والخروج عن الطاعة ، ففى التعبير الإسلامى لا تدل على جنس معين أيضا فهو يعطى صفة التمرد والعصيان والخروج عن الطاعة مما يدل على تجمع المخالفين للنظام الإسلامى فى هذه الجبال المنيعة ، فالمردة إذن لم يكونوا من الموارنة كما اعتقد دربان (٢) وإنما الموارنة كانوا واحداً من هذه العناصر المختلطة المختلفة ، الذين كاتبوا الروم ومالأوهم على المسلمين (٣) ، فكونوا على حد قول المراجع البيزنطية التى أشادت بأعمالهم ضد المسلمين « ستاراً حديديا » (٤) عرقل الهجوم الإسلامى على آسيا الصغرى .

---

(١) دربان – نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية ص ٤٩ . حتى ج ١ ص ٢٦٩ . شلبى ج ٢ ص ١١٤ . طلس – عصر الاتساق ص ٢١ .

(٢) الجامع المفصل ص ٣٥ . انظر جواد بولس – تاريخ لبنان ص ٢٢٤ .

(٣) فتوح البلدان ص ١٦٦ .

(٤) عدوى ص ١١٨ .

ولما تولى الميدان الحربى عبد الرحمن بن خالد لآسيا الصغرى بعد أن بويع معاوية بالخلافة قبعت هذه العناصر ينتظرون الفرصة السانحة ، فتعاونوا مع البيزنطيين عندما توجهت الحملة الإسلامية لاحتلال القسطنطينية بقصد عرقلة التقدم الإسلامى ، ومن ذلك اليوم اندمج اسم الموارنة فى المردة وأصبحوا أداة للروم فى البلاد الإسلامية وسيستمر هذا التعاون مع كل صليبى يغزو البلاد الإسلامية حتى اليوم (١) .

وكان الموارنة مخالفين فى عقيدتهم لليعاقبة وقد تجادلوا معهم بحضرة معاوية سنة ٩٧٠ يونانية التى توافق سنة ٦٥٩ م فى الإيمان (٢) .

وبعد عودة الجيش الإسلامى من غزو القسطنطينية كان أمام أمرين إما أن يهاجم الجراجمة ويجليهم ، وإما أن يتفق مع البيزنطيين على وقف الغزوات ثم يهاجم الجراجمة وغيرهم ، واختار أن يهادن بيزنطية التى رضيت مرغمة لتداوى جراحها على التخلى عن عملائها ولو مؤقتاً ، فقام معاوية فى نفس الوقت بمهاجمتهم فى جبل لبنان وأمعن فيهم قتلا وتشتيتاً بحيث لم يبق منهم إلا أقلية ضئيلة ظلت معتصمة فى الجبل حتى أيام عبد الملك بن مروان (٣) .

واستغلت بيزنطة الفرصة فى الفتنة الثانية زمن يزيد ومروان وابن الزبير فأدخلت قوات أخرى بيزنطية ومردية بين الجراجمة والمردة وحثهم الإمبراطور يوستانيوس الثانى على الفتنة والعبث بالأمن فى أرض الشام (٤) وفى سنة ٧٠ هـ استغلوا فتنة عمرو بن سعيد الأشدق فأدخلت بيزنطة قوات ضخمة أيضا وتولى

---

(١) يمتدح المطران دربان بتبجح مساعدة الموارنة للحملات البيزنطية (النبذة ص ٧٧) كما أن مطران الموارنة في مؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ م ينادى بإطراء فرنسا الأم المحبوبة ولا يوجد فى الدنيا كلها دولة مثل فرنسا وهى لا تطلب مالًا ولا رجالًا وإنما تطلب الشكر ومعرفة الجميل (نبذة ص ٥٣٤) .

(٢) الجامع المفصل ص ١٥٠ . بطرس ضو ص ٢٤ .

(٣) أبو النصر – معاوية ص ٧٧ .

(٤) حتى ج ١ ص ٢٦٩ .

قيادة الخارجين على الدولة الإسلامية يوحنا الذى ضم إليه خلقاً كثيرا فى جبل اللكام من الجراجمة والأنباط وأبّاق عبيد المسلمين وغيرهم ، وأخذ يغير بهم على أجزاء من لبنان (١) ونزل قب إلياس فى البقاع فشن الغارات على الحجاج وقطعوا السابلة وأفسدوا فى الأرض . كما وجه جستنيان إليهم البطريق (فلقط) فى جماعة من الروم فى البحر فرسا بهم فوق البترون وبث قواده فى أقصى الجبل حتى بلغ أنطاكيا وغيرها من الجبل الأسود ، وكل ذلك لإرهاق الدولة الإسلامية فى فترة اضطرابها ، فأعظم ذلك المسلمين بالساحل حتى لم يكن أحد يخرج فى ناحية من رجال على غيرها إلّا بالسلاح (٢) ، فلجأ عبد الملك إلى اتباع سياسة المسالمة لعزل الجراجمة عن الروم فاتفق مع يوحنا على أن يدفع له ألف دينار كل جمعة (٣) ، كما وجه حميد بن حريث بن بحدل فى هدايا وألطاف إلى طاغية الروم وكتب إليه معه يسأله الموادعة على أتاوة ، وأعطاه إياها ، كما فعل معاوية حين أراد إتيان العراق (٤) . فاضطر المردة والجراجمة إلى إخلاء الأماكن التى احتلوها ومعهم الجند النظامي البيزنطى وركنوا إلى الهدوء ولم يعبثوا بفساد (٥) فى الظاهر ، ولكنهم كانوا على استعداد للإفساد فى أية لحظة مناسبة ، وحذرهم عبد الملك وفى محاولة للتخلص من أثرهم نهائيا اتفق مع إمبراطور بيزنطة مقابل تجديد المعاهدة السالفة على تعهد من قبل الإمبراطور بإبعاد المردة من مناطق التخوم الإسلامية (٦) وكان لهذه الخطوة أثر بعيد المدى حين تجدد النزاع الحربى بين الأمويين والإمبراطورية البيزنطية إذ رأى الإمبراطور فى الحصول على ذهب الدولة الإسلامية مقابل إبعاد

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٥٠ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣١٣ . الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) خطط الشام ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) الأنساب ج ٤ ورقة ١٨١ . ابن الأثير ج ٤ ص ١١٨ .

(٤) الأنساب ج ٤ ورقة ١٨٠ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ١٥٠ . الكامل ج ٤ ص ٣٠٦ . البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٧ .

(٦) الأنساب ج ٦ ص ١٨١ .

الجراجمة رمزاً لعظمته دون أن يدرك ما يكمن وراء هذا العمل من أخطار جسيمة سوف تحيق بدولته بعد أن نقل إثنى عشر ألفاً من المردة إلى رومانيا ، وبعث بعضهم إلى تراقيا ، وشتت البقية منهم داخل آسيا الصغرى [١] ، كما قام بنقل الجنود النظاميين البيزنطيين ومعهم بعض المردة ، أما الجراجمة والموارنة داخل حدود الدولة الإسلامية فقد أبقاهم ليكونوا شوكة فى حلق الدولة الإسلامية ، ودس بينهم بعض أعوانه ، ولم يكن يخفى ذلك على عبد الملك الذى تظاهر بالسكوت لانشغاله بمشاكل الدولة الداخلية ، وأدرك أن هناك نوعاً من التنسيق السرى بين البيزنطيين والمردة وبين تغلغل كلب وتغلب فى جسم الدولة الإسلامية ، وأن التنسيق لا يعدو أن يكون مع أفراد معدودين من كلب وتغلب بسبب أزمة الثقة بين العرب والنصارى والمردة من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة أخرى بسبب اختلاف المذهب وإن كانت رغبتهم جميعاً القضاء على الدولة الإسلامية .

كما أن تسارع كلب وتغلب لاعتناق الإسلام عن رغبة أكيدة كان يحول بين البيزنطيين ومن لف لفهم مع أهل كتاب القبيلتين ، ومن هنا كان التنسيق بين البيزنطيين والمردة لا يعدو بعض الأشخاص المندسين بين القبيلتين بقصد إثارة الفوضى والاضطراب بين المسلمين أنفسهم فى حين تستغل بيزنطية وحلفاؤها من المردة والجراجمة هذه الفوضى لتضرب ضربتها القاضية . ورجل كعبد الملك درس ألاعيب السياسة البيزنطية وأهل الكتاب لم يكن بالذى تفوته أمثال هذه التسللات فبدأ بالحد من نفوذ كلب وتغلب داخل الدولة كما سبق بعد أن كان قد استفحل أمرهم فى أعقاب مرج راهط ، كما ضرب بيد من حديد على مثيرى العصبية القبلية . ثم اتّجه لضرب الجراجمة فدس إليهم سحيم بن المهاجر الكلبى الذى تلطف حتى توصل إلى رئيسهم يوحنا متنكراً وأظهر ممالأته وتقرب إليه بذم عبد الملك وشتمه ودعاه أن يدلّه على عوراته وما هو خير من الصلح الذى بذله له [٢] . وبعد أن وثق يوحنا بسحيم عطف عليه الأخير بجيش من موالى عبد الملك

---

(١) الجامع المفصل ص ٥٠ . عدوى ص ٢٠٦ .

(٢) وهذا يؤكد رأينا فى وجود تنسيق بين بعض الزعماء والقادة والمتسللين إلى داخل الدولة الإسلامية والمردة والبيزنطيين .

وبنى أمية وجند من ثقات جنده وشجعانهم كان قد أعدهم بمكان قريب خفى ، على حين غرة ففتك بجيش الروم وبقسم من الجراجمة والأنباط وغيرهم ، ثم نادى المنادى بالأمان فيمن بقى من الجراجمة ومن سواهم فتفرقوا فى قراهم ومواضعهم فسد الخلل وعاد إلى عبد الملك ووفى للعبيد الذين كان قد وعدهم بالعتق [١] ، وتقرب إلى السكان بعد ذلك وحملهم على أن يقيموا سمعان وهو ابن أخت يوحنا القتيل قائداً لهم [٢] . ولكن الفلول بقيت تثير الشغب وآنسحبت بقيادة سمعان إلى أرمينيا ومعه أكثر الجراجمة ونزلوا بعض أنحاء آسيا الصغرى الداخلية أو الساحل حيث احترفوا الملاحة . أما من بقى منهم فقد اندمجوا بسكان الجبال من النصارى الذين كانوا يتكلمون بالآرامية [٣] ، فبقوا ملجأ يلوذ به الخارجون على الدولة الإسلامية يختفون بينهم وقامت الطائفة المارونية [٤] . الحاقدة على دولة الإسلام .

وقام عبد الملك بحركة **تعريب الطراز** وبدأها بتعريب القراطيس التى كانت تنسج بمصر وطرازها باسم الأب والابن وروح القدس ، فلما وقف عبد الملك عليها عظم أمرها فقال : ما أغلظ هذا فى أمر الدين والإسلام ، وكتب إلى أخيه عبد العزيز عامله على مصر بإبطال هذا الطراز واستبدل تلك العبارة بإحدى الشهادتين « لا إله إلا الله » ففعل ، كما كتب عبد الملك إلى عماله بإبطال القراطيس المطرزة بطراز الروم وإنزال العقاب بمن يخالف هذا الأمر ، وحاول ملك الروم استرضاء عبد الملك بهدية للرجوع إلى الطراز ، كما هدده بالدنانير ، فعمد عبد الملك كخطة أخيرة فى **استكمال تعريب الدولة** إلى ضرب الدراهم والدنانير وعليها صورة التوحيد ، وبعث بنقوده إلى جميع بلدان المسلمين وتقدم إلى الناس فى التعامل بها وهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها ،

---

(١) الأنساب ج ٦ ص ١٨١ . البداية والنهاية ج ٤ ص ١١٨ . الكامل ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) الجامع المفصل ص ٥٠ .

(٣) حتى – تاريخ لبنان ص ٣٠٠ .

(٤) حتى ج ١ ص ٢٦٩ . جواد بولص تاريخ لبنان ص ٢٣٥ .

وأن يبطل ما عدا ذلك وترد إلى مواضع العمل لتحول إلى السكة الإسلامية [١] .

فلما رأى الروم كتابة بعض الآيات القرآنية فى رؤوس الطوامير امتنعوا عن شراء الورق من بلاد الإسلام ، فانقطعت العلاقات التجارية بين الروم والمسلمين فى ذلك الوقت [٢] ، وتأثر الجراجمة والمردة – المشتغلين بها ، فعادوا يتسللون إلى منطقة الجبال يحرّضهم البيزنطيون بقصد إثارة الفتن والقلاقل بالتعاون مع النصارى العرب . واندمج هؤلاء بالفعل مع النصارى العرب فى اسم واحد : « المستعربة » الذين استمروا فى مناوئة الحكومة الإسلامية مع بقايا الجراجمة فى الشام فأخذ المسلمون فى ضرب المستعربة بعنف وتتبعوهم إلى داخل آسيا الصغرى – فقد قتل مسلمة منهم سنة ٧٧ هـ خلقا كثيرا عندما غزا الروم [٣] وتتابعت غزوات المسلمين لأرض الروم وضرب المستعربة واستولى مسلمة على الجرجومة ففر بعضهم إلى بلاد الأناضول وأذن لبعضهم الآخر فى التوطن فى سوريا ولبنان واشترط عليهم أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الروم فى زمن الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ) [٤] .

ولما عقد سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩ هـ) العزم على غزو القسطنطينية سنة ٩٨ هـ عقد اتفاقية مع بقايا الجراجمة النصارى وفيها سمح لهم أن يلبسوا لباس المسلمين [٥] إرضاء لهم ليحول بينهم وبين مساعدة الروم . ولكن ليون الأرمني الذى كان على علاقة وثيقة بالمستعربة ونصارى الشام لثقافته العربية

---

(١) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٦ . ابن كثير ج ٦ ص ١٥ . فتوح البلدان ص ٤٥١ . النظم الإسلامية ص ١٧٤ .

(٢) زيدان – التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٤٦ . حسن إبراهيم – النظم الإسلامية ص ١٧٤ .

(٣) البداية والنهاية ج ٩ ص ٧١ .

(٤) انظر البلاذرى – فتوح البلدان ص ١٦١ . الطبرى ج ٦ ص ٤٢٩ و ص ٤٣٦ . الكامل ج ٤ ص ٥٣٢ .

(٥) فتوح البلدان ص ١٦١ .

والإسلامية تمكن من خديعة المسلمين فحال بين المسلمين والاستيلاء على القسطنطينية [١] .

هذا وقد أخذ أمر الجراجمة وبقايا المردة يضعف فى بلاد الشام فى أواخر الدولة الأموية نتيجة الضربات القوية التى وجهت إليها ، ونتيجة اندماجهم بالمسلمين ولضعف الإمبراطورية البيزنطية حتى أن المسلمين لم يخشوا شيئا من نقل بعض نصارى قبرص إلى بلاد الشام سنة ١٠٥ هـ [٢] .

وأخيرا فقد لعب الجراجمة دوراً بحكم اتصالهم بالمسلمين والبيزنطيين فكانوا حلقة وصل بين الجواسيس البيزنطيين داخل الدولة الإسلامية وبيزنطة يسهلون مهمتهم ، كما أنهم لعبوا دوراً فى تسهيل البعثات الدبلوماسية بين بيزنطة ودولة الإسلام ، كمهمة يوحنا الذى أرسلته بيزنطة لمفاوضة معاوية عندما أراد رفع الحصار عن القسطنطينية وإنهاء حرب السنوات السبع ٥٤ – ٦٠ هـ [٣] وسفارة دانيال حاكم سينوب سنة ٧١٤ م عندما سمع البيزنطيون بخبر استعداد المسلمين لتسيير حملة إلى القسطنطينية – وكانت مهمته أيضا التجسس على مدى استعداد المسلمين للحرب والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمة القسطنطينية ، وعادت سفارته تحمل صدق عزيمة المسلمين على الجهاد وتنصح باتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة ونفّذ الإمبراطور انسطسيوس الثاني (٧١٣ – ٧١٦ م) تعليمات السفارة وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مئونة تكفيه ثلاث سنوات وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مئونته وأعد وسائل الدفاع [٤] ونجح ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ – ٧٤١ م) الأرمنى فى خديعة المسلمين وتوصل إلى العرش [٥] .

وبانتهاء صفحة الخلافة الأموية انطوت صفحة المردة والجراجمة ولم يبق من أثرهم إلا الإسم ، وعلى أنقاضهم نشأ ما يسمى بالتعصب المارونى فى جبل لبنان .

---

(١) انظر الطبرى ج ٦ ص ٥٣١ . البداية والنهاية ج ٩ ص ١٧٤ . ابن العبرى ج ١ ص ١١٤ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٢٧ .
(٣) عدوى – الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٥ .
(٤) عدوى ص ٢١٥ .
(٥) الطبرى ج ٦ ص ٥٣١ .

بداية الدعوة العباسية :

امتدت الفتوحات الإسلامية شرقاً امتداداً كبيراً فوصلت الصين فى عهد الوليد بن عبد الملك على يد قتيبة بن مسلم الباهلى ، وكانت خراسان هى مركز التحرك الإسلامى للشرق فيها قوة عربية إسلامية هائلة متحركة طامعة فى الجهاد ، كما أنشئت فيها قواعد ثابتة للجيش الإسلامى ، ففى خلافة معاوية بن أبى سفيان قام أمير بن أحمر والى مرو بإسكان العرب هناك (سنة ٥٤ هـ / ٦٦٥ م) فكان أول من عمل على استيطان العرب وتبعها مرحلة أخرى من الاستيطان سنة ٥٧ هـ على يد الربيع بن زياد الحارثى الذى نقل خمسين ألفاً من المقاتلة إضافة إلى عائلاتهم وأغلبهم من البصرة فأسكنهم خراسان . وتوالت هجرات العرب إليها فى فترات متقطعة رغبة فى الجهاد ، كما كانت سياسة أمير البصرة أن يرسل مثيرى الفتن والاضطرابات وقطاع الطرق من الجماعات القبلية إليها . وحرك الحجاج إلى خراسان كثيرا من عرب البصرة والكوفة بعد حركة ابن الأشعث للتخلص منهم وخاصة من تميم ، فانتقلت تناقضات البصرة ، والكوفة إلى خراسان وخاصة مع المتسلْلين من أهل الكتاب الذين تظاهر بعضهم بالإسلام وكعادتهم فإنهم لم يستطيعوا الظهور علنا بل أخفوا أهدافهم وراء أطماع القادة والزعماء الطامحين يثيرون تناقضاتهم .

وقد أعاد قتيبة بن مسلم تنظيم العرب فى خراسان وقسمهم إلى خمسة كتل : (تميم ، أهل العالية ، بكر ، عبد القيس ، الأزد) ، كما طلب من كل منطقة فى خراسان تجهيز عدد من الرجال لينضموا إلى حملاته العسكرية ، واستخدم السكان المحليين لمساعدة الجيش دون أن يسجل أسماءهم فى الديوان [١] ، وكان قد تمكن بحكمته وحسن إسلامه أن يكون خير داعيه للإسلام ، فعامل السكان بالحسنى فهدى الله على يديه خلقاً كثيراً [٢] ، فكان ذلك من أسباب حقد

---

(١) فاروق عمر ص ٩٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٦٧ .

المتسللين عليه وعلى رأسهم حيان النبطى مولى بني شيبان [١] ، وأصله من أهل الكتاب وممن لم يدخل الإسلام قلبه ، أكله الحقد على قتيبة فأخذ يحرض مع ضرار ابن حصين الضبىّ ضد قتيبة مستغلاً التناقضات القبلية التى أطلت برأسها بين المسلمين آنذاك ، ووجد ضالّته فى شخصيّة وكيع بن سود الذى كان ذو كبر وطموح لاتهمه إلا مصالحه وكان قتيبة يعرف فيه هذه الصفات – فيحذره – فعندما خرجت خارجة بخراسان أهمّته فقيل له : ما يهمك منهم وجه إليهم وكيع بن سود فإنه يكفيكهم . فقال : لا ، إن وكيعاً رجل به كبر يحتقر أعداءه ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوّه منه غرة [٢] . ومشى حيان سراً يثير الناس ضد قتيبة على أن يتولى وكيع الأمر ويحوّل لحيان الجانب الشرقى من نهر بلخ فقبل وكيع [٣] ، واستطاع بمن يؤيده فى بلاط دمشق وفى البصرة والكوفة من إثارة الوحشة بين قتيبة وسليمان بن عبد الملك وأوجدوا الرهبة فى قلب قتيبة من سليمان فطلب إلى جيشه الخروج عليه ولما لم يستجب له تصرف بعصبية تصرفاً طائشاً (كما تصرف مصعب بن الزبير من قبل) فشرع يؤنب جيشه ويذمهم قبيلة قبيلة وطائفة طائفة فغضبوا عند ذلك وتفرقوا عنه وعملوا على مخالفته . فناهضه وكيع حتى قتله سنة ٩٦ هـ وقتل معه أحد عشر رجلًا من إخوته وأبناء إخوته [٤] ، فنجح حيان ووفى له وكيع بأن حوّل الجانب الشرقي من نهر بلخَ [٥] ، فازداد غنى وازداد تسللا إلى الناس وأفكارهم حتى أنه لما كتب إلى مخلد بن يزيد بدأ بنفسه : « من حيان مولى مصقلة إلى مخلد بن يزيد » فقال مقاتل ابنه : ياأبت تكتب إلى مخلد وتبدأ بنفسك ؟ قال نعم يابنى . فإن لم يرض لقى ما لقى قتيبة [٦] . واستغل التناقضات الجديدة التى بدأت تظهر بين من استقر

---

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٦٩ .
(٢) عيون الأخبار – مجلد ١ كتاب الحرب ج ٢ ص ١١١ .
(٣) ابن خلدون ج ٣ ص ٦٩ .
(٤) البداية والنهاية ج ٩ ص ١٦٧ .
(٥) ابن خلدون ج ٣ ص ٦٩ .
(٦) الطبرى ج ٦ ص ٥٤١ .

من تميم وعمل بالزراعة وبين الوالى والدهاقين غير العرب الذين يجبون الضرائب . فازداد مركزه وعظم تأثيره بين مختلف الفئات وأشغل أولى الأمر بالهدايا الكثيرة فقد أهدى لهشام هدايا كثيرة من ثياب وجوهر وغير ذلك فاستكثرها هشام وقال : بيت المال أحق بهذه الهدايا ، فأمر ببيعها فبلغ ثمنها خمسمائة ألف درهم ، فابتاعها حيان ممن اشتراها وحملها إلى هشام وقال : قد طابت لك فمر بقبضها . فأمر هشام فنودى : « ألا إن حيان سيد موالى أمير المؤمنين » [١] . فتمكن بذلك من الإيقاع بين الخليفة وولاته ، فأوقع بين هشام وواليه خالد بن عبد الله القسرى ، فقد اتصل بخادم من خدم هشام وأمره إذ أبكى صبياً من ولد هشام أن يقول : تبكى كأنك من ولد خالد القسرى غلّته ثلاثة عشر ألف ألف لا يؤدى منها شيئاً وهو يأكل العراق [٢] .

وبين هذه التناقضات فى المشرق سلّل اليهود والنصارى **فكرة التنبؤات** بين المسلمين قبل عام المائة للهجرة [٣] . فانتشرت فى الشرق الإسلامى فكانت فرصة للطامعين ومجالًا لإثارة القلاقل ، وكانت هذه الفكرة قد بدأت عن طريق الإسرائيليات التى بثّها كعب الأحبار وكتب الملاحم التى كان يقتنيها اليهود فى العالم الإسلامى ، والملحمة تعنى الحادث أو الخبر الذى لا محيد عن وقوعه ، وهى عبارة عن رموز مركبة مبهمة تدل على ما سيحدث وما سيكون [٤] ، واستغلت هذه الفكرة فى الدعاية النفسية لتأليف قلوب الموالى ومن أسلم حديثاً حول أية دعوة مناهضة للدولة الإسلامية تظهر ، واتبعتها **الشيعة الهاشمية** أتباع **أبى هاشم بن محمد بن الحنفية** بشكل كبير ، وكان أبو هاشم هذا أخطر رجال البيت الهاشمى طموحا جمع حوله الأتباع ونظمهم وتسلم منهم الخمس

---

(١) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٤٤ (حسان النبطى) .

(٢) الأنساب ج ٨ ورقة ٢٩٤ .

(٣) انظر عن تنبؤات العباسيين : مخطوطة أخبار العباس ورقة ٦٠ ب النجوم الزاهرة ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(٤) الحركات السرية ص ٧٤ .

والهدايا وأحاط حركته بالسرية التامة فى حين ظل هو يزور البيت الأموى ليخدع الأمويين المراقبين له فكان أداة بيد حركات الغلو الكيسانية والمختارية التى انساق فى تيارها والتى كانت قد أعدت العدة لانقلاب كبير وخطير كان من الممكن أن يطيح بالبناء الإسلامى كله لا بالدولة الأموية فحسب . وفى هذا الجو ظهر العباسيون . بحركة إنقاذ للإسلام فى المشرق وإن ارتكبت باسمهم المجازر وتسللت الأفكار الهدامة .

والعباسيون ينتسبون **للعباس** [١] بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ . الذى لم يكن له أى طموح سياسى لنيل الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ ولكنه أيد على ابن أبى طالب ، وتوفى فى أواخر خلافة عثمان [٢] تاركا عقباً كثيرا أشهرهم **عبد الله بن عباس** ثانى أولاده ، ولم يعلم أن أحدا منهم كان يتطلع إلى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده [٣] .

واشتهر عبد الله بالعلم فسمى البحر من كثرة علمه ، فعن طاووس عن أبيه : « كان ابن عباس قد بسق على الناس فى العلم كما تبسق النخل السحوق على الودي الصغير » [٤] . وكانت علاقته بالعلويين جيدة نصح الحسين بعدم الخروج إلى الكوفة ، وأبعده ابن الزبير إلى الطائف مع محمد بن الحنفية لعدم مبايعتهما له [٥] . وتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ أثناء حركة ابن الزبير [٦] أما ابنه على بن عبد الله العباسى فلم يرد عنه علم أو مشاركة فى سياسة الحكم اللهم إلا

---

(١) انظر – ابن سعد – الطبقات ج ٤ ص ١ – ٢٢ . الأنساب ج ٣ ص ٢٠٥ – ٢٤٠ .

(٢) مخطوطة أخبار العباس ورقة ٢ ب .

(٣) الخضرى – الدولة العباسية ص ٩ .

(٤) انظر ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١١٩ – ١٢٤ . أسد الغابة ج ٣ ص ١٩٣ ، ١٩٤ . أخبار العباس ورقة ٤ أ . الأنساب ج ٢ ص ٢٤٦ – ٢٩٠ .

(٥) الأنساب ج ٣ ص ٢٥٤ . أخبار العباس ورقة ٤٠ ب .

(٦) أخبار العباس ورقة ٥٦ أو ٦١ ب .

ما ذكر من أن أخواله من بنى كندة قد منعوه بعد الحرة من مسلم بن عقبة المرى [١] ، وليس هناك إشارة لمشاركته فى الحرب ضد جيش يزيد ، وقد فارق الحجاز بعد أن استتب الأمر للأمويين وأقام بالحميمة وهى - قرية بالشراة - صقع من أصقاع الشام فى طريق المدينة إلى دمشق [٢] واشتهر بالعبادة فكان يلقب بالسجاد لعبادته وفضله وتوفى سنة ١١٧ هـ أو سنة ١١٨ هـ [٣] .

وأما ابنه **محمد بن على** فكان أكثر العباسيين طموحا وتطلعاً إلى الخلافة ومن أشدهم ذكاء ، كان صديقاً لأبى هاشم الذى حذره سليمان بن عبد الملك وأحس فيه الخطر فأوعز بسمه وهو فى طريقه إلى فلسطين ، فلما أحس بالسم مال إلى محمد بن على بالحميمة سنة ٩٧ هـ حيث أفضى إليه بوصيته وبسرائر دعوته وعرف بينه وبين الدعاة ، وكان صحبته جماعة من الشيعة فعرفه بهم وأوصاه فيهم [٤] . وقد شك كثير من المؤرخين فى الوصية ويظهر أن أبا هاشم توفى عند محمد وكانت لديه أسرار الحركة ووثائقها وتنظيماتها فسلمها له قبل موته لأن أبا هاشم لم يكن له ولد [٥] . فادّعى محمد الوصية ليضم إليه دعاة أبي هاشم ، فأفادت خطوته الإسلام والمسلمين إذ أخذ يحوّل الحركة بالتدريج من حركة هدامة هدفت إلى تقويض دعائم الإسلام تمهيداً للقضاء عليه إلى حركة إسلامية ذات طموح شخصى هدفها استبدال الأسرة الحاكمة الأموية بأسرة أخرى هاشمية ، ولمحمد الفضل فى عملية التخلص التدريجى من الحركات الهدامة

---

(١) ابن سعد ج ٥ ص ٢٢٩ . الأنساب ج ٣ ص ٣٣٦ . مروج الذهب ج ٣ ص ١٨ .

(٢) أخبار العباس ورقة ٤٤ ب . ياقوت ج ٢ ص ٣٠٧ .

(٣) ابن سعد ج ٥ ص ٢٣٠ - أخبار العباس ورقة ٥٧ أ . النوبختى ص ٣٣ .

(٤) ابن سعد ج ٥ ص ٢٤١ . المعارف ص ١١١ . الأنساب ج ٣ ص ٣٤٨ أخبار العباس ورقة ٨١ أ . اليعقوبى ج ٣ ص ٤٣ - الأشعرى ج ١ ص ٢١ . الملل والنحل ج ١ ص ١٥٦ . القمي ص ٣٩ . الإسفراييني ص ٧٥ . أما المسعودى فيذكر أن الوصية كانت لعلى بن عبد الله وهذا خلاف الإجماع ج ٦ ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٥) أخبار العباسى ورقة ١٧٩ (ب) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة أبو هاشم .

فى المشرق الإسلامى وتصفيتها ، وستستمر عملية التصفية هذه إلى ما بعد قيام الدولة العباسية .

أصبحت الشيعة الكيسانية إلى جانب محمد الذى رأى أن يسير فى المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم ، فانتظر إلى سنة ١٠٠ هـ ، ليتعرف على عناصر دعوة أبى هاشم ومقدار ما وصلت إليه من خطوات بدأ تحويلها بالتدريج عن مسارها مقنعاً دعاتها بأن أبا هاشم أوصاه أن يرسل الدعاة سنة ١٠٠ هـ فاختار ١٢ نقيبا و ٧٠ داعية يتلونهم [١] .

كما ادعى أنه أوصاه بميسرة وأنه قال عنه : (ثم هذا الرجل ميسرة تجعله صاحبك بالعراق) وميسرة هو أبو رباح النبال وكان من أكبر أتباع أبى هاشم مولًى لأسد [٢] وذلك لتطمين الحركة الكيسانية وليبعدها عن الظن به أو الشك تمهيداً لمعرفة أسرارهم بتفاصيلها ليكسبهم بالتدريج ومن هنا جاءت فكرته بالدعوة : « للرضا من آل محمد » [٣] .

أرسل محمد ميسرة إلى العراق سنة ١٠٠ هـ كما وجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة وهو أبو محمد الصادق السراج وحيان العطار إلى خراسان وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمى من قبل عمر بن عبد العزيز وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم فدفعوها إلى ميسرة فبعث بها إلى محمد فغرسوا بذلك غرساً [٤] .

واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثنى عشر رجلا نقيبا وهم :

سليمان بن كثير الخزاعى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وقحطبة بن شبيب الطائى ، وموسى بن كعب التميمى ، وخالد بن إبراهيم بن شيبان ، والقاسم

---

(١) أخبار العباس ورقة ٨٦ . ب . اليعقوبى ج ٣ ص ٤٠ .
(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥٠ .
(٣) أخبار العباس ورقة ٩٠ أ . النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٣٠ .
(٤) الطبرى ج ٦ ص ٥٦٢ . اليعقوبى ج ٣ ص ٥٠ .

ابن مجاشع التميمى ، وعمران بن إسماعيل أبو النجم مولى لآل أبى معيط ، ومالك ابن الهيثم الخزاعى ، وطلحة بن زريق الخزاعى ، وعمرو بن أعين أبو حمزة مولى لخزاعة ، وشبل بن طهمان الهروى مولى لبنى حنيفة ، وعيسى بن أعين مولى خزاعة . كما اختار سبعين رجلا للدعوة وكتب لهم محمد بن على كتاباً ليكون مثالًا وسيرة يسيرون عليها [1] ، وكان على علم جيد بأقاليم الدولة الإسلامية : « أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة على بن أبى طالب ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكفّ وتقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما ، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب » [2] . فكان اختيار خراسان خطوة من خطوات محمد لإبعاد الأمر عن الكوفة والعراق ليتمكن من السير فى حركة التغيير التدريجى . والملاحظ أيضا أن معظم النقباء كانوا عرباً وكذلك الدعاة وإن كان فى أسمائهم ألقاب فارسية ذلك لأن كثيراً من مشاهير العرب سموا بأسماء المدن الفارسية التى عاشوا فيها [3] . واستغل محمد فكرة التنبؤات والملاحم فادعى الدعاة العباسيون أن هناك علامات (مخبرات) عن مجىء العباسيين أصحاب الرايات السود من قبل المشرق وأنهم منتصرون لا محالة ولا تردّ لهم راية قط ، وأن ابن الحارثية هو قائد هذه الجيوش القادمة من الشرق [4] كما يظهر تأثر النظام السرى العباسى بمجلس الحواريين

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٥٦٢ .

(٢) أخبار العباس ورقة ٩٣ ب – ٩٤ أ . عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٠٤ – معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٠ .

(٣) فاروق عمر – الدعوة العباسية ص ١٥٩ .

(٤) أخبار العباس ورقة ١٠٣ ب .

عند اليهود من ناحية ، ومجلس الشورى فى عهد الرسول ﷺ من ناحية أخرى [١] ولم يقطع محمد الصلة بالكوفة فقد احتفظ بها كنقطة ارتباط بين مرو والحميمة محافظا على سرية الدعوة [٢] . كما أمر دعاته أن لا يستكثروا من أهل الكوفة « ولا تقبلوا منهم إلا أهل النيات الصحيحة » [٣] وذلك لمعرفته بتقلبها وميولها العلوية المتطرفة ولكثرة الشغب والعصبيات فيها . ولذلك لم يبلغ عددهم فى الكوفة إلا ثلاثين رجلا من قبيلة مسلية اليمنية ومواليها ومن همدان .

فكانت الحركة العباسية التى نظمت فى الحميمة والكوفة ثم انتقلت إلى مرو واتسعت فى قرى خراسان ومدنها – عباسية أصيلة فى تنظيمها ومبادئها وأهدافها – استطاعت فى فترة الإعداد أن تكسب الشيعة العلويين والخوارج والفرس ، وكان عصبها القوى عرب خراسان .

* * *

(١) فان فلوتن ص ١٠٨ .
(٢) البدء والتاريخ ج ٦ ص ٥٩ .
(٣) أخبار العباس ورقة ٨٩ أ .

الخاتمـــــة

الإسلام عقيدة انبثق منها نظام ، فهو فكر شامل للكون والإنسان والحياة وما قبل الحياة وما بعدها – نظم علاقة الفرد بربه وبنفسه وبمجتمعه فتاريخه يعتمد الفكر أساسا – وتاريخ المسلمين لا يفسر إلا من المنطلق الفكرى ، ومن هنا اعتمدت فى تفسيرى للحوادث التاريخية فى هذا البحث – التفسير الفكرى – ولا يخفى أن التفسير الفكرى لا يهمل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية بل هى نتائج للناحية الفكرية فى الإسلام . ومن هذا المنطلق أيضا جاء دور القوى المناهضة للإسلام وأثرها ، إذ لجأت إلى سلاح الفكر تقف فى وجه الدعوة الإسلامية وتسلل أفكارها خلال أفكار الإسلام . فكان تصنيف الناس فى المجتمع الإسلامى بعيداً عن الطبقية الاقتصادية والنسبية بل كان التصنيف فكريا ودينيا يعتمد الفكر الدينى أساسا وهو أرقى أنواع التصنيف البشرى . فاتحدت جميع القوى الفكرية لمواجهة الإسلام لأنها اعتبرته مهدداً لها جميعا بنظرته الإنسانية العالمية حيث تمكن أن ينشئ بناءً اجتماعياً راسخاً متجانساً تمكن به أن يتغلب على الفروق الجنسية والقومية ، وهو لم يدع إلى المساواة قولًا فحسب ولكنه يدعو إليها عمليا كل يوم خمس مرات وذلك فى الصلاة التى تنمحى فيها الفوارق المادية المصطنعة إذ يقف المسلمون جميعاً جنباً إلى جنب دون تمييز بين حسيب أو وضيع – غنى أو فقير – وهذا هو المنهج الاجتماعى السليم والدعوة الحضارية الراقية . فوقف الحاقدون من أهل الكتاب حسدا منهم على هذا النظام الاجتماعى بتياراتهم الفكرية المختلفة جنبا إلى جنب مع الأفكار الشرقية – المزدكية والمانوية والزردشتية – ومع الأفكار الغربية الفلسفية والهلنستية ...

وقد حاولت أن أعى أفكار القرن الأول الهجرى وما قبله والثلث الأول من القرن الثانى الهجرى ورغم صعوبة ذلك لكثرة التيارات الفكرية وتداخلها من جهة

ولاتساع الساحة الإسلامية من جهة أخرى إلا أننى خرجت من البحث بنتائج قد تكون صحيحة كل الصحة لانزال نلمس آثارها إلى اليوم .

ففى عهد الرسول ﷺ تسلل أهل الكتاب بين مختلف القوى والفرقاء يكيدون ويخططون وبالاتفاق معها أو يسيرونها للوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية وفى وجه حكومة الإسلام النبوية – فكان تعاونهم مع القبائل العربية المختلفة وقريش ومع المنافقين – يحزبون الأحزاب ، ويثيرون التناقضات داخل المجتمع الإسلامى الوليد بين الأوس والخزرج من الأنصار من جهة وبين الأنصار والمهاجرين من جهة أخرى . ويضعون الخطط للقضاء على هذا المنافس الخطير فى الحجاز وفى جزيرة العرب ، بل وأدركوا خطر منافسته على النطاق العالمى فأخذوا يكيدونه على المستوى العالمى فتعاونوا مع دولة الفرس والروم والحبشة فى عهد مبكر من عهود الدولة الإسلامية إدراكا منهم بطبيعة المد الإسلامى وبأنه لا يعترف بفواصل أو حدود وأن محمدا ﷺ أرسل إلى الناس كافة ينتظم فى دعوته العربى وغير العربى ، وفي دولته المسلم وغير المسلم .

وفى عهد الخلفاء الراشدين ظهر أثر أهل الكتاب فى حركة الردة التى كانت تعبيرا عن انتفاضة أهل الكتاب ليعيدوا الجزيرة إلى ما كانت عليه قبل الإسلام ليتسلموا زعامتها ويسيطروا على مقدرات سكانها – ولتبقى سوقا ومسرحا يمثلون عليه ما شاءوا ! وميدانا لنزاعهم السلمى بعد أن تحولت الأقطار الأخرى إلى مسرح لنزاعهم الدامى ! .

واستطاع الإسلام اكتساب الجماهير لملاءمته للنفس الإنسانية ونظرته العالمية فالتفت حوله ورضيت به حكما عدلًا ومنظما رشيدا فامتلأ أحبار ورهبان أهل الكتاب حقداً وحسداً فساروا بموازاته يحاولون النفاذ إليه بإعمال الثغرات خلاله بتستر وتقية ومداراة . ولجأوا من ثمّ إلى أسلوب الاغتيالات وتسلموا الأمر بأنفسهم حين لم يستطيعوا أن يجدوا أعوانا لهم من المسلمين فكانت مؤامرات كعب الأحبار ودوره الرهيب فى حبك مؤامرة اغتيال الخليفة العادل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وقد استطاع بذكائه أن يتخلص من الأدوات التى استخدمها

فى جريمته بمقتل الهرمزان وأبى لؤلؤة وجفينة ، فأُسدل الستار عن التحقيق فى هذه الجريمة البشعة التى لو قدر أن يفتح فيها باب التحقيق لتجنبت الأمة الإسلامية كثيراً من الكوارث التى حدثت ولا تزال تحدث ولأمكن الإنسانية أن تحيا فى ظل الأمن والعدل والرفاهية فى ظل الإسلام .

وبوعي الحاقدين من أهل الكتاب افتعلوا التناقضات فتظاهر بعضهم بالإسلام ومنهم ابن سبأ الذى أكمل دور كعب الأحبار فاستطاعوا أن يجمعوا حولهم بعض المسلمين فى عهد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) واستغلوا فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « الإسلامية » ، فحرك ابن سبأ - « بتوطئة كعب الأحبار وغيره من الأحبار والرهبان » - المسلمين الحديثى العهد بالإسلام والمتستّرين بالإسلام والأعراب الأجلاف الذين لم يدخل الإسلام قلوبهم بعد ولم يشربوا بروحه - ووقفوا وراءهم يمدّونهم بالتأويل والتفسير باسم العلم ويحركونهم حتى توسعت التناقضات بين الصحابة ، وأثاروا المشاعر ضد عثمان فى الأمصار الإسلامية : العراق فى البصرة والكوفة ومصر والشام وحتى الحجاز ، فتحركت هذه الأمصار فى حركة هوجاء مضطربة دون وعى من عناصرها بعمق المؤامرة ومحركيها . فأدى سيل الأحداث المتدفق الجارف إلى فتنة فقتل الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فكان ذلك صدعاً لا يلتئم فى تاريخ الإسلام وأصبح قميص عثمان مثلًا دارجاً سائراً إلى اليوم ، فانقسم المسلمون .

وأجاد الحاقدون من أهل الكتاب دورهم فتسللوا إلى مختلف الفئات الإسلامية يؤرثون العداوة والبغضاء بينها فأثارت عناصرهم السبئية القتال بين الصحابة فكانت وقعة الجمل ثم صفين والحكمين - فأدت تطورات - الأحداث التى أحسنوا حبك نسيجها إلى اغتيال الخليفة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) بأيدى الخوارج ، وإلى ظهور فكرة الخوارج وفرقهم المتعددة التى غذوها بأفكارهم وقد عمقوا عندهم فكرة استعراض المسلمين وقتلهم فعاثوا فى الأرض فساداً يقتلون النساء والأطفال والشيوخ ويبقرون بطون الحبالى من المسلمين فقط الأمر الذى أبعدهم عن روح الإسلام وتسامحه وصفائه وصدقه - كما أدت -

تطورات الأحداث هذه أيضا إلى ظهور بذور فكرة الشيعة التى غذوها فأفكارهم بشكل واضح وعميق عن طريق تظاهرهم بالإسلام وانضمامهم بالفعل إلى هذه الفرقة واستلام قيادتها الفكرية فوقفوا وراء حركات قادتها وأسهموا فى قتلهم أو اغتيالهم ثم أجادوا التظاهر فى البكاء والعويل عليهم إمعانا منهم فى صدع المسلمين ، ومجتمعهم .

ومما زاد فى تغذيتهم الفرق الإسلامية بالأفكار الهادمة للإسلام انتشار مدارسهم الفكرية فى أصقاع العالم الإسلامى وتياراتها الفكرية المختلفة كمدرسة الإسكندرية ونصيبين وأنطاكية وحران وجنديسابور وهى مدارس شملها المد الإسلامى وأحاطها بالرعاية فأثرت فى أفكار المسلمين ومن ثم فى حياتهم الثقافية والاجتماعية .

ولما عادت الجماعة الإسلامية إلى الالتئام بعد أن فوت الحسن الفرصة عليهم وولى معاوية الخلافة أدركوا حزمه وهابوه فعادوا إلى أسلوب الكيد الخفى وتفننّوا فيه دون أن ينالوا من المجتمع الإسلامى نيلًا ذا بال فأخذوا يتصلون بالحسن والحسين وببعض المخلصين لآل البيت وحرضوهم على الثورة والخروج على الدولة ، فأدى ذلك إلى مقتل حجر بن عدى . وتسللوا ببراعة إلى الحاشية فأوغروا صدر معاوية على المخلصين ، فباعتبارهم متمرسين فى شئون السياسة العالمية عالمين بخفاياها أخذوا يقصون الأقاصيص بدهاء عن الأمم الماضية فى سمر معاوية متضمنة هذه الأقاصيص مكائد الملوك وأساليبهم فى التخلص من مخالفيهم ، وقد برع منهم فى ذلك وهب بن منبه وعبيد بن شرية الجرهمى وتبيع الحميرى .

وبرعوا فى التسلّل إلى دواوين الدولة فنفذوا إلى الإدارة فكان سرجون الذى تسلم الكتابة لمعاوية ويزيد ومروان وعبد الملك .

وقد أجاد سرجون هذا حبك المؤامرات وأدخل فى روع معاوية خروج الحسين وابن الزبير ولم يجد فرصة فى زمن معاوية لحزم معاوية ولكنه وجدها فى شخصية يزيد بن معاوية التى لا ترقى إلى شخصية الحسين فى نفوس المسلمين فحرك الحسين بكتابات سرية وأسهم فى تولية ابن زياد المصرين العراقيين

المضطربين بالأهواء والنّحل والفتن ، البصرة والكوفة ، فكانت فتنة مقتل الحسين صدعاً آخر فى تاريخ الإسلام ثم غزو المدينة ووقعة الحرة التى اشتركت فيها عناصر أهل الكتاب الشامية بالفعل .

وتحركت عناصر أهل الكتاب فى قبيلة تغلب وكلب واستغلت وجود ما يسمى بالعصبية القبلية فى نفسية العربى فاستثارتْها من مكامنها فخفت صوت الإيمان أو تهدّج فى نفوس الكثيرين من المسلمين أمام ثورة العصبية الجامحة والتغنى بأيام العرب فتحولت الساحة الإسلامية الواسعة إلى مجال مصادمات قبلية عربية عنيفة ألهب الشعراء فيها النار بين المتنازعين واستثاروهم . وكان الشعراء من أهل الكتاب كالأخطل والأعشى التغلبيين ، المحرك لاستثارة حماس الشعراء الأعراب كجرير والفرزدق .

وكاد شمل المسلمين يلتئم على يد الخليفة عبد الله بن الزبير فهال عناصر الفتنة الأمر فتحركت وحركت تغلب وكلباً بزعامة حسان بن مالك بن بحدل وحريث – واتخذت بعض الأعوان كعبيد الله بن زياد – فبايعوا مروان بن الحكم خروجاً على إجماع الأمة لإحداث الشرخ وتعميق الصدع ومنعاً من الالتئام واستمرت فى إثارة العصبية ووجدت هذا المجال متنفساً لها . وتحركت عناصر الخوارج تعيث فساداً فى شرق الدولة الإسلامية .

وإمعاناً منهم فى الاستمرار بعملية الهدم استمالوا الأشخاص ذوى الطموح كالمختار الثقفى الذى استثاروه وحقنوه بأنواع من الأفكار لقّنوه إياها وتبنّاها ، وبشبهٍ ومخاريق أوهموه بصحتها . وهى بجملتها تتناسب ونفسية هذا الرجل الطامح المحب للزعامة المنتهز للفرص . فجعلوا منه وسيلة للإفساد بين الشخصيات الإسلامية الكبيرة وتعميق الفجوة بينهم : عبد الله بن الزبير ومحمد بن الحنفية ، وعبد الملك بن مروان .

وتحقق هدفهم حين ظهرت فئة جديدة انشعبت من السبئية الغالية ادّعت الإسلام ظاهراً وباطنها الكفر الصراح تظاهرت بحب آل البيت ومنهم محمد بن الحنفية الذى استغلوا اسمه فسللوا فكرة المهدى فى الفكر الإسلامى استمراراً

للفكرة اليهودية « السعى لإيجاد ملك من آل داود » . فكانت الشيعة والمختارية الحركة التى كانت أساس للحركات السرية الغالية الأخرى التى هدفت إلى القضاء على الإسلام كشريعة وكنظام للحياة وكعقيدة سهلة بسيطة تغزو النفوس فتتوجه إليها وترتاح إليها . فاستطاعت هذه الفرق الغالية ومنها الهاشمية والجناحية إخراج الرسالة عن جوهرها وإخراج إنسان الرسالة عن إنسانيته وتطور الأمر إلى إخراج الأئمة عن إنسانيتهم وارتقوا بهم إلى مراكز الألوهية . بفعل دس أفكار الحلول والتناسخ .

وقد ألهبوا المشاعر بفكرة الثأر للحسين فتحرك أبو عمرة – كيسان – يقتل ويخرب ويهدم باسم الثأر للحسين .

واتسعت الحركات العصبية لتشمل بلاد المغرب فقام أهل الكتاب بدور الوسيط للتنسيق بين البربر والروم البيزنطيين ونظموا صفوف البربر فأصبحت المغرب ساحة أخرى سفك فيها الدم المسلم .

وعملت عناصر أهل الكتاب فى الشام على الإيقاع بين البيت الأموى نفسه فكانت فتنة عمرو بن سعيد الأشدق . وكان قتله محاولة ضمن محاولات عبد الملك ابن مروان للتخلص من نفوذ القبيلتين الكتابيتين تغلب وكلب .

وأدرك عبد الملك أثر تغلغل أهل الكتاب فى دوائر الدولة وضمن الحاشية فتخلص من نفوذ سرجون وأسرته واستغنى عن خدمات أهل الكتاب بتعريب الدواوين تخلصاً منهم بعد أن أعاد وحدة الدولة الإسلامية ولكنهم لم يعدموا الوسيلة للتسرب والتسلل إلى البلاط وإلى المجتمع فكان الأخطل صديقه .

واستغلوا نبوغهم فى الطب فاستمروا فى التسلل إلى البلاط الأموى والتقرب إلى ذوى المراكز العليا فى الدولة كبشر والحجاج وعبد العزيز بن مروان ونفذوا إلى المجتمع المسلم فاستمروا يوقعون الفتن والدسائس وتبنوا طريقة الاغتيالات بالسموم فى المجال السلمى .

وفى المجال العسكرى ساعدوا حركات الخوارج فى المشرق وحركات البربر

والبيزنطيين فى الغرب . فكانوا أعوان الأزارقة والنجدات والأباضية كما كانوا أعوان كسيلة والكاهنة وميسرة فى المغرب . وأسهموا فى انشقاق الخوارج إلى فرق كثيرة إمعاناً فى تفتيت الفئات الإسلامية وإضعافها ، كما أسهموا فى انشقاق الشيعة إلى فئات وفرق متنوعة منها السبئية والغرابية والكيسانية والكربية والحربية والهاشمية والجناحية وغيرها من الفرق وسللوا إلى هذه الفرق أفكارهم الهدامة لتصبح مع الزمن — وباستغلال العناصر التى أسلمت حديثا والتى لا تتمكن من ناحية العربية — ضمن الفكر الإسلامى يباعد بين المسلمين ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ويثير الشحناء ، واستغلوا فى ذلك تأويل النصوص الإسلامية .

ووجد عناصر أهل الكتاب رجلا آخر كالمختار فيه الزهو والطموح والكبر وهو عبد الرحمن بن الأشعث ، وكانوا قد أسهموا فى إيجاد المدرسة القدرية والمدرسة المرجئية وبثّوا أفكارهم عن طريق هذه الفرق بين كثير من العناصر الإسلامية وخاصة الحديثة العهد بالإسلام . فحركوا هذه العناصر للاشتراك فى ثورة ابن الأشعث التى عمقت الهوّة بين عرب الشام وعرب العراق . كما تمكنوا من إثارة الفتنة فى جناحى الدولة الإسلامية الشرقى والغربى . فقاموا بالإفساد بين قتيبة بن مسلم الباهلى وجيشه فى خراسان وانتهى الأمر بمقتل قتيبة . كما قاموا بالإفساد بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وجيشه فى الأندلس عن طريق زوجه أرملة لوذريق وانتهى الأمر أيضا بمقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير .

وعملت عناصر أهل الكتاب على تكوين بؤرة مقاومة ضد المد الإسلامى على حدود موطن قوته فى بلاد الشام على حدود الروم فى جبال اللكام فضموا إليهم كل خارج عن قانون الدولة الإسلامية وكونوا من هؤلاء الخارجين شوكة فى حلق الدولة الإسلامية — تعاونوا مع الروم البيزنطيين الذين أمدوهم بجيش قوى من الروم والمرديين — فاختلطت العناصر النصرانية المختلفة فى تلك الجبال وسموا الجراجمة أو المردة جمعهم الحقد على الإسلام والكره لدولته — وقد ورثت الطائفة المارونية تعصب أولئك ضد الإسلام وحقدهم عليه فاعتزت وافتخرت بمساعدتها لأعداء الإسلام على مختلف أدوار عصور التاريخ الإسلامى إلى اليوم .

واستطاعوا إشعال نار العصبية مرة أخرى وبشكل أعنف فى أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة وخاصة فى خراسان والأندلس كما قاموا بتحريك الروح الشعوبية لدى الفرس والبربر مستغلين التراث الفكرى القديم للفرس وحضارتهم فكانت إرهاصات الشعوبية فى هذا العهد .

كما استطاعوا استغلال حب المسلمين لآل البيت فتمكنوا من التسلل والنفوذ إلى داخل المجتمع المسلم وسللوا أفكارهم بذكاء وحجة ومنطق وادّعاء علم وتمكنوا أخيرا من تسلم القيادة الفكرية التامة لفرق الشيعة المختلفة وبثوا فيها ما شاءوا من أوهام لتقويض الإسلام ودولته من الداخل وتمكنوا من الإفساد بين البيت الأموى بعد هشام بن عبد الملك ذلك البيت الذى وقف فى وجه مؤامراتهم فعصفت به الفتنة التى أسفرت عن وثوب مروان الثانى للخلافة فوهنت سيوف أمية وتحركت القوى المضادة السرية التى كونتها العناصر الفكرية المختلفة لأهل الكتاب أو أسهموا فى تكوينها لتطيح بالإسلام ودولته فبرز البيت العباسى يقود حركة عباسية أصيلة مضادة ليحافظ على الإسلام وليستعيد هيبته وليعيده إلى مساره السليم ، ففوت هذا البيت الفرصة على دعاة الهدم والتخريب وتحول الصراع بين المسلمين إلى صراع بين بيتين على الخلافة . فوجدت العناصر الحاقدة نفسها مرة أخرى تدور فى فراغ كاد يمزقهم ويعصف بهم .

واستمرت قواهم الفكرية فى السير والتسلل ليبرز أثرهم واضحاً بعد العهد العباسي الأول عندما أخذ الوهن يدب فى ذلك البيت وعزل الخلفاء عن مناصبهم القيادية وأصبحوا ألعوبة بأيدى القادة والزعماء من الأتراك حتى قيل فى أحدهم :

خليفـــــة فى قفص بين وصيـف وبغـــا
يقـول ما قالا له كما تقـــول الببغـــا

وعسى الله أن يمكننى فى المستقبل من تتبّع أثر أهل الكتاب فى العصور الإسلامية المختلفة والذى برز بشكل واضح بعد العصر العباسى الأول إلى اليوم . وعلى أن يتمكن الباحثون من إماطة اللثام عن حقائق جديدة تكشف أثرهم وتوضيحه فى بعض المواقف التى لا تزال غامضة أو مشكوك فيها لدى الباحثين

والدارسين . وعسى أن يدرك المسلمون أثر القوى المضادة الحاقدة وما أدخلته وسلّلته إلى الفكر الإسلامى من أوهام وترهات فينزعونه من أنفسهم ومن مبادىء دينهم لأنه دخيل مصطنع لا يعتبر من الإسلام لأن كمال الإسلام اتضح فى عصر ، محمد (ﷺ) في قوله تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾

فيتجهون إلى الإسلام ببساطته وبمبادئه السمحة فيعودون خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، ويطبقون مبادئه السمحة ونظامه الرائع لتجف الأرض من الدموع والحزن وتهدأ آثار البغضاء والشحناء فتنتشر السعادة فى أفق الدنيا ويعيش الناس على مختلف أجناسهم وأديانهم فى جو مزدهر بالأمن والسلام ويغلق الباب على المنظمات السرية والإرهابية التى تسيرها الصهيونية العالمية والشبكات الجاسوسية التى تحكم العالم وتسيطر على مقدراته من وراء ستار .

والله أسأل أن يكون هذا العمل والأعمال القادمة إن شاء الله خالصاً لوجهه الكريم .

والله من وراء القصـــــد فهو نعم المولى ونعم النصير .

عمان ٢٧ رمضان ١٣٩٨ هـ

الموافق ٣١ آب ١٩٧٨ م

* * *

المراجـــع والمصـــادر

(أ) المراجع والمصادر العربية

(١) القرآن الكريم

ابن الأثير – عز الدين أبو الحسن على ابن أبى الكرم الشيبانى ت سنة ٦٣٠ هـ .

(٢) الكامل فى التاريخ – تحقيق عبد الوهاب النجار دار صادر ودار بيروت . بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ..

(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة – القاهرة ١٢٨٠ هـ .

أحمد أمين بك .

(٤) المهدى والمهدوية دار المعارف بمصر ١٩٥١ م .

(٥) فجر الإسلام مكتبة النهضة المصرية ط ١٩٦٥/١٠ م .

(٦) ضحى الإسلام – مكتبة النهضة المصرية ط ٧ / القاهرة ١٩٦٤ م.

الإدريسى – أبو عبد الله محمد بن إدريس الحمودى الحسنى الشريف .

(٧) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق – نابلى – روما – طبع بريل .

الإسفراييني – أبو المظفر شاه نور بن طاهر بن حسن ت سنة ٤٣١ هـ .

(٨) التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجين من الفرق الهالكين تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثرى – الخانجى – القاهرة ١٩٥٥ م / ١٣٧٤ هـ .

الأشعرى – أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ت ٣٢٠ هـ أو ٣٢٤ هـ .

(٩) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ط ١ / ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م) جزءان

الأصبهاني – أبو نعيم أحمد بن عبد الله ت سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م .

(١٠) حلية الأولياء – دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان ط ٢ / ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

الأصبهانى – أبو الفرج على بن الحسين ت ٣٥٦ هـ / ٩٧٦ م .

(١١) الأغانى – تهذيب ابن واصل الحموى ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م طبع القاهرة – كتاب التحرير وطبعة أخرى مصورة عن طبعة دار الكتب بإشراف وزير الثقافة والإرشاد للتأليف والترجمة والنشر (مغفلة السنة) .

الإصطخرى – أبو إسحق إبراهيم المعروف بالكرخى ...

(١٢) المسالك والممالك – منقول عن كتاب صور الأقاليم للبلخي . تحقيق دى خويه ليدن – مطبعة بريل ط ٢ / ١٩٢٧ م .

ابن أبى أصيبعة :

(١٣) علوم الأنباء فى طبقات الأطباء – تحقيق نزار رضا مكتبة الحياة – بيروت ١٩٦٥ م

ابن أعثم الكوفى ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م

(١٤) كتاب الفتوح – مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد – الدكن – الهند ط ١ / ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م

الألوسى – محمود شكرى البغدادى ت ١٢٧٠ .

(١٥) بلوغ الأرب – مطبعة دار الكتاب العربى بمصر ط ٣ .

أمين – عثمان .

(١٦) الفلسفة الرواقية – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ط ٢ / ١٩٥٩ م .

الأندلسى – محمد بن يحيى بن أبى بكر الأشعرى الملقى – الأندلسى ٦٧٤ – ٧٤١ هـ .

(١٧) التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان – تحقيق د / محمود يوسف زايد . دار الثقافة – بيروت – لبنان ط ١ / ١٩٦٤ م

ابن بابويه – أبو جعفر محمد بن على القمى ت ٣٨١ هـ .

(١٨) علل الشرائع – المكتبة الحيدرية – النجف ١٩٦٣ م .

البخارى – الإمام أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م .

(١٩) صحيح البخارى - طبع مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٣٧ هـ .
بخيت - د / عبد الحميد .
(٢٠) ظهور الإسلام - دار المعارف بمصر ط ٢ / ١٩٦٧ م .
البراق - حسين بن السيد أحمد النجفى ت ١٣٣٢ هـ .
(٢١) تاريخ الكوفة - منشورات المكتبة الحيدرية ط ٣ / ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
البغدادى - أبو منصور عبد القادر بن طاهر ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م .
(٢٢) الفرق بين الفرق - منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط ١ / ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
البغدادى - ابن حبيب أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية ت ٢٤٥ هـ .
(٢٣) كتاب المحبر - رواية السكرى تصحيح الدكتورة / إيلزة ليختن أشتير - المكتب التجارى للطباعة والنشر بيروت ١٩٤٢ م .
البلاذرى - أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى .
(٢٤) فتوح البلدان - مراجعة رضوان محمد رضوان مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩ م .
البهى - محمد
(٢٥) الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى - دار الكاتب العربى - القاهرة ط ٤ / ١٩٦٧ م .
البيروني - أبو الريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م .
(٢٦) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة / طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد / الدكن / الهند ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .
التبريزى - أبو زكريا يحيى بن على :
(٢٧) شرح حماسة أبى تمام - تحقيق محيى الدين عبد الحميد / القاهرة ط ٤ / ١٩٣٩ م .
التلمساني - أحمد بن محمد المقرى ت ١٠٤١ هـ .
(٢٨) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ط ١ / ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٩ م .
أبو تمام - الإمام الشاعر الأديب .

(٢٩) نقائض جرير والأخطل – تعليق أنطون صالحانى اليسوعى – المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩٢٢ م .

التنوخى : القاضى أبو على الحسن بن على ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م .

(٣٠) جامع التواريخ – المسمى نشوار المحاضرة – تحقيق عبود الشالجى المحامى دار صادر – بيروت ١٣٩١ – ١٣٩٣ هـ (١٩٧١ م – ١٩٧٣ م) .

التوحيدى – أبو حيان .

(٣١) كتاب الإمتاع والمؤانسة – تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين المكتب العصرى – بيروت – صيدا ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .

ابن تيمية – تقى الدين ٦٦١ هـ – ٧٢٨ هـ .

(٣٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام نشر قصى الدين الخطيب / المطبعة السلفية – القاهرة ١٣٨٧ هـ .

(٣٣) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية – دار الكتاب العربى بمصر ط ٤ / ١٩٦٩ م .

الجاحظ – أبو عثمان عمرو بن بحر ١٥٠ – ٢٢٥ هـ .

(٣٤) البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة ط ٤ / ١٩٤٨ م – ١٩٥٠ م .

(٣٥) كتاب الحيوان – تحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى – بيروت ط ٣ / ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م ...

الجمحى – محمد بن سلام ١٣٩ – ٢٣١ هـ .

(٣٦) طبقات فحول الشعراء – شرح محمود شاكر / دار المعارف – ذخائر العرب ١٩٧٦ م .

الجهشيارى – أبو عبد الله محمد بن عبدوس .

(٣٧) كتاب الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا ورفاقه مطبعة البابى الحلبى بمصر ط ١ / ١٣٥٧ هـ .

جواد على – الدكتور .

(٣٨) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١ – ج ٨ مطبعة الفيضى / بغداد –

والمجمع العلمى العراقى ١٣٦٩ هـ - ١٣٧٥ هـ / (١٩٥٠ م - ١٩٥٩ م) .

ابن الجوزى - أبو الفرج عبد الرحمن بن على البغدادى ٥١٠ - ٥٩٧ هـ - .

(٣٩) تلبيس إبليس - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٣٦٨ هـ .

ابن الجوزية - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر ٦٩١ - ٧٥١ ـــ .

(٤٠) أحكام أهل الذمة فى الإسلام - تحقيق صبحى الصالح / قدمه محمد حميد الله .

مطبعة جامعة دمشق - دمشق ط ١ / (١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م) .

ابن حجر العسقلانى - أبو الفضل أحمد بن على ت ٨٥٢ هـ .

(٤١) الإصابة فى تمييز الصحابة - طبع كلكوتا ١٣٤٥ هـ .

ابن أبى الحديد - أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنى ت ٦٥٥ هـ / ١٢٥٨ م .

(٤٢) شرح نهج البلاغة - تحقيق محمد أبو الفضل - طبع عيسى البابى الحلبى - القاهرة ١٩٥٩ م - ١٩٦٣ م .

ابن حزم - أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الأندلسى الظاهرى ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ .

(٤٣) جمهرة أنساب العرب - تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف ط ٣ / ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

(٤٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل مطبعة على صبيح بمصر ط ١٣٤٧/١ هـ .

حسن إبراهيم حسن - الدكتور .

(٤٥) تاريخ الإسلام - الجزء الأول - مكتبة النهضة المصرية ط ٧ / ١٩٦٤ م .

الحنبلى - مجير الدين .

(٤٦) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل – المطبعة الحيدرية النجف ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

الخضرى – الشيخ محمد .

(٤٧) تاريخ الأمم الإسلامية – المكتبة التجارية بمصر ط ٨ / ١٣٨٢ هـ .

الخربوطلى – الدكتور على حسني .

(٤٨) الرسول وأهل الذمة . مطابع شركة الإعلانات الشرقية – القاهرة .

(٤٩) الرسول فى المدينة – لجنة التعريف بالإسلام – مطابع الأهرام ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

(٥٠) العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود / القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

الخطيب البغدادى أبو بكر أحمد بن على ت ٤٠٢ هـ / ١٠٧١ م .

(٥١) تاريخ بغداد – تحقيق وطبع كرون مروجرافيز / دار الكتاب العربى – بيروت – مغفلة السنة .

ابن خلدون .

(٥٢) المقدمة – المكتبة التجارية الكبرى بمصر – مهملة السنة .

(٥٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر – تاريخ ابن خلدون . مطبعة بولاق بمصر ١٢٨٤ هـ .

ابن خلكان – أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر .

(٥٤) وفيات الأعيان – تحقيق إحسان عباس – دار الثقافة بيروت ١٩٧١ م .

الدارمى – أبو سعيد عثمان بن سعيد .

(٥٥) كتاب الرد على الجهمية – نشره غوست فيشتام – ليدن بريل – ١٩٦٠ م .

الدبس – يوسف المارونى .

(٥٦) الجامع المفصل فى تاريخ الموارنة – المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٥ م .

الدجيلى – عبد الصاحب .

(٥٧) الشعوبية – مطبعة القضاء – النجف ط ٢ / ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

دربان – المطران يوسف .

(٥٨) نبذة تاريخية فى أصل الطائفة المارونية – المطبعة العلمية – بيروت ط ٣ / ١٩١٩ م .
دروزة – محمد عزة .
(٥٩) تاريخ الجنس العربى – المطبعة العصرية – صيدا / لبنان ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
(٦٠) عصر النبى وبيئته قبل البعثة – دار اليقظة العربية / بيروت ط ٢ / ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .
الدورى – دكتور عبد العزيز .
(٦١) الجذور التاريخية للشعوبية – دار الطليعة – بيروت / ط ١ / ١٩٦٢ م . (صورته من الجامعة الأردنية) .
الدياربكرى – الشيخ حسين بن محمد بن الحسن ت ٩٦٦ هـ .
(٦٢) تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس – مؤسسة شعبان – بيروت .
الدينورى – أبو حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢ هـ .
(٦٣) الأخبار الطوال – تحقيق عبد المنعم عامر / دار إحياء الكتب العربية / القاهرة ط ١ / ١٩٦٠ م .
الذهبى – ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م .
(٦٤) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال / تحقيق على محمد البجاوى / دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٦٣ م .
(٦٥) العبر فى خبر من غبر تحقيق صلاح المنجد / مطبعة جامعة الكويت ١٩٦٠ م .
الرازى – فخر الدين ت ٦٠٦ هـ – ١٢٠٩ م .
(٦٦) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين – تحقيق على النشار / مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م .
الرازى – أبو حاتم أحمد بن حمدان ت ٣٢٢ هـ .
(٦٧) كتاب الزينة – القسم الثالث – تحقيق عبد الله سلام السامرائى
الرافعي – د . مصطفى .

(٦٨) حضارة العرب فى العصور الإسلامية الزاهرة – دار الكتاب اللبنانى ط ٢ / ١٩٦٨ م .

ابن رستة أبو على أحمد بن عمر .

(٦٩) كتاب الأعلاق النفيسة – طبع ليدن / بريل ١٨٩١ م .

الرسعنى – عبد الرازق من رجال القرن السابع عشر / مجهول الوفاة ..

(٧٠) مختصر الفرق بين الفرق / نشره فيليب حتى – مطبعة الهلال القاهرة ١٩٢٤ م .

ابن رشد – أبو الوليد محمد بن أحمد ٥٢٠ – ٥٩٥ هـ .

(٧١) فصل المقال – تعليق ألبير نصرى نادر / المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩٦١ م .

(٧٢) مناهج الأدلة فى عقائد الملة / تحقيق محمود قاسم الأنجلو المصرية / ط ٢ / ١٩٥٥ م .

أبو ريان – دكتور محمد .

(٧٣) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام – دار النهضة بيروت .

الريس – محمد ضياء الدين .

(٧٤) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية – دار المعارف بمصر ط ١٩٦٩/٣ م .

(٧٥) النظريات السياسية الإسلامية / مكتبة الأنجلو المصرية ط ٣ / ١٩٦٠ م .

(٧٦) فى تاريخ الدولة الأموية – مطبعة الرسالة ط ٢ / ١٩٦٤ – ١٩٦٥ م

الزبير بن بكار ١٧٢ – ٢٥٦ هـ .

(٧٧) جمهرة نسب قريش وأخبارها . تحقيق محمود شاكر / دار المعرفة – القاهرة ١٣٨١ هـ .

أبو زهرة – الشيخ محمد .

(٧٨) تاريخ المذاهب الإسلامية – دار الفكر العربى – مغفلة السنة .

زيدان – جورجى زيدان .

(٧٩) تاريخ التمدن الإسلامى - مراجعة حسين مؤنس - دار الهلال مغفلة السنة .
(٨٠) تاريخ العرب قبل الإسلام - دار الهلال ط ٢ / ١٩١٤ م .
السامرائى - عبد الله سلوم .
(٨١) الغلو والفرق الغالية فى الحضارة الإسلامية - دار الحرية - مطبعة الحكومة - بغداد ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
ساويرس بن المقفع .
(٨٢) سير الآباء البطارقة - مكتبة محافظة الاسكندرية رقم ٥٥٠٩ .
ابن سعد - محمد بن سعد كاتب الواقدى .
(٨٣) الطبقات الكبرى - تحقيق إدوارد سخاو ويوسف هورفيتش / تحقيق عونى عبد الرؤوف - مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر - القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
سعد - محمد حسن .
(٨٤) المهدية فى الإسلام منذ أقدم العصور حتى اليوم - دار الكتاب العربى بمصر ط ١ / ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .
سعيد بن البطريق (البطريق أفتيشيوس) .
(٨٥) كتاب التاريخ - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٥ م .
السمعانى - الإمام أبو سعيد عبد الكريم التميمى ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م ..
(٨٦) كتاب الأنساب صححه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المصلحى اليمانى مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد - الدكن الهند ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .
سوسه - د . أحمد .
(٨٧) العرب واليهود فى التاريخ - مؤسسة العربى - دمشق ط ٢ / ١٩٧٣ م .
ابن سينا - أبو على الحسين عبد الله بن الحسين بن على .
(٨٨) رسالة أضحوية فى أمر المعاد - تحقيق سليمان دنيا - مطبعة الاعتماد - القاهرة - ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
السيوطى . الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت عام ٩١١هـ.

(٨٩) تاريخ الخلفاء – تحقيق محمد محيى الدين – مطبعة السعادة / القاهرة ١٩٥٩ م .

(٩٠) أسباب النزول بهامش تفسير الجلالين مكتبة الملاح – دمشق ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

(٩١) حسن المحاضرة طبع القاهرة ١٣٢١ هـ .

الشابستى .

(٩٢) الديارات – تحقيق كوركيس حداد – مكتبة المثنى – مطبعة المعارف . بغداد – ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

الشرق – على .

(٩٣) العرب والعراق – شركة الطبع الأهلية بغداد ط ١ / ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

ابن شربة – عبيد .

(٩٤) أخبار اليمن – مطبعة حيدرآباد – الدكن – الهند / ١٣٤٧ هـ .

الشهرستانى .

(٩٥) الملل والنحل . بهامش الفصل فى الملل والنحل مطبعة على صبيح بمصر ط ١ / ١٣٤٧ هـ .

الشيبي د . كامل مصطفى .

(٩٦) الصلة بين التصوف والتشيع – مطبعة الزهراء – بغداد / ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

الصعيدى – الشيخ عبد المتعال .

(٩٧) السياسة الإسلامية فى عهد النبوة – دار الفكر العربى – القاهرة ط ٢ / ١٣٨١ هـ .

(٩٨) السياسة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين دار الفكر العربى / القاهرة .

الصنعانى – الحافظ أبو بكر عبد الرازق بن همام ١٤٦ – ٢١١ هـ .

(٩٩) المصنف – تحقيق عبد الرحمن الأعظمى – من منشورات المجلس العلمى

جوهانسبورج - كراتشى سملك - كجرات الهند ط ١ / ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

ضو - الخورى بطرس .

(١٠٠) تاريخ الطائفة المارونية - مراجعة عفيف بطرس مردج / ج ١ المطابع الأهلية اللبنانية - بيروت - ١٩٧١ م .

ابن طباطبا - محمد بن على المعروف بابن الطقطقى ت ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م .

(١٠١) الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية - دار بيروت - بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

الطبرى - أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م .

(١٠٢) تاريخ الأمم والملوك - عشرة أجزاء - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر - ط ٢ / ١٩٧١ م .

(١٠٣) تفسير الطبرى - طبعة المطبعة الأميرية - بولاق ١٣٢٣ هـ .

طلس . محمد أسعد .

(١٠٤) الخلفاء الراشدون - دار الأندلس بيروت ط ٢ / ١٩٦٩ م .

طه حسين (الدكتور) .

(١٠٥) الفتنة الكبرى - عثمان - دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م .

(١٠٦) على وبنوه - دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .

(١٠٧) من تاريخ الأدب العربى - المجلد الأول - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٠ م .

العاملى - السيد محسن الأمين .

(١٠٨) أعيان الشيعة - مطبعة الإنصاف - بيروت (١٩٦٠ - ١٩٧٣ م) والجزءان الأول والثانى طبع دمشق (١٩٣٠ - ١٩٣٦ م) .

العاملى - بهاء الدين ٩٥٣ - ١٠٣١ هـ .

(١٠٩) الكشكول - تحقيق طاهر أحمد الزاوى - طبع عيسى البابى الحلبى بمصر ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد .
(١١٠) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب – تحقيق على البجاوى – مكتبة نهضة مصر مغفلة السنة .
ابن عبد الحكم – أبو القاسم عبد الرحمن القرشى المصرى .
(١١١) كتاب فتوح مصر وأخبارها – طبع ليدن – بريل – مكتبة المثنى بغداد ١٩٢٠ م .
ابن عبد ربه – أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسى .
(١١٢) كتاب العقد الفريد – شرح أحمد أمين ورفاقه – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة .
٧ أجزاء ط ٢ و ط ٣ / ١٩٥٢ – ١٩٦٨ م .
ابن العبرى – سرجيوس أبو الفرج بن هارون الملطى .
(١١٣) تاريخ مختصر الدول – تحقيق الأب أنطون صالحانى اليسوعى / المطبعة الكاثوليكية بيروت – لبنان ط ١ / ١٨٩٠ م وطبع ط ٢ / ١٩٥٨ م .
عبد العال – محمد جابر .
(١١٤) حركات الشيعة المتطرفين – مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
عدوى – د . إبراهيم .
(١١٥) الأمويون والبيزنطيون – الدار القومية – القاهرة ط ٢ / ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .
ابن **عذارى المراكشى** .
(١١٦) كتاب البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب تحقيق جيم . س كولان واليفي برفنسال – دار الثقافة – بيروت ١٩٥٠ م .
ابن العربى – القاضى أبو بكر ٤٦٨ – ٥٤٣ هـ .
(١١٧) العواصم من القواصم – تحقيق محب الدين الخطيب / المطبعة السلفية بالقاهرة ط ٣ / ١٣٨٧ هـ .
عرفان عبد الحميد / دكتور .

(١١٨) دراسات فى الفرق والعقائد الإسلامية مطبعة الإرشاد / بغداد ١٩٦٧ م .

ابن عساكر .

(١١٩) تاريخ مدينة دمشق / تحقيق صلاح الدين المنجد / طبع المجمع العلمى العربى بدمشق / المجلد الأول - ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م .

عكوش - محمود .

(١٢٠) مصر فى عهد الإسلام - مطبعة دار الكتب المصرية / القاهرة ١٩٤١ م .

على مظهر .

(١٢١) العصبية عند العرب فى الجاهلية والإسلام - مطبعة مصر ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م .

عنان - محمد عبد الله .

(١٢٢) تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٥٤ م .

الغزالى - أبو حامد ت ٥٠٥ هـ .

(١٢٣) فضائح الباطنية نشر جولد زيهر بليدن ١٩١٦ م .

فاروق عمر .

(١٢٤) طبيعة الدعوة العباسية - دار الإرشاد بيروت ط ١ / ١٣٨٩ هـ .

أبو الفداء - إسماعيل بن على ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .

(١٢٥) المختصر فى أخبار البشر - المطبعة الحسينية - مصر - ط ١ / ١٣٢٥ هـ .

فروخ - عمر .

(١٢٦) تاريخ الفكر العربى - دار العلم للملايين - بيروت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

الفكيكى - عبد الهادى .

(١٢٧) الشعوبية والقومية العربية - دار الآداب - بيروت ١٩٦١ م .

فياض - د / عبد الله .

(١٢٨) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة - مطبعة أسعد - بغداد / ط ١ / ١٩٧٠ م .

الفيروزابادى - مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ .

(١٢٩) القاموس المحيط - طبع مصطفى البابى الحلبى - مصر القاهرة ط ٢ / ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

ابن **قتيبة الدينورى** - أبو محمد عبد الله بن مسلم ٢١٣ - ٢٧٦ هـ .

(١٣٠) المعارف - تحقيق د . ثروت عكاشة - دار المعارف بمصر ط ٢ / ١٩٦٠ م .

(١٣١) كتاب عيون الأخبار / مطبعة دار الكتب المصرية / القاهرة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م .

(١٣٢) الإمامة والسياسة (منسوب) البابى الحلبى - مصر - الطبعة الأخيرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

القرطبى - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى .

(١٣٣) الجامع لأحكام القرآن - دار الكتاب العربى - عن مطبعة دار الكتب المصرية ١٢٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

القسطلانى .

(١٣٤) المواهب اللدنية وبهامشه زاد المعاد لابن القيم ، أوفست دار المعرفة - بيروت ط ٢ / ١٩٧٣ م / ١٣٩٣ هـ ...

القطبى - الإمام قطب الدين الحنفى ت ٩٨٨ هـ .

(١٣٥) تاريخ القطبى - قدم له محمد أمين - المكتبة العلمية بمكة - مغفلة السنة .

القلقشندى - أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢٧ هـ / ١٤١٨ م .

(١٣٦) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (١٤ جزءا) دار الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية للطباعة / مطابع كونستانيوس / من نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

القمى - سعد بن عبد الله الأشعرى ت ٣٠١ هـ / ٩١٣ م .

(١٣٧) كتاب المقالات والفرق - تحقيق محمد جواد مشكور / مطبعة صيدى - طهران - ١٩٦٣ م .

كاشف الغطاء - محمد الحسين .

(١٣٨) أصل الشيعة وأصولها ط ١٠ / المطبعة العربية / القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

ابن كثير / الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى .

(١٣٩) البداية والنهاية - دار الفكر - مكتبة المعارف / بيروت ط ١ / ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

(١٤٠) تفسير القرآن العظيم - طبع البابى الحلبى - مغفلة السنة .

كرد - محمد .

(١٤١) خطط الشام - مطبعة الترق بدمشق ١٣٤٦ هـ / ١٩٣٧ م .

الكلينى - أبو جعفر محمد بن يعقوب ت بغداد ٣٢٨ هـ .

(١٤٢) الكافى - طبع طهران ١٢٨١ هـ

الكندى - أبو عمر محمد بن يوسف المصرى .

(١٤٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة - تحقيق رفن كست / طبع مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٨ م ..

ماجد . د . عبد المنعم .

(١٤٤) تاريخ الدولة العربية - مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢ / ١٩٦٠ م .

مارى بن سليمان .

(١٤٥) أخبار فطاركة كرسى المشرق - من كتاب المجدل - طبع رومية ١٨٩١ م .

الماوردى - أبو الحسن علي بن محمد البصري .

(١٤٦) الأحكام السلطانية والولايات الدينية - مكتبة مصطفى البابى الحلبى بمصر ط ٢ / ١٩٦٦ م .

المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ .

(١٤٧) الكامل فى اللغة والأدب - تحقيق محمد أبو الفضل وزميله / مكتبة نهضة مصر .

القاهرة - مطبعة الاستقامة ١٣٦٥ هـ .

أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ت ٨١٣ – ٨٧٤ هـ .

(١٤٨) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – مصورة عن طبعة دار الكتب – المؤسسة المصرية للتأليف والطباعة والنشر / قدم له د . محمد عبد القادر حاتم – القاهرة . ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

المحامى – محمود كامل .

(١٤٩) الدولة العربية الكبرى – دار المعارف بمصر ط ٢ (مهملة السنة) .

محفوظ – حسين على .

(١٥٠) تاريخ الشيعة – مطبعة النجاح – بغداد ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .

محمد عبده – الشيخ .

(١٥١) رسالة التوحيد – مكتبة الثقافة العربية .

محمود إسماعيل .

(١٥٢) الحركات السرية فى الإسلام دار القلم – بيروت / ط ١ / ١٩٧٣ م .

أبو مخنف – لوط بن يحيى بن سعد الأزدى .

(١٥٣) مقتل الحسين بن على – تحقيق محمد الشيرازى / طبع بومباى ١٣٦١ هـ .

ابن المرتضى – أحمد بن على .

(١٥٤) طبقات المعتزلة – تحقيق سوسنة ريسفيلد فلزر / المطبعة الكاثوليكية – بيروت / ١٩٦١ م .

المروزى – أبو على .

(١٥٥) الأزمنة والأمكنة – حيدرآباد – الدكن ط ٢ / ١٣٣٢ هـ .

المسعودى – أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦ هـ .

(١٥٦) أخبار الزمان – مطبعة عبد الحميد – ط ١ / ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

(١٥٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر / دار الأندلس – بيروت ط ١ / ١٩٦٥ م / ١٣٨٥ هـ .

(١٥٨) التنبيه والإشراف – دار التراث – بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
مسلم – الإمام أبو الحسن النيسابورى ت ٢٦١ هـ .
(١٥٩) الجامع الصحيح – كتاب التحرير – القاهرة ١٣٨٤ هـ .
المقدسي – مطهر بن طاهر .
(١٦٠) البدء والتاريخ – منسوب – وهو للبلخى أبو زيد أحمد بن سهل – طبع فى مدينة شالون – بمطبعة برطرند ١٩١٩ م .
المقريزى – تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م .
(١٦١) النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم – النجف ١٣٦٨ هـ .
(١٦٢) إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحضرة والمتاع تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤١ م .
(١٦٣) كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية طبعة جديدة بالأوفست .
ابن منظور / جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ٦٣٠ – ٧١١ هـ .
(١٦٤) لسان العرب – طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، الدار العربية للتأليف والترجمة والنشر (٢٠ جزءا) .
المنقرى – نصر بن مزاحم ت ٢١٢ هـ .
(١٦٥) وقعة صفين – تحقيق عبد السلام هارون – طبع عيسى البابى الحلبى – القاهرة ط ١ / ١٣٦٥ هـ .
مؤنس د . حسين .
(١٦٦) فجر الأندلس – الشركة العربية للطباعة – القاهرة ط ١ / ١٩٥٩ م .
الميدانى – أبو الفضل محمد النيسابورى .
(١٦٧) مجمع الأمثال – مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١ م .
الناصرى – الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد .
(١٦٨) كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب والأقصى – تحقيق ولديه جعفر ومحمد / دار الكتاب – الدار البيضاء ١٩٦٤ م .
ابن نباتة – جمال الدين محمد بن حسن ٦٨٦ – ٧٦٨ هـ .

(١٦٩) سرح العيون – مكتبة مصطفى البابى الحلبى القاهرة ١٩٥٧ م .
النجار – عبد الوهاب .
(١٧٠) الخلفاء الراشدون ط ٢ / ١٩٦٠ م .
النجار د . محمد الطيب .
(١٧١) الموالى فى العصر الأموى – مذيل ببحث عن الرق والولاء فى الإسلام ، مطابع سجل العرب – القاهرة ط ١ / ١٩٤٩ م .
ابن النديم .
(١٧٢) الفهرست – مطبعة الاستقامة – القاهرة – مغفلة السنة .
النشار – د . على سامى .
(١٧٣) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٤ م .
أبو النصر – عمر .
(١٧٤) عبد الملك بن مروان – المكتبة الأهلية بيروت ط ١ / ١٩٦٢ م .
(١٧٥) سيوف أمية فى الحرب والإدارة – المكتبة الأهلية بيروت – ١٩٦٣ م .
النوبختى – أبو محمد الحسن بن موسى .
(١٧٦) كتاب فرق الشيعة – تحقيق هـ (هياميت) ريتر / استانبول مطبعة الدولة بجمعية المستشرقين الألمانية ١٩٣١ م .
النويرى ٦٧٧ – ٧٣٣ هـ .
(١٧٧) نهاية الأرب نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب – المؤسسة المصرية العامة مطابع كوستانوماس وشركاه – القاهرة .
ابن هشام – أبو محمد عبد الملك .
(١٧٨) سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – كتاب التحرير – القاهرة ١٣٨٤ هـ .
الهيثمى – أحمد بن حجر .
(١٧٩) الصواعق المحرقة على الجهمية والمعطلة تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف – القاهرة ١٣٢٥ هـ .
هيكل – محمد حسين .

(١٨٠) حياة محمد ، مكتبة النهضة المصرية ط ١٣ / ١٩٦٨ م .
الواقدى : محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧ هـ .
(١٨١) المغازى - تحقيق مارسدن مونس - مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦ م .
ابن الوردى - الشيخ زين الدين عمر .
(١٨٢) تاريخ ابن الوردى - طبع فى عهد الخديوى إسماعيل .
الوردى - على .
(١٨٣) دراسة فى طبيعة المجتمع العراقى - مطبعة العانى / بغداد ١٩٦٥ م .
ولفنستون - إسرائيل .
(١٨٤) تاريخ اليهود فى بلاد العرب - مطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م .
ياقوت - الشيخ شهاب الدين عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م .
(١٨٥) كتاب معجم البلدان - نشر فستفلد ليبزج ١٨٦٦ .
(١٨٦) معجم الأدباء - تحقيق مرجيليوث .
عيسى البابى الحلبى - مصر - الطبعة الأخيرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .
يحيى بن آدم القرشى .
(١٨٧) الخراج - تحقيق أحمد محمد شاكر - المطبعة السلفية ١٣٤٧ هـ .
اليعقوبى - أحمد بن أبى يعقوب الكاتب العباسى ت ٢٨٤ هـ .
(١٨٨) تاريخ اليعقوبى - دار صادر وبيروت - بيروت ١٩٦٠ م .
(١٨٩) كتاب البلدان - المجلد السابع من كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة - طبعة دى خويه - لايدن ١٨٩٢ م .
أبو يوسف - يعقوب بن إبراهيم ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧ - ٨٠٨ م .
(١٩٠) كتاب الخراج - المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ .

* * *

ب - المخطوطـــات

(١) **أحمد بن حنبل الشيبانى :**

الرد على الزنادقة والجهمية فى الفرق الإسلامية مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية . رقم الشريط ١٧٥ .

صور عن جامعة برنستون رقم ٢٦٢١ . مجموعة جاريت .

(٢) **البلاذرى ت سنة ٢٧٩ هـ :**

أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود المعروف بالبلاذرى البغدادى . أنساب الأشراف وأخبارهم . نسخة فى اثنى عشر مجلداً مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة عاشر أفندى بالآستانة (١١٠٣) .

الجزء الحادى عشر من نسخة أخرى تاريخ (١١٦٣) (٢٦٣٥ ، ٢٩٤٢) .

(٣) **البيّاسي ت ٦٥٤ هـ :**

يوسف بن محمد الأنصارى البيّاسي . الإعلان بالحروب الواقعة فى صدر الإسلام . مخطوطة بدار الكتب المصرية . وبمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .

(٤) **ابن الجوزى ت سنه ٥٩٧ هـ :**

مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . من مخطوطات دار الكتب .

(٥) **ابن الحائك :**

الإكليل فى أنساب حمير وأيام ملوكها مخطوطة بدار الكتب رقم ٩٤٤٤ .

(٦) **ابن حبيب - محمد :**

أسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام .

مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٩٤٨ .

(٧) **ابن أبى دينار :**

أبو عبد الله محمد بن القاسم المعروف بابن أبى دينار القيروانى المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس . مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية . شريط رقم ٣٥٧ صور من المغرب – الخزانة العامة الرباط ١١٤٤ د . عدد الورق ١٨٦ ورقة .

(٨) **ابن الشحنة – زين محمد بن محمد :**

رسالة فى المهدى – وهى خاتمة تاريخ العلامة ابن الشحنة عدد الورق ٨ ورقات رقم الشريط ٢٠ صور من جامعة بيل رقم ١٤٤ مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية .

(٩) **ابن عبد البر ت سنة ٤٦٢ هـ ١٠٧١ م :**

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النصرى كتاب القصد والأمم فى أصول أنساب العرب والعجم ومن أول من تكلم بالعربية من الأمم . مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية عدد الورق ٢١ غير مرقمة . رقم الشريط ٣٧٥ صور من المغرب – الخزانة العامة – الرباط ١٤٣٧ .

(١٠) **أبو عبد الله – عبد الله بن محمد :**

قرة العين فى أخذ ثأر الحسين . نسخة ضمن مجموعة رقم (٥١٠) بدار الكتب المصرية .

(١١) **العينى :**

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . الجزء العاشر والحادى عشر ، دار المخطوطات – القاهرة تاريخ (١٥٨٤) .

(١٢) **الكتبى ت سنة ٧٦٤ هـ :**

عيون التواريخ – الجزء الخامس من ٧١ – ١٠٨ هـ .
مخطوطة بدار الكتب المصرية تاريخ رقم (٧٤٦) .

(١٣) **مجهول** – أخبار الدول « أخبار الزمان فى تاريخ بنى العباس الدولة العباسية حتى سنه ٥٧٥ هـ . مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية عدد الورق ١٦٦ ورقة / رقم الشريط ٣٠٢ / صور من المتحف البريطانى رقم ٤٩٠٣ .

(١٤) **مجهول** : أخبار العباس وفضائله ومناقبه . مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية . عدد الورق ٢٠١ ورقة رقم الشريط ٢٩٧ / صور من مكتبة المجمع العلمى العراق وهى صورته من مكتبة الأوقاف العامة بغداد تحت رقم (١٠٢٠٤) .

(١٥) **مجهول** : تاريخ دول الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية – دار الكتب المصرية ضمن مخطوطة (١٠٣٣) .

(١٦) **مجهول** – رسالة فى سبب إسلام الصحابى الجليل كعب الأحبار ضمن مجموعة فى مجلد مخطوط بقلم معتاد بخط خليل بن على .
دار الكتب (للمخطوطات) (١٤١ مجاميع) .

(١٧) **مجهول** – سيرة يوحنا الدمشقى . مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية . مجموعة دير سانت كاترين . صور من جامعة الكونجرس .

(١٨) **مجهول** : عهد الرسول (ﷺ) إلى النصارى . مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية مجموعة دير سانت كاترين . صور من جامعة الكونجرس .

(١٩) **مجهول** : كتاب أنساب العرب (غير تام) مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية رقم ٢٦٢٨ بتاريخ ٢٣ / ٦ / ١٩٧٦ .

(٢٠) **مجهول** : كتاب فى التراجم : نسخة فى مجلد مخطوطة بقلم معتاد وبخط قديم . دار الكتب رقم (٢٣٣٥) .

(٢١) **المروزى ت سنة ٢٢٩ هـ – ٨٤٤ م :**
أبو عبد الله نعيم بن حماد المروزى . كتاب الفتن مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية عدد الورق ٢٠١ ورقة رقم الشريط ٣٠١ صور عن المتحف البريطانى رقم ٤١٤٠ كتبه سنة ٧٠٦ هـ .
(محمد بن محمد بن على الصرفى الأنصارى) .

(٢٢) مصطفى بن محمد القاضى بالمدينة المنورة :

رسالة فى قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر .... ﴾ مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية عدد الورق ٦ ورقات من ٢ – ٨ رقم الشريط ١٩٦ .

(٢٣) المقريزى ت سنة ٨٤٥ هـ :

تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد المقريزى الشافعى . المقفى فى تراجم أهل مصر والواردين عليها . صورة فرتوغرافية لمجلدين بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تاريخ (٥١٠) ووجدت مجلد (٤) من المقفى للمقريزى بعنوان طبقات مطرزى مجلد ٣ بدار الكتب تاريخ ٥٣٧٢ .

(٢٤) كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية . رقم الشريط (٧) من ص (٦٣ – ١٠٨) صورة عن مخطوطة بيل مجموعة لاندبيرغ رقم ١١١ .

* * *

حـ - الموسوعات الحديثـــة

(١) دائرة المعارف الإسلامية (المترجمة) ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرون مجلد ١٣ طهران .

(٢) Ency - of Islam New Edition Leiden 1960

* * *

د - الكتب الأجنبية المترجمة

(١) الكتاب المقدس .

(٢) العهد الجديد .

أرنولد سير توماس - و - أ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه ط ٣ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠ م .

أمير على - سيد .

(٤) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى - ترجمة عفيف البعلبكى دار العلم للملايين ط ١ بيروت ١٩٦١ م ط ٢ / ١٩٦٧ م .

بارتولد .

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية ترجمة حمزة طاهر مطبعة المعارف القاهرة ١٩٤٢ م .

بتلر .

(٦) فتح العرب لمصر عربه فريد أبو حديد ط ٢ القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

بروكلمان - كارل .

(٧) تاريخ الشعوب الإسلامية تعريب نبيه أمين فارس وزميله ط ٣ دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٠ م .

بولس - جواد .

(٨) تاريخ لبنان - عربه جورج حاج دار النهار بيروت لبنان ١٩٧٢ م .

ترتون (أ . س) .

(٩) أهل الذمة فى الإسلام .

ترجمة حسن حبشى دار الفكر العربى مطبعة الاعتماد ١٩٤٩ م .

التونسى - محمد خليفة .

(١٠) الخطر اليهودى بروتوكلات حكماء صهيون ط ٤ دار الكتاب العربى بيروت ١٩٦١ م .

جب – هملتون .

(١١) دراسات فى حضارة الإسلام ترجمة إحسان عباس ورفيقيه دار العلم للملايين بيروت ط ١ / ١٩٦٤ م ط ٢ / ١٩٧٤ م ..

جرجس الماردينى الأب .

(١٢) مختصر علم اللاهوت / أربعة أجزاء مترجم عن الألمانية إلى العربية منشورات المطبعة الكاثوليكية – بيروت .

(فليطبع – حلب فى ٢٥ أيار ١٩٦٥ م – الحقير فرنسيس أيوب – رئيس أساقفة حلب – المدير الرسولى للاذقية) .

جوزى بندلى .

(١٣) تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ج ١ طبع مطبعة بيت المقدس ١٩٢٦ م .

جولدتسيهر – أجنس .

(١٤) العقيدة والشريعة ترجمة د . محمد يوسف موسى ورفاقه ط ٢ دار الكتب الحديثة بمصر مكتبة المثنى ببغداد – مطابع دار الكتاب العربى بمصر ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م ...

حتى – فيليب .

(١٥) تاريخ العرب المطول ط ٣ دار الكشاف للنشر والطباعة ١٨٦١ م .

(١٦) تاريخ لبنان ترجمة أنيس فريحة ط ٣ دار الثقافة بيروت ١٩٧٢ م .

(١٧) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة جورج حداد وزميله ط ٢ دار الثقافة بيروت ١٩٥٢ م .

دونلدسون – أدوايت – م .

(١٨) عقيدة الشيعة تعريب ع م أ (هكذا) مكتبة الخانجى ومطبعتها .

ديورانت – ول .

(١٩) قصة الحضارة مجلد ٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥٠ م .

ديمومين .

(٢٠) النظم الإسلامية ترجمة فيصل السامر ورفيقه بغداد ١٩٥٢ م .

فازيليف .

(٢١) العرب والروم ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ، دار الفكر العربى القاهرة (مغفلة السنة) .

فان فلوتن .

(٢٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ترجمة د / حسن إبراهيم حسن ورفاقه ط ٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٥ م

فلهوزن – يوليوس .

(٢٣) أحزاب المعارضة السياسية والدينية فى صدر الإسلام ترجمة عبد الرحمن بدوى مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٨ م .

(٢٤) تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام – إلى نهاية الدولة الأموية ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ط ٢ ١٩٦٨ م .

لوبون – جوستاف أ . فون جرونيباوم / .

(٢٥) حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق بإشراف إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم بمصر ١٩١٩ م ..

لوثروب ستودارد الأمريكى .

(٢٦) حاضر العالم الإسلامى تعريب عجاج نويهض تعليق الأمير شكيب أرسلان ط ٢ دار الفكر ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م .

(٢٧) **ماجد فخرى** تاريخ الفلسفة الإسلامية (بالإنجليزية) تعريب د / كمال اليازجى الدار المتحدة للنشر ١٩٧٤ م .

نيكلسون .

(٢٨) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ترجمة أبو العلا عفيفى طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ م .

يوحنا لورنس موسهيم .

(٢٩) تاريخ الكنيسة المسيحية ترجمة ميخائيل عرمان – المطبعة الأمريكية بيروت ١٨٧٥ م .

* * *

هـ - المراجع الإنجليزيـــة :

(1). **Arnold** . Sir Thomas W .

The Caliphate oxford 1924

(2). **Brockelman** . (CARL)

History of the Islamic peoples

New York 1947

(3). **Browne** . B . C

A Literary H . story of Persia, Cambridge 1930

(4). **Donaldson** D . M.

The Sheie'te Religion London 1933

(5). **Fisher** . T . Unwin

A Literary History of the Arabs London 1970

(6). **Gibb** . H.A. R (Hamilton Alexender Rasskeen)

Mohammedanism in Historical Survey

2nd , ed . London , OxFord 1957

(7). Studies of the Civilization of Islam London 1963

(8). Arabic Literature London, OxFord 1926

(9). The Arabic Conquestes in Central Asia london 1923

(10). **Glubb** , Sir John Baqut

The Great Arab Conquest, Newgersy Ed, 1964

Hittl Philipp

(11). History of the Arabs London 1937

(12). History of Syria Lyria London 1951

Josef Horevitz

(13). Islamic Culture Voh III NO2 1929

« Judoe - Arabic Relitions in Pre Islamic Times »

(14). **Khuda** - Bukhsh

Islamic Civilization 1930

(15). **Koelle**

Mohammed and Mohammedanism London 1889

(16). **Lewis** (Bernard)

The Arabs in History London 1950

Margoliouth

(17). Mohamed and the Rise of Islam London 1905

(18). The Relations « between Arabs and Israelites Prior to the

Rise of Islam London 1924

(19). **Muir**

The Caliphate its rise , decline , and Fall » Edinbrugh 1924

(20).The Life of Mohammad 1912

(21). **Nichlosn** . R . A .

A Literary History of the Arabs Cambridge 1955

(22). **O'leary** (De Lacy)

Arabia before Muhammed London 1927

(23). **Watt** . Mohammed At Mecca OxFord 1972

(24). Mohammed At Medina OxFord 1950

(25). **Wellhausen** . J .

The Arab Kingdom, and It's Full, Calcutta . 1927 .

* * *

الفهــارس

أولًا : فهرس أطراف الآيات القرآنية .

ثانيًا: الفهرس العام [الأعلام ، والأماكن ، والقبائل ، والفرق والأديان].

ثالثًا : فهرس المحتويات .

أولًا : فهرس أطراف الآيات القرآنية[1]

---

(١) كما وردت في البحث وإن لم يكن ذلك رأس آية .

ثانيا : الفهرس العام[1]

حرف الألف

---

(١) تشمل الأعلام ، والأماكن ، والأديان ، والفرق ، والقبائل .

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

ثالثًا : فهرس المحتويات

والحمد لله أولًا وآخرًا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

رقم الإيداع ٨٧٤٠ / ١٩٨٩

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر – المهندسين – جيزة

☎ ٣٤٥٢٥٧٩ – فاكس ٣٤٥١٧٥٦

المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل

أرض اللواء – ☎ ٣٤٥٢٩٦٣

ص . ب ٦٣ إمبابة